رواية
مُستنقع الغدر
نوران أشرف
NO MORE Mosques
MARHABA
ARIF MASOOD - MLA,

المقدمة

))إيمان((

هيا، قفي على قدميكِ، تحركي ... لا تدعي الحياة تنتصر عليكِ بتلك المعركة...

كلماتٌ تتردد بأذني بأصواتٍ تتبادل ما بين صوت والدتي الداعمة الأولى لي، ووالدي الذي علِمت في تلك اللحظة أنه لم يكن مُخطئًا بقراراته، كان يجب أن استمع إليه من البداية، كان يجب ألا أنساق وراء أوهامٍ اعتقدت أنها ستتحقق وسأنعم بنعيمٍ يكاد يُضاهي نعيم الجِنة، لكنني أدركت الآن أن جنة الأرض لا وجود لها، لا وجود للراحة في تلك الحياة.

وها أنا الآن، اسمع أصوات الصُراخ من حولي، أصواتٌ تحثني على الوثوب والهرولة من الطلقات النارية، أصواتٌ تُخبرني أن أتماسك من أجل صغيرتي، ومن بين تلك الأصوات، أجد دموعًا تنهمر على جسدي الساخن، جسدي الذي اختلط عرقه بدمائه، وأصبح كأشلاءٍ جُندي في معركة دامية النصر فيها حُلمًا بعيدًا.

صوٌت بكاء صغيرتي يتردد بأذني ويجعلني أقاوم أوجاعي واستند على الأرضية الصلبة حتى اعتدل في جلستي وأحاول الهرب، فأنا لا أفعل شيئًا بتلك الحياة سوى الهرب، سواءً كان من المطاردين، أو من ذاتي.

أخبرتني جدتي عن سكرات الموت من قبل، أخبرتني أن من تقترب نهايته يشعر بها قبل وفاته بساعاتٍ قليلة وربما أيام، فيُصيبه الخمول والرغبة بالنوم طوال الوقت وتنعدم شهيٌته ورغبته بالحياة، بل ويشعر بثقلٍ يجثم على صدره وأحيانًا يرى أطيافًا غير حقيقية.

وها أنا أقابل تلك اللحظة، لحظة الموت، أقابلها فجأة، بدون سكراتٍ أو إشارات، ربما بسبب تلقيي لتلك الرصاصة التي ثقبت معدتي، أو تلك الدماء التي خلقت بحورًا حولي، أو ربما باستسلامي للحياة وأزلامها.

لم أعد قادرة على التفكير، جسدي يزداد برودة، عرقي يزداد غزارة، وأصوات الصراخ والبُكاء تتلاشى من حولي.

تمردت دمعة شاردة على وجنتي وأنا استسلم لتلك الأوجاع وأعاود الالتصاق بالأرضية الصلبة، بدأت أفقد القُدرة على تحريك أعضائي، جاهدت حتى أرفع يدي المُدرجة بالدماء واتحسس طفلتي الصغيرة لكنني لم أفلح أبدًا، فكانت ذراعاي أشبه بفيلٍ يرفعه طفلٌ هزيلٌ بالرابعة من عُمره.

أنفاس مُتلاحقة أحاول التقاطها وأفشل، أصوات مكتومة أحاول إخراجها ولا استطيع، يزداد الثِقل في جسدي حتى بدأت الرؤية تتلاشى، تتلاشى وتتلاشى حتى سيطر السواد على العالم من حولي، باتت جروحي واهنة في تلك اللحظة، فأنا لم أعد أشعر بها، ولم أعد أشعر بما يحدث حولي، فقط آخر ما سمعته هو بُكاء صغيرتي المُستغيث وكأنها تلِح علي لأبقى معها.

آسفة يا صغيرتي، يبدو أنني لن أستطع مشاهدتكِ برداء الزفاف، سأشتاق إليكِ رغم أنني لم أبقى معكِ سوى أشهرٍ قليلة، ولا أعلم إن كُنا سنلتقي مُجددًا أم لا....

الجزء الأول

الفصل الأول (حياة الغُربة)

((إيمان))

15أكتوبر 2013 ليون : فرنسا

عندما كُنت بالحادية عشر من عُمري، اعتدتُ على سقاية الزهور والحرص على رعايتها جيدًا حتى تثمر ورودها وينتشر عبيرها الساحر، لكنني بالنهاية أجد زهراتي تذبل وتتلف أوراقها رغم حرصي الشديد على رعايتها.

ظننتُ أنني باعتنائي جيدًا بالأزهار وحرصي الشديد على نيلها سُبل الراحة، سيجعلها تعيش لمُدة أطوّل، لكنها تموت في كُل مرة، وفي يومٍ من الأيام، شاهدتُ زرعة جضراء وسط صحراء جرداء لا ماء فيها ولا هواء، والعجيب أن تلك النبتة خضراء ناضجة كما لو أنها تحُصل على المياه يوميًا، وقتها سألتُ والدتي عن كيفية تأقلمها على تلك الحياة الصعبة، وآجابتني هي بأكثر إجابة بقيت معي حتى هذه اللحظة، أخبرتني أن من يحيا في ظروفٍ قاسية، لا يعرف للموت طريقًا، ولا يسهل تحطيمه مهما فعلت.

لم يكن ينطبق الأمر على النباتات فقط، فجميع المخلوقات وُجدت حتى يتعلّم منها الإنسان، هكذا قال لي والدي وهو يُعطيني دروس الدين التي اعتدت عليها مُنذ نعومة أظافري.

فأنا طفلتهما الوحيدة التي أتت بعد عناءٍ ومشقة، اعتقدتُ أنني ساستحوٌذ على انتباههما وستضحى طلباتي مُجابة أيًا كانت، لكن الحقيقة أن والداي كانا لي كالمِرصد، يحسبان جميع خطواتي ويُعيقان حركتي دائمًا، لا طعام بعد العاشرة، لا عودة من الخارج بعد الثامنة ولا مبيت بالخارج ولا استيقاظٌ بعد مُنتصف الليل وغيرها من الأوامر والقوانين التي فُرضت علي حتى باتت جُزءًا من حياتي، جُزءًا أجبرت على الاعتياد عليه رغم رفضي لتلك التحكُمات.

كانت والدتي مُعلمة تاريخ بإحدى المدارس الخاصة، ووالدي أتم دراسته في الأزهر الشريف وأصبح يُعطي دروسًا بالفقه والشريعة والمدارس الإسلامية، زرع بداخلي

بزرة الإيمان وحِفظ القرآن وجميع المباديء الإسلامية، لم يُعق حريّتي بالكامل، حتى أنه سمح لي بدراسه الإخراج السينمائي كما أهوى، لكنه لم يكن راضيًا عن مجيئي إلى هنا.

عندما اجتزتُ الاختبار ووجدت فُرصة عملٍ جيدة بإحدى شركات إنتاج الأفلام الوثائقية، كان الرفض يلوح على والداي حتى بات حُلم السفر سرابًا، بقيت لأيامٍ طويلة ألح عليهما وأطلب من ابن خالتي المساعدة ولا شيء يُجدي نفعًا، رأسهما أشبه بالصخرة التي لا تؤثر بها أي من المعوقات أو التقلبات الجوية، حتى أن شجاراتنا ازدادت في تلك الأيام وبكيت لأيامٍ عديدة وأنا ألح عليهما حتى لا تفوتني تلك الفُرصة، ففرسنا من أكثر الدوّل تفوّقًا في المجال السينمائي، ولن أضيّع علي نفسي فُرصة العمل بأكبر شركات الانتاج بسبب خوفهما من ابتعادي عنهما.

وبعد العديد من الشِجارات التي انتهت بدخولي زوبعة من الاكتئاب وفُقدان أرطالًا من وزني وتدهوُّر صحتي، وافق والداي أخيرًا على سفري مع وعدِ لهما بأنني لن أمكث سوى بضع سنواتٍ تعادل الثلاثة أعوامٍ أو ربما أربعة، فقط لأكتسب بعض الخِبرة ومن ثم سأعود مُجددًا.

وها أنا الآن، أطرق على القلم بمللٍ وأنا داخل مكتبي الصغير الذي يبتعد عن مكاتب زُملائي، يظهر الملل والضيق على وجهي رغم محافظتي على ثباتي أمام الجميع، مُنذ آخر عملٍ لي وأنا لا أحظى بأية فُرصة، فقط أجلس على مكتبي وأقوم بأعمالٍ مملة كمراجعة إحدى السيناريوهات وتعديل أخطائها الإملائية !! من قال لهم أنني أتيت لأكون مُدققة لغوية ؟ ألا يكفي أن هذا المُدير السمِج وضعني بفريق الاعداد رغم أنني أكدت له مرارًا مهارتي بالإخراج ورغبتي بالعمل في ذاك المجال.

ولم يتوّقف الأمر عند هذا الحِد، بل جعلني اقتاد نِصف الراتب مُتحججًا بكوّني تحت التدريب حتى أثبت كفائتي، بالله عليكم، كيف أثبت كفائتي وأنا لا أفعل شيئًا ؟

-إيما ... السيد بييدرو يُريدكِ

أيقظتني زميلتي من شرودي بتلك الجُملة الباهتة كوجهها الأشبه بالتماثيل، جميع الفتيات هنا لا يفعلن شيئًا سوى وضع مُستحضرات التجميل والتحدث معي باستعلاءٍ

وتقزز، ربما هذا لأنني عربية، أو لأنني مُسلمة، لا أعرف ولا يُهمني من الأساس، ما يُهم الآن أن أذهب إلى ذاك الـ " بييدرو " حتى أتلقى أوامره لعله يُعطيني وظيفة تُغنيني عن التدقيق اللغوي وعن هذا الملل.

طرقتُ على الباب بضع طرقاتٍ قبل أن أدلف باستئذانٍ وأبقى في حالة من الصمت حتى وجدته يرفع رأسه نحوي ويطالعني بنظراته المُستحقرة واللامبالية أثناء قوله:

-ستعملين بفريق جابريِل .... وعليكي أن تبحثي عن معلومات تخُص حقوق الإنسان وتاريخه بفرنسا لأن هذا هو موضوع الفيلم الخاص بفريقه

لم يدع لي فُرصة للنقاش ولا حتى المجادلة، فهو يُعامل الجميع على أنهم آلاتٌ يُحركها متى يشاء ووقت ما يشاء، فما إن بصق تلك الكلمات حتى آشار لي بعينيه حتى أنصرف وأنفذ التعليمات، وكانت رغبتي بإلقاء ما تطوّله يدي على وجهه أكبر من رغبتي بتنفيذ تلك الأوامر، فمالي أنا بجمع المعلومات ؟ أنا أريد أن أعمل بالإخراج أيها الوضيع.

-لا تتأخري بالبحث عن المعلومات ... فهذا الفيلم سيُشارك بمهرجان " فيبادوك " ويجب أن نحتل المركز الأول

انبتت كلماته القليل من الأمل بداخلي، فهذه مرتي الأولى التي أعمل فيها على فيلمٍ سيتم عرضه بالمهرجان الدولي للأفلام الوثائقية، والذي يُعد أكبر مُلتقى لفرنسا لهذا النوع من الأفلام من جميع أنحاء العالم، ورغم أن اسمي لن يتم ذِكره سوى مرة واحدة بنهاية الفيلم وعلى الأحرى لن يقرأه أحد، إلى أنني اعتبر هذه خطوّتي الأولى لتحقيق أحلامي، أتمنى حقًا أن أضحى مسئولة عن العمل من الألف إلى الياء بالمرة القادمة.

تركتُ المكتب وشركة الانتاج وأنا على يقينٍ تامٍ من قُدرتي على العثور على معلوماتٍ جيدة يشيد بها جابريِل ويطلب من بييدرو أن أعمل معه بالعمل القادم، وربما أضحى مساعدته بالمرات المُقبلة، وربما أكوّن فريقي الخاص بي أيضًا.

فالأفلام الوثائقية ليست فقط مُجرد أفلامٍ للتسلية والامتاع مثل الافلام السينمائية، فهي أفلام واقعية هدفها تجسيد الحقيقة بصورة استعراضية تهدف لتوّصيل معلوماتٍ ورسائل، ولهذا اخترت هذا النوع من الأفلام، من ناحية أواجه انتقادات والدي الذي لم يُرد لابنته أن تنحضر للوسط الفني المليئ بالانحرافات، ومن ناحية أخرى، تضحى أفلامي ذات رسالة هادفة ومغذى حقيقي وواضح.

لفحتني برودة الطقس الطفيفة وأصوات الأشجار المُتلاطمة قبل أن تطيء قدامي تلك المكتبة القابعة بإحدى بقاع ليون تحديدًا بديكارت، وهي من أكبر المكتبات بتلك المنطقة الصغيرة، وهذا يعني أنني سأعثر على ما أريده من معلوماتٍ ووثائق بشكلٍ أسرع.

تحركت قدامي وسط الأرفف ومشطط عيناي جميع الكُتب مُتنهزة كوٌني كُنت أتعلم بالمدارس الفرنسية وأُتقن جيدًا هذه اللغة.

بقيت لساعاتٍ طويلة أبحث وأبحث عن أية وثيقة من وثائق حقوق الإنسان أو حتى تاريخه، لكن جميع محاولاتي باءت بالفشل، فكرتُ في الحصول على المعلومات مباشرة بواسطة مُحركات البحث، لكنني تذكرتُ كلمات مُديري وهو يؤكد لنا ألا نفعل ذلك ونبحث عن مصادر أصلية لأن ما يُكتب على المواقع الالكترونية ما هو سوى معلومات سطحية وأحيانًا خاطئة.

بعد بحثٍ دامٍ لساعتين متتاليتين، باتت قدماي أشبه بأعوادٍ خشبية على حافة الانكسار، وجسدي كُهلام رخوٍ على وشك السقوط ومعانقة الأرض، حتى أن معدتي بدأت تُصدر أصواتًا لتُنبئني بأنني يجب أن ألتهم شيئًا الآن، كل تلك العوامل جعلتني أطلق زفرة مطوّلة من جوفي زُخرت بعوالم الملل واليأس الشديد.

-هل أنتِ بحاجة للمساعدة ؟

أخرجتني تلك الجُملة من غُمرة يأسي لألتفت نحو هذا الصوت والمح رجلًا طويل القامة نسبيًا يملك بسمة ساحرة وعينانٍ زرقاوتان كالبحار، بشرته البيضاء الحليبية وغمازتيه اللطيفتين بل وجسده الرياضي الجذاب جعلني أتصلُّب مكاني وأشعر بالخُدر أمام جاذبيته وكأنني أشاهد بطلًا من أبطال الأفلام.

-سيدتي ... هل أنتِ بحاجة للمُساعدة ؟

آعاد سؤاله بطريقة مُهذبة أيقظتني من شرودي وذكرّتني بغض البصر كما أكد لي والدي، لا أعرف لمَ يتصبب العرق من جبيني وأنا أحني رأسي وأكاد أصدق أنني في حُلمٍ وأنا لا يوجد رجلٌ أمامي بهذه الجاذبية، والأغرب أنه يُحدثني ... يُحدثني أنا!!

-نـ...نعم ... أ.. أبحث عن معلومات تخُص حقوق الإنسان ... فأنا أعمل على فيلمٍ وثائقي

قُلتها بفرنسية مُتقطعة جاهدت معها حتى لا أفصح عن إعجابي به وبطريقته المُهذبة بالحديث، لا أعلم حتى كيف أخبرته عن وظيفتي بتلك السهولة، فدائمًا ما تقول لي عائلتي أنني سهلة المنال.

أتذكر أنني في يومٍ ما، أخبرتني سيدة عجوزة أنها تحتاج لهاتفي حُتى تُجري مكالمة مع ابنتها، وأنا أخرجتُ هاتفي فورًا وسمحت لها بإجراء المكالمة بمكانٍ بعيدٍ حتى لا أعركل خصوصيتها.

وحتى هذه اللحظة، لم استعد هاتفي مرة أخرى، اتسآل ما هذه المكالمة التي تستمر حتى هذه المُدة!!

على كُلٍ، وجدت هذا الفتى الجذاب يعبث بين الأرفف لفترة وجيزة حتى أخرج كتابًا بعنوان " الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان " وكتابًا آخر بعنوان " حقوق الإنسان والحقوق الإنسانية خلال العام الثالث بالثورة الفرنسية"

مدٌ هذين الكتابين أمامي بابتسامته الودودة التي يبست قدماي خاصة مع كلماته:

-تفضلي .... لن تجدي سوى هذين الكتابين .... أغلب الوثائق والكُتب التاريخية بباريس لكنني أستطيع المساعدة إذا أردتي... أنا أعرف الكثير من المعلومات

مددتُ يدي بترددٍ حتى التقط منه الكتابين واتفاجأ من عثوره على تلك الكُتب بهذه السهولة، فأنا لساعتين كاملتين أبحث بين الأرفف ولم أجد شيئًا، هذا الرجل ينطبق

عليه سِحر الوالدات، فعندما أفقد أي من ممتلاكتي ولا أعثر عليها رغم بحثي الطويل، تأتي والدتي وتعثر على ما أريده بسهولة، هذا ما فعله ذاك الرجل الآن.

-شكرًا لك

قُلتها باختصارٍ شديدٍ أردتُ معه تجاهل عرضه والرحيل قبل أن أغرق بوٌحل المعاصي، رغم أن طريقة حديثه مُهذبة لا يوجد بها من الوقاحة ما يجعلني أتشكك لأمره.

أومأ برأسه بهدوءٍ ربما كان ردًا صامتًا على شُكري له، حتى أنه لم يلِح على مساعدتي واستجاب لرغبتي الرافضة بكُل رضا، رضًا لم اعهده مُسبقًا.

لم أكن أريد الرحيل وشعرتُ أن هناك شيئًا ناقصًا، صحيح أن لدي كتابين، لكنهما لن يُغنيانني عن المعلومات التي أريدها، كما أنني لا اتحدث مع رجلٍ جذابٍ ومُهذبٍ هكذا كل يوم... تبًا، سيسحقني والدني إذا علِم ما أفكر به الآن.

-عفوًا...

التفتت مرة واحدة نحو هذا الرجل الذي ربما عاد إلى عمله وبدأ يُرتب الكُتب، لا أعرف حقًا متى تحوٌلت إلى رجلٍ آلي فقد السيطرة على تصرفاته، لكنني وجدت جسدي يقترب ليقف أمامه مباشرة استطلع عينيه الزرقاوتين وملامحه الجذابة وأنا أقول بترددٍ حاولت صبغه بالتهذيب:

-كيف أعثر على المزيد من المعلومات ؟

سألته بخجلٍ مُبطنٍ لأجده يعاود رسم بسمته الودودة وهو يُجيبني:

-يُمكنني مساعدتك .... أقمت العديد من الدراسات عن الحقوق الدولية ... وأمتلك العديد من وثائق حقوق الإنسان خاصة القديمة منها

ابتعد عني بضعة أمتارٍ وبدأ يُحرك يديه في الهواء وكأنه يشرح لي إحدى الدروس المنهجية، ولكن بطريقة مُتلهفة ودودة:

-أتعلمي ... بداية حقوق الإنسان كان عبارة عن مُجرد مسوّداتٍ رئيسية أعدٌها الجنرال لافييت مع صديقه المُقرب توماس جيفرسون، ثم تحوّلت إلى إعلانٍ رئيسيٍ بعد أعوامٍ من الثورة

حرٌك يده الأخرى واتسعت حدقتيه في حماسٍ وهو يواصل الشرح:

-في البداية، كانت الحقوق للرجال فقط، وكان الإعلان بيان رؤية وليس حقيقيًا، كما أن روح القانون العلماني يكمن في أسسه.... صحيح أن الثورة الفرنسية قدمت الحقوق لأكبر جزءٍ من السُكان، إلى أنه كان يوجد تمييزٌ بين أولئك الذين حصلوا على الحقوق السياسية بموجب الإعلان وأولئك الذين لم يحصلوا عليها.... وتم تسمية الذين حصلوا على تلك الحقوق بالـ " المواطنين النشطين " وهي تسمية تُمنح للرجال الفرنسيين البالغين من العُمر 25، وكانوا يدفعون ضرائب تُعادل ثلاثة أيام عمل ولا يُمكن تعريفهم كـخدم

توقف بُرهة عن الحديث ليلتقط أنفاسه أمام نظراتي المذهولة من لهفته بالحديث ومعرفته لتلك المعلومات.

-نشأت العديد من التوترات بين المواطنين النشطين والسلبيين طوال الثورة، وبرزت مسألة حقوق المرأة ... ولم يعترف الإعلان بالمرأة كمواطنة فاعلة حتى نُشر إعلان حقوق المرأة المواطنة على يد أوليمب دي غوج

أظن أن الحديث أرهقه في تلك اللحظة، أو ربما لديه من الأعمال ما سُتيعيقه من المواصلة، لهذا السبب رماني بنظرته المساعدة وهو يقول بأدب:

-يُمكنكِ أخذ رقمي حتى أرسل لكِ المزيد من المعلومات

انهى الحديث ببسمة هادئة حتى يتلقى ردٌي الذي كان يطغي عليه الصمت في البداية إلى أن وجدتني أبتسم له ابتسامة هادئة قٌلت بعدها:

-نـ..نعم ... أتمنى ذلك

اتسعت بسمته الجذابة وهو يُخرج هاتفه ويمد يده ليأخذ هاتفي ويدوِّن عليه الرقم الخاص به، ثم يستخدم هاتفي للاتصال بذاته حتى يستطيع توثيق الرقم الخاص بي.

هذه أول مرة لي أبادل أرقامي فيها مع أحد الرجال مُنذ جِئت إلى فرنسا، حسنًا، أنا لم أبادل رقمي مع أي أحد سواء كان رجلًا أم فتاة، لكنني لا أشعر أنه من الصائب أن أتبادل رقم هافتي مع رجلٍ غريبٍ آراه لأول مرة!!

على كُلٍ، انتهى الأمر، وتبادلنا أرقامنا من أجل تبادل المعلومات ليس إلا، فأنا لا أزال أتعامل معه برسمية، وهو يتعامل معي بأدبٍ شديد، لا أعرف إن كانت هذه طبيعته أم أن حقيقته ستظهر ما إن تتشعب علاقتنا.

أعطاني الهاتف بعد أن دوِّن أرقامه وأنهى حديثه بقوله:

-تشرفت بمعرفتِك سيدة...

توقف عن الحديث حتى أخبره عن اسمي لأجدني أجيبه بُسرعة:

-إيمان ... اسمي إيمان ... وينادونني إيما

أومأ رأسه دون أن يمدٌ يده لمصافحتي كما يفعل جميع الرجال هنا، وجدته يرميني ببسمة بسيطة قال معها مُعرفًا ذاته:

-تشرفت بكِ سيدة إيما .... وأنا أدعى آدم ... أدم بن عرفة

اتسعت حدقتا عيناي في ذهولٍ وصدمة، طريقة حديثه، وأدبه الزائد ومحاولاته المُستميتة للتعامل معي برسمية، كان وراءها شيئًا واحدًا، ربما لأنني أرتدي الحِجاب، فقرر أن يتعرٌف علي ويُقبل على مساعدتي، وهذا ببساطة لأنه ... يعتنق الإسلام!!

____

عُدت إلى المنزل بجسدٍ أنهكته ضروب الحياة وعقلٍ أضحى مُشتتًا لا أعرف إن كان التشتت نابعًا من عدم تصديقي لهذا العمل الذي كُلفت به أم بسبب ذاك الوسيم الذي اعترض طريقي.

أعلم أنني يجب ألا أفكر به ولا أفكر بالحديث معه ومقابلته من وراء عائلتي، فليس لأنني في مكانٍ غريبٍ _تتعارض عاداته وتقاليده مع تقاليد مُجتمعنا_ يُمكنني أن أحادث الرجال وأقوم بإلغاء الحواجز بيننا!!

نفضت هذه الأفكار عن ذهني لأرتمي بثقلٍ على الأريكة وأنتشل كتابًا من الكتابين حتى أنغمس بقراءته وأقوم بتدوِّين أهم معلوماته، أول الصفحات كانت تحتوي على معلوماتٍ سطحية عن إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي كان وثيقة أساسية من وثائق الثورة الفرنسية التي أقرتها الجمعية التأسيسية الوطنية الفرنسية متُأثرة في ذلك بمبدأ الحق الطبيعي، علِمت فيما بعد أن هذا الإعلان كان مصدر إلهامٍ لإعلان الأمم المُتحدة العالمي لحقوق الإنسان بعد أن تم ترجمة تلك الوثيقة الفرنسية على يد الكولومبي أنطونيو نارينيو وحُكم عليه بالسجن لمدة عشرة أعوام لقيامه بذلك!!

قطع تركيزي وانغماسي بجمع المعلومات صوت تنة أصدرها هاتفي مُعلنًا عن ورود رسالة نصية، وكأي طالبٍ يُذاكر ليلة الإمتحان، أصبت بالتشتت جِراء تلك التنة ودفعني فضولي لفتح الجوال ومعرفة صاحب تلك الرسالة النصية، أو ربما كُنت أعرف وأنتظرها بفارغ الصبر.

ارتسمت بسمة واسعة على شفتاي وأنا أقرأ تلك الرسالة رغم أنها لم تكن رومانسية، كانت تحتوي على بعض المعلومات التي قد تخصني لكن ورودها على جوالي جعلني أتأكد أن ذاك المدعو بآدم لم ينسى وعده ولم ينساني!!

"لم يلغي الإعلان مؤسسة العبودية كما ضغطت عليها حركة " أصدقاء الأسود " التابعة لجاك بير بريسو ودافعت عنها مجموعة من المُزارعين الاستعماريين المسماة بـ " نادي ماسياك " ومع ذلك لعِبت دورًا خطابيًا مُهمًا بالثورة الهايتية"

هذا ما احتوّت عليه تلك الرسالة النصية التي ورغم كونها شديدة الرسمية إلى أنها جعلت الفراشات تتراقص داخل فؤادي، أتخيله أمامي الآن وهو يُغرقني بالمعلومات العديدة التي لديه ويسحرني بابتسامته الجذابة.

لم أشأ إنهاء الحديث بكلمة " شكرًا " وأردت أن يستمر الحوار بيننا لفترة وجيزة؛ لهذا السبب أمسكتُ الجوال وحاولتُ سؤاله بطريقة رسمية حتى لا يُخطيء الفهم:

"ما هي الثورة الهايتية ؟"

هكذا سألته باختصارٍ شديد، ليس لأنني أريد معرفة هذه الثورة_ فهي بالأساس لن تُفيدني بالبحث _ لكن لأنني أردتُ أن أتحدث معه أكثر، فبعد فترة وجيزة من الكتابة كانت رسالته كالآتي:

"الثورة الهايتية هي أول ثورة عبيد ناجحة في العالم الجديد بسان دومينج، حيث أسفرت هذه الثورة عن إلغاء العبودية في الُمستعمرات الفرنسية بموجب الإتفاق الذي هيمن عليه اليعاقبة (أعضاء أكبر نادي سياسي بالثورة الفرنسية) وآعاد نابليون تطبيق الإتفاقية عام 1802 وفي عام 1804 أصبحت مُستعمرة " سان دومينج " دولة مُستقلة أطلق عليها " جمهورية هايتي"

أنهى رسالته النصية وأنا أفكر فيما سأكتبه بعدها، وبعد فترة_ تكاد تجعله يُغلق هاتفه_ وجدتني أسأله بفضولٍ زائف:

"وماذا عن السجون الحكومية ؟ أليست هذه أيضًا سببًا من أسباب قيام الثورة الفرنسية وتفكيرهم بوثيقة حقوق الإنسان ؟

أتتني الرسالة بُسرعة هذه المرة:

"بالطبع .... كان لسجن الباستيل قبل اقتحامه الأيقوني سببًا من الأسباب التي دفعت للثورة الفرنسية، وقد اعتقل فيه الملك لويس السادس عشر"

كُنت أعلم أنه سيذكر اسم هذا الحِصن القديم الذي استخدم كزنزانة حكومية، فأنا قد قرأت عنه الكثير قبل تدويني لتلك الرسالة، لكنني مع ذلك تظاهرتُ بالجهل وأنا أكتب:

"هل بقي هذا السِجن أم أنه أضحى رُكامًا ؟"

"لم يبقى منه سوى الرُكام ... والذي استخدم فيما بعد كمزارٍ سياحي... أما عن البُقعة التي تم بناء الحصن بها، تُستخدم الآن للقيام بالحفلات والمناسبات الوطنية "

طغى اليأس على أصابعي وأنا أفكر في إنهاء الحوار بيننا إلى هنا، فما بين شعوري بالرغبة في الحديث معه، هناك شعورٌ آخرٌ يدفعني للابتعاد قبل أن أغرق في وحلٍ من الندم فيما بعد.

هذا الشعور تبدد بعد ثوانٍ قليلة أتتني فيها رسالته التي كانت:

"ما رأيك برحلة إلى باريس ... لنشاهد هذا السِجن .... يمكنني إخبارِك كيف تم اقتحامه"

أنهى كلماته برمزٍ تعبيري يحمل بسمة ودودة لكننا في العالم العربي نستخدم هذا الرمز التعبيري لاستفزاز الخصوم.

على كُلٍ، كان عرضه بمثابة مياهٍ باردة ألقيت علي في تلك الشتوية قارصة البرودة، ورغم ارتجافة أطرافي وترددي المبالغ به، وجدتني أرد عليه دون تفكير:

-حسنًا ... موافقة...

16أكتوبر 2013 باريس : فرنسا

لم يُكذب وعده كما يفعل مُنذ قابلته، فها أنا الآن، أقف أمام بُرج إيفل أنتظر قدومه بعد رفضي لاستقلال سيارته وإصراري على ارتداد الحافلة العمومية ومن ثُم سيارة الأجرة حتى آتي إلى هنا، لم يكن الطريق طويلًا بين ليون وباريس، فأنا بالأساس آتي إلى باريس من أجل حضور بعض المهرجانات الخاصة بالأفلام الوثائقية، كما أن العاصمة، هي أكثر المناطق مُعتجة بالسُكان والبُقع التاريخية.

ظهر أمامي بُسترته البيضاء وكنزته السوداء الجلدية مع بنطاله الأسود الذي زاد من جاذبيته، خاصة خُصلاته البُنية الناعمة التي تزداد جاذبية وهو يُمرر أصابعه بداخلهم.

لم يمد يده للمصافحة واكتفى بابتسامة ودودة مُرحبة وسؤاله عن حالي وكيف كان الطريق بالنسبة لي، وبعد القليل من الأحاديث، آشار إلي لأتبعه حتى استقلينا سيارة الأجرة ذات اللون الأسود ليست كسيارات الأجرة بمِصر.

دام الطريق لنصف ساعة بسبب زحمة الطريق التي أوصلتنا إلى بقايا سجن الباستيل بعد الثانية عشر ظُهرًا، تجوّلنا وسط الحشائش الخضراء ونسمات الهواء العليلة حتى توُقفنا في بُقعة هادئة وأمامنا جِدارٌ عريضٌ يبدو عليه القِدم وبعض البُقع الداكنة بفعل الأتربة والأوساخ.

تلفتُّ حوّلي لأدرك أننا في مكانٍ خالٍ من السُكان، يبدو أن الفرنسيون لا يُحبون زيارة هذه الزنزانة التي تُذكرهم بالمآسي.

تحسس آدم الجِدار بيديه قبل أن يلتفت إلي متفوّهًا:

-تجمّع 900 باريسي خارج هذا الحِصن في صباح أحد الأيام بهدف مُصادرة البارود والمدافع .... رفض دي لوناي الاستسلام وسمح لأحد مندوبيه بالصعود إلى ذاك الحشد وتأكيد إجراء عدم الاستسلام...

تحرّك بقدميه بضعة أمتارٍ وتحرّكت وراءه لأرى عيناه مصوّبتان لبُقعة نائية رفع معها إصبعه وهو يُشير عليها ويواصل الحديث:

-بعد نصف ساعة من مغادرة المندوب، تسلق رجلان الجِدار الخارجي للسجن وقطعا سلاسل أحد الجسور المُتحركة مما تسبب في انهيار الجسر وسحق رجلًا من العاملين بالدولة...

رفع يده الأخرى وبدأ بتمثيل تلك المعركة بيديه وهو يواصل الحديث:

-اندفع بعدها الحشود إلى الفِناء الداخلي للقلعة وبدأ الجنود المذعورين بإطلاق النار حتى استدرجهم الحشود داخل الفناء الداخلي لجعلهم أهدافًا سهلة...

التفت ليواجهني وهو يُنهي سرد الحكاية بحماسٍ جعلني أعتقد أن جده كان فردًا بهذه الثورة:

-ردٌ أولئك الذين يملكون الأسلحة في الحشد بإطلاق النار ... ومن ثم بدأت المعركة

كان الصمت يلوح على وجههي، لا أعلم إن كُنت أفكر في حديثه أو في ابتسامته الساحرة، فقط أنظر إليه في تبلمٍ أحمقٍ قررت إنهاءه بلكنة مُعجبة:

-هذا عظيم .... لم أكن أعرف أن لتلك الثورة مردودٍ كبير في العالم

اقترب خطوة واحدة نحوي كانت كفيلة ببث شُعاع من التوتر لسائر أنحاء جسدي خاصة مع كلماته:

-أي صغيرة تحدث بهذا العالم ... يبقى لها الصدد في بقيته... خاصة وإن كانت تلك الصغيرة ذات نهاية عظيمة

تراجع خطوة للوراء وهو يُفسر حديثه:

-فمثلًا ... الخوف من انقراض الحيوانات، أسفر عن تبينهم لحقوق الحيوان .... مقتل ناقة أسفرت عن حرب البسوس...

بقي يتجوّل أمامي بخطواتٍ وئيدة أوقفها أمامي مباشرة حُتى يُنهي حديثه:

-وربما مقابلة بسيطة .... تنتهي بعُرسٍ وزفاف

تدرّج وجهي بحُمرة قانية وانصهرت قطراتٌ من العرق كانت كفيلة بحجب الرؤية رغم أننا في الشتاء، لا أعلم لمَ شعرت بأن حديثه موّجه لي، لمَ شعرت أنه يُمشطني بنظراته وابتسامته الساحرة، كاد خجلي يظهر للعيان لولا استجماعي لطاقتي وتحُركي من أمامه لأردف بثبات:

-أشعر بالتعب .... ألا يوجد مقاهي هنا ؟

أومأ برأسه إيجابًا وهو يقول:

-هناك مُقهًا رائعًا يبيع الهلالية " كرواسون " وكذلك قهوة فاخرة الصُنع

أنهى حديثه بخطواتٍ سارها أمامي وآشار معها بأصابعه حتى أتبعه واستقل معه سيارة الأجرة صوّب هذا المقهى لعلنا نستريح من مشقة اليوم....

____

بعد مرور أربعة أشهر....

الإنسان هو أغرب الكائنات على وجه هذه الكُرة الأرضية، فهو يعلم الفرق بين الصواب والخطأ، حتى ولو لم يُخبره أحد، يعرف أنه إذا سلُك هذا الطريق فسينتهي به الأمر إلى التهلكة، ومع ذلك لا يفعل شيئاً سوى ارتكاب الأخطاء.

وبعد مرور أربعة أشهر، لا أعلم كيف تطوّرت العلاقة بيننا أنا وآدم، أضحت رسائله النصية كتمارين اليوجا التي تُريح الأعصاب في بداية اليوم، أصبحت أحاديثه وكلماته الرقيقة كنغمة موسيقية أُطرب لسمعها.

نتقابل عادة بمقهى فرانشيز وأحيانًا بناوجا، نحتسي القهوة ونتسامر قليلًا قبل أن يذهب كلٌ منا إلى عمله، وفي المساء نُقرر الذهاب إلى باريس ومشاهدة البُرج بتلك

الإنارات التي تزيد من جاذبيته وفخامته، وفي الإجازات، نقضي اليوم بحديقة شاتاو المليئة بالأزهار الملونة والحشائش الخضراء.

كان آدم بمثابة الفارس الذي آتى لي على فرسه الأبيض، بخلاف عينيه الزرقاء وبشرته الحليبية الناعمة المتماشية مع جسده الرياضي، كان في غاية التهذيب والاحترام.

حافظ على المسافات بيننا طوال هذه الفترة، واحترم أيضًا رغبتي بعدم ارتداد سيارته الخاصة وقضائي لجميع رحلاتنا بسيارات الأجرة والحافلات العامة، حتى أنه لم يشأ أن يمسك يداي رغم رغبته التي كانت تلوح في عينيه ومحاولاته أحيانًا.

وفوق ذلك كُله، كان حنونًا لدرجة جعلتني أظن أنه يعمل بالروضة بجوار عمله بالمكتبة، نشتري سويًا الطعام ونقوم بتوزيعه بالقُرى الفقيرة ونلهو مع الأطفال الأيتام أحيانًا، كان يقُص علي حكاياتٌ تاريخية بطريقة تجعلك تنغمس بالحكاية وكأنك تراها أمام عينيك، أحببتُ سماع حكاياته ومعلوماته أكثر من تلك المعلومات التي أتلاقها من المصادر والوثائق.

علِمت أيضًا أن والده عربيًا جاء من الإمارات، لكنني لم أسأله إن كان يعرف العربية أم لا، فنحن لا نتحدث سوى بالفرنسية، كذلك هو لم يذهب إلى الإمارات طوال حياته لأن والدته الفرنسية انفصلت عن والده وهو بالثالثة من العُمر، وهو الآن لا يعيش مع والدته لأن الفتيان هنا لا يقطنون مع أبويهم بعد عُمر الثمانية عشر.

طوال هذه الأيام، كُنت أعاند رغبتي الشديدة في التراجع عمَ أفعله، فإن علِم والدي أنني أتحدث مع الرجال وأتقرّب منهم، أقسم أنه سيتمنى العودة إلى الجاهلية حتى يستطيع وأدي، فأنا مُستحيل أن أخبر والداي ما أفعله هنا، وكلما اتصلا بي، أدّعي أنني لازلتُ في حياتي المملة ولم يقتحم حياتي هذا الوسيم.....

7مارس 2014 جِسر بوينت فيوكس/ مدينة كاركاسون : فرنسا

كانت السماء صافية خالية من النجوم، والأجواء هادئة أزيحت عنها برودة الطقس واستُبدلت برياحٍ عليلة بها لسعة من البرودة.

استند بجذعي على ذاك الجِسر أرمق المياه الراكدة أمامي لعلي أرى سمكة شاردة كشرود عقلي الباطن، يقف آدم بجواري يتابع المياه وربما يتابع عيناي المُحملتان بالخجل، فكلما ازداد الحديث بيننا، قلَّ معه الحواجز التي كانت بيننا في البداية، حيث أضحى الحديث بيننا غير رسميًا كما كان، بل وأحيانًا يحاول لمسي وأنا أوّقفه في اللحظة الأخيرة.

كان الحديث عاديًا في بداية الأمر، حيث كان يحكي لي عن حياته وعن طفولته، وأحيانًا ينجرف حديثنا إلى تنبؤاتٍ مُستقبلية، لكن فجأة، لا أعرف ما الذي أصابني وجعلني أُحدق في المياه بصمتٍ وأتجُنب النظر إلى عينيه الزرقاء.

-إيما ... ما بكِ ؟... هل تشعرين بالإرهاق ؟

سألني ببعض القلق لأجدني أنفي برأسي بملامح باهتة منعتني من السيطرة على كلماتي:

-أنا بخير .... فقط...

توقفتُ بُرهة عن الحديث لأستجمع قواي قبل أن أقول بندم:

-أشعر بالذنب

قطّب حاجبيه بحيرة جعلته يسأل:

-لماذا ؟

-لأنني لم أخبر والداي عنك ... أنا أُقابلك من وراء ظهريهما ... ولا أعرف كيف ستستمر العلاقة بيننا

أردتُ أن أصفع نفسي مئة صفعة قبل الافصاح عن الحقيقة بهذه البساطة، فلطالما نعتني أصدقائي بمُفشية الأسرار، بخلاف ثقتي السريعة بالجميع.

-وما الضيَر في ذلك ؟... ألا تقولين أنهما ليسا بتلك البلدة ؟

قالها بكُل بساطة وكأن الإخفاء على الأهالي هو أمرٌ مُعتادٌ هنا؛ هذا ما جعلني أرُد عليه بحدة طفيفة:

-هذا لا يعني أن أخفي عنهما شيئًا .... ثانيًا، أنا لا أعرف ما هو مُسمى ما يحدث بيننا حتى أستطيع إخبارهما

الآن، أستطيع أن أقول أن كلمة " غبية " خَّلقت من أجلي.

فكلماتي المُتسرعة الحمقاء جعلت الابتسامة الواسعة تُرتسم على ثغره وكُتلة من الحرج تجتاحني حتى بدأت النيران تنبثق من جسدي، تلك النيران ازدادت أكثر مع اقترابه نحوي وتفحصه لجسدي من الأسفل إلى الأعلى وكأنه يُقيمني بعينيه.

انتهت نظراته المؤترة بنظرة مطوّلة إلى عيناي السوداء ووجهي الأحمر الساخن.

-أخبريهما الحقيقة .... حقيقة أنني كلما أرى عينيكي ... أشعر أن العالم أصبح مليءٌ بالورود .... أخبريهما أن ابتسامتكِ تُحطم الهموم وتُزيح الغيوم....

تيبس جسدي على الأرض وأنا استمع إلى كلماته الرقيقة وأكاد أذوب كقطعة من الحديد تم وضعها داخل بُركانٍ ثائر.

وضع يده برقة على كتفي وبدأ يُحركها تدريجيًا حتى تتلمس وجنتي، وأنا لا أعرف كيف تصلّبت قدامي على الأرض وباتت دموعي وشيكة وأنفاسي تتصاعد وكأن فؤادي سيتوقف عن العمل.

-لن أقدر على مقاومة هذا الجمال أكثر .... أنا...

كاد يُقرب ثغره ليتلامس مع ثغري لكنني أفقت في اللحظة الأخيرة ورفعت كفي لأصفعه صفعة لاقت صداها والتفت على إثرها جميع الواثبين.

تصاعدت أنفاسي ولطخ الغضب العارم وجهي وأنا أهتف به:

-ماذا تظنني يا هذا ؟.... كيف تجرؤ على الاقتراب مني ؟

بات التوتر يعتليه هو الآخر وهو يتحسس موضع الصفعة ويحاول الاعتذار ولكن بكلماتٍ متلعثمة، فيبدو أنه هو الآخر فقد السيطرة على أفعاله.

-أنا آسف إيما ... لم أقصد أن_

قطعتُ حديثه بكلماتٍ صارمة لا أعرف كيف استطعت مقاومة سِحره والبصق بها أمامه:

-ابتعد عني...

تركته واثبًا مكانه يشعر بالجزي من فعلته وواصلتُ طريقي صوّب أقرب سيارة أجرة لتقلني إلى الحافلة التي بدورها ستُعيدني إلى ليون، بقيت طوال الطريق أكتم دموعي الحارقة على حالي والنادمة على تلك الأيام التي انجرفتُ فيها وراء المعصية.

توقفت سيارة الأجرة أمام البناية التي أقطن بها، حاولتُ جاهدة أن أسجن دموعي بسجنٍ أشبه بسجنِ الباستيل حتى لا تزداد شكوك المارين من حولي، ورغم يقيني أنني إذا بكيت أمام فرنسيًا فإنه لن يُعيرني أي انتباه، إلى أنني آبيت البُكاء أمام أحدٍ حتى لا ألمح تلك النظرات الشامتة والمُشفقة.

ما إن وطأت قدماي منزلي الصغير حتى انفجرت دموعي وبات صوّت بكائي يُعادل صوّت الفتيات بالأوبرا، بقيت أبكي لساعاتٍ وجيزة قطعتها بوثوبي عن الأرض وعزمي على عدم الحديث معه مرة أخرى، فإذا بقيت العلاقة بيننا، فلن تنتهي سوى بالمعصية، وأنا لن أسامح نفسي على شيءٍ كهذا، ولن يسامحني والداي أبدًا.

____

14مارس 2014   ليون : فرنسا

لأول مرة في حياتي، أحاول الحفاظ على الوعود التي آخذها، امتنعت عن الحديث مع آدم طوال هذه الفترة وأخبرته أن العلاقة بيننا لن تستمر بدون روابط رسمية، وهو للعجب، تفهم موقفي وتوقف عن الالحاح علي واستدراجي للحديث معه.

مرٌ أسبوعٌ كاملٌ مُنذ آخر مرة تقابلنا بها، هذا الأسبوع كان شاقًا علي، فبعد نجاح الفيلم الوثائقي الذي يتحدث عن حقوق الإنسان، وجابريل يطلبني للعمل معه بفريقه حتى أجمع لهم المزيد من المعلومات، ورغم أنني لم أكن أحب تلك الوظيفة، إلى أنها الآن باتت مقبولة.

استيقظتُ باكرًا هذا الصباح وأغرقتُ جسدي بمياهٍ فاترة تُغنيني عن أفكاري المُبعثرة، تركتُ المرحاض وأنا أجفف خُصلات شعري المُبتلة حتى التقطت أذناي نغمة الهاتف الخاص بي وهو يُعلن عن مكالمة خارجية دفعتني للإجابة بُسرعة حتى لا تُصاب والدتي بالقلق.

-ألو يا ماما .... أه الحمد لله كويسة

أجبتها وأنا أجلس أمام السراحة وأبدأ بوٌضع الدهان على شعري حتى أستطيع تصفيفه.

-عاملة إيه يا حبيبتي ... بتاكلي وتشربي كويس ؟

سألتني بلكنة أمِ قلقة على فتاتها في بلدة غريبة، وكُنت أحاول جاهدة أن أخفي ما يحدث لي بإجابتي المُختصرة:

-أيوة متقلقيش

-طب والناس هناك عاملة إيه ؟... أوعي يا بت حد يضحك عليكي بكلمتين ويُجرك لحاجة استغفر الله العظيم

ازدردتُ ريقي بتوترٍ بالغ لم أكن أعرف كيف علِمت والدتي بما يحدث، أهذا هو قلب الأم كما يقولون.

-لأ يا ماما متقلقيش ... محدش يقدر يضحك عليا .... بعدين أنا عارفة إن مينفعش يبقى في علاقة بين راجل وست غير لو متجوزين

قُلتها بتوٌترٍ وكذبٍ حمدت معه ربي بنجدتي مما كان يُمكن أن يحدث لو استمرت العلاقة بيني وبين آدم.

-يبقى أوعي تقوليلي أنا اتعرفت على واحد من فرنسا وعايزة اتجوزه إنتِ فاهمة .... الناس دول يا حبيبتي مش شبهنا ... وأنا مش هسيبِك تتجوزي واحد غير من هنا " من مصر"

رفعتُ قامتي لأعلى وأنا أجيبها بثقة لا أعلم من أين أتيت بها:

-إيه يا ماما إللي بتقوليه ده ؟.... أكيد يعني مش هتجوز من فرنسا ... أنا مقدرش اعمل حاجة من وراكم_

قطع حديثي صوٌت الجرس الذي أخذ يصدح بصورة شبه تكرارية حتى أن صوٌت الجرس اخترق سماعة الهاتف واستمعتُ إليه والدتي.

-هو في حد بيخبط عندِك ولا إيه ؟

قطٌبتُ حاجباي بحيرة وأنا أجيبها بجهل:

-معرفش ... طب اقفلي طيب يا ماما هشوف مين وهرجع اكلمِك تاني

كان هذا نهاية حديثنا قبل أن أغلق المكالمة وأضع الهاتف على السراحة كي أتجه إلى الطارق، وضعتُ خمار الصلاة لأغطي شعري المُبتل قبل أن أفتح الباب بنظراتٍ حائرة تحوّلت إلى المفاجأة عندما لمحت آدم يقف أمامي ببسمته الهادئة وباقة من الورود البنفسجية ذات الحواف البيضاء، مدّ باقة الورود نحوي وهو يقول بابتسامته الودودة التي اشتقتها طوال هذا الأسبوع:

-أحضرت لكِ زهرة الأوركيد

مددت يدي بآلية لألتقط منه هذه الباقة واستمع إلى ما تبقى من حديثه:

-أتعرفين السبب وراء انتقائي لتلك الزهرة دون غيرها ؟

بقيتُ في حالة من الصمت وأنا استمع إلى حديثه المُتلهف السجي:

-لأنها من أكثر النباتات أهمية وجمالًا، الزهرة الوحيدة التي استطاعت بجمالها الآخاذ أن تلفت أنظار الأثرياء مُنذ بداية القرن التاسع عشر.... صحيح أنني لست ثريًا، لكنكِ اخترقت حصون قلبي كزهرة الأوركيد

التصقت قدماي بالأرضية ولم استطع النُطق ولو بكلمة واحدة كما لو أنني طفلة رضيعة لا تستطيع الكلام.

اقترب بخطواته نحوي حتى باتت المسافة بيننا شبه معدومة، وكان يواصل حديثه الهاديء بنظراتٍ عاشقة كادت تُصيبني بالذوبان.

-لستُ غبيًا حتى أضيّع تلك الزهرة الغالية .... حتى لو لزُم الأمر بتعليقها على صدري طوال حياتي

حرّك يديه ليُدثرها داخل جيبه ويُخرج عُلبة من القطيفة كحلية اللون أنيقة المِظهر حرّكت ضلوع قلبي وجعلت نبضاتي تتسارع أكثر، خاصة وأنا آراه يفتح هذه العلبة متفوّهًا:

-لا أعرف إن كان والداكي سيوافقان علي أم لا... لكنني سأفعل المُستحيل حتى أتزوجكِ .... وسأفعل ذلك بأسرع ما يُمكن ... فأنت هي طوق النجاة الذي انتشلني من المُحيط قبل غرقي .... أنتِ هي الزهرة التي كلما اتنفسها، أزداد شعورًا بالراحة والحنين ... أنتِ هي نصفي الآخر ... وزوجتي المُستقبلية...

اتسعت حدقتا عيناي في ذهولٍ ما إن اغتابتني أشعة الخاتم الرقيق المُرصع بالألماظ، يا إلهي، هذا الرجل لم يترك شيئًا إلا وفاجائني به.

ركع على ركبتيه أمامي في حركة أراها كثيرًا بالأفلام ولم أتوّقع أن آراها على أرض الواقع، رفع هذا الخاتم قُرب عيناي ليسلب لُبي بابتسامته العاشقة وعرضه الذي أوقد النيران الحارقة بصدري:

-إيما ... أنا أحبكِ...هل تقبلين الزواج بي ؟

تصاعدت ضربات قلبي أكثر وبقيت لفترة طويلة من الصمت لا أعلم إن كُنت قد تغيبت عن العالم أم أنني أُفكر بحديثه، فقط أبتسم ابتسامة بلهاء وأقاوم ارتجافة جسدي وارتباكي الشديد.

طالت مُدة صمتي حتى آعاد آدم عرضه بطريقة رومانسية أكثر:

-سأصبح أسعد إنسانٍ على هذه الأرض إذا قبلتي بعرضي .... فأنا بدونك كسمكة شاردة في مُحيطٍ كبير .... سأفعل أي شيءٍ من أجلِك إذا تزوجنا... أعدِك أنني سأحافظ عليكِ وسأعامِلك كما تُعامل المجوهرات الباهظة

انساب العرق على وجنتي بسبب كلماته الكفيلة بجعلي أذوب وأتحوّل إلى بركة من المياه الساخن، انجرف تفكيري إلى حديثي مع والدتي وكم كانت رافضة رفضًا تامًا لزواجي من هُنا، وأنا أكاد أكون متيقنة أنها لن توافق أبدًا_ هي ووالدي_ على زواجنا، مهما أثبتُّ لهما أن آدم رجلٌ جيدٌ ولا يُشبه الغرب في عاداتهم وتقاليدهم.

تلك الأفكار جعلتني أرفع رأسي نحو آدم الذي وثب عن الأرض يُطيل النظر في عيناي لعله يحصل على إجابة ترضي شوقه، وأنا لم أُحُطم طموحاته بابتسامتي التي شقت ثغري وقراري الذي أعلم جيدًا كم العواقب التي ستأتي من بعده:

-وأنا أيضًا أحبك و.... موافقة....

الفصل الثاني (أوقعني فخه)

((إيمان))

13إبريل 2015   ليون : فرنسا

ظننتُ أن الإنسان هو من يقوم باختراع الآلات، لكنني لم أكن أعرف أن الإنسان يُمكنه أن يتحوّل إلى آلة...

ففي الشهور الماضية، انغرست قدماي بوُحل المعاصي أكثر فأكثر، كُنت أعرف أن ما أفعله خاطئًا، فلا يجب أن أتزوج دون أن أخبر والداي، لكنني لا أعرف لمَ الخطأ يبدو صوّابًا.

أقنعني آدم أننا سنتزوج بالسِر لفترة وجيزة حتى تستقر أموره ويستطيع السفر إلى مِصر حتى نُنبيء أبواي، فأنا قد أخبرته أنهما لن يوافقا أبدًا على زواجي من رجلٍ غريب وربما سيتبرأا مني إذا علما أنني كُنت أحادثه وأقابله كالعُشاق قبل أن نتزوج سرًا!!

وافقتُ آدم على ذاك الاقتراح وقررتُ أن نعود إلى مصر ونضعهما أمام الأمر الواقع، لكنني لم أكن أعرف أن للقدر رأيٌ آخر، فبعد أسبوعينٍ فقط من زواجنا، اغتابتني بوادر وعكة صحية ألزمتني الفِراش لُمدة وجيزة حتى أنبأني الطبيب بأنني حُبلى، وأنني لا يجب أن أسافر لمسافاتٍ طويلة حتى أضع جنيني، فيبدو أن والدتي أورثتني تلك الجينات التي تجعلني أجد صعوبة في الحمل.

نسيت أن أخبركم، أننا نقطن الآن بمنزلي وليس منزله، فأنا قد رفضت المبيت معه بمنزله حتى لا أبتعد عن شركة الإنتاج التي أعمل بها، وهو لم يُبدي رفضه ووافق على قراري بسهولة.

كلما تعمقت علاقتنا، زاد شعوري بالإعجاب اتجاهه، يُداعبني طوال الوقت ويَعد لي الفطور يوميًا حتى لا أرهق بدني وأنا حُبلي، فها قد مرٌ ثمانية أشهرٍ ونِصف على نمو

ذاك الجنين ببطني والذي اتضح فيما بعد أنه فتاة، سأُرزق بفتاةٍ جميلة لديها نفس الأعين الزرقاء الخاصة بوالدها.

ربما حياتنا لم تكن بهذه المثالية، فكانت لا تخلو أيضًا من المُشكلات خاصة تلك التي تتعلق باختلاف عاداتنا وتقاليدنا، فلا أحصي كم مرة تشاجرت معه لأنه يعانق الفتيات بعمله بدافع الأخوة والتُرحاب وأنا لن أقبل أن يُعانق فتاةً غيري، وتعارك معي ذات مرة لأنني أتأخر بالعمل وأحيانًا لا أتناول العشاء معه، لكنه في النهاية، يبقى في نظري أفضل الرجال، خاصة وهو أول رجلٍ يقتحم حياتي.

أتمنى أن تُشبه صغرتي والدها، تُشبهه في بشرته البيضاء النقية وعينيه الساحرة، وحتى حنانه وشهامته، أتمنى أن أرى نُسخة مُصغرة منه حتى لا افتقد جاذبيته أبدًا.

في هذا اليوم، كُنت مُمدة على فراشي أنهي قراءة الوِرد اليومي قبل أن أضع المُصحف جانبًا وأبدأ بترتيل الأدعية لعلني أُكفر القليل من ذنوبي، أعلم أن الزواج إشهار، وأنا لم أخبر والداي، لكنني أخبرتُ جيراني وبعض رفاقي بالعمل بزواجنا، كذلك خاتم الزِفاف لا يبرح أصابعي أبدًا، عقلي مُشتت ما بين الإحساس بالذنب والإحساس بالرضا والإحساس بالندم، لم يكن يجب أن أقبل على تلك الخطوة من وراء عائلتي، وسأسافر لهم فور أن أضع صغيرتي وأطمئن على صحتها.

أوقف شرودي طرقات هادئة على باب الحُجرة قبل أن يُفتح ويطُل منه طيف آدم ومعه باقة من الورود ذات سيقانٍ رفيعة مُنتصبة وأوراقٍ مُتفرعة رمحية الشكل حافتاها تبدو وكأنها مُقطعة ومُسننة، وزهراتها حمراءٌ جميلة لها أربع بتلات وبُقعة داكنة في الوسط.

كانت باقة ورودٍ فريدة من نوعها، لم أرى مثلها من قبل وعندما رأيته يمُد نحوي هذه الورود ويرميني بابتسامته الساحرة وجدتني أسأله بفضول:

-ما هذه ؟

اتسعت بسمته وهو يلتقط زهرة من باقة الورود ويُدثرها بين خُصلات شعري الداكنة :

-هذه شقائق النُعمان، زهرة تتميَز بها بلدتي... وهي تدل على الحنين والاشتياق... فأنا اشتقتُ لكِ وأنا بالعمل

كادت القلوب تنبثق من عيني وأنا ابتسم له ابتسامة خجولة وأتحسس تلك الزهرة آملة أن أجد مرآة حتى أرى كيف تبدو علي، لكن نظراته العاشقة أرسلت لي أن الورود تليق بي وتجعلني أميرة بنظره.

تململت قليلًا وتأوهت بصوتٍ خافت ما إن اغتابتني غصة أليمة وكأن أحدهم يقوم بركلي، يبدو أن صغيرتي بدأت تغار علي من الآن.

ازداد شعوري بالألم حتى باتت بوادر القلق تظهر على وجه آدم وهو يقترب مني ويُحيطني بذراعه متفوّهًا:

-ما بكِ ؟.... هل أتصل بالطبيب ؟

حرّكت رأسي يمينًا ويسارًا مُعتقدة أن هذا الألم ليس بهذا السوء الذي يجعله يستدعي الطبيب، لكن ظنوني هوّت أرضًا عندما ازدادت حِدة الألم وانقلب تأوهي إلى صرخة مدوية كادت تُهدم الجُدران...

لا اتذكر الكثيرٌ مما حدث في ذاك اليوم، سوى شعوري بالألم المُميت وهرولة آدم في كل مكانٍ حتى توّقف أمامي ومعه حقيبة صغيرة وضعها على الأرض حتى يستطيع حملي عن الفِراش والذهاب بي إلى المشفى.

أفقت بعد ساعاتٍ طويلة وعملية جراحية جعلتني قعيدة الفِراش أشعر بخواءٍ في معدتي المُنتفخة، ودماءٌ لا تتوقف عن السيلان مني، انتابني الذعر فور أن فتحت عيناني وتلفُتٌ حولي بحثًا عن أي طبيب يُهديء تلك الشكوك التي تُساورني، هل ابنتي بخير ؟ هل فشل حملي ؟ هل ماتت ابنتي ؟

كل تلك الأفكار بدأت تجتاح رأسي وتجعلني على حافة الانهيار، فابنتي الصغيرة تعلّقت بها قبل أن تأتي، ولا أعرف ما الذي سأفعله إذا حدث لها مكروهًا، لا أعتقد حتى أن بإمكاني إنجاب غيرها، فقد أخبرني الطبيب بالمشاكل الخاصة برحمي والتي ستمنعني من الإنجاب فيما بعد، وأنا رضيت بهذا القدر ورضيت أن أحظى بفتاةٍ واحدة تُغنيني عن الدُنيا وما بها.

شعرتُ بأنامل رقيقة تقترب نحوِّي وظل ابتسامة هادئة أعرفها جيدًا، ابتسامة أعادت الهدوء إلى صدري وبددت شعوري بالخوف والذعر:

-رُزقنا بفتاةٍ جميلة ... تُشبه والدتها

زادت ابتسامتي بعد تلك الكلمات الذي قالها آدم وهو يحمل صغيرتنا الرضيعة ذات الوجه المُكتنز والعينان الواسعتان اللتان أتمنى أن يضحيا بُزرقة عينا والدها، لأ أعرف كيف ستضحى خُصلاتها، لكنني آمل أن تضحى ملساء ناعمة كوالدها.

وضع صغيرتنا على راحتاي لأداعب وجنتها المُكتنزة وأنفها المُستدير، أقسم أن الدموع تكاد تفِر من عيناي في تلك اللحظة، فأنا لم أتخيل أبدًا أن إحساس الأمومة بهذه الروعة، كُنت أتمنى أن يرى والداي حفيدتهما ووجهها الملائكي، لكنهما سيريانها عاجلًا أم آجلًا، فلن أُخفي زواجي أكثر من هذا.

-ماذا سنُسميها ؟

قطع آدم شرودي بذاك السؤال بصوِّته العذب الرخيم وأنفاسه التي لفحت أنفاسي وهو يقترب بجذعه صوِّب صغيرتنا.

-لأ أعرف ؟... ألديك اسمٌ مُناسب ؟

سألته بفضولٍ لأرى كيف سيفاجئني ككل مرة، ولم يكذُب حديثي عندما وجدتُ ابتسامته تتسع بلهفة قال معها:

-ما رأيكِ باسم " تيا "... أميرة باللغة اليونانية...

آحاطني بذراعه وهو يجلس بجواري على الفِراش مُستكملًا حديثه الهائم:

-لتضحي أنتِ ملكتي ... وابنتنا هي الأميرة ... ونتوِّج قصتنا سويًا بقصرنا الصغير

أعرف أنني إذا تفوّهت بكلمة ربما أفسد تلك اللحظة الرومانسية بكلماتي الحمقاء المُتسرعة، لهذا السبب لازمني الصمت والخجل لفترة وجيزة حاولتُ معها الابتعاد بنظراتي عنه حتى لا يسخر من احمرار وجهي الخجول كما اعتقد.

وبعد فترة من النظرات الهائمة، وُجدته يُخرج الهاتف الخاص به ويرفعه أمامنا متفوّهًا:

-ما رأيكِ بالتقاط صورة ؟... تُخلد تلك اللحظة

أومأت برأسي إيجابًا وامتثلت لطلبه بالتقاط صورة رائعة لنا وأنا على الفِراش أضع حجابي بطريقة بدائية وبين راحتاي تقطن ابنتي تيا التي ستتُّوج قصتنا وتُخلدها للأبد....

8يونيو 2015 روون ألب / ليون : فرنسا

لم أكن أعرف جمال ليون قبل أن يقتحم آدم حياتي، اتضح أنها مدينة مجيدة ذات ماضٍ ملوّن، وهي كذلك مركزًا لصناعة النسيج، وفي ذاك المكان الذي كُنا نتجوّل فيه مع صغيرتنا الرضيعة، نستشعر لوحات ترومب لويل والأسواق والمتاحف الرائعة بما في ذلك متحفٌ مُخصص للأخوان لوميير اللذان اخترعا السينما وعاشا وعملا بليون.

تجوّلنا في الممرات السرية بين الشوارع وكُنت أضع تيا بعربة الرُضع حتى لا يُعيقني حملها على كتفي وتمنعني من التحرّك بحُرية.

تجوّلنا كذلك داخل متحف الدُمى ثم انتقلنا إلى الساعة الفلكية المُثيرة للاهتمام بالكتدرائية، بقينا أمام هذه الساعة نستشعر جمالها ونلتقط العديد من الصوّر في لحظاتٍ رومانسية هي الأروع بالنسبة لي، لكن كما يقول المثل دائمًا، رغم جمال الزهرة، إلا أن أشواكها تُدمينا.

تلك المقولة انطبقت على ما حدث بعد ذلك، فأثناء انغماسنا في هذا العالم الوردي، إذا يقطعنا صوّت فظٌ لرجلٍ يمُر بجوارنا ولا أعرف لمَ يتعمّد مضايقتنا.

-عودوا إلى بلدتكم .... نحن لا نُريد أن نقطن مع إرهابيون

تدفقت الدماء بعروقي وأنا ألتقط تلك الكلمات الموّجهة نحونا بفرنسية مُتقنة ورجل يرمقنا بازدراء، أما عن آدم، فكان غضبه لا يختلف عن غضبي وربما أكثر قليلًا.

فقد وجدته يلتفت وراءه بهدوءٍ راميًا هذا الرجل بنظراتٍ مقيتة قال معها:

-هل تقصدنا بهذا الكلام ؟

سأله بثباتٍ يُحسد عليه وما كان من الرجل سوى أنه آجاب بتأكيدٍ ازداد معه حقارته:

-وهل يوجد إرهابيون غيركم ؟

هنا ولم أعد أتحمل أكثر من ذلك، وجدتني أضع يدي على رسغ آدم حتى نرحل من هنا ونعوّد إلى بيتنا الصغير، لكنه دفعني بحِدة ليتجه صوّب هذا الرجل ويرميه بنظراتٍ ثابتة وحاجبانٍ مُقطبانٍ سأل معهما:

-هل ترانا نحمل سلاحًا ونُطلق به على المارة ؟

نفى الرجل وهو يُجيبه بازدراء:

-لا ... لكنني متأكد أنكم ستفعلون ذلك.... وقتها سيتم فضحكم أمام الجميع

أطلقت شهقة مدوية وأنا أنصدم من تلك اللكمة التي سددها آدم صوّب هذا الرجل الذي ارتد جسده جهة اليمين وبدأ يتحسس وجنته المصابة والدماء التي بدأت تنبثق من شفتيه.

-هكذا تستطيع أن تقول علينا إرهابيون أيها الأحمق....

____

لا أنكر إعجابي بما فعله آدم مع ذاك الحقير، لكنني أيضًا لا أنسى تهديد الرجل لنا بأنه سينتقم وسيقوم بسجننا، حمدًا لله أن الأمور مرَت على خير وعُدنا إلى المنزل في سلام، وها أنا الآن، أجلس على فراشي بوجهٍ عابسٍ ونظراتٍ مهمومة بعد أن وضعت صغيرتي على فراشي لتنام قليلًا.

بالي مشغولٌ بما حدث صباح اليوم، لا أعرف كيف سأواصل الحياة في عالمٍ يزداد فيه العُنصرية والكراهية، أن ألقى الذُل في بلدتي، أفضل من أن ألقاه في بلدة تكرهني وتتمنى رحيلي، كم شعرتُ وقتها بالحنين لبلدتي ورغبتي بالعودة رغم خوفي الشديد من ردة فعلهم، ففي النهاية، لقد تزوجتُ من وراءهم، بل وأنجبت أيضًا!!

قطع شرودي مجيء آدم ومعه كوبين من عصير الليمون الذي أعده بنفسه كمُهديء للأعصاب، أعطاني كوبًا من الكوبين ورماني بنظراتٍ مُطمئنة ويدٍ تُمسد على خُصلات شعري وكأنه يحاول تهدئة النيران التي تثور بداخلي.

-لا تقلقي حبيبتي .... لم يحدث شيئًا

قالها بنبرة هادئة رخيمة وأنا أمامه أرتشف رشفة صغيرة من كوب العصير قبل أن أردف بتقرير:

-دعنا نرحل من هنا .... ونذهب إلى مِصر ... أريد أن أخبر والداي عنك، وأيضًا .... يُمكنك العمل هناك كمعلمٍ للفرنسية

لاحت بيننا فترة طويلة من الصمت الذي لم أحصل من خلاله سوى على نظرات عدم الرضا وهو يقول:

-حسنًا .... سأفكر في الأمر

بصق هذه الكلمة باختصارٍ تمدد معه بجواري وكاد يغفو لولا تمسكي برسغة وإلحاحي عليه:

-أرجوك .... أريد أن نرحل من هنا ... أنت وعدتني أننا سنذهب سويًا إلى مِصر حتى نُخبر أبواي عن زواجنا

اتسعت بسمته الهادئة حتى تحركت أنامله الرقيقة لتُداعب وجنتي أثناء قوله الواعد:

-وأنا لن أخلف وعدي .... بقي فقط القليل من الإجراءات حتى أستطيع السفر معكِ .... أي أننا بنهاية الأسبوع، سنُحلق بالطائرة إلى مِصر

أخمدت كلماته من النيران المتأججة بداخلي وبات الصِدق في عينيه وهو يتحدث، أتمنى ألا يُخلف وعده كما يفعل دائمًا، أتمنى العودة إلى مِصر مع أسرتي الصغيرة ونبتعد عن ذاك المكان المليء بالكراهية.

صدح صوّت صغيرتي التي أخذت تبكي بصوّتٍ مُرتفع؛ كنت على وشك الوثوب ورؤيتها لولا يد آدم التي استوقفتني بتقرير:

-سأذهب لرؤيتها ... أكملي عصيركِ واخلدي للنوم ... وأنا سأتوّلى أمرها

رسمتُ بسمة هادئة موافقة على ثغري واسترخيت مُجددًا للوراء وأنا بكامل يقيني بأنه سيستطيع تهدئتها، فهي تُحبه ولا تتوقف عن البُكاء سوى بعد أن يُداعبها.

أمسكتُ كوب العصير وتجرعته كاملًا لأستشعر حلاوة مِذاقه وأخلد بعدها إلى النوم....

____

9 يونيو 2015   ليون : فرنسا

بقيت لساعاتٍ طويلة اتنقل بين الأحلام الغريبة، فتارة أراني بجُلبابٍ أبيضٍ أتحرّك بانسيابية بين الورود الحمراء التي لا أعلم كيف تنقلب إلى الدماء فجأة، وتارة أراني يثيابٍ ملكية ألأمر خادمي أن يُحضر لي حفاضة مصنوعة من الذهب وإلا قطُعت رأسه.

وفي النهاية، استيقظت أخيرًا من تلك الأحلام الغريبة لأرمق الساعة وأجدها تُشير إلى الواحدة بعد الظُهر، لا أعرف كيف غفوّت طوال هذه المُدة، فلطالما كُنت فتاةٌ قليلة النوم وسريعة الاستيقاظ، أما الآن، أشعر بثقلٍ يجتاح جسدي وصداعٌ جثيمٌ يطغي على عقلي، أشعر أنني بحاجة للمزيد من النوم رغم نومي الذي دام لثلاثة عشر ساعة!!

حركتُ أناملي نحو جفناي لأحاول محو هذا الرمق الذي يزيدني شعورًا بالنُعاس، أزحتُ الغطاء عن جسدي قبل أن أترك الفراش مُرتدية نعلاي الورديان ومتجوّلة داخل المنزل الذي لا أعلم ما سبب سكونه هذا.

-آدم ... آدم ... هل ذهبت إلى العمل ؟

بقيتُ أنادي بتلك الكلمات بلُغة فرنسية حتى يسمعني آدم، لكنني أتفاجأ من الصمت والسكون وكأنه لم يأتي إلى المنزل من الأساس، أو ربما تلك الشهور الماضية ما كانت سوى حُلمٍ طويلٍ استيقظت منه الآن.

أدرتُ جسدي صوّب الحُجرة الخاصة بطفلتنا تيا لعلي برؤياها أتأكد أن ما حدث كان حقيقيًا، وربما ذهب آدم للعمل ولم يشأ إيقاظي من النوم، نعم، متأكدة أنه فعل ذلك، أو ربما لا، فما إن توّقفت قدماي أمام حُجرة تيا حتى جحظت عيناي وتصاعدت أنفاسي في صدمة، اجتاحتني هالة من القلق لا أعرف مصدرها وأنا أقترب صوّب الفِراش الصغير الخالي من صغيرتي!!

بات جنوني وشيكًا وأنا أعبث بالملأة وأسفل والفِراش وفي الخزائن لعلني أجد ابنتي، لا أعلم كيف سأجدها داخل الخزانة لكن عقلي توّقف عن التفكير في تلك اللحظة، حتى أنني فكرّت بالبحث عنها داخل مِغسلة الثياب.

ازدادت ضربات قلبي في ذعرٍ بالغ وعاودت منادة آدم بأعلى صوّتٍ لي ولا اجد من الكلمات ما تُغنيني عن هذا القلق، مددتُ يدي نحو الطاولة المجاورة للتلفاز حتى ألتقطُ هاتفي وأعبث به قليلًا ثم أضعه على أذني وأنتظر رد آدم علي.

يُخرج جسدي النيران الآن وأنا أضرّب على الأرض بقلقٍ لعل مكروهًا آصابه، لعله اصطحب تيا لإحدى الجولات الهامة واصطدمت سيارته بحافلة ما أدت إلى إصابة كليهما.

أعاقت تلك الأفكار السوداء تفكيري خاصة مع محاولاتي المستميتة للإتصال بآدم دون أن أحصل على أية إجابة.

وكفتاة تُريد مصارعة القلق، وأم تُريد الاطمئنان على فلذة كبدها، أعدت الهاتف مكانه وتحرّكت فورًا صوّب حُجرة النوم حتى أُبدل ثيابي وأذهب للبحث عنهما مهما كلفني الأمر.

فتحتُ الخِزانة الصغيرة لأخرج حافظة النُقود وبطاقة ائتماني حتى لا أنساهما، لكن لمرة ثانية، أقع في شُرزمة الضياع حينما أكتشف أنني لا أعثر على نقودي ولا حتى بطاقة ائتماني، أو ربما من شدة القلق لا أتذكر أين وضعتهما آخر مرة.

على كُلٍ، النقود هي آخر اهتماماتي الآن، ما يُهم الآن هو العثور على صغيرتي تيا وزوجي الذي...

توقفت أفكاري مرة واحدة حالما التقطت عيناي تلك الرسالة النصية المُعلقة على الخزانة، بقيت لثوانٍ أتعجب أمام هذه الرسالة المكتوبة بالفرنسية حتى قررت التقاطها وقراءة ما بها.

"عزيزتي إيما ... أعرف أنكِ الآن يكاد الذعر يتملككِ خوفًا علي وعلى ابنتنا تيا، لكنني أريدكِ أن تطمئني، تيا ستحيا حياة تستحقها وسأحرص على نيلها سُبل الراحة وهي معي، في البلدة التي خُلقت من أجلها، البلدة التي جِئت منها...

أشكركِ على الأيام الرائعة التي قضيتها معكِ، وأعتذر إن كُنتِ قد جعلتكِ تعتقدين أن مشاعري اتجاهكِ كانت حقيقية، فمن أنا حتى أتعلّق بفتاة مثلكِ ؟

أتمنى لكِ حياةٌ طيبة، ولا تُفكري بالبحث عني وعن ابنتي، لأنك ببساطة، لن تستطيعي استعادتها، أنتِ لا تستحقينها من الأساس، صحيحٌ أنني لم أخطط لإنجابها، لكن يبدو أنها حِكمة إليهوم.

لا أستطيع أن أقول أنني سأشتاقكِ، لكنني سأشتاق خِداعكِ والعبث بمشاعركِ الحمقاء.

ولعلمكِ، أنا لا أُدعى آدم، ووالدي ليس عربيًا، وحتى والدتي لم تكُن فرنسية، وزواجنا لم يكُن حقيقيًا حتى.

إلى اللقاء إيما

مع تحياتي .... شارون أيزنعوت"

بات جسدي الآن أشبه بزبزباتٍ كهربائية، اختنقت أنفاسي وأصبح التنفُس حُلمًا صعب المنال، لا أستطيع حتى البُكاء من هوّل الصدمة، لا أستطيع تصديق أن طيلة هذه الأيام كُنت دُمية بين يدي هذا الحقير، لم تكن مشاعره حقيقية، لم يكن حُبه سوى آداة لاستغلالي.

لا أعلم من أين أتى ذاك الحقير، لكنه ليس فرنسيًا، وحتى ليس مُسلمًا كما أوهمني، لكنني قرأتُ اسمه الحقيقي المدوّن أسفل الرسالة ربما بغرض استفزازي، أو ربما بغرض إيصال رسالة يُخبرني بها أنه....

-يهــودي!!

الفصل الثالث (إسلاموفوبيا)

((إيمان))

9يونيو 2015 ليون : فرنسا

حمقاء أنا باعتقادي أن حُلمي أصبح حقيقة، فأنا لم أكن أعرف أن حقيقتي هي مُجرد حُلمٍ كبير....

تيبس جسدي على الأرض وتحوّلتُ إلى تمثالٍ من الشمع، أشعر بجسدي ينصهر وسيندمج مع الأرض الصلبة قريبًا، ارتميتُ بجسدي على الفِراش وهوّت يداي مرة واحدة لتسقط هذه الرسالة على الأرض.

كيف لم أكتشف الحقيقة منذ البداية ؟ كيف استأمنته بهذه السهولة ؟ هل أنا مخدوعة الآن أم أنني مُغفلة كبيرة ؟

من شدة الصدمة، آبت دموعي بالانزلاق رغم رغبتي الشديد بالُبكاء، كيف لفتاةٍ أن تتحمل العبث بمشاعرها ؟ كيف لي أن أتحمّل تعرضي للخديعة والسرقة و... ابنتي!!

ما إن توّقف تفكيري عند هذه النُقطة حتى تركتُ الفِراش بنظراتٍ جامدة وأنفاسٍ مُتصاعدة، أكاد أشعر أنني على وشك الانفجار وتدمير هذا المنزل، حمدًا لله أنني لم أوافق على المبيت بمنزله، وإلا كُنت الآن مُشردة بمعنى الكلمة، أو ربما هو الذي لم يكن يُريدني بمنزله حتى لا أكتشف الحقيقة.

أشعر بالضياع ضعفين، ضياع مشاعري وكياني، وضياعي في تلك البلدة، بقيتُ لساعاتٍ أحاول تجرّع الصدمة وتقُبل الأمر، لكن الأمر يزداد سوءًا، لا أريده أن يفلت بفعلته، والأهم من ذلك، لن أسمح له باختطاف صغيرتي، وسأُعيدها مهما كلفني الأمر.

متأكدة أنني لن أستطيع استعادتها وحدي، هي ليست ضائعة بالمنزل، هي ضائعة ببلدة كبيرة، بالطبع سأحتاج لمساعدة، ولن أطلب المساعدة سوى من شخصٍ واحدٍ فقط.

-ألو ... أيوة يا جورج

قُلتها بنبرة مُندفعة بعد أن اتصلتُ بإبن خالتي وشقيقي في الرضاعة جورج، وكان جوابه من الجهة الأخرى مُرحبًا يشكوني غيابي الطويل عن الإتصال بهم وأنا لم أظهر أي من علامات السعادة والارتياح مما جعل القلق ينتقل إليه حتى قال:

-مالِك ؟... صوتِك عامل كدة ليه ؟

ازداد توتري وبدأ جسدي يرتجف مكانه وأنا أقرض أصابعي، كيف أخبره أنني تزوجت وأنجبت بالسر؟ بل واتضح أن زوجي مُخادعٌ ومُحتالٌ ولم يكن زواجنا حقيقيًا!!

-أنا في مُصيبة

هكذا قُلت في النهاية لأستشعر همهماته اللامبالية وكأنه مُعتادٌ على مصائبي:

-مُصيبة إيه ؟

هكذا سألني ليزيد التوتر بداخلي وأنا أجيب:

-أنا اتجوزت من ورا ماما وبابا ... و..وخلفت كمان

قُلتها مرة واحدة وبصوّتٍ مُندفعٍ مُنخفض دعوّت معه ألا يستمع لحديثي، لكن للأسف كان قد استمع إلى اعترافي مما جعله يردف بصدمة اخترق طنينها سماعة الهاتف:

-نـــعم !!... اتجوزتي وخلفتي من ورانـــا...!!

حوَّل نبرته إلى السُخرية مرة واحدة وهو يواصل:

-أومل تاعبة نفسِك وبتتصلي ليه ؟... عايزة تعزمينا على السبوع ولا عملتيه هو راخر

تجاهلتُ سُخريته وأنا أواصل بارتباكٍ قد بلغ ذروٌته هذه المرة:

-لأ ما إحنا خلاص سبنا بعض_

-كمـــان!!

قطعني بهذه الصدمة التي أقدرها للغاية، أكاد أتيقن أنه سيُصاب بجلطة عندما أخبره ما تبقى من الحقيقة:

-أيوة .... طلع نصاب وسرقني وخطف بنتي وهِرب

صمتٌ طويلٌ تبع حديثي قبل أن تُباغتني قهقهة ساخرة تخترق سماعة الهاتف وتزيدني شعورٌ بالغضب خاصة مع كلماته الساخرة:

-إنتِ لسة بتتخزوٌقي زي زمان

أطبقتُ على شفتايِ بحنقٍ من ردة فعله، للأسف، لن أستطيع أن أطلب المساعدة سوى من هذا السمِج.

-يا جورج مش وقته .... أنا عايزة بنتي ومش هقدر أسافر من غيرها

قُلتها بثباتٍ وجدية حتى يتوقف عن الضحك ويساعدني بالأمر، وبالفعل لم يُخيب ظنٌي عندما اقترح:

-ما تروحي تبلغي عنه ..... ده في الأول وفي الآخر جوزك... لو أثبتي إنكم متجوزين وروحتي بلغتي هيجيبولِك بنتِك هوا

أسبلت بعيناي لأسفل وأنا لا أعرف كيف أخبره بالصدمة التالية، أصبحت صدماتي لا تُعادل جهاز الصدمات الذي يُحيي القلوب، الفرق أن صدماتي توّقفها.

-لأ ما هو ... هو أساسًا مطلعش مُسلم، وجوازنا مكنش حقيقي ... بس والله العظيم مُكنتش أعرف

أنهيتُ الحديث بتوّسل حتى لا يظُنني أقمت علاقة غير شرعية مع رجلٍ غريب، حسنًا، هي لم تكُن بهذه الشرعية، لكنني اعتقدتُ أننا متزوجان.

-مش مُسلم إزاي ؟.... إزاي أصلًا تتجوزي واحد مش مُسلم وإنتِ مُسلمة ؟

أجبته بُسرعة لأخبره أنني لم أكن سوى صيدًا لهذه المكيدة التي نصبها لي.

-والله مكنتش أعرف .... هو أخدني عند المحامي وقالي إمضي على الورقة وهنبقى متجوّزين .... وكان في اتنين شهود كمان

-أه ... وإنتِ طبعًا مسألتيش عن الاتنين الشهود دول

قالها بثقة وكأنه يعرفني، يعرف أنني لن أفكر أبدًا أن هذين الشاهدين كانا مُشاركينٍ بتلك اللعبة، وأنا بالفعل لم أفكر بذلك وأكدتُ على ما قاله جورج.

-طب وأهله ... مسألتيش عن أي حد من معارفه يمكن نقدر نوّصله ؟

كان يسألني بدافع المساعدة وكُنت أنا كالطفل الضائع من والديه وأنا أجيبه:

-لأ .... أصلي كُنت بخاف أسأله عن أهله ليكون متخانق معاهم ويتضايق من سؤالي

قُلتها بصدقٍ ومبالغة تُشبه مبالغتي في مشاعري اتجاهه، وهذا ما جعل النبرة الساخرة تعاود الالتباس بكلمات جورج الذي أردف:

-يا حنينة ... أديه اداكي على قفاكي وخطف بنتِك....

صمت بُرهة عن الحديث وصمتُ أنا الأخرى لأستمع إلى اقتراحه:

-بقولِك إيه ...إنتِ تركبي أول طيارة وتيجي على مصر .... وإنسي الليلة دي خالص ... كدة كدة بنتِك مش مع حد غريب ده أبوها

زادت كلماته من غضبي وأطبقتُ على شفتاي بغضبٍ وأنا أعترض اقتراحه بنبرة مُرتفعة مليئة بالإصرار:

-إنت بتقول إيه ؟.... أنا لا يُمكن أرجع مصر من غير بنتي .... أنا متصلة بيك أصلًا عشان تيجي هنا وتساعدني ندوَّر عليها

ورغم أن كلماتي كانت مُحتدة إلى أنها لم تُزعزع جموده وسُخريته الطفيفة أثناء قوله :

-أجيلِك ده إيه .... هو بنتِك تايهة على أول الشارع ؟.... دا أنا على بال ما أجيلِك فرنسا فيها خمس سِت أيام على الأقل

وصل غضبي وإصراري إلى ذروَّته في تلك اللحظة وبِت أضرب الأرض بقدمي وأنا أهدده بكلماتي ذات الصوَّت المُرتفع كما لو أنه هو الذي أوقعني بمكيدته وليس هذا الحقير:

-وأنا مليش دعوة .... لو مجيتش فرنسا وساعدتني ... أنا هموِّت نفسي ومش هتشوفو وشي ولا تسمعو صوتي تاني

أنهيت المكالمة بزفرة حارقة أخرجتها من فمي قبل أن أغلق المكالمة وأقرر ترك المنزل على أمل العثور عن دليل يصلني بهذا المُخادع، انتشلتُ سُترتي البُنية وحجابي الخمري لأرتديهما بُسرعة وأترك المنزل ومعي حقيبتي التي تحتوي على جواز سفري وهاتفي وبعض النقود التي لم تتخطي الثلاثون يورو.

فتحت باب المنزل وبقيت أتجوّل في شوارع ليون والنيران تنبثق من عيناي، أفكر في كل الأيام التي مرٌت علينا، أفكر في لمساته الرقيقة وابتسامته الودودة المخادعة وكذلك كلماته المعسولة، كل ذلك كان مُجرد كذبة كبيرة، وأنا الحمقاء التي انساقت إلى كلماته بسهولة ويُسر.

بِت أتجوّل في الشوارع دون وِجهة مرادة حتى داهمتني العديد من الأصوات المُتداخلة، أصواتٌ تحمل من الغضب والعنفوان ما تحمله قبيلة قبل أن تغتال على نظيرتها، وكأي فتاةٍ في موقفي، تقهقرت أقدامي للوراء عندما زادت هذه الأصوات وبدأت تظهر جحافلٌ من الأقدام والنيران الضامرة مع بعض اللافتات المُرتفعة.

أسبلت بعيناي في صدمة وأنا أقرأ تلك اللافتات التي آشارت واحدة منهم على علامة مسجدٍ وفوقه علامة " x " كبيرة ولافتة أخرى تحمل كلماتٍ باللغة الفرنسية تقول " لا مزيد من هجرة المسلمون إلى هنا "، ولافتاتٌ صغيرة تحمل شِعار مجلة ساخرة تُدعى " تشارلي هيبدو " وكلماتٍ فرنسية تقول " أنا اسمي تشارلي"

لم تكُن تلك المسيرة سلمية كما اعتقدتُ في البداية، فكانت هناك سيدة بمُنتصف العُمر ترتدي حِجابًا وتقف وحدها في سلامٍ أعلم أنها تشعُر بالارتعاد من إقتراب تلك المسيرة، فكانت تحاول الهرب من حِصار الثوار كما كُنت أحاول أنا الأخرى، حاولتُ الهرب حتى ساقتني قدماي إلى هذه السيدة وبدأت أذناي تلتقطان السُباب والقذائف من أفواه الثوار وهم يرمقوننا في غضب.

انكمشتُ على نفسي وانضممت إلى تلك السيدة وأنا أدعو الله أن أرحل من هنا على خير، لكنها ثوانٍ معدودة حتى أخرج الثوار عصيٍ خشبية وبدأو يتعاركون مع مجموعة من المسلمين كانوا يجلسون بهدوءٍ لكنهم وثبوا للدفاع عن أنفسهم من هذا العدوان.

اشتبك الطرفين بالأسلحة البيضاء والعِصي وانقلبت الشوارع إلى حلبة مُصارعة، وأنا أقف بين ذلك كله يرتعد جسدي من الخوف، ولا أجد منفذًا للهرب، ندمتُ على عدم اطلاعي على الأخبار قبل أن أترك المنزل.

حاولتُ الاستنجاد بأقصى ما لدي لكن محاولاتي باءت بالفشل، هوِّيت بقدمي على الأرض حالما ارتطم رأسي بضربة عشوائية مصدرها واحد من الثوار، وما كانت تلك الضربة سوى بداية لتلقيي المزيد من الضربات على ظهري وكتفي وأنا مُنكمشة على الأرض أحاول تغطية رأسي وتحمُّل هذه الضربات بمزيجٍ من البكاء والاستنجاد.

تحطمت عظامي وازداد دعائي وتألمي حتى شعرت بضربة قوية على مؤخرة رأسي جعلتني أتأوه بصوُّتٍ مُرتفع قبل أن يستفحل السواد على كياني وأغيب عن الوعي.....

لا أدري كم من الساعات بقيتها على الفِراش لكنني فتحتُ عيني بثقلٍ وجسدي مُحطمٌ بالكامل، لم أستطع تحريك عظمة واحدة من عِظامي لأرحل عن هنا، فما إن أفقتُ حتى تأكدت أنني بأحد المستشفيات الصغيرة، التف رأسي بضمادة بيضاء كما الجروح على وجهي وسائر جسدي.

حاولتُ الاعتدال لكن ظهري آلمني لدرجة ألزمتني الفِراش مجددًا، استسلمتُ في النهاية وبقيت مسُتلقية أتلفت بعيناي في كُل مكانٍ بحثًا عن حقيبتي وجوالي، لم يكن بحثي ذا فائدة لأنني لم أعثر على شيء، فلا أجد حقيبتي ولا جوالي ولا حتى جواز سفري!!

-إذا سمحتي ؟... هل تعلمي أين حقيبتي ؟

قُلتها بإعياءٍ للمرضة التي دلفت الحُجرة لتتفقد حالتي، أو ربما لتؤدي وظيفتها، فنظراتها المُشمئزة اتجاهي أكدت لي أنها مجبورة على إنقاذي.

-لأ .... لم يكن معكِ شيئًا

بصقت تلك الكلمة باستحقار قبل أن تتفقد المحاليل وتنزعها عن يدي ثم ترحل عن الحُجرة.

ما إن رحلت حتى حاولت مُجددًا الاعتدال وأنا ألتقط أنفاسي وأحاول استجماع ثباتي، فلا يكفي ما فعله آدم حتى يأتي أولئك المتعصبون ويسرقون جوالي وجواز سفري، أصبحت ضائعة بمعنى الكلمة....

ـــ

16يونيو 2015 ليون : فرنسا

توقفت حياتي مرة واحدة، فلا أنا أذهب إلى العمل، ولا أتناول الطعام ولا أحتى أتصل بعائلتي، حسنًا، هاتفي قد سُرق فكيف سأتصل بهم ؟

أجلس الآن على فراشي بوجهٍ شاحبٍ كالموّتى وآثار جروحٍ بقيت عالقة بوجهي لتُذكرني بذاك اليوم الذي اصطدمتُ فيه بحقيقة العالم، ياليتني بقيت عمياء على أن أواجه هذه الحقيقة، لا أعلم أن كُنت أنا العمياء أم أن العالم هو الأعمى ولهذا يتصرف بهذا الجنون.

أدركتُ سبب هذه الثورة التي اشتعلت بجميع البِقاع في فرنسا بالأيام الماضية، أدركتُ سبب رفعهم لشِعار تلك المجلة الساخرة التي اتضح فيما بعد أنها تسخر من الإسلام.

بالسابع من يونيو من هذا العام، حدث هجومٌ مُميتٌ على مكاتب تلك المجلة الساخرة التي تُدعى " شارلي هيبدو "، اقتحم زوجٌ من المُسلحين المُسلمين ببنادق على مكاتب المجلة وقاموا بقتل أحد عشر شخصًا من بينهم رئيس التحرير ستيفان شارب، وخلال ثمانية وأربعون ساعة، قُتل ستة أشخاص في هجماتٍ بباريس وما حوّلها.

أكدت التحقيقات فيما بعد أن المسئول عن هذه الهجمات هما الأخوان الجزائريان شريف وسعيد كواشي، كما أعلن تنظيم القاعدة في شِبه الجزيرة العربية مسئوليته عن ذاك الهجوم المُميت.

وبقراءة المزيد من التاريخ عن طريق الكُتب، اتضح لي أن سبب هذه الثورة هو شيءُ واحد فقط، هذا الشيءٍ هو " الإسلاموفوبيا " أي الخوف المُفرط وغير المُبرر أو

التحيّز والكراهية ضد المسلمين والإسلام والحضارة الإسلامية، فالغرب لا يريدوا للمسلمين أن يؤكدوا أنفسهم كأطرافٍ متساوية على الساحة الثقافية والحضارة العالمية، فمباديء الإسلام تتعارض مع مباديء الغرب، لهذا السبب عملوا على تشويه صورة الإسلام.

وبدأ ذلك مُنذ هجوم الحادي عشر من سبتمبر، عندما قرر أسامة بن لادن أن يُطلق الراشقات الصاروخية ويُفجر البرجين، والعجيب بالأمر، أن هُناك رسالة أُرسلت بالخفاء للمُجتمع الصهيوني تُحذرهم من الإقتراب من البُرجين قبل تفجيرهما بيومٍ واحد!!

قرأتُ أيضًا عن هجمات محمد مراح، الذي قتل سبعة أشخاص في جنوب غرب فرنسا، وكان مواطنًا فرنسيًا من أصل جزائري يبلغ من العُمر 23، لكن تطرفه الإسلامي لفت الانتباه مؤخرًا.

والذي زادني شعورًا بالمُقت، هو أن هذه الهجمات إن لم يفعلها مُسلمًا، يتم وصفه بالمجذوب، لكنه إذا كان مُسلمًا، فسُرعان ما يُلقب بالإرهابي ويضعون اللوم على الدين، لا أصدق هذه الهيبوقراطية.

وصلتني رسالة من زميلتي بالعمل، لا أعرف لمَ تذكرتني الآن، لكنني أظن رسالتها هي من دافع كراهيتها لي، فقد كانت تدعوني لمشاهدة فيلم " فتنة " الذي ألّفه السياسي الهولندي " جريت ويلدرز " الذي يترأس حِزب الحِرية والمعروف أيضًا بعدائيته للإسلام، فهذا الفيلم لم يكن سوى إساءة لديننا المُسالم، هذا الفيلم كفيلٌ بتلطيخ عقول الغرب.

حيث يعرض الفيلم ستة من سوّر القُرآن الكريم مصحوبة بالهجمات الإرهابية!!

انطبق على ذاك الفيلم مقولة قرأتها بإحدى الكُتب، هذه المقولة تقول **"بمِقدار السُلطة أن تتحكم في أنماط التفكير عن طريق التحكُم باللغة التي يستخدمونها "** هذا بالضبط ما يحاول زرعه الغرب لأنهم متخوّفون من إنتشار الإسلام وسيطرة العرب، فقد كتب أديب مرموقٌ في كتابه ذات مرة:

"هناك خطر يُهدد الغرب إذا استخدم العرب كل مقدراتهم المالية والفكيرية والعقائدية استخدامًا فعالًا"

أنهيتُ بحثي عند هذه الجُملة التي جرّفتني نحو العديد من المواقع المعادية للإسلام كصفحة " العقلانية " على الفيس بوك و " exmuslim " على الانستغرام و " if vs but " على اليوتيوب وغيرها من المواقع التي تهدف إلى تسميم العقول والسُخرية من الإسلام.

اشمئزّت عوالم وجهي وأنا أتطلع إلى تلك الصفحات المُقززة وأغلق الحاسوب قبل أن أنفجر، أدركتُ كم أن الحقيقة ثقيلة على النفس، أدركتُ كم يكرهنا العالم ويتمنى انتهائنا، لكنني مُتيقنة أن الحُق سيُكشف يومًا، وتلك الأكاذيب التي ينشرونها ستنقلب ضدهم في النهاية.

على كُلٍ، يجب أن أتحمّل هذا المُستنقع الغادر حتى أعثر على ابنتي، لا يجب أن أتركها تتلطخ بوحل العالم....

17يونيو 2015 ليون : فرنسا

لم يكن صباحًا جيدًا ككل صباح، رغم لطافة الطقس والحرارة المُعتدلة نسبيًا، إلى أن شعوري بالحسرة على حالي بات يُسيطر على عقلي ويمنعني من التفكير السليم.

أصعب ما في الهروب، ألا تكن تعرف من أي شيءٍ تهرب، وكيف تهرب من الأساس.

كيف لي أن أهرب من العالم وأنا في مُنتصف المُستنقع ؟ كيف لي أن أواصل حياتي بشكلٍ طبيعي وأتجاهل أن ابنتي الوحيدة لا أعرف أين هي، ابنتي التي ربما لن أستطيع أن أنجب غيرها.

أرهقني التفكير وأصبح كصخرة جثيمة تجعل رأسي يزن أطنانًا، ورغم أنني دفعت جسدي الثقيل للعمل لعلني أربح قوت يومي وأبدأ البحث عنهما، إلى أنني لا أستطيع التفكير بشكلٍ سليم، ولا أعرف كيف سأواصل العمل بعد ما حدث، مُديري من الأساس يُعاملني بازدراء، فكيف سيُعاملني بعد أن انتشرت حادثة هيبدو وقلُبت الموازين.

-السيد بييدرو يُريدكِ

التقفتني هذه الجُملة الجافة من مُستنقع أفكاري لتجعلني أرفع رأسي بآلية وأتحرٌك من مكتبي لأنفذ التعليمات دون ردٍ واحدٍ حتى.

طرقتُ باب المكتب بهدوءٍ قبل أن يسمح لي بييدرو بالولوج والوقوف أمامه استماعًا لأوامره.

-ألم يُخبركِ أحدٌ أن الغياب بدون إذنٍ هو مخالف لقوانين الشركة ؟

قالها بحدة وصوٌتٍ جهوريٍ جعلني أسبُل بعيناي لأسفل، فأنا لم أذهب إلى العمل طوال تلك الأيام بسبب حالتي النفسية والجسدية، ولم أستطع أن أتصل وأطلب إجازة بسبب هاتفي الذي فقدته، لم أفعل شيئًا سوى الإيماءة المتأسفة برأسي والتي تبعتها باعتذار:

-أعتذر ... كُنت مريضة ولم أستطع الإتصال لأن هاتفي قد سُرق

قُلتها بصدقٍ لعله يشفق على حالي ويُمرر الأمر، لكنني لم أجد منه سوى نظراتٌ مُستحقرة أشعر معها أنه ينتهز الأمر حتى يوٌبخني:

-لن أقبل اعتذاركِ .... لقد تغيٌبتٍ لأكثر من خمسة أيام، وجابريل قام بطردكِ من فريقه .... أي أنه لم يعُد هناك فائدة من وجودِك

اتسعت حدقتاي في صدمة من حديثه ورفعت رأسي لأستقبل ما تبقى من كلماته السامة التي كانت كراشقاتٍ صاروخية:

-هيا ... إرحلي من هنا ... أنا فصلتكِ عن العمل....

____

لمَ المصائب تأتي مرة واحدة ؟ كانت حياتي وردية لا تخلو من أية شائبة، أما الآن، فهي أشبه بالجحيم، إن لم أمُت بين يدي الثوار، سأموت جوعًا وقهرًا، وربما لن أرى والداي مُجددًا، أنا لا أملك عملةً واحدةً لأدفع ثمن التذكرة، ولا أعرف كيف أتواصل مع جورج وأطلب منه المساعدة، أرسلتُ له رسالة ذات مرة عن طريق الحاسوب ولا أعلم إن كانت قد وصلت له أم لا، فقد اضطررت لبيع الحاسوب حتى أحصل على القليل من الأموال والتي أهدرتها في وسائل المواصلات.

أي أن الوسيلة الوحيدة التي بقيت لي للإتصال بوالداي قد رحلِت هي الأخرى، وعن قريب، سيتم طردي من المنزل لعدم دفعي للإيجار، وسأضيف حالة مُشردة بجوار المخدوعة والمسروقة والمُغتربة والمفصولة عن العمل.

حاولتُ تبديد يأسي ومحاولة العثور على حلٍ لتلك الورطة، إن لم يكن يوجد إنسانية، فيُمكن أن أجد قانونًا يحميني هنا.

هذا ما توّصلت إليه أفكاري وأنا أتجه صوّب مركز الشُرطة عازمة على التبليغ عمن سرق هاتفي وجواز سفري وحقيبتي الجلدية السوداء، لم أكن أعرف عواقب ما أفعل، لكنني لا أجد طريقة أخرى تنتشلني من هذا الدمار.

واجهتُ ترددي وأنا أقتحم مركز الشُرطة كمن جاء لهجومٍ إرهابي، أعتقد أنهم ظنوا ذلك وهم يروا طيفي وملامحي العربية مع ذاك الحِجاب الذي يُزين شعري.

-عفوًا ... أريد أن أقدم بلاغًا

قُلتها بثباتٍ أمام ضابط الشُرطة الذي يتناول الهلالية بنهمٍ ويتحدث مع زميله دون انتباهٍ لوجودي.

-أنت أيها الشُرطي ... أريد أن أقدم بلاغًا

رفعتُ من نبرة صوّتي وأنا أهتف بذاك الضابط الذي لاحظتُ فيما بعد أنه يتحدث بسُخرية عن ذاك الهجوم الذي حدث مؤخرًا، ليس سُخرية من الهجوم، بل سُخرية ممن قام به.

وجدته يتوقف عن تناول الهلالية وينظر لي بنظراتٍ مُزدرية قال معها:

-ما بكِ يا هذه ... ألا ترين أنني أتناول الغداء ؟

ماذا سيحدث إن أضفت على قائمة صفاتي المؤخرة صفة " قاتلة " ؟

هذا ما أفكر به الآن وأنا أحاول استجماع طاقتي أمام هذا الشُرطي الذي يُصيبني بالغضب؛ رفعتُ من نبرة صوّتي أكثر حتى بِت أصرخ بوجهه متفوّهة:

-ما شأني بغدائكِ يا هذا .... أنا تعرضتُ للسرقة وأريد أن أسترد حقي

تبّدلت ملامحه الباردة بأخرى حانقة مُتربصة وكأنني أخرجتُ سلاحًا وصوّبته على رأسه، رماني بنظراتٍ صارمة أنهاها بكلماتٍ مُستحقرة:

-وأنا لا يُهمني .... عودي إلى بلدتِك ودعيها تُساعدكِ بنفسها ... ألا يكفي ما جاء من ورائكم ؟

أصبح وجهي كجمرة نارية تكاد تُحرق ما حولها، بقيت واثبة مكاني أتابع هذا الرجل الذي دلف مركز الشُرطة وبدأ يتحدث مع الضابط الذي عامله بجفاءٍ كما عاملني.

لم يتوقف فمي عن سبهما بالعربية المصرية، فالُسباب بالمصرية يجعلني أخرج ما أريد قوله بالفعل، دون أن أتعرض للمسآلة.

-لأ وأنا إللي فاكراها دولة بتاعت حُرية ومساواة .... طلعت دولة بتاعت كرواسون وقهوة .... حسبي الله ونعم الوكيل...

لم أتوّقف عن الدعاء عليهم وعلى مُديري بالعمل وعلى آدم وخديعته بصوّتٍ مسموع ينخفض تدريجًا حتى لا يظنني الجميع مجذوبة.

انطلقتُ بقدماي خارج مركز الشُرطة بعد أن تحوّل يأسي وحسرتي إلى غضبٍ عارمٍ كفيل بتدمير الدولة ما بها، تُظنوني إرهابية، حسنًا أنا سأريكم أيها الأوغاد.

-سيدتي ... سيدتي .... توّقفي إذا سمحتِ

ناداني هذا الصوّت بلغة فرنسية جعلتني أتوّقف بعد أمتارٍ قليلة عن مركز الشُرطة، ثم ألتفت صوّب هذا الرجل الذي اعتقد أنه كان بجواري بالداخل.

وقف أمامي هذا الغريب بملامحه الهادئة وتلك اللحية الكثيفة التي تتماشى مع خُصلاته الداكنة وبشرته الحنطية مع عينيه السوداء الثاقبة، كانت ملامحه عربية نمطية ونظراته غامضة أوّحت لي أنه بتشكيلٍ إرهابي.

أكاد أتيقن أن صوّرته يتم استخدامها لترهيب الأطفال الغربيون بالمدارس.

-ماذا تُريد ؟

قُلتها بحِدة وثقة مع نظراتٍ جامدة تذكرت معها هذا المشهد الذي تكرر مع آدم، فمقابلتي معه بدأت بعرضه للمُساعدة، وانتهت بالخديعة والكذب، وملامح هذا الرجل العربية، لن تجعلني أثق به وأكرر ما حدث.

-استمعت إلى حديثِك مع ضابط الشُرطة .... وأعرف أنكِ بحاجة للمساعدة

تنهيدة مطوّلة خرجت من جوفي بسأمٍ من ذاك المشهد الذي يتم تكراره مرة أخرى، وأنا لست غبية حتى أقع بالخطأ مرتين، لهذا السبب اختصرت الطريق بيننا بقولي:

-شكرًا ... لا أريد شيئًا

بصقتها بحدة والتفتُّ لأواصل سيري وربما أبدأ البُكاء على الأطلال بسبب قلة حيلتي، وما كِدت ألتفت وأرحل حتى وجدت هذا الغريب يُداهمني بقوله:

-متقلقيش مش هعملِك حاجة .... دا إحنا حتى ولاد بلد واحدة

تيبست قدماي مرة واحدة وشُلت خواصي وأنا أستمع إلى تلك اللكنة، هل كانت كلماته عربية ؟ هل هو مِصري ؟؟

-إنـ..إنت مصري ؟

هكذا أجبته وأنا أواجهه مرة أخرى بيعنين ينطلق منهما شُعاعاتٌ من الصدمة، هل هو الفارس الذي سينتشلني من محنتي ؟ أم أنه مُجرد مخادعٍ آخر ؟

كانت تلك الأسئلة تدور بذهني حتى وجدته يقترب خطوة اتجاهي وعيناه تُمشطاني من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي، لكنها ليست نظراتٌ مُعجبة كالتي مشطني بها آدم، بل هي نظراتٌ ثاقبة مُتفحصة وكأنه يُحاول استرفاد أسراري.

-أيوة مصري .... وسمعتِك بتكلمي نفسِك بالعربي جوة ... فعرفت إن إنتِ كمان مصرية

بالهذا الذكاء، ولماذا لم يُحادثني بالعربية مُنذ البداية ؟

هذا ما جال بخاطري قبل أن أستقيم بثقة وأسأله بتردد:

-هتساعدني إزاي ؟

رماني بنظراتٍ مُتفحصة قبل أن يُجيبني باستنتاجٍ واثق:

-إللي اتسرق منِك مش حاجة صُغيرة .... دي حاجة كبيرة .... نظراتِك بتقول إن في حد لبسِك في الحيطة ... والحد ده يبقى آدم... إللى تقريبًا كدة كان جوزِك

اتسعت حدقتاي في صدمة لم أكن أعرف معها كيف أجيب، أشعر أن لساني قد تم بتره، يبدو أنه يعرف الحقيقة، بل كيف يعرفها ؟!

-متتخضيش .... أنا سمعتِك بتدعي على واحد اسمه آدم .... كمان في علامة خاتم على صوابعِك ... وشكلِك كدة شيلتيه مؤخرًا

هدأت نبضات قلبي ما إن فسَّر لي كيف علِم الحقيقة، لكنني مع ذلك حافظتُ على صمتي وجمودي لأرى كيف سينتهي حواري مع هذا الرجل الغامض، رأيته يقترب نحوِّي بنظراته الثاقبة الكفيلة ببث الرُعب في النفوس، كان يقول بصوّتٍ غامضٍ وواثق:

-أنا عارف فرنسا كُلها .... وممكن اساعدِك تلاقي إللي اسمه آدم ده وتنتقمي منه

يظُن أنني أريد الانتقام، ولا يعرف أن ما أريده أكبر من ذلك بكثير، لكنني مع ذلك آبيت إفصاح الحقيقة وسألته بجمودٍ زائفٍ أخفى وراءه اللهفة:

-هنلاقيه إزاي ؟

ابتعد هذا الرجل الغامض عني وبدى على وشك عزيمتي للحديث في مكانٍ أفضل، فكان يُشير لي بإصبعه نحو سيارة الأجرة متفوّهًا:

-خلينا نتكلم في مكان أفضل...

ترددتُ قليلًا قبل أن أوافقه الحديث لعله يستطيع المساعدة بالفعل، فلا يوجد خيارٌ أمامي سواه، وإلا استسلمت لحياة المُشردة وفقدت آخر أملٍ لي باستعادة صغيرتي.

تبعته بخطواتٍ مُترددة ونظراتٍ تتجنب النظر إليه رغم التفاته نحوي وإشارته على ذاته مُعرفًا:

-بالمناسبة .... أنا مُسلم....

الفصل الرابع (حاربهم بالمنطق)

((مُسلم))

17يونيو 2015 ليون : فرنسا

بإمكانك السيطرة على عقول الآخرين، بمُجرد امتلاكك للمعلومات الكافية التي تُمكنك من فِعل ذلك، فالإنسان بفطرته الساذجة، لا يستطيع التفرقة بين ما هو حقيقي وما هو مُتخيَل، وأنت بذكائك تستطيع تزيِن الأكاذيب لتجعلها تبدو وكأنها حقيقية.

لم آتي إلى هُنا من أجل المال والعمل كما يفعل الكثيرون، فأنا أتيت حتى أهرب من حياتي السابقة وأبني حياةً جديدة، حياةً لا تخلو من التحديات والعقبات.

أعمل في مِتجرٍ لبيع العطور ومُنتجات العناية بالبشرة، وقد حصلت على ذاك العمل بعد إقناعي لمالك المتجر بتوّليي الجُزء الأكبر من المبيعات، كما شهدت الأيام على مهارتي بالتجارة وإقناع الآخرين، حتى أن الزبائن يأتوننا بكثرة رغم تعدد متاجر العطور بفرنسا.

بإمكان الإقناع والخِداع أن يؤثرا على القرارات اللازمة، بل بإمكانهما أيضًا أن يكونا سببًا في اشتعال الحروب والأزمات، فقد كان هتلر يطمع للاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا، وقام في سرية تامة بحشد جيشه الألماني للهجوم عليها، ولأن جيشه لم يكن مُستعدًا، حاول أن يقنع تشمبرلين أنه إذا ترك المواطنون مدينة سوديتنلاند " تشيكوسلوفاكيا كما ينادونها الآلمان " فسينعموا بالعيش في سلام وأنه لن يستولى على المدينة.

وعندما صدقه تشمبرلين؛ أفتتح المجال لحدوث اتفاقية ميونخ التي هيأت ألمانيا للاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا، وهذا ما فعله هتلر بالضبط عندما لم يفي بوعده، ومن ثم استوّلى بعدها على بولندا، وبقيَت حروبه الاستعمارية تتوّسع حتى أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا وبدأت الحرب العالمية الثانية.

قطع تفكيري وشرودي صوْت أزيز الباب وهو يُفتح ليدلف منه أحد الزبائن، كانت فتاةً فرنسية ذات شعرٍ أرجواني على الأحرى قامت بصبغه، ملامحها جافة خالية من التعبيرات كأغلب الفرنسيون، وكانت تتلفت حولها بحركاتٍ بطيئة جعلتني أستنبط أنها لم تأتي لغرضٍ مُحددٍ، هذا يعني أنها مُستعدة لشراء ما يجذب انتباهها.

وثبتُ من موْضعي أحاول استعادة القوانين داخل رأسي حتى أعرف الطريقة المُثلى للتعامل مع هذه الزبونة.

وأول القواعد هي : عليك أولًا بكسب ثقة الزبون، فإن فعلت ذلك، فسوف تُهيئه للاستماع للعروض السخية التي ستقوم بعرضها، وحتى تربح ثقة الزبون، عليك أن تجتهد في توليد انطباعٍ طيبٍ للوهلة الأولى عن شخصيتك.

والابتسامة هي من أكثر تعبيرات الوجه تأثيرًا بالآخرين؛ لهذا السبب أفسحتُ المجال لتلك البسمة الهادئة بأن تُزين ثغري قبل أن أقول بأدب:

-مرحبًا بكِ آنستي .... هل تحتاجين للمُساعدة ؟

انتبهت للكنتي المُهذبة وابتسامتي العذبة التي جعلتها تطالعني بتبلمٍ وتنفي برأسها:

-لـ... لا ... لا أبحث عن شيءٍ مُحدد

كانت إجابتها متوْقعة وِفق تحليلي لشخصيتها، وبنظرة ثاقبة من عيناي، لمَحت حقيبة بلاستيكية تحتوي على ثيابٍ جديدة يبدو أنها ابتاعتها اليوم، وهذه علامة جيدة، هذا يعني أنها مُستعدة للشراء، وأنها تركت منزلها لأجل هذا الغرض.

هذا ما يسْر خطوْتي التالية، فبالنظر إلى وجهها مرة أخرى، استرفدتُ أنها تُعاني من بشرة باهتة جافة ربما بسبب كثرة مُستحضرات التجميل، لكنني حافظتُ على صمتي وعُدت إلى مِقعدي بعد أن رميتها بإيماء هادئة من رأسي لأفسح لها المجال بتفحُص مُنتجات المِتجر أولًا.

وفي نفس اللحظة، فتحتُ المذياع على أغنية هادئة مُبهجة ذات شعبية واسعة هنا، فالموسيقى هي ثاني المقومات بالتأثير على الحالة المزاجية، أعتقد لهذا السبب يتم استخدامها بكثرة في الإعلانات.

كما أنني حرِصتُ على تشغيل المُكيِف والتأكد من تلطيف الحرارة من فصل الصيف، فأغلب من يدلفون المتاجر يدلفونها أولًا أما للدفء من برودة الطقس أو التلطيف من برودة الصيَف، وأغلب المتاجر التي تزخر بالزبائن، هي المتاجز ذات المُكيف والروائح العطرة.

بعد فترة من تجوّلها وقع بين يديها عبوة من الدهان خاصة بترطيب البشرة، كانت تتفحص ثمنها ومكوّناتها بحيرة تنطلي على وجهها؛ وثبتُ من مقعدي لأبدأ مُهمتي الثانية مُستخدمًا قاعدة أخرى من القواعد التي أسير عليها، تلك القاعدة قرأتها في كتاب " كيفية التغلب على الأساليب الخاطئة التي تتبعها الشركات " وكانت تقول : " ينبغي أن تتأكد أنك توّلي الزبون مصلحته الشخصية اهتمامًا يفوق مصلحتك الخاصة "

-هذا الدهان جيدٌ لمنع الجفاف أو البُهتان، وكذلك يُحافظ على الرطوبة، لكنك إذا أردتي مفعولًا جيدًا، فيجب أن تمتنعي عن استخدام المياه الساخنة حتى لا تؤدي إلى فتح مسام الجلد وفُقدان البشرة لرطوبتها

قُلتها بهدوءٍ دون المبالغة لأن المبالغة والمغالاة عند الإعلان عن سلعة مُعينة تبعث دائمًا الشك في نفوس الناس، وكانت كلماتي ذات تأثيرٍ نسبيٍ عليها حتى وجدتها تسأل:

-لكنني لا أعرف هذا المُنتج

جهلها بالمُنتج جعلني أضطر لاستخدام الستة عشر كلمة الخاصة بجذب الانتباه والتي من بينهم : جديد ومجاني وفائدة.

-هذا المُنتج لايزال جديدًا .... مما يعني أن الجودة ستضحى أفضل من نظيرتها، وكذلك ثمنه

لا تزال علامات الشك على وجهها مما جعلني أتجه إلى حيلة أخرى تقول : العُملاء لا يُغيرون فِكرهم دون أن تدفعهم للتفكير في أثر المُشكلة وعواقبها.

-حرارة الطقس هذه الأيام قد تزيد من جفاف البشرة وقد يزيد ذلك من مُعدل قتل الخلايا وزيادة الطبقات الميتة

تعمدُّت أن أذكر المشكلة بصورة عامة حتى لا تشعر بالإهانة، ولأن الخوف هو من أكبر الدوافع الإنسانية قوة، وجدتُ علامات القلق تطغي على وجهها وتُمتزج مع الحيرة والتشكك، لهذا السبب لجأتُ إلى حيلة أخرى جعلتني أنتشل صبغة شعرٍ أرجواني وأظهرها أمامها متفوِّهًا:

-لدينا عروضٌ بمناسبة الصيف ... إذا ابتعتِ هذا الدِهان فستحصلين على هذه الصبغة كهدية مجانية

أظهرت الأبحاث أن نسبة الاستجابة لعبارة " هدية مجانية " تبلغ ثلاث أضعاف بالمقارنة مع عبارة " هدية " فقط.

في هذه اللحظة، دلفت فتاة بمُنتصف العشرين، رمتني بابتسامة مُرحبة وبدأت تسأل على نوٌع من العطور؛ هذا ما جعلني أترك تلك الزبونة المُترددة لفترة وجيزة لأعثر على طلبها، وأثناء بحثي عن هذا العِطر، كانت هذه الزبونة الدائمة التي أعرفها قد رمقت هذا الدِهان الذي تحمله تلك الفتاة والذي ابتاعته مُسبقًا.

-أو ... أنا أعرف هذا الدهان جيدًا... وأستخدمه يوميًا... إذا كُنتِ مُترددة بشراءه فأنا أنصحكِ به .... لقد جعل بشرتي الميتة أكثر نضارة خاصة وهو مصنوع من خلاصة بذور الشيا وزيت جوز الهِند

-حقًا !! ... أنتِ تستخدمينه ؟

-نعم بالطبع .... وثمنه حتى مناسبًا للعامة

اتسعت حدقتي الزبونة المُترددة في إعجاب وأثناء ما كُنت أحاسب الزبونة الدائمة على العِطر الذي تُريده، كانت تلك الزبونة تمِد الدهان نحوي وتضع بضعة يوروهاتٍ على الطاولة ثم تترك المِتجر بعد أن تركت عوالم الانتصار على وجهي، فالقاعدة الأخرى التي يتم اتباعها هنا بكثرة تقول : تقديم الاستشهادات على لِسان المُستهلكين تزيد من مصداقية الزبون، كما أن نوّع المستهلكين يؤثر أكثر على الزبائن من نفس النوع، فالفتاة تؤثر على الفتاة والرجل يؤثر على الرجل.

ما إن رحلت هذه الزبونة، استمعت إلى كلماتٍ تخرُج من الزبونة التي آرادت عِطرًا والتي بالمناسبة تُدعى لوسيانا.

-متى سأحصل على عمولتي ؟.... فعلت ما طلبته مني بالضبط

قالتها بلكنة آمرة جعلتني أنتبه وأخرج العِطر من الحقيبة البلاستيكية وأعيده مكانه، فهي بالأساس لم تأتي للشراء، بل أتت لتنفيذ مُهمتها.

-ستحصلين عليها بنهاية الشهر .... كما اتفقنا

أومأت رأسها في إيجابٍ ثم تركت المِتجر وبقيتُ أنا بالداخل أستخدم ما تبقى من استراتيجيات التسويق وأستعين أحيانًا بلوسيانا حتى انتهت فترة الدوام وحانت اللحظة للعودة إلى المنزل وتسليم الوردية لرجلٍ آخر.

كانت الساعة لا تزال بالخامسة بعد الظُهر، ولأننا في فصل الصيف؛ كانت الشمس لا تزال ساطعة وكأنها العاشرة صباحًا، تركت المِتجر وتجوّلت في الطُرقات بحثًا عن سيارتي التي ستقلني للمنزل، فأنا أصفُّها على بُعد أمتارٍ قليلة لعدم وجود أماكن شاغرة للاصطفاف، فالمتجر يقع بمِنطقة مُتكدسة بالسكان.

تيبس جسدي مرة واحدة حينما توّقفت أمام المكان الذي من المُفترض أن تضحى سيارتي مُصطفة به، لكن العجيب أنه لا يوجد أي أثرٍ للسيارة وكأنها تبخرت مرة واحدة، ما لفِت انتباهي فقط، هو هذه الشظايا الزجاجية المتناثرة على الطريق.

احتدت ملامح وجهي وباتت النيران تتغلغل بكياني وأنا أتلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن سيارتي، وعندما اغتابني اليأس؛ التفت لأسأل واحدٌ من المارة الواثبين إذا كان قد رآى سيارتي من قِبل.

-عفوًا .... أرأيت السيارة التي كانت هُنا ؟.... سيارة حمراء

أخذ الرجل نفسًا من لفافته وأخرجه على هيئة أدخنة قبل أن يلتفت نحوي متفوّهًا ببرود:

-نعم ... رأيتها .... كان يقودها رجلٌ وانطلق بها مُنذ فترة وجيزة

كوّرت قبضتي في غضبٍ وأنا أستقبل كلماته الباردة وعدم محاولته لإيقاف هذه السرقة، لم أشأ أن أُطيل الحديث معه خاصة بملامحي العربية واسمي المباشر الذي سيجعلني اتناقل بين الصُحف كمُجرمٍ خطير عندما ألكمه لكمة بسيطة.

لهذا السبب حافظتُ على ثباتي وأنا استقل سيارة الأجرة عازمًا على الإبلاغ في مركز الشُرطة.....

كان المُركز مُعتجًا بالعديد من الأشخاص والعديد من الشِجارات، فحسب ما قرأت بالصُحف، الجريمة التي حدثت مؤخرًا والتي ارتكبها العربيان لاقت صددًا في فرنسا وزادت من الثورات المعادية للإسلام، لأ أعرف كيف العالم بهذه السذاجة حتى يعتقد أن الإجرام خُلق من الأديان ؟ فحتى الفراعنة رغم كُفرهم حرٌموا القتل.

على كُلٍ، اتجهتُ فورًا إلى الضابط حتى أقدم البلاغ، وكان ضابطًا أرعنًا يتناول الهلالية ويسخر مع زميله عمن تسبب في حادثة هيبدو، يعتقد أن اثنان عربيان مسلمان يُمثلان الأمة المكوّنة من أكثر من بليون شخص!!

حاولتُ المحافظة على ثباتي وأنا أقدم البلاغ لكن الضابط لم يكُن مُنتبهًا لي، فكانت تقف بجواري فتاةً تبدو بمُنتصف العشرين ذات ملامح عربية وحجابًا يُزين رأسها، لأ

أعلم إن كانت بالفعل عربية، لكن حديثها المهاجم جعلني أتيقن أنها تُعاني من ضائقة ما، وهذه الضائقة ليست سرقة حقيبتها كما كانت تصيح بالضابط.

تفحصتها عن قُربٍ أكثر لسبب لا أعرفه، فدائمًا ما أحاول رسم الانطباعات الأولية مع أي شخصٍ أتقابل معه، وهذا الانطباع يتم رسمه عن طريق النظر إلى الوجوه نظرة فاحصة، ثم النظر إلى الهيئة والملابس دون أن تلفت انتباههم، ثم الإصغاء جيدًا إلى حديثهم ونبرة صوّتهم.

ومن خلال نظرة ثاقبة مُتفحصة، استرفدتُ علامة الخاتم بيدها اليُسرى والذي تم نزعه مؤخرًا، استرفدتُ أيضًا عدم حملها للحقيبة ونظراتها الحادة التي تبدو أنها مهمومة وضائعة.

كِدتُ أواصل تقديم البلاغ وتجاهل تلك الفتاة التي ذكرّتني بفتاةٍ أخرى أتمنى عودة الأيام حتى آراها مُجددًا.

لكن ما أوقف أفكاري وقراري بتجاهلها، هو تلك النبرة العربية التي تحدثت بها بصوّتٍ مسموع، كانت تسب وتلعن هذين الضابطين بلُغة عربية ولكنة مصرية!!

ما إن تأكدت شكوكي حيالها وأدركت أنها من نفس بلدتي، زاد فضولي نحوها وعزِمت على مساعدتها مهما تطلب الأمر، لم تكن المساعدة من شيامي ذات يوم، لكن حديثها بتلك الطريقة جعل نيران الحنين تتدفق إلي وتزيد من عزيمتي على مساعدتها، أو على الأقل التحدث معها، فقد اشتقت الحديث مع المصريون مُنذ جِئت إلى هنا.

فبعد وفاة عائلتي، انقطعت تمامًا عما يحدث ببلدتي الأم، وطوال أعوام السابقة، لم أتحدث بالعربية سوى مع نفسي حتى صِرت أشبه بالمجاذيب، ورؤيتي لفتاةٍ مصرية فتح لي المجال للحديث بتلك اللكنة التي اشتقتها للغاية.

وجدتها تتحرك بخطواتٍ غاضبة حتى تترك المركز خالية الوفاض بعد أن سخر الضابطين منها؛ هذا ما دفعني لتجاهل البلاغ والعدو وراءها وأنا أناديها بلُغة فرنسية حتى لا أصيبها بالصدمة حينما تعرف أنني مِصريٌ مثلها.

-سيدتي ... سيدتي ... توقفي إذا سمحتِ

هكذا كُنت أناديها وأنا أهرول وراءها حتى توّقفت لتُحادثني بنظراتٍ مُقتضبة استرفدتُ منها أنها تعرضت لمثل هذا الموقف، وقد كانت على وشك الرحيل وتجاهلي لكنني كشفت عن هويتي وحادثتها بلكنة مصرية جعلتها تتصلب وتلتفت لي مرة أخرى.

أعلم أن صدمتها الآن قد تجعلها تتسآل لمَ حادثتها بالفرنسية في البداية، لكن هذا لا يُهم، فما يُهمني هو أن أعرف حقيقتها، وأعرف كيف أساعدها، فهي كالكنز الذي وقع بين يدي، لا أتصادف مع المصريين يوميًا خاصة في ليون.

بعد حديثٍ قصيرٍ دام بيننا، استطعتُ اقناعها بالحديث في مِقهى قريبٍ يُساعدنا على التحدث بأريحية، أخبرتها أن اسمي هو مُسلم وهي ظننتني أخبرها عن ديانتي، وعلِمت أيضًا أن اسمها إيمان، مُسلم وإيمان في عالمٍ يكره المسلمون، يالهذا القدر!!

جلسنا بإحدى المقاهي الشعبية لأحتسي القهوة السوداء وتحتسي هي عصيرًا من الليمون، من خلال نظرتي نحوها، علِمتُ أنه من السهل خِداع هذه الفتاة، فهي رغم أنها تعرفني مُنذ فترة وجيزة، إلى أنها قصَت علي حياتها مُنذ نعومة آظافرها حتى خِداعها من ذاك المدعو بآدم والذي أخبرتني فيما بعد أن اسمه الحقيقي شارون أيزنعوت.

-وبس كدة .... سرق الكريديت بتاعتي وخطف بنتنا وهِرب .... وفوق ده كله، طلع عليا الثوار وسرقو شنطتي والباسبور ... يعني بقيت مسجونة هنا ... لأ وكمان اترفدت من الشُغل

ارتشفت آخر رشفة من عصيرها وكُنت أنا أفكر في حديثها واتأكد أنني الوحيد القادر على المساعدة، فنحن الاثنان كالأغراب في عالمٍ يملئه الأوغاد، ولكي ننجو منه، يجب أن نبقى سويًا؛ لهذا السبب تقدمتُ بجذعي مُقترحًا:

-إنتِ ممكن تروحي القُنصلية وترجٌي الباسبور تاني .... وبالنسبة للفلوس مقدور عليها، أنا ممكن أدوٌرلِك على شُغل تجيبي منه فلوس وتدفعي فلوس التذكرة

رغم أنني أملك من النقود ما يكفي لمساعدتها، إلى أنني أعلم جيدًا أنها لن تسمح لي بذلك، وربما تنفُر مني فيما بعد، لهذا السبب حافظت على الخطوط الحمراء بيننا حتى لا تبتعد من أول لقاء.

وللعجب، وجدتها ترفض اقتراحي بنبرة مليئة بالاصرار والتحدي:

-لأ أنا مش هسافر من غير بنتي .... مُستحيل اسيبها مع الراجل ده، ومستحيل أخليه يبعدها عني

أعجبني رغبتها في البحث عن صغيرتها وعدم نسيانها، هذا ما سيدفعني لمساعدتها أكثر مهما تعرضت حياتي للخطر، حياتي من الأساس لم يكن لها معنى، فما الضير بالمخاطرة ؟

-أنا بس كُنت عايزة....

قالتها إيمان بتوٌترٍ بدى جليًا على وجهها، شبكت أصابعها على الطاولة وبدأت تُحركهم حركاتٍ عشوائية سبقت صمتها وترددها قبل أن تطلب:

-هو ممكن يعني استخدم الموبايل بتاعك ؟... أصل أنا بِعت اللاب توب ومش عارفة اتواصل مع أهلي .... عايزة اتصل بجورج أقوله ييجي يساعدني

هل قالت جورج أم أنا أتوٌهم ؟ ما علاقة هذا الرجل بها ؟

بقيت الأسئلة تساورني وتُرتسم على عيني حتى وجدتها تختصر الطريق بتفسيرها:

-جورج يبقى ابن خالتي

وتفسيرها كان أشبه بتفسير الجرائد الصينية بلُغة هيروغليفية، وهذا ما دفعني لسؤال:

-ابن خالتك !! ... هو ابن خالتِك مسيحي ؟

أومأت برأسها وهي تُفسر لي عائلتها التي ينتشر بها الوحدة الدينية:

-أيوة .... أصل خالتي مسيحية وهي اللي رضعتني عشان ماما كان عندها مشاكل في الرضاعة.... وماما كمان على فكرة كانت مسيحية بس أسلمت قبل ما تتجوّز بابا

حرّكتُ رأسي بتفهُمٍ لحديثها ثم أخرجتُ جوالي لأعطيه لها وأنا أكاد أكون متيقنًا أن هذا المدعو بآدم لم يجد صعوبة بخِداعها.

كانت تعبث بالجوال وتضعه على أذنها وتبقى لفترة وجيزة ثم تُبعده خالية الوِفاض وتُعيد الكرة لخمس مرات متتالية انتهت بملامح يائسة قالت معها:

-مش بيرُد

مددُت يدي لأنتشل هاتفي بهدوءٍ وأنا أطمئنها:

-تلاقيه مش فاضي دلوقتي .... أنا هسجل رقمه ولما يتصل هقولِك

أومأت رأسها بموافقة قد عزِمتُ معها على البقاء بجوارها حتى يتصل جورج وتستطيع أن تطلب منه المساعدة، كُنا على وشك أن نطلب العشاء لولا صوّت التلفاز الذي صدُح فجأة ليعرض جريمة إرهابية أخرى حدثت بباريس وراح ضحيتها ستة أشخاص مع بعض الإصابات.

وكعادة التلفاز الغربي، كان المُشتبه الأول في تلك الجريمة هو الجماعات الإسلامية، أكاد أتيّقن أنهم إذا علموا المُجرم الحقيقي فسيقولون عنه مُختلًا عقليًا، فصفة الإرهاب لا يتم ربطها إلا بالمسلمين بالنسبة لهم.

-هذا ما يأتينا من وراء " المُجتمع المسالم " .... لا أعرف متى ستتوّقف الدولة عن السماح لهجرة أولئك البربريون مُدعيو السلام

-معكِ حق ... هذا الدين لا يأتي من وراءه سوى المتاعب ... يكفي أنه بُني على الحروب والقتل

كان هذا الحديث دائرٌ بين فتاتين يجلسان على مقربة منا وعيناهما تُحدقان بنا، يبدو أنهما يُريدان رحيلنا ويُريداننا أن نشعر بالخزي والعار، لا يعرفان أن من يعتنق الإسلام الصحيح لا تُزعزعه الأقوال والافتراءات.

وعندما طال حديثهما وسُخريتهما، كانت إيمان على وشك الانفجار وكُنت أنا في حالة هادئة أنهيتها بوثوبي عن المِقعد واتجاهي نحو هاتين الفتاتين العُنصريتين:

-معذرة يا سيدة ... وأنتِ تتحدثين عن الحروب .... تغافلتي عمن قام بالحرب العالمية الأولى والثانية ... وتغافلتي أيضًا عن جرائم الاستعمارات البريطانية

قُلتها بهدوءٍ وثباتٍ جعلها ترميني بنظرة مُزدرية تحوّلت للاستحقار عندما أدركت حقيقتي، خاصة بعد أن وثبت إيمان بجواري تطالعهما بنظراتٍ مُقتضبة.

-وما شأني بجرائم الاستعمار ؟.... أنا أتحدث عن جرائم اليوم

-لكنكِ قوّلتِ أن هذا الدين بُني على الحروب والقتالات .... ونسيتي أن أمريكا مبنية على الإبادة الجماعية للهنود الحُمر

هكذا قطعت حديثها بنبرة رزينة ثابتة أوّقدت الغضب بداخلها وجعلتها أيضًا تعترض على حديثي:

-نعم لكن الحروب التي آقامها الغرب لم تكُن قائمة على نشر الدين

رفعتُ حاجبي بسُخرية زادتها غضبًا وأنا أستخدم استراتيجية السؤال كأحد أدوات التخاطب الفعالة.

-إذا الحروب من أجل القتل والإبادة مسموح ... والحروب من أجل الدين غير مسموح ؟

ازداد ارتباكها بعد سؤالي مما جعلها تترك مٌوضعها وتربط ذراعيها حتى تُبرهن وجهة نظرها الخاطئة بطريقة حادة:

-لا أنا لم أقل أن الحروب الاستعمارية مسموح بها ... أنا أقول أن تلك الحروب الاستعمارية لم يكن أساسها المسيحية أو أي ديانة أخرى.... ثم ما دخل الاستعمار بجرائم اليوم .... لا تنكر أنكم تُحبون القتال، وتقتلون من لا يؤمن بالله الخاص بكم

أنهت حديثها باستحقارٍ زاد من غضب إيمان لكنه لم يؤثر بي مرة أخرى، فأنا مُعتادٌ على تلك النقاشات خاصة هنا.

اتبعتُ وقتها استراتيجية الجِدال، وأول ما تقوله هذه الاستراتيجية : تغافل عن هجمات خصومِك، وكي تتعامل مع الشخصية العدائية يتعين عليك أن تكون هذه الشخصية لبضع دقائق وتُجاريها في الحركات والإيماءات وتتحدُث بنفس طريقة تحدُثهم.

-حقًا .... وما سبب اغتيالات واكو ومجزرة جونستاون إذن ؟.... ألم يكن بسبب طائفة دينية ؟

صمتُ بُرهة عن الحديث لأتبيَن تعليمات وجهها ثم واصلت:

-وما سبب قمع الكنيسة الكاثوليكية للحركة البروتستانتينة بالماضي مما أدى لمقتل 11 مليون شخصًا ... والأهم من ذلك، ما سبب حرب غرناطة بالأندلس والتي تسببت بطرد المسلمين واليهود لتنتشر المسيحية ؟ وما سبب الحروب الصليبية ؟... أليست هذه حروبًا دينية كما تقولون ؟

أدليتُ المعلومات التي أعرفها مُعتمدًا على الاستراتيجية التي تقول : لا تبدأ الهجوم المباشر ووضح وجهة نظرك وخبراتِك أولًا، ولا تُخبرهم أنك ستُغيِر طريقة تفكيرهم، بل اجعلهم ينجرفون للتغيير دون أن يُلاحظوا.

وجدتها تلتقط نفسًا عميقًا وتعثر على حُجج وبراهين تُكذب الحقائق التي أدليتها، يجب أن تعرف أن الجرائم تأتي من البشر وليس من الأديان، لكن يبدو أن عقلها الصديء لن يعرف الحقيقة أبدًا، وهذا ما جعلها تُقلدني بإدلاء الحُجج:

-وما سبب الجرائم الإرهابية التي تحدُث بالفترة المؤخرة ؟... ولماذا الجماعات الإرهابية دائمًا مسلمون ؟

هكذا سألت بطريقة توّحي برغبتها بإحراجي، لكنها لا تعرف أنها تعبث مع الشخص الخطأ، فأنا أعرف جيدًا ما الذي ستقوله وأعرف الإجابة المناسبة لجميع الأسئلة المعادية للإسلام:

-سببها البشر ... وليس الدين .... ثم من قال لكِ أن جميع الجماعات الإرهابية إسلامية ؟ ألم تقرأي عن عصابة الـ kkkأم أنها ليست إرهابية بقاموسكم ؟

أرخيتُ ظهري للوراء لأنتصب واقفًا وأربط ذراعي بطريقة تُشبه طريقتها حتى أواصل الحديث بنفس لكنتها المُستفزة:

-إن كُنتِ لا تعرفين المعني الحقيقي للإرهاب، فدعيني أخبركِ أن الإرهاب هو القتل والقمع والتخويف بغرض السيطرة والاستيلاء .... هذا يعني أن الاحتلال الفرنسي للجزائر كان عملًا إرهابيًا

أطلَقت زفرة مطوّلة من أنفها بدت لي زفرة غاضبة، انتظرتُ حتى تعترف بخطأها أو حتى ترحل بعد أن تشعر بالحرج، لكنها تستخدم طريقًا آخرًا لدحض ديننا وإثبات أنه دينٌ ملوّث وهذه المرة غيَرت الموضوع بقولها المُتهكم:

-لا يُهم ... لكنك لن تنكر أن رسولكم تزوج فتاة بالتاسعة من عُمرها .... ألديك تبرير لارتكابه جريمة كهذه بحق المرأة ؟

أخفيتُ بسمة مُتهكمة بداخلي لمعرفتي جيدًا بأنها ستطرق لهذا الموضوع، هذا السؤال يستخدمه الغرب لتلويث عقول رعيِتهم وجعلهم بهذا الجهل، لهذا السبب حافظتُ على سكينتي وأنا أواجهها بحكمة:

-الزواج بين رسولنا والسيدة عائشة لم يتعارض مع الإسلام، وقد كان هذا الزواج بالإجماع وبموافقة أبيها، وقد عاشت السيدة عائشة خمسون عامًا من بعد وفاة الرسول ولم تتزوج أحدًا ولم تتحدث عنه بالسوء رغم الفُرص التي أتيحت لها، ثانيًا

: " رفقة " في الكِتاب المُقدس تزوجها سيدنا إسحاق وعُمرها ثلاث سنوات، والحاخامات يقرّون بذلك رغم إنكار بعض النُصارى

كانت على وشك الاعتراض لكنني أوقفت حديثها وأنا أرميها بنظراتٍ واثقة أكملتُ معها الحديث:

-وفي ثمانينات القرن التاسع عشر، أي قبل ما يقرُب من 200 عام في أمريكا، وبـ 37 ولاية كان السن القانوني للزواج هو 10 أعوام، وفي ديلوير كان السن هو 7... وفي كتابٍ ألفه السير وليام بلاكستون بعنوان " تعليقات على القوانين الإنجليزية " بصفحةً 110، تحدث عن سِن الزواج وقال أن المرأة يُمكن أن تتزوج في سِن السابعة وهذا ما كُان يُطبق وقتها .... فعلى أي أساسٍ تدّعين أن شيئًا فعله النبي أو حدث في التاريخ الإسلامي على أنه خطأ وأنتم كُنتم تفعلون ذلك وقتها ؟ وعلى أي أساس تتحدثين على السِن المناسب للزواج رغم أن الكُتب النصرانية والتوراة لم تُحدد سن الزواج المناسب ؟

ألجمتها كلماتي الواثقة التي اعتمدتُ فيها على سنوات خبرتي وقراءتي للكُتب وعن الأديان الأخرى، فلكي تسبر أغوار عدوّك، يجب أن تعرف مصدر استلهامهم لتلك المعلومات الكاذبة حتى تعرفها وتستطيع الإجابة عليها بشكلٍ صائب، وأكثر المواقع تسميمًا للعقول على مُحركات البحث هو " faithbrowser " وأنا مُتيقنٌ أنها تقرأ من ذاك الموقع بصورة شِبه دائمة، هذا الموقع الذي لا يحتوي سوى على إساءة للإسلام.

-ما الذي تُريده يا هذا ؟.... نحن لا نؤمن بوجود الرب من الأساس، فلا أحد رآى الخالق من قبل، ولا دليل على وجوده

هكذا قالت الفتاة الأخرى وهي تقف بجوار صديقتها في هذا الجِدال لعلها تستطيع إحراجي بعد أن فشلت صديقتها، لكنني مع ذلك أجبتها بثقة:

-عدم قُدرتنا على رؤية الخالق لا تعني أنه ليس موجودًا... فلا أحد يستطيع رؤية عقلِك، أهذا يعني أنه ليس موجود ؟

استرفدتُ نظرات الإعجاب التي رمتني بها إيمان وهي تقف بجواري وتتابع هذا الجِدال في صمت، ولعدم قُدرة هاتين الفتاتين على الإجابة، بات الغضب مُسيطرًا على كليهما مما جعلهما يلجآن للهجوم والاستحقار مجددًا:

-هيا لنرحل عن هذين الوغدين ... لن أضيعِ وقتي في الحديث مع إرهابيين

لم أشأ الرد عليهما وكنت على وشك الرحيل لولا ذراع إيمان الذي امتد أمام عيني لتلتقف خُصلات شعر هذه الفتاة وهي تصيح وتسب بالمصرية:

-مين دول إللي إرهابيون يا بت يا ** إنتِ ... إنتِ فاكراني هسكتلِك ؟ ... عملالي فيها مدام دي ماديتشي....

انقلب المقهى رأسًا على عقب، وكانت إيمان قد انفجرت في هذا الوقت وبقيت تصفع الفتاة الأخرى وتسب وتلعنهما بهيستيرية كما لو أنها انتظرت هذه اللحظة مُنذ قديم الأذل، يبدو أنها تتخيّل هاتين الفتاتين نُسختان متطابقتان لآدم الذي أوقعها في مكيدته، على اعتبار أن آدم لم يكن رجلًا.

لو كُنا بمِصر الآن، لانقلب هذا الشِجار إلى مظاهرة غير سلمية، لكن ولأننا ببلد الهلالية والنظرات المتعالية، فكانت إيمان بالنسبة لهم لا تختلف عن جون سينا.

تعالت صرخات الفتاتين حينما انقضّت إيمان على واحدة منهما تجذب خُصلات شعرها بقسوة وكأنها تُريد إصابتها بالصلع، وصديقة الفتاة تحاول دفع إيمان والصراخ بوجهها دون جدوى، فيبدو أن إيمان لم تكن بوعيها الآن، أو ربما هي تنتهز الفُرصة للتنفيس عن غضبها.

أردتُ أن أخبرها أن الجدالات إذا انتهت بالهجوم والسب، فهذا يعني أن الطرف المهاجم لا يملك من الحُجج ما يُبرهن به اعتقاده، أي أننا كِدنا نربح هذا الجدال لولا انفجار إيمان غير المفاجيء والتفاف الزبائن حولنا في محاولة جاهدة لفض هذا النِزاع دون التحرك خطوة، فهم فقط يسبون إيمان بالفرنسية ويأمرونها بترك الفتاة " المسكينة"

تدخلتُ بهذا العِراك بما أوتيت من قوة وحاولت الصياح بإيمان حتى تبتعد، لكن يبدو أن لا حياة لمن تنادي، فإيمان لم تكُن تستمع إلى صياحي ولا حتى صياح الزبائن، هي فقط تتعارك مع الفتاة وصديقتها وتسبهما بالعربية أبشع السِباب.

كِدت أتركها تُنفس عن غضبها لولا سماعي لسرينة الشُرطة وهي تخترق أذناي وتُنذر بالخطر، فبالطبع لن تأتي الشُرطة لفض النِزاع، يكفي هذا الحِجاب الذي يُزين وجه إيمان وتلك اللحية العالقة بذقني حتى يضعوننا في القائمة السوداء، حتى ولو لم نرتكب ذنبًا.

تغلغلت الدِماء بعروقي وأنا أدفع الزبائن وانتشل سُترة إيمان حتى أدفعها عنوة بعيدًا عن الفتيات، أخبرتها بالعربية بأن الشُرطة قد أتت، وما إن أخبرتها حتى شُحب وجهها وبدى الخوف جليًا عليها، وما هي إلا بضع ثوان حتى عدوٌنا بأقصى ما لنا من سُرعة، نخترق الزبائن وندفع من يقف بطريقنا بقلوبٍ تنبض هلعًا.

هرولنا بأقصى ما لدينا خارج المِقهى وفي الأزقة ولازالت سيارة الشُرطة تتبعنا، بل ترٌجل منها شُرطيين وبدأا بالبحث عنا وكأننا ارتكبنا جريمة ما.

جذبتُ سُترتها ورائي عندما رأيتٌ زُقاقًا ضيقًا يفصل ما بين بنايتين خاصتين بالطبقة المُتدنية، لكن الحقيقة، هي تُشبه البنايات الطبيعية بمِصر.

على كلٍ، عدوٌنا في هذا الزُقاق بأقصى ما لدينا، وتحدٌينا انقطاع أنفاسنًا حتى تأكدنا تمامًا من رحيل الشُرطة.

أسندتُ بظهري على جِدار البناية أحني جِذعي للأمام محاولًا التقاط أنفاسي التي سُلبت مني إثر هذا الركض، وكانت إيمان تقف قبالتي تسعل بحِدة وتضع يدها على صدرها حتى تُهديء من ضربات قلبها المُتصاعدة، وبعد أن التقطنا أنفاسنا وبختها بحِدة:

-إيه إللي عملتيه ده ؟... منا خلاص كُنت جِبت أخرها

أطلقت زفرة مُعترضة من جوفها قبل أن تطالعني وتقول مُبررة:

-مقدرتش أمسك نفسي

تنهدت بحرقة وهي تستند بظهرها للوراء وتربط ذراعيها بعينينٍ تسبلان لأسفل وكأنها مُحرجة مما فعلت، وأنا أعرف جيدًا أنها لم تكن غاضبة من حديث الفتاتين على قدر غضبها من هذا الذي قام بخديعتها.

-خلينا في المُهم .... أنا هكلم واحد صاحبي عايش هنا .... وهخليه يشوفلِك شُغل

قُلتها بعد فترة من الصمت وأتبعت حديثي بفترة صمتٍ أخرى قبل أن أردف بجدية:

-وبالنسبة للي اسمه آدم ولا شارون ده .... فإحنا إن شاء الله هنلاقيه حتى لو لفينا فرنسا كلها

أردتُ أن أبثها بعض الأمل بحديثي حتى يهدأ روعها وتستعيد رباطة جأشها، وما كِدتُ أتخذ الخطوة التالية حتى صدح صوّت هاتفي وبدأ يُصدر زبزباته داخل جيبي؛ أخرجت الهاتف لأتطلع إلى من يتصل بي وأجد اسم " جورج " وبين قوّسين (إبن خالة إيمان) يُزين شاشة الهاتف.

إذا، علِم أن هذا الرقم الذي اتصل به لستة مرات، ذا أهمية قُصوى.

-دا ابن خالتِك

قُلتها وأنا أرمق شاشة الهاتف لأجد عينيها تتلألآن بوهج مُتلهفٍ ويدها تنتزع الهاتف من يدي حتى تُجيب هي على المكالمة، استطعت رؤية نظراتها المُستنجدة وهي تحادث ابن خالتها وتطلب منه برجاء:

-أيوة يا جورج أنا إيمان ... لأ أنا مش كويسة .... أبوس إيدَك تعالى....

وبعد أن أنهت تلك المكالمة، أكدت لي أن ابن خالتها سيُلبي نداءها، وسيأتي لمساعدتها، أي أنه سيأتي إلى فرنسا...

الفصل الخامس (الهروب من التقاليد)

))جورج((

17يونيو 2015 القاهرة : مصر

يبدو أن مفاجآت الحياة لم تبدأ بعد، كُل يومٍ أتأكد أننا لسنا مُخيرون، فالحياة تُحركنا كالعرائس الخشبية، ونحن نأبى الاعتراض حتى لو رطمتنا الحياة بحافة المِسرح الخشبي.

وها أنا ذا، أجلس على مكتبي أُباشر أعمالي وعقلي شاردٌ فيما سأفعله بالخطوة القادمة، كيف سأخبر والداي أنني ابتعت التذكرة وسأسافر إلى فرنسا بعد غد، فبعد أن اتصلت بي إيمان وطلب مني أن آتي للمساعدة وأنا لا أنفك أفكر سوى بالسفر، في البداية كُنت سأتجاهلها وأواصل حياتي، فإيمان من النوع الذي إذا ارتطم إصبعه الصغير بحافة المِنضدة سيبدأ بالصُراخ والعويل ويُمكنه أيضًا الذهاب للمشفى وادعاء أن حالته طارئة، ففي مرة من المرات، جعلتني أترك الدوام وأهرع إليها بالجامعة لأن كراستها البنفسجية قد سُرقت منها وهي تُريد مساعدتي في العثور عليها.

لكن هذه المرة، لا أعتقد أن ما تواجهه هو كراسة ضائعة تبحث عنها، فطريقة حديثها أوٌحت لي أنها في مُشكلة كبيرة، يكفي أنها تزوجت من أرعنٍ قام بسرقتها واختطاف ابنتهما، وعندما انقطع الاتصال بيننا لأربعة أيام، اعتقدتُ أنها ستُنفذ تهديدها وتُقبل على الانتحار لعدم وجود من يُساعدها؛ لهذا السبب حصلتُ على التأشيرة وابتعت التذكرة حتى استطيع السفر إليها، وعندما أتتني مكالمتها هذا الصباح، تأكدت شكوكي أكثر وأدركتُ أنني لن أستطيع تركها تُجابه هذه الصعوبات وحدها، فنحن في النهاية آقارب، بل وأخوانٍ في الرضاعة، أي أنها مسئولة مني مثل شقيقتي يوستينا بالضبط.

قطع تفكيري وقلقي صوٌت الباب الذي يتم فتحه بعد أن أنبأتني السكرتيرة ببدء تجارب المقابلة، فقد نسيت إخباركم أنني أعمل هُنا مُديرًا للموارد البشرية، الشخص الذي يتم الدُعاء عليه في جميع صلوات الموظفين.

رسمتُ بسمة ودودة على ثغري وأنا أستقبل تلك الفتاة ذات الثياب الرسمية المكونة من كنزة سوداء وقميصٌ أبيضٌ أعلم أنها ابتاعتهما خصيصًا لتلك المقابلة، كانت تعقص شعرها لأعلى وتضع القليل من مُستحضرات التجميل بما لا يلفت الانتباه.

رمتني بابتسامة متوّترة قبل أن تجلس بهدوء قبالة المكتب وتضع سيرتها الذاتية أمامي.

أرخت ظهرها للوراء على المِقعد مُشبكة أصابعها في حركة تدُل على الثقة الزائفة، فأنا أعترف أن النيران تغلغل بداخلها الآن، ورغم أنها تُحاول إخفاء تعابيرها الحقيقية إلى أن حركة العين واليدين تفضح الطرف الآخر.

بدأتُ المُقابلة بأسئلة تعريفية أسألها عن اسمها وسنها ودرجة تعليمها ومؤهلاتها وسبب اختيارها لتلك الوظيفة، وظيفة المبيعات.

كانت إجاباتها مُنمقة حفِظتهم عن ظهر قلبٍ قبل أن تأتي هنا، هذا يعني أنها ليست مقابلتها الأولى، أخبرتني أن اسمها ماريان فتحي كما قرأته بالسيرة الذاتية، وأنها تخرجت من كُلية التجارة جامعة عين شمس بتقدير جيد جدًا وعمِلت بمِتجرٍ للملابس الحريمية في أول عامٍ لها بالجامعة، ناهيك عن الدوّرات التعليمية والالكترونية التي أخذتها عن المبيعات، وكُل شيءٍ موّثقٌ بالشهادات وتصريحاتها.

إن كانت سيرتك الذاتية هي التي تُحدد قبولك بالوظيفة، لا كانت البطالة كلمة خيالية، فالسيرُ الذاتية لا تعادل سوى واحد بالمئة من المقومات التي تجعلك تفوز بالوظيفة.

-قوليلي بقى يا ماريان .... لو قابلِك عميل وبدأ يشتم في منتجاتنا .... هتعملي إيه ؟

سألتها بعملية جعلتها تُفكر لأقل من ثانية قبل أن تقول بثقة:

-هكلمه باحترام وهفهم منه إيه المُشكلة إللي بتواجهه وهكتب ده في التقرير السنوي .... بحيث إن الشركة تعدّل على مُنتجاتها وتستجيب لرأي الجمهور

-ولو تطاول عليكي إنتِ شخصيًا ؟

سألتها بنظراتٍ ثاقبة مُسيطرة مُتبعًا طريقة النظرة المُثلثية التي توحي بالجدية والوقار، وكانت في هذه اللحظة تُحرك قدميها بارتباكٍ طفيف ثم تُجيبني:

-هقوله إنه انسان مش مُحترم ... وهوقف تعاملي معاه

-حتى لو كان عميل مُهم ؟

هكذا سألتها لأزيد ارتباكها ضعفين وأجعلها تتنهد تنهيدة متوترة وتُغير إجابتها بإجابة :

-هفهمه غلطه بهدوء ... وهقوله إن احنا شركة مُحترمة

ارتفاع مستوى صوّتها أوّحي لي بالريبة وعدم الثقة، لذلك يتعين علي ضغطها أكثر من ذلك حتى أرى إلى أي مدى ستتحمل الأسئلة.

أرخيتُ ظهري للوراء بهمهمة لامبالية تعمدتُ معها إظهار الاستخفاف وأنا أشيح بنظراتي عنها، بهذه الطريقة سأفقدها بعضًا من ثقتها المُتبقية بأنها ستنجح بهذا الاختبار.

-طب بما إنِك عايزة تشتغلي في المبيعات... فأنا بقى عايزِك تبيعيلي جذمة أصلية ... لراجل رجله مبتورة

اتسعت عينيها لوهلة وأبعدت نظراتها عني ثم قامت بتشبيك يديها ووضعهما بين الساقين بما يوحي بعدم معرفتها للإجابة وزيادة شعورها بالتوتر.

-هقوله إن_

قطعتُ حديثها بوقاحة تعمدتها وأنا أقول:

-مش عايزِك تقوليلي هقوله .... عايزِك تعتبريني الراجل إللي انتِ هتبعيله الجزمة .... إللي رجله مبتورة

أومأت رأسها بتفهمٍ ثم عاودت رفع قامتها بثقة زائفة قالت معها:

-ألف سلامة على حضرتك يا فندم ... إحنا عاملين عروض على الجذمة دي وممكن_

قطعتها بفظاظة تعمدُتها أيضًا حتى أثير حنقها وانفعالها:

-إنتِ مش شايفة يعني إني مقدرش ألبس جِزم ؟... ولا إنتِ عايزة تعايريني

زاد ارتباكها في هذه اللحظة وهي تُعدل من نبرة صوُّتها إلى أخرى مُعتذرة:

-لا يا فندم أنا مش قصدي ... أنا بس بقول لو عندك صاحب أو أخ ممكن يحب الجزمة دي و_

ولثاني مرة أقطعها بفظاظة قبل أن تواصل حديثها:

-معنديش

انفلتت زِمام الأمور في تلك اللحظة، أجدها الآن تُطلق زفرة مغتاظة من أنفها بدت لي أشبه بالنيران، تظنني سأسمح لشخصيتها المُتسلطة التي تُخفيها أسفل رداء الثقة بأن تُسيطر على الاجواء وتجعلها تفوز بتلك الوظيفة، لا تعلم أنني أقبل واحد بالمئة فقط من المُتقدمين على الوظيفة، أي موظف واحد من كل مئة موُّظف، وبالطبع لن أختارهم بهذه السهولة.

-ما هو يا فندم مينفعش أبيع جذمة لواحد مُعاق

قالتها بغضبٍ طفيفٍ استشفيته عن طريق مهارتي بلغة الجسد، وما كانت كلماتها الثائرة سوى فُرصة لي حتى أقول بحاجبٍ مرفوع ونبرة مُستحقرة:

-مُعاق... !!

تنهدتُ بعدها واعتدلت في جلستي لأتفحص سيرتها الذاتية بلامبالاة قُلت معها دون أن أنظر إليها:

-تقدري تتفضلي ... المقابلة انتهت

قُلتها وأنا أشير إلى الباب لترحل هي بنظراتٍ حانقة تُرتسم على ملامح وجهها ولا تعني لي شيئًا، فأنا مُعتادٌ على تلك النظرات، فبعد رحيل هذه الفتاة، ألقيت سيرتها الذاتية في القمامة واتصلت بالسكرتيرة حتى أخبرها بتعليق المقابلات لفترة مؤقتة سأحاول فيها الانتهاء مما أريد.....

الأكذوبة الأكبر في هذا العالم، هي أن الأحلام تتحقق، فحتى وإن تحققت الأحلام لا تتحقق بالطريقة التي نُريدها، فأنا مثلًا، أردت الالتحاق بكُلية علم النفس لعشقي الشديد بهذا المجال، لكنني ما إن أنهيت الثانوية، أقنعني والداي بالاتحاق بكُلية التجارة كوّنها ستوّفر لي حياةٌ اجتماعية تليق بي، وستُساعدني على العثور على العديد من الوظائف، وحتى هذه اللحظة، لا زلتُ نادمًا على الانصياع لهما وتكبيل حياتي في حياةٍ لا أريدها، ليتني فعلتُ مثل إيمان وسِرت وراء حُلمي حتى ولو كان الجميع ضدي.

طرقتُ الباب بضع طرقاتٍ قبل أن أدلف المكتب الخاص بوالدي وأراه واثبًا أمام رجلٍ يسبل بعينيه لأسفل وجسده يرتعد كما لو أنه بالقُطب الشمالي، وكان والدي المؤقر يتجوّل حول الرجُل ويرميه بنظراتٍ تُذيب العِظام من رُعبها.

-هي كلمة واحدة ... ولو تنيتها، إنت عارف هيحصلك إيه كويس ... مفـهــوم!!

أومأ الرجل بخوفٍ ليقترب والدي نحوه ويرميه بنظراتٍ مُشتعلة قال معها:

-يا تعترف دلوقتي ... يإما هخليهم يروقوك .... إعتــرف

أنهى حديثه بقبضة على ياقة ثياب الرجل المسكين الذي كان يتوّسل:

-يا فندم والله العظيم_

قطعه والدي بنبرة صارمة:

-أما تيجي تناديني تقولي يا باشا

أومأ الرجل مُجددًا وهو يواصل نبرته المتوّسلة:

-حـ..حاضر يا باشا ... والله العظيم ما سرقت حاجة ... مش أنا إللي_

وقبل أن يواصل حديثه كان والدي يرفع من نبرة صوّته متفوّهًا:

-إنت كمان هتنكر ... يا سعيــد ... يا سعيد ... تعالى خُد المُتهم ده على الحجز

وما إن أنهى جُملته حتى تبدلت نظرات الرجل الخائفة إلى نظراتٍ مُتبلمة حائرة مليئة بالترُدد، فعن أي حجز يتحدث مُديره بالعمل، المدير التنفيذي لشركة العصير التي أعمل بها!!

-بابا ... يا بابا...

هكذا قطعتُ نقاشهما وطلبت من الموظف أن يعود إلى مكتبه وسأفهم أنا ما حدث من والدي، فيبدو أن والدي عاد لمرضة التعلقي بمهنة الشُرطة وبات يمارس دوّر الباشا بين الموظفين مُستغلًا أنه الرئيس التنفيذي، هو حتى لا يمتلك الشركة حتى يمارس سُلطته بأريحية.

-أنا مش فاهم الناس ضميرها راح فين .... البضاعة اللي كُنا هنوّديها السوبر ماركت كانت ناقصة خمس عِلب عصير... وأنا متأكد إن الزفت ده هو إللي سرقهم ... عشان أنا قولتله يراقب الطلبية ويتأكد من عدد عِلب العصير...

واصل شكواه ونواحه عن العدالة وانعدام الضمير وكأنه قاضٍ في محكمة العدل الدولية.

أكد لي حديثه أن لا مجال لتحقيق الأحلام هنا، فوالدي كان يطمح لدخول كُلية الشُرطة لكنه لم يفلح باختبار القُدرات، لهذا السبب اضطر مُرغمًا أن يلتحق بكُلية التجارة ويضحى مصيره مثل مصيري أو العكس.

-بابا ... أنا عايز آخد أجازة

قُلتها بجدية بعد فترة من الصمت بيننا ساعدتني على التطرق لما أتيت من أجله، وما كان منه سوى الجلوس على المقعد متكئًا عليه بهدوء مع وضع ساقه على ذراع المقعد فيما يدُل على السيطرة، لا يزال يعتقد حتى الآن أنه سيادة اللواء.

-أجازة قد إيه ؟... وإيه سبب الأجازة دي ؟

سألني بطريقة تحقيقية جعلتني أطيل التفكير قليلًا قبل أن أخفي الحقيقة بقولي:

-ورايا مشوار كدة هياخدله كام أسبوع

-مشوار إيه ؟

سألني ثانية بنبرته التحقيقية مما جعلتني أعتدل بقامتي وأنا أجيبه بكذب:

-مشوار مُهم .... هيخليني أضطر أسافر كام يوم كدة وأرجع.....

____

تراشقنا الكلمات الحادة والاعتراضات المبالغ بها، لعدم رغبة والدي بإعطائي الإجازة التي أريدها، خاصة وهو لا يعرف سبب هذه السفرية المفاجئة التي أتحدث عنها، فأنا أريد أن أخبره مع والدتي حتى لا تتضاعف حدة الصدمة وحدة توبيخهما لي، يكفي الآن أن يعتقد والدي أن سفري داخل حدود الدولة.

كما أن إيمان حذرّتني من إخبارهما عن سبب سفري لها، فإن أخبرتهما أن إيمان تزوّجت وأنجبت من وراء والديها فسُرعان ما سينتقل الخبر لخالتي وزوج خالتي

وجميعٌ من بالشرق الأوسط والدول المجاورة وسيتعين علي شراء الكفن الخاص بإبنة خالتي.

واصلتُ طريقي حتى اصطفت سيارتي أمام الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ترجلْتُ من السيارة لأدلف الكنيسة وأؤدي صلاتي واستمع إلى أوشية أهوية السماء وثمار الأرض التي يتم ترتيلها في هذه الأيام.

وبعد انتهاء الأوشية، أخرجتُ الكِتاب المُقدس من حقيبتي لأقلب الصفحات حتى أصل إلى سِفر الحكمة من العهد القديم، السِفر الذي يزيدني إيمانًا وتضرعًا خاصة تلك الأية التي تقول **"لا تغاروا على الموّت في ضِلال حياتكم ولا تجلبوا عليكم الهلاك بأعمال أيديكم "** ومعنى هذه الأية، ألا تسعوا وراء الموت بتصديقكم للشيطان، والموت المذكور هنا هو الموّت الروحي.

خرجتُ من الكنيسة لأتجوّل مُجددًا في طريقي للعودة إلى سيارتي التي ابتعتها بعد عناء ولا زِلتُ أدفع أقساطها حتى هذه اللحظة، اغتابني صوّت شِجارٍ وعويلٍ بالقُرب من الكنيسة ليوقفني عن سيري بسبب طبيعتي الفضولية.

تراجعتُ بضع خطوات حيث ينبعث هذا الصوّت لألمح مجموعة من الشباب يتعاركون ويتقاذفون السبات النابية، وبطبيعتي الشهمة أو الفضولية، لا أعرف، حاولتُ الفض بين هذا النِزاع وأنا أقول:

-في إيه يا جدعان اهدو

حاولتُ إبعاد واحدٍ من الشباب عن الآخر لتأتيني الكلمات البزيئة والتي كان مضمونها مُتطرفًا ناقمًا، فكان هذا الشاب الذي أعتقد أنه مُسلمًا، يسِب الشاب المسيحي الآخر وينعته بالكافر، ولم يكن المسيحي مسالمًا، بل كان يُبادله السُباب وينعته بالإرهابي، وهكذا يستمر العِراك الطائفي بينهما كما لو أنهما من دولة أخرى.

لا أعرف من بدأ الخِلاف ولا أريد أن أعرف حتى، فما أعرفه الآن أن كلاهما مُخطيء، نحن يجب أن نتحلّى بالأخوة والمحبة، فلطالما نحيا في دولة واحدة علينا أن نتكاتف سويًا من أجل هذه الدولة، الغرب يسعون لتفتتينا ونشر الفِتنة بيننا، ليس لأنهم

يكرهون المسلمين، بل لطمعهم بخيرات الشرق الأوسط، وبتصديقنا لأكاذيبهم، سنفتح لهم المجال للسيطرة على عقولنا وجعلنا عبيدًا تحت أيديهم.

وأنا كمسيحيٍّ أسعى للسلام والمحبة، يجب علي تذكير إخوّتي أننا عندما فتح عمرو بن الخطاب مصر، كانت وقتها تحت يدي الروم، وكان هناك اضطهاد للمسيحية في مصر، وهذا ما أدى إلى خلع البطريرك المصري واختبأه منهم حتى طلب رجال الدين من عمرو بن العاص أن يُساعدهم، وبالفعل ساعدهم عمرو بن العاص وآعاد البطريرك مكانه وآمننا على أموالنا وكنائسنا وأنفسنا، وهذه المعلومات مدوّنة وموّثقة في كتاب أحد المسيحيين الغرب الذين عاصروا هذه الأحداث.

ولا ننسى ثورة 1919 التي جسدت ملمحة وطنية من ملاحم النِضال والوحدة الدينية، فكان شعارها الأساسي " عاش الهلال مع الصليب "، وجاءت بعدها حرب الكرامة في السادس من أكتوبر ليُسجل التاريخ أروع الملاحم بين المسلمين والمسيحيين سعيًا لتحرير الأرض والحِفاظ على العرض، ومن بعدها أتت ثورة 25 يناير و30 يونيو التي خرج فيها إمام المسجد وبجواره القِسيس ليرفعا شِعار " لا لحُكم الجماعة الإرهابية"

متى سيفهم أبناء الوطن أن بلدتنا تتقدم بنا وليس بديننا ؟

بقيت أفكاري داخل رأسي لعدم مقدرتي على تغيير العقول، فالمُتطرف سيبقى مُتطرف ولن يتغير أبدًا، فلا يتغير المرء بسهولة.

وعندما توّقفت أقدامي بالقُرب من سيارتي، أتتني مكالمة هاتفية من خالتي مُفيدة تطلب مني أن آتي بُسرعة لمساعدتها، لمَ تعتقد خالتي وابنتها أنني هيرقل ؟

فتحتُ باب السيارة ليضرب أذني كلماتٌ أنثوية بدت غاضبة ومُتذمرة:

-إنت يا بني آدم ... اتحرك بعربيتك بسُرعة مش عارفة اطلع من هنا

لم يكن الصوّت غريبًا على أذني وهذا ما أوقد بداخلي بعض الصدمة وأنا التفت ورائي وأرى هذه الفتاة للمرة الثانية .... ماريان فتحي

ما إن رأتني حتى احتقن وجهها وبدأت النيران تتغلغل بأوردتها كما لو كُنت عشيقها الذي خانها مع أقرب صديقة لها.

-هو إنت ؟

قالتها بصوّتٍ خافتٍ ولكنة متُهكمة أستطيع استنباط الوعيد بداخلها، فهي الآن تقول : لمَ ظهر هذا الوغد أمامي مُجددًا ؟

-إزاي حضرتِك يا أنسة ماريان ؟

قُلتها ببسمة ودودة أعلم أنها تراها سمجة، فالإنسان حينما يمقت نظيره يراه سمجًا ولزجًا ومُقززًا حتى عندما يقبل نظيره على مساعدة الآخرين.

-كويسة .... لقيت شُغل جديد وهتعِين فيه قُريب

الكذب نوّعان، نوعٌ يُراد به إخفاء الحقيقة، ونوعٌ آخر يُراد به الزيَف والخِداع، وهي في هذه الحالة تستخدم النوّعين، تخفي حقيقة ضيقها من عدم قبولها بالوظيفة، وتكذُب في شأن عثورها على وظيفة أخرى بهذه السُرعة، ومع ذلك حافظتُ على هدوئي وبسمتي " السمجة " وأنا أخبرها:

-ربنا يوّفقِك

كِدت أتجاهل ردها وأستقل سيارتي لكنني استمعتُ إلى كلماتها التي آرادت بهم إغاظتي:

-هيوفقني طبعًا ... دا كويس إني متقبالتش في شركتكم ... أصل الشِركة التانية أحسن بكتير

تعبث بخُصلات شعرها الآن وترميني بنظراتٍ مُغترة كما لو أنها الأميرة ديانا، وهي في الحقيقة لا تختلف عن أم عصام بائعة الخُضار، ومع ذلك حافظتُ على هدوئي وأنا استقل سيارتي محاولًا انهاء الحديث:

-ألف مبروك ... عن إذنِك

أعلم الآن أنها تكاد تفيض غيظًا من استفزازي وأنها ستعود إلى منزلها وتُغرق وسادتها بالدموع، فأول ما يُميز مُدراء الموارد البشرية، هو برودة الأعصاب، والاستفزاز بالطبع.....

تسللت رائحة عذبة إلى أنفي وأنا أقوم بضبط القنوات الفضائية لخالتي التي لا تعثر على القناة التي تعرض مُسلسلها التُركي، وما إن انتهيتُ من ضبط القناة وجدتها تلتفت لي ومعها المِغرفة التي تُعد بها وجبة الغداء، ومن خلال تلك الرائحة النفاذة، أدركت فورًا أنها تُعد الملوخية، وجبتي المُفضلة.

-اتفضلي يا خالتي .... أهي القناة أهي ... على 101، والقنوات إللي إنتِ عايزاهم خليتهوملِك ورا بعض

ارتسمت البسمة السعيدة على وجهها وهي تطلع إلى التلفاز وتدعو لي:

-ربنا يخليك ليا يا حبيبي وميحرمنيش منك أبدًا

بادلتها البسمة ببسمة أخرى ودودة وأمنت على دعاءها قبل أن أستأذن وأعود إلى منزلي، والذي بالمناسبة، بنفس الطابق ونفس البناية، أي بالشقة المقابلة لهذه الشقة.

ألحّت علي خالتي بالبقاء وتناول الغداء معها ومع زوج خالتي عبد الفتاح عندما يأتي من العمل، لكنني استأذنتُ لأعود إلى المنزل بعد أن أعطتني عُلبة معدنية تحتوي على الملوخية والأرز الأبيض لأنها تعلم كم أحب هذه الوجبة.

تركتُ منزل خالتي وأنا أتذكر أيام طفولتي عندما كُنت ألهو مع إيمان ونلعب الغُميضة مع جارنا بيشوي الذي تزوج الآن من شقيقتي، كنا نجوب الطُرقات ونُعلق زينة رمضان على البناية ونحتفل سويًا بعيد الميلاد وعيد الفِصح، كانت حياتنا مليئة بالبهجة والمحبة حتى طال بنا العُمر وأدركنا قساوة الحياة.

تغيَرت شخصيتي مئة وثمانون درجة لأ أعلم إن كان بسبب نُضجي أم بسبب وظيفتي، لكنني اليوم شخصية شبه صارمة ينعتها الكثيرون بكتلة استفزازية باردة وأحيانًا أتعمّق بتحليل من حولي وكأنني الطبيب يحيى بالفيل الأزرق، الفيلم الذي أطلق بالعام الماضي.

أما إيمان، فلا أعتقد أنها تغيَرت كثيرًا، فمن خلال تحليلي لشخصية إيمان، أستطيع أن أقول أنها شخصية مُنبسطة تثق بالناس بسرعة وتكتسب الأصدقاء بسهولة، أيضًا هي شخصية حدسية تهتم بأسباب حدوث الأشياء أكثر من كيفيتها وماهيتها، ورقيقة المشاعر تعتمد على أحاسيسها في اتخاذ القرارات أكثر من التفكير، وهي بالتالي لا تتخذ القرارات إلا للضرورة وتتسم بمرونة التفكير، مما يعني أنها ENFP من الأنماط الشخصية.

تبًا، لماذا لم ألتحق بكُلية علم النفس ؟؟

وطأت أقدامي المنزل وأنا أنفذ تعليمات والدتي بخلع حذائي حتى تستطيع تنظيف الأرضية، وبعد أن بدلُت ثيابي وأخذتُ حمامًا سريعًا، جلست بأريكة البهو أنتظر العشاء الذي تُعده والدتي وأتناول المُقرشمات كوجبة تُغنيني عن الجوع لفترة مؤقتة.

كان الهاتف على أذني وأتحدث مع صديقي نور، صديقي بالمدرسة الفرنسية التي كُنت أدرس بها مع إيمان ويوسي_ شقيقتي _ عندما كُنا صغارًا.

-إيه يا سطا عامل إيه ؟... إيه الغيبة دي كُلها...

قُلتها بطريقة ودودة معاتبة أرخيتُ معها ظهري على الأريكة ووضعت كاحلي فوق رُكبتي حتى أجلس بأريحية وأواصل مهاتفتي لصديقي:

-مالها خلود ؟... يا بني إنت لسة مقولتلهاش إنك عايز تخطبها ؟

خرجت كلماتي محتدة بسبب صديقي الجبان الذي يخشى الاعتراف بحُبه لصديقته خلود_ زميلته بالعمل_ وهذا لأنه يخشى الزواج والمسؤوليات.

-إنت هتفضل مخللها جنبِك ... كدة هتطير منك وتيجي تعيطلي في الآخر.....

وضعتُ بعض المقرمشات داخل فمي وأنا أستمع لحديثه وأقول:

-وإيه يعني ؟ ... ما تتجوزها وتخلينا نخلص....

بدّلت نبرتي وأنا أطمئنه بثقة:

-يا سطا متقلقش .... الجواز مش انتحار، وعلى فكرة أنا أعذب بس عشان ملقيتش البنت المناسبة، غير كدة، كان زماني متجوز من بدري .... أيوة يا سطا .... بقولك الجواز ده سُنة الحياة، ولا مؤاخذة يعني إللي بيعوزو يتطلقو دول بيبقو تعبانين في دماغهم_

لم أكد أنهي حديثي ونصائحي حتى وجدتُ صوّت الباب يُفتح بحِدة يليه صوّت شقيقتي يوستينا الغاضبة:

-جــورج ... يا جورج ... أنا عايزة أتطلق

وقفت أمامي بذراعين مربوطين ونظراتٍ غاضبة تلت نبرتها المُرتفعة التي على الأحرى اخترقت الهاتف وجعلت صديقي يُفكر جديًا في الانفصال عن خلود قبل الارتباط بها.

-إيه يا زفتة مش شايفاني بتكلم ؟

نهرتها بصوّتٍ خافتٍ على أساس أن صديقي لا يزال بالمكالمة، ثم وضعت الهاتف على أذن حتى استأذن من نور وأغلق معه المكالمة بهدوء.

-مليش دعوة ... خلينا نروح الكنيسة عشان أتطلق أنا وبيشو

لمحت أطفالها يوسف ويولا _ على وزن يوستينا _ يتجولان في المنزل ويجعلاه أقرب للروضة، يكفي والدتهما التي لا أعلم من أعطاها شهادتها الجامعية وأوهمها

أنها فتاةً ناضجة، أقسم أنها آخر مرة تشاجرت فيها مع زوجها كانت بسبب تحطيمه لكوبها الحراري بالخطأ.

-اهدي يا يوستينا ومتكبريش الموضوع

حاولتُ تهدئتها بتلك الكلمات لأجدها تعترض حديثي بنظراتٍ باكية:

-لأ مش ههدى .... بيشوي بيخوني، وأنا مُستحيل أفضل مع واحد خاين زيه

تدفقت الدماء بعروقي وأنا أستمع لكلمة " خيانة " الكفيلة بجعلي أهم بخنق بيشوي وتدفيعه الثمن، فكان الغضب يعتلي قسمات وجهي وأنا أقول:

-بيخونِك إزاي ؟... ويعني إيه أصلًا يعمل كدة ؟

تدخل بيشوي بتلك اللحظة بعد أن اقتحم المنزل وراء يوستينا، وكان يقول مدافعًا عن ذاته:

-دي بتتبلّى عليا أنا لسة مخونتهاش

تلعثم قليلًا وهو يُعدل من اعترافه الأحمق:

-أ..أقصد مخونتهاش ... وأنا أقدر يعني أخونِك يا حبيبتي

أنهى الحديث بطريقة مستعطفة حتى يستميل يوستينا لكن لا حياة لمن تنادى، فنظراتها الغاضبة الممتزجة بالبُكاء أقسمت على عدم تركها حتى تُصيبني بالجنون، أو ربما بالشلل:

-وأنا هستنى لغاية لما تخوني ... أنا عايزة اتطلق دلوقتي

لم أشأ أن أتحدث حتى استمع إلى بيشوي الذي بدأ يُبرر موُقفه:

-يا حبيبتي ما قولتلِك مكانش قصدي ... مكنتش اعرف إن الحلة التيفال بتبوظ من المعالق المعدن

اتسعت حدقتاي في غضبٍ حالما عرفت سبب الجدال الساذج كجميع جدالاتهما:

-حلة تيفال !!... إنتِ عاملة الهلومة دي كلها عشان حلة تيفال!!

قُلتها بنفاد صبرٍ زادته يوستينا عندما قالت بتفسير:

-أيوة .... عشان لما الحلة التيفال هتبوظ الأكل هيلزق مني ... وساعتها هيقعد يقولي أن طبيخي وحش وهيتجوز عليا إللي تعرف تطبخله حلو

أنهت حديثها بلكنة هجومية كادت تجعلني أشفق عليا لكنني أدركت حماقة ما قالت والذي جعلني أقول بتوبيخ:

-يتجوز على مين يا هبلة إنتِ إحنا مش بنتجوز غير مرة واحدة

ذكرٌتها بكوننا مسيحيين لا نتزوج سوى مرة واحدة لأجدها تتلعثم قليلًا قبل أن تقول ببلاهة:

-ما هُما صحابي قالولي كدة ... بعدين متغيرش الموضوع

زاد حنقي وقتها وبدأت النيران تُضمر بداخلي بسبب حماقتهما وهذا ما جعلني أهتف بوجهها:

-هو فين الموضوع أساسًا ؟.... عايزة تطلقي من جوزِك عشان ممكن يخونِك في المُستقبل!!

أومأت رأسها بإصرارٍ قالت معه:

-أيوة ... أنا عايزة اتطلق

في تلك اللحظة تدخل بيشوي بعد أن ضاق ذرعًا من تقلباتها المزاجية:

-وأنا بقى مش هخليكي تطلقي .... وهاخد الولاد يعيشو معايا

أنهى حديثه بتهديدٍ جعلها تُطلق شهقة مصدومة وضعت معها يدها على صدرها وهي تقول:

-هتاخد العيال !! .... هتحرم عيالك من أمهم يا قاسي يا مُفتري

كان حديثها دراميًا انقلب مرة واحدة إلى إصرارٍ ووعيد:

-أنا عيالي مش هيخرجو من هنا ... ولو هتشوفهم يبقى تشوفهم بالقانون

حاولتُ أن أتدخل وأذكرهما أنهما لم يتطلقا لكن بيشوي سبقني بنبرته الدرامية التي اكتسبها نتيجة بقاءه مع يوسي:

-عايزة تاخدي العيال هنا وتبعديهم عني!!

هنا ولم أعد أتحمل هذا الكم من الحماقة مما جعلني أهتف بوجهيهما مؤقفًا هذه المبالغة:

-تحرمو عيالكم من بعض إيه يا حيوان إنت وهي ؟... إنتم شقتكم في الدور إللي فوقينا، يعني أي حد فيكم يشوف العيال وقت ما هو عايز

كان حديثي صاخبًا حتى تتوقف هذه المسرحية الدرامية المبتزلة ويُقرر بيشوي العودة إلى منزله لولا دعوة والدتي له بالبقاء وتناول العشاء معنا، ولبُى هو الدعوة ليوُلي بعدها نظراته المُستفزة نحو يوسي مصحوبة بتهديده الذي يقول فيه أنه سيدلف المنزل بحذاءه المليء بالطين ويُجفف يداه المبتلة بملابسها وغيرها من التهديدات الساذجة التي اعتدتُ عليها، فالعلاقة بينهما هي أحمق وأسذج علاقة في التاريخ، أنا أشفق على أولادهما من تنشأتهما في هذه الأسرة المختلة....

____

أسدلت السماء ستارها وباتت السماء كحيلة شديدة السواد يُزينها النجوم اللامعة والرياح الساخنة الخاصة بفصل الصيف، وكانت أسرتي الصغيرة تجتمع حُول المائدة لتناول وجبة العشاء التي أعدتها والدتي، بل وتفننت بإعدادها ككل مرة.

أنهمك بتقطيع اللحم المقلي بالشوكة والسكين متجاهلًا الجدالات الساذجة المتبادلة بين يوستينا وبيشوي والتي يقطعها والدي بنبرته الحازمة وكأنه يُمارس عليهما مهنة الضابط التي لا يمتهنها.

ومن بين هذه الجدالات، كانت والدتي ترميني بنظراتٍ مُترقبة أعلم جيدًا أنها تُريد الحديث معي لكنها تعثر على الطريقة المناسبة، هذا الطريقة وجدتها حينما قالت بلكنة مُقررة:

-جورج ... اعمل حسابك إن بعد بُكرة هنروح لعمِتك توحيدة

توّقف الطعام بحلقي وبدأت بالسُعال لأنني أعرف جيدًا ما الذي ستقوله بعد ذلك، لهذا السبب ادعيتُ البلاهة وأنا أقول بتلعثم:

-لـ...ليه يعني ؟... هي عمتي كويسة ؟

رفعت حاجبيها بعدم تصديقٍ لبلاهتي المتعمّدة والتي جعلتها تقول:

-عمِتك كويسة بعد الشر عليها .... أنا بقولك هنروح عندها عشان نطلب إيد يوأنا بنت عمِتك

تركتُ الشوكة والسكين على الطاولة وأنا أتشدق بنفاد صبر:

-يووه يا ماما .... منا قولتلِك مليون مرة إن يوأنا زي أختي .... عايزاني اتجوّز أختي!!

قُلتها بنبرة مهاجمة حافظتُ معها على أدبي وهدوئي حتى لا أفقد السيطرة أمام والدتي التي تلح علي بأن أتزوج في كل مرة نجلس فيها سويًا، ولأنها نادرًا ما تجد عروسة لي من نفس ديانتي، فكانت عاداتنا أن نتزوج من أقاربنا ومعارفنا، أي أن يوأنا إبنة عمتي مكتوبة على اسمي كما يقولون، رغم أنني أخبرتهم أكثر من مرة أنني لا أبادلها أية مشاعر ولا هي حتى تُفكر بي، لكن ماذا نقول، لا حياة لمن تُنادي، خاصة أمام العادات والتقاليد.

-يعني هتفضل اعذب كدة ... يا حبيبي أنا عايزة أشوف ولادك قبل ما أموت

جملة مُبتذلة من أفلامٍ درامية تحفظها والدتي ظهرًا عن قلب لعلها تستطيع استمالتي، ينقص فقط أن تُخبرني أن الطبيب أخبرها أن أيامها معدودة وأمنية حياتها أن تراني ببدلة الزفاف.

-بعد الشر عليكي ... بس أنا مش هتجوّز يوأنا .... ومش هروح عند عمتي عشان مسافر

لم أكن أنوي مفاتحتهما بالموضوع الآن، لكن لساني انزلق بالحقيقة وجعل والدتي تفتح فاهها بصدمة وتضع يدها على صدرها وكأنني أخبرتها أنني قتلت صديقي.

-مسافر !! ... مسافر فين ؟... وإمتى ؟ وليه ؟

واصلت أسئلتها التحقيقية تضرب رأسي حتى تدخل والدي بالحديث متفوّهًا:

-مسافر بعد بُكرة .... وكمان أخد أجازة مفتوحة من الشُغل

زاد هلع والدتي بعد حديث والدي مما جعلها تقبض على ذراعي وتقول بنبرة أمٍ مكلومة:

-مسافر فين ؟... ومقولتليش ليه ؟

بات التوّتر جليًا على وجهي وأنا استجمع قواي لأخبرهما الحقيقة بشجاعة:

-إيبه... مسافر .... فرنسا ... مسافر فرنسا

كانت كلماتي مُتقطعة في البداية لكنني لم ألبث أن أستجمع شجاعتي وأخبرهما الحقيقة مهما كان الثمن، فكيف سأخفي عنهما سفري لبلدة غربية خاصة وهي نفس البلدة التي بها إيمان.

-فرنسا!!

-عند إيمان!!

تراشقت تلك الكلمات المصدومة على أذني من يوسي وبيشوي كما توقف والداي عن تناول الطعام وباتا يرمقانني بنظراتٍ تتعطش للحصول على تفسيراتٍ لتلك السفرية المفاجئة.

شلَّت الصدمة وجوههم لفترة حتى وثب والدي بحدة ضرب معها الطاولة بيديه التي قال معها بصوتٍ مُرتفعٍ غليظ:

-مسافر برة .... يعني إيه الكلام ده!!

كانت كلماته مُندهشة تتعجب سفري المفاجيء، لكنني ألجمت غضبه بكلماتي البلهاء المستفزة:

-يعني هسافر خارج حدود الدولة عن طريق الطيارة

قُلتها ببرودٍ استفز والدي أكثر وجعل مهنة وكيل النيابة تتلبسه مرة أخرى، فكان يقترب مني بنظراتٍ مشتعلة وقبضته توضع على ياقتي لينتشلني من مِقعدي ويُحدجني بعدها بنظراته المهيبة التي قال معها بتهكُم:

-إيه ياض السُكر ده....

زادت قبضته على ياقة ثيابي وزاد معها توتري واعتقادي بأنه سيقبل على سجني بالحجرة حتى تفوتني الطائرة ولا أستطيع السفر، لكن كلماته التالية هدمت جميع التوّقعات.

-انطق يااه .... جِبت فلوس السفر منين ؟... انطق

دفع جسدي ليصطدم بخفة على الحائط وكُنت أنا أجيبه بصدق:

-تحويشة عُمري

ألصقني بالجدار أكثر وهو يُكذب حديثي كما لو أنني مُتهمٌ يتم عقابه على جريمته الشنيعة:

-إنت هتكدب من أولها .... أعترف وقول جيبت فلوس التذكرة منين ؟

حاولتُ الإلحاح عليه وإخباره أنني لم أسرق النقود لكنه لم يستمع لي وبات ينادي على شخصيته الوهمية:

-يا سعيــد ... يا سعيـد_

لكنني قطعته هذه المرة بالحقيقة التي لا يعترف بها:

-يا بابا مفيش حد هنا اسمه سعيد

جنون هذه العائلة على وشك أن يُصيبني بالشلل الجُثماني، أنا لا أعرف حتى ما الذي فعلته حتى أقع مع هذه العائلة المجنونة، حسنًا، تسببت بطرد بعض الموظفين وخصمت من رواتبهم، لكن هذا لا يعني أن أعاقب بهذه الطريقة.

-استنى يا ميشيل خلينا نعرف المُهم الأول

حمدًا للرب أن والدتي تدخلت قبل أن يعتقلني والدي بسجنه الوهمي، حيث وجدتها تسألني بقلق:

-هتسافر فرنسا ليه ؟ .... وهتقعد كام يوم ؟

عدّلت من هِنداب ملابسي بعد أن ابتعد والدي عني وفسح لي المجال لأجيب أسئلة والدتي القلقة على ابنها الوحيد، ولأنني لم أرغب بإخبارهما حقيقة سفري، لفقت كذبة كُنت قد أعدتها قبل ساعاتٍ من مجيئي هنا، أي ما إن دفعت تذكر السفر وحصلت على التأشيرة.

-أنا كلمت إيمان وقولتلها تشوفلي شقة أقضي فيها كام يوم وأنا باخد كورس هناك ليه علاقة بالتسويق ... يعني حاجة هتفدني في شُغلي....

____

19يونيو 2015 ليون : فرنسا

استمرت النقاشات والجدالات والاعتراضات بيننا، لكنني في النهاية استطعتُ أن أفرض سيطرتي وأطمئن خالتي على إيمان قبل أن أستقل الطائرة وأذهب إلى فرنسا.

أهرب من حياتي الروتينية التي أرغمت على عيشها، أهرب من العادات والتقاليد التي ستجبرني على الزواج من ابنة عمتي، والأهم من ذلك كله، أن أساعد إيمان في محنتها وفي بحثها عن ابنتها الوحيدة التي لم أرها يومًا.

ها أنا الآن بمدينة ليون بمنطقة ديكارت حيث تسكُن إيمان، لا أعلم كيف سأصل لها، لكنني سأعثر عليها وأساعدها مهما تطلب الأمر.....

الفصل السادس (وحدة دينية)

((إيمان))

18يونيو 2015 ليون : فرنسا

وأنا صغيرة، كُنت أتمنى أن أُغير العالم حينما يمتد بي العُمر، وما إن امتد بي العُمر، أدركتُ أن العالم هو الذي غيرني....

لم أكن هذه الفتاة الضائعة التي لا تعرف ما الذي ستفعله، لم أكن تلك الفتاة التي تتخبط بين ضروب اليأس وتستنجد بالأغراب، لكن يبدو أن علي تحمُل نتيجة أخطائي، فإن لم أنجرف وراء طيَات العِشق والهوى، لما وصلت حالتي إلى هنا، كُنت لأعود فورًا إلى بلدتي سالمة مُطمئنة دون أن أحمل هم صغيرتي التي عانيتُ في ولادتها وربما لن تسمح لي فُرصة لإنجابها مُجددًا، حتى وإن أنجبت غيرها، فأنا لن أتركها بين يدي هذا الحقير.

عندما دقت الساعة السادسة صباحًا، كُنت أنا مُتيقظة_ أو أني لم أنم من ليلة البارحة_ أستعد جيدًا من أجل مقابلة العمل التي أخبرني عنها مُسلم، هذا الرجل الذي تعرٌفت عليه صُدفة واتضح أنه ابن بلدتي، وهو الوحيد الذي أستطيع اللجوء إليه بعد أن خانني الجميع.

دلفنا مطعمًا للطعام الفرنسي، وقد تركني مُسلم حتى يتحدث مع مالك المِتجر ويوٌصيه علي، وبسبب اضطراب الأوضاع، وازدياد الكراهية ضد الإسلام، لم يكُن مُحبب أن أعمل في الخارج أمام الزبائن، أي لم يكن أمامي سوى وظيفة واحدة ألا وهي... تنظيف الصحون.

فبعد أن كُنت مُعدة برامج في شركة إنتاج كُبرى، أضحيتُ الآن مغسلة للصحون، بالهذه الحياة الشاقة!!

أُرغمت على الموافقة على هذا العمل المُتدني على أمل الحصول على بعض الأموال التي بإمكانها مساعدتي على الصمود حتى أعثر على صغيرتي، كما أن مُسلم وعدني

بالمساعدة حينما أقع بضائقة مادية، وحذرّني كذلك من التصرُف بهمجية وتهور حتى لا أفقد تلك الوظيفة ولا أعثر على غيرها.

كُنت أوّد سؤاله عن أي شِجارٍ يتحدث، فأكبر شِجارٍ سأفتعله في تلك الوظيفة، هو الشِجار مع وعاءٍ معدنيٍ مليءٌ بالبُقع المستعصية.

ارتديتُ مريولي وبدأت العمل فورًا في حُجرة متوّسطة بعيدة عن الطاهيون، حيث أقوم بغسل الصحون وتجفيفها ثم وضعها على حافة النافذة حتى يلتقطها الطباخون دون النظر إلي حتى.

أين والدتي الآن حتى تراني وأنا أغسل الأواعي التي أرفض غسلها بالمنزل ؟؟

وأثناء انهماكي بالعمل، اخترق أذناي صوّتٌ رقيقٌ بدا وكأنه صوّت فتاةٍ مُدللة هشة تقف وراء ظهري وتتحدث بفرنسية رقيقة:

-هل أنتِ الموظفة الجديدة ؟

لم يُخبرني مالك المطعم أن هُناك فتاةٌ أخرى تعمل معي بنفس الوظيفة، هذا ما جعلني أحافظ على ثباتي والتفت لها بهدوءٍ واستعدادٍ لأي كلماتٍ بذيئة تدلوها نحوي.

ما إن التفتُ حتى باغتتني عينيها الخضراء الواسعة وبشرتها البيضاء الصافية مع خُصلات شعرها الذهبية المُسترسلة، وجسدها الممشوق الأقرب للنحالة، كانت تُطالعني ببسمة هادئة تعجبتُ لها خاصة مع كلماتها المُرحبة:

-أهلًا بكِ ... أنا آنابيا ... زميلتكِ بالعمل

مدّت لي يدها للمصافحة وكُنت أطالعها بأعينٍ جاحظة مُتعجبة لكنني مددتُ يدي بعدها لمبادلتها الصفاح بآلية، ربما لأنها أول فتاةٍ فرنسية لطيفة أقابلها منذ أتيت إلى هُنا.

-مرحبًا ... وأنا إيمان

هكذا أجبتها بنبرة باهتة تخلو من المعاني سوى من معاني الحيرة والتعجُب، أعتقد أن حيرتي قد وصلت إليها وجعلتها تقول وهي تبتعد عني وتبدأ بغسل الأواعي المُتسخة:

-لا تقلقي ... لستُ من أولئك الذين يضعون أحكامًا مُسبقة على الأشخاص وفقًا لدينهم

قالتها بنبرة مُطمئنة بددت عدم الراحة بداخلي وعزِمتُ على مواصلة العمل بجوارها في هدوءٍ تام والقليل من الكلمات المتبادلة بيننا، فكانت فتاةً لطيفة ذات عينان غائرتان تحمل فيضًا من الحزن والهشاشة التي لا أعلم مصدرهما، لكنها كانت خير زميلة لي في تلك الوظيفة المُتدنية....

مارية شارع بليتزل / باريس : فرنسا

بعد انتهاء فترة دوامي التي دامت حتى الخامسة عصرًا، أخبرني مُسلم بأول مكانٍ نبدأ البحث فيه، أكثر مكانٍ يعتج باليهود في فرنسا، ذهبنا أولًا إلى باريس ومن ثُم استقلينا مترو سانت بول الذي أوصلنا إلى منطقة مارية لنتخطى أول ثلاث بناياتٍ تعتج بالسُياح والأسواق الشعبية حتى وقفت أقدامنا عند شارع بليتزل.

كانت منطقة زاخرة بالأسواق الشعبية والمطاعم والمخابز والمكتبات والمعابد اليهودية، جميع اللافتات مكتوبة باللغة العبرية، وما كان مميزًا بتلك المنطقة هي اللوحات المُتحركة خارج المدارس والتي كانت تشيد بالأطفال اليهود والطُلاب السابقون الذين تم ترحيلهم إلى مُعسكرات الموت خلال الحرب العالمية الثانية.

ومن بين هذه المطاعم، كانت تنتشر مطاعم الفلافل والبابكا اليديشية والتي هي نوعٌ من المخبوزات الشبيهة بالبريوش البولندي.

تعمقنا داخل هذه المنطقة وسط النظرات المُزدرية التي يرمينا بها بعض اليهود وكأننا أتينا لارتكاب كارثة ما، حاول مُسلم أن يتحدث مع أحد المارة ويسأله عن شارون لكنه لا يلقى سوى التجاهل والاستهجان.

ومع ذلك لم نتوّقف عن البحث، وعزمنا على العثور على دليلٍ يصلنا به حتى عندما توّقفت أقدامنا ببقعة نائية مليئة بالمباني العتيقة المُحطمة بفعل عوامل التعرية، كانت الحوائط في هذه المنطقة مليئة بكلماتٍ باللغة العبرية بخطٍ أحمرٍ أقرب للدماء، وبين هذه الكلمات، كانت نجمة داوود تُزين الجُدران مُعتقدين أنها النجمة الخاصة باليهود.

أنا أيضًا كُنت أعتقد ذلك، لكن مُسلم قد أخبرني أنها من إحدى الأساطير الاسرائيلية، فُهم يُشبهون أنفسهم بداوود الصغير الذي يواجه جالوت العملاق أي المسلمون والعرب، أي أنه رمزٌ لتعظيمهم ليس إلا، رغم أنهم بعيدون كل البُعد عن سيدنا داوود.

أخبرني مُسلم أثناء سيرنا وأثناء حديثنا عن المعنى المخفي لعلم دولة اسرائيل، فالخطين الأزرقين بالعلم، يرمزان لنهر الفُرات ونهر النيل، الخطة الاستعمارية التي يسعى الصهاينة للوصول إليها، فهم يسعون للاستيلاء على فلسطين ثم التوّسع حتى مكة بالسعودية ونهر النيل بمصر ونهر الفُرات بالعِراق وجميع المناطق داخل هذا المُحيط.

يدّعون السلام وهُم بالأصل يُخططون للاستعمار!!

على كُلٍ، واصلنا السير بتلك المنطقة وسط أحاديثٍ متبادلة بيننا قطعها حجرة صغيرة ألقيت نحونا وجعلت أجسادنا ترتد للوراء تلقائيًا، وما كان مع هذه الحجرة سوى صوّتٌ يحمل مزيجًا من الكراهية والبُغض:

-ارحلوا من هنا أيها الأوغاد

وبقيت الحجارة تتقاذف علينا ونحن نبتعد بأجسادنا حتى ظهر جمعٌ من الشباب ذوي الخُصلتان الطويلتان اللتان تُغطي آذانهم وتجتمع مع نظراتهم العدوانية التي أكدت لي أنهم من الصهاينة.

جذبني مُسلم من سُترتي وجعلني أتحرك وراءه عنوة حتى أبتعد عن أولئك الرجال، فكُنا نركض ونركض كما لو أننا هاربون من العدالة، وكانت الحِجارة تُلقى علينا

والرجال يُحاوطوننا من كل مكانٍ ويلقون علينا السبات البذيئة والكلمات المليئة بالكراهية.

حُوصرنا من كل اتجاه ولم يعُد أمامنا الآن سوى جِدارٌ عريضٌ وبنايتين على اليمين واليسار، وخلفنا هؤلاء الرجال لا يتوقفون عن سبنا وإلقاء الحجارة علينا حتى...

-هيا ... ابتعدا عن هُنا

باغتنا هذا الصوّت مرة واحدة ليظهر من وراءنا رجلٌ نحيلٌ الجسد قصيرٌ نسبيًا ذا بشرة بيضاء وأعينٍ عسلية، ناهيك عن هذين الخُصلتين الطويلتين على أذنيه وتلك القُبعة الصغيرة التي يرتديها والتي أخبرني مُسلم فيما بعد أن اسمها كيبا.

انقض هذا الرجل علينا وكنا نعتقد أنه سيهم بضربنا لكننا وجدناه يحاول إبعادنا عن أولئك الذين يريدون زلقنا بالحجارة.

-ابقوا هنا ... سأتوّلى أمرهم

هكذا قال لنا عندما أدخلنا واحدة من البنايات واتجه بعدها صوّب الرجال ليُحادثهم بلغة غريبة أعتقد أنها عبرية، لا أعرف ما الذي قاله لكنه ما إن أنهى الحديث حتى انصرف الرجال خاليي الوِفاض وعاد هذا الرجل إلينا ليرمينا ببسمة بشوشة مسالمة وهو يقول مُطمئنًا:

-لا تقلقو ... لقد رحلوا

طالعته أنا ومُسلم بنظراتٍ مُبهمة لم يشأ معها أي منا بالحديث حتى لا نقع بالمصيدة، ويبدو أن هذا الرجل قد علِم سبب تشككنا مما جعله يقول معاتبًا:

-هذه المنطقة لا يجب أن يطئها المسلمون ... فهي مليئة بالصهاينة ... لكن لا تقلقوا ... أنا لستُ صهيونيًا

آشار على ذاته مع آخر الكلمات ومن ثم رمانا ببسمة هادئة ودودة أعرب بها عما يكنيه بداخله:

-أنا أتبع تعالم نبينا موسى الحقيقية ... وهو أوصانة بالعيش في سلام ومحبة الغير ... نحن حتى لا نوافق على تفعله دولة اسرائيل، ولا ندعم وجودها من الأساس

أدركتُ فيما بعد أنه يهوديًا من طائفة الأرثوذوكس، الطائفة الأكثر تشددًا والأكثر كُرهًا للصهيونية وتعاليمها، هذا ما بدد القليل من القلق اتجاهه ودفع مُسلم لسؤاله:

-نحن نبحث عن رجلٍ هُنا ... يُدعى شارون أيزنعوت

قطَّب الرجل حاجبيه بحيرة أثناء تفكيره بحديث مُسلم حتى أردف بجهل:

-لم أسمع عنه من قبل ... لكنني أعرف من يُمكنه مساعدتكما

أنهى حديثه بلهفة جعلت مُسلم يسأله بشكٍ:

-ومن هذا الشخص ؟ ... وكيف تعرفه ؟

تفهم الرجل طبيعة قلقه مما جعله يقول مُطمئنًا:

-لا تقلقوا ... هو أيضًا يعتنق الإسلام، لكنه من الهند ... وخبيرٌ بما يخُص التكنولوجية

قالها بثقة واعتزازٍ بصديقه الذي لا نعرف كيف تعرٌّف عليه من الأساس، لكننا وجدناه يتحرٌّك أمامنا ويطلب منا اتباعه؛ ونحن لبٌينا طلبه ببعض التشكك الذي بدأ يتلاشى روٌيدًا ليحل محله اليقين بالعثور على حلٍ لتلك المُعضلة.

-بالمناسبة ... اسمي هو رازي

قالها الرجل اليهودي مُعرفًا ذاته لأخبره أنا باسمي ومن بعدي مُسلم لرغبة رازي بالحصول على أصدقاءٍ جُدد.

سِرنا وراء رازي بشارع ضيقٍ أخر يبتعد عن بليتزل ببضع بنايات، والغريب أن تلك المنطقة كانت قليلة السُكان وشديدة الهدوء، مما جعلني أعتقد أنه سيقوم باختطافنا والمتاجرة بأعضاءنا.

-بقولك إيه ... أنا خايفة أوي ... ما تيجي نسيبه ونمشي

قُلتها بصوّتٍ مسموع وبلغة عربية بالطبع لن يفهمها رازي، لكنني تفاجأتُ عندما توّقف رازي عن السير والتفت نحونا بابتسامة مُطمئنة على ثغره قال معها:

-لا تقلقي .... أنا لست مُجرمًا، ولدي العديد من الأصدقاء المسلمين

شلّت الصدمة وجوهنا وتحوّلت من الصدمة من معاملته الودودة إلى فهمه للغة العربية!!

-والداي من المغرب ... ووالدتي تُشاهد المسلسلات المصرية

قالها بتفسيرٍ بعد أن لاحظ صدمتنا الجلية، هذا يعني أن لديه جنسية عربية، لكنه يقطن هُنا بعد طرد اليهود من المغرب، ومن أغلب الدول العربية.

كان يتحدث معنا عن الوحدة الدينية وكيف كان يعيش اليهود في سلام تحت رعاية المسلمين حتى بدأت الحركة الصهيونية ونشرت الفرقة بيننا، كان يتمنُّى أن يحيا الجميع في سلامٍ ومحبة وأن تنتهي المعارك والحروب وجرائم الكراهية.

كلماته جعلت الاطمئنان يتغلغل أفئدتنا خاصة وأنا أوافقه الحديث، فالسياسة هي التي تقوم بتدمير الأديان وتدمير المحبة بيننا، وبعض العقول الساذجة تُصدق ما يمليه عليها القنوات الإخبارية ويضع بعدها تعميماتٍ لا صحة لها.

توقف الحديث بيننا عندما توّقفت اقدام رازي قُرب بناية مُتهالكة تتكوّن من طابقٍ واحدٍ فقط، طرق الباب بضع طرقاتٍ وانتظرنا بجواره حتى فُتح الباب وأطل منه رجل بمُقتبل الثلاثين يرمينا بنظراتٍ حائرة وأعينٍ سوداء تحمل الرغبة بالانتقام، الانتقام من العالم.

بشرته حنطية تميل إلى السُمرة وشعره داكنٌ أسوٌدٌ قلّ الاعتناء به، وجه حديثه أولًا نحو رازي الذي رماه ببسمته البشوشة ثم آشار علينا مُعرفًا:

-هذان الشخصان يُريدان المساعدة

لم يُبدي الرجل الآخر أي من عوالم البهجة وبقي يُطالعنا بنظراتٍ غامضة مخيفة قطعها مُسلم مُعرفًا بجمود:

-أنا مُسلم ... وهذه صديقتي، نحن نبحث عن رجلٍ يُدعى شارون أيزنعوت .... هناك حِسابٌ بيننا

أنهى مُسلم حديثه بنبرة غامضة بدى وكأن الرجل الآخر قد فهمها؛ فقد كان يومىء برأسه إيجابًا ويفتح باب المنزل أكثر سامحًا لنا بالدخول متفوّهًا:

-حسنًا ... تفضلوا

ما إن وطأت أقدامنا المنزل البسيط ذي الديكورات العتيقة، حتى أغلق الرجل الباب بهدوء ثم اقترب نحونا متشدقًا وهوينظر لعينينا:

-أنا أرضوان ... كيف يُمكنني مساعدتكما ؟....

الفصل السابع (اضطهاد في كشمير)

((أرضوان))

عام 1999 كشمير / الهند

برأيكم كيف يعيش طُفلٌ في عالمٍ مليءٍ بالمعارك والحروب ؟ لا يلهو بالكرة مثل أقرانه، لا يذهب إلى المدرسة مثل بقية الأطفال، بل يبقى حبيس منزله خشية من الإصابة بالرصاصات الطائشة التي يُطلقها الجنود، وبدلًا من دراسة العلوم والرياضيات، يتعين عليه فهم السياسة وتجرعها حتى يفهم ما يحدُث حوله، وما سبب هذه المعارك التي يكون الأطفال ضحيَتها.

كُنت بالحادي عشر من عُمري حينما أخبرتنا المُعلمة بالمدرسة عن سبب هذه الثورات والمعارك التي اعتدنا عليها مُنذ ولدنا.

أخبرتنا عن الكنوز التي تتمتع بها كشمير، والتي تجعلها مطمعًا للاستعمارات، خاصة الهند.

وبالحديث عن الهِند_ التي من المُفترض أن تضحى بلدتي_ فبعد استقلالها، وتقسيم شبه الجزيرة الهندية، كانت كشمير هي حجر العُثرة بين الدولتين، الهند وباكستان، ورغم تدخُل الغرب_ كالعادة_ ووضعهم لقرار التقسيم الذي نصٌ على انضمام الولايات ذات الغالبية المُسلمة إلى باكستان والولايات ذات الغالبية الهندوسية إلى الهند_وبالطبع هذا وفقًا لرغبة السُكان والجغرافية_ إلا أن هذا القرار لم يمُر بسهولة على بعض الولايات، خاصة كشمير.

ففي ولاياتٍ مثل (حيد آباد وجوناجاد) كان اخضاعهم للهند أمرًا في غاية السهولة، خاصة مع استخدام الهند لسياسية القمع والتهديد، أما بكشمير، فرغم كون الحاكم هندوسيًا، إلا أنه كان ضعيفًا أمام غالبية الشعب المُسلمين، فاضطر هاري سينج لتقديم معاهدة عرضها على البلدين لإبقاء الأوضاع كما هي، دون انضمام كشمير لأي من الدولتين، فكان قرار باكستان هو القبول، أما الهند، فرفضت هذه المعاهدة، وقررت

استخدام القوات المُسلحة لإخضاع شعبنا الأبي، واندلعت بعدها الحروب والمعارك حتى إعلان وقف مؤقت لإطلاق النار.

وهنا أقول مؤقت، لأنني أعرف جيدًا أن العهود هي أكاذيب ولكن على الورق، لا أتذكر أن هناك دولة التزمت بعهدها مع دولة أخرى دون أن تضحى عبدة لها.

وفي عام 1965، عاد التوتر في كشمير مُجددًا، هذه المرة قررت باكستان التدخل، وكانت تدعم شعبنا في كفاحه المُسلح ضد الهند، الأمر الذي جعل الأمور تخرج عن السيطرة، لينتقل بعدها الاشتباك من القوات الهندية وشعبنا، إلى القوات الهندية والباكستانية، وبقي هذا الاشتباك بينهما حتى عام 1972، أي بعد التوقيع على معاهدة شملا.

وبناءً على هذه المعاهدة، احتفظت الهند ببعض الأراضي الباكستانية وعلى ثُلثي كشمير، ليسطر التاريخ بعدها انتفاضاتٍ عدة أولها انتفاضة 1987، وانتفاضة 1990 والتي كُنت بها بالسابعة من عُمري، وكانت هي بداية التمرد ضد الحكومة الهندية.

أما في عام 1999، عندما كُنت بالسادسة عشر من عُمري، كان طموحي وقتها كأي طفلٍ صغيرٍ عاش طيَات الاستعمار، كانت أمنية حياتي، أن آرى بلدتي الصغيرة مُستقلة بعيدة عن هذه النزاعات، كان المسلحون وقتها يقومون بعملياتٍ نوعية عديدة ضد الجيش الهندي، الجيش الذي يرد باستخدام القوة المُفرطة ضد المدنيين.

كان شقيقي دانيش في ذاك اليوم يلهو أمامي بالكرة، وكُنت أراقبه من بعيد وأنا أقرأ كتابًا خاصًا بالبرمجيات كالعادة، فأنا ماهر بتلك الأمور الخاصة بالبرمجة والاختراقات وأحب تعلمها باستمرار.

-أرضوان ... هيا العب معي ... سأمتُ من اللعب وحدي

قالها دانيش وهو على بُعد أمتارٍ مني، فيبدو أنه سأِم من اللهو وحيدًا ككل مرة، فأصدقاءه لا يقطنون هذا الحي الذي نقطن به، ووالدتي أخبرتني ألا أجعله يذهب إلى رفاقه وحيدًا حتى لا يُصاب بالأذى.

-اتركني وشأني دانيش ... لدي الكثير من العمل

قُلتها بنبرة جادة وأنا لا أنظر إلى وجهه، فكُنت مشغولًا بما أفعله، وما كان من هذا الصغير المُشاكس سوى أنه أطبق على شفتيه بغضبٍ من تجاهلي وقال لي بصوّتٍ يملأه الضجر.

-أنت أخٌ ممل .... سأذهب للعب مع فاروق

قالها بصوّتٍ حادٍ غاضبٍ ثم التقط بعدها الكُرة الخاصة به وركض بعيدًا باتجاه منزل فاروق صديقه، ورغم أن والدتي أوصتني ألا أجعله يذهب وحيدًا، إلا أن ثرثرته واصراره على لعبي معه، سبب لي الإزعاج، أنا لستُ متفرغًا لحياته الساذجة.

لهذا السبب تركته يعدوا ويذهب إلى صديقه دون اعتراض، على الأقل سيتركني في هدوء.

وياليتني ما قُلت هذه الكلمة، فبعد لحظاتٍ قليلة من ابتعاد دانيش عني، بدأت الأصوات تتزاحم بأذني، أصوات شِجار، إنفجارات، صواريخ، وأعيرة نارية!!

دبٌ الرُعب أوصالي في تلك اللحظة، وعلِمت أن القوات المُسلحة بدأت بالاشتباك مع القوات الهندية التي آراضت القضاء على المقاومة دون مراعاة للمدنيين، خاصة وإن كانوا مُسلمين.

تداخلت أصوات الأعيرة النارية مع أصوات صُرخات النساء وبُكاء الأطفال، تلك الأصوات جعلتني أرتجف، ألتقط أنفاسي بصعوبة، فلا شيء أفكر به سوى....

-دانيش!!

ألقيت الكتاب بسُرعة وتركته على المِقعد، هرولت بأقصى ما لدي خارج الحي ولم تكن خطواتي أسرع من دقات قلبي، بل كانت دقات قلبي تُسابق الزمن في سُرعتها.

-دانيـــش... أين أنت ؟.... دانيـــش

ناديتُ بأقصى ما لدي وأنا أخترق الاشتباكات بجنونٍ وأعينٍ تزيغ في كل مكان، اتلفت حولي فأجد رجلًا عجوزًا يحاول الوثوب عن الأرض بعد تلقيه لرصاصة بفخذه، وما إن يفلح في الوثوب حتى تأتيه رصاصة أخرى وتُصيب ظهره لتُعلن بذلك انتهاء حياته.

دماء، صرخات، أدخنة وبكاء، يتردد على مسامعي هذا المشهد وأنا أطوف بعيني وفؤادي الذي أشعر بتوّقف نبضاته، مرّت الأعيرة بجوار أذني وأنا أنطلق كالسهام المارقة وأصرخ باسم دانيش بدموعٍ تكاد تُغرق وجهي.

أهرول في كل مكانٍ وأتلفت بعيناي حتى وقعت نظراتي على كُرة حمراء مُهترئة أعرفها جيدًا، فهذه كُرة دانيش، المنقوش عليها أول حرفٍ من اسمه، لكنها لم تكُن حمراء، بل أن هذا الأحمر هو....

توّقفت نبضات قلبي وقتها وبدأت تتسارع كخيلٍ في السباق، انهمرت دموعي وحدها وأنا أحاول طرد هذه الأفكار من رأسي، هذه بالطبع ليست دماء دانيش، ليست دماء شقيقي الصغير.

-دانيـــش!!

صرخت بأعلى ما لدي وأنا أقاوم نبضات قلبي التي على وشك تسليم الراية، تحوّل صراخي إلى أنينٍ مكتوم، وباتت أصوات الأعيرة حولي تتلاشى رويدًا رويدًا، تتلاشى عندما لمَحتُ جسدًا صغيرًا مسجيًا على الأرض وسط بركة من الدماء!!

-دانيـــش!!

ناديت مُجددًا وأنا أهرول نحو هذا الجسد الصغير الذي يتشابه مع جسد شقيقي، وأثناء ركضي، أصابتني الأعيرة النارية وجعلتني أرتمي على الأرض، كانت قدمي اليُسرى تنزف بغزارة، ومع ذلك رفعتُ جسدي وقاومت آلامي، حتى أصل إلى جسده.

مدّت يدي بارتجاف كي أتحسس خُصلات شعره، لا يزال عقلي يحاول إيهامي أن هذا ليس دانيش، بل هو طفل آخر بنفس العُمر والشكل، أي شخصٍ ماعدا شقيقي الصغير.

كُنت أتمنى أن تضحى ظنوني صائبة، لكن مع الأسف، متى ستُعطيك الحياة أملًا في عالمٍ كهذا ؟

ها هو شقيقي ذو الثانية عشر ربيعًا، يرتمي على الأرض بلا روح بعد أن اخترقت تلك الرصاصة جمجمته الصغيرة، حوّلته إلى جسدٍ بلا روح، سرقت طفولته وبددت أحلامه الوردية البريئة.

أهٍ منك يا دانيش، لم يكن يجب أن تذهب إلى صديقك فاروق، لم يكن يجب أن أتركك وحدك، ماذا سأقول لوالدتي إن سألتني عنك ؟ أأخبرها أنني رفضت اللعب معك وهذا ما جعلك تسير في العالم القاسي بحثًا عن صديق ؟ أم أخبرها أنني تركتك ترحل وتلقى حتفك بهذه الطريقة ؟ أرجوك عُد إلي وأنا أعدكُ أنني سألهو معك بالكُرة، مُستعدٌ أن أتحمل إزعاجك وثرثرتك لحولين كاملين، لكن أرجوك، لا ترحل بهذه الطريقة، لا تتركني وحيدًا.

احتضنتُ جسده ولم تتوّقف دموعي حتى تلطخت ثيابي بدماءه، بل بدماء كلينا، لا أدري ما حدث بعدها، لكنني علِمت أن شقيقي دانيش لم يعُد موجودًا، فأنا لم أفق من أمام جسده حتى أتى المُسعفون وانتشلوننا، ومن وقتها وحياتي لا طعم لها ولا رائحة، بقي مِذاق المرارة عالقًا بحلقي، وطعام الثأر يتضخم بأوردتي، لم أعُد أرضوان الذي يُحب الحياة، أصبحت أرضوان الذي يسعى للإنتقام، والأسوأ أنني لا أعرف عن أي انتقامٍ أتحدث، فكّرت أكثر من مرة أن أترك دراستي والتحق بفِرق الجِهاد والمقاومة، لكن والدتي العزيزة تجعلني أعود إلى مدرستي مُرغمًا، ومتذكرًا لحُلمي الذي أضحى يتلاشى مع مرور الأيام.

هذه الحياة لا تجعلنا نحصل على أبسط حقوقنا، ألا وهي الأحلام.

وفي عام 2001، أول عام لي بكُلية الحاسبات والمعلومات بجامعة كشمير المركزية، وهذا بالطبع بناءً على رغبة والدتي ورغبتي التي جعلتني أعزم على دراسة البرمجة

لأستخدمها ضد هذه الأنظمة، فيبدو أن العُنف لم يعُد يُجدي نفعًا، وليس أمامنا الآن سوى استخدام الحيلة.

في الـ13 من ديسمبر عام 2001، أعلنت الأخبار عن الهجوم الذي تم على البرلمان الهندي، صعدت وقتها الهند على المِنبر وهددت بالمواجهة الشاملة مع باكستان والقضاء على القواعد " الإرهابية " في كشمير.

حدثت جلبة في جميع الأحياء والضواحي، فباتت القوات الهندية تقتحم المنازل وتُلقي القبض على المشتبهين بتلك العملية، لم يكن والدي وقتها بالمنزل، كُنت وحيدًا مع والدتي نُشاهد الأخبار بقلق ونحاول الاتصال بوالدي فايق دون جدوى، فأنا لا أنكر أن حال والدي هو الآخر قد تغيَر بعد استشهاد دانيش، خاصة وأن دانيش كان محبوبًا بريئًا ولم يستحق هذه الميتة.

اقتحمت القوات الهندية منزلنا دون الطرق على الباب؛ شهقت والدتي بذعر وانتشلت أقرب قطعة من القماش لتُغطي بها شعرها، أما أنا، فكانت نظرات الحِدة تنطلي على وجهي، أراقبهم من بعيد وهم يتوّغلون المنزل ويُلقون بكل ما تُطالهم أيديهم، فحتى صوّر دانيش كان من نصيبها الإلقاء على الأرض بصورة همجية.

ينعتوننا بالحيوانات وهُم يتصرفون مثلهم بالضبط.

صرخ الجنود بوجهينا أنا وأمي وطفقوا يسألوننا عن والدي وعن مكانه، كانت والدتي تُجيبهم بتوّسلاتها ودموعها وأنا أتحلّى بالصمت التام مع نظراتي الناقمة، وما إن تأكد الجنود من عدم وجود والدي_ الذي كان مُشتبهًا وقتها_ قرروا إلقاء القبض علي وتهديد والدي بي، حركة وضيعة لا يفعلها سوى الأوغاد.

ركعت أمي على رُكبتيها بإذلالٍ وهي تتوّسلهم أن يتركوني وشأني، وأن لا شأن لي بما حدث، وما لقيَت سوى ركلة عنيفة من أحد الضُباط والعديد من السبُّات البذيئة التي جعلت الدماء تتدفق بعروقي والغضبب يتغلغل كياني وأنا أدفعهم عني وأحاول التملص من قبضتهم اللعينة، و كالعادة البائسة، كثرتهم غلبتني، أوصدوا يدي بالأغلال ووضعوني داخل الشاحنة ليتم نقلي بعدها إلى محاكم التعذيب الكشميرية.

أُلقيتُ كسلة المُهملات داخل حُجرة مُعتمة يطغي عليها الرائحة الكريهة، حُجرة لا تتعدي المترين، وكنت أجلس فيها بوضع الجنين تارة وأقف تارة أخرى، وبعد مرور ساعتين، فُتح الباب ودلفت عناصر من القوات الهندية ليُمارسوا مهنتهم اليومية، الإرهاب والتعذيب.

لا أذكر الكثير من الأيام التي بقيتها تحت وطأة التعذيب، أحيانًا يطمسون وجهي بالمياه حتى أختنق وأحيانًا يضربونني بالصاعق الكهربائي حتى أغيب عن الوعي، ناهيك عن الضرب والتنكيل بطُرقٍ لا أستطيع تذكرها، فقط أتذكر هذا اليوم الذي يضربني فيه واحد من الهنود بأداة حادة تُشبه الأخضر الإبراهيمي.

-أين والدك ؟...

هكذا يسألونني باستمرار وأنا أجيبهم بـ" لا أعرف " تارة وأحيانًا ألوذ بالصمت من كثرة التعب، وأحيانًا أخرى، يأتون للتنكيل بي وتشويه وجهي ثم التقاط بضع صورٍ لي باستخدام آلة التصوير.

وبعد شهورٍ من اعتقالي_ الذي لا أعرف سببه حتى_ فُتح باب الحُجرة واجتاحني طيفٌ من الرجال الهنديون لينتشلوا جسدي الهزيل المليء بالجروح ويقوموا بسبي وتهديدي حتى لا أتحدث مع الإعلام، ثم يرمونني قُرب سلة النُفايات، وبسبب عدم مقدرتي على السير، كان الظلام سيِد الموقف.

لم أستيقظ سوى على أصوات الصافرات الصغيرة التي تنطلق من الأجهزة داخل أحد المشفيات.

دموع والدتي المُتحسرة، هي ما آعادتني إلى هذه الحياة، فِقت على صوّتها وهي تركض نحوي وتتحسس الضمادة على رأسي وتسألني عن حالي، وُكنت أحاول طمئنتها رغم أوجاعي ورغم الغضب الذي يعتمر كياني.

-أين أبي ؟

هكذا سألتها بصوّتٍ واهنٍ بعد أن أخبرتني أنني غِبت عن الوعي لأسبوع كامل، وما كان سؤالي سوى دفعة لها حتى تبكي أكثر ويزداد قلقي.

-أُعدم .... أعدموا والدك .... قتلوه لأنهم يظنون أنه من القواعد الإرهابية....

قالتها بصوّتٍ مُتقطع انهارت بعده وبقيت تبكي حتى تدفقت الدماء بعروقي وحاولتُ الوثوب عن الفِراش لأربت على كتفها وأواسيها، رغم أنني كُنت في قمة الغضب، هؤلاء الأوغاد قتلوا دانيش بدمٍ بارد، والآن قتلوا والدي لاشتباهه بشيءٍ ربما لم يكن علاقة له به، كيف يفعلون ذلك ويدعون أنهم دولة ديمقراطية ؟ أقسم أن ألقنهم درسًا على معاملة الحيوانات التي يعاملوننا بها، بل حتى الحيوانات يعاملونها أفضل منا، بل ويعبدونها أيضًا!!

هؤلاء الأوغاد، من كثرة عبادتهم للبقر أصبحوا مثله، بل تشبيههم بالبقر يُعد احتقارًا لهذا الحيوان البريء، أعلم أن الله سيُحاسبهم على جرائمهم ضد المسلمين، وأن الله يُعد لهم عذابًا أليمًا.

أيقظتني أمي من غُمرة تفكيري الانتقامي، أخبرتني أن خالتي أرسلت لنا دعوة بالذهاب إلى فرنسا، فخالتي _ملكة جمال كشمير_ أُعجب بها رجلٌ فرنسيٌ يعتنق الإسلام وأتى إلى الهند كزيارة سياحية، وما إن رآى خالتي حتى تزوج منها فورًا وسافرت معه إلى فرنسا ليواصلا الحياة هُناك، وعندما عَلِمت ما حدث لشقيقتها وكم المعاناة التي تعيشها والتي فقدت بسببها أقرب الأناس، قررت أن تُرسل لنا الدعوات حتى نأتي ونواصل الحياة بفرنسا، بعيدًا عن هذا العالم الظالم.

وافقت والدتي على مضدد وانتظرت أن أتعافي حتى أخبرها برأيي، وكما توّقعت هي في باديء الأمر، كان الرفض هو ما ينطلي على وجهي، رغبتي بالانتقام كادت تجعلني أترك دراستي وكُتبي لأحمل السِلاح وأحرر بلدتي، أحرر المسلمون من وطأة عابدو البقر.

توّسلت لي والدتي لأيام، وكانت تعرف أن بقائي في تلك المدينة قد يجعل نهايتي مثل دانيش ووالدي، وأنا لا أعترض على تلك النهاية، لا أريد أن أترك بلدتي بسبب الخوف، لا أريد أن أستسلم بهذه السهولة، أنا حتى لم أبدأ بعد.

وأمام بُكاء والدتي وحالتها التي تدهوّرت، وتوّسلات خالتي نظيمة وزوجها، ارضخت لمطلبهما من أجل والدتي فقط، فلولاها لحملت السلاح وضحيت من أجل الاستقلال.

بعد أيامٍ عِدة، وبعد أن استعدتُ توازني وأضحيت قادرًا على السفر، ذهبنا إلى جامو لنستقل الطائرة المُتجهة إلى فرنسا، ومن هناك، قابلنا خالتي وزوجها واستقبلوننا أفضل استقبال، آرادت خالتي أن نقطن معها بالمنزل بجوار أبناء خالتي جوّدت واعتماد، لكننا آبينا بسبب كرامتنا وأصرّينا على اقتناء منزلًا صغيرًا يسع لكلينا، على وعدٍ بدفع الإيجار حالما نعثر على وظيفة.

توالت الأيام بعدها وتدهوّرت صحة والدتي، اضطررت لترك دراستي والعمل كبائع للخُضار حتى أحصل على قوت يومنا، وكانت اليوروهات القليلة التي أتقاضاها بالكاد تكفي ثمن الإيجار.

لهذا السبب قررتُ العثور على وظيفة أخرى ذات دخلٍ جيد، هذه الوظيفة استدعتني لاستخدام مهارتي الفائقة بالبرمجة، فكُنت أخترق الحاسبات وأفك الشيفرات وأعثر على الأسرار والشخصيات بمُقابل أجرٍ ماديٍ أتقاضاه، أحيانًا أساعد المجرمين لتعطيل كاميرات المراقبة، وأحيانًا أخترق الأنظمة التعليمية وأنشر مواعيد الاختبارات، بل وأحيانًا أتلصص على الأشخاص من أجل شخصٍ آخر، كل تلك الأعمال جعلتني أجلس على عرش المجد والسُلطة، جعلتني ذا سيطٍ بين الفرنسيين بالأحياء النامية.

لم يكن دافعي هو الأموال فقط، بل كان الدافع الأكبر هو الانتقام، فقد أدركتُ وقتها أنك لا تُحارب الظُلم دون أن تضحى ظالمًا، وأنا تجرعُّت من الظُلم كؤوسًا، ولن أتجرع المهانة والضعف مُجددًا، سأنشر راية الإسلام وأقلل من عزيمة الغرب، سأجعلهم يقتتلون دون أن أظهر للعيان، بضع صوّرٍ وأسرار، إذا قُمت بنشرها وصياغتها بطريقة مُعينة، قد أحدث فتنة وأزعزع الاستقرار، وهذا ما كُنت أريده بالضبط.

عام 2010، عُدت من عملي بمِتجر الخُضار، أحمل معي كيسًا من الليمون لوالدتي، كان الإرهاق بادٍ على جسدي، فأنا لم أنم لثلاثة أيامٍ متتالية بسبب أعمالي الجانبية،

وهذا اليوم بالتحديد، كان النُعاس طاغيًا على وجهي، لم اكن أعرف أي طريقٍ أسلك، هذا ليس الحي الذي أقطن به، ولا هذه البنايات تُشبه بناياتنا، وهذه اللغة ؟؟... ما هذه اللغة لا تبدو وكأنها لُغة فرنسية، بل تبدو لي أقرب للعبرية!!

أضحيتُ في وسط هذا الحي العجيب لا أعرف أي طريقٍ أسلك، رغم بقائي لثمان سنواتٍ هنا، إلى أنني لا أعرف المناطق جيدًا، فأنا شخصٌ انطوائيٌ لا يخرج من المنزل سوى للضرورة، ولا أجد مُتعة في استكشاف المُدن الجديدة.

آلمتني قدماي من كثرة المشي فجلستُ على مصطبة قريبة أغلق عيناي لفترة وأفتحهما وأنا أحاول الثبات ومقاومة النُعاس، وما كِدت أثب مُجددًا حتى...

-مرحبًا .... هل تبحث عن شيءٍ هنا ؟

آتاني هذا السؤال من رجلٍ نحيلٌ ذو خُصلتين طويلتين يُغطيان أذنيه مع قُبعة عريضة تُشبه قبعات الروس، ناهيك عن بذلته السوداء ذات المِعطف الأسود وابتسامته البلهاء التي تُزين ثغره.

اعتدلتُ في مجلسي وأنا أرميه بنظرة جامدة حركت معها رأسي علامة للنفي، وما كان من هذا المُتطفل السِمج سوى أن جلس بجواري يُحدق بي كما لو أنني تحفة أثرية.

-أنت لا تبدو يهوديًا .... لمَ أتيت هنا ؟

أردتُ أن أعرف كيف علِم أنني لست يهوديًا وأنا لم أنبس ببنت شفة حتى، لهذا السبب سألته بفرنسيتي الركيكة:

-لماذا تقول ذلك ؟.... أجميع اليهود لديهم هذين الخُصلتين ؟

سألته بجدية لأجده يعاود الابتسام ببلاهة قال معها نافيًا:

-لا .... يفعل ذلك المتشددون فقط .... فبعد بلوغ الطفل لثلاث سنوات، يحدث الحلق، وفيه يتم حلق شعر الطفل بالكامل، ويتُرك له بعدها حُرية الاختيار، فأما يجعله طويلًا، أو قصيرًا، أو يترك هذين الخصلتين علامة على التديُن وعدم اللجوء للعُنف، وفي اسرائيل، من يقوم بتطويل الخُصلتين، يتم اعفاءه من الجيش، ويُطلق عليهم اليهود المتشددون، الذين يُحاربون بكلامهم...

بقي يحكي ويُثرثر كما لو كُنت خطيبته، فمالي أنا بتلك المعلومات التي يقولها، أنا حتى لا أعرف اليهود ولا أريد معرفتهم.

-على كُلٍ، أنا لا أحب الحروب، ولا أحب دولة اسرائيل ... أتعرف، ذهبت إليها ذات مرة ... ظننتها مأوًا لليهود كما قالوا لنا بالمدرسة، لكنني عندما ذهبت هُناك، استوّقفني واحدٌ من المستوطنين بهيبرون، كان يريدني أن ألقي النفايات والأجهزة القديمة على حيٍ فقيرٍ يقول أنه القمامة، لكنني ما إن القيت نظرة على هذا الحي، وجدت العرب يقطنونه ... أعتقد أنهم فلسطينيون.... والذي زادني غضبًا، هو أن هذا المستوطن بدأ يُلقي بالأجهزة البالية والحجارة بتلك البقعة وهو لا يتوّقف عن السباب والقهقهة بشيطانية... وكانت هناك فتاة صغيرة تصرخ وتبكي عندما ألقي عليها هذا الجهاز والتقطته الشباك التي يضعونها حتى لا تُهشم تلك الأجهزة رؤوسهم....

تنبهتُ لحديثه مرة واحدة وأدركت أنه لا يتحدث عن هيبرون، فأنا أعلم جيدًا فلسطين، وأعلم أنه يتحدث عن الخليل وعمَ يحدث بها من جرائم سببها المستوطنون، وجدته يرتخي للوراء بظهره ويواصل الحديث بنبرة يملاءها الضيق الحقيقي:

-دفعتُ هذا المستوطن بعيدًا عني.... وقررتُ العودة إلى هنا، والداي لم يُعلمانني أن ألقي القمامة والحجارة على الأطفال، نبينا موسى لم يُخبرنا هكذا في كتابه، أدركتُ وقتها أن ما ظننته مأوًا لليهود... لم يكن سوى مأوًا للمجرمين

تنهد بعد حديثه تنهيدة طويلة ولازلتُ أنا صامتًا بجواره حتى قال مُستنتجًا:

-هل سأمت مني ؟... أعرف أنني ثرثار، لهذا السبب ليس لدي العديد من الأصدقاء

حمدًا لله أنه أدرك هذا وحده، فهو يتحدث بجواري لرُبع ساعة وهو لا يعرف اسمي حتى !! لكنني أيضًا تعجبت من قوله " هنا " بدلًا من بلدتي، أهذا يعني أنه مُغتربٌ أيضًا ؟

-عفوًا .... لماذا قُولت " قررت العودة إلى هُنا " أهذه ليست بلدتك ؟

نفى برأسه كما توّقعت وهو يُجيبني بصدق:

-لا ... والداي من المغرب، وعائلتي كذلك .... لكننا تفرقنا مُنذ طرد اليهود من هُناك

اعتدل في جلسته وهو يواصل بضيق:

-والداي يُحدثانني عنها، يُخبرانني كم هي دولة ذات تُراث ومباني رائعة، ناهيك عن المأكولات الشهية التي تطهوها لي والدتي يوميًا .... أتمنى الذهاب إليها حقًا، لكنني حتى لن أستطيع ... أتمنى لو لم يكن هناك محرقة، أو كيانٌ صهيوني ... وقتها كُنا لنعيش سويًا في سلام .... مسلمون ويهود ومسيحيون....

وبعد حديثٍ متبادلٍ بيننا، أدركتُ أن هذا الشاب يُدعى رازي، رازي كادوش، يهوديًا من الأرثوذوكس، يتبّع التوراة ولا يتبّع التلمود، يدعم القضية الفلسطينية ولا يدعم الكيان الصهيوني، والأهم من كل ذلك، يطمح للعيش في سلامٍ ومحبة، وهو من الأقلة الذين يتحركون وفق مشاعرهم وعواطفهم، ليس أولئك الذين يسيرون وراء أهوائهم الشخصية حتى ولو كانت على حِساب الغير.

كان أول صديقٍ لي في الغُربة، ولم أكن أعرف أن أول صديقٍ في حياتي يضحى يهوديًا، وفي الحقيقة، كان شابًا جيدًا، لايزال ثرثارًا يحكي قصة حياته للمارة، لكنه يعتز بتراثه المغربي، ويتحدث العربية بطلاقة.

تشاركنا سويًا حياتنا اليومية، وأسسنا حِزب الوحدة الدينية، الذي كان شعاره " ليس الكِتاب كصاحبه " وشعارٌ آخر " معًا لنحيا في سلام " لاقينا العديد من الإعجاب على حزبنا الصغير، ونحن نسعى الآن لتمتد أفكارنا ونقضي على التطرف والكراهية.

أدركت في هذه الأيام أن الأفكار هي التي يجب أن تتغير وليس التصرفات، فالجنود الهنديون البربريون، لن يتوقفوا عن الظُلم ما لم يُغيروا مُعتقداتهم عن الإسلام، هذا ما نسعى لأجله، وما سنفعله طوال حياتنا....

____

18يونيو 2015 باريس : فرنسا

كُنت داخل المنزل أعد الفطور لوالدتي المكوّن من التشير شوت، الفطيرة الكاشميرية التقليدية والتي يتم اعدادها عادة بدقيق الأرز، لكنني أعددتها بدقيق القمح المُختلط مع دقيق الأرز الذي لم يكن متوافرًا بكثرة، أعدت لنا أيضًا قدحين من مشروب الكاهوا، الذي يتم تحضيره عن طريق غلي أوراق الشاي الأخضر مع الزعفران والقرفة وحبات الهيل وبتلات الورد، ولتحليته وضعت القليل من العسل بسبب داء السُكري لدى والدتي.

وضعتُ أمامها الفطور وجلست بجوارها لنتسامر ونتناول الطعام في أجواء دافئة بسيطة، أجواءٍ قطعها جرس الباب ليقطعني من تلك الرفاهية المؤقتة ويجعلني أثب عن الأرض لأتجه نحو الباب.

وكما توّقعت، كان أمامي رازي يبتسم لي ابتسامته البلهاء المُرحبة، وخلفه تقف فتاةً غريبة وجوارها رجلٌ لا يختلف عنها غرابة.

فتاةً ترتدي حِجابًا أبيضًا وسُترة لبنية، تقف خلف رجلٍ عريض المنكبين ذو لحية وشعرٍ داكنٍ يرميني بنظراتٍ غامضة أعرفها جيدًا، تلك النظرات التي أرمقها لأي رجلٍ غريبٍ أتشكك بأمره.

آشار رازي على هذين الغريبين وهو يقول لي أنهما بحاجة للمساعدة، ولأنني لا أثق بالجميع بسهولة، بقيت أمام الباب أحدق بهما حتى أردف صاحب اللحية وقال أنه مُسلم.

حسنًا، في البداية اعتقدت أنه يُخبرني عن ديانته، لكنه كان يُخبرني عن الاثنين، اسمه وديانته، وعن هذه الفتاة التي تقبُع وراءه وكأنها تحتمي به، ومن نظرتي الثاقبة، أعتقد أنهما عربيان، ملامحهما عربية خالصة، وبعد فترة وجيزة من التحديق، سمحت لهما بدخول المنزل، ليس لأنهما أتيا مع رازي_فرازي يثق بالجميع حتى ولو كان قاتلًا مُتسلسلًا_ بل لأنهما يبدوان في مأزق، خاصة بعد أن أخبرني مُسلم أنهما يبحثان عن نذلٍ حقيرٍ يُدعى شارون.

-تفضلوا... كيف يُمكنني مساعدتكما ؟

هكذا قُلت بطريقة حاولت جعلها مُهذبة، أخبرت بعدها والدتي أن لدينا ضيوف، وطلبت منها أن تمكث على الفراش حتى لا تتدهوّر صحتها، وبعدها، واصلتُ الطريق في منزلنا الصغير حتى قُدتهم إلى حُجرتي الضيقة.

أعلم أنها كانت أشبه بحاوية القمامة، بل ورائحتها أشبه بالسمك المُعفن، لكن لا حل الآن سوى تحمُل تلك الحجرة الصغيرة الأقرب لُعلبة السردين، فهذه هي منبع أفكاري ومركز مُخططاتي.

فتحتُ الحاسوب وبدأت أحادثهما بعملية:

-ما هي مواصفات هذا الرُجل ؟

طالعتني الفتاة_ التي أخبرني مُسلم أن اسمها إيمان_ بنظراتٍ مُتذكرة لوّحت معها يديها وهي تشرح لي:

-ملامحه أوروبية، عيناه زرقاء واسعة وشعره حريريٌ فاتح.... جسده متناسق، ولديه ابتسامة ساحرة، لكنها خبيثة.... ملامح وجهه متناسقة، وطويل القامة نسبيًا....

بدأت تصف لي المزيد من التفاصيل وأنا أسجل ما تقوله وأسألها:

-وما هي وظيفته ؟

-تاجرًا للكُتب.... لكنني ذهبتُ إلى المتجر الذي كان يعمل به ... وأخبروني أنه لا يعمل هناك من الأساس

يبدو أن الرجل الذي يبحثون عنه مخادعٌ من الدرجة الأولى، فجميع المعلومات لديهم عكسها، اسمه شارون وكان آدم، ابتسامته ساحرة ولكن خبيثة، أخبرهم أنه تاجرٌ للكُتب وما هو سوى مجرد زبونٍ بهذا المتجر.

لا أعرف بالضبط لمَ يبحثان عن هذا الرجل، لكنني لم أشأ أن أسألهما، أنا أؤدي وظيفتي التي أعرفها جيدًا.

-بالعادة اقتاد 400 يورو على عملٍ كهذا، لكن لأنكم من طرف رازي .... سيكون الأجر 300 على أن تدفعا عربونًا قبل البدء في البحث

تبادلا النظرات لوهلة بعد حديثي وكأنهما يعتقدان أنني سأساعدهما دون مقابل.

ما هي إلا بضع ثوانٍ حتى وجدت مُسلم يُدثر يده داخل جيبه ويُخرجها ببضع وريقاتٍ وضعها بجمودٍ أمامي وهو يقول بنظراته الحادة:

-حسنًا ... ها هو العربون، أتمنى أن تعثر عليه في أسرع ما يُمكن

لمَ أشعر بالاستخفاف بحديثه ؟ وكأنه لا يعلم ما الذي أقدر على فعله، لا يعلم أنني أستطيع اختراق السجلات الميدانية والبحث عن أي شخصٍ أريده، حتى أنني تتبعت عشيقة واحدٍ من الوزارة وابتزيته لأسابيع.

رحل هذا المُتعنت عن المنزل هو وصديقته التي أشك أنها صديقته حتى، فلا يوجد صداقة بالعادات العربية كما أخبرتني والدتي، وكما تعلمنا بالإسلام، يبدو أنها بالكاد تعرفه حتى، ويبدو أنها تشعر بالغُربة ولم تجد سواه ليكون ملاذًا لها، أو أن كلاهما يتخذ الآخر ملاذًا، حقًا لا أعرف، ولا أهتم للأمر، المُهم الآن، هو إنهاء هذا العمل والحصول على نقودي، وربما نرى أمريهما فيما بعد.....

((إيمان))

19يونيو 2015   ليون : فرنسا

أحيانًا أتمنى العودة إلى الحياة الساذجة التي كنت أحياها قديمًا، فهذه الحياة الساذجة لا تتناسب مع ما يحدث الآن، الأخطاء قديمًا كانت هينة مغفور لها، أما أخطاء اليوم، فهي لا تُدمرني فقط، بل تُدمر من حولي....

دقت الساعة السادسة صباحًا، وكُنت أرغب بالحصول على بعض الراحة قبل أن آعاود البحث عن هذا الحقير الذي سلب ابنتي من أحضاني.

أخبرنا هذا المدعو بأرضوان، أنه سيتصل حالما يعثر على أي خيطٍ يصلنا بهذا الأرعن، ولأن مُسلم لم يكن واثقًا به أو بهذا اليهودي الذي اعترض طريقنا، قرر الاحتفاظ بصورة من جواز سفره وجواز سفر والدته وكذلك رازي، فجميعهم ليسوا فرنسيين، كذلك احتفظ بأرقام هواتفهم وأخبرني ألا ننتظرهما ونواصل البحث، لا أعلم سبب إصراره على العثور على ابنتي وكأنها ابنته هو!!

أيقظني صوّت جرس المنزل الذي أخذ يصدح بصورة مُزعجة؛ وثبتُ عن الفِراش أحاول إزاحة الرمق من عيني وأنا أرتدي ازدال الصلاة وأتجه إلى الباب لأفتح لهذا الزائر غير المتوّقع، حتى أنني ظننته مُسلم لكنني تذكرت أن مُسلم لن يأتي منزلي أبدًا، ربما يأتي للضرورة القُصوى.

وكان الزائر آخر شخصٍ أتوّقع رؤيته الآن، وبهذه الحالة:

-آنابيا!!

قُلتها بحاجبين مُقطبين ونظرة حائرة تفحّصت بها آنابيا_ زميلتي بالعمل_ وحالتها الرثة، فكانت عيناها مضببتان بالدموع ووجهها أحمرٌ تنبعث منه النيران، والأغرب أنها كانت تحمل حقيبة سفرٍ وتدلف منزلي متفوّهة باستنجاد:

-أرجوكي ساعديني....

الفصل الثامن (مفاجأة غير سارة)

((آنابيا))

عام 2000   ليون : فرنسا

عندما تعتاد مِذاق العُلقم، تجد مِذاق الحلو غريبًا...

وهكذا كانت حياتي المريرة، عندما يراني أحدهم، يظن أنني فتاةٌ مُدللة رقيقة، لكنه لا يعلم أن هذه الرقة لم تكن سوى هشاشتي.

قبل هذا العام، كُنت فتاةً بريئة ذات شعرٍ ذهبيٍ أملسٍ وملامح طفولية، لم يكن لدي العديد من الأصدقاء، لكنني ألهو وأمرح كبقية أقراني، أما في هذا اليوم، وعندما كُنت طفلة بالعاشرة، اعتدتُ على اللهو على الأرجوحة بالحديقة القريبة من المنزل، وقتها، كانت والدتي تتبضع لشراء طعام العشاء لكلينا، فوالدي لا يأتي المنزل سوى نادرًا.

وجهها المُشرق نثر عبيره نحوي وجعلني أبتسم وألوِّح لها من مكاني، وحتى لا تُصيبني بالخُذلان؛ وجدتها توّجه نظراتها نحوي وترميني بابتسامتها الدافئة دون أن تنتبه للطريق الذي تعبُره.

لم أكن أعرف أن حياة المرء تتبدل وتزداد قساوة في ثوانٍ قليلة، فها هي والدتي العزيزة تصدمها شاحنة كبيرة وتجعلها أشلاءً، وأنا الطفلة البريئة أشاهد ما يحدث بقلبٍ يكاد يتوّقف.

تركت أرجوحتي بسُرعة وهرعت نحوها وأنا لا أتوّقف عن النداء والاستغاثة، أتى العديد من الأشخاص وقتها وأتت سيارة الإسعاف لتنتشل جسدها المُلطخ بالدماء وحقائب الطعام التي امتزجت بدماءها.

لا أذكر أنني بكيت وقتها وأنا أشاهد أشلاء والدتي، فكانت الصدمة هي ما تتحكم بي وتجعلني واثبة أمام ما يحدث كالتمثال، أشاهد المسعفون يحاولون انقاذها وأستمع لصرخات والدي وهو يحاول إيقاظي حتى أخبره ما حدث، لكنني أأبى الحديث، وألوذ

بالصمت كالعادة، لم أتحدث عما حدث لشهرٍ كاملٍ، كُنت أتصرّف كما لو كانت والدتي بيننا، حتى بعد مراسم العزاء ودفنها أمام عيني، لازلتُ في عالم اللاوعي الذي لا يُصدق أنها قد رحلت، ملجأي ومأواي بهذه الحياة أصبح سرابًا الآن.

عام 2001، وبعد مرور عامٍ كاملٍ على وفاتها، بدأت صدمتي تزول، صِرت أبكي طوال الليل وأحيانًا بالنهار، ووالدي، يبدو أنه تعافى من موت زوجته أسرع مني، وكأن دموعه ورثاءه عليها لم يكن سوى محض أكاذيب ودموع تماسيح، فما هي إلا شهرينِ فقط وعاد إلى حياته الطبيعية، بل وأصبح يأتي بعشيقاته المنزل وكأنني لست به.

ازدادت الفجوة ما بيني وبين العالم وقتها، وكثُرت كوابيسي التي تُذكرني بهذا اليوم التعيس، فمن قال أن النسيان بهذه السهولة ؟ فمرور الأيام لا يجعل الجروح تتعافى، بل يجعلها أكثر آلمًا.

أصبحتُ أكثر انطوائية وغرابة، وحتى من كانت تتحدث معي من صديقاتي أصبحت تنفرني وكأنني عدوّتها اللدودة، أو أنا التي كُنت أنفر من الجميع، وأحمل ذاتي ذنب وفاة والدتي.

وبعُمر المراهقة، فكرّت بالانتحار أكثر من مرة، وفي مرة كِدت أفعلها بالفعل لولا مجيء والدي ومناداته علي حتى أتعرّف على عشيقته الجديدة فرانشيسكا، والتي ستقطنٌ معنا من اليوم.

هذه فرانشيسكا الحيّة، لم تكن سوى ثُعبانٍ صحراوي خبيث، لم تكُن تعاملني كوالدتها، بل كانت تُعاملني كزوجة أبيها، تغار من خُصلات شعري الذهبية لأن خُصلاتها مُجعدة أكرتة، تغار من ملامحي البريئة التي أصبحت باهتة مع الأيام، لأن ملامحها صناعية لا تخلو من مُستحضرات التجميل.

أحيانًا أستمع إلى سمومها التي تبُخها بأذن والدي وتحاول إقناعه أن يبتاع لي منزلًا ويجعلني أقطن وحدي بعيدًا عنهما، وأحيانًا أستمع لها وهي تقول أنني فتاةٌ ماكرة حاولت قتلها وتشويه وجهها ذات مرة.

ووالدي الساذج، كان يُصدقها أغلب الأوقات، ويأتي لحُجرتي كي يؤّبخني ويجبرني على الاعتذار منها، الاعتذار لسببٍ لا أعرفه.

والأكثر قساوة، أنه كان يعاتبني ويُحملّني ذنب وفاة والدتي، يُخبرني أنه يشفق علي لأنه يتركني بمنزله ولا يبتاع لي منزلًا وحدي حتى بعد وصولي لسن الرُشد، أعلم أنه يُبقيني بجواره حتى لا ينفق أمواله علي ويبتاع لي منزلًا من أمواله الخاصة.

ومع مرور بضعة أعوام، أصبحت حياتي خالية تمامًا، لا أصدقاء، لا مواهب، لا أحلام ولا حتى عائلة، أشعر أنني عالة على من حولي، حتى والدي، لا أفعل شيئًا سوى النوم والبكاء وأحيانًا أتناول اللُقيمات القليلة، وأحيانًا أخرى أتناول الكثير من الطعام وكأنني سأُحسن من مِزاجيتي.

انحدرت علاماتي بالمدرسة واضطررتُ لترك التعليم بعد انتهاء المرحلة الثانوية، فلن ترضى أي جامعة بي على أي حال، وأيضًا أنا ليس لدي أحلامٌ لمواصلة التعليم، لا أريد أن أكون طبيبة أو حتى مُضيفة طيران، لا أكترث لأي شيءٍ بهذه الحياة، حتى أنني أبقي في حُجرتي بالأيام وأنتظر أن يسلب الرب روحي لأنني فاشلة حتى بهذا الأمر، فمتى نجحتُ بشيءٍ في حياتي!!

كانت لدينا جارة تُدعى آدلين، تكبُرني بعشرة أعوام، وكانت سيدة لطيفة متزوجة من رجلٍ نبيلٍ يُحب الجميع، كانت طبيبة نفسية، وكانت تأتي للزيارة فقط للاطمئنان علي، فهي صديقة والدتي العزيزة.

في مرة من المرات، رأتني بتلك الحالة الرثة التي أصبحتُ عليها، فكان جسدي نحيلًا لا حياة به، وعيناي منتفختان من كثرة البُكاء، ناهيك عن خُصلات شعري التي أضحت تسبني من كثرة إهمالي لهم.

علِمت آدلين أنني تركتُ التعليم ولا أريد الالتحاق بالجامعة، وبطبيعة عملها، أدركت فورًا أنني أمُر بحالة اكتئابٍ من الدرجة الأولى، وإن بقيت على هذا الوضع، ربما سينتهي بي الأمر تحت الثرى؛ لهذا السبب اقترحت علي أن أعمل بالمِطعم الخاص بزوجها، لعلني بتلك الطريقة أخرج من تلك القوقعة التي سجنت ذاتي بداخلها.

رفضتُ في بداية الأمر عرضها، لكنها بعد العديد من الالحاحات، استطاعت اقناعي مع وعدها لي بأن تُخبر زوجها أن يجعلني في وظيفة لا تسمح لي برؤية الجميع، تلك الوظيفة لم تكُن سوى، غسل الصحون.

18يونيو 2015 ليون : فرنسا

استيقظت باكرًا في هذا اليوم من أجل الذهاب إلى العمل، وكانت فرانشيسكا تجلس على الطاولة برفقة والدي لوكاس يتناولان الفطور كالمُعتاد.

حافظتُ على نظراتي الجامدة وأنا أقترب نحوهما وأجلس بجوار والدي الذي يترأس المائدة، امسكتُ بالشوكة ومددتها نحو نوّع من الجُبن الفرنسي ثم وضعتها على شريحة من الباجيت بحركاتٍ رتيبة تجاهلتُ معها حديثهما المائع اللزج.

-كيف حالك عزيزتي آنابيا ؟.... أرى وجهكِ مُشرقًا منذ بدأتي العمل

قالتها فرانشيسكا بنبرة خبيثة أعلم أنها آرادتها أن تضحى ودودة، فأنا اعتدتُ على تصرفاتها جيدًا، تصرفات التي تسعى للظهور بمِظهر البريئة التي يظلمها الجميع.

-أنا بخير ... أفضل منكِ

آجبتها ببرودٍ ونظراتٍ مُستفزة بادلتني إياها وهي تقول:

-إذا متى ستبتاعين منزلك الخاص وتقطنين به .... جميع من بعُمرك يقطن وحده

-ولماذا لا تبتاعين أنتِ هذا المنزل بدلًا من بقائكِ مع الأغراب ؟

هكذا أجبتها بنبرة هجومية جعلتها تبتلع لسانها وتبادل نظراتها المقيتة ما بيني وبين والدي الذي هتف بوٌجهي:

-آنابيا ... تأدبي، فرانشيسكا ليست غريبة، إنها حبيبتي

أطبقتُ على شفتاي بغضبٍ وقررت مواصلة طعامي، فوالدي لن يقف بصفي أبدًا، وهذه الفرانشيسكا ستسلك جميع الطُرق حتى تجعلني أترك المنزل.

-لا بأس عزيزي .... إتركها وشأنها، هي لا تزال فتاةً عذراء بائسة

تعمّدتُ تجاهلها مرة أخرى حتى وجدتها ترفع من نبرة صوّتها حتى أسمعها:

-أليس غريبًا أنكِ حتى هذه اللحظة لازلتِ عذراء وحيدة ؟ ألن تفاجيئننا بحبيبٍ ينتشلكِ من هذا العراء ؟

أطلقتُ الأدخنة من أنفي وأنا أستقبل حديثها الثقيل وأرد عليها بهجوم:

-حتى وإن كان لدي حبيب ؟... ما شأنكِ أنتِ ؟

لم أشأ أن أخبرها أنني لا أمتلك أصدقاء حتى أمتلك أحباء، فأنا بالكاد أتحدث مع البشر، لكنني أعلم جيدًا أنها ستتخذ هذا الأمر ذريعة حتى تستمر بانغاص حياتي كما تفعل دائمًا.

-أنا فقط أحاول نصيحتكِ حتى لا تبقى حياتكِ بائسة

ضربت على الطاولة بكلتا يداي وأنا أثب محاولة الرد على نبرتها البريئة الزائفة بنبرة مُستفزة:

-شُكرًا لكِ.... لست بحاجة للنصائح، خاصة من سيدة تسعى للتخلص من ابنة عشيقها حتى تستوّلى على المنزل

بصقت الكلمات بوّجهها وتركتها في حالة من الصدمة لأرحل بعدها عن المنزل دون اكتراث لنظرات والدي الغاضبة ولا لحبيبته التي آرادت الإطاحة بي أرضًا، فأنا لم أعد أكترث لهما، ولن أسمح لها بمُضايقتي مرة أخرى....

فاجأني مُديري بالعمل بهذه الموّظفة الجديدة التي ستعمل معي بنفس القِسم، فأنا لم أتوّقع أن يتوق أحدهم للعمل معي، إلا لو كان يُريد الهرب مثلي، وهذه الفتاة التي أتت، يبدو أنها تحاول الهرب من شيءٍ ما، أو ربما تحاول الهرب من هذا المُجتمع القاسي.

كانت تُغطي شعرها بالحِجاب، وهذا ما أكد لي أنها تعتنق الإسلام، ونظرًا لمُجتمعنا العُنصري، كانت تعتقد أنني سأمقتها وأعاملها بازدراء، لا تعرف أنني تجرعتُ من المُقت كؤوسًا كفيلة بتغيير نظرتي عن العالم.

في العادة لا أتابع الأخبار ولا أكترث لما يحدث بهذه الأيام، لكنني استمعتُ إلى حديث الموظفين عن تلك الثورات والاعتداءات التي تحدث بهذه الأيام، تمنيت حقًا أن تطول هذه الاعتداءات عشيقة والدي حتى أتخلّص منها، بل تمنيتها أن تطوّلني وأتخلص أنا من هذه الحياة عديمة الفائدة.

تحدُّثت قليلًا مع إيمان_ زميلتي بالعمل_ وكان حديثنا سطحيًا أخبرتني فيه أنها آتية من مِصر وأنها كانت تعمل بمجال الأفلام الوثائقية، وأنا لم أخبرها عن حياتي شيئًا سوى معلوماتٍ سطحية أخرى وإيماءات، ليس لأنني لم أرتح لها، بل لأنني لا أملك شيئًا لأقوله؛ فحياتي مملة ولا تحمل سوى البؤس.

عُدت إلى المنزل بالسادسة مساءً، وكانت طاولة العشاء قد أعدتها الخادمة وجلست عليها فرانشيسكا ووالدي ينتظرانني للمجيء، وكانت المرة الأولى التي ينتظرانني بها على العشاء.

-تقدمي آنابيا ... أريد أن أتحدُث معكِ في أمرٍ مُهم

قالها والدي بنبرة حنونة امتزجت بنفحات الجدية؛ هذا ما جعلني أرمقه بحيرة لوهلة قبل أن أرضخ لأوامره وأجلس بجواره على الطاولة متفوّهة بأدب:

-نعم أبي

رسَّم بسمة واسعة على ثغره ليضع بعدها أنامله على أناملي ويواصل حديثه بافتتاحية:

-تعلمين أنني على مشارف الفوز بصفقة كُبيرة أليس كذلك ؟

كان يحاول تذكيري بتلك الصفقة التي تحدث عنها قبل أيامٍ ونحن نتناول الفطور، ولأنه لم يكن يتحدث معي عنها، لم أنتبه لحديثه كاملًا، لكنه يعلم أنني استمعتُ إلى القليل من حديثهما المسموع؛ لهذا السبب أومأتُ رأسي إيجابًا ولازالت نظرات الحيرة تنطلي على وجهي وربما تُمتزج مع دقات قلبي المتسارعة.

-مالك الشركة الذي سأعقد معه الصفقة يُريد مقابلتك قبل أن نبدأ إجراءات الشراكة

قطبّت حاجباي بحيرة وأنا أشير على صدري متفوّهة:

-يـ...يريدني أنا!!

أومأ برأسه إيجابًا مما زاد من ضربات قلبي وهو يواصل:

-نعم .... رآكي ذات مرة في زيارة له هُنا .... وأخبرني أنه مُعجب بكِ ... ويُريد أن يقضي معكِ ليلة واحدة

جحظت عيناي في ذعر وانتفض بدني وأنا أحاول طرد هذه الأفكار عن رأسي، تزايدت ضربات قلبي وأنا أحاول تكذيب ما يقوله والدي بكلماتي المتقطعة:

-مـ... ماذا !! ... لكن أبي ... أنا أصغره بعشرين عامًا!!

حاولت استثارة عاطفته وأنا أحاول الاعتراض بدموع مكبوحة، لكن والدي كان يتصرّف بطبيعية وكأنه لا يبيع ابنته من أجل صفقة لعينة:

-وما الضيُر في ذلك عزيزتي ؟ ... أنتِ لا زلتِ عذراء ولا زلتِ فاتنة، لن يحدث لكي شيءُ من ليلة واحدة... ثم أنه رجلٌ وسيمٌ رغم كِبر سنه

تصاعدت أنفاسي وتحوّل وجهي إلى كُتلة من اللهب وأنا أستمع لحديث والدي، أو الذي يدّعي أنه والدي، لماذا ينظر لعُذريتي وكأنها كنزٌ ثمينٌ يجب الانتفاع منه ؟

-لا ... أنا لا أريد ذلك

قُلتها بنفيٍ ودموع مكبوحة زادت من غضب والدي وجعلته يتحوّل من الأب الحنون إلى وحشٍ كاسر:

-عزيزتي .... هذه صفقة مُهمة، يجب أن أحصُل عليها، ألا تُريدين لوالدكِ النجاح ؟

انفجرت ينابيعي مرة واحدة ووثبتُ عن المقعد وأنا أصرخ بوجهه:

-وما شأني أنا بنجاحك !! .... أنت حتى لا تهتم لأجلي، وتريد بيعي كسلعة بخيثة

انهمرت الدموع على وجنتاي وأنا اشعر بالانكسار لأول مرة، فرغم معاملته الجافة، إلى أنني كُنت أُيمن نفسي أنه سيهتم لأجلي في يومٍ من الأيام، أو على الأقل هو لا يُعنفني مثل بقية الآباء السيئيون، إنما الآن، هو يفعل ما هو أكبر من التعنيف.

-ومن قال أنكِ سِلعة بخيثة .... أنا سأجعله يعامِلك بلُطف

قالها وهو يحاول إقناعي بوّضعه ليديه على كتفي، لكنني أبعدته عني بازدراء قُلت معه بإصرار:

-وأنا لا أريد...

ترقرقت دموعي أكثر وأنا أوّجه نظراتي المُنكسرة نحو والدي لعله سيعطف علي ويوّقف تلك البيعة، لكن تدخل هذه المقيتة زاد من حدة والدي حينما قالت باستحقار:

-أخبرتك أنها فتاةٌ أنانية لا تكترث لأجلك....

وثبت بعدها عن المِقعد لتوّجه حديثها الحاد نحوي:

-اسمعي أيتها الشمطاء .... هذه الصفقة مُهمة للغاية، ولن نخسرها بسبب كرامتكِ السخيفة

آضاف والدي على حديثها بنظراته القاسية التي زادتني انكسارًا:

-هذا مضبوط .... هيوجو سيأتي لأخذكِ بالصباح الباكر ... حتى وان اعترضتِ

ارتجف بدني وأنا أستمع لكلماته القاسية التي زادت من دموعي وحسرتي على حالي، فإن كنت أرضى بالمعاملة الجافة والمهانة، لن أرضى أبدًا أن يمس أحدهم كرامتي ويتم معاملتي كسلعة بخيثة، وعلى يد من ؟ والدي ... والدي الذي ظننته عوْنًا لي بعد وفاة والدتي.

-أبي أرجوك ... أرجوك لا تفعل ذلك بي ... لا تجبرني على ذلك أرجوك

تهاوي جسدي على الأرض أمام أقدامه وبقيت أتوّسله حتى يرأف بي، كِدت أقبّل أقدامه حتى يتركني وشأني ويعاود معاملتي بجفاء، لو كانت والدتي موجودة لما حمتني من طُغيانهما.

-ابتعدي عني .... ستذهبين إلى هيوجو غدًا .... هيا، إرحلي لتتجهزي

دفعني بقدمه لأبتعد عنه وبقيت أنا على الأرض أنخرط في البكاء ولا أعرف ما الذي علي فعله، فإن وافقت سيتخذها والدي ذريعة ويواصل بيعي لرفاقه، وإن رفضت ربما يأتي بصديقه المنزل ويُخضعني لأوامره، وأنا لن أتحمّل هذا الأمر، لن أتحمّل البقاء هنا أكثر من ذلك....

19يونيو 2015 ليون : فرنسا

لم أجد من أستنجد به في هذه الورطة سوى آدلين، ولأنني أعرف أنني إن اختبأت بمنزلها سيعثر علي والدي، طلبت منها أن تبحث لي عن منزلٍ لأبقى فيه بضعة أيام، لكنها أخبرتني أنني لا يجب أن أبقى وحدي، فهكذا سأجعل والدي يعثر علي بسهولة.

وبعد نقاشاتٍ قصيرة دامت بيننا، سألتني إن كان لدي أي من الأصدقاء حتى أبقى معهم وأحتمي بهم، ولأنني لا أملك أي أصدقاء، لم يأتي بذهني سوى شخصٌ واحدٌ فقط، ربما هو الشخص الوحيد الذي أعرفه الآن، بخلاف آدلين.

-نعم .... لدي زميلة بالعمل... اسمها إيمان، هل زوجِك يعرف أين منزلها ؟

أخبرتني آدلين أن عنوان المنزل يتم تدوّينه في البيانات قبل تعيينها بالوظيفة، هذا ما جعلها تستشير زوجها وتحاول إقناعه حتى يُعطيها العنوان الخاص بإيمان، أخبرته أنها مسألة حياةٍ أو موت، وهي بالفعل كذلك، فأنا إن بقيت هنا، سوف تنتهي حياتي على الأغلب.

وبعد حصولي على العنوان، وفي الصباح الباكر، أجدني أقف أمام منزل إيمان لا أعرف ما الذي أقول وماذا أفعل، أشعر بالضياع والذُل ولا أعرف كيف سأطلب المساعدة من فتاةٍ بالكاد أعرفها.

-آنابيا!!

هكذا قالت بحيرة ما إن لمحت وجودي المفاجيء أمام منزلها، بل وبحقيبة سفري، وما كانت كلمتها البسيطة سوى دافعًا لي حتى أنفجر بالبكاء وأطلب النجدة منها، أصبحنا في عالم نطلب فيه النجدة من الأغراب لينجدوننا من الأحباب.

-ما بكِ ؟ ما الذي حدث ؟

سألتني بنبرة قلقة وهي تفسح لي المجال بدخول المنزل، أمسكت يداي برقة لتجذبني قُرب أقرب مِقعدٍ وتجعلني أجلس أمامها أحاول استنشاق مخاطي واستجماع طاقتي حتى أستطيع الحديث، وبعد فترة وجيزة أعطتني بها كوبًا من المياه، كانت كلماتي كالآتي:

-لم أعُد أتحمّل .... لم أعد أتحمّل أكثر من ذلك...

أخفضتُ بصري لأسفل وبدأت أقص عليها جُزءًا من حياتي البائسة وما يُريد أن يفعله والدي، لم أعدُ أستطيع الكُتمان أكثر من ذلك، ربما إن حمُلت أحدهم شِطرًا من عذابي لن يضحى العذاب ثقيلًا علي.

-كيف يفعل ذلك بابنته ؟ .... ما الذي حدث للإنسانية ؟

قالتها إيمان باعتراضٍ على هذه الحياة وربتاتٍ بسيطة على كتفي، وبعد فترة من الصمت وجدتها تقول:

-يمُكنكِ البقاء هنا، أنا أقطن وحدي

أومأتُ رأسي بهدوءٍ وشعورٌ بالذُل يتلبسني، لو كنا بزمنٍ آخر لما وافقت أبدًا على المبيت مع الغُرباء، لكن الآن، لا يوجد أمامي حلٌ آخر.

صوّت جرس المنزل صدح مرة واحدة مما جعل إيمان تثب عن الفراش وتهم بفتح باب المنزل، فما إن فتحت الباب حتى وجدتها تهتف بمفاجأة:

-جورج....!!

((جورج))

19يونيو 2015 ليون : فرنسا

أفضل أنواع السعي، هي السعي لأجل من يستحق، هكذا كُنت أفكر وأنا في طريقي لمنزل إيمان الذي عثرت عليه بعد عناء، فتلك الغبية لم تُكلف نفسها وتُخبرني عنوانها بالتفصيل، اكتفت فقط بذِكر تفاصيل بسيطة عمَ يخص موُقعها وما يُميز الشارع الذي

تسكُن به، وإن جئنا للحق، لم يكن الشارع مميزًا أبدًا، بل كان شارعًا مملًا مليئًا بالمباني النظيفة والشوارع ذات الحِجارات السميكة.

طرقت باب المنزل وبقيتُ أمامه لبضع ثوانٍ انتهت بفتح الباب وظهور إيمان من وراءه يبدو عليها التفاجؤ، أشُك أنها اعتقدت أنني تخلٌيت عنها، لا تعلم أنني طوال هذه الأيام كُنت أبذل ما بوٌسعي لأحصل على التأشيرة واتمام إجراءات السفر، حتى أنني لجأت للوساطة حتى أنهي الاجراءات بسُرعة.

صافحتني بابتسامة متفاجئة ثم جذبتني لأدلف منزلها البسيط ذو الأثاث العصري الذي يتكوٌن من حُجرتينٍ فقط، وما جعلني أتصلٌب مكاني، هو هذه الفتاة ذات الشعر الذهبي والأعين الذابلة.

-بقولِك إيه ... هي ... مين المُزة دي ؟

قُلتها بهمسٍ وأنا أضرب كتِف إيمان حتى تنتبه إلى حديثي وتُجيبني:

-أه ... دي آنابيا ... زميلتي في الشُغل

مهلًا، هل قالت للتو أنها زميلتها بالعمل !! كيف وهي أخبرتني على الهاتف أنها فقدت عملها وأموالها وعلى وشك فُقدان منزلها والمبيت بالشوارع ؟؟

-شُغل !! ... إنتِ مش قُولتي إنِك اترفدتي ؟

كان الغضب طاغ على وجهي وأنا أسدد لها الكلمات لعلها كانت تختلق الأكاذيب وتنصب لي مكيدة أو مقلب من مقالبها، حسنًا، إيمان ليست فتاةً مشاغبة تفتعل المقالب، بل هي فتاة ساذجة إذا أخبرها رجلٌ غريبٌ أن تتبعه ستأتي وراءه ركضًا، هناك خطأ بما يحدث.

-أيوة أنا فعلًا اترفدت ... بس مُسلم جابلي شُغل

تفسيرها لم يكن سوى صخرة أخرى أضيفت فوق جبل صدماتي، فعن أي مُسلمٍ تتحدث ؟ ومن هذا الذي تعرٌفت عليه ووفر لها وظيفة خلال يومين!!

-مُسلم مين ؟

-دا واحد كدة اتعرفت عليه من كام يوم .... وهو قالي هيساعدني

هكذا بدأت صدمتي تتلاشى، ها هي إيمان تعود إلي كما أعرفها، رغم أنها تعرضت للاحتيال إلى أنها لن تتوٌقف عن الثقة الزائدة بالآخرين، وهذا ما آصابني بالغضب الآن.

-وليه يعني ؟ .... كان من بقية عيلتنا !! .... بعدين هو أي حد يقولِك هساعدِك تصدقيه كدة عادي

رمقتني بنظراتٍ حانقة أعرفها جيدًا، تلك النظرات المعاتبة التي أرميها لوالدي حينما يبتاع اللعبة التي أريدها لشقيقتي.

-أصل إللي من عيلتنا استهزأ بمشاكلي ومكنش عايز يعبٌرني

كُنت على وشك الرد عليها وتبرير سبب تأخري لولا صوٌت الحمحمة الصادر من تلك الفتاة الفاتنة لعلها تُريدنا أن ننتبه لوجودها.

-عفوًا .... هل أسبب لكما الحرج ؟

قالتها بفرنسية مُتقنة وصوٌتٍ رقيقٍ به لمحة من الانكسار، كذلك أصابعها المُرتبكة وعيناها المُنتفختان أكدتا لي أن تلك الفتاة في مأزقٍ هي الآخرى، لمَ الجميع هنا في مأزقٍ عداي.

حسنًا، أنا كذلك في مأزقٍ بعد أن تعاركت مع والداي من أجل المجيء.

-بالطبع لا .... كيف لزهرة مُشرقة أن تتسبب في إحراج أحدهم

قُلتها بإعجابٍ صريحٍ وابتسامة بلهاء جعلت إيمان تضربني على كتفي حتى أنتبه إلى كلماتي التي جعلت وجنتا آنابيا تتضبب بالحُمرة مع ابتسامتها الرقيقة رغم ذبلان ملامحها.

-المعذرة سينيوريتا .... اسمي هو جورج .... تشرفت بمعرفتِك

تقدمتُ نحوها بضع خطواتٍ وأنا أمدُّ يدي لمصافحتها لتُعطيني يدها الرقيقة ببعض التوتر الذي بددته أنا حينما منحتها قُبلة رقيقة على أناملها الصغيرة، وجهُت نظراتي الحالمة نحو وجهها الذي ابتسم ببعض الخجل وهي تُعيد يدها مرة أخرى بهدوء، فالمصافحة أكثر من خمس ثوانٍ، تُصيب الطرف الآخر بالضيق، خاصة عندما يكون شخصًا غريبًا.

بقينا نتبادل النظرات الحالمة لفترة وجيزة قطعتها إيمان بنظراتها الغاضبة وهمسها الساخط بأذني:

-إتلم

أبعدتُ نظراتي عن الفاتنة لأصوِّبها نحو ملامح إيمان المتجهمة والتي حاولتُ الرد عليها بهمس:

-ما تسبيني آكل عيش ... مش يمكن آخد الجنسية

وما كادت ترد علي حتى قطعنا صوِّت الجرس وهو يصدح مرة واحدة.

-إيه ده !!... إنتِ مستنية حد ؟

رمقتني بنظرات حائرة وهي تنفي برأسها ثم تتجه صوِّب الباب باسدال الصلاة الذي لازالت ترتديه مُنذ أتيتُ إلى المنزل، وبعد أن رحلُت، انتهزت الفُرصة حتى أذهب إلى آنابيا وأسألها عن حالها حالما تأتي إيمان، وفي هذه اللحظة، تمنيتُ أن تفتح الباب وهي تتحرك مثل السلحفاة.

بعض بضع دقائق، دلف المنزل ثلاثة رجالٍ واحد منهم ذو بنية قوية ونظراتٍ حادة وبشرة خمرية تميل الى السمار ويحمل معه حقيبة خاصة بالحواسيب، ووراءه رجلٌ قصير القامة نسبيًا ذا جسدٍ نحيلٍ وبشرة بيضاء صافية يعلوها وجهٌ مُشرقٌ وعينان خضراء واسعة وخُصلتان طويلتانِ تُغطيان أذنيه مع قُبعة صغيرة تعلو رأسه، وبنهاية الصف، كان رجلًا طويل القامة نسبيًا ذو لحية بسيطة وخُصلاتٍ سوداء مع أعينٍ داكنة ونظراتٍ واثقة كأنه يدلف منزله.

ثلاثة رجالٍ يختلفون في الديانات والجنسيات يدلفون إلى منزل شقيقتي مرة واحدة!!

-تعالي هنا ... مين دول ؟

قُلتها بنظراتٍ غاضبة وأنا أتمّسك بمِرفق إيمان بقسوة، فأنا على شفا جرفة من تفجير رأسها وارتكاب جريمة هنا.

-د...دول ... دول مُسلم وأرضوان ورازي ... بيساعدوني عشان ندوّر على شارون

أدلت كلماتها ببعض الارتباك الذي جعلني أخرج عن شعوري وأهتف بوجهها مُنتهزًا فُرصة أن لا أحد سيتفهم عربيتي ولهجتي المصرية:

-وحياة خالتو !!.... أومل إيه يا جورج تعالى الحقني، وأنا من غيرك هموّت نفسي وأنا واقعة في مصيبة .... وفي الآخر جيبالي ناس غريبة يساعدوكي .... ما كُنتِ قولتي من بدري مكنتش تعبت نفسي وجيت ... وبعدين متعرفالي على ناس من كل الديانات ... إيه ؟ ... ناوية تعملي مُنظمة الوحدة الدينية!!

أنهيتُ حديثي ببعض السُخرية التي لطخت غضبي العارم، أقسم أن زوج خالتي إذا علِم بالأمر فسيقوم بدفن ابنته حية، أو ربما يُطلق عليها الأعيرة النارية.

كُنت على وشك الرحيل وتركها لتتدبر أمورها قبل أن توُقفني ربتة حادة على كتفي مع كلماتٍ متجهمة أصابتني ببعض الصدمة:

-روّق يا أخينا .... بنت خالتك معملتش حاجة غلط، ولو جاي عشان تساعدها يبقى تبطل لت وعجن وتعالى دوّر معانا

شلّت الصدمة حركتي وأنا أشاهد هذا الرجل ذو اللحية وهو يُحادثني بعربية طليقة ولهجة مصرية خالصة، حتى أنني لم أنصت لحديثه الموّبخ والتفتُ نحو إيمان كي أهمس بأذنها:

-هو مصري ؟

أومأت برأسها إيجابًا ثم اقتربت نحوي لتُفجر قُنبلتها التالية:

-أصلي نسيت أقولك .... مفيش حد من دول فرنسي كُلهم مغتربين ماعدا آنابيا .... عندك أرضوان، من الهند ... ورازي من المغرب، ومُسلم من مصر

عظيم، تعرفت على أشخاصٍ غريبة من دياناتٍ مُختلفة وجنسياتٍ مُختلفة في أقل من ثلاثة أيام، إن لم أكن جِئت لكانت الآن في صدد افتتاح جامعة دولية للمغتربين تحت عنوان " جامعة المُغتربين المُتحدة لعمليات الانقاذ والاستغاثة"

-يا رفاق .... هلا أتيتم لحظة

قالها هذا الشاب الذي أخبرتني إيمان أن اسمه أرضوان، فهو الوحيد الذي ما إن دلف المنزل حتى اتخذ رُكنًا بالبهو الصغير وبدأ يعبث بحاسوبه وكأنه آتٍ لغرضٍ ما، وبنظرتي الأولى لهذه الشخصية، أدركت لوهلة أنه شخصية جدية لا تُحب المُزاح، وبنيته الصلبة أكدت لي أنه يكد ويعمل مُنذ الصِغر، أو ربما عانى الكثير بطفولته مما كوّن هذه البنية الصلبة، أما عن نظراته الغائرة وبؤبؤيه المتسعتين، أكدا لي أنه يعمل على الحاسوب لفتراتٍ طويلة وأنه ماهرٌ فيما يخص التكنولوجية.

على كُلٍ، تركتُ ثرثرتي جانبًا لأقترب نحو أرضوان أنا وإيمان حتى نستمع إلى ما سيقوله من كلماتٍ مُهمة:

-بحثتُ طوال اليومين في السِجلات الميدانية ولم أعثر على أي شخصٍ بهذا الاسم ..... هذا يعني أنه ليس فرنسيًا، أو ربما تخلّى عن جنسيته

واصل العبث بالحاسوب وهو يسترسل بجدية:

-بحثتُ كذلك بسِجلات المسافرين حتى عثرتُ على اسمه في قائمة المسافرين مُنذ عِدة أيام

رفع بصره نحوّنا وهو يواصل ببعض اليأس:

-لكنني وجدت العديد من الأشخاص بنفس الاسم .... لهذا السبب أتيت حتى أعلم القليل من المعلومات التي يُمكنها أن تدلُنا على طريقه

لاحت بيننا فترة من الصمت، كانت فيها آنابيا في حالة من التيه حتى أخبرتُها أنا عمَ يحدث بطريقة سطحية لكن إيمان بسذاجتها المعهودة وجدتها تُخبرها بالحقيقة مرة واحدة.

المسكينة آنابيا ظنُت أن إيمان قد تُساعدها بمحنتها، لا تعلم أن إيمان هي أكثر من يحتاج للمساعدة.

-لمَ لا نحصُر جميع المناطق التي يزداد بها اليهود ؟

اقترح رازي هذا الاقتراح بلهفة وهو يتقدم بجذعه للأمام؛ وافق أرضوان على اقتراحه فأخرج ورقة من جعبته وبدأ يخط عليها بقلمه الجاف أثناء قوله:

-حسنًا ..... بما أنه يمتلك الملامح الأوروبية، فأول الأماكن التي يجب أن نُفكر بها هي ... أمريكا

قالها أرضوان بجدية وهو يدوّن اسم " أمريكا " على الورقة كأول الحلول المبدئية.

-وبلجيكا أيضًا تحتوي على العديد من اليهود .... خاصة وهي دولة تتحدث الفرنسية

أدلت آنابيا بهذا الاقتراح مما جعل أرضوان يوميء بإعجابٍ قال معه وهو يخط اسم " بلجيكا"

-نعم ... وهذا قد يُفسر حديثه الطليق بالفرنسية

-إيـــمان

قالها مُسلم بصوّتٍ مُرتفع نسبيًا وهو يحمل بين يديه زهرة حمراء ذابلة فروعها جافة لكنها لا تزال تحمل بعضًا من حُمرتها القانية وفروعها القصيرة.

رمته إيمان بنظراتٍ حائرة سألت معها:

-ما الأمر ؟

-ما هذه الزهرة ؟

وثبت إيمان من مُقعدها وهي تقترب نحوه وتتسآل عمَ سيفيده إذا علِم ماهية هذه الزهرة، حسنًا، أنا الذي كُنت أتسآل وليس هي.

-أه.... هذه الورود التي أحضرها آدم لي .... وأخبرني أنها رمزُ لبلاده

قطُّب مُسلم حاجبيه وهو يرمقها بنظراتٍ ذات مغذى سأل معها:

-وهذا لم يلفت نظركِ لشيء ؟

كان مُسلم يتحدث بالفرنسية حتى يفهم الجميع، فيبدو أنه توّصل إلى شيءٍ ما يتعلق بهذه الزهرة.

-لا ... ما بها هذه الزهرة ؟

أغلق مُسلم عينيه بنفاد صبر ثم فتحهما وفي تلك اللحظة، أعتقد أنه يسب حماقتها داخل رأسه، حسنًا، لا أعرف أنا أيضًا هذه الزهرة، وربما هذه المرة الأولى التى آراها بها، لكنني لا زلتُ أتعجّب نظرة الحنين التي تغتاب إيمان حينما تتذكر آدم، ليس وكأنه مُحتالٌ عبث بمشاعرها واختطف ابنتها!!

-هذه الزهرة تُدعى شقائق النُعمان .... نسبة للملك نُعمان بن مُنذر... ويُطلقون عليها زهرة الحنون أو الدحنون

تقدّم بضع خطواتٍ وهو يواصل حديثه بعلمية:

-وفي رواياتٍ أخرى .... تُسمى بزهرة الشُهداء، بسبب انتشارها بالريف الفلسطيني، كما استخدمها المُغني محمد هباش كرمزٍ مخفيٍ في أغنيته عن شُهداء فلسطين...

صمّت بُرهة عن الحديث أمام نظراتنا البلهاء وحيرتي من معرفته لهذه المعلومات.

-وفي عام 2013 .... أعلنت سُلطات الاحتلال عن شقائق النُعمان أنها ستجعلها " زهرتها الوطنية "، وقاموا برسمها في العُملات وطوابع البريد وشِعارات وحدات جيش الاحتلال

عمٌ الصمت على الجميع مرة واحدة في محاولة منهم لاسترفاد المغذى من المعلومات التي أدلاها مُسلم، إلى أن إيمان، لم تتحكم بنبرتها الهجومية وهي تقول بدون تفكير:

-ماذا !!.... هل تقصد أن شارون فلسطينيًا !!.... هذا مُستحيل، هو لا يبدو عربيًا من الأساس، ثم .... كيف يكون فلسطينيًا وهو يعتنق اليهودية ؟.... وكيف يكون فلسطينيًا وهو قد عبث بمشاعري واختطف ابنتي_

كادت توّاصل اعتراضاتها لولا قطع مُسلم لحديثها:

-لم أقصد أنه فلسطينيًا .... أقصد أنه يعيش هناك، ويعتبرها دولته .... دون وجه حق

تصلُّبت أهدابها مرة واحدة واختفت الألوان من وجهها، تحوَّلت الآن إلى صنمٍ نحتته عوالم الصدمة والشعور بمدى حُمقها وسذاجتها وهي تقول بتقطُّع:

-هل ... هل تقصد أنه .... أنه.....

الفصل التاسع (عندما يُصبح الحظ عدوًا)

((جورج))

19يونيو 2015   ليون : فرنسا

أتعلم متى تتحوّل الحماقة إلى قهر ؟ حينما تتأكد أن من قام بخِداعِك لم يكن سوى عدوّك الأزلي....

عندما أدركنا حقيقة الأمر، لم تكن عوالم الصدمة تلوح على وجوهنا مثلما تلوح على وجه إيمان المسكينة، فلو أنها خُدعت من رجلٍ عاديٍ لكان الأمر أكثر يُسرًا، إنما الآن، فهي على وشك الانهيار والصُراخ بجنون.

-أنا اتغفلت من اسرائيلي!!

قالتها بصوّتٍ مُنخفض وكلماتٍ عربية أعربت عمَ تكنيه بداخلها، فما هي إلا بُرهة وجيزة حتى أطلقت صرخاتٍ مُتحسرة وضعت معهم يدها على رأسها وباتت على شفا جرفة من البكاء كالأطفال الرُضع.

-أرجوكم أخبروني أنني لست بكابوس

ارتمت على الأريكة في حسرة بالغة وجلست آنابيا بجوارها تحاول التربيت على كتفها بمواساة قالت معها:

-لا بأس ... سنعثُر على هذا الحقير

يبدو أن مواساتها لم تؤثر أبدًا بإيمان التي واصلت ضربها الخافت على رأسها وهي تقول:

-أشعر أنني مُغفلة كبيرة

في تلك اللحظة، لم أشأ أن أتركها في غُمرة يأسها وشعورها بسكاكينٍ تنحر فؤادها؛ لهذا السبب جلستُ بجوارها على الأريكة أُمسد على كتفها من الجهة الأخرى أثناء مواساتي لها التي خرجت من جوفي بصورة مُحفزة:

-لا يجب أن تشعري أنك مُغفلة .... بل يجب أن تتأكدي من ذلك

ما إن أنهيتُ كلماتي الصادقة حتى وجدتها تخرج من غُمرة ضيقها وتضربني بأقرب وسادة طالتها يدها، بينما كانت آنابيا بجوارها تكبح ابتسامتها الرقيقة وتشاهد كلانا ونحن نتعارك ونتناسى ضيق الموقف لفترة وجيزة قطعها أرضوان وهو يعبث بحاسوبه:

-يا رفاق .... وجدتُ شارون

تحفزّت أعضائنا وتركنا مواقعنا لنلتف حول أرضوان حتى يُخبرنا كيف عثر على ذاك المُخادع.

-شارون أيزنعوت..... كان من الرُكاب بالطائرة المُتجهة لإسرائيل .... وهو مواطن اسرائيلي، يعمل بالصحافة، ويُدير مجلة يسرائيل أيزنعوت، لديه شبكة من المواقع الكفيلة بالتأثير على الرأي العام الغربي .... كما أنه عضوٌ مُهم باللوبي الصهيوني وبعض المُنظمات اليهودية

لم يكد يُنهي معلوماته الجدية حتى وجدنا إيمان تضرب جبهتها وتواصل تفاجؤها:

-نــــعم !!... يعني كمان مشهور!!

اتخذتُ موّقعًا بجوارها وأنا أحاول تهدئتها، وأقول بقرارة نفسي : لو كلُفت نفسها وبحثت عن ماهيته ولو بحثًا سطحيًا لمَ وصلنا لتلك النُقطة:

-اهدي يا إيمان .... خلينا نشوف هنوّصله إزاي

تدخل رازي بحديثنا ليسأل:

-هل ستُسافروا إلى اسرائيل ؟

رمقته إيمان بنظراتٍ مُقتضبة حادة قالت معها:

-نعم ... سأسافر إلى ابنتي ... لن أتركها حتى ولو أخبرتمونني أنه سافر بها إلى المريخ

قالتها بإصرارٍ لأول مرة آراه عليها، فعلى الرغم من أنها لم تبقى مع ابنتها سوى بضعة أشهر، إلى أنها تتمسك بها وعلى وشك ارتكاب جناية حتى تعثر عليها، هذه هي إيمان التي أعرفها، لا تتخلى عمَ تُريده بسهولة، ربما لهذا السبب استطاعت اقناع والدها بالمجيء هنا ودراسة الإخراج.

-من سيُسافر إلى هُناك ؟

سأل أرضوان بجدية فرفعت إيمان يدها وهي تقول:

-أنا

تبعتها أنا الآخر برفع يدي نظرًا لأنني أتيت هنا لمساعدتها مُنذ البداية، ولطالما ستذهب إلى أعدائنا، فأنا سأبقى معها حتى النهاية:

-وأنا أيضًا

أومأ أرضوان رأسه وبدأ يعبث قليلًا على حاسوبه حتى وجدنا مُسلم يتقدمنا متفوّهًا بصرامة:

-وأنا كذلك سأسافر معهما

تعجبتُ من قراره لوهلة كما فعلت إيمان هي الأخرى، لكننا وجدناه يرمينا بنظرة واثقة قال معها بتبرير:

-لن تستطيعا البحث عنه وحدكما

أومأ أرضوان مرة أخرى وهو يعبث بالحاسوب وأظن أنه يبحث عن مُتطلبات السفر، بينما كانت آنابيا تحني رأسها بخجل وتحاول تجنب النظر إلينا.

-هكذا أنتم بحاجة لثلاثة تأشيرات وثلاثة_

يبدو أن إيمان لاحظت نظرات آنابيا المتوترة، هذا ما جعلها توّقف أرضوان لتعترضه بثقة:

-لأ ... سنحتاج إلى أربعة تذاكر .... آنابيا ستأتي معنا

أنهت الحديث بنظرة صادقة وجهتها نحو آنابيا التي رفعت رأسها بذهولٍ ورسمت بسمة هادئة ممتنة على ثغرها، لا أعرف حقًا لماذا فعلت إيمان ذلك، لكنني أكاد أكون متيقنًا أن آنابيا تواجه أمرًا ما يجعلها بهذا التوتر والخوف الدائم، خاصة وهي معها حقيبة سفرها.

-حسنًا ... هكذا أنتم بحاجة إلى أربعة تذاكر وثلاثة تأشيرات

قالها بعملية وهو يرفع نظراته نحونا مواصلًا:

-أصحاب الجنسيات الأوروبية ... ليسوا بحاجة لتأشيرات حتى يُسافروا اسرائيل، باعتبارها عضوًا بالاتحاد الأوروبي

لم يكن حديثه مصوّبًا نحونا بالمعنى الحرفي، فأعتقد أنه يقصد آنابيا لأنها الوحيدة التي تحمل الجنسية الفرنسية ولن تحتاج إلى تأشيرة للسفر، أما نحن، سنحتاح إلى تأشيرة وسنحتاج إلى الذهاب إلى السفارة الاسرائيلية واستكمال العديد من الاجراءات، أتمنى ألا تضحى نفس الاجراءات التي فعلتها قبل أن أسافر إلى هنا، فأول مرة أسافر بها، لم أحصل على التأشيرة سوى بعد شهرٍ كامل، رغم أنني أردتُ السفر إلى الإمارات.

-ثمن التذكرة لا يتعدى المئة يورو في المقاعد الدونية .... أما التأشيرة وبقية الاجراءات، فسيتعين عليكم الذهاب إلى السفارة وتنتظروا قرارًا من الحكومة حتى تحصلوا عليها....

أنهى حديثه ببعض اليأس وهو ينظر لنا:

-هذه الاجراءات ربما تتطلب أكثر من شهرين ... خاصة وأن إيمان قد أضاعت جواز سفرها

هنا ولم تتحمل إيمان الصمود، وجدناها تنطلق مرة واحدة بكلماتها الأشبه بالسيل الجارف:

-ماذا !! ... لن أستطيع البقاء هنا أكثر، أريد العثور على ابنتي بسرعة قبل أن يختفي بها هذا الوغد مجددًا

تفهّم أرضوان قلقها وأومأ برأسه إيماءة بسيطة تبعها بقول:

-حسنًا .... يُمكنني تدبُر الأمر .... أستطيع إيصالكم بشخصٍ قد يُسهل لكم الاجراءات .... لكن سيتعين علينا أن نحصل على جواز السفر الخاص بكِ، أو على الأقل نُسخة منه

ما إن أنهى حديثه حتى تذكرتُ شيئًا هامًا جعلني أقول:

-أنا معي نُسخة من جواز سفرها .... أحضرتها من مِصر قبل مجيئي إلى هنا

بدأتُ البحث بحقيبة سفري عن الجواز الخاص بإيمان بينما تابع أرضوان حديثه الواثق:

-وسيتعين علينا أيضًا دفع مبلغًا إضافيًا من المال

هنا تدخل مُسلم بكلماته ونظراته الحادة:

-أنا سأتكفل بهذا الأمر

-وأنا أيضًا معي مبلغٌ جيدٌ من المال

قُلتها بعد حديث مُسلم مباشرة، فأنا بالطبع لن أتركه يتكفل بالأموال جميعها، من هو من الأساس حتى يتدخل في هذا الأمر ؟

-بقي شيءُ واحد

قالها أرضوان وهو يُغلق الحاسوب ويُنهي حديثه ببعض الارتباك:

-هذا الرجل ليس لطيفًا .... أي أنه... هندوسيًا .... ويعادي المسلمين

اتسعت حدقتي إيمان في صدمة من حديثه وهذا ما جعلها تقول:

-ماذا !! ... هل هو من نفس بلدتِك ؟

أطلق أرضوان زفرة ناقمة من جوفه وكأنها ذكّرته بما يُريد نسيانه، فكان يقول بنبرة تحمل غضبًا مدفونًا:

-ليس من بلدتي .... أنا من كشمير، وهذا الرجل من الهِند، وهو واحدٌ من عُملائي .... أي أن تعاملنا كان بصورة رسمية ليس إلا، هو حتى لا يعرف أنني لا أمقت بحياتي سوى الهِند ومُقدسوا البقر

أنهى حديثه الناقم ليترك نفحات من الحيرة والتفاجؤ على وجوهنا، لكنها فترة وجيزة حتى وجدنا آنابيا تتدخل بتساؤل:

-وما الذي ستفعلونه ؟

تنهد أرضوان ليستجمع هدوئه قبل أن يُجيبها:

-ستُعطونه أوراقكم وستطلبون منه أن يُنهي لكم الاجراءات .... لكن لا يُفضل أن يذهب أي أحدٍ من المسلمين، حتى لا ينتهي أمركم نهائيًا وترحلوا خاليي الوفاض

تبادلت نظراتنا لوهلة ونحن نُفكر في حديثه حتى تدخلتُ بالحديث مُقترحًا بشجاعة:

-حسنًا .... سأذهب أنا ... لستُ مُسلمًا

رفع رازي يده ورائي كي يُضيف على حديثي:

-وأنا سأذهب معه......

باريس : فرنسا

سكونٌ تامٌ خيَم على هذه المنطقة النامية الخالية من السُكان، أو ربما الجميع في دوامه الآن، لا أعرف حقًا، فشوارع فرنسا لا تعتج بالسُكان خاصة في المناطق النامية.

قادني رازي نحو العديد من الممرات الوعرة والمباني الصغيرة حتى دلفنا بناية تبدو للوهلة الأولى مهجورة، لكننا ما إن دلفنا إلى الداخل أكثر، حتى اتضحت لنا القليل من معالم الحياة.

أخبرنا أرضوان أن هناك رجلٌ يُدعى بيناك يعمل بالسفارة الهندية، وبسبب العلاقات الوطيدة بين الهِند واسرائيل، يستطيع أن يُسهل لنا الاجراءات ويجعلنا ننتظر أسبوعًا واحدًا فقط حتى نحصل على التأشيرة، بدلًا من انتظارنا لشهرٍ أو أكثر.

توّقفنا أمام بعض الرجال لنسألهم عن بيناك وننتظر قليلًا حتى يأتي لنا، وأثناء انتظارنا، طفقتُ أفكر في سبب اختياره لرجلٍ هنديٍ حتى يصلنا بهذه الدولة، كان يجب أن نذهب لرجلٍ من أمريكا باعتبارها الحليفة الأولى لإسرائيل.

وبعد تفكيرٍ لم يدُم سوى بضعة ثوانٍ، استنتجتُ أن الحكومة الأمريكية صهيونية لن تساعدنا أبدًا، أما الحكومة الهندية، فهي مُجرد داعمة لهذا الكيان، القليل من المال قد يُجدي نفعًا باستدراجهم.

ظهر أمامنا رجلٌ بدينٌ ذو بشرة خمرية ولحية بسيطة للغاية مع شعرٍ قصيرٍ أكرت وعينان سوداويتان غائرتان، كان يقف أمامنا بقامة مُنتصبة ويمدٌ يده للمصافحة فمددتُ يدي لألتقف يديه وأشعر بقوة مصافحته وعُنفها، هذا يعني أنه شخصية مُسيطرة من الدرجة الأولى.

-أخبرني أرضوان أنكما بحاجة لي .... ما الأمر ؟

قالها بصوّتٍ جهوريٍ حادٍ وترني قليلًا، لكنني في النهاية، أخرجتُ الاجراءات من جيبي ومددتها نحوه متفوّهًا:

-نحن بحاجة للتأشيرات ... حتى نُسافر إسرائيل .... ثلاثة تأشيرات... ونريد الانتهاء من بقية الاجراءات بأسرع وقت

همهم بيناك بلا مبالاة وهو يلتقط الأوراق من بين يدي ويقول:

-من أي بلدٍ أنتم ؟

أحنيتُ رأسي بحيرة وتكاثفت قطرات العرق على جبيني وأنا لا أعرف ماذا أقول، ماذا لو كان يكره العرب وسيرفض مطالبنا إذا أخبرته أننا من مِصر.

-من مصر .... هُم من مصر ... ويريدون السفر إلى اسرائيل

قالها رازي بثقة ليرفع عني هذا الحرج ويجعل بيناك يوميء برأسه وهو يمُرر نظراته على الأوراق سريعًا حتى استوّقفته بضع كلماتٍ جعلته يهتف بوٌجوم:

-مُسلم !! .... هل هذه التأشيرات لمُسلمين ؟

زادت كلماته من توتري وكان رازي يمُاثلني توترًا لكنه تدارك الموّقف بكذبته المُتلجلجة:

-لـ... لا لا .... هذه ديانتهم السابقة .... هم الآن بدون أية ديانة، لكنهم لا يستطيعوا تغيير أسمائهم

رسم رازي نظراتٍ واثقة على وجهه وهو ينظر لبيناك الذي اطمئن لحديثه نظرًا ليهودية رازي وخُصلات شعره التي تدُل على ذلك بصدق، هذا ما جعل بيناك يُنهي الحديث بنفسٍ مُطمئنة:

-حسنًا ... انتظروا قليلًا ... سأتحدث مع بعض المرؤوسين وأوافيكم بالأخبار

أومأنا رؤوسنا بموافقة ونحن ننتظره لينتهي من تلك المكالمة ويُخبرنا عن الميعاد الذي سنتسلم به التأشيرات، وكُنت في ذاك الوقت أحمد ربي أن الأمر مرٌ مرور الكِرام دون أن ينكشف أمرنا، ونظرًا لأنني لا أمتلك لحية كالتي يمتلكها مُسلم، هذا قد جعلني أبتعد قليلًا عن الصورة النمطية للمسلمين التي يرسمها الغرب في عقول أبنائهم.

بعد بضع دقائق كُنا أنا ورازي نجلس في زاوية بذاك المنزل العتيق، ننتظر بيناك حتى وجدناه يُعطينا البشارة ويُخبرنا أن التأشيرات سيتم استخراجها خلال أسبوعين، والآن، يجب أن ندفع له ثمن مجهوداته حتى نستطيع الرحيل من هنا.

ذهب بيناك مجددًا ليحضر الإيصالات بينما أخرج رازي حقيبة الأموال وطفق يحصيها ليتأكد أنها تُعادل الألف يورو، السعر الذي أخبرنا أرضوان عنه.

انطلقت أصواتٌ عديدة بجواري جعلتني دون وعي أنتبه لهذا الحديث الذي يتسامر به بقية الأشخاص وهُم يجلسون بمنزل بيناك، فكانوا خليطًا من الفرنسيين والهنديين يعادل عددهم ستة أشخاص، وكان منهم واحدٌ من الهند يحمل جواله ويقرأ ما به من خبرٍ بلكنة ساخطة مليئة بالكراهية:

-أسمعتم ما حدث لروشان .... هذه الفتاة المسكينة، شقيقها الحقير ألقى عليها ماء نار، جعل وجهها يتشوّه كليًا .... هذا فقط لأنها وضعت مُستحضرات التجميل أثناء حفلة زفافها

بعد إنهاءه لسرد الخبر، طفق بقيتهم يُعلقون عليه بنظراتٍ ساخطة:

-هذا ما يأتينا من وراء الإسلام

أثنى عليه صديقه بكلماته:

-نعم .... هُم يتعلمون العُنف والتطرف بدينهم ... يُقلدون رسولهم الذي حثهم على القتل

بقيت العبارات الكارهة تتناقل بينهم مما جعلت الدماء تتغلغل بعروقي، ليس لأنني أعرف طِباع المسلمين جيدًا، بل لأنني أشعر بالغضب من مدى جهلهم.

-هذا ليس صحيح .... الإسلام لا يُعلم القتل والتطرف .... البشر هُم من يفعلون ذلك

انتبهوا لحديثي الذي خرج مني بصورة تلقائية جعلت نظراتهم المُقتضبة تلتفت نحوي ليهتفوا بي:

-ومن أين لك بهذه المعلومات الكاذبة ... جميعنا يعرف أن الجرائم تأتي من ورائهم

آضاف رجلٌ هنديٌ على حديثه بنبرة مُستحقرة:

-هذا صحيح .... هؤلاء الملاعين يتبعون دينًا كاذبًا ... ويفعلون أشياء مُقززة

انفلتت ضحكة ساخرة من جوفي أثناء سُخريتي من حديثهم وجهلهم الواضح:

-حقًا .... ليس وكأنهم يلعقون روّث البقر ويعتقدون أنه رمزًا للتواضع

انفجر رازي بالضحك وهو يقف بجواري وواصلتُ أنا الضحك بسُخرية على وجوههم التي بدأت تطالعنا بنظراتٍ ساخطة على وشك الانفجار، بل هي انفجرت بالفعل عندما أتى بيناك واستمع إلى سُخريتي واستهزائي بتقاليدهم.

-من الذي يسخر من ديانتنا ؟

قالها بنبرة مُتجهمة جعلتني أتوقف عن الضحك أنا ورازي ونلتفت لبيناك بقطراتٍ من العرق تتصبب على جبيننا.

-لا شيء سيد بيناك ...كـ...كنا نمزح مع الزُملاء

قالها رازي بكذبٍ وبسمة متوترة ابتلع بعدها ريقه وكُنت أشعر بنظرات الخوف المُبطنة على وجهه.

-كذب ... كانوا يسخرون من عاداتنا ... ويقولون أننا مقززون

توالت بعدها الأحاديث الكاذبة على مسامعنا وهُم يتخذون موقف البريء ويقنعون بيناك بأننا نكره الهندوسية وننشر كلماتنا المقيتة بينهم، ورغم محالاوتي المريرة أنا ورازي أن نُمرر الأمر ونرحل من هنا، إلا أن بيناك تقدم نحونا بجسده المهيب وبقي يطوّقنا بنظراته المُشتعلة حتى آشار على زُملاءه متفوّهًا:

-كيف تجرؤون على السُخرية من آلهتنا ؟.... أقسم أنني لن أجعلكم تطؤون خطوة بعيدًا عن هُنا قبل أن تركعون لكامادو " البقرة في الديانة الهندوسية " وتُقبلونها....

____

((إيمان))

19يونيو 2015   ليون : فرنسا

أوشكت الساعة على الثانية عشر بعد مُنتصف الليل، ولازلنا بالمنزل ننظر للساعة بين الحين والآخر على أمل أن يأتي جورج ورازي بعد فترة، الوقت يُشبه السلحفاة حينما تملأه بالانتظار.

-رفاق .... ألا يجب أن نتصل بهم ؟ ... تأخروا للغاية

قالتها آنابيا بقلق وهي تسترخي بظهرها للوراء وتوّجه نظراتها نحونا، وفي تلك اللحظة صدح صوّت الهاتف الخاص بمُسلم فأخذه ليُجري المكالمة في مكانٍ هاديء، بينما التفتُ أنا نحوهم لعلي أستطيع غمرهم بضروب الأمل والاطمئنان.

-لا تقلقوا .... أنا أثق بجورج ثقة عمياء، مُستحيلٌ أن يفتعل كارثة أو يضع نفسه بمأزق_

لم أكد أنهي اطرائي حتى وجدنا مُسلم يهرع نحونا بنظراتٍ مذعورة قال معها:

-جورج في ورطة

تتذكروا الكلمات التي قُلتها مُنذ قليل ؟ حسنًا، اعتبروا أنني لم أقلها من الأساس.

انتفضت أجسادنا ووقفنا في ذعرٍ نراقب مُسلم وهو يستعد للرحيل بقوله:

-سأذهب لإنقاذهم .... بيناك احتجزهما في حُجرة ولن يُخرجهما قبل أن يُقبلا البقرة التي يقوم بعبادتها

ما كاد يتحرك خطوة حتى أوقفته بنظراتي الصارمة وشجاعتي غير المعهودة:

-أنا سآتي معك

خرجت كلماتي مُقررة رغم نظرات الرفض التي لاحت على مُسلم وهو يقول:

-لا إبقي هنا

لم أشأ أن أجعلهم يدفعون ثمن مُشكلتي لهذا السبب هتفتُ بوجهه باصرار:

-أنا الذي وٌرطكم بالأمر مُنذ البداية.... ولن أترككم وحدكم

وجدتُ أرضوان يتقدم ليقف ورائي ويُضيف على كلماتي:

-لا يجب أن تذهب لبيناك وحدك .... من الأفضل أن تجعلها تأتي معك ... وأنا كذلك سآتي، لكنني سأبقى بالسيارة، إذا تدخلتُ بالأمر ربما أجعلهم يُقدموننا قرابينًا لآلهتهم

اعتقدتُ في باديء الأمر أن يمزح، لكنني تذكرتُ العداوة التي بينه وبين الهندوس مما جعلني أصدق حديثه وأدرك جيدًا أنه لا يجب أن يتدخل في تلك المجادلات.

وفي نهاية الأمر، قررنا الذهاب إلى باريس وبقيت آنابيا بالمنزل على أمل المساعدة حينما تحدث مُشكلة ما...

باريس : فرنسا

أخذ الطريق أكثر من ساعتين حالما وصلنا إلى باريس ومن ثم إلى العنوان الذي يعرفه أرضوان، فهو الذي كان يقود السيارة، وتوقف بها عِند بُقعة نائية لعله ينتظرنا ويتصل بالشُرطة إذا تطوّر الأمر.

ياليتني لم أستعرض شجاعتي وأخبرهم أنني قادرة على مواجهة الأمر، فأنا الآن أتدثر خلف مُسلم بجسدٍ يرتجف كمن سُكب عليه دلوٌ من الماء البارد، هذا المكان يبعث بداخلي هالات من الرُعب، خاصة مع حلول الليل وانتشار السكون المميت.

أما عن مُسلم، فبقيت نظراته الجامدة تلوح على وجهه أثناء تحركه للأمام بثقة، هو ليس محضًا للأنظار مثلي، يُمكنه الكذب بشأن دينه والانتهاء من الأمر بسُرعة، لكن

أنا ؟ لا أعرف ما الذي سيحل بي وأنا أواجه عصابة هندوسية متطرفة كارهة للإسلام!!

-أأنت بيناك ؟

قالها مُسلم بثقة لهذا الرجل البدين الذي توّقف أمامه، والذي رمانا بنظراتٍ مُستخفة قال معها:

-نعم .... هل أنت من أتباع هذين الوغدين ؟

رفع مُسلم قامته بثقة أثناء إجابته:

-بالضبط .... أين هُم رفاقنا ؟

وجدتُ ابتسامة مُتهكمة تُرتسم على ثغر بيناك حالما اكتشف وثوبي خلف ظهر مُسلم أتعرق من الخوف، هذه الابتسامة تحوّلت للاشمئزاز مرة واحدة عندما قال:

-هل أنتم مُسلمان ؟

توّقعتُ أن يحاول مُسلم حجب الحقيقة حتى لا نقع في ورطة، لكنني تفاجئتُ من الثقة العمياء التي يتحدث بها مُسلم:

-نعم .... وهل يخُصك هذا الأمر ؟

أنهى حديثه بلكنة مُستفزة أعجبتني صراحة، هذه هي الطريقة المُثلى لمُجابهة هؤلاء الأوغاد.

-لا يخُصني، لكنني لن أتعامل مع آمثالكم ..... وإذا لم ترحلوا من هُنا في هدوء، سأجعلكم تقبلون كامادو مع رفاقكم

رسم مُسلم بسمة مُتهكمة على ثغره وهو يتقدم نحو بيناك وأتقدم أنا وراءه لا أعرف حقًا لماذا أتيت ووضعتُ نفسي في هذا المأزق.

كان مُسلم يطرق بيده على الطاولة وهو يقول بإصرار:

-نحن لن نرحل من دون رفاقنا .... وأرنا ما الذي ستفعله

كان بيناك على وشك الرد عليه لولا تدخل واحدٍ من رجاله متفوّهًا:

-إبتعد عن هؤلاء الإرهابيان أيها الزعيم .... هؤلاء بربريون لا يعرفون شيئًا سوى القتل .... هكذا هو دينهم، يُعلمهم أن يقتلوا من لا يؤمن بـ " الله " الخاص بهم

آثارت تلك الكلمات حفيظة مُسلم الذي حافظ على هدوءه وثباته أثناء رده:

- -حقًا ..... ألستم تؤمنون بشيفا الذي قتل ابنه بعد أن قطع رأسه واستبدلها برأس فيلٍ حتى يعود إلى الحياة ؟ .... ألستم تؤمنون ببارفاتي التي هددت بتدمير العالم إذا لم يعُد ابنها جانيشا للحياة ؟..... من أين لكم أن تتحدثوا عن السلام وأنتم تؤمنون بأساطير مليئة بالقتل والتدمير ؟

تعجبتُ من معرفة مُسلم للديانة الهندوسية ولم أشأ أن أتدخل بالأمر، كُل ما فعلته هو مراقبتي لتعابير وجه بيناك التي انقلبت مرة واحدة وكأنه لا يزال يُريد إنكار الحقيقة.

-كيف تجرؤ على التقليل من ديننا أيها الحُثالة ؟

قالها بيناك بنظراتٍ غاضبة وهو يُشير بإصبعه السبابة على وجه مُسلم الذي لم يتزعزع رغم محاولتي لجذب ذراعه والهمس بأذنه أن نرحل.

-أنا لا أتهمكم .... أنا أخبركم الحُقيقة، أليس شيفا إلاهكم أم أنني أتوّهم ؟

كوّر بيناك قبضته بغضب ولم يجد من الكلمات ما يرد بها على مُسلم، هذا ما جعله يلتفت بنظراته صوّب رجاله ويهتف بوجوههم بلكنة آمرة:

-أمسكوا هذين الوغدين وضعوهما بالمخزن....

____

20يونيو 2015 باريس : فرنسا

أشعر بطرقة يُصدرها عُنقي وأنا أحاول تحريكه للجهة الأخرى، وجسدي الذي تخشّب على الأرض يكاد يُشعرني أنني سيدة عجوز، هذه النومة لم تكُن مريحة بالمرة، وهذا الحقير وضعنا بتلك الحُجرة وقام بتكبيلنا بالحبال الغليظة حتى نرضخ له ونركع لبقرته " العزيزة"

كل هذا بسبب جورج، لو لم يبتلع لسانه ويسخر منهم لمَ وصلنا لتلك المرحلة.

-مُسلم .... مُسلم

ناديت بصوّتٍ خافتٍ حتى يستيقظ مُسلم من نوّمته ويلتفت لي بأعينٍ ناعسة، متأكدة أنه لم ينم طوال الليل بهذه الحُجرة الصغيرة المليئة بالخُردوات.

-هنعمل إيه ؟

سألته بيأسٍ لأجده يبتعد بعينيه عني محاولًا التفكير في طريقة للهرب، وما إن طالت فترة صمته، وجدتني أندفع بوجهه بإصرار:

-أنا مش هركع للبقر، مش على آخر الزمن أعمل كدة

لم ينبس أيضًا ببنت شفة لكنني استشفيتُ نظرة الموافقة على حديثي، هو بالطبع لن يرضخ لهم حتى ولو امتد مكوثنا هنا لعدة أسابيع.

-أرضوان تحت .... أكيد لما نتأخر هيتصل بالبوليس

قالها مُسلم باطمئنانٍ جعلني أزفر براحة وأدعو الله أن يتصرّف أرضوان بُسرعة قبل أن ينكشف أمره هو الآخر، أما بالنسبة للتأشيرة، فلا أعتقد أننا سنحصل عليها بعد ما حدث، فبالطبع قام هذا الحقير بالاتصال بمعارفه وإخبارهم بأننا لم نعُد نريد التأشيرات.

مرّت ساعة أخرى، ونحن في حالة من الصمت ننتظر الفرج، حاولت مرارًا فك وثاقي لكنني لم أفلح بالأمر، وحاولت أيضًا فك وثاق مُسلم لكن الأمر أصعب مما توّقعت، ليس مثل ما آرى بالأفلام.

وبعد فترة وجيزة، وجدنا باب المخزن يتم فتح بروية؛ انتفض جسدي وتحفزٌ مُسلم مُعتقدًا أن أتباع بيناك سيدلفون الحُجرة ويقومون بضربنا أو تهديدنا، لكن ما حدث لم يكن بالحُسبان.

ظهر من خلف الباب، رجلٌ نحيلٌ ذا بشرة خمرية وعينان عسليتان، كان يتلفت حوله في كل ثانية وكأنه يتأكد أن لا أحد رآه، وما إن تأكد حتى أحنى جسده صوّب مُسلم وبدأ يفُك وثاقه أثناء همسه:

-يجب أن ترحلا من هنا .... بيناك لن يترككما وشأنكما

انتهي من فك وِثاق مُسلم وبدأ يساعدني بالتحرر من تلك القيود أثناء سؤالي الفضولي :

-من أنت ؟

فكٌ الرجل وثاقي وهو يقول بهمسٍ عرٌف معه نفسه:

-أنا مانموي .... أنا أيضًا أعتنق الهندوسية، لكنني أعرف الكثير من المُسلمين بالهند، لهذا السبب لا أوافق على النظرة النمطية التي يرسمها بيناك وبقيتهم نحوكم ..... ولا أوافق عمَ يفعله .... أنا متسامح مع جميع الديانات

وثب مُسلم عن الأرض يُنفض ثيابه كما فعلتُ أنا الآخرى أثناء ابتعاد مانموي عنا وإشارته نحو الباب:

-إرحلا بُسرعة .... قبل أن يأتي الزعيم

قبل أن يتحرك مُسلم، سأله ببعض الجمود:

-أين رفاقنا ؟

طمأننا مانموي بحديثه رغم نظرات الخوف البادية على عينيه، فإذا كُشف أمره، ربما تضحى هذه نهايته:

-لا تقلق .... ذهبتُ إليهما قبل أن آتي هنا، جعلتهما يهربان من بوابة أخرى

أومأ مُسلم بهدوءٍ، ليس لأنه يثق بهذا الغريب، لكن لأننا لا نملك حلًا آخرًا، ففي جميع الأحوال مصيرنا واحد ولا يوجد أمامنا سوى التجربة.

هرولنا بأقدامنا خارج الحُجرة، وقلوبنا تنبض بذعر، لا نعرف ما علينا فعله، وأي طريق نسلك، فقط نسير بين طُرقات هذه البناية ونتلفت يمينًا ويسارًا حتى نتأكد أن لا أحد ورائنا.

وكما يقول المثل، لا تأتي الرياح بما تشتهيه السُفن، فحالما التفتنا للأمام وكنا على وشك الهرب، يبّستنا نظرات بيناك الجاحظة ومعالم الغضب التي تلوح على وجهه!!

لم يكن الهرب من صفاتي يومًا ما، ولا أذكُر سوى هروبي من والدتي حينما افتعلُ كارثة وأحطم طنجرة عزيزة عليها، وإن جئنا للحق، دائمًا ما فشلت جميع محاولاتي للهرب، أما من والدتي، أو من ذاك الرجل ذي الشوارب الكثيفة التي تُذكرني بكُفار قريش.

صوّت أقدامه تقترب نحوي داخل هذه البناية التي بالكاد تسع لجميعنا، فالأخشاب عتيقة تبلغ من العُمر أرزله، أشك أن هذه البناية بُنيت قبل الحملة الفرنسية.

تقهقرت قدماي للوراء لأتدثر خلف مُسلم الذي بسُط ذراعيه حتى يحميني من نظرات هذا الباخع، أما عن بيناك_ رئيس هذه العصابة_ فلم تتوقف نظراته عن التهامنا وكأن نظراته آكلة للحوم البشر.

-لن أجعلكم ترحلون قبل أن تركعوا لجانيشا وتُقبلوا يد برهاما

حسنًا، كانت كلماته تأكيدًا لتشبيهه بكُفار قُريش، لكن بالعصر الحديث، فهذا المُخنث لن يتركنا أحياءً قبل أن نركع أمام آلهته، وهذا فقط لأننا حاولنا الرد على تهكماته وسُخريته من الإسلام.

كانت نظرات مُسلم لا تختلف كثيرًا عن نظرات بيناك المُتقدة بالشر، الفرق الوحيد أن نظرات مُسلم كان بها تحدٍ سافرٍ وشجاعة منيعة.

-ابتعد عن وجوهنا يا هذا .... فنحن لن نُنفذ رغباتك ما حُيينا

قالها بُلغة فرنسية مُتقنة حتى يفهمه هذا الهندي الذي بالكاد يتحدث الفرنسية نظرًا لكوّنه يعيش هنا بفرنسا، وما كانت تلك الكلمات المُتحدية سوى قذيفة ألقيت على بيناك وجعلته ينفجر كما انفجرت قُنبلتي هيروشيما وناجزاكي.

-هل تتحداني أيها الحشرة السفيقة ؟.... أقسم ببرهاما أنني لن أتركما أحياءً بعد هذه اللحظة

أنهى كلماته تزامنًا مع إخراجه لمدية ذات نصلٍ حادٍ ونقوشٍ مُزغرفة دثُرها داخل ثيابه الرثة وجسده البدين، باتت نظراته الآن أشبه بنظرات الجزار حينما يقبل على ذبح الشاه، حسنًا، لا يُمكن اعتباره جزارًا يذبح الشاه وهو بالأصل يركع لها.

ارتعدت فرائسي وأنا أكتم صرختي واتقهقر المزيد من الخطوات للوراء، ولايزال مُسلم باسطًا ذراعيه أمامي يحاول طمأنتي بنظراته المُتحدية وهو بالأصل يتقهقر

للوراء هو الآخر، فإن لم يتحرك، سينفصل رأسه عن جسده بسبب هذا الذي فقد عقله وبدأ يهوي بالخنجر أمامنا.

لم أتوقف عن الدُعاء في تلك اللحظة، أعترف أنني أذنبت حينما لجأت إلى هندوسيٍ يمقت الإسلام حتى يُسهل لنا اجراءات السفر ويساعدني على الخروج من تلك المدينة والبحث عن ابنتي، أقسم أنني لم أجد حلًا سوى هذا، فكل ثانية تمُر علي ولا أجد فيها بنُيتي الصغيرة، ستزداد المسافات بيننا وربما لن استطيع العثور عليها مُجددًا.

باتت الذكريات تدور أمام عيني وضميري يؤنبني على سفري من البداية، فياليتني استمعتُ إلى نصيحة والدتي ولم اتزوج هذا الخائن الحقير، ياليتني انصعت لرغباتهما وبقيت مُعززة مُكرمة داخل موطني بدلًا من ضياعي في تلك البلدة، لولا وجود مُسلم وجورج وبقيتهم، لازداد شعوري بالغُربة والضياع.

ترددت كلمات والدي في أذني بتلك اللحظة حينما كان يقول لي أن القدر مكتوب ولا يُمكن تحريفه، وإذا كُتبت نهايتكِ في تلك اللحظة، فهذا لأن الله وجد أن هذه الطريقة هي ما ستُخلصني من شقاء العالم، وربما تحميني من تهكم الظالمين مثل بيناك وأمثاله.

كذلك أخبرني أن اتشبث بُقدرة الخالق على تخليصي من المِحن، فمهما كانت الصعوبات، ربما تأتي مُعجزة وتُخلصني من كل هذا.

ما كاد تفكيري يكتمل حتى استمعتُ إلى أزيز الأخشاب على الأرض قبل أن تتحطم لعدم احتمالها لجسد بيناك البدين.

تيبس جسدي مرة واحدة وانقبضت أوزاري وأنا أشاهد ما يحدث، فما إن اقترب بيناك نحونا، حتى دعس على خشبة عتيقة انكسرت مرة واحدة ليسقط بيناك من الطابق الأول، فهذه البناية تتكوّن من طابقين، ونحن نتعارك بالردهة المصاحبة للمصاطب التي تصلنا بدوّرها للطابق الأرضي ومنها للشارع مباشرة، أي أن الطابق الأرضي كان أمام أعيننا وساعدنا على رؤية بيناك وهو يسقط على الأرض، ولسوء حظه_ أو بسبب شر أعماله_ سقط مباشرة على مجموعة من العيدان الحديدية الرفيعة التي

تُستخدم عادة في البناء، وبما أن العيدان تم وضعها بصورة رأسية، فكان جسد بيناك أشبه بالاسفنجة المليئة بالثقوب، إلى أن الفرق الوحيد، أن ثقوبه لم تخلو من الدماء!!

تصاعدت ضربات قلبي وأنا أشاهد طريقة وفاته القاسية، فهذه نتيجة من يسخر من خالقنا ويرتكب الجرائم، كاد التقيؤ يزورني في تلك اللحظة وأُصبت بالشلل لفترة وجيزة أيقظني منها مُسلم وهو يُهرول بأقصى ما لديه ويهتف بوجهي حتى اتبعه.

اعتقدتُ في البداية أنه سيترك جُثة بيناك وينفد بجلده، لكنه دائمًا ما يُفاجئني بتصرفاته النبيلة حتى مع من لا يستحق، لا أعرف كيف تحمل رؤية الدماء دون أن يرف له جِفن، ولا أعرف حتى كيف أبعد الخردوات ودفع جسد بيناك بعيدًا لعله يستطيع انقاذه.

كنت أريد الصُراخ بوجهه وإخباره أن يترك تلك الجُثة ذات الثقوب، ألا يعرف أنها لقَت حتفها، لكنني ابتلعت لساني حالما فاجئني بُجملة:

-لسة في نبض

قالها بصوْتٍ خافتٍ وبالمصرية التي افتقدها، ومع ذلك لم اتحرك وبقيت عيناي مفتوحتان بذهول، فالمعجزة التي جعلته يلقى تلك الميتة، جعلته يبقى حيًا بعد كُل هذا !!

تلطخت ثياب مُسلم بالدماء وهو يحاول نزع العيدان الحديدية من جسده البدين وعينا بيناك الجاحظتان كالذي رأى عِفريتًا، أردتُ أن أسأله إذا كان قد مارس مهنة الطب وخدعني حينما أخبرني أنه مُجرد تاجر، لكن لمَ يخدعني من الأساس في تلك الأمور ؟ فهو يُتقن العديد من المهارات ويعرف الكثير من المعلومات، حتى أنه يستطيع استخدام السِلاح ويستطيع صيانة السيارات، على ما أعتقد.

-يلا تعالي ساعديني

هتف بها بصوّتٍ حادٍ آمرٍ انتشلني من وحل أفكاري وجعلني أحاول مساعدته رغم ارتعادة أطرافي، فهذه أول مرة أرى فيها هذا الكم من الدماء، وبقائي لتلك اللحظة دون التقيؤ أو الاغماء، هو مُعجزة بحد ذاتها.

أحنيتُ جزعي بضعة أمتار ولازلتُ أقاوم ارتعادتي وأنا أمد يدي المُرتجفة نحو أحد العيدان الحديدية كمحاولة لاستخراجها من جسد هذا المُدنس، فرغم أنه آراد قتلنا، إلى أننا لن نتركه يلقى حتفه أمام أعيننا ونحن نستطيع المساعدة، وأظن أن هذا ما فكُّر فيه مُسلم قبل أن يهِم بمساعدته، فربما عندما ننجح بانقاذه يتذكر لنا هذه المساعدة ويتوقف عن ازعاج المُسلمين وربما يُساعدنا في إنهاء إجراءات السفر.

أمسكتُ بعودٍ معدني يتقاطر منه الدماء مما جعل حركتي بطيئة وكأنني بفيلمٍ سينمائيٍ يصوِّر لحظة مُهمة تحتاج إلى التصوير البطيء، وفي حالتي تلك، لن أحتاج إلى المونتاج لأبطيء من حركتي البطيئة بالفعل.

وضع مُسلم كلتا يديه على صدر بيناك وبدأ يضغط عليه بصورة مُتكررة، ففي تلك اللحظة، توّقفت أنفاس بيناك وبات أقرب للجُثة الهامدة، ولا يزال مُسلم يحاول انقاذه ولا اعرف لماذا يفعل ذلك ؟ ربما لا يزال يُريد مساعدته من أجل مساعدتنا.

تنهد مُسلم تنهيدة يآسة أرخى معها ظهره للوراء متفوّهًا:

-مات

كلمة صغيرة لم تُحرك بي ولو شعرة واحدة، أصبح جسدي يُحاكي الأصنام وأنا أمسك بذاك العود الحديدي الذي يتقاطر منه الدماء، ولو كُنا بعصر الفراعنة، لما جعلوا من هيئتي إلاهًا... إلاهًا لسفك الدماء.

-يلا نمشي

قُلتها بصوّتٍ مُرتعدٍ عندما تذكرتُ أن علينا الهرب، سنهرب دون أن نحصل على تلك التأشيرة اللعينة.

لم أكن مُهتمة بتلك الجُثة ولا حتى بكيفية اخفاءها، ففي النهاية، نحن لم نتسبب بموّته، موُته كان قضاءً وقدرًا، لكن، ربما العالم لا يُريد تصديق هذه الحقيقية.

فما إن رفعتُ وجهي نحو الشارع المقابل لنا، حتى وجدتُ جمعًا غفيرًا من الفرنسيين يراقبون ما يحدث بأفواهٍ مفتوحة وكاميرات الهواتف تلتقط ما يحدث، تلتقط جُثة بيناك المُلطخة بالدماء، ويدا مُسلم اللتان لا تختلفان عن تلك الجُثة بكمية الدماء، ويدي التي لا تزال تلتقط هذا العود الذي يتقاطر منه دماء بيناك!!

سقط العود من يدي مرة واحدة وكأنه أصبح عودًا ساخنًا سيُصيبني لهيبه، لكن الحقيقة أن لهيبه لن يعادل لهيب تلك النظرات المصوّبة نحوّنا وأفراد الشُرطة التي استجابت لنداء أرضوان وأتت لإنقاذنا_ في الوقت الخطأ_ فإن كان الحظ شخصًا، لما كان من ألد أعدائي، فأنا الآن مُغتربة ومخدوعة ومسروقة ومُشردة و.... قاتلة!!

))جورج((

19يونيو 2015 ليون : فرنسا

أتعلم متى تتحوّل الحماقة إلى قهر ؟ حينما تتأكد أن من قام بخِداعِك لم يكن سوى عدوّك الأزلي....

عندما أدركنا حقيقة الأمر، لم تكن عوالم الصدمة تلوح على وجوهنا مثلما تلوح على وجه إيمان المسكينة، فلو أنها خُدعت من رجلٍ عاديٍ لكان الأمر أكثر يُسرًا، إنما الآن، فهي على وشك الانهيار والصُراخ بجنون.

-أنا اتغفلت من اسرائيلي!!

قالتها بصوّتٍ مُنخفض وكلماتٍ عربية أعربت عمَ تكنيه بداخلها، فما هي إلا بُرهة وجيزة حتى أطلقت صرخاتٍ مُتحسرة وضعت معهم يدها على رأسها وباتت على شفا جرفة من البكاء كالأطفال الرُضع.

-أرجوكم أخبروني أنني لست بكابوس

ارتمت على الأريكة في حسرة بالغة وجلست آنابيا بجوارها تحاول التربيت على كتفها بمواساة قالت معها:

-لا بأس ... سنعثُر على هذا الحقير

يبدو أن مواساتها لم تؤثر أبدًا بإيمان التي واصلت ضربها الخافت على رأسها وهي تقول:

-أشعر أنني مُغفلة كبيرة

في تلك اللحظة، لم أشأ أن أتركها في غُمرة يأسها وشعورها بسكاكينٍ تنحر فؤادها؛ لهذا السبب جلستُ بجوارها على الأريكة أُمسد على كتفها من الجهة الأخرى أثناء مواساتي لها التي خرجت من جوفي بصورة مُحفزة:

-لا يجب أن تشعري أنك مُغفلة .... بل يجب أن تتأكدي من ذلك

ما إن أنهيتُ كلماتي الصادقة حتى وجدتها تخرج من غُمرة ضيقها وتضربني بأقرب وسادة طالتها يدها، بينما كانت آنابيا بجوارها تكبح ابتسامتها الرقيقة وتشاهد كلانا ونحن نتعارك ونتناسى ضيق الموقف لفترة وجيزة قطعها أرضوان وهو يعبث بحاسوبه:

-يا رفاق .... وجدتُ شارون

تحفزّت أعضائنا وتركنا مواقعنا لنلتف حول أرضوان حتى يُخبرنا كيف عثر على ذاك المُخادع.

-شارون أيزنعوت..... كان من الرُكاب بالطائرة المُتجهة لإسرائيل .... وهو مواطن اسرائيلي، يعمل بالصحافة، ويُدير مجلة يسرائيل أيزنعوت، لديه شبكة من المواقع الكفيلة بالتأثير على الرأي العام الغربي .... كما أنه عضوٌ مُهم باللوبي الصهيوني وبعض المُنظمات اليهودية

لم يكد يُنهي معلوماته الجدية حتى وجدنا إيمان تضرب جبهتها وتواصل تفاجؤها:

-نـــعم !!... يعني كمان مشهور!!

اتخذتُ موٌقعًا بجوارها وأنا أحاول تهدئتها، وأقول بقرارة نفسي : لو كلٌفت نفسها وبحثت عن ماهيته ولو بحثًا سطحيًا لمَ وصلنا لتلك النُقطة:

-اهدي يا إيمان .... خلينا نشوف هنوٌصله إزاي

تدخل رازي بحديثنا ليسأل:

-هل ستُسافروا إلى اسرائيل ؟

رمقته إيمان بنظراتٍ مُقتضبة حادة قالت معها:

-نعم ... سأسافر إلى ابنتي ... لن أتركها حتى ولو أخبرتموننى أنه سافر بها إلى المريخ

قالتها بإصرارٍ لأول مرة آراه عليها، فعلى الرغم من أنها لم تبقى مع ابنتها سوى بضعة أشهر، إلى أنها تتمسك بها وعلى وشك ارتكاب جناية حتى تعثر عليها، هذه هي إيمان التي أعرفها، لا تتخلى عمَ تُريده بسهولة، ربما لهذا السبب استطاعت اقناع والدها بالمجيء هنا ودراسة الإخراج.

-من سيُسافر إلى هُناك ؟

سأل أرضوان بجدية فرفعت إيمان يدها وهي تقول:

-أنا

تبعتها أنا الآخر برفع يدي نظرًا لأنني أتيت هنا لمساعدتها مُنذ البداية، ولطالما ستذهب إلى أعدائنا، فأنا سأبقى معها حتى النهاية:

-وأنا أيضًا

أومأ أرضوان رأسه وبدأ يعبث قليلًا على حاسوبه حتى وجدنا مُسلم يتقدمنا متفوّهًا بصرامة:

-وأنا كذلك سأسافر معهما

تعجبتُ من قراره لوهلة كما فعلت إيمان هي الأخرى، لكننا وجدناه يرمينا بنظرة واثقة قال معها بتبرير:

-لن تستطيعا البحث عنه وحدكما

أومأ أرضوان مرة أخرى وهو يعبث بالحاسوب وأظن أنه يبحث عن مُتطلبات السفر، بينما كانت آنابيا تحني رأسها بخجل وتحاول تجنب النظر إلينا.

-هكذا أنتم بحاجة لثلاثة تأشيرات وثلاثة_

يبدو أن إيمان لاحظت نظرات آنابيا المتوترة، هذا ما جعلها توّقف أرضوان لتعترضه بثقة:

-لأ ... سنحتاج إلى أربعة تذاكر .... آنابيا ستأتي معنا

أنهت الحديث بنظرة صادقة وجهتها نحو آنابيا التي رفعت رأسها بذهولٍ ورسمت بسمة هادئة ممتنة على ثغرها، لا أعرف حقًا لماذا فعلت إيمان ذلك، لكنني أكاد أكون متيقنًا أن آنابيا تواجه أمرًا ما يجعلها بهذا التوتر والخوف الدائم، خاصة وهي معها حقيبة سفرها.

-حسنًا ... هكذا أنتم بحاجة إلى أربعة تذاكر وثلاثة تأشيرات

قالها بعملية وهو يرفع نظراته نحونا مواصلًا:

-أصحاب الجنسيات الأوروبية ... ليسوا بحاجة لتأشيرات حتى يُسافروا اسرائيل، باعتبارها عضوًا بالاتحاد الأوروبي

لم يكن حديثه مصوَّبًا نحونا بالمعنى الحرفي، فأعتقد أنه يقصد آنابيا لأنها الوحيدة التي تحمل الجنسية الفرنسية ولن تحتاج إلى تأشيرة للسفر، أما نحن، سنحتاح إلى تأشيرة وسنحتاج إلى الذهاب إلى السفارة الاسرائيلية واستكمال العديد من الاجراءات، أتمنى ألا تضحى نفس الاجراءات التي فعلتها قبل أن أسافر إلى هنا، فأول مرة أسافر بها، لم أحصل على التأشيرة سوى بعد شهرٍ كامل، رغم أنني أردتُ السفر إلى الإمارات.

-ثمن التذكرة لا يتعدى المئة يورو في المقاعد الدونية .... أما التأشيرة وبقية الاجراءات، فسيتعين عليكم الذهاب إلى السفارة وتنتظروا قرارًا من الحكومة حتى تحصلوا عليها....

أنهى حديثه ببعض اليأس وهو ينظر لنا:

-هذه الاجراءات ربما تتطلب أكثر من شهرين ... خاصة وأن إيمان قد أضاعت جواز سفرها

هنا ولم تتحمل إيمان الصمود، وجدناها تنطلق مرة واحدة بكلماتها الأشبه بالسيل الجارف:

-ماذا !! ... لن أستطيع البقاء هنا أكثر، أريد العثور على ابنتي بسرعة قبل أن يختفي بها هذا الوغد مجددًا

تفهّم أرضوان قلقها وأومأ برأسه إيماءة بسيطة تبعها بقول:

-حسنًا .... يُمكنني تدبُر الأمر .... أستطيع إيصالكم بشخصٍ قد يُسهل لكم الاجراءات .... لكن سيتعين علينا أن نحصل على جواز السفر الخاص بكِ، أو على الأقل نُسخة منه

ما إن أنهى حديثه حتى تذكرتُ شيئًا هامًا جعلني أقول:

-أنا معي نُسخة من جواز سفرها .... أحضرتها من مِصر قبل مجيئي إلى هنا

بدأتُ البحث بحقيبة سفري عن الجواز الخاص بإيمان بينما تابع أرضوان حديثه الواثق:

-وسيتعين علينا أيضًا دفع مبلغًا إضافيًا من المال

هنا تدخل مُسلم بكلماته ونظراته الحادة:

-أنا سأتكفل بهذا الأمر

-وأنا أيضًا معي مبلغٌ جيدٌ من المال

قُلتها بعد حديث مُسلم مباشرة، فأنا بالطبع لن أتركه يتكفل بالأموال جميعها، من هو من الأساس حتى يتدخل في هذا الأمر ؟

-بقي شيءُ واحد

قالها أرضوان وهو يُغلق الحاسوب ويُنهي حديثه ببعض الارتباك:

-هذا الرجل ليس لطيفًا .... أي أنه... هندوسيًا .... ويعادي المسلمين

اتسعت حدقتي إيمان في صدمة من حديثه وهذا ما جعلها تقول:

-ماذا !! ... هل هو من نفس بلدتِك ؟

أطلق أرضوان زفرة ناقمة من جوفه وكأنها ذكَّرته بما يُريد نسيانه، فكان يقول بنبرة تحمل غضبًا مدفونًا:

-ليس من بلدتي .... أنا من كشمير، وهذا الرجل من الهِند، وهو واحدٌ من عُملائي .... أي أن تعاملنا كان بصورة رسمية ليس إلا، هو حتى لا يعرف أنني لا أمقت بحياتي سوى الهِند ومُقدسوا البقر

أنهى حديثه الناقم ليترك نفحات من الحيرة والتفاجؤ على وجوهنا، لكنها فترة وجيزة حتى وجدنا آنابيا تتدخل بتساؤل:

-وما الذي ستفعلونه ؟

تنهد أرضوان ليستجمع هدوئه قبل أن يُجيبها:

-ستُعطونه أوراقكم وستطلبون منه أن يُنهي لكم الاجراءات .... لكن لا يُفضل أن يذهب أي أحدٍ من المسلمين، حتى لا ينتهي أمركم نهائيًا وترحلوا خاليي الوفاض

تبادلت نظراتنا لوهلة ونحن نُفكر في حديثه حتى تدخلتُ بالحديث مُقترحًا بشجاعة:

-حسنًا .... سأذهب أنا ... لستُ مُسلمًا

رفع رازي يده ورائي كي يُضيف على حديثي:

-وأنا سأذهب معه......

باريس : فرنسا

سكونٌ تامٌ خيَم على هذه المنطقة النامية الخالية من السُكان، أو ربما الجميع في دوامه الآن، لا أعرف حقًا، فشوارع فرنسا لا تعتج بالسُكان خاصة في المناطق النامية.

قادني رازي نحو العديد من الممرات الوعرة والمباني الصغيرة حتى دلفنا بناية تبدو للوهلة الأولى مهجورة، لكننا ما إن دلفنا إلى الداخل أكثر، حتى اتضحت لنا القليل من معالم الحياة.

أخبرنا أرضوان أن هناك رجلٌ يُدعى بيناك يعمل بالسفارة الهندية، وبسبب العلاقات الوطيدة بين الهِند واسرائيل، يستطيع أن يُسهل لنا الاجراءات ويجعلنا ننتظر أسبوعًا واحدًا فقط حتى نحصل على التأشيرة، بدلًا من انتظارنا لشهرٍ أو أكثر.

توّقفنا أمام بعض الرجال لنسألهم عن بيناك وننتظر قليلًا حتى يأتي لنا، وأثناء انتظارنا، طفقتُ أفكر في سبب اختياره لرجلٍ هنديٍ حتى يصلنا بهذه الدولة، كان يجب أن نذهب لرجلٍ من أمريكا باعتبارها الحليفة الأولى لإسرائيل.

وبعد تفكيرٍ لم يدُم سوى بضعة ثوانٍ، استنتجتُ أن الحكومة الأمريكية صهيونية لن تساعدنا أبدًا، أما الحكومة الهندية، فهي مُجرد داعمة لهذا الكيان، القليل من المال قد يُجدي نفعًا باستدراجهم.

ظهر أمامنا رجلٌ بدينٌ ذو بشرة خمرية ولحية بسيطة للغاية مع شعرٍ قصيرٍ أكرت وعينان سوداويتان غائرتان، كان يقف أمامنا بقامة مُنتصبة ويمدٌ يده للمصافحة فمددتُ يدي لألتقف يديه وأشعر بقوة مصافحته وعُنفها، هذا يعني أنه شخصية مُسيطرة من الدرجة الأولى.

-أخبرني أرضوان أنكما بحاجة لي .... ما الأمر ؟

قالها بصوّتٍ جهوريٍ حادٍ وترني قليلًا، لكنني في النهاية، أخرجتُ الاجراءات من جيبي ومددتها نحوه متفوّهًا:

-نحن بحاجة للتأشيرات ... حتى نُسافر إسرائيل .... ثلاثة تأشيرات... ونريد الانتهاء من بقية الاجراءات بأسرع وقت

همهم بيناك بلا مبالاة وهو يلتقط الأوراق من بين يدي ويقول:

-من أي بلدٍ أنتم ؟

أحنيتُ رأسي بحيرة وتكاثفت قطرات العرق على جبيني وأنا لا أعرف ماذا أقول، ماذا لو كان يكره العرب وسيرفض مطالبنا إذا أخبرته أننا من مِصر.

-من مصر .... هُم من مصر ... ويريدون السفر إلى اسرائيل

قالها رازي بثقة ليرفع عني هذا الحرج ويجعل بيناك يوميء برأسه وهو يمُرر نظراته على الأوراق سريعًا حتى استوْقفته بضع كلماتٍ جعلته يهتف بوُجوم:

-مُسلم !! .... هل هذه التأشيرات لمُسلمين ؟

زادت كلماته من توتري وكان رازي يمُاثلني توترًا لكنه تدارك الموْقف بكذبته المُتلجلجة:

-لـ... لا لا .... هذه ديانتهم السابقة .... هم الآن بدون أية ديانة، لكنهم لا يستطيعوا تغيير أسمائهم

رسم رازي نظراتٍ واثقة على وجهه وهو ينظر لبيناك الذي اطمئن لحديثه نظرًا ليهودية رازي وخُصلات شعره التي تدُل على ذلك بصدق، هذا ما جعل بيناك يُنهي الحديث بنفسٍ مُطمئنة:

-حسنًا ... انتظروا قليلًا ... سأتحدث مع بعض المرؤوسين وأوافيكم بالأخبار

أومأنا رؤوسنا بموافقة ونحن ننتظره لينتهي من تلك المكالمة ويُخبرنا عن الميعاد الذي سنتسلم به التأشيرات، وكُنت في ذاك الوقت أحمد ربي أن الأمر مرٌ مرور الكِرام دون أن ينكشف أمرنا، ونظرًا لأنني لا أمتلك لحية كالتي يمتلكها مُسلم، هذا قد جعلني أبتعد قليلًا عن الصورة النمطية للمسلمين التي يرسمها الغرب في عقول أبنائهم.

بعد بضع دقائق كُنا أنا ورازي نجلس في زاوية بذاك المنزل العتيق، ننتظر بيناك حتى وجدناه يُعطينا البشارة ويُخبرنا أن التأشيرات سيتم استخراجها خلال أسبوعين، والآن، يجب أن ندفع له ثمن مجهوداته حتى نستطيع الرحيل من هنا.

ذهب بيناك مجددًا ليحضر الإيصالات بينما أخرج رازي حقيبةِ الأموال وطفق يحصيها ليتأكد أنها تُعادل الألف يورو، السعر الذي أخبرنا أرضوان عنه.

انطلقت أصواتٌ عديدة بجواري جعلتني دون وعي أنتبه لهذا الحديث الذي يتسامر به بقية الأشخاص وهُم يجلسون بمنزل بيناك، فكانوا خليطًا من الفرنسيين والهنديين يعادل عددهم ستة أشخاص، وكان منهم واحدٌ من الهند يحمل جواله ويقرأ ما به من خبرٍ بلكنة ساخطة مليئة بالكراهية:

-أسمعتم ما حدث لروشان .... هذه الفتاة المسكينة، شقيقها الحقير ألقى عليها ماء نار، جعل وجهها يتشوّه كليًا .... هذا فقط لأنها وضعت مُستحضرات التجميل أثناء حفلة زفافها

بعد إنهاءه لسرد الخبر، طفق بقيتهم يُعلقون عليه بنظراتٍ ساخطة:

-هذا ما يأتينا من وراء الإسلام

أثنى عليه صديقه بكلماته:

-نعم .... هُم يتعلمون العُنف والتطرف بدينهم ... يُقلدون رسولهم الذي حثهم على القتل

بقيت العبارات الكارهة تتناقل بينهم مما جعلت الدماء تتغلغل بعروقي، ليس لأنني أعرف طِباع المسلمين جيدًا، بل لأنني أشعر بالغضب من مدى جهلهم.

-هذا ليس صحيح .... الإسلام لا يُعلم القتل والتطرف .... البشر هُم من يفعلون ذلك

انتبهوا لحديثي الذي خرج مني بصورة تلقائية جعلت نظراتهم المُقتضبة تلتفت نحوي ليهتفوا بي:

-ومن أين لك بهذه المعلومات الكاذبة ... جميعنا يعرف أن الجرائم تأتي من ورائهم

آضاف رجلٌ هنديٌ على حديثه بنبرة مُستحقرة:

-هذا صحيح .... هؤلاء الملاعين يتبعون دينًا كاذبًا ... ويفعلون أشياء مُقززة

انفلتت ضحكة ساخرة من جوفي أثناء سُخريتي من حديثهم وجهلهم الواضح:

-حقًا .... ليس وكأنهم يلعقون روّث البقر ويعتقدون أنه رمزًا للتواضع

انفجر رازي بالضحك وهو يقف بجواري وواصلتُ أنا الضحك بسُخرية على وجوههم التي بدأت تطالعنا بنظراتٍ ساخطة على وشك الانفجار، بل هي انفجرت بالفعل عندما أتى بيناك واستمع إلى سُخريتي واستهزائي بتقاليدهم.

-من الذي يسخر من ديانتنا ؟

قالها بنبرة مُتجهمة جعلتني أتوقف عن الضحك أنا ورازي ونلتفت لبيناك بقطراتٍ من العرق تتصبب على جبيننا.

-لا شيء سيد بيناك ...كـ...كنا نمزح مع الزُملاء

قالها رازي بكذبٍ وبسمة متوترة ابتلع بعدها ريقه وكُنت أشعر بنظرات الخوف المُبطنة على وجهه.

-كذب ... كانوا يسخرون من عاداتنا ... ويقولون أننا مقززون

توالت بعدها الأحاديث الكاذبة على مسامعنا وهُم يتخذون موقف البريء ويقنعون بيناك بأننا نكره الهندوسية وننشر كلماتنا المقيتة بينهم، ورغم محالاوتي المريرة أنا

ورازي أن نُمرر الأمر ونرحل من هنا، إلا أن بيناك تقدم نحونا بجسده المهيب وبقي يطوّقنا بنظراته المُشتعلة حتى آشار على زُملاءه متفوّهًا:

-كيف تجرؤون على السُخرية من آلهتنا ؟.... أقسم أنني لن أجعلكم تطؤون خطوة بعيدًا عن هُنا قبل أن تركعون لكامادو " البقرة في الديانة الهندوسية " وتُقبلونها....

____

))إيمان((

19يونيو 2015   ليون : فرنسا

أوشكت الساعة على الثانية عشر بعد مُنتصف الليل، ولازلنا بالمنزل ننظر للساعة بين الحين والآخر على أمل أن يأتي جورج ورازي بعد فترة، الوقت يُشبه السلحفاة حينما تملأه بالانتظار.

-رفاق .... ألا يجب أن نتصل بهم ؟ ... تأخروا للغاية

قالتها آنابيا بقلق وهي تسترخي بظهرها للوراء وتوّجه نظراتها نحونا، وفي تلك اللحظة صدح صوّت الهاتف الخاص بمُسلم فأخذه ليُجري المكالمة في مكانٍ هاديء، بينما التفتُ أنا نحوهم لعلي أستطيع غمرهم بضروب الأمل والاطمئنان.

-لا تقلقوا .... أنا أثق بجورج ثقة عمياء، مُستحيلٌ أن يفتعل كارثة أو يضع نفسه بمأزق_

لم أكد أنهي اطرائي حتى وجدنا مُسلم يهرع نحونا بنظراتٍ مذعورة قال معها:

-جورج في ورطة

تتذكروا الكلمات التي قُلتها مُنذ قليل ؟ حسنًا، اعتبروا أنني لم أقلها من الأساس.

انتفضت أجسادنا ووقفنا في ذعرٍ نراقب مُسلم وهو يستعد للرحيل بقوله:

-سأذهب لإنقاذهم .... بيناك احتجزهما في حُجرة ولن يُخرجهما قبل أن يُقبلا البقرة التي يقوم بعبادتها

ما كاد يتحرك خطوة حتى أوقفته بنظراتي الصارمة وشجاعتي غير المعهودة:

-أنا سآتي معك

خرجت كلماتي مُقررة رغم نظرات الرفض التي لاحت على مُسلم وهو يقول:

-لا إبقي هنا

لم أشأ أن أجعلهم يدفعون ثمن مُشكلتي لهذا السبب هتفتُ بوجهه باصرار:

-أنا الذي وٌرطكم بالأمر مُنذ البداية.... ولن أترككم وحدكم

وجدتُ أرضوان يتقدم ليقف ورائي ويُضيف على كلماتي:

-لا يجب أن تذهب لبيناك وحدك .... من الأفضل أن تجعلها تأتي معك ... وأنا كذلك سآتي، لكنني سأبقى بالسيارة، إذا تدخلتُ بالأمر ربما أجعلهم يُقدمونا قرابينًا لآلهتهم

اعتقدتُ في باديء الأمر أن يمزح، لكنني تذكرتُ العداوة التي بينه وبين الهندوس مما جعلني أصدق حديثه وأدرك جيدًا أنه لا يجب أن يتدخل في تلك المجادلات.

وفي نهاية الأمر، قررنا الذهاب إلى باريس وبقيت آنابيا بالمنزل على أمل المساعدة حينما تحدث مُشكلة ما...

باريس : فرنسا

أخذ الطريق أكثر من ساعتين حالما وصلنا إلى باريس ومن ثم إلى العنوان الذي يعرفه أرضوان، فهو الذي كان يقود السيارة، وتوقف بها عِند بُقعة نائية لعله ينتظرنا ويتصل بالشُرطة إذا تطوّر الأمر.

ياليتني لم أستعرض شجاعتي وأخبرهم أنني قادرة على مواجهة الأمر، فأنا الآن أتدثر خلف مُسلم بجسدٍ يرتجف كمن سُكب عليه دلوٌ من الماء البارد، هذا المكان يبعث بداخلي هالات من الرُعب، خاصة مع حلول الليل وانتشار السكون المميت.

أما عن مُسلم، فبقيت نظراته الجامدة تلوح على وجهه أثناء تحركه للأمام بثقة، هو ليس محضًا للأنظار مثلي، يُمكنه الكذب بشأن دينه والانتهاء من الأمر بسُرعة، لكن أنا ؟ لا أعرف ما الذي سيحل بي وأنا أواجه عصابة هندوسية متطرفة كارهة للإسلام!!

-أأنت بيناك ؟

قالها مُسلم بثقة لهذا الرجل البدين الذي توّقف أمامه، والذي رمانا بنظراتٍ مُستخفة قال معها:

-نعم .... هل أنت من أتباع هذين الوغدين ؟

رفع مُسلم قامته بثقة أثناء إجابته:

-بالضبط .... أين هُم رفاقنا ؟

وجدتُ ابتسامة مُتهكمة تُرتسم على ثغر بيناك حالما اكتشف وثوبي خلف ظهر مُسلم أتعرق من الخوف، هذه الابتسامة تحوّلت للاشمئزاز مرة واحدة عندما قال:

-هل أنتم مُسلمان ؟

توّقعتُ أن يحاول مُسلم حجب الحقيقة حتى لا نقع في ورطة، لكنني تفاجئتُ من الثقة العمياء التي يتحدث بها مُسلم:

-نعم .... وهل يخُصك هذا الأمر ؟

أنهى حديثه بلكنة مُستفزة أعجبتني صراحة، هذه هي الطريقة المُثلى لمُجابهة هؤلاء الأوغاد.

-لا يخُصني، لكنني لن أتعامل مع آمثالكم ..... وإذا لم ترحلوا من هُنا في هدوء، سأجعلكم تقبلون كامادو مع رفاقكم

رسم مُسلم بسمة مُتهكمة على ثغره وهو يتقدم نحو بيناك وأتقدم أنا وراءه لا أعرف حقًا لماذا أتيت ووضعتُ نفسي في هذا المأزق.

كان مُسلم يطرق بيده على الطاولة وهو يقول بإصرار:

-نحن لن نرحل من دون رفاقنا .... وأرنا ما الذي ستفعله

كان بيناك على وشك الرد عليه لولا تدخل واحدٍ من رجاله متفوّهًا:

-إبتعد عن هؤلاء الإرهابيان أيها الزعيم .... هؤلاء بربريون لا يعرفون شيئًا سوى القتل .... هكذا هو دينهم، يُعلمهم أن يقتلوا من لا يؤمن بـ " الله " الخاص بهم

آثارت تلك الكلمات حفيظة مُسلم الذي حافظ على هدوءه وثباته أثناء رده:

- -حقًا ..... ألستم تؤمنون بشيفا الذي قتل ابنه بعد أن قطع رأسه واستبدلها برأس فيلٍ حتى يعود إلى الحياة ؟ .... ألستم تؤمنون ببارفاتي التي هددت بتدمير العالم إذا لم يعُد ابنها جانيشا للحياة ؟..... من أين لكم أن تتحدثوا عن السلام وأنتم تؤمنون بأساطير مليئة بالقتل والتدمير ؟

تعجبتُ من معرفة مُسلم للديانة الهندوسية ولم أشأ أن أتدخل بالأمر، كُل ما فعلته هو مراقبتي لتعابير وجه بيناك التي انقلبت مرة واحدة وكأنه لا يزال يُريد إنكار الحقيقة.

-كيف تجرؤ على التقليل من ديننا أيها الحُثالة ؟

قالها بيناك بنظراتٍ غاضبة وهو يُشير بإصبعه السبابة على وجه مُسلم الذي لم يتزعزع رغم محاولتي لجذب ذراعه والهمس بأذنه أن نرحل.

-أنا لا أتهمكم .... أنا أخبركم الحُقيقة، أليس شيفا إلاهكم أم أنني أتوّهم ؟

كوّر بيناك قبضته بغضب ولم يجد من الكلمات ما يرد بها على مُسلم، هذا ما جعله يلتفت بنظراته صوّب رجاله ويهتف بوجوههم بلكنة آمرة:

-أمسكوا هذين الوغدين وضعوهما بالمخزن....

20يونيو 2015 باريس : فرنسا

أشعر بطرقة يُصدرها عُنقي وأنا أحاول تحريكه للجهة الأخرى، وجسدي الذي تخشّب على الأرض يكاد يُشعرني أنني سيدة عجوز، هذه النومة لم تكُن مريحة بالمرة، وهذا الحقير وضعنا بتلك الحُجرة وقام بتكبيلنا بالحبال الغليظة حتى نرضخ له ونركع لبقرته " العزيزة"

كل هذا بسبب جورج، لو لم يبتلع لسانه ويسخر منهم لمَ وصلنا لتلك المرحلة.

-مُسلم .... مُسلم

ناديت بصوّتٍ خافتٍ حتى يستيقظ مُسلم من نوّمته ويلتفت لي بأعينٍ ناعسة، متأكدة أنه لم ينم طوال الليل بهذه الحُجرة الصغيرة المليئة بالخُردوات.

-هنعمل إيه ؟

سألته بيأسٍ لأجده يبتعد بعينيه عني محاولًا التفكير في طريقة للهرب، وما إن طالت فترة صمته، وجدتني أندفع بوجهه بإصرار:

-أنا مش هركع للبقر، مش على آخر الزمن أعمل كدة

لم ينبس أيضًا ببنت شفة لكنني استشفيتُ نظرة الموافقة على حديثي، هو بالطبع لن يرضخ لهم حتى ولو امتد مكوثنا هنا لعدة أسابيع.

-أرضوان تحت .... أكيد لما نتأخر هيتصل بالبوليس

قالها مُسلم باطمئنانٍ جعلني أزفر براحة وأدعو الله أن يتصرٌف أرضوان بُسرعة قبل أن ينكشف أمره هو الآخر، أما بالنسبة للتأشيرة، فلا أعتقد أننا سنحصل عليها بعد ما حدث، فبالطبع قام هذا الحقير بالاتصال بمعارفه وإخبارهم بأننا لم نعُد نريد التأشيرات.

مرٌت ساعة أخرى، ونحن في حالة من الصمت ننتظر الفرج، حاولت مرارًا فك وثاقي لكنني لم أفلح بالأمر، وحاولت أيضًا فك وثاق مُسلم لكن الأمر أصعب مما توٌقعت، ليس مثل ما آرى بالأفلام.

وبعد فترة وجيزة، وجدنا باب المخزن يتم فتح بروية؛ انتفض جسدي وتحفزٌ مُسلم مُعتقدًا أن أتباع بيناك سيدلفون الحُجرة ويقومون بضربنا أو تهديدنا، لكن ما حدث لم يكن بالحُسبان.

ظهر من خلف الباب، رجلٌ نحيلٌ ذا بشرة خمرية وعينان عسليتان، كان يتلفت حوله في كل ثانية وكأنه يتأكد أن لا أحد رآه، وما إن تأكد حتى أحنى جسده صوٌب مُسلم وبدأ يفُك وثاقه أثناء همسه:

-يجب أن ترحلا من هنا .... بيناك لن يترككما وشأنكما

انتهي من فك وِثاق مُسلم وبدأ يساعدني بالتحرر من تلك القيود أثناء سؤالي الفضولي :

-من أنت ؟

فكُّ الرجل وثاقي وهو يقول بهمسٍ عرٌف معه نفسه:

-أنا مانموي .... أنا أيضًا أعتنق الهندوسية، لكنني أعرف الكثير من المُسلمين بالهند، لهذا السبب لا أوافق على النظرة النمطية التي يرسمها بيناك وبقيتهم نحوكم ..... ولا أوافق عمَ يفعله .... أنا متسامح مع جميع الديانات

وثب مُسلم عن الأرض يُنفض ثيابه كما فعلتُ أنا الآخرى أثناء ابتعاد مانموي عنا وإشارته نحو الباب:

-إرحلا بُسرعة .... قبل أن يأتي الزعيم

قبل أن يتحرك مُسلم، سأله ببعض الجمود:

-أين رفاقنا ؟

طمأننا مانموي بحديثه رغم نظرات الخوف البادية على عينيه، فإذا كُشف أمره، ربما تضحى هذه نهايته:

-لا تقلق .... ذهبتُ إليهما قبل أن آتي هنا، جعلتهما يهربان من بوابة أخرى

أومأ مُسلم بهدوءٍ، ليس لأنه يثق بهذا الغريب، لكن لأننا لا نملك حلًا آخرًا، ففي جميع الأحوال مصيرنا واحد ولا يوجد أمامنا سوى التجربة.

هرولنا بأقدامنا خارج الحُجرة، وقلوبنا تنبض بذعر، لا نعرف ما علينا فعله، وأي طريق نسلك، فقط نسير بين طُرقات هذه البناية ونتلفت يمينًا ويسارًا حتى نتأكد أن لا أحد ورائنا.

وكما يقول المثل، لا تأتي الرياح بما تشتهيه السُفن، فحالما التفتنا للأمام وكنا على وشك الهرب، يبّستنا نظرات بيناك الجاحظة ومعالم الغضب التي تلوح على وجهه!!

لم يكن الهرب من صفاتي يومًا ما، ولا أذكُر سوى هروبي من والدتي حينما افتعلُ كارثة وأحطم طنجرة عزيزة عليها، وإن جئنا للحق، دائمًا ما فشلت جميع محاولاتي للهرب، أما من والدتي، أو من ذاك الرجل ذي الشوارب الكثيفة التي تُذكرني بكُفار قريش.

صوّت أقدامه تقترب نحوي داخل هذه البناية التي بالكاد تسع لجميعنا، فالأخشاب عتيقة تبلغ من العُمر أرزله، أشك أن هذه البناية بُنيت قبل الحملة الفرنسية.

تقهقرت قدماي للوراء لأتدثر خلف مُسلم الذي بسُط ذراعيه حتى يحميني من نظرات هذا الباخع، أما عن بيناك_ رئيس هذه العصابة_ فلم تتوقف نظراته عن التهامنا وكأن نظراته آكلة للحوم البشر.

-لن أجعلكم ترحلون قبل أن تركعوا لجانيشا وتُقبلوا يد برهاما

حسنًا، كانت كلماته تأكيدًا لتشبيهه بكُفار قُريش، لكن بالعصر الحديث، فهذا المُخنث لن يتركنا أحياءً قبل أن نركع أمام آلهته، وهذا فقط لأننا حاولنا الرد على تهكماته وسُخريته من الإسلام.

كانت نظرات مُسلم لا تختلف كثيرًا عن نظرات بيناك المُتقدة بالشر، الفرق الوحيد أن نظرات مُسلم كان بها تحدٍ سافرٍ وشجاعة منيعة.

-ابتعد عن وجوهنا يا هذا .... فنحن لن نُنفذ رغباتك ما حُيينا

قالها بُلغة فرنسية مُتقنة حتى يفهمه هذا الهندي الذي بالكاد يتحدث الفرنسية نظرًا لكوّنه يعيش هنا بفرنسا، وما كانت تلك الكلمات المُتحدية سوى قذيفة ألقيت على بيناك وجعلته ينفجر كما انفجرت قُنبلتي هيروشيما وناجزاكي.

-هل تتحداني أيها الحشرة السفيقة ؟.... أقسم ببرهاما أنني لن أترككما أحياءً بعد هذه اللحظة

أنهى كلماته تزامنًا مع إخراجه لمدية ذات نصلٍ حادٍ ونقوشٍ مُزغرفة دثُّرها داخل ثيابه الرثة وجسده البدين، باتت نظراته الآن أشبه بنظرات الجزار حينما يقبل على ذبح الشاه، حسنًا، لا يُمكن اعتباره جزارًا يذبح الشاه وهو بالأصل يركع لها.

ارتعدت فرائسي وأنا أكتم صرختي واتقهقر المزيد من الخطوات للوراء، ولايزال مُسلم باسطًا ذراعيه أمامي يحاول طمأنتي بنظراته المُتحدية وهو بالأصل يتقهقر للوراء هو الآخر، فإن لم يتحرك، سينفصل رأسه عن جسده بسبب هذا الذي فقد عقله وبدأ يهوي بالخنجر أمامنا.

لم أتوقف عن الدُعاء في تلك اللحظة، أعترف أنني أذنبت حينما لجأت إلى هندوسيٍ يمقت الإسلام حتى يُسهل لنا اجراءات السفر ويساعدني على الخروج من تلك المدينة والبحث عن ابنتي، أقسم أنني لم أجد حلًا سوى هذا، فكل ثانية تمُر علي ولا أجد فيها بنُيتي الصغيرة، ستزداد المسافات بيننا وربما لن استطيع العثور عليها مُجددًا.

باتت الذكريات تدور أمام عيني وضميري يؤنبني على سفري من البداية، فياليتني استمعتُ إلى نصيحة والدتي ولم اتزوج هذا الخائن الحقير، ياليتني انصعت لرغباتهما وبقيت مُعززة مُكرمة داخل موطني بدلًا من ضياعي في تلك البلدة، لولا وجود مُسلم وجورج وبقيتهم، لازداد شعوري بالغُربة والضياع.

ترددت كلمات والدي في أذني بتلك اللحظة حينما كان يقول لي أن القدر مكتوب ولا يُمكن تحريفه، وإذا كُتبت نهايتكِ في تلك اللحظة، فهذا لأن الله وجد أن هذه الطريقة هي ما ستُخلصني من شقاء العالم، وربما تحميني من تهكم الظالمين مثل بيناك وأمثاله.

كذلك أخبرني أن اتشبث بُقدرة الخالق على تخليصي من المِحن، فمهما كانت الصعوبات، ربما تأتي مُعجزة وتُخلصني من كل هذا.

ما كاد تفكيري يكتمل حتى استمعتُ إلى أزيز الأخشاب على الأرض قبل أن تتحطم لعدم احتمالها لجسد بيناك البدين.

تيبس جسدي مرة واحدة وانقبضت أوزاري وأنا أشاهد ما يحدث، فما إن اقترب بيناك نحونا، حتى دعس على خشبة عتيقة انكسرت مرة واحدة ليسقط بيناك من الطابق الأول، فهذه البناية تتكوّن من طابقين، ونحن نتعارك بالردهة المصاحبة للمصاطب التي تصلنا بدوّرها للطابق الأرضي ومنها للشارع مباشرة، أي أن الطابق الأرضي كان أمام أعيننا وساعدنا على رؤية بيناك وهو يسقط على الأرض، ولسوء حظه_ أو بسبب شر أعماله_ سقط مباشرة على مجموعة من العيدان الحديدية الرفيعة التي تُستخدم عادة في البناء، وبما أن العيدان تم وضعها بصورة رأسية، فكان جسد بيناك أشبه بالاسفنجة المليئة بالثقوب، إلى أن الفرق الوحيد، أن ثقوبه لم تخلو من الدماء!!

تصاعدت ضربات قلبي وأنا أشاهد طريقة وفاته القاسية، فهذه نتيجة من يسخر من خالقنا ويرتكب الجرائم، كاد التقيؤ يزورني في تلك اللحظة وأُصبت بالشلل لفترة وجيزة أيقظني منها مُسلم وهو يُهرول بأقصى ما لديه ويهتف بوجهي حتى اتبعه.

اعتقدتُ في البداية أنه سيترك جُثة بيناك وينفد بجلده، لكنه دائمًا ما يُفاجئني بتصرفاته النبيلة حتى مع من لا يستحق، لا أعرف كيف تحمل رؤية الدماء دون أن يرف له جِفن، ولا أعرف حتى كيف أبعد الخردوات ودفع جسد بيناك بعيدًا لعله يستطيع انقاذه.

كنت أريد الصُراخ بوجهه وإخباره أن يترك تلك الجُثة ذات الثقوب، ألا يعرف أنها لقَت حتفها، لكنني ابتلعت لساني حالما فاجئني بُجملة:

-لسة في نبض

قالها بصوّتٍ خافتٍ وبالمصرية التي افتقدها، ومع ذلك لم اتحرك وبقيت عيناي مفتوحتان بذهول، فالمعجزة التي جعلته يلقى تلك الميتة، جعلته يبقى حيًا بعد كُل هذا !!

تلطخت ثياب مُسلم بالدماء وهو يحاول نزع العيدان الحديدية من جسده البدين وعينا بيناك الجاحظتان كالذي رأى عِفريتًا، أردتُ أن أسأله إذا كان قد مارس مهنة الطب وخدعني حينما أخبرني أنه مُجرد تاجر، لكن لمَ يخدعني من الأساس في تلك الأمور ؟ فهو يُتقن العديد من المهارات ويعرف الكثير من المعلومات، حتى أنه يستطيع استخدام السِلاح ويستطيع صيانة السيارات، على ما أعتقد.

-يلا تعالي ساعديني

هتف بها بصوّتٍ حادٍ آمرٍ انتشلني من وحل أفكاري وجعلني أحاول مساعدته رغم ارتعادة أطرافي، فهذه أول مرة أرى فيها هذا الكم من الدماء، وبقائي لتلك اللحظة دون التقيؤ أو الاغماء، هو مُعجزة بحد ذاتها.

أحنيتُ جزعي بضعة أمتار ولازلتُ أقاوم ارتعادتي وأنا أمد يدي المُرتجفة نحو أحد العيدان الحديدية كمحاولة لاستخراجها من جسد هذا المُدنس، فرغم أنه آراد قتلنا، إلى أننا لن نتركه يلقى حتفه أمام أعيننا ونحن نستطيع المساعدة، وأظن أن هذا ما فكُر فيه مُسلم قبل أن يهِم بمساعدته، فربما عندما ننجح بانقاذه يتذكر لنا هذه المساعدة ويتوقف عن ازعاج المُسلمين وربما يُساعدنا في إنهاء إجراءات السفر.

أمسكتُ بعودٍ معدني يتقاطر منه الدماء مما جعل حركتي بطيئة وكأنني بفيلمٍ سينمائيٍ يصوّر لحظة مُهمة تحتاج إلى التصوير البطيء، وفي حالتي تلك، لن أحتاج إلى المونتاج لأبطيء من حركتي البطيئة بالفعل.

وضع مُسلم كلتا يديه على صدر بيناك وبدأ يضغط عليه بصورة مُتكررة، ففي تلك اللحظة، توّقفت أنفاس بيناك وبات أقرب للجُثة الهامدة، ولا يزال مُسلم يحاول انقاذه ولا اعرف لماذا يفعل ذلك ؟ ربما لا يزال يُريد مساعدته من أجل مساعدتنا.

تنهد مُسلم تنهيدة يآسة أرخى معها ظهره للوراء متفوّهًا:

-مات

كلمة صغيرة لم تُحرك بي ولو شعرة واحدة، أصبح جسدي يُحاكي الأصنام وأنا أمسك بذاك العود الحديدي الذي يتقاطر منه الدماء، ولو كُنا بعصر الفراعنة، لما جعلوا من هيئتي إلاهًا... إلاهًا لسفك الدماء.

-يلا نمشي

قُلتها بصوّتٍ مُرتعدٍ عندما تذكرتُ أن علينا الهرب، سنهرب دون أن نحصل على تلك التأشيرة اللعينة.

لم أكن مُهتمة بتلك الجُثة ولا حتى بكيفية اخفاءها، ففي النهاية، نحن لم نتسبب بموّته، موُته كان قضاءً وقدرًا، لكن، ربما العالم لا يُريد تصديق هذه الحقيقية.

فما إن رفعتُ وجهي نحو الشارع المقابل لنا، حتى وجدتُ جمعًا غفيرًا من الفرنسيين يراقبون ما يحدث بأفواهٍ مفتوحة وكاميرات الهواتف تلتقط ما يحدث، تلتقط جُثة بيناك المُلطخة بالدماء، ويدا مُسلم اللتان لا تختلفان عن تلك الجُثة بكمية الدماء، ويدي التي لا تزال تلتقط هذا العود الذي يتقاطر منه دماء بيناك!!

سقط العود من يدي مرة واحدة وكأنه أصبح عودًا ساخنًا سيُصيبني لهيبه، لكن الحقيقة أن لهيبه لن يعادل لهيب تلك النظرات المصوّبة نحوّنا وأفراد الشُرطة التي استجابت لنداء أرضوان وأتت لإنقاذنا_ في الوقت الخطأ_ فإن كان الحظ شخصًا، لما كان من ألد أعدائي، فأنا الآن مُغتربة ومخدوعة ومسروقة ومُشردة و.... قاتلة!!

الفصل العاشر (المزيد من الهروب)

((إيمان))

20يونيو 2015   باريس : فرنسا

ليس كل ما تراه عيناك حقيقي، لكننا من نُحدد متى نعتقد أن هذا حقيقي ومتى يكون كذبًا، وربما نجعل الحقائق أكاذيب والأكاذيب حقائق، فقط لأنها تتوافق مع مُعتقداتنا وأفكارنا النمطية، وفي حالتنا البائسة، لم يكن الحظ حليفنا، بِتنا أشبه بمن ارتكب جريمة ونحن لم تقترف ذنبًا حتى.

حاولت الوثوب عن الأرض وكذلك فعل مُسلم بثيابه المُلطخة بالدماء، شُحب وجهي وازداد تعرّقي وأنا أحاول تبرير ما حدث لهذا الجمع الغفير من الناس، ألم تكن هذه المنطقة ساكنة بالأمس ؟

-هـ...هذ.. هذا مُجرد سوء فهم ... نحن لم_

ولم أكد أنهي تبريري حتى وجدنا أفراد الشُرطة يهرعون نحوّنا بنظراتٍ مُتجهمة ويدٍ توّضع على خِصرهم استعدادًا لإطلاق النار إن لم نُسلم نفسينا، أي أننا هالكان لا مُحالة.

أمسك مُسلم رسغي بيده الدامية وجذبني بسرعة لنقفذ من النافذة المُتدثرة بين الخردوات قبل أن تصل الشُرطة إلينا، وكُنت لا أتوقف عن التبرير والدموع تكاد تنجرف من عيناي، لكنني توّقفت عن التوّسل لأستقبل نبضات قلبي المتصاعدة وأنا أقفذ من النافذة وأواصل الهرولة خلف مُسلم الذي لم تتغير ملامحه الجامدة وبقي يهرول حتى أوصلنا إلى سيارة أرضوان التي أتت نحونا وبداخلها يجلس جورج ورازي.

فتح مُسلم الباب وأدخلني بحدة ليصفع الباب خلفي ويتجه من الناحية الأخرى ليجلس بجوار جورج، فقد كان رازي يجلس بالمُقدمة وأجلس أنا بالمقاعد الخلفية وجورج بالمُنتصف ما بيني وبين مُسلم.

تحرّك أرضوان بالسيارة بسُرعة ما إن استمع إلى الصياح الصادر من حولنا وكلمة " أمسكوهم " التي تتناقلها جميع الألسنة، كما آشار له مُسلم بأن يتحرّك بسرعة ولا يسألنا عمّ حدث لأنه لا يوجد وقتٌ لهذا.

وقتها لم أكن أفكر سوى بالحبهان، نعم، هذا النوع من البهارات ذا المِذاق السيء الذي يترك الجميع ويضحى بصحني، هذا هو حظي الدائم.

-ما الذي حدث ؟

سأل رازي بقلقٍ وما كاد يُجيبه مُسلم حتى اندفع أرضوان بسؤاله:

-هل أتت الشُرطة لإنقاذكم ؟

-لا ... بل للقبض علينا

قُلتها بحسرة على ما آلت إليه الأمور، وبعد أن أكد لي أرضوان أنه هو من قام بالاتصال بالشُرطة حتى تأتي لإنقاذنا من براثن بيناك، أعتقد أن الشُرطة ظنته يتحدث عن بيناك وليس نحن.

-وما هذه الدماء .... هل قتلتم بيناك ؟

سأل جورج بذعر وهو يُحدق بالدماء التي لطخت ثياب مُسلم وجزء من ثيابي، وما كان مُسلم سوى أن آجابه بنظراته الجامدة التي تختلف تمام الاختلاف عن وجهي الشاحب وجسدي المُرتعد من هوّل الموقف:

-لم نقتل أحدًا ... مات موّتة طبيعية ... وهؤلاء الحمقى يعتقدون أننا قتلناه

التفت رازي ليُطالعنا بنظراتٍ قلقة سأل معها ليتأكد من شكوكه:

-هل يعني ذلك أن الشُرطة تبحث عنكما ؟

أومأتُ رأسي إيجابًا أنا ومُسلم لنؤكد حديث رازي ونتأكد الآن أننا في ورطة، وبعد فترة من الصمت وجدنا جورج يرسم بسمة مُطمئنة على ثغره وهو يقول:

-لا بأس .... لا زالت هناك أخبارٌ سارة

صمتٌ برهة عن الحديث ليسترفد لنظراتنا المتلهفة ثم واصل:

-بيناك لم يقم بإلغاء إجراءات التأشيرة .... هذا يعني أنها ستكون معنا بعد أسبوع

-وما الذي سنفعله خلال هذا الأسبوع .... ستعثر الشُرطة علينا ؟

قُلتها بقلقٍ رغم سعادتي الطفيفة بمَ قاله جورج، لا يزال هناك أملٌ بالرحيل من هنا في أسرع ما يُمكن.

-هناك لجانٌ تفتيشية أمام بوابة ليون؛ هذا يعني أننا لن نستطيع الذهاب إلى هناك .... خاصة وأنتم مطلبون للعدالة

زاد اصفرار وجهي وباتت الهوّة ضيقة للغاية هنا، لا أعلم ما الذي ينقصني حتى يُطلق علي الأكثر تعاسة.

-جائتني فكرة ... يُمكنكم الذهاب إلى منزلي .... منزلي قريبٌ من هنا

قالها رازي بلهفة رفع معها سبابته ليقترح علينا الذهاب إلى منزله القابع بباريس، وكانت هذه الفكرة جيدة، نظرًا لأنني أقطن بليون أنا ومُسلم، وأرضوان منزله يكاد يسعه هو ووالدته، وأما عن جورج، فلا يوجد أمامه مفرٌ سوى المجيء معنا، هو بالأصل لا يملك منزلًا هنا.

-وماذا عن آنابيا ؟ .... لا يجب أن نتركها وحدها بمنزل إيمان

اندفع جورج بهذا السؤال وجعلني ألتفت له وأرميه بنظراتٍ مُتفحصة جعلته يُحمحم ويُعدل من نبرته التي بان بها الشغف:

-هـ.. هي من المُفترض أن تسافر معنا هي الأخرى

تلعثم قليلًا بالحديث وهو يُبرر اهتمامه الواضح بها، لكن أرضوان اقترح عليه بنبرة جامدة:

-دع إيمان تتصل بها وتُخبرها أن تُجهز الحقائب .... وأنا سأذهب إليها وآتي بها إلى هُنا

-وأنا سآتي معك ... لن تستطيعا حمل الحقائب وحدكما

قالها جورج مُقترحًا وهو يرفع يداه لأعلى ويحاول التهرّب من نظراتي المُشككة....

وبعد فترة وجيزة من الاقتراحات والنقاشات أخرجتُ هاتفي واتصلتُ بآنابيا لأخبرها عن مُخططنا، كما واصل أرضوان القيادة حتى توّقف بمدينة لا مارية لنترجل من السيارة ونتحرك في الخفاء بين المباني مُتجنبين النظرات الكارهة والتي تُشبّه علينا، ومُستغلين أن الخبر لم ينتشر بعد حتى نستطيع الذهاب إلى منزل رازي بأسرع ما يُمكن.....

لا مارية / باريس : فرنسا

دلفنا منزل رازي الفسيح المكوّن من طابقين، فكان الطابق الأول ذا طابع شرقي ونقوشٍ زخرفية تعتلي الجُدران وبعض قِطع الأثاث، أما عن الأثاث فكان يجمع ما بين العصرية والكلاسيكية مع بعض اللوحات المُعلقة على الحائط والتي كانت ما بين الرسومات الأنيقة والكلمات العبرية، وعلى الطاولات يوجد شمعة كبيرة أخبرني مُسلم أن اسمها هانوكا، ويوجد كذلك رسمات مُتعددة لنجمة داوود تم رسمها بطريقة زغرفية تماشت مع الطابع الشرقي للأثاث.

استقبلتنا والدته ذات الجسد النحيل نسبيًا والبشرة الخمرية التي جمَّلها ابتسامة ودودة وعينانِ خضراوان تُشبهان عينا رازي، كانت ترتدي جلبابًا زيتيًا مُزخرفًا وحجابًا على شعرها قامت بوضعه بطريقة مُعينة تتناسب مع العقيدة اليهودية.

رحبُت بنا بفرنسية مُتقنة وأخبرت رازي أن يُرينا الحجرة التي سنقطن بها، كان لرازي شقيقة كُبرى انتقلت للمبيت بمنزلٍ آخر، فبقينا أنا وآنابيا بحُجرتها لفترة مؤقتة حالما نحصل على تأشيراتنا ونرحل من هنا، كما شارك مُسلم الحُجرة مع جورج ورازي، وأرضوان عاد لمنزله على أمل أن يوافينا بالمُستجدات صباح اليوم التالي.

تناولنا الطعام أولًا لأننا كُنا نتضوَّر جوعًا، فقد أعدت والدته الكُسكس بطريقة مُختلفة لم أعهدها من قبل، فكان يحتوي على العديد من أنواع الخُضار مثل البطاطا واللفت الأبيض والعدس والقرع والجزر، وكان معه دجاجٌ مشويٌ حلوٌ المذاق وكؤوس من اللبن أخبرنا رازي أنهم يتجرعونها مع الكُسكس.

وبعد انتهائنا من الطعام، اجتمعنا بحُجرة رازي نتناقش في الخطوة القادمة، وكان أرضوان قد اطمئن على والدته وأتى ليتشاور معنا بالأمر، لكن قبل مجيئة، مسك جورج هاتفه وطفق يقرأ الخبر المُنتشر بالصُحف بصوّتٍ مُرتفع:

-مقتل السيد بيناك جانيش على يد مجموعة من المتطرفين الإسلاميين الذين قاموا بطعنه ستة وعشرون طعنة وهروبوا من عناصر الشُرطة .... وكان معروفٌ عن السيد بيناك معاداته للإسلام والمُسلمين بسبب منشوراته على وسائل التواصل الإجتماعي مما يجعلها جريمة إرهابية مُتعمدة، وتواصل الشُرطة البحث عن هذين المُجرمين ومعاقبتهما بما ينُص عليه القانون

أنهى جورج قراءة الخبر بصوّتٍ مُرتفع جعلني أفقد ذرات ثباتي وألطم على وجنتي متفوّهة بحسرة:

-يا مصيبتي السودة .... يعني أنا بقيت إرهابية!!

لاحت نظرات الغضب على وجه أرضوان وهو يقول بحرقة:

-لو كان مُرتكب الجريمة يعتنق غير الإسلام لما جعلوه مُختلًا عقليًا وليس إرهابيًا

أضاف مُسلم على حديثه بنفس الغضب العارم:

-ولم يكن لينتشر الخبر بسُرعة البرق هكذا

كان رازي يعبث بهاتفه ويقرأ التعليقات حتى أردف:

-يا رفاق ... الجميع يتحدث عنكما، وصوٌركما تملأ وسائل التواصل

جلس جورج يجواري وهو يرسم بسمة مُتهكمة على ثغره تبعها بربتة فخورة على كتفي لا أعرف سببها لكنني أعرف جيدًا نبرته الساخرة التي يتحدث بها الآن:

-إبسطي يا إيمي، مش أمِك كانت عايزاكي مشهورة ؟... أديكي بقيتي مشهورة وحققتيلها إللي هي عايزاه

زادت كلماته من حنقي مما جعلني أدفعه بعيدًا عني وأنا أهتف بوجهه:

-إنت كمان بتهزر .... إنت السبب أصلًا في اللي حصل، لو كُنت سكِت وحطيت لسانك جوة بوقك مكُناش وصلنا لكدة

رمقني بنظراتٍ مُعترضة وكأنه يقول لي أنه لم يفعل شيئًا، وأنني السبب في هذا من البداية، حسنًا، هو معه حق، لكنني لن أصرح بهذا أمامه، لا ينقصني شماتة أكثر من ذلك:

-أنا السبب !! .... هو أنا إللي وقعت في دباديب واحد اسرائيلي وخليته يسرقني ؟

كُنت على وشك الرد عليه والبدء في عراكٍ معه يُشبه عراك الحواري لكن مُسلم تدخل بيننا بنظراته الحادة وصوٌته الهدير:

-إهدا يا بني إنت وهي .... عايزين نشوف حلٌ للمصيبة دي

توّقفتُ عن الجِدال وأبعدتُ نظراتي عن جورج حتى أهديء من روعي، تقدم أرضوان نحوّنا حتى وثب بمُنتصف الحُجرة يُنهي الحديث بإصرار:

-بعد أسبوعِ من الآن ... سأذهب لإحضار التأشيرة وابتياع التذاكر بعدها مباشرة .... حتى هذه اللحظة، عليكم البقاء هنا، والاختباء من الشُرطة قدر الإمكان

تدخل رازي بالحديث ليزيدنا اطمئنانًا:

-لا تقلقوا .... والدتي تعرف الحقيقة، وتعرف أنكما مظلومان، وهي لن تُخبر الشُرطة

أضاف مُسلم على حديثه بنظراتٍ جامدة يملأها الشك:

-هذا لا يعني ألا نقلق .... فالشرطة يُمكنها العثور علينا بسهولة، لا تنسى أن هناك من رآنا ونحن في طريقنا إلى هنا

رفع أرضوان إصبعه أمامنا حتى يُنهي الحديث بقيادية:

-ولهذا السبب عليكم بالحذر .... حاولوا تجنب الخروج من الباب والوقوف بالشُرفة حتى لا يراكم المارة .... أنا ورازي سنقوم بحمايتكما قدر المُستطاع....

كانت الساعة تُشير إلى الواحدة بعد مُنتصف الليل، وفي مُنتصف تلك الليلة الساكنة والسماء الكحيلة ذات النجوم الساطعة، كُنت قد انتهيت من استخدام المرحاض وفي طريقي للحُجرة وأنا أرتدي اسدال الصلاة حتى لا يُعركل طريقي ظهور رازي أو حتى مُسلم.

فتحت باب الحُجرة التي أشاركها مع آنابيا لأجدها تجلس على الفِراش بنظراتٍ حزينة مُتغيبة عن العالم وأنامل تُمسد على الفراش وكأنها تُحاول نقل أحازينها وهمومها على تلك الملآة البيضاء.

اقتربتُ نحوها بخطواتٍ بسيطة أتجنب معها النظر لعينيها، أشعر بالخزي على حالي، فهي أتت لتطلب المساعدة من شخصٍ لا حول له ولا قوة.

-أنااا .... آسفة .... أردتني أن أنجدِك من مصيبتك .... لكنني جلبت لكِ المزيد من المصائب

قُلتها بحرجِ بعد أن أدركت ما وضعتها به، وما كان منها سوى نظراتٍ باهتة لا تحمل أي من المعاني، وكأن اعتذاري لا يعنيها.

-لا يُهم .... لا يزال الحال أفضل من البقاء مع والدي وعشيقته

أسبلتُ بعيناي لأسفل وشعورٌ من الشفقة يعتمرني، لا أعرف حقًا كيف يُريد والدها أن يُتاجر بها، ما بال الإنسانية بهذا العالم ؟

-لا تحزني .... هو لا يستحقكِ

حاولتُ مواساتها بهذه الكلمات وأنا أجلس بهدوءٍ بجوارها وأضع يدي على آناملها الباردة، وما كانت كلماتي المواسية سوى دافعًا لها حتى تُطلق العِنان لدموعها التي بدأت تترقرق على وجنتيها:

-كُنت أمني نفسي بأنه سينتبه لي يومًا ما .... لكنه يطعنني بالخناجر يوميًا

كفكفت القليل من دموعها ثم رفعت وجهها الأحمر لتُطالعني وتواصل الحديث بحرقة :

-كُنت أحقد على رفيقاتي بالمدرسة لأن أبيهم يبتاع لهن الألعاب ويلهو معهن .... وأنا ... والدي حتى لا يعرف أنني لم ألتحق بالجامعة .... مُنذ وُلدت وهو لم يُعانقني ولو لمرة .... حتى بعد وفاة والدتي .... توّقعتُ أن يعانقني ويُخبرني أنه بجواري .... لكنه

توّقفت عن الحديث لتلتقط أنفاسها وتواصل بصوّتٍ متحشرجٍ:

-لكنه وٌبخني .... كان يقول لي " والدتك ذهبت ولن تعود " " أنتِ لستِ صغيرة " " تدبري أمورِك " وأنا لم أكن سوى طفلة بالعاشرة

انهمرت دموعها أكثر كسيلٍ جارفٍ حاولت إيقافه بلا فائدة:

-لماذا يفعل ذلك ؟ .... لماذا لا يُحبني ؟ .... أنا ... أنا لم أفعل له شيئًا .... أقسم أنني كُنت طفلة مُطيعة....

لم تتوّقف عن البكاء حتى جعلت قلبي ينفطر لأجلها، ولو وُجدت الصخور هنا لما بكت هي الأخرى على تلك الفتاة الرقيقة التي هدمتها الحياة.

لم أشعر بنفسي وأنا أقترب منها وأضمها لعناقي، شعرتُ أنها بحاجة لذاك العِناق أكثر مني، صحيح أنني في شُرزمة من المصائب، لكنني نِلت ما يكفي من حنان الأبوين، هذا الحنان الذي لا تعلم عنه شيئًا هذه المسيكنة.

ما إن ارتكنت على صدري حتى اجهشت بالبُكاء أكثر وُكنتُ أمسد على ظهرها وأنا أقول بقلبٍ مكلوم:

-لا بأس ... لا تبكي ... هو لا يستحق أن تبكي بسببه .... هذه الحياة عندما تُعطينا شيئًا، تأخذ مقابلًا له .... وهي إن كانت قد سلبُت منكِ حنان الآباء، فقد أهدتِك والدة داعمة، أعطتِك حياة، صحة جيدة، وأنفاسٍ تتوالى بسهولة ويُسر....

أبعدتها عني لأضع يداي على كتفها وأرميها بنظراتٍ مُحفزة قُلت معها بتشجيع:

-لا تنجرفي وراء ما سلُبته منكِ الحياة .... بل واصلي طريقكِ حتى تثبتي للجميع أنكِ لستِ قابلة للكسر، لستِ قابلة للتخبط والضياع .... بإمكانكِ صٌنع حياةً أفضل بيديكِ، دون الحاجة إلى هذا الأب الحقير وعشيقته، أنتِ أقوة منهم جميعًا .... تذكري هذا دائمًا

أنهيتُ الحديث ببسمة داعمة جعلتها تهدأ وتتوّقف عن البُكاء رويدًا، وحتى تهدأ تمامًا عن البُكاء سألتها بلكنة مرحة:

-هذه عشيقة والدِك ... ماذا كان اسمها أنا لا أتذكر

ادعيتُ النسيان رغم أنها لم تذكُر اسمها أبدًا، وما كان منها سوى كلماتٍ باهتة متُقطعة أجابتني بهم:

-فرانشيسكا

قطّبتُ حاجباي وأنا أدّعي التعجب بقولي:

-حقًا، أهذا هو اسمها ... ظننته اسم نوعٍ من الحشرات

خرجت من جوفها قهقهة مكبوتة طغت على حُزنها وأشعرتني بالانتصار، فهذا ما آردته من البداية، أردتها أن تترك هموم الحياة جانبًا وتواصل الطريق دون الالتفات إلى ما ينغص عليها حياتها.

ومن بعدها واصلنا الحديث والمزاح حتى أخرجتها تمامًا من غُمرة ضيقها واستطعنا النوم في هذه الليلة العصيبة.....

27يونيو 2015 لا مارية / باريس : فرنسا

مرّ أسبوعٌ على بقائنا بمنزل رازي الكبير، ولا أنكر حُسن ضيافتهم لنا رغم كوننا غُرباء ومطلبون للعدالة، فكانت والدته دائمًا ما تتحدث بالعربية المغربية وأنا أقف أمامه أتابعها ببلاهة وجهل، مُحزنٌ حقًا أن نضحى جميعنا من الدول الناطقة بالعربية ولا نستطيع فهم بعضنا.

علّمتني والدة رازي بعض الكلمات التي تستخدمها دائمًا أثناء بقاءنا معها، ككلمة " طبسيل " التي تعني صحن، وكلمة " دغية " بمعنى بسُرعة، وكلمة " مزروب " التي تعني على عُجالة، ناهيك عن كلمة " بزاف " التي تقولها دائمًا وأظن أنها تعني

بالمصري كلمة " أوي " وكلمة " زوينة " والتي على ما اعتقد تعني شيءُ جميلٌ أو رائع.

أما عن والد رازي، فكان رجلًا صارمًا قليل الكلام وعندما يتحدث، فهو لا يتخلّى عن عبريته الطليقة، نادرًا ما تجد يهوديًا لا يُتقن العبرية.

سيذهب أرضوان لإحضار التأشيرات اليوم، ففي الصباح، من المُفترض أن يمرّ علينا كي يساعدنا على التجهُز ويخبرنا بعض التعليمات حتى نتجنب الوقوع في أيدي الشُرطة.

وكُنت في ذاك الصباح أبحث عن المناشف الصحية ولا أستطيع أن أجدها في أي مكانٍ هنا، كما أنني تجرأتُ وسألت آنابيا لأجدها تُخبرني أن ما معها قد نفد، الآن يجب علي الذهاب إلى المتجر للضرورة القسوى، والأصعب من ذلك، أنني لا أعرف كيف حتى.

اجتمعنا في البهو مُنتظرين أرضوان حتى يأتي ويُخبرنا المُستجدات، كُنت أجلس على الأريكة أفكر في ورطتني التي قطعني منها جورج وهو يقترب من أذني هامسًا:

-بقولِك يا إيما .... متعرفيش كدة أي سكة أدخل بيها على البت آنابيا .... دا أنا عمال ألمحلها من ساعة ما جينا ومفيش فايدة

ألم يكن من الأجدر أن أطلب المساعدة من حجرة صماء أفضل من ابن خالتي الذي لا يُفكر سوى بالارتباط ؟

-تصدق يلا إنت معندكش دم .... أنا متهمة في جريمة قتل ومش عارفة هخرج منها ولا لأ وإنت بتفكر تشقط آنابيا ازاي

تهكم برده علي وهو يُعيد جذعه للوراء قليلًا:

-تصدقي إني غلطان ... ده أنا كُنت ناوي اعزمِك على فرحنا

كِدت أرُد على حديثه لكننا وجدنا أرضوان يدلف الحُجرة بكنزة زيتية أسفلها سروال بُنيٌ باهتٌ عفا عليه الزمن، توقفت أقدامه بمُنتصف الحُجرة ليرمينا بنظراتٍ جامدة لا تختلف عن نظراته الباردة التي أعرفها، تلك النظرات الشبيهة بنظرات مُسلم، نظراتٌ من يحمل هم العالم على عاتقه ويُفضل الكُتمان عن التصريح بما يجيش به صدره.

-التأشيرات ستأتي بعد ساعتين .... إبقوا هنا حتى آتي بهم

قطعتُ حديثه بسبابتي المرفوعة وصوٌتي المُحرج:

-أحتاج الذهاب إلى المتجر ... لأمرٍ ضروري

أخفضتُ صوٌتي في نهاية الحديث وأنا أتجنب النظر لهم، ماذا إن سألني ما الذي أريده من المِتجر ؟ وقتها سأتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني.

-لا يجب التحرُك من هنا .... الوضع خطير، والشرطة لا تزال تبحث عنكما

كانت الدموع على وشك الانهمار على وجنتي حسرة على حالي، لكن آنابيا رمتني بنظرة مطمئنة رفعت بعدها آصابعها لتقول:

-لا بأس ... أنا سآتي معك، وسأبتاع ما تُريده إيمان

أومأ أرضوان بموافقة بينما كانت الابتسامة الهادئة تلوح على وجهي وأنا أريد أن أشكر آنابيا على حركتها.

كُنا على وشك التفُرق ومعاودة الجلوس في هدوءٍ حتى تأتي التأشيرات، لكننا وجدنا رازي يقتحم الحجرة بوجهٍ مذعورٍ وألوان الخوف والقلق طاغية عليه:

-يا رفاق

التفتنا لنواجهه بنظراتٍ حائرة لنجده يقول بأنفاسٍ لاهثة وهو يقف على حافة الباب:

-يجب أن ترحلوا .... الشُرطة في طريقها إلى هنا.....

الفصل الحادي عشر (أردتُ أن أثبت برائتي فأثبتُ حماقتي)

((إيمان))

27يونيو 2015   باريس : فرنسا

لماذا تعتقد الحياة أنني فتاةٌ قوية تتحمل الصِعاب والمشاق ؟ أقسم أنني أهمُ بالصُراخ والاستنجاد عندما يرتطم إصبع قدمي الصغير بالمنضدة، أنا مجرد فتاةٍ بسيطة لا تعرف شيئًا عن الكد والتعب، والداي سوٌيانِ ولم يجعلاني أعاني طوال حياتي، لم أعاني سوى هنا، في هذا المكان، وهذا المُجتمع، والأصعب من ذلك، أنني لا أستطيع التراجع، ليس فقط من أجل ابنتي، بل لأنني في مُنتصف الطريق، أمامي أعاصيرٌ رعدية قد تُصيبني بالدمار، وخلفي نيرانٌ متأججة ستُصيبني بالاحتراق إن اقتربت منها، لا يوجد أمامي سوى التهلكة، أعتقد أنني سأتوقف عن الصياح والشكوى لأن ذلك لم يعُد يُجدي، إن لم أنجح بالهرب من عناصر الشُرطة سيتم ترحيلي وإعدامي على جريمة لم أقترفها!!

-هيا بسرعة .. تحركوا

قالها رازي بصوٌتٍ مُنخفض وهو يُشير لنا حتى نخرج من الباب الخلفي لمنزله الكبير نسبيًا، كان جورج أول الهاربين حتى يؤمٌن لنا الطريق، ومن بعده آنابيا وأنا، وبنهاية الصف كان مُسلم.

-سأتكفل بأمر حقائبكم وأضعها بسيارتي.... ولا تقلقوا، لن أُخبر الشُرطة أنكم كُنتم هنا

أغلق رازي الباب بعد كلماته المُطمئنة لنهرول بعدها بأقصى ما لدينا مُتخطيين الحشائش الذابلة والرمال الهجيرة، كان أرضوان ينتظرنا بسيارته وعلى وجهه إمارات الثبات، فتح مُسلم الباب المجاور للسائق ليجلس بجوار أرضوان بينما جلس ثلاثتنا بالمقاعد الخلفية، اخترقت آذاننا صوٌت سيارات الشُرطة وهي تقترب أكثر من المنزل ويتسارع معها نبضات قلوبنا داعيين بقرارة نفسنا آلا يرانا أحدٌ ونحن نلوذ بالفرار.

آدار أرضوان مُحرك السيارة وتحرّك بها بسُرعة وانسيابية ساعدته على التخفي من الشُرطة بين المارة.

-سأذهب لإحضار التأشيرات والتذاكر... علينا أن نجد مكانًا لكم

-لكنني أريد الذهاب إلى المِتجر

قُلتها باعتراضٍ ونبرة مُندفعة، أعلم أن هذا لا وقت له أبدًا، لكنني فتاةٌ ولن أتحمّل البقاء هكذا، كُنت أخشى أن يعترض أرضوان على طلبي ويُجبرني على البقاء حتى ينكشف أمري وأصاب بالحرج، لكن مُسلم تدخل بالأمر متفوّهًا:

-هناك مركزٌ تجاريٌ قريبٌ من هنا .... يمكننا الذهاب إليه، والتخفي بين البشر

ثم التفت نحوي ليُحادثني بنبرة مُطمئنة جعلت قطرات العرق تنساب على جبهتي وتجعلني أتمنى الاختفاء بأقصى سُرعة.

-متقلقيش .... في سوبر ماركت هناك

لماذا يبدو لي وكأنه يعرف ما أريده، إذا كان بالفعل على علمٍ بما أريد، فأنا سأتحاشى النظر لعينيه حتى نرحل من هنا.

بعد فترة قصيرة، وافق أرضوان على اقتراح مُسلم وتوّقف بسيارته أمام المركز التجاري الذي يُعد من أكبر المراكز التجارية بفرنسا، أوصانا بعدم الحديث مع أحد ومحاولة تجنب النظر لأي شخصٍ نراه، حتى أنني أُجبرت على تغطية وجهي بنصف حِجابي حتى أستطيع التخفي جيدًا وأنا أبتاع ما أريده.....

كان المركز كبيرٌ لدرجة تجعلنا نعتقد أنه مُجمع سكني، يحتوي على العديد من المتاجر الصغيرة المُتخصصة في بيع ما تبتغيه من أغراض، فكان هناك عدة متاجر

للعطور، ومتاجر للملابس، وكذلك للمُستلزمات المنزلية والخمور والألعاب وحتى الكُتب، ناهيك عن المقاهي والمطاعم التي تُغرق الأركان.

تجاهلنا جميع هذه المتاجر واتجهنا فورًا إلى السوق المركزي، كان يرافقني مُسلم مُدعيًا أنه يقوم بحمايتي حالما يذهب جورج مع آنابيا لشراء ثيابٍ جديدة تساعدنا على التخفي أثناء السفر.

مررتُ بعيناي بين الوجبات السريعة ومُنتجات العناية بالبشرة والجسد، وجميع ما تحتاجه المرأة، وللعجب، كان مُسلم يقف بجواري يتفحص مُنتجات العناية جيدًا ثم يضعها مكانها، أخبرني حتى أنه كان يُدير متجرًا لهذه المُنتجات وغيرها من المنتجات النسائية، فكان يحادثني عن أفضل مُنتجات العناية بالبشرة وأي منها مناسبٌ لبشرتي.

كان حديثنا في إطار الوقت الذي سيبقى فيه أرضوان بعيدًا عنا_ ليبتاع التذاكر_ ومن ثم يُرسل لنا إشارته حتى نترك المركز وننطلق من هنا، ساعاتٌ قليلة فقط هي ما تفصلني عن الرحيل وإنقاذ ابنتي.

ربما لا يجدر بي الإدلاء بهذا الحديث حتى لا تُعركلنا مُصيبة جديدة، فيكفي ما حدث حتى الآن.

امسكتُ بالمناشف الصحية وبعض من مُنتجات العناية بالبشرة مع بعض الوجبات السريعة التي استخدمتها حتى أخفي ما جِئت لأجله، تقدمتُ بعربة التسوّق نحو مُسلم الذي لم يتوّقف عن تفحُص المنتجات ولا يُعيرني انتباهًا حتى أبتاع ما أريده.

-خلصت، يلا نروح لجورج وآنابيا

رأيتُ أنه من الأفضل أن نبقى سوّيًا وألا نفترق، فكثرة العدد أفضل في حالتنا، وجدتُ مُسلم يوميء باستحسانٍ لفكرتي ويضع عُلبة تفتيح البشرة على الطاولة ثم يُشير لي بعلاماتٍ جافة حتى ندفع ثمن ما اشتريناه، دائمًا ما يرميني بنظراتٍ جافة، أنا لا أذكر حتى أنني رأيته يبتسم منذ تعرفنا، حسنًا، معه حق، هو لم يجد سوى المصائب مُنذ اقتحامه لحياتي، فكيف له أن يبتسم حتى ؟

وفجأة .... انتفض جسدي مرة واحدة إثر هذا الصوّت الهاجر الذي صدح بالمكان وجعل الجميع يُطلق صرخاتٍ مُستنجدة، فلم يكن هذا الصوّت سوى صوّت طلقاتٍ نارية بدأ يتردد صديدها في الأرجاء وتبعث الرهبة في النفوس.

تهُشم زُجاج السوق المركزي وازدادت أصوات الصرخات والعويل، أخفيتُ جذعي لأسفل وأنا أغطي رأسي بكلتا يداي وأترك عربة التسوّق.

-هو في إيه ؟

قُلتها بذعرٍ وأنا أركع على الأرض بينما يقف مُسلم ورائي ثابتًا كما عهدته، يتلفت حوله في كل مكانٍ متفوّهًا:

-لازم نطلع من هنا ... ده سطو مُسلح!!

حقًا، ألا ترى هذه الحياة أنني في القاع ؟ لم ألحق حتى النجاة من الورطة الأولى حتى تأتيني ورطة ثانية.

-بسرعة يا إيمـــان

هتف مُسلم بهذه الكلمات وهو ينتشلني عنوة عن الأرض مع زيادة حدة الطلقات النارية وظهور حفنة من المُلثمين يوجهون أسلحتهم نحوّنا ويأمروننا بأصواتهم الغليظة أن نلتزم الصمت وإلا اخترقت رصاصتهم أجسادنا كما فعلوا مع بعض الضحايا.

أغلقتُ عيناي وبات جسدي أشبه بالفرخ المبتل في ليلة شديدة البرودة، باتت دموعي على وشك الانهمار، وصياحي على شفة جرفة من الانطلاق من جوفي وفضحي أمام الجميع، حتى أنني لم أكترث لمُسلم وهو يحاول جذبي من سُترتي الفضفاضة وهتافه بي بأن أتحرك بسرعة.

فتحت عيني نصف فتحة لألمح جسد سيدة بأوائل العشرين ملقية على الأرض والدماء تنهمر من بطنها المثقوبة، وكانت جُثتها تقبع فوق جُثة رجلٌ ثلاثيني ثُقبت رأسه

وانهمرت دمائه على الأرضية، ما إن رأيت هذا المشهد حتى دعوّت بقرارة نفسي ألا أتقيأ وأحافظ على ثباتي حتى ألوذ بالفرار، هذه ليست أول جُثة آراها، لكنها أول جُثة آراها وأنا في خِضم المخاطر.

هروّل الجميع كالقطيع نحونا وهم لا يتوّقفون عن الصُراخ ولا تتوّقف الطلقات النارية عن الصدوح، تحوّل السوق إلى مجزرة بسبب كثرة الجُثث على الأرض والدماء التي لطخت الجُدران والأرضية، كان الوضع أشبه بكابوسٍ على أرض الواقع، أشبه بفيلمٍ سينمائيٍ كنت أشعر بالمُتعة حينما أشاهده، لكنني عندما عايشته، أصبح هذا الفيلم الممتع أشبه بأفلام الرُعب الواقعية.

تعركلت قدماي وارتطمت بالأرض بسبب مجموعة من المذعورين المهرولين ورائي حتى أوقعوني وبدأو بالسير على ظهري، وأنا أتألم في صمتٍ حتى انتشلني مُسلم بسرعة وبقي يدفعني حتى نخترق الطلقات، والعجيب أن ملامح الذعر لم تكن على وجهه أبدًا، بل كان يتصرّف بثباتٍ وكأنه معتادٌ على هذه المواقف.

-خلينا هنا عشان محدش يشوفنا .... لما كل حاجة تهدى هنخرج

قالها مُسلم بأنفاسٍ لاهثة من كثرة الركض ونظراتٍ مُطمئنة تلوح على وجهه، هذا بعد أن جذبني لنختبيء أسفل خزانة كبيرة تحتوي على أكياس المُقرمشات، وما كُنت أفكر به الآن هو جورج وآنابيا، ما الذي حدث لهما ؟ هل آصابتهما هذه الرصاصات ؟ هل لقيا مصرعهما ؟ ماذا سأقول لخالتي إن سألتني عنه ؟

كل تلك الأسئلة بدأت تجتاح ذهني وتجعلني أتوتر أكثر.

-جورج ... كلم جورج يا مُسلم أنا عايزة أطمّن عليه هو وآنابيا

طلبتها من مُسلم برجاءٍ ودموع على وشك الانهمار، فأنا فقدتُ هاتفي ولم يعُد بإمكاني مهاتفتهما والاطمئنان عليهما؛ آشار لي مُسلم حتى أهدأ وأخرج هاتفه حتى يتصل بهما، لكنها لحظاتٌ قليلة حتى أغلق الهاتف مُجددًا وعوالم اليأس تطغي وجهه، لم ينبس ببنت شفة لكنني استرفدت أن جورج لا يُجيب، وآنابيا ليس معها هاتفها، فهي تركته بمنزلها حتى لا يعثر عليها والدها.

زادت ارتجافة جسدي وبدأت ركبتاي تتحركان بتوّترٍ وخوفٍ بالغ، ليس خوّفًا علي، بل خوفًا على جورج وآنابيا اللذان لا أعرف مصيرهما الآن.

-إن شاء الله يبقو كويسين

قالها مُسلم بصوّتٍ هامسٍ وهو يجلس بجواري على الأرض وكانت قطرات العرق تتقاطر من خُصلات شعره كقطرات الندى، الإرهاق بادٍ على وجهه رغم نظراته المُطمئنة، لا أعرف حقًا لمَ يتحمل كل هذا من أجلي، لماذا أنا ؟ هذا السؤال سيظل يؤرقني حتى أعرف السبب وراء تصرفاته، هو حتى لا يعرفني جيدًا حتى يساعدني، ويقرر السفر معي لاستعادة ابنتي.

تلفت مُسلم حوله ما إن هدأت أصوّات النيران وبات السوق خاليًا إلا من الجُثث المتناثرة والدماء التي تفترش الأرضية، رفع جسده قليلًا ليرمق ما يحدث بالخارج ثم آعاده مُجددًا ناحيتي ليقول بصوّتٍ هامس:

-مفيش حد برة .... لازم نمشي قبل ما حد يشوفنا

أومأتُ رأسي إيجابًا لأجده يتلفت مُجددًا ثم يستعد للرحيل بقوله:

-غمُضي عنيكي عشان متخافيش .... وأنا إللي هوٌصلِك

قالها حتى يُهديء من روعي وحتى لا أفقد الوعي من كثرة الجُثث والدماء، أنا بالكاد شاهدتُ جثتين ولم أستطع مقاومة التقيؤ، فما بالك ببقية الجثث.

نفذتُ تعليماته عنوة وأغلقتُ عيناي بقوة لم أتوقف فيها عن الدعاء والاستنجاد،وكان هو يتشبث بمرفقي ويدفعني بروية خلفه وعيناه تتفحصان الأرضية من الحين والآخر حتى لا أدعس على أي من الجثث وأطلق صيحة مدوية تتسبب بكشفنا.

سِرنا بضعة خطواتٍ حتى كِدنا نقترب من بوابة الخروج، أو هذا ما كُنت أعتقده، لكنها ثوانٍ معدودة حتى وجدته يجذبني لأسفل بسرعة جعلت أنفاسي تتصاعد، اختبأنا مجددًا أسفل الطاولة الخاصة بأمين الصندوق، التي يتم وضع المنتجات بها حتى ندفع

ثمنها؛ هذا ما أكد لي أننا على شعرة واحدة من الخروج من السوق لولا هؤلاء الملثمين الذين يقفون على البوابة.

-هنخرج ازاي ؟

سألته بصوّتٍ مذعورٍ هامسٍ وأنا أتقوقس على نفسي أسفل الطاولة بجواره.

-هنشوف طريقة نخرج بيها

قالها بصوّتٍ يكاد يكون مسموعًا وهو يُشير لي بيده حتى ألتزم الصمت، وما هي إلا لحظاتٌ حتى وجدته يعاود الالتفات حول نفسه ثم يبدأ بالحبو على الأرض مُبتعدًا عني.

-خليكي هنا ... أنا عرفت هنخرج إزاي

أومأتُ رأسي إيجابًا وهو يقول لي هذه الكلمات، وبقيتُ مكاني أتابعه من بعيدٍ وهو يحبو على بُقع الدماء وبحركاتٍ هادئة لا تُصدر أي من الأصوات، كانت نبضات قلبي وقتها أسرع من ماكوكٍ فضائي، أخشى أن يراه الملثمون ويُطلقون الرصاص عليه، وقتها لن أسامح نفسي أبدًا، فأنا التي أجبرتهم على المجيء هنا.

توقف مُسلم عن الحبو أمام الجدار ليرتفع بجذعه لأعلى حيث مطفئة الحريق، حرّك يديه بهدوءٍ تامٍ وهو يرفع المطفأة ويُشير لي بعينيه أن أبتعد وأتجنب رؤية ما سيفعل، لكنني هذه المرة، لم أرضخ لأوامره بسبب فضولي الذي يدفعني لرؤية ما القادم.

خضعتُ له في باديء الأمر وأوهمته أنني لن أتابع تحركاته، وعندما تأكدتُ أنه يتحرك بطبيعية، عاودت النظر لما سيفعل حتى سقط فكي عدة أمتارٍ لأسفل.

فكان مُسلم يرفع المطفأة لأعلى ويهوي بها بقوة على واحدٍ من المُلثمين ضاربًا إياه ضربة حادة جعلته يغيب عن الوعي، لكنني أعتقد أنها لم تقتله، فما قتل هذا المُلثم لم تكن ضربه مُسلم، بل كانت تلك الرصاصة التي أطلقها زميله وهو يحاول قتل مُسلم

الذي احتمى بجسد المُلثم الذي أفقده وعيه وجعله يتلقى تلك الرصاصات نيابة عنه، كان يستخدمه كدرعٍ بشريٍ وهو يجُابه المُلثم الآخر ببسالة.

لم يتوّقف العِراك عند هذا الحد، وكُنت أتابع أنا بفاهٍ مفتوحٍ لا أصدق مهارة مُسلم بالعِراك، فكان يدفع جثة المُلثم على زميله ثم يركله ركلة قوية بقدمة ويهوي بجسده عليه ليُسدد له المزيد من اللكمات حتى أفقده وعيه، لا أعلم وقتها، لما استشعرتُ النظرات الغاضبة على وجه مُسلم وكأنه ينتقم من هذا المُلثم، لسببٍ لا أعرفه.

ما إن تأكد من فُقدانه للوعي حتى وثب عن الأرض يُهندب ملابسه ويحاول تحريك أصابعه التي جُرحت إثر العِراك، حرّك نظراته نحوي فابتعدتُ بسُرعة بنظراتي وتظاهرتُ بأنني لم آرى حركاته العنيفة، هذا الرجل الغامض يفاجئني في كل مرة.

كُنت أفكر في كيفية الكذب عليه واقناعه أنني لم آرى شيئًا وأنني التزمتُ بتعليماته، لكنني حتى لم ألحق التفكير في هذا الأمر بسبب صوّت الزناد الذي بات قريبًا للغاية من أذني، بل هو أمام عيناي!!

ابتلعتُ ريقي بهلع وازداد ارتجاف جسدي وأنا أستقبل كلمات هذا الملثم الذي لا أعرف من أين ظهر:

-تحركي بُسرعة ... وإلا أنهيت حياتكِ

التقطتُ أنفاسي بصعوبة وأنا أستجيب لأوامره وأتحرك بركبتاي حتى ابتعدتُ عن طاولة أمين الصندوق، رفعتُ يداي بخوفٍ وبقيتُ أتوّسله بعيناي حتى يتركني وشأني.

-ابتعد عنها

قالها مُسلم بوجومٍ وهو يهرول نحوي ويحاول تحدي المُلثم بنظراته السافرة وهذا السلاح الذي انتشله من مُلثمٍ آخر، لكنه لم يجد سوى الجمود واللامبالاة من الناحية الأخرى، وكُنت أنا بينهما أشعر بيدي هذا الحقير تلتف حول عُنقي وفوّهة السلاح مصوّبة على جمجمتي.

-إذا تحركت خطوة ... سأجعلك تأخذها جثة

قالها المُلثم الذي يحاوطني بتهديدٍ جعلني استسلم وأبدأ بالبكاء الصامت، لم يتحرك مُسلم قيد أنملة وبقي يتابع ما يحدث بنظراتٍ غاضبة حتى قبض المُلثم على عنقي بطريقة جعلتني أكاد أختنق، قرّب السلاح أكثر على جمجمتي مما جعل مُسلم يتحفز ويزداد ارتباكًا وعجزًا، بِت أتوّسله بعيناي حتى يرضخ للمُلثم ويستسلم، فهو إن تحرّك وأقبل على فعلِ جنوني، ستكون حتمًا نهايتي.

وبعد فترة من الصمت والنظرات المُهددة بينهما، استسلم مُسلم للأمر وأخفض جذعه على الأرض ليترك السلاح ثم يرفع جذعه مُجددًا بنظراته الجامدة ويداه المرفوعتان بالإرغام.

في هذه اللحظة، أطلق مُسلم تأوهًا مكتومًا بعد أن تلقى ركلة قوية من المُلثم الذي آفاق من غيبوبته المؤقتة وظهرت عيناه الخضراء ووجهه المليء بالكدمات، فمُسلم قد أزاح عنه القناع وهو يكيله باللكمات.

نظراتٌ الوعيد كانت تلوح على ذاك الرجل وهو يواصل ركل مُسلم بمعدته ووجهه وكأنه ينتقم، ومُسلم لا يتحرك ولا يدافع عن نفسه خشية من ذاك المُلثم الذي يُحيط برقبتي ويُهدده بعينيه.

أغلقتُ عيني بقوة حتى أمتنع عن رؤية مُسلم وهو يستقبل اللكمات باستسلام، أشعر بالخزي لعدم قُدرتي على الدفاع عن نفسي، أشعر بالخزي لتعرضه لهذا بسببي، جسدي بات رخوًا لا يستطيع التحرُك، ودموعي تنهمر أكثر بلا توّقف، أقسم أن هذه كانت من أصعب اللحظات التي تمُر علي.

توّقفت ركلات الرجل وتوّقفت أيضًا تأوهات مُسلم المكتومة، تجرأتُ وفتحتُ عيناي لأجده مُتسطحًا على الأرض يمسك معدته ويبصق الدماء من جوفه، بصق الرجل عليه وسبّه سبة بزيئة وهو يركله آخر ركلة قبل أن يرفعه عن الأرض ويجبره على التحرك رغم آلامه، وكُنت أتحرك أنا الأخرى مع ذاك المُلثم الذي يُحيطُ بعُنقي ويوّجه فوّهة السلاح على رأسي....

بقينا نتحرك باستسلامٍ وننسل الدرجات حتى توّقفنا أمام جمعٌ من الأشخاص، جميعهم يجلسون على الأرض واضعين أيديهم خلف رقبتهم والخوف يلوح على وجوههم، دفع الرجل جسد مُسلم على الأرض ليُعانقها ويحاول الاعتدال بصعوبة متجنبًا نظرات الجميع كما أخبرنا أرضوان، لكنني أشك أن يتعرف عليه أحدُ بعد أن تشوّهت ملامحه.

ألقاني المُلثم الآخر على الأرض بجواره وأجبرنا على وضع أيدينا خلف عنقنا وهو يسبنا ويُهددنا بالقتل ويأخذ الهواتف منا عنوة، حتى أنهم قاموا بتفتيشي ليتأكدوا أنني لا أحمل جوالات، كانت هناك سيدة تجلس ورائي تحاول تهدئة ابنتها الصغيرة ذات السبع سنوات والتي لم تتوّقف عن البكاء، كُنت أريد الالتفات ومساعدتها بتهدئة ابنتها لكنني خشيت أن ينكشف أمري وتُصبح الكارثة ضعفين.

-اجعليها تصمت وإلا فجرتُ رأسها

صاح بها واحدُ منهم بعد أن طفح كيله من بكاء تلك الصغيرة، وما إن أدلى تلك الكلمات حتى ازدادت ارتجافة والدتها وهي تُربت على ظهر ابنتها تحاول تهدئتها وهي بالأساس تبكي معها في صمت.

-إنت كويس ؟

سألت مُسلم بصوّتٍ خافتٍ حتى أطمئن عليه، فقد كان يجلس بجواري نصف غائبٌ عن الوعي بسبب كدماته، ومع ذلك أومأ برأسه إيجابًا حتى يُطمئنني أنه بخير، أعلم تمام العِلم أنه يكذب، فكيف نضحى بخيرٍ ونحن في هذا الوضع ؟

مرّ أكثر من ثلاث ساعاتٍ على بقائنا، حاولتُ بهم معالجة جروح مسلم باستخدام المحارم التي أضعها بحقيبة يدي الصغيرة، سكبت القليل من المياه على هذه المحارم وبدأتُ أمررها على جروحه بحركاتٍ رقيقة كان يوّقفها في كل مرة حينما يشعر بالألم، ظلّ يُخبرني أنه ليس بحاجة لمن يرعاه، خاصة في موّقفٍ كهذا.

يقف المُلثمون حولنا يحاوطوننا بأسلحتهم ويُهددوننا بين الفينة والأخرى، ومع تباطيء حركات الساعة، بدا الجميع على حافة من الجنون، الجميع يريد الهرب بأسرع ما يُمكن، بدأت الهمسات الهادئة تتناقل بيننا حتى زادت حِدة هذه الهمسات وعلِم الملثمون أننا لا نحترم قواعدهم؛ هذا ما جعل واحدٌ مُنهم يُطلق رصاصاتٍ عشوائية هتف معها بتهديد:

-ألم أقل لكم أن تصمتوا ؟

صمت الجميع بُرهة وازدادت ضربات قلبي وأنا أتابع ما يحدث وأتمنى أن ينتهي الأمر على خير، لكن، كيف سيأتي الخير ونحن الآن رهائن بسطوٍ مُسلح ؟

تجرأ واحدٌ منا أن يرفع جسده لأعلى بنفاد صبر ويتحدث مع هؤلاء الملثمون بحدة، كان يرتدي زي نادلٍ بأحد المطاعم وكان يبدو عليه الصرامة وهو يتحدث:

-ما الذي تُريدونه منا ؟... أتظنوننا نهابكم ؟

كانت كلماته الحادة كفيلة بجعل المُلثم يرميه بشراراتٍ من اللهب قبض معها على ياقة ملابسه متفوّهًا:

-ألم أقل أن تصمتوا ... أم أنك تُريد تجربة الموت

لم تؤثر تلك الكلمات على ذاك الرجل الشجاع الذي آراد الظهور بمظهر البطولة، فكان يدفع المُلثم بعيدًا عنه أثناء قوله:

-ابتعد عني أيها الحقير ... لا تؤثر بي هذه التهديدات

رفع المُلثم سلاحه وقام بتعميره وهو يوّجهه صوّب الرجل الشجاع الذي تحوّل إلى دجاجة مُبتلة مرتعدة حالما وجد فوهة السلاح على صدره.

-إذا هذه ستؤثر بك

أنهى المُلثم حديثه بطلقة نارية اخترقت صدر الرجل لتنفجر دمائه ويسقط صريعًا لتنتشر بعدها الصرخات المُرتعدة؛ ارتعدت فرائسي وأخفيتُ أذني وعيناي حتى لا أشاهد جُثة الرجل القريبة للغاية مني.

بقيت الصرخات لفترة وجيزة قطعها صوّت رصاصاتٍ أخرى يصحبها صوّتٌ مُهددٌ من مُلثمٍ آخر:

-اصمتوا ... إذا نطق أحدكم بكلمة فسيكون مصيره مثله

قالها بصوّتٍ أجشٍ حادٍ جعل الجميع يلوذ بالصمت إلا من صوّت بكاء هذه الصغيرة التي عاودت البكاء بحرقة خلف ظهري، وكانت والدتها تحاول ايقافها مجددًا بجسدٍ يرتعد من الخوف.

-ألم أقل أنني لا أريد أن اسمع صوّتًا

نبس هذا المُلثم الواثب أمامي مباشرة بهذه الكلمات الموجهة لتلك الطفلة الصغيرة ووالدتها التي بدأت تقول بتوّسل:

-أنا أسفة .... هي مجرد طفلة صغيرة

-وأنا قُلت أنني سأقتل من لا يتحلّى بالصمت

صرخ المُلثم بتلك الكلمات القاسية أمام الطفلة التي ازداد بكاءها وارتعادها وبدأت تختبيء بكنف والدتها، والدتها التي باتت الآن بموّقفٍ صعبٍ ولا تعرف ما الذي تفعله حتى تنقذ ابنتها.

-أرجوك ... هي لا زالت صغيرة

رفع المُلثم سلاحه مصوّبًا إياه على تلك الطفلة الباكية والتي أعتقدت أنها بللت سروالها من الخوف، خبأتها والدتها خلف ظهرها لكن المُلثم اصرٌ على تنفيذ وعيده

بتلك الصغيرة وبدأ يدفع والدتها عنوة حتى يستطيع تصوِّيب الرصاصة على رأس ابنتها.

تدفقت الدماء بعروقي بتلك اللحظة، تذكرِّت ابنتي التي أفعل ذلك من أجلها، وضعت صوِّرة ابنتي مكان هذه الصغيرة وعزمتُ على تخليصها من هذا الحقير، لن أقف متكتفة الأيدي وأنا آراه يقتل طفلة صغيرة.

وجدتُ جسدي يندفع تلقائيًا على ظهر هذا المُلثم لأدفعه بعيدًا، كان الغضب هو ما يُحركني في تلك اللحظة، غضب أمٍ تخشى أن يحدث هذا لصغارها، وجدتني أنقض عليه وأضربه ضرباتٍ عشوائية استطاعت اسقاط سلاحه، لكنه مع ذلك كان أقوة مني.

دفعني بقوة لأرتطم بجسدي على الأرض ليثب مُسلم ويبدأ هو الآخر بالانقضاض على ذاك الحقير، انتقل بعدها العراك ليضحى بين مُسلم الذي يدفع يد المُلثم والذي بدوِّره يصد دفعاته بالجهة المقابلة.

انتهزتُ الأمر وأمرت السيدة وابنتها بالرحيل وأنا أخبيء وجهي بنصف الحِجاب حتى لا ينكشف أمري، لكن السيدة لم تتحرك وبقيت تطالعني بحيرة ونظراتٍ مرتبكة، يبدو أنها ترجمت إشاراتي بطريقة خاطئة.

زاد الهرج والمرج وقتها واستطاع مُسلم أن ينتشل السلاح الخاص بذاك المُلثم وبدأ يُسدد به طلقاتٍ نارية، كان يُريدها أن تُصيب الملثمين ويتخلص منهم، لكن يبدو أن للقدر رأي آخر.

انكشفت ملامح مُسلم وقتها بل وملامحي أيضًا، فكُنت أنا الأخرى أركل واحدًا من الملثمين وأنتشل سلاحه لأدافع به عن ذاتي، لكن يبدو أن مدفاعتي عن ذاتي، تم ترجمتها بطريقة خاطئة:

-إنهما الإرهابيان .... إهربوا بسرعـــة

صرخ بها واحدٌ من الرهائن بعد أن انكشف أمرنا وظن الجميع أننا نتخلص من الملثمين حتى نقتلهم نحن.

زادت الصرخات مُجددًا وكان المُلثمون يُطلقون رصاصتهم على الجميع ومُسلم أيضًا يحاول التخلص من الملثمين لكن بسبب تدهوُّر الأمر، اختلطت جميع الرصاصات ببعضها ولم يكن واضحًا من الذي يتخلص من الملثمين ومن الذي يتخلّص من الأبرياء، أشك أن الرهائن الآن يعتقدوننا فردًا من هذه العصابة وكنا نتخفى أسفل رداء البراءة حتى لا ينكشف أمرنا.

ألقيتُ السلاح على الأرض وبدأت قدماي تتحركان هربًا وفق ما قاله مُسلم، فهو أخبرني أن أنتهز الفُرصة وألوذ بالفرار حالما يؤمن الطريق لي، لا أعلم إن كان يستطيع حمل السلاح أم لا، لكن يبدو أنه يُطلق رصاصاتٍ عشوائية في أماكن بعيدة هدفها فقط تشتيت الملثمون، يخشى حتى أن يصوِّب عليهم حتى لا ترتد الرصاصة وتُصيب واحدًا من الأبرياء.

تصاعدت أنفاسي واغتابتني هالة من الرُعب والهلع أثناء ركضي، كان الجميع يصرخ ويُشير علي ومنهم من يختبيء ويُسجل تلك اللحظات التي ستجعله مشهورًا.

اختبأتُ في متجرٍ للعطور أستند على الحائط وأنا ألتقط أنفاسي وأضع حقيبتي على الأرض، تساقطت قطرات العرق على وجنتي لأحاول تجفيفها وتشجيع نفسي بالصبر والجذع، بقي القليل فقط حتى أرحل، القليل فقط وأنجو من هذه التهلكة، هكذا طمأنتُ نفسي لأُخرج رأسي بعدها من الباب أحاول اكتشاف أي مخرج، كان مُسلم أمامي على بُعد أمتارٍ قليلة يختبيء خلف طاولة إحدى المقاهى العصرية وكان قد قلب الطاولة ليستخدمها كدرعًا.

لاحظتُ أيضًا هذا الهاتف المصوِّب نحوي ونحو مُسلم وكأننا المُلثمون وليس هُم، هذا ما جعلني أشعر بالضجر لوهلة لكنني أتدارك الأمر بعد فترة، وأنظر مُجددًا نحو مُسلم الذي كان يُقاتل ببسالة ويختبيء خلف الطاولة وكأنه في معركة، كان أشبه بالفارس المغوار وهو يُدافع عن بلدته ضد المُعتدين، نظراته الحادة جعلتني أنجذب تلقائيًا لبسالته ومحاولاته المستميتة للدفاع عن الجميع خاصة أنا، لم أنسى وقفته الدائمة بجواري رغم حداثة التعرف بي، لم أنسى حتى....

حسنًا، لماذا أفكر بهذا الآن ؟ يجب أن أعثر على طريقة أخرى للهرب.

أعدتُ نظراتي للأمام وكُنت على وشك التحرك خطوة لولا فوهة السلاح التي وجدتها تعترض طريقي.

-ارفعي يديكي لأعلى

قالها واحد من الملثمين بصوٌتٍ أجشٍ حادٍ آراد من خلاله أن أستسلم ويستخدمني لتهديد مُسلم حتى يتوّقف ويرضخ لهم، ربما بعدها يقومون بقتلنا والتخلص منا بعد ما فعلناه.

تسمٌرت مكاني بجسدٍ يرتعد ويدان ترتفعان ببطءٍ لأعلى، لم يتوقف المُلثم عن تهديدي بنظراته ولم تتوقف نبضات قلبي عن الخفقان، أعلم جيدًا أنني إن استسلمت لهم، ستكون النهاية، وإذا تحركت خطوة، ستكون النهاية كذلك، في جميع الأحوال أنا منهية، وعندما تتأزم الطُرق، يبقى الطريق الوحيد المُتاح، هو الطريق الذي كُنا نتجنبه دائمًا.

استجمعتُ قواي في تلك اللحظة، ودعوٌت الله أن يمنحني الشجاعة والثبات وأنا أطبق على شفتاي بحنقٍ وأرفع قدمي لأركل هذا المُلثم ركلة أسفل معدته جعلته يتقوٌس من الألم، بات وحشي الكامن بداخلي أمام الملأ، كُنت أتصرٌف بعدوانية لم أعهدها من قبل، فما يحدث الآن، بدد شعوري بالخوف والرهبة، وأيقظ وحشي الكاسر والرغبة بالنجاة، مهما كان الثمن!!

انقضتُ على المُلثم منتهزة تقوّسه وشعوره بالألم، طفقت أصرخ وأنا أضربه بهستيرية ضرباتٍ عشوائية نجحت بإسقاطه للسلاح ومحاولاته لصد هجماتي، غرزت أظافري بوجهه بعد أن كشفت عن قناعه وبقيتُ أركله بقدمي وأدفعه بكامل قوٌتي حتى....

انتهت دفعاتي باصطدامه بحافة الحائط اصطدامة قوية أدت إلى انفجار الدماء من رأسه وسقوطه على الأرض غائبًا عن الوعي.

وقفتُ أمام جسده ألهث من التعب ونظراتي المُشتعلة لازالت تكتنفني، وقتها كان هذا المُلثم أشبه بشارون، أشبه ببيناك، أشبه بجميع من سخر مني وآذاني، لم أكن يومًا تلك الفتاة حادة الطباع، لكن يبدو أن الحياة أجبرتني على خوّض هذا الطريق.

أخفضتُ جذعي لألتقط سلاحه وألتفتُ مجددًا وأنا أشعر وكأنني أحارب بمعركة دامية أمام جيشٍ عريضٍ، أعلم جيدًا أنني لن أستخدم هذا السلاح، فأنا لا أعرف حتى كيف يعمل، أردتُ فقط أن أحمله لأدافع به عن ذاتي وأنا أهرب من هنا.

التفتُ ورائي لأجد هذه الكاميرات لازالت مصوَّبة نحوي لكنها تتدثر داخل أحد المتاجر ويتعالى بعدها أصوات الصُراخ، نظراتي الجحيمية وثيابي التي لطختها قطراتُ الدماء، باتت تجعلني أشبه بسفاحٍ خطيرٍ، وبالنسبة لهم، أنا الآن إرهابية على وشك تفجير رؤوسهم.

-لماذا تنظرون لي هكذا ؟

صرخت بوجههم بغضبٍ بعد أن طفح كيلي، يجب أن يعلم العالم أنني لم أقتل بيناك، وأنني فتاةٌ بريئة تبحث عن ابنتها الوحيدة، وما كانت كلماتي الغاضبة سوى دافعًا لهم للاندثار مُجددًا والصراخ بهلع، خاصة مع أصوات الطلقات النارية التي يظنوننها منا.

-هل تظنونني إرهابية أيها الأغبياء ؟ ..... هل الحِجاب بالنسبة لكم قنُبلة ذرية ؟

صرخت مجددًا بهستيرية ولم أجد منهم سوى نظرات الرُعب والخوف، وما أضاف على هذه النظرات، هي كلمات تلك السيدة الخائفة المتوّسلة:

-أرجوكي اتركيننا وشأننا ... لا تأذيننا أرجوكي

زادت كلماتها من غضبي أكثر، هل تظنني بالفعل زعيمة هذه العصابة ؟

قبضت على السلاح الذي كُنت أحمله كما أطبقتُ على شفتاي بحنقٍ وأنا أواصل الصُراخ بنفاد صبر:

-كفى جهلًا أيها الأغبياء .... أنا لستُ إرهابية، أسمعتم ؟....

رفعتُ السلاح أكثر وأنا أواصل الصراخ بغضبٍ ونفاد صبرٍ من جهلهم، تعمّدتُ أيضًا الاتكاء على حروفي حتى يُدركوا أنني بريئة من هذه التُهمة المُشينة:

-أسمعتم ؟ .... أنا ... لستُ ... إرهابية...

ومع انتهاء كلماتي اكتشفت أنني ضغطتُ على الزناد بالخطأ؛ هربت رصاصة طائشة من سلاحي دون قصدٍ، رصاصة جعلتهم يلوذون بالهرب ويزيدون من صرخاتهم، رصاصة وجدت طريقها نحو متجرٍ للكحول؛ فآصابته وهشمُت زجاجات الجعة القابلة للاشتعال، فبعد هذه الرصاصة الخاطئة، انتشرت النيران .... في كل مكان!!

الفصل الثاني عشر (انتهت حلول الأرض)

((إيمان))

27يونيو 2015 باريس : فرنسا

كم غريبٌ هذا العالم ! يُمهد لنا الطريق للإجرام، ثم ينعتنا بالمجرمين...

نيرانٌ هاجرة انتقلت من متجر الخمور وبدأت تتغلغل رويدًا رويدًا حتى غمرت أركان المركز التجاري، انعكست النيران بعيناي وتصلُّبت في موضعي لأتحوّل إلى تمثالٍ من الشمع، صوّت الصُراخ لا يزال يضرب بأذني، رجال ونساءٌ تتلبسهم النيران ويتحركون في كل مكانٍ حتى يسقطوا على الأرض وتنتقل نيرانهم لأشخاصٍ غيرهم.

سقط السلاح سهوًا من بين يدي وتصاعدت أنفاسي، ارتجف بدني وكُنت على وشك فُقدان الوعي، لا أعرف حتى كيف سأنام بهنيئة بعد هذه الليلة.

ازدادت أنفاسي المتضاربة مع انتشار النيران في كل مكان، أكانت رصاصتي الطائشة سببًا بهذه الكارثة ؟ أنا حتى لم أقصد إطلاق النيران، أضحيتُ متأكدة الآن أنني في قائمة المُجرمين الأكثر خطرًا.

التصق جسدي بالحائط مع انتشار الأدخنة التي بدأت تُعيق تنفسي، أصوات سيارات الإطفاء بدأت تغمر المكان مع أصوات الشُرطة واستنجادات الجميع_ من بينهم المُلثمين_شعرتُ وكأنني عاجزة لا أفتعل سوى الكوارث، وليست هذه أية كارثة، بل هي كارثة أدت لوفاة العديد!!

كُنت على وشك البكاء والصراخ بأسفٍ لمَ تسببت به، لكنني أعلم جيدًا أن صُراخي لن يتم الاستماع له بين هذا الكم من الصراخات، خارت قواي وشعرتُ بالضعف والعجز يُكبلان حركتي، وميضٌ من الذكريات يمُر أمام عيني مُجددًا، ذكرياتٌ تجمع ما بيني وبين أبواي وأسرتنا الدافئة، ووحدتي في الغُربة، ثم حياتي مع آدم، وأخيرًا، اكتشافي لخداعه واختطافه لابنتي !! ابنتي التي أفعل ذلك من أجلها، التي عهدت على

تحمُل الويلات من أجل إنقاذها، لن أدع لليأس مجالًا حتى يُغرقني في وحله، لن أستسلم حتى ولو ارتكبت المزيد من الجرائم عن طريق الخطأ، المُهم هو استعادة ابنتي.

استجمعتُ قواي في تلك اللحظة، التقطُ حقيبتي عن الأرض وابتعدتُ بجسدي عن الحائط أبحث بعيناي عن مُسلم حتى نهرب من هُنا، وما جعلني في حالة من الصدمة_ بخلاف ما يحدث_ هو حالة مُسلم الغريبة.

-مُسلم ... يلا ندوّر على جورج وآنابيا ونهرب ... مُسلم

لم يكن ينصت لي ولا لمَ حوله، جسده يرتجف بطريقة هيستيرية، لطالما عهدت ثباته وقوة تحمُله، لكن الآن، كان كالطفل الصغير وهو يرتعد.

-ليان ... ليان...

كان يُردد هذا الاسم بصوّتٍ خافتٍ وأنفاسٍ تتصاعد، واصلتُ مناداته حتى ينتبه لي ولا زال في حالته الغريبة ودموعه التي بدأت تنهمر على وجنتيه، هوّى بجسده مرة واحدة على الأرض يضع يده على أذنه وعينيه وكأنه يحاول تجنب رؤية النيران، ولا زال يُردد اسم " ليان " بصوّتٍ مُنخفض.

-يا مُسلم يلا نمشي

صرختُ بوجهه وأنا أحني جسدي حتى يفيق من هذه الحالة، لكن ما حدث أن بكاءه ازداد حدة مع ارتجافته وترديده لهذا الاسم، أمسكتُ برسغه حتى أرفعه عن الأرض، لكنني أكتشف خوار جسده وتوّقفه عن الارتجاف، بل توّقفه حتى عن الحركة، ارتمى على الأرض مُغلقًا عينيه وغائبًا عن الوعي....!!

____

))جورج((

27يونيو 2015   باريس : فرنسا

أحيانًا تأتيك فُرصة من ذهب، وأحيانًا تأتيك مصيبة بلا سبب، وهكذا كانت حالتنا ونحن نختبيء بُحجرة تغيير الأواعي، نختبيء من الطلقات النارية وأصوّات الصُراخ.

كُنا في بدايةِ اليوم، نتجوّل بهدوءٍ داخل متجرٍ للأواعي، تتجوّل آنابيا بوجهها البراق بين الفساتين الرقيقة التي تناسب شعرها الذهبي، كانت مُترددة لا تعرف ما الذي يجب أن نبتاعه من الملابس، كيف سنختبيء من عناصر الشُرطة ونحن بطريقنا للمطار ؟

وأثناء تجوّلنا، استرفدتُ تفحُصها لهذا الرداء الوردي ذو النقوش الهادئة، رداءُ يصل حد الرُكبة ولا يلتصق بالجسد، لا أعتقد أنني رأيتُ آنابيا ترتدي ثياب فتياتٍ مُنذ تعرفتُ عليها، فملابسها عادية للغاية لا تختلف كثيرًا عن ملابس الرجال، رغم أنها ملكة السيدات، كذلك بعد حديثي واستدراجي لإيمان، أخبرتني أنها تعاني من بعض المُشكلات مع أبيها، أي أنها تحمل حُزنًا دفينًا كما أقول دائمًا، دائمًا ما أقول أن العين تفصح عمَ لا يُريد الشخص الإفصاح عنه، وكانت عيناها خير مثالٍ على ذلك، عينانٍ ذابلتان خاليتان من البهجة والحياة، ووجهٍ شاحبٍ يحمل هم العالم وما وراءه.

-ما رأيكِ بتجربته ؟

هكذا اقترحتُ عليها بنبرة لينة لعلي ألتقط لها بعض الصوّر بهذا الرداء وأريها كم هي فاتنة تنشر سحرها على العالم.

-هل معنا وقتٌ لذلك ؟

سألتني بشكٍ حتى لا نُضيع الوقت بارتداء الملابس دون شراءها، ذكرتني بما كُنت أفعله مع إيمان وجيراني، حيث كُنا نذهب لأغلى متاجر الثياب ونرتدي أغلى الملابس عندهم حتى نلتقط العديد من الصوّر ونقوم بتنزيلها على صفحات التواصل وكأننا عارضو أزياء، ولا ضيَر من العودة إلى تلك الذكريات مع هذه الفاتنة ذات الشعر الذهبي.

-نعم .... لدينا ما يكفي من الوقت

أومأت رأسها دون اعتراض وكُنت أعلم جيدًا أنها تتراقص من السعادة رغم محاولاتها لإخفاء الحقيقة، أخذت الرداء بعدها ودلفت حُجرة تبديل الأواعي وكُنت أنتظرها خلف الباب حتى تنتهي وأقوم بالتقاط الصور لها، لكنها ثوانٍ قليلة حتى دوّى صوّت الطلقات النارية في كل مكان يصحبها أصوات الصُراخ والاستنجاد.

فتحت آنابيا باب الحُجرة وملامح الذعر تنطلي على وجهها، وبحركة سريعة مني، دفعتها لداخل الحُجرة حتى نختبيء من ذاك المُلثم الذي يُطلق رصاصاتٍ طائشة أدت لوفاة العديد من الأبرياء.

-ما الذي يحدث ؟

قالتها آنابيا بصوّتٍ باكٍ مذعورٍ فوّضعت إصبعي على مُنتصف شفتاي حتى أهديء من روعها وأطمئنها أنني سأقوم بحمايتها.

شعرنا بأصواتٍ أقدامٍ تقترب من الحجرة التي نختبيء بها؛ مددتُ ذراعي أمامها كي أعيدها للوراء حتى التصق جسدها بالحائط خلف الباب، وكُنت أنا بجوارها لأ أنكر أنني كُنت أرتعد مثلها، بل وربما بللت سروالي وأنا لا أشعر، لكنني مع ذلك حاولتُ المحافظة على ثباتي حتى أستطيع تهدئتها.

تصاعدت أنفاسي وتساقطت قطرات العرق على جبهتي، الهواء قليلُ في تلك الحُجرة، خاصة مع اضطراب أنفاسنا.

انفتح الباب على مصراعيه وظهر ظلُ لسلاحِ كبيرٍ أعتقد أنه بارودة، مددتُ ذراعي أمامها لأقوم بحمايتها وأحاول تهدئتها بعيناي حتى لا تصرخ وتفضح أمرنا، أكاد أتيقن أن دموعها تنهمر على وجنتيها بصمت.

-لا يوجد أحدٌ هنا

قالها المُلثم بعد أن غفل عن رؤيتنا وترك الباب مفتوحًا ليرحل بعدها عن حُجرة تبديل الأواعي.

حاولتُ التقاط ما تبقى من أنفاسي في تلك اللحظة وحاولتُ أيضًا تجفيف قطرات العرق التي بدأت تصل لعيناي، أخرجتُ نصف رأسي عن الحُجرة لأراقب الطريق، لكنني عُدت للداخل ما إن وجدتُ حفنة من الملثمين يتجوُلون بأسلحتهم بين الجُثث والدماء المتناثرة!!

عُدت بجسدي مرة واحدة أضع يدي على صدري لا أكاد أحصي عدد نبضات قلبي المتسارعة.

-ماذا سنفعل ؟

سألت آنابيا بصوّتٍ باكٍ وكُنت على وشك البكاء معها، لكنني ربتُ على كتفها متفوّهًا بصوّتٍ هامسٍ مرتجف:

-سنبقى هنا حتى يرحلوا...

ومُنذ هذه اللحظة ونحن نختبيء داخل الحُجرة نضم ركبتينا نحو صدغنا كالجنين في بطن أمه، كنا نخشي أن يتم فتح الباب وينكشف أمرنا، لذلك لازمنا الالتصاق بالحائط خلف الباب وأنا لا أتوّقف عن الدعاء والتمتمتة ببعض الصلوات.

بقينا لساعة كاملة في حالة من الصمت والصدمة، وبعد ساعة، مدتُ يدي لألتقط كفها البارد وأحاول تهدئة ارتجافة جسدها بكلماتي الرقيقة:

-لا تقلقي ... سنرحل بسلام

انهمرت دموعها أكثر بعد كلامتي الرقيقة وكانت تقول بين شهقاتها:

-أنا خائفة

حرّكتُ يداي عن آناملها وبدأتُ أجفف دمعاتها بحركاتٍ رقيقة وأنا أمعن التركيز على عينيها الباكية حتى تستشف نبرتي المُشجعة:

-تمسكي بي ... أعدكِ أنني لن أترك يدكِ أبدًا ... سأبذل ما بوٌسعي حتى ترحلي من هنا بآمان .... أنا هنا لحمايتك

كانت كلماتي صادقة نابعة من فؤادي رغم يقيني بجهلي التام عن كيفية الدفاع عنها، أنا حتى لا أعرف كيف سنستطيع الهرب، ورغم بقائها في حالة من الصمت، إلا أنني استرفدتُ أنها لا تثق بحديثي كامل الثقة، هي بالكاد تعرفني، كيف لها أن تثق بغريبٍ مثلي ؟ خاصة وأنا من دولة أخرى.

-أغلقي عيناكِ آنابيا، إغرقي في عالمٍ آخرٍ بعيدًا عن هذا العالم الموٌحش ... عالمٍ يُقدر جمالكِ ويُقدر روٌحكِ البريئة....

قُلتها بصوٌتٍ هامسٍ رقيقٍ وربتاتٌ هادئة على كتفها حتى نجحتُ أخيرًا بالتهدئة من روعها وجعلها تُغلق عينيها وتتناسى ما يحدث، أنا أيضًا حاولتُ تناسي الأمر والمحافظة على هدوئي وثباتي حتى أستطيع التفكير في طريقة للخلاص.

وبعد مرور أكثر من ثلاث ساعات، أخرجتُ هاتفي وحاولتُ الاتصال بمُسلم، تفاجأتُ من كم المكالمات التي حاولوا مهاتفتي من خلالها، ويبدو أنني لم أستمع لهم من كثرة الصُراخ.

تأكدتُ من وضع هاتفي على وضعية الطيران وأنا أقوم بالاتصال بمُسلم ولا أتلقى سوى رسالة " الهاتف المطلوب غير موجود بالخدمة " تلك الرسالة التي كُنت أستقبلها بصورة طبيعية، بات استقبالها الآن ثقيلٌ على النفس صعبٌ على المسامع.

رفعتُ جسدي عن الأرض، أشعر بعضلاتي الممزقة بسبب هذه الجلسة غير المُريحة، فتحتُ الباب فتحة بسيطة لأرمق ما يحدث بالخارج، ما إن تأكدتُ من عدم وجود أي من الملثمين في مجال رؤيتي حتى خرجتُ بجسدي أكثر من حُجرة الأواعي وطفقتُ أتحرُك بهدوءٍ وخطواتٍ لا يُسمع منها أي من الأصوات.

تلفتُ يمينًا ويسارًا بقلبٍ ينبض بهلع لكنه هدأ ما إن اكتشفت أنه لا يوجد أحد، لا يوجد سوى الدماء والجثث!!

توّعكت معدتي مرة واحدة لأجدني أستفرغ ما بجوفي إثر هذا المنظر، أتت آنابيا على صوّت استفراغي على الأرض وكانت تقول بصوّتٍ مذعور:

-جورج ... هل أنت بخير ؟

رفعتُ جذعي بعد تقيؤي لأرفع يدي بسُرعة صوّب عينيها حتى أمنعها من رؤية ما تسبب بوعكة في معدتي.

-أنا آسف ... لكن لا يجب أن تري ما حدث

تعجبت من تصرفي الغريب والذي زادها ذعرًا أثناء قولها:

-ما الأمر ؟ ... لماذا تضع يدك على عيني ؟

أدركتُ فورًا أن حديثي آصابها بالخوف؛ هذا ما جُعلني أبدّل نبرتي للتفاؤل وأنا أقول :

-لا يوجد داعِ للقلق ... لقد رحل المُلثمون .... يجب أن نهرب من هنا، قبل حدوث شيءٍ آخر

أومأت رأسها في صمت، ولا زلت أضع يدي على عينيها وأجذبها للتحرك معي دون النظر للجثث ولا حتى الدماء، ولا أنا كذلك، فلا يوجد بمعدتي شيءُ آخر حتى أستفرغه.

تنفستُ الصُعداء عندما تركت أقدامنا متجر الملابس نهائيًا، لم يبقى أمامنا سوى الخطوة الأصعب، وهي الهرب من المركز التجاري بأكمله.

هذه الخطوة التي لم يشأ القدر أن يجعلها هينة، فما إن أضحينا خارج المتجر حتى تعالت أصوات الصرخات، امتزج معها غماماتُ كثيفة وأدخنة تتصاعد كاللهب؛ تلفتُ برأسي في كل مكانٍ وأنا أتمنى ألا يتحقق ما أشك به، وكانت آنابيا تتشبث بقبضتي تحاول كبح ارتجافتها وهي تسأل:

-ما هذه الأدخنة ؟

لو يكن سؤالها سؤالًا بالمعنى الحرفي، فهي تعرف جيدًا ما الذي يحدث، تُريدني أن أكذب شكوكها وأخبرها أن سبب الأدخنة شيءُ آخر غير الذي طرأ على ذهنينا، لكنها وجدتني أتحرك معها خطوة للأمام ثم أمتد بجذعي نحو سور السُلم لأرى الكارثة التي تحدث بالأسفل.

-المركز يحترق!!

بصقت هذه الجملة بحدة وهرعت فورًا أنا وآنابيا، وكل ما أفكر به الآن، هي إيمان، يجب أن أهم بإنقاذها، هي وذاك الغريب الذي معها.

كانت آنابيا تهرول ورائي على السُلم حتى أطلقت صرخة مدوية عندما مرٌ من أمامنا رجلٌ يحترق حتى أصبح كشُعلة نارية، وكان صوٌت صُراخه واستنجاده يكاد يشق الجُدران.

أمسكتُ بآنابيا بروية وحثيتها على التحرك ورائي وعدم الانتباه إلى ما يحدث، كُنا نركض بين الحريق ونقفز فوق شُعلات اللهب، واصلنا الركض حتى توٌقفت آنابيا لتصرخ بهيسترية عندما سقطت شُعلة من النيران على قدمها.

تصاعدت ضربات قلبي وخلعت قميصي فورًا لأضعه على الحريق الضامر بركبتها، احترق قميصي لكننا نجحنا بإضمار النيران، رفعتها عن الأرض وكُنت على وشك حملها لأنها لن تستطيع السير بقدمها المحروقة، لكنها فاجئتني برفضها وإصرارها على السير حتى لا أفشل بحملها ونحترق كلينا، حتى أنها بدأت بالقفز على قدمٍ واحدة حتى تُسرع بخطاها ولا تسمح لي بحملها.

-جورج .... جورج....

بقي هذا الصوّت المستنجد بتردد بأذني وسط النيران الضامرة، هذا الصوّت الذي جعلني أتوقف عن السعال وأقاوم الحروق التي بدأت تنتشر على مرفقي وتُصيبني باللهب.

كان هذا صوّت إيمان المُستنجد، استطعتُ رؤيتها تختبيء خلف طاولة بأحد المقاهي، أحد المقاهي التي بدأت بالاحتراق.

لم أكترث للنيران وأنا أعدو ناحيتها وآنابيا تهرول أمامي حتى خارت قواها ولم تعد تتحمل الألم الذي يُصيبها.

-جورج .... ساعده بسرعة أبوس إيدك

قالتها إيمان بشهقاتٍ مُرتفعة وهي تُشير على جسد مُسلم المُتسطح أرضًا، يبدو أنه اختنق من النيران.

كان وجهه مليءٌ بالجروح حتى أنني شككت للحظة أنه مُسلم، وكانت إيمان بجواره تتحدث بكلماتٍ مُتقطعة غير مُرتبة لكنني استرفدتُ أنها تحاول أن تقول أن مُسلم غاب عن الوعي قبل أن تقترب منه النيران.

رفعتُ جسد مُسلم عن الأرض وكان ثقيلًا لدرجة قد تجعل ظهري يتحطم، لكنني تحاملت على حالي وأنا أركض به صوّب باب الخروج في نفس الوقت الذي أتت فيه الإطفاء وبدأت النيران تختفي ويحل محلها تلك الأدخنة المتصاعدة.

انتهزنا انشغال الإطفاء ومررنا من بينهم، كانت آنابيا تستند على إيمان، وأنا أسير أمامهم حاملًا مُسلم على ظهري، حالتنا أشبه بمن تم إخراجه من تحت منزلٍ مُتفجر، فكان الرماد يُلطخ وجوهنا والجروح تنتشر على سائر جسدنا.

تقدمت نحونا سيارة أرضوان كطوق نجاةٍ لنا بتلك المحنة، كان يُشير إلينا بيديه هو ورازي الذي يجلس على المقعد المجاور له، دلفت إيمان السيارة برفقة آنابيا من

الجهة الأخرى، بينما فتحتُ أنا باب السيارة لأضع جسد مُسلم الذي للعجب، كان يُتمتم بكلماتٍ هيستيرية غير مفهومة.

تحرك أرضوان بالسيارة بسرعة عندما استشعر وجود عناصر الشُرطة.

كان مُسلم يجلس بجواري وآنابيا بجواره من الجهة الأخرى، أما إيمان، فكانت تجلس بجوار النافذة تتابع ما يحدث لمُسلم بقلق، فقد زادت حالته هيستيرية وبدأ بالارتجاف والتعرّق والتمتمة بكلماتٍ غير مفهومة.

-ما به مُسلم ؟

سأل رازي بمزيجٍ من القلق والفضول لأجيبه أنا بثقة وبصفتي ماهرُ بما يخص علم النفس.

-هذا انهيارٌ عصبي .... سيفيق بعد فترة لا تقلقوا

لم أشأ إخبارهم أن هذه الأعراض تُشير إلى تعرضه لصدمة عصبية، لكن إيمان قالت أنه طوال فترة السطو كان يحافظ على ثباته وملامحه الجامدة، وعندما رأى الحريق بدأت حالته تزداد سوءًا، أنا متأكدٌ أنه يعاني من البيروفوبيا، وهي الخوف المبالغ به من النيران، لكن ما معنى هذه الأسماء التي يقولها، وتلك الكلمات الهيستيرية، أنا لا أعلم حقًا.

أعطانا أرضوان بعض المحارم وقنينة من المياه لنُرطب على جروحنا، أكاد أشعر أنني أحترق بالجحيم من كثرة النيران التي تلتهم جسدي، وكانت إيمان_ الأقل ضررًا من بيننا_ تساعد آنابيا على ترطيب جرح قدمها ثم تتفقد مُسلم وتحاول التخفيف من جروحه ومحاولة إعادته للواقع.

-يا رفاق أحضرنا التذاكر وكذلك التأشيرات

قالها رازي بصوّتٍ مُتلهفٍ وهو يمدٌ نحونا بعض الأوراق مصحوبة بأربع تذاكر، وهذا أفضل ما قيل مُنذ بداية ذاك اليوم الشاق، فأنا الآن أرغب بالرحيل من هنا بأية طريقة.

-وأخيرًا .... لنرحل من هنا بسرعة قبل أن أفتعل المزيد من الكوارث ... يكفي هذا الحريق

قالتها إيمان بمزيجِ من اللهفة والحسرة وهي تضع الأوراق داخل حقيبتها، واعترافها الصادم بفعلتها جعلني أنفجر بوجهها بلغة فرنسية غير مُصدقًا لهذا الاعتراف:

-ماذا !! ... أنتِ سبب هذا الحريق ؟!

اندفاعي بوجهها جعلها تخفض رأسها بخزي وكانت على وشك البكاء وهي تحاول التبرير بتوّسل:

-أقسم أنني لم أقصد .... كُنت أريد أن أخبرهم أنني بريئة، لكنني ضغطتُ على الزناد بالخطأ .... ولسوء حظي، آصابت الرصاصة متجرًا للخمور مما ساعد على انتشار النيران في كل مكان

أخفضت صوّتها تدريجيًا حتى تحوّل إلى البكاء والندم أثناء قولها:

-أقسم أنني لم أقصد ... لم أقصد فعل ذلك

انخرطت بالبكاء بعدها وكانت آنابيا تُربت على ظهرها بمواساة:

-لا بأس ... لقد مرٌ الأمر ... لا تُعذبي ضميرِك، أنتِ لم تتعمدي التسبب بهذا الحريق

أكدت إيمان على فعلتها وواصلت البكاء بضيقٍ عارم، فهي لن تنسى الأجساد المُحترقة بسبب حركتها الغبية، وأعلم جيدًا أنهم سيُطاردونها بكوابيسها لعدة أيامٍ مُقبلة.

لُذنا بالصمت بعدها لفترة وجيزة، كان بها أرضوان يحاول الإسراع بالقيادة حتى لا تفوتنا الطائرة، لكن فجأة، تفحص رازي المرآة الجانبية لتتسع حدقتيه بذهولٍ بدأ يُمتزج مع الهلع تدريجيًا.

-يا رفاق ... الشرطة ورائنا

طغي الارتباك علينا بعد حديثه لألتفت بعدها للوراء أنا وآنابيا ونتأكد مما قاله رازي، الشُرطة تتبعنا، يبدو أنها تتبعنا حتى مُنذ هربنا من ذاك المركز، ولذلك كان يحاول أرضوان أن يُسرع الخُطى، لكنها الآن، هي على شفا جرفة من إمساكنا، فكانت تُطلق الأبواق وتحاول إحاطتنا فيتحرك أرضوان يمينًا ويسارًا ليبتعد عن مسارهم.

-تشبثوا جيدًا...

قالها أرضوان بأمرٍ قبل أن يضغط على مُحرك السيارة لينطلق منها صوّت هاجرٌ ينُم عن اختراقه لمُعدل السُرعة الطبيعي، بدأ يخترق السيارات ويتحرك يمينًا ويسارًا بحدة كادت تجعلني أتقيأ مرة أخرى، ثبتُ جسد مُسلم على الأريكة وأنا أحاول التماسك، وكانت آنابيا تتمسك بإيمان جيدًا حتى لا ننقلب فوق بعضنا، فسيارة أرضوان باتت أشبه بصاروخٍ فضائي من شدة سُرعتها.

لم تتوقف الشُرطة عن اللحاق بنا حتى أدخلنا أرضوان طريقًا ضيُقًا يبتعد عن المطار، لكنه مناسبٌ لإبعادهم عنا، كان يعدو بالشوارع المتقاطعة بسرعة فارهة جعلت سيارات الشُرطة تصطدم بسيارات المارة وتتوقف عن اتباعنا.

تذكرتُ وقتها كم كُنت أبلهًا وأنا أشجع عناصر الشُرطة عندما تُطارد المجرمين، فأنا الآن، أرغب بانتصار المجرمين، أي نحن، يبدو أننا الأشرار بروايتنا الخاصة.

-أرضوان، انتبــه

صرخ رازي بتلك الجملة وهو يُشير على مجموعة من الغِزلان كانت تعبر الطريق، فقد كنا نتحرك على ممرٍ ضيقٍ ولم ننتبه لتلك العلامة الصفراء التي تُشير إلى تهدئة

السُرعة وعلامة غزالة تقفز كان يجب أن نسترفد منها أن الغزلان تمُر من هنا وعلينا التهدئة حتى ننتبه لهم.

ضغط أرضوان بقوة على بوق السيارة لكن قطيع الغزلان لم ينتهي من عبور الطريق، ولأن أرضوان لم يكن يريد دهسهم بسيارته؛ آدار عجلة القيادة إلى اليمين بطريقة حادة امتزجت مع سرعة السيارة وجعلتنا نُطلق صرخاتٍ مذعورة.

انقلبت السيارة مرة واحدة وكنا نرتج بداخلها ككرات البازلاء، لا أذكر ما حدث بعد ذلك سوى صوّت تهشُم الزجاج وانفتاح حقائب الآمان، التي لم تحمينا بالقدر الكافي، انقلبت السيارة أكثر من مرة على تلك الغابة وانقلبنا على بعضنا ونحن نحاول الدفاع عن ما بقي من حياتنا، توّقفت السيارة ببقعة نائية لا أعرف ما هي لأنني قد غِبت عن الوعي وقتها!!

سوادٌ خيَم على المكان من حولي، صوّت عظامي المتحطم لا أسمعه، بل أشعر به، أشعر أنني لا أستطيع التحرُك، وكأن أحدهم يتشبث بي ويُعيق حركتي، حاولتُ فتح عيناي بثقل لتضحى الرؤية ضبابية أمامي، كانت السخونة تجتاح جسدي خاصة جمجمتي التي شعرت أنها ستنفجر، وضعت يدي بوهنٍ على جبهتي لأتلمس هذا السائل اللزج الذي لم يكن سوى دمائي.

كانت شظايا الزجاج تثقب ذراعي الأيمن وذراعي الأيسر لا أستطيع تحريكه أبدًا، استجمعتُ ما بقي من قواي وحاولتُ التحُرك لأكتشف بعدها أنني أجلس رأسًا على عقب، كان مُسلم لا يزال في غيبوبته التي ربما زادت حدتها بسبب إصابته البالغة، والجميع في حالة غيابٍ تامٍ عن الوعي عداي.

-إيمان ... آنابيا .... أرضوان...

بقيتُ أناديهم بصوّتٍ واهنٍ بدا عليه الإعياء، وما إن يأستُ من سماعهم لندائي؛ رفعت يدي وبدأت بتحريكهم واحدًا تلو الآخر وأنا لا أتوُقف عن ندائهم بما تبقى لي من قوة.

-جورج ... مـ..ماذا حدث ؟

تنفستُ الصُعداء براحة بالغة عندما آفاقت آنابيا من غيبوبتها تتحسس الكدمة أسفل عينيها وتحاول الاعتدال بجلستها، كنت سأضحى أتعس إنسانٍ على هذا الأرض إذا كُنت الناجي الوحيد من تلك الحادثة، فأنا حتمًا لن أستطيع العودة وسأموت هنا بالبطيء!!

آفاق رازي هو الآخر وبدأ يُحرك ذراعيه ويتأوه في صمتٍ بسبب تلك الشظايا التي آحالت وجهه وذراعاه إلى كُتلة من الدماء، حتى أن ثيابه تمزقت وامتلأت بالأتربة كجميعنا.

لفحتني رائحة قوية داهمت حواسي وجعلت قلبي ينتفض، هذه الرائحة التي تزداد حدة، أعرفها جيدًا، هذه رائحة الـ.... الغاز!!

-آنابيا ... بسرعة أخرجي إيمان من هنا

قُلتها بذعرٍ وأنا أدفع آنابيا خارج السيارة وأحثها على الهرب بسرعة، وكانت هي ترمقني بحيرة وقلق وتدفع إيمان التي بدأت تفيق وتستجيب تلقائيًا لدفعات آنابيا المذعورة.

-إخرجوا بسرعة .... السيارة ستنفجر

صرخت بوجوههم بقلبٍ ينبض هلعًا وأنا أنتشل جسد مُسلم وأركل الباب بقدمي حتى أدفع جسدينا خارج السيارة، انتفض رازي هو الآخر وبدأ يدفع أرضوان_ الغائب عن الوعي_ نحو الباب الآخر كما فعلت آنابيا هي وإيمان التي لازالت متغيبة عن العالم.

تحاملتُ على ذاتي وأنا أجُر جسد مُسلم على الرمال الرطبة ذات الحشائش القليلة وألقيه على بُعد أمتارٍ من السيارة التي ازدادت حرارتها وازداد انسكاب غازها.

-هيا ... بسرعة

كان الذعر يملأ صوّتي وأنا أهرول بصعوبة نحوهم وأمسك بيد آنابيا التي لا تستطيع السير، بينما كان رازي يدفع جسد أرضوان حتى تركه بالقُرب من مُسلم.

ثانية ... إثنتان ... ثلاثة، وصوّت الانفجار كان يعادل انفجار قنبلة نووّية، ارتدت أجسادنا للوراء وتعالت ألسنة اللهب لتحترق بعدها السيارة وتتحوّل تدريجيًا إلى الرماد.

إرتميتُ على الأرض بإرهاقٍ أضع معه يدي على صدري أحاول التهدئة من روعي، نجونا اليوم من الموت ثلاثة مرات، مرة من السطو ومرة من الحريق، والآن من حادثة السيارة.

كان الجميع يحمد ربه على نجاته إلا إيمان التي وجدتها تهرول صوّب السيارة المُحترقة وكانت على وشك اختراقها بجنونٍ لولا هرولتي نحوها والإمساك بها بقوة جعلتها تصرخ بي:

-سيبني يا جورج

كانت تدفعني بعيدًا عنها وقطراتُ من الدموع تتجمع على أهدابها، حركاتها الهيستيرية دفعتني للصراخ بوجهها حتى تتوّقف:

-إهدي يا إيمان_

قطعت حديثي بصراخ حاوَلت معه التخلص من قبضتي بلا فائدة حتى بدأت دموعها بالانحدار وهي تصرخ:

-لا مشههدى .... التذاكر كانت في العربية!!

____

لا تتوقع أن الأمل الذي تُعطيك إياه الحياة هو أملٌ دائم، هذا الأمل يُشبه وجبة شهية تتناولها بعد تضوّرك جوعًا، تشعر بلذته في البداية، لكنه مع الأسف، لا يدوم، وربما أيضًا لا يكتمل.

ارتمت أجسادنا على الرمال لمدة تعادل الأربع ساعات، أجسادٌ مُحطمة لا تخلو من الجروح والكدمات، فكانت آنابيا تمسك قميصي المُحترق وتحاول تغطية الجرح الغائر بقدمها وهي لا تتوقف عن التأوه بصمت، وكُنت أنا بجوارها أحاول الترطيب من جروحها وتجفيف دمائي بملابسي، فلا يوجد مشفياتٌ بتلك المنطقة النائية.

ورازي بالجهة الأخرى يجاهد حتى ينتشل شظايا الزجاج العالقة بجسده، وأرضوان بجواره بعد أن آفاق من غيبوبته وبدأ يتحسس رأسه ويُغلق عينيه بإعياء، ناهيك عن دمائه التي انبثقت من أنفه وشفتيه، حتى أن أرضوان خلع سُترته الداخلية وربطها برأسه حتى يتوّقف الصُداع.

أما مُسلم، فلايزال غائبًا عن الوعي يتحسس أرضوان جبهته المجروحة وكدماته التي ازدادت ويُخبرنا أن حالته خطرة وربما تمتد غيبوبته قليلًا، خاصة وهو كان يعاني من صدمة عصبية قبل الحادث مباشرة، وفي النهاية إيمان، كانت تنام على الأرض بجسدها المُحطم ودموعها التي لم تتوّقف وهي تسب وتلعن حظها، فآخر أملٍ لنا في النجاة، احترق مع السيارة، فحقيبة إيمان كانت بالداخل ولم تأخذها معها، هي بالكاد استطاعت الهرب.

-لا تقلقوا يا رفاق .... شقيقتي تعلم الحقيقة، واتصلت بها حتى تأتي لنجدتنا...

قالها رازي ببعض الأمل الذي رفع معه هاتفه بعد أن تهشم زجاجه ومع ذلك لا يزال يعمل لأنه حديث الصيحة:

-هاتفي لا يزال على قيد الحياة

آعاد الهاتف بعدها إلى كنفه وعاود شعور الألم ينغص عضلاته ويجعله يستلقي على الحشائش بإرهاق، بقينا في حالة من الصمت لوهلة لم تتوّقف فيها إيمان عن البكاء

والعويل، واستطعتُ أنا الترطيب على جراح آنابيا التي ابتسمت لي بسمة ممتنة قالت معها:

-شُكرًا لك .... هل أنت طبيب ؟

سألتني بفضولٍ لأنني عالجتُ جرحها بمهارة، وهذا لأنني كُنت طفلًا مشاغبًا كثير الإصابات حتى حصلت على شهادة بالدكتوراة بالترطيب على الجروح.

-لا ... أنا مديرٌ للموارد البشرية، لكنني أستطيع معالجة القلوب

قُلتها ببسمة بلهاء على ثغري ونبرة هائمة جعلتها تبتسم بحرجٍ وأبتسم أنا الآخر لفهمها لمغازلتي غير المباشرة، هذه المغازلة جعلت صفعة قوية ترتطم برقبتي من الخلف يليها صوّت إيمان الغاضب المُتشنج:

-إتلم بدل ما اقوملك وأنا أصلًا من قادرة أتحرك

تلاشت بسمتي البلهاء المتغزلة ولُذت بالصمت وأنا ألتفت نحوهم لنجلس جميعنا في حلقة، خيَم الصمت والبؤس علينا وبتنا أشبه بالنساء المتطلقات، كلٌ منا شاردٌ في عالمٍ آخرٍ يحاول كُتمان ألمه بشتى الطرق حتى لا يصرخ من الوجع.

اغتابني الملل وأنا في تلك الجلسة وحاولتُ التسامر معهم بسؤالي الفضولي:

-هل تعتقدوا أننا يُمكن أن نرى شاحنة تأتي من هنا وتقوم بإنقاذنا ؟

لاقيت ضحكة متهكمة من أرضوان الذي آجابني بسُخرية:

-لا أعتقد .... إذا رآنا أحد، سيفر مذعورًا بعد أن يظننا أحياءً أموات (زومبي)

حسنًا، معه كامل الحق في ذلك، فهيئتنا تدل على من عاد من الموت توًّا، ونحن عُدنا من الموت ثلاث مرات!!

رفعت إيمان جسدها بعد أن آصابتها تلك النيمة بعدم الراحة، لا تزال عوالم الضيق والندم تُلطخ وجهها أثناء قولها المُعتذر:

-ما الذي سأفعله الآن ؟ ستُضاف تُهمة أخرى على جريمة القتل .... وأنا لم أقصد حتى الضغط على الزناد

ودون أن أدري وجدتُ بسمة ساخرة تُرتسم على ثغري وأنا أقول بتفاجؤٍ وفخر:

-العجيب أن المُلثمون تبادلوا العديد من الطلقات ولم يُفجروا المركز .... وأنتِ، من رصاصة طائشة واحدة، أضرمتِ النيران في كل مكان .... يا فتاة، يجب وضعكِ بموسوعة جينيس كأكثر فتاة تفتعل المصائب

تلقيتُ ضربة على كتفي زادت شعوري بالألم رغم أن الضربة ضعيفة، لكنها ضربتي بمكانٍ إصابتي مباشرة.

-هل تسخر مني أيها النذل ؟... ألا يكفي ما حدث لنا ؟

كُنت على وشك إجابتها لولا تلك الحركات التي أصدرها مُسلم أثناء فتحه لعينيه وتلفته في كل مكان، ساعده أرضوان على الوثوب وكنا جميعنا ننظر له ونتفحص حالته حتى سألت إيمان بقلق:

-هل أنت بخير ؟

لا زال الإعياء طاغ على مُسلم الذي أومأ رأسه في صمت وبدأت يده تتحسس الدماء المُنبثقة من رأسه، والذي يجعله يقول بخفوت:

-ماذا حدث ؟

انتفض بذعرٍ حالما التقطت عيناه تلك السيارة المُتفحمة التي كنا نركبها، فكان يقول بعينين جاحظتين لا تُصدق ما تراه:

-ماذا حدث للسيارة ؟

ربتُ على كتفه وأنا أجيبه بطمأنينة:

-لا تقلق .... السيارة انفجرت

وكانت كلماتي " المطمئنة " كفيلة بزيادة ذعره وتلفته حول نفسه متفوّهًا:

-ماذا !! ... هل أنتم بخير ؟

سألنا وهو يتلفت حوله ليتأكد أن لا أحد منا فارق الحياة، وكان أرضوان أول من آجابه بفخر:

-نعم، هذا بسبب حقائب الآمان التي حَمت أجسادنا

كُنت أوّد أن أخبره أن يتحدث بحسرة لأن حقائب الآمان التي حَمت أجسادنا_ إلى حدٍ ما_ لم تستطع حماية السيارة التي لم تعُد صالحة للاستعمال، ولا حتى كقطع غيار.

عُدنا إلى صمتنا ووجومنا مجددًا حتى نالت عوالم العبوس والإعياء منا، وفي تلك اللحظة، حاول رازي بثنا ببعض التفاؤل حتى بت مُتيقنًا أن وظيفته كانت مُدربٌ للتنمية البشرية:

-يا رفاق .... لا تبتئسوا .... دعونا ننظر إلى نصف الكوب الممتليء....

رفع رأسه حتى يواجهنا بنبرته المُحفزة:

-نحن نجونا من هذا الحادث المميت بدون أضرار

تفحص حالتنا المزرية وجروحنا التي جعلته يتراجع بالحديث مُغيرًا نبرته:

-أو ... إلى حدٍ ما

عاد مجددًا إلى نبرته المتفائلة ليواصل:

-لكننا نجونا ... وسنعاود المحاولة مجددًا

أسبلت إيمان بعينيها وهي تُجيبه بيأس:

-كيف سنحاول والتذاكر والتأشيرات قد أصبحت رمادًا

تدخل أرضوان بالحديث ليُعقب بجدية:

-يوجد طريقة أخرى لاستعادة التأشيرات والتذاكر .... لكنها ستأخذ أكثر من أسبوع، ربما عشرة أيامٍ أو أكثر ... كذلك...

توّقف عن الحديث ليواصل بنبرة يآسة:

-سنحتاج إلى المال

كان مُسلم يضُم ركبتيه بحركة دلُت على ضياعه وعجزه:

-لقد نفدت أموالي

أضفتُ على حديثه بتلك اللحظة وكلي حسرة من حالي، يبدو أن الطُرق تأزمت في تلك اللحظة:

-أنا أيضًا لم يتبقى معي أموال

قُلتها بصدق تذكرتُ معه أنني أنفقت جميع أموالي على التأشيرات والتذاكر التي احترقت، أي أننا الآن، سيتم تلقيبنا بالمشردين، وسيوضع هذا اللقب بجوار المجرمين وغيره من الألقاب.

ساد الصمت بعدها ولم يعُد لدينا أي ذرة من التفاؤل، لا يوجد أموال، ولا يوجد طريقة للرحيل من هنا، يبدو أننا سنضطر لتسليم الراية حتى يتم ترحيلنا على مصر ومحاكمتنا هناك، وربما يتم محاكمتنا هنا بالإعدام، أو بالسجن المؤبد.

بعد فترة من الصمت، تقدمت آنابيا بجذعها وحاولت الاعتدال بجلستها وقد لمحتُ في تلك اللحظة بعض التردد بعينيها، لكنها مع ذلك رفعت سبابتها حتى ننتبه لها وهي تقول بثقة:

-أنا لدي الحل

التفتت أعيننا نحوها بوميضٍ من الأمل، فما إن انتبهت إلى أعيننا المُحدقة بها حتى واصلت بثقة:

-أعرف طريقة لجلب المال.....

الفصل الثالث عشر (مكيَدة)

((آنابيا))

4يوليو 2015 ليون : فرنسا

أن تضعك الحياة في العديد من الكوارث، أفضل من أن تجعلك مُهمشًا من الجميع، وأنا قبل أن يقتحم حياتي هؤلاء الأشخاص، كُنت خاوية من الداخل والخارج، لم يكن لدي الرغبة في الحياة، آرى دائمًا أنني إذا لقيتُ حتفي، فلن يشعر العالم بذلك، حتى والدي، ربما سيحزن ليومٍ أو اثنين حتى يبدو كأبٍ حنونٍ أمام الصحافة، وأنا أعلم جيدًا أنه سيتناساني ويواصل الحياة بصورة طبيعية.

كانت كدماتنا وجروحنا كفيلة ببقاءنا على الفراش لأسابيع، لكن بسبب وضعنا، وصوّرنا التي أضحت في كل مكان_خاصة إيمان_أصبح من الصعب أن نبقى في المشفى الخاصة بإليانا، شقيقة رازي ذات الملامح العربية والصفات الودودة، لا أنكر أنها كانت ترمينا بازدراءٍ من الحين للآخر، ولولا رازي لكانت طردتنا من مشفاها ونحن أمام البوابة، وربما أيضًا أبلغت عنا القوات، لكنها من أجل رازي، أخفتنا لمدة أسبوع كاملٍ تحت الرعاية الطبية، خاصة مُسلم الذي تم نقله للعمليات بعد أن فقد وعيه مُجددًا وأخبرتنا إليانا أنه يعاني من النزيف الداخلي مع تلفٍ طفيفٍ في الأعصاب.

بالحديث عن هؤلاء الأشخاص الذين اقتحموا حياتي مرة واحدة، وبدلوها من حياةٍ باهتة إلى حياة مُلطخة بضروبٍ من الألوان، بداية من رازي، الذي يبدو للوهلة الأولى، يهوديًا مُتطرفًا، لكن الحقيقة أنه ناشطٌ للسلام ومُعلمٌ للأطفال بمدرسة يهودية، قبل أن يقع معنا في هذه المصائب، وهو بمثابة كُتلة التفاؤل التي تحاول إخراجنا من اليأس والاستسلام.

وأرضوان ذو الملامح الغامضة والنظرات الحادة التي تخفي وراءها آلامًا عدة، لا أعرف حقًا هذه الآلام، لكنني أعرف هذه النظرات، هذه هي نظراتي التي أخفي وراءها آلامي، وأرضوان رغم جموده إلى أنه العقل المُدبر لفريقنا، هو الذي يقوم بإرشادنا ويضع الخطط لنا، يتميَز بذكاءٍ حادٍ ومهارة فائقة باستخدام الحواسيب، أما

مُسلم، الذي شعرتُ بعدم الارتياح في أول مقابلة لنا، اتضح لي أنه يملك من الشهامة والمروءة ما يجعله مُقبلًا على إنقاذ العالم، دائمًا يسأل عن أحوالنا ويهتم لسلامنا أكثر من سلامته، كما أنه فائق الذكاء ويمتلك معلوماتٍ عديدة في جميع المجالات.

وإيمان، الطائشة الحنونة، والمثابرة أيضًا على الابتلاءات، أعجبني إصرارها على العثور على إبنتها رغم تأزم الموقف، وأعجبني أيضًا محاولاتها الدائمة لإخراجي من وحل أفكاري السوداوية، بت أشعر بالراحة في حديثي معها، وأتمنى أن تستمر صداقتنا للأبد، إذا نجونا من كل هذا، وهي بالنسبة للفريق، لا تمتلك من المقومات ما يكفي لتخطيها الصعاب، فهي بالأساس حلقة الوصل بيننا، بدونها لم نكن لنجتمع أبدًا ولم نكن لنمُر بكل هذا، انفطر قلبي من أجلها لأنها كانت تبكي طوال الأيام الماضية وتستيقظ في مُنتصف الليل بسبب كوابيسها وأصوات الصراخ والاستغاثات التي تسمعها منذ الحريق، الحريق الذي تسببت به.

آخرًا، يبقى شخصٌ واحدٌ لم أتحدث عنه، نعم، هو جورج، الأكثرغرابة بالفريق، لا أستطيع حتى معرفة ما يكنيه بداخله، فأحيانًا أجده حنونًا وأحيانًا شهمًا وأحيانًا أخرى يُلقي دعاباته ونكاته حتى ينتهي بإضحاكنا، فهو عُنصر المزاح والضحك بالفريق، وهو أيضًا خير أخ لإيمان، الترابط بينهما يجعلني أشعر بالغيرة لعدم امتلاكي أخٌ مثله، أريد أن أخبره أن يعاملني مثلما يعامل إيمان، يمزح معها ويشاكسها حتى تغضب، وفي نفس الوقت لا يتخلّى عنها أبدًا، ويعامل الجميع أيضًا بمرحٍ وعفوية، الجميع عداي، دائمًا يرميني بنظراتٍ حنونة وكلماتٍ رقيقة، يعاملني كطفلة صغيرة تتعطش للحنان، وأنا بالفعل كذلك، ويبدو أنه استنبط ذلك، لكنني لن أنكر أيضًا مغازلاته التي يرميها نحوي من الحين للآخر، والتي لا أفهم المقصد منها حتى الآن.

أنا الآن في صدد مهمة جديدة، فبعد أن استطعنا الهرب من المشفى والهرب أيضًا من باريس إلى ليون، أقف الآن أمام منزلٍ كبيرٍ شهد على معاناتي ذات يوم، أضع جبيرة على قدمي تُعيق حركتي بعض الشيء، ومُلصقٌ طبي على جبهتي ليُغطي جرحي الغائر الناجم عن تلك الحادثة، لكن المُلصق لم يُغطي الجرح البسيط أسفل عيني اليُسرى، فمن سيراني سيُدرك جيدًا أنني تعرضتُ لحادثٍ ما.

فُتح باب المنزل بعد أن طرقته وأمسكتُ بحقيبة سفري التي كانت داخل سيارة رازي، استجمعتُ أنفاسي وبدأت بالشهيق والزفير حتى ظهر والدي أمامي يرتدي

منامته البيتية ويرمقني بنصفٍ عينٍ وكأنه يظنٌ أنه لا يزال بالحُلم، فمن سيأتيه بالثانية بعد مُنتصف الليل!!

-آ... آنابيا!!

تزايدت ضربات قلبي ولم أعد أعلم ما هي الخطوة التالية، فقط أتنفس الصعداء وأمسك بحقيبتي وأنا أقترب نحوه متفوّهة بدرامية:

-أبي .... أنا...

أسبلتُ بعيناي لأسفل أحاول تذكر أي من الذكريات الحزينة حتى أستطيع البُكاء، وبالفعل نجحتُ في ذلك بعد أن تذكرتُ والدتي:

-أنا آسفة أبي ... آسفة ... لن أترك المنزل مُجددًا

تركتُ الحقيبة لأرتمي بأحضانه وأجهش بالبُكاء على صدره، وكان هو كالصنم وهو يتركني لأفرغ حُزني وحسرتي حتى وجدته يرفع يديه بآلية ويبدأ بالتربيت على ظهري.

-ما بكِ بُنيتي ؟.... ما حالتكِ هذه ؟

ابتعدتُ عنه لأكفكف دموعي وأواصل الحديث:

-تعرضتُ للذُل والإهانة وأنا بعيدة عنك .... كُنت خاطئة حينما فكرتُ في الهرب....

وضعتُ يدي على مرفقه لأرميه بنظراتٍ متوّسلة قُلت معها:

-سامحني أرجوك ... سأفعل ما تطلبه مني .... سأذهب إلى منزل هيوجو وسأقضي معه الليلة كما تُريد

رسم بسمة مُنتصرة على ثغره بدت لي شيطانية وهو يرفع ذراعه ويبادل تربيتتي بتربيتة أخرى حتى يُهديء من روعي، كما يعتقد.

-حسنًا اهدأي .... أنا أخبرتكِ منذ البداية ... هيوجو ليس رجلًا سيئًا ... وهو سيُحسن معاملتك ... ثم أنها ليلة واحدة فقط

رميته ببسمة مُطيعة حملت الكثير من الحقائق المُبطنة وأنا أوميء برأسي في خضوعٍ قُلت معه:

-حسنًا ... كما تُحب ... سأذهب لتبديل ملابسي.....

____

5يوليو 2015 ليون : فرنسا

في تلك الأيام، تعلمتُ شيئًا مهمًا، إن لم ينصفك أحد، فاجعلهم يقعون بالمكيدة، مكيدتك أنت....

وها أنا الآن، أجلس بمنزل هيوجو الفسيح الشبيه بالقصر في تكوينه، فهناك العديد من اللوحات الباهظة والمزهريات المُطرزة باللؤلؤ والياقوت، وغيرها من الأشياء المبالغ بها، والتي ستجعل الخُطة تسير على قدمٍ وساق.

أتى هيوجو من المرحاض بعد أن بدُل ملابسه التي أتى ليأخذني بها من المنزل إلى سروالٌ قصيرٌ للغاية أعلاه مازرٍ طويلٍ من الساتان، ارتجف بدني وأنا أتراجع للوراء على فراشه وعلى وجهي العديد من مساحيق التجميل لعلها تستطيع تغطية جروحي الطفيفة وتجعلني أكثر جاذبية، خاصة مع أحمر الشفاه القاني هذا.

جلس هيوجو بجواري لتتصاعد ضربات قلبي ويزداد العرق على جبهتي، لكنني مع ذلك تماسكتُ حتى أحصل على ما أريد.

-لماذا لم تُبدلي ملابسِك ؟

توترتُ قليلًا وأنا أجيبه بثباتٍ زائف:

-كـ... كنت أنتظرك

كان توتري أشبه بالخجل والدلال بالنسبة له، لا يعلم أنني أشعر بالتقزز كلما اقترب أكثر ناحيتي.

ارتجف بدني أكثر عندما وجدته يرفع يده ويضعها على خُصلات شعري الذهبية المُسترسلة، أردتُ أن أصفعه في تلك اللحظة لكنني تماسكتُ قدر الإمكان رغم جسدي المُشتعل:

-يا لكِ من فاتنة

قالها بغزلٍ صريحِ وعينانٍ تمُشطان جسدي حتى شعرتُ بأنها النهاية، ومع ذلك تذكرتُ رفاقي_ الذين رفضوا هذه الخطة بشدة_ لكنني مع ذلك أصريتُ حتى أستطيع المساعدة، فأنا لن أبقى بلا فائدة طوال حياتي.

اقترب هيوجو من وجهي أكثر وبات على وشك الانقضاض علي كأسدٍ ينقض على فريسة ضعيفة، لكنني في تلك اللحظة، آردتُ إيقافه واستكمال الخطة كما اتفقنا سويًا.

-إيــه .... ما رأيك باحتساء النبيذ ؟

اقترحتُ هذا بحُجة إنعاش السهرة، واستكمال الخطة في الخفاء، دفعته بضع أمتارٍ عن جسدي ووثبتُ عن الفراش لأجد علامات الموافقة تعلو وجهه، هذا يعني أن الخطة تسير على قدمٍ وساق.

هدأت ضربات قلبي وأنا أتجه صوٌب حجرة الطعام وكان المنزل خاليًا من الخدم كما آراد هو، فهو يريد قضاء خلوته بعيدًا عن الأعين.

وضعتُ يدي على فتحة الصدر حتى أستخرج هاتفي الصغير الذي أهداني إياه أرضوان لأستخدمه بالخُطة، قبضتُ على هذا الهاتف جيدًا واتجهتُ صوّب الطاولة لأنتشل زجاجة النبيذ باهظة الثمن وأبدًا بسكب القليل منها بكأسين.

تلفتُ يمينًا ويسارًا لأتأكد أن هيوجو لا يقف ورائي وأنا أفكُ الرباط الملفوف بالهاتف والذي يحتوي بداخله على حبوبٍ منوِّمة!!

بأصابع مرتجفة وضربات قلبٍ متصاعدة، أمسكتُ بذاك المنوِّم وبدأتُ وضعه داخل كأسٍ من الكؤوس، فإذا غفى هيوجو، سيتسنى لي سرقة المنزل وإحضار ما نريده من أموال، هذا الثري يكتسب أمواله بالعبث بالصغيرات أمثالي، هو لا يستحق هذه الأموال، نحن نستحقها أكثرمنه.

هكذا كُنت أمني نفسي وأنا أُسقط حبوب المنوِّم بالنبيذ وأبدًا بتحريكها جيدًا مُتذكرة لرائحة هيوجو المقيتة ورغبتي الشديدة بلكم هذا الأرعن زير النساء.

ما إن انتهيتُ من إذابة الحبوب، أمسكتُ الكأسين جيدًا، كأس هيوجو باليد اليُسرى وكأسي باليد اليُمنى، حفظتها جيدًا حتى لا يختلط علي الأمر وأفسد الخطة برمتها.

التفتُ مُجددًا على أمل العودة إلى الحُجرة واستكمال الخطة، لكن جسدي تصلبُ مرة واحدة؛ أسقطُ كؤوس النبيذ لتتسع بعدها حدقتاي في ذهولٍ و.... رُعب!!

كان هيوجو يُشهر سلاحه أمامي وأعينه الشغوفة تحوَّلت الآن إلى أخرى تُذيب العظام من رُعبها؛ تصاعدت أنفاسي ولم أكن أعرف ماذا أفعل، هل خطط لقتلي واتفق مع والدي قبلها ؟؟ أم أنه يمزح ؟

بقيت الأسئلة تطاردني وتجعلني في حالة من الصمت والتيبس حتى وجدته يقول بتهديد:

-ماذا وضعتي بالنبيذ ؟

ابتلعتُ ريقي في توترٍ بالغ وقد أدركتُ وقتها أنه شاهدني، وما أكد لي شكوكي هو رفعه لهاتفه ذو الشاشة العريضة التي أظهرت ما سجلته كاميرا المراقبة ... الموضوعة بحُجرة الطعام!!

-لـ... لم أضع شيئًا .... كـ...كان هذا دواءً .... دواءً لزيادة الرغبات الجنسية

قُلتها بارتباكٍ في باديء الأمر حتى أتتني هذه الحُجة التي ستضحى الأكثر إقناعًا في وقتٍ كهذا، لكن يبدو أن حُجتي السخيفة لم تنطلي عليه، فكانت نظراته الساخرة الشيطانية تُمشطني من أعلاي لأسفلي حتى عبث بهاتفه قليلًا ورفعه مُجددًا أمامي لتتسع حدقتاي في صدمة قد تجعلني الآن أفقد الوعي.

-حقًا .... ليس هذا منوِّمًا حتى تقومي بسرقتي وتساعدي رفاقكِ المجرمين ؟؟

____

((جورج))

لم أكن موافقًا أبدًا على هذه الخُطة، كيف تركتها تذهب إلى الرجل الذي آراد سلب عُذريتها بهذه السهولة ؟ أشعر وكأنني على وشك اقتحام منزله وتفجير رأسه حتى لو لم تنجح آنابيا بسرقة منزله، هذا الحقير ووالدها، كانا سببًا بتلطيخ هذه البريئة وجعلها كُتلة من بتلات الورود شديدة الهشاشة.

كُنا نجلس داخل سيارة رازي الواسعة، حيث يجلس هو على مقعد القيادة وجواره أرضوان يعبث بحاسوبه بحثًا عن مكانٍ آخر للاختباء وطريقة لاستعادة التذاكر والتأشيرات، وأثناء البحث، كان مُسلم يضع جبيرة على رأسه ويمسك الهاتف ليقرأ منه هذا الخبر بصوْتٍ مُرتفع:

-تسببت إحدى الجماعات الإرهابية الإسلامية باقتحام مركز لي هالي التجاري وإحداث الفوضى والدمار الذي نجم عن مقتل 24 ضحية منهم عشرة أطفال دون سن الثامنة عشر ... والعديد من الإصابات .... التقط أحد الضحايا مقطعًا يوّثق تلك الجريمة الشنيعة التي تسبب بها كل من المواطنيين العربيين إيمان عبد الفتاح

ومُسلم الجسار ... بمساعدة من مواطن عربي آخر يُدعى جورج ميشيل ومواطنة مجهولة الموطن تُدعى آنابيا شانتيل ... كما أكدت التحقيقات على وجود مساعدان آخران واحدُ منهما قد استدلت الشُرطة على أرقام سيارته وعلِمت أن اسمه أرضوان فايق ... والآخر لا يزال مجهولًا تعثر عليه الشُرطة.....

كان يُرينا أيضًا مقاطع لإيمان وهي تُطلق الرصاصة الطائشة ويجعلها هذا المُقطع توّد لو انشقت الأرض وابتلعتها، آرانا مقطعًا آخر وأنا أحمل مُسلم على ظهري وأساعدهما بالهرب، وكذلك صوُرٌ التقطتها كاميرات المراقبة لسيارة أرضوان وهي تعدو من أمام المركز ويجلس بجواره رازي لكن صوٌرته لم تكن واضحة.

فتحتُ فمي بذهولٍ وأنا أشاهد تلك المقاطع المصحوبة بصوٌرنا التي أغرقت المُجلدات، انتهى ذهولي بتعقيبي على حديث مُسلم:

-ما هذا ؟ .... هل تعني ذلك أنني أصبحتُ .... مشهورًا!!

أنهيتُ الحديث ببسمة واسعة فخورة بهذا الانجاز، أنا الآن مشهور، لا أصدق حتى أنني في يومٍ من الأيام سيعرفني الجميع وسيصرخون باسمي، حسنًا، سيصرخون من الخوف لكن هذا لا يُهم، المهم أنني أضحيتُ مشهورًا.

-نعم .... لكننا الآن مطلوبون من العدالة ؟

قالها رازي بنظراتٍ حائرة لا تتوّقع أن يُصيبني هذا الخبر بالسعادة، وكرد فعلٍ على محاولته لإتعاسي، أرخيتُ ظهري للوراء وأنا أرد عليه بفخرٍ واعتزاز:

-لا يُهم .... المهم أن الجميع يعرفني .... وسيقومون بتصويري كما أرى بالأفلام

ضربت إيمان جبهتها بنفاد صبرٍ قالت معه:

-دعكم من هذا الأبله

أردتُ أن أصفعها على إهانتها الصريحة لي لكنني وجدتها تُغيُر نبرتها لأخرى تشعر بالذنب أثناء قولها:

-آسفة على ما تسببتُ به ... أنت ورازي ومُسلم .... يُمكنكم تركي بنصف الطريق .. لا داعي للتوّرط بالمزيد من المصائب

لا أعرف لماذا حتى لم تضعني بين أسمائهم ؟ أنا أيضًا ليس لي دخلٌ بهذه المصائب، دخلي الوحيد أنني شقيق إيمان وإبن خالتها، أي هي مسئولة مني قبل جميعهم، هذا ما جعلني أتوّقف عن الاعتراض حتى وجدنا أرضوان يُجيب بإصرارٍ وهو يسترخي بظهره للوراء:

-لا ... لن أهرب مرة أخرى .... يكفي ما حدث لدانيش

أنهى الحديث بعينين فاترتينٍ تحملان كمًا من الحُزن الدفين، هذا ما جعلنا نُفكر بهذا الذي يُدعى دانيش وما علاقته بأرضوان، وما الذي حدث له من الأساس ؟ وقبل أن أواصل أسئلتي الفضولية، كانت إيمان قد سبقتني بسؤالها المُتردد:

-من هو دانيش ؟

تنهد أرضوان تنهيدة عميقة وكان في تلك اللحظة على شفا جرفة من البكاء، فكان حديثه متقطعًا يخرج من جوفه على هيئة حروقٍ يُدثرها بغطاء الجمود:

-شقيقي .... كان بالثانية عشر فقط عندما....

توّقف مجددًا عن الحديث ليواصل وسط نظراتنا المتفحصة:

-عندما استُشهد

أخفض رأسه قليلًا ليُجفف تلك الدمعة المتمردة ثم يرفع رأسه ليواصل ما يجيش به صدره:

-وكأنكم تعتقدون أن كشمير دولة هندية ..... هذا ليس صحيح، لا توجد دولة تقوم بقتل أبنائها، ولا يوجد دولة تمتهن القمع والظلم وتقوم بمعاملة شعوبها حسب معتقداتهم الدينية

التفت ليواجهنا بنظراتٍ تحوّلت مرة واحدة إلى أخرى غاضبة رعدية، حتى أن الكلمات خرجت مُندفعة من جوفه كسيلٍ جارفٍ من المياه:

-استُشهد شقيقي أمام عيني، أُعدم والدي رميًا بالرصاص ظُلمًا ... وأنا...

آشار على نفسه ثم واصل:

-وأنا رغم تعرضي للتعذيب المميت بالمحاكم الكشميرية .... ورغم تعرضنا لويلات الفقر والإهانة ... إلى أنني لجأتُ إلى الهرب...

أخفض من وتيرة صوُته وقد بدى لي أنه يشعر بالخزي من نفسه، أو من القرار الذي اتخذه فيما سبق:

-قررتُ الهرب .... فقط من أجل والدتي ... قررتُ أن أحيا جبانًا أمام مُستعمرٍ حقيرٍ يرغب بطردنا من منازلنا والقضاء على ديننا... هربتُ دون أن أسترد حق دانيش ... ووالدي

تنهد ليلتقط أنفاسه مُتذكرًا أنه بحاجة للإجابة على سؤال إيمان، وقد كانت إجابته تحمل كمًا من المُقت لهذا العالم:

-عندما رأيتكم، وأخبرني رازي أنكم بحاجة للمساعدة، كُنت سأتعامل معكم كما أتعامل مع عملائي ..... وعندما علِمتُ حقيقة الأمر، وعلِمتُ إصراركم رغم الصِعاب .... تيقنتُ أنني سأبذل ما بوُسعي حتى أساعدكم .... لأن هذا هو قدري، وأنا لن أهرب من القدر مُجددًا ... خاصة بعد أن وصمنا العالم بتلك الاتهامات المُشينة

حدقنا به لفترة كان الصمت سيدها، لا نُصدق أنه مرٌ بهذه المعاناة، ولا نُصدق أنه يحمل هذا الكم من المُقت على العالم وما به، معه كامل الحق فيما يقول، هذا العالم

ليس بيتًا دافئًا لا يوجد به سوى الآمان، بل هو مكانٌ موٌحشٌ أشبه بالمُستنقعات، خاصة تلك المُستنقعات التي تغرق بها، فتجعلك تتلوث بقذارتها وأوساخها، رغم أنك سقط في هذا المُستنقع الغادر بالخطأ.

بعد فترة من الصمت، وجدنا رازي يتنهد تنهيدة طويلة قبل أن يقول بصوٌتٍ خافت:

-وأنا أساعدكم، ليس فقط من أجل أرضوان ..... فأنا....

توٌقف برهة ليُعدل من نبرته إلى أخرى صادقة قال معها:

-أنا غريبٌ على هذا العالم ..... تربيتُ على نظرات الازدراء من الجميع، تربيتُ على العُنصرية والطبقية، لكن والداي كانا يدعمان فكرة السلام والمحبة .... وكانت أسرتي داعمة لي، لكن من حولي ليسوا كذلك .... أنتم فقط من شعرتُ معهم بالألفة، رغم اختلاف دياناتكم

ربت أرضوان على كتفه بابتسامة ممتنة صادقة جعلت رازي يبادله بابتسامة أخرى وكانت نظراتهما تشيد بصداقتهما القوية رغم اختلاف شخصياتهم اختلافًا كليًا، واختلاف دياناتهم وجنسياتهم أيضًا، صداقة أكدت على أن الفطرة والإنسانية لا يشعان من الموطن أو الديانة أو المُعتقد، بل هي من داخل الإنسان، هي التي تجعله قادرًا على مصادقة الجميع فقط بسبب أفعالهم وليس المحيط من حولهم أو مُعتقداتهم.

قطع تفكيري الشارد صدوح هاتفي الذي استطاع أن يقطعنا من تلك اللحظة، ذكٌرنا أيضًا أننا في مُنتصف إحدى المهام وهناك فردٌ منا ربما يكون في خطرٍ الآن.

بدأ قلبي يُصدر العديد من الأصوات الرعدية وأنا أستقبل تلك المكالمة، وآرى هذا الاسم الذي أعلم جيدًا سبب اتصاله بي الآن، هذا إن كان اتصالًا وليس استنجادًا.

-يا إلهي .... آنابيا تتصل لأكثر من ثلاثون ثانية .... هذا يعني أنها في ورطة!!

____

أصابني الهلع حتى شعرتُ أن فؤادي سينبثق من جحوره، لا يُهم إن نجحت بسرقة هذا الوغد أم لا، المهم الآن أن تستطيع الهرب بسلام، لن أسامح نفسي على تركها بتلك التهلكة، ولن أسامحهم جميعًا حتى.

بحركاتٍ سريعة تمرنتُ عليها جيدًا، أخذتُ ملابس الشُرطة الفرنسية التي احضرها أرضوان من أحد معارفه المُقربين، ارتديتُ هذه الكنزة وتلك القُبعة ثم غطيتُ وجهي بالقناع حتى لا يتم كشف خطتنا البديلة، خطة الهروب.

تحركتُ صوّب المنزل الكبير وكان رازي يُطلق أصوات السرينة حتى لا يشك أحدهم بأمري، طرقتُ الباب بضع طرقاتٍ وانتظرتُ القليل من الوقت حتى فتح لي رجلٌ بدينُ أبيض البشرة التي استحال لونها للأحمر مع خُصلات شعره البيضاء، وهذا المأزر الساتان المربوط من منطقة الخِصر والذي لا يكاد يصل حتى الرُكبة، منظره يجعلني أكاد أهم بلكمه، أكان يجلس هكذا برفقة آنابيا!!

حمحمت لأجلي حلقي قبل أن أردف بغلظة وصرامة زائفة:

-عفوًا سيدي .... أبلغنا أحد الجيران أنه رآى واحدٌ من المُشتبهين بحريق لي هالي

حرّك يده ليخفيها وراء ظهره بطريقة آصابتني بالريبة، ابتسامة ماكرة خبيثة ارتسمت على شفتيه وهو يتفحصني جيدًا ويؤكد:

-يا للعجب !! ... بهذه السُرعة أتيتم ؟

لا أعلم لمَ بدى صوّته ساخرًا غير مُصدقًا أنني من الشُرطة، هذا ما جعلني أنصب قامتي وأقول بصرامة أكثر:

-نحنُ في خدمة الشعب سيدي .... لا نتأخر عن تلبية الطلبات وإنقاذ الأمن

بقي في حالة من الصمت حتى أومأ برأسه وتراجع لبضع خطواتٍ قال معها بعنجهية :

-إذًا لكم الأمر .... هي بالداخل....

رسم بسمة فخورة على ثغره بدت سمجة بالنسبة لي وهو يقول:

-لا تنسونني بالتحقيقات

أطبقتُ على شفتاي بحنقٍ وكوّرت قبضتي حتى لا ألكم هذا الحقير، دلفتُ بعدها منزله بخطواتٍ سريعة أخفيتُ فيها غضبي وأنا أتفحصُ المنزل حتى ظهرت آنابيا أمامي بوجهٍ شاحبٍ كالموّتى، رميتها بنظراتٍ مُطمئنة وأخبرتها بعيناي أن تُمثل الدور جيدًا، وقد كانت تحاول فعل ذلك وهي تبكي بكاءً مصطنعًا وتقول بنبرة درامية زائفة :

-أرجوكم اتركوني ... أنا بريئة ... اتركوني...

تمثيلها المُبتذل جعلني أعتقد أنني داخل فيلمٌ من الستينات، ومع ذلك تداركت تمثيلها السيء_ الذي لا يُقارن بتمثيلي الماهر_وأمسكتها من كتفها لأدفعها خارج المنزل راميًا إياها بنظراتٍ مُقتضبة وكلماتٍ حادة:

-هل تعتقدون أنكم ستنجون من العدالة أيها الملاعين ؟

راقبنا هيوجو بتشفي ونحن نرحل من المنزل وقد استطعتُ رؤية سلاحه الذي يُقربه من خصره؛ استرفدتُ بعدها أن ذاك الحقير، ربما كان يستخدم هذا السلاح لتهديدها، وربما سيستخدمه الآن.... لقتلنا!!

صوّت سرينة الشرطة طغى على سريننتا الزائفة لنُدرك بعدها أن الشُرطة الحقيقية قد أتت، قبل أن ننجح بالهرب.

سُرعان ما أدرك هيوجو حيلتنا وبدّل نظراته المُتشفية بأخرى غاضبة كاد يُخرج معها السُلاح ويصوّبه نحوّنا، لكنني، حتى أتفادى هجومه، اضطررت للكمه لكمة قوية على وجهه مع ركلة أسفل معدته استطاعت إسقاط سلاحه على الأرض، كان لا يزال يرانا ويحاول الإمساك بنا قبل أن نهرب، لكنني سددت له لكمة أخرى أتت

مباشرة على وجهه وجعلته يغيب عن الوعي والدماء تنبثق من فمه، ليس من عادتي لكم كبار السن، لكن هذا الحقير يستحق الضرب مئة مرة.

كانت آنابيا تُغطي قدمها بجبيرة آعاقت حركتها مما جعلني أضطر لحملها والركض بها هربًا من عناصر الشُرطة، لكن يبدو أن الرياح تأتي بما لا تشتهيه السُفن، فما إن تركنا قصره الفاره حتى وجدنا ثلاثة من رجال الشُرطة يقفون أمامنا يصوِّبون أسلحتهم علينا ولسانهم لا ينطق سوى بكلمات التهديد.

اختنقت أنفاسي وشعرتُ أنها النهاية، أمامي شعرة واحدة فقط وسينتهي أمري، بل هو انتهى منذ مُدة طويلة، أنزلتُ آنابيا على الأرض ولم أعُد أعلم ما هي الخطوة التالية، تشبثت آنابيا بذراعي وكانت على وشك البكاء وهي تتكيء علي أثناء تحرٌكنا مع الشُرطة، صوّب السيارة.

في تلك اللحظة، انتفضت أجسادنا واستعدنا طاقة الأمل فوّر أن ظهر كلٌ من مُسلم وأرضوان ورازي، ينقضون على عناصر الشُرطة من الوراء ويُسددون لهم اللكمات والركلات، فكان مُسلم يركلهم بقدمه بحركاتٍ ماهرة، وأرضوان يحُيط ذراعيه برقبة الشُرطي الآخر حتى يُعيق تنفسه بينما كان رازي يتعلق على ظهر الشُرطي الثالث حتى أوقعه على الأرض وركله بقدمه.

وكانت إيمان تركض نحوّنا تمدٌ يدها للإمساك بآنابيا وتُشير لنا حتى نرحل بُسرعة، هروّل مُسلم أولًا ثم تبعه رازي وكُنت على وشك اتباعهم لولا هذه اليد التي تمّسكت بقدمي وكان الشُرطي ينظر لي بوجهٍ مُلطخٍ بالجروح ونظراتٍ مُشتعلة، حتى أنه حرٌك يده على خصره وجذبني من كاحلي حتى ارتطم جسدي بالأرض، حاولتُ دفعه مرارًا دون جدوى حتى أتى أرضوان وانقض على هذا الشُرطة بركلة قوية سددها على صدره وجعلته يبتعد عني مُجبرًا.

أخفض بعدها جذعه ليرفعني عن الأرض ونهرول كلانا صوّب السيارة التي انطلق بها رازي بأقصى ما لديه من سُرعة قبل أن يُلاحظ الجيران ويتم الإتصال بالمزيد من عناصر الشُرطة، أكاد أتيقن أن الشُرطة لم تكن تعرف أن جميعنا هنا، فلو كانت تعرف لأتت بالعديد من القوات والمدفعية وربما يأتي الجيش الفرنسي بأكمله.

أرخينا ظهورنا للوراء نحاول التقاط أنفاسنا ونحمد ربنا على النجاة، للمرة التي لا نعلم عددها، التفتُ بدوري صوّب آنابيا لأسألها بقلق:

-هل أنتِ بخير ؟ .... هل آذاكي هذا الحقير ؟...

كانت أنفاسي تتصاعد وأنا أسألها خوفًا من تعرضها للأذى بسببنا، لكنها كانت تحاول تهدئتي بوضعها ليديها الرقيقة على كتفي أثناء قولها:

-أنا بخير .... وكذلك...

عبثت بجيبها قليلًا حتى أخرجت إحدى البطاقات لتُظهرها أمامنا متفوّهة ببسمة عريضة مُنتصرة:

-سرقت بطاقة إئتمانه

في حالاتٍ أخرى، كُنت سأوّبخها على السرقة، لكن في حالتنا نحن، وجدتني أفتح فاهي بغير تصديقٍ تبعته إيمان وهي تضع يدها على فمها وتحتضن آنابيا لتتشكرها على هذه الخِدمة، بتنا الآن نتفاخر بالسرقة!!

انتشلتُ بطاقة الإئتمان من يدها وأنا أسألها بحيرة عن الطريقة التي أحضرتها بها، وكانت تُخبرنا أنها انتهزت حديثي مع هيوجو وهروّلت داخل حُجرته لتأخذ بطاقة الإئتمان التي علِمت أين هي منذ وطأت أقدامها المنزل، كذلك أخبرتنا أن هذا الحقير آراها التسجيل الخاص بنا ونحن بالمركز التجاري وأخبرها أنه يعرف الحقيقة، قبل أن تأتي إلى منزله، هذا الحقير كان يُخطط لإبلاغ الشُرطة عنها ليلمع اسمه بين الجرائد....

توّقفت سيارة رازي أمام أحد البنوك الشهيرة ومعه بطاقة الإئتمان باعتباره الوحيد الذي لم يتم كشفه حتى هذه اللحظة، فكيف سيتم كشفه بسهولة وهو اليهودي الوحيد بيننا، خاصة أن من يحكُم العالم الآن هو مجموعة من الصهاينة.

استطاع أرضوان بمهاراته الحسابية أن يكشف كلمة المرور ويُعطيها لرازي ويواصل بعدها البحث على حاسوبه عمَ سنفعله فيما بعد، وبعد مرور ساعة أو أكثر، كان رازي يدلف السيارة ومعه حقيبة جلدية سوداء كانت فارغة قبل ترجله من السيارة، إنما الآن، فوزنها يُعادل طفلٌ بالرابعة من عُمره.

أغلق رازي الباب وأعطانا الحقيبة الثقيلة وهو يقول ببسمة عريضة:

-ثلاثة مليون يورو .... أعتقد أن هذا سيكفينا إذا أردنا السفر حول العالم

آدار رازي مُحرك السيارة وكانت عوالم السعادة على وجوهنا، ها قد بدأت الحياة تبتسم لنا من جديد، حتى ولو كانت ابتسامتها زائفة.

تحرٌكت السيارة بسرعة متوٌسطة وقد كانت الساعة تُشير إلى الثانية عشر مساءً، كنا نتحرٌك بشرودٍ وضياع لا نعرف أي وجهة نسلكها، فأي مكانٍ نذهب إليه سيجعلنا محض أنظارٍ للجميع وسيتم إلقاء القبض علينا بسهولة.

-إلى أين سنذهب ؟

سألت إيمان بقلقٍ دفينٍ وهي تتقدم بجذعها للأمام، وكان الجميع في حالة من الصمت لا يعرف كيف يُجيبها، انتهت جميع الأماكن التي يُمكن الاختباء بها.

بعد فترة وجيزة من التفكير في سؤالها، استمعنا إلى صوٌت إغلاق الحاسوب الخاص بأرضوان، هذا يعني أن بحثه الطويل قد انتهى أخيرًا.

التفت نحوٌنا بنظراتٍ جامدة نعتاد عليها جيدًا، هو الوحيد الذي يأتي لنا بالحلول، وهو الوحيد الذي يُخطط لنا، حتى الآن.

-علِمتُ أين سنذهب

حدجناه بنظراتٍ متلهفة أتبعها هو بإجابته الواثقة:

-لويس ألكسندر .... عميلٌ آخر من عملائي، يقطن وحده بمنزلٍ صغيرٍ بـ لي بينس ... فرنسيٌ خالصٌ من أبوان أرستقراطيان، لكنه متمرد ولا يُعجبه حياة الأغنياء .... أما بالنسبة للتذاكر، فيُمكنه المساعدة بطريقة غير مباشرة....

عقّب مُسلم على حديثه بنبرة مُتشككة:

-متأكدٌ أنه محل ثقة ؟... يُمكنه أن يتصل بالشُرطة ويُبّلغ عنا

ارتسمت نصف ابتسامة ساخرة على ثغر أرضوان وهو يُنهي الحديث بإبهام:

-ليس وهو واحد من أخطر المجرمين.....

الفصل الرابع عشر (مُلحد وجُثة)

((إيمان))

6يوليو 2015 لي بينكس : فرنسا

أتذكر في أول يومٍ لي بفرنسا، كُنت عازمة على نشر بصمتي والتأثير بالآخرين، لكن الآن، تحقق ما أريده بطريقة مُختلفة، فبدلًا من التأثير بالآخرين، أثرتُ عليهم، وبدلًا من سطوع صورتي بين المؤثرين، سطعت صورتي بين المُجرمين...

نِمنا طوال الطريق إلى بينكس من ليون، وكان رازي يقود بحذرٍ شديدٍ يحاول قدر الإمكان التخفي والتسلسل بالطُرقات الخالية من السُكان، كما أن زجاج السيارة أسوّدًا لا يسمح لأحدهم بأن يرانا ونحن نيام بالسيارة.

استيقظنا على أخبارنا التي انتشرت بالمذياع حيث صرّحت النشرات الإخبارية بارتكاب جماعتنا " الإرهابية " جريمة أخرى وهي اقتحام منزل رجل الأعمال المشهور هيوجو لانشلوت وسرقة أمواله والاعتداء عليه، والاعتداء أيضًا على ثلاثة عناصر من الشُرطة مما أسفر عن إصابتهم إصاباتٍ بليغة، أضيفت هذه الجرائم الجديدة على قائمة جرائمنا التي تلخصت في قتل السيد بيناك والسطو المُسلح وإحداث حريق بأحد المراكز التجارية، وجريمة خطفٍ كان الخاطف فيها مجهول الهوية فألبسها الإعلام لنا.

ينقصنا التجارة بالأعضاء وسيتم إدراج أسمائنا بقائمة أكثر الجماعات الإرهابية خطرًا، ربما حتى ستُنازع طالبان ونتصدر القائمة.

تم كشف هوية رازي بعد أن اعتدى على عناصر الشُرطة وأصبحت أسمائنا الستة تُسطر جميع المُجلدات والجرائد والمواقع الإخبارية، ورغم أن جميعنا من دياناتٍ مُختلفة، إلا أن الإعلام يصرُّ على كوّننا جماعة إسلامية متطرفة هدفها القمع والإرهاب وتستغل غير المُسلمين لتنفيذ أهدافها الشنعاء، أي أنني الآن، أصبحتُ زعيمة العصابة.

توّقفت سيارة رازي ببقعة نائية آشار له أرضوان عليها، فهذا المكان هو مخبأنا ومنفذنا من هذه البلدة، كان منزلًا صغيرًا في بقعة نائية لا تسمع بها سوى الهمسات، والمنازل من حولنا أما منازل مُهشمة أو غير مُكتملة البناء، أكاد أجزم أن هذه البلدة مسكونة بالأشباح.

دلفنا إحدى البنايات العتيقة وانسللنا الدرجات لنقف أمام بابٍ خشبيٍ عتيق، طرق أرضوان الباب عدة طرقات، وما هي سوى بضع ثوانٍ حتى فُتح الباب على وسعه وكان هناك صوّتٌ من الداخل يدعونا للولوج.

الأنوار الخافتة كانت المصدر الوحيد للإضاءة، أما السجاد فكان عبارة عن جلد الخِراف والبِقار، وهناك رأس ثعلب وريمٍ مُعلقة على الحائط ترمقنا بعينينٍ جاحظتين أصابتني بالُرعب، ناهيك عن تلك الرائحة المُقززة التي يختلط فيها رائحة الخمر مع رائحة اللحوم الفاسدة ورائحة الماريجوانا بخلاف قلة الهواء التي تزيد من حدة هذه الراوئح.

اشمئز وجهي من تلك الرائحة واشمئز أكثر وأنا أتفحص زجاجات الخمر الفارغة المتناثرة في كل مكانٍ بإهمال، وعلى الطاولات كان يوجد بقايا التبغ وبعض الحبوب الممنوعة والبودرة أيضًا، وعلى رُكنٍ بعيدٍ كان يتناثر العديد من الأوراق والحواسيب مع طابعة كبيرة لا أدري سبب وجودها بين هذه القذارة.

كل هذا ونحن لم نتوّغل أكثر، فقط نقف أمام الباب ننتظر لويس ليرتدي ثيابه ويطل علينا، لا أعرف كيف سنقطن وسط هذه النجاسة، ولا أعلم ما يُخبئه بقية المنزل، هل سأرى فتياتٌ عاريات ؟ أم جُثث تم تفريغها من الأعضاء!!

طلٌ علينا رجلٌ متوّسط القامة يميل إلى الطول قليلًا، جسده رياضيٌ متناسقٌ مع بشرة ناصعة البياض أفسدتها تلك الوشوم التي أغرقت سائر جسده، كانت عيناه واسعة واحدة منهما باللون الأخضر والأخرى باللون الأزرق، وكان يضع قرطًا على فتحة أنفه اليُمنى واثنين على حاجبه الأيسر وآخر بأذنه اليُسرى، ناهيك على خُصلات شعره الحمراء القانية التي أعلم جيدًا أنها ليست طبيعية.

طالعنا بنظراتٍ جامدة تنفس معها القليل من لفافة تبغه السميكة التي أعتقد أنها ماريجوانا، نفث الهواء بوجهنا مما جعل ملامحي تتجعد وأشعر بالاختناق، أنا لا أطيق رائحة السجائر فكيف لي أن أطيق الماريجوانا ؟

-هل أنتم المُجرمون ؟

قالها ببسمة ساخرة مُستخفة معه كامل الحق بها، فهيئتنا لا تدل أبدًا على أننا من أخطر المُجرمين، لا تدل حتى على أننا نستطيع قتل أرنبًا.

-لويس ... نحن بحاجةٍ للبقاء عِندك لفترة وجيزة .... حالما تنتهي من استخراج التأشيرات وتذاكر السفر

لم أفهم المقصد من حديث أرضوان وكيف سيقوم هذا الرجل بمساعدتنا بالسفر، فهذا الرجل لا يصلح سوى لمساعدتنا لقتل أحدهم وربما القيام بعملية إرهابية أخرى.

رمانا لويس بنظراتٍ باردة ليأخذ بعدها نفسًا آخرًا من لفافته ويتحرك إلى الداخل بإشارة من إصبعه تبعها بكلماتٍ مُقتضبة:

-زوجتي نتاشا لا تُحب الإزعاج ... فأرجو أن تلتزموا بالصمت

لم أفهم حديثه للمرة الثانية وكُنت أعتقد أنني أدخل مغارة علي بابا، فكلما توّغلتُ المنزل، ازدادت الرائحة الكريهة وازدادت زجاجات الجعة الفارغة ولفافات التبغ وأعقاب السجائر.

لكنها أمورًا طبيعية بالنسبة لمَ رأيناه بعدها....

تيبست أجسادنا مرة واحدة فيما عدا أرضوان الذي واصل الطريق بصورة طبيعية ومُسلم الذي لم يبدو على وجهه الاكتراث وكان على وشك السير خلف أرضوان، وتجاهُل ما نراه، تجاهُل هذه السيدة الجالسة على الأريكة برداءٍ أحمرٍ وملامح شاحبة خالية من الحياة، وأعينٍ غائرة مع وجهٍ نحيفٍ برزُ به العظام، وما جعلني أكاد أتقيأ بالفعل، هو أن لويس، يقطن بالبيت مع ... جثة!!

رفعتُ يدي بارتجافٍ وأنا أشير على الجُثة متفوّهة بصوّتٍ مذبذب:

-مـ..مـ..من هذه ؟

لم يُجبني لويس بالطبع ودلف إلى حُجرته ليحضر بعض الأوراق، ولأن أرضوان يعرف هذا الرجل الغريب، تقدم نحوّنا حتى يقول بتفسيرٍ حمل اطمئنانًا:

-لا تقلقوا ..... هذه نتاشا، زوجة لويس، تزوجها مُنذ يومين .... لكنها متوّفية منذ قرابة الأسبوع

تدخل جورج بالحديث ليُعلق بحيرة:

-ماذا !! ... تزوجها وهي متوّفية ؟

آجابه مُسلم بنبرة علمية واثقة:

-نعم، قانون الزواج بفرنسا يسمح بالزواج بشخصٍ ميِت، وقد ظهر هذا القانون بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك ليتمكن الأطفال الذين لم يولدوا بعد وتوّفي آبائهم أثناء الحرب من الحصول على شرعية حمل اسم آبائهم حتى بعد وفاتهم، فأغلب المتزوجون بفرنسا، لا يتزوجوا سوى بعد الإنجاب...

أخبرنا كذلك أن هذه الزيجة الغريبة لا يُمكن أن تتم يدون وجود إثباتٌ أن الشخص الميِت كان ينوي فعلًا الزواج من الشخص صاحب الطلب، هذا يعني أن لويس آراد الزواج من نتاشا ولم يحالفهما الحظ بسبب وفاتها مما دفعه للزواج منها بعد الوفاة، وربما يحتفظ بجُثتها لأنه لا يستطيع العيش بدونها، خاصة وهو بارعٌ بالتحنيط وبارعٌ أيضًا بحفظ الجُثة لأطول فترة ممكنة، وقد ظهر هذا بسبب رؤوس الحيوانات الحقيقية المُعلقة على الحوائط وجلود الحيوانات أسفل أقدامنا.

لم يدُم حديثنا لفترة طويلة بسبب صوّت لويس الذي نادانا من الداخل لنُنحي صدمتنا جانبًا ونتوّغل أكثر حيث حُجرة صغيرة تعتج بالكراكيب ورُكنٌ صغيرٌ للنوم، كان يعبث لويس على حاسوبه بمهارة سأل معها:

-كم تذكرة تريدون ؟

آجابه أرضوان بسرعة دون تفكير:

-خمسة تذاكر .... أنا لن آسافر معهم

تبادلت نظراتنا نحوه وكُنا نريد أن نسأله كيف سيبقى هنا والشرطة تبحث عنه، لكنه حجب نظراتنا المُستفهمة بإجابته الراضية الواثقة:

-أخبرتكم من قبل أنني لن أهرب من قدري مُجددًا

تذكرٌنا حديثه بالسيارة ولم نشأ أن نضغط عليه، أرضوان في المُعتاد لن يقبل نصيحتنا وتحذيرنا، وهو معه كامل الحق، لقد عانى ما يكفي ليضحى بهذه الصلابة والنفس الراضية.

-وأنا أيضًا لن آسافر

قطع رازي نقاشنا بهذا القرار الصارم الذي رفع معه يده حتى ينتبه له لويس، وما إن وٌجهت النظرات نحوه حتى وجدناه يقول مُبررًا:

-سأبقى مع أرضوان .... لا أحب الغُربة، ولا أحب هذه الدولة التي ستذهبون إليها

رماه أرضوان بنظراتٍ فخورة ربتٌ معها على كتفه دون أن ينبس بنت شفة، بينما واصل لويس العبث بالحاسوب أمام نظراتنا الحائرة التي ألجمها بكلماته العملية:

-سأنتهي منهم خلال عشرة أيام

تجهم وجه أرضوان وهو يستقبل تلك الكلمات التي لا أدري معناها لكنني أتابعهما على أمل الفهم.

-هذا كثير ... نحن على عجالة من أمرنا

التفت لويس ليواجهه متفوّهًا بنبرة حادة وقحة:

-وأنا لستُ صاروخًا حتى أنتهي من تزوير أربعة تذاكر وبقية أوراق السفر في أقل من عشرة أيام

مهلًا، هل قال تزوير أم أنني أتوّهم ؟ ألا يكفي الجرائم التي ارتكبناها حتى تُضيفوا إليها جريمة أخرى ؟؟ أقسم أنني سأرحل من هذه البلدة بعد أن أحصل على وسام شرفٍ في الإجرام....

-حسنًا ... ليكن، لكن لا تتأخر أكثر من هذه المُدة

قالها أرضوان بنظراتٍ جامدة قابلها لويس بنظراته الباردة التي قال بعدها أننا سنقطن بمنزله حتى تتنهي العشرة أيامٍ ونتسلم تذاكرنا وأوراقنا ونرحل من هنا، فإذا بقينا أكثر من هذه المُدة، ستتدمر فرنسا بالكامل على يدينا....

16يوليو 2015 لي بينكس : فرنسا

كانت حياتنا بهذا المنزل مثل حياة الرجل الذي سُجن داخل الكهف عنوة، يكفي أننا نجتمع بمنزلٍ واحدٍ ليس كبيرًا ونحن رجالٌ ونساء بالكاد نعرف بعضنا، أقسم أن والدي إذا علِم ما أفعله هنا لكان تبرأ مني مُنذ فترة طويلة.

وما يزيد الطين بلة، هو هذا لويس غريب الأطوار، لا تفوح منه سوى رائحة الخمر، ودائمًا ما يُدخن الماريجوانا أمامنا ببرودٍ طاغ، كان لا يرمينا سوى بنظراته الباردة الخالية من المشاعر ويتغزل بزوجته المتوّفية ويحاكيها وكأنها على قيد الحياة، حتى أنني شككتُ بقواه العقلية ذات المرة، وما يجعلني أتجنبه أكثر، هو أنه مُلحدًا لا يؤمن بأي من الديانات، بل ودائمًا يسبها بكل تبجُح، حديثه عن هذا الأمر يُصيبني بالضجر، يجعلني أرغب بصفعة صفعة مدوية لكنني أتجنب هذا الأمر، يكفي أنه يأوينا بمنزله ونحن مجرمون ومطلوبون من العدالة.

أما عن الحياة في ذاك المنزل، فكانت حياةُ فاترة كما قُلت، أحاول تجاهل أنني أقطن مع الغرُباء وأبقى وحدي أغلب الوقت، حتى أنني لا أنزع الحجاب عن رأسي سوى بالمرحاض، حينما أكون وحيدة، فلا يوجد فتاةً هنا سوى آنابيا، وحتى هي لا أستطيع نزع الحِجاب أمامها.

ما يجعلني في حالة من الطمأنينة، هو وجود جورج، هو الوحيد الذي لا يُعتبر غريبًا بالنسبة لي، فهو في النهاية شقيقي، ورغم أنه أبلهًا ويتصرف بحماقة، إلى أنه يسعى دائمًا لطمأنتي وإخباري أن ابنتي ستعود إلى أحضاني سالمة.

ابتاع لنا أرضوان هواتف جديدة بالأموال الطائلة التي سرقناها من هيوجو، أصبح معي هاتفٌ حديث الصيحة سأقوم بتبديله حالما ننتهي من تلك المُعضلة، ففي النهاية لن أقبل أن يبقى معي هاتفًا ابتعناه من أموالٍ مسروقة.

اخترق أرضوان هاتفي القديم واستطاع بمهارته المعهودة أن يُعيد لي صوُري الضائعة، وكان أرضوان هو ثالث مصدر آمانٍ لي في هذا المنزل، فرغم جموده ونظراته الصلبة، إلى أنه شخصُ مُتدين، يقرأ القُرآن في المساء بصوّتٍ عذبٍ رخيم، ويتجنب الاقتراب مني أو من آنابيا أو حتى لمسنا، وهو قد أخبرني أيضًا أن أحتفظ بصوّر ابنتي لعلها ستفيدني فيما بعد، أو ستضحى إثباتًا أنني أدخلتُ هذا الأرعن شارون بحياتي وأنجبتُ منه أجمل فتاةٍ على وجه الكُرة الأرضية.

كُنت أجلس في هذا اليوم على أريكة متهالكة أتفحص هاتفي الجديد الذي يعرض صوُرة ابنتي تيا، كم اشتقتُ لها هذه الصغيرة، وعندما آنام أتخيلها تنام بجواري وصوّت بكاءها يصدح بأذني، حتى أنني بكيت ذات يومٍ من كثرة اشتياقي لها وكانت آنابيا تواسيني في كل مرة.

أثناء شرودي، لمحتُ جورج وهو يتقدم من آنابيا ويحاول التقرّب منها ككل يوم، هذا الأبله يسعى للحصول على الجنسية الفرنسية بأية طريقة، رغم أنه يعلم أن اسمه يتصدر صفحات الحوادث.

-ما رأيكِ بهذه الوردة .... صنعتها خصيصًا من أجلِك

قالها بطريقة درامية مُبتذلة وهو يمد الوردة التي صنعها من الورق المقوى الذي يأتي مع الوجبات السريعة التي نتناولها، وكانت آنابيا تلتقط منه تلك الوردة بدائية الصُنع بابتسامة خجولة حاولت مداراتها لكنها لم تفلح أبدًا، آكاد أكون متيقنة أنها تقول بقرارة نفسها : ماذا يُريد مني هذا الأبله ؟

-شُكرًا .... أعجبتني

تركتُ الهاتف للحظة وبِت أتابع هذه المسرحية المُبتذلة، فكانت القلوب تتطاير من عيني جورج وهو يستقبل إعجابها متفوّهًا:

-حقًا...

أومأت رأسها إيجابًا لتؤكد على حديثه مما دفعه لمواصلة تغزله الصريح المُبتذل:

-حاولتُ قدر الإمكان أن أجعلها تليق بكِ .... لكنني اكتشفتُ أن جميع الورود بروائحها العطرة ومناظرها الخَلابة، لن تستطيع منافسة جمالِك الآخاذ

حاولتُ كبح ضحكاتي الساخرة قدر الإمكان وكان رازي على مقربة مني يتابع هذه المسرحية هو الآخر ويشاركني السُخرية في صمت.

تهرّبت آنابيا من غزله ككل مرة بعد أن أخذت وردته واحمر وجهها كالطماطم؛ شعر جورج بخيبة أملٍ وهو يتجه نحوّنا بعوالم مُخزية قال معها:

-أعمل إيه تاني ؟... أولعلها في نفسي يعني عشان تعرف إني بحبها

قالها بنفاد صبرٍ آشاح معه يديه نحوه ورفع من نبرة صوّته منتهزًا أن لا أحد يتحدث العربية ولن يفهمه أحد سواي، وكُنت أنا بجواره أنفجر من الضحك بسُخرية على حاله ولا أجد من الكلمات ما أقولها، حسنًا، لم أجد أيضًا الوقت لذلك، فكان رازي قد تقدم نحونا ليجلس بالقُرب من جورج من الناحية الأخرى مُربتًا على كتفه بطريقة حكيمة ولكنة مغربية:

-حتى إزيد اوسميه سعيد

فتح جورج فمه ببلاهة شاركته معها لعدم فهمي لمَ يقوله رازي، فرغم أننا من دوٌل عربية، إلا أننا لا نفهم بعضنا وكأننا نتحدث لغتين مختلفتين غير العربية.

لاحظ رازي نظراتنا البلهاء والتي جعلته يبتسم عنوة ثم يُربت بعدها على كتِف جورج مؤضحًا حديثه بالفرنسية:

-لا تستعجل بالأمر .... هذه الأمور تحتاج إلى الصبر والتأني، إذا كُنت تُحبها، فاعطها فرصة لتستقبل هي الأخرى هذه المشاعر

أنهى حكمته ورحل في هدوءٍ أمام نظرات جورج الجاحظة غير المُصدقة، تلك النظرات جعلته يستنتج أن رازي قد فهِم اعترافه، وقد فهِم أيضًا لغته العربية، ذكرني هذا الموقف بأول مرة قابل فيها مُسلم واكتشف فجأة أنه يتحدث العربية وهو من فرنسا:

-هو كله بقى يتكلم عربي ولا إيه.....

أخفض من نبرة صوٌته قليلًا وهو يواصل التمتمة بجواري:

-تكونش آنابيا هي كمان بتتكلم عربي، عشان كدة مش عايزة تعبرني

حرٌكتُ رأسي بيأسٍ من تصرفاته وقررت أن أترُك مكاني لأرى أين يجلس مُسلم، فهو مُختفٍ مُنذ بداية الصباح، كما أنني حتى الآن أشعُر بالغموض من ناحيته، هو حتى لا يتحدث عن حياته أبدًا، فقط أخبرني بالصُدفة أنه كان تاجرًا بمِتجرٍ لمنتجات العناية بالبشرة والعطور، ورغم مرور الأيام، لم أعرف سبب مساعدته لي حتى.

وجدته يجلس بالقُرب من النافذة يُدخن لفافة تبغ عادية ويُتابع الشوارع الخالية في شرودٍ، جذبتُ أحد المقاعد الخشبية ووضعتها قبالة مقعده لينتبه بعدها لوجودي ويُطفيء لفافة تبغه، فهو يعلم أن رائحة الأدخنة تُصيبني بالاختناق ولا يُدخن أمامي سوى نادرًا.

-إنت كويس ؟

سألته بنبرة بريئة أطمئن بها على حاله، فجرحه قد التئم في هذه الأيام ولم يبقى منه سوى النتوء، كذلك انهياره أثناء الحريق زادني حيرة ورغبة بمعرفة ما يخُبئه.

أومأ رأسه إيجابًا وبقي صامتًا حتى سألته مجددًا:

-هو إنت .... إيه إللي جابك بقى على فرنسا ؟

هكذا سألته بنبرة مرحة تعمّدتُ معها البدء بافتتاحية بسيطة، فأنا أعلم أنني إن سألته عن سبب انهياره بالمركز فسيُغير الحديث وربما يرحل، وإذا سألته عن مساعدته لي فسيُماطل ككل مرة ويُجيبني إجاباتٍ مُبهمة لا أفهم منها شيئًا.

هذا السؤال لم أسأله إياه من قبل، رغم أنني شبه متأكدة أنه سافر من أجل المعيشة كأغلب الشباب، وكُنت أتوّقع منه هذه الإجابة النمطية، لكنه فاجأني بإجابته القصيرة وملامحه الجامدة:

-عشان أهرب

لم أفهم إجابته أبدًا مما جعلني أرميه بنظراتٍ حائرة وحاجبان معقودان حتى سألت بعدها:

-تهرب !! .... من إيه ؟

تنهيدة عميقة خرجت من جوفه ليتبعها بنبرة عميقة آجاب معها:

-من كل حاجة

إجابته الأخرى لم ترضي فضولي وجعلتني أشعر بالضجر من طريقته بالحديث، هذا ما جعلني أندفع قليلًا وأنا أقول:

-يعني إيه كل حاجة .... مينفعش تهرب كدة وخلاص، إفرض أهلك كانو محتاجينك، إفرض صحابك مش عايزينك تمشي، هتسيب كل دول عشان عايز تهرب

كان الحديث هذه المرة موّجه لي أنا، فأنا رغم أنني سافرت لبناء نفسي، إلى أنني تركتُ أصدقائي ووالداي وتجاهلتُ رغبتهما ببقائي معهما، وحتى هذه اللحظة، وبعد كل ما حدث، لا زلتُ أوّبخ ذاتي على قرار سفري وتركي لحياتي السابقة بهذه السهولة.

توّقعتُ أن يتأثر مُسلم بنبرتي المنفعلة لكن نظراته الجامدة بدأت تتحوّل إلى نظراتٍ غائرة مُحترقة، خاصة وهو يقول:

-معنديش حد أفضل هناك عشانه

كانت إجابته حادة وكأنه يوّبخني على انفجاري أمامه، لكنني حافظتٌ على ثباتي وأنا أسأله بنبرة خافتة شعرتُ معها بالقليل من الحرج:

-ليه معندكش حد ؟... إنت كُنت يتيم ؟

قُلتها باستنتاجٍ لأجده يخفض عينيه لأسفل وينفي برأسه علامة على أنه ليس يتيمًا، بقي لفترة وجيزة في حالة من الصمت تبعها بنظرة ضائعة أنهى معها الحديث بتصريحه:

-لأ مكنتش.... بس بقيت

هكذا أنهى الحديث بإيجاز اعتقدتُ معه أنه سينهار، لكنه قرر الرحيل قبل أن يصل إلى هذه المرحلة، وقبل أن يُصرّح بالمزيد من التفاصيل، كُنت أتابع سيره بنظراتٍ مصدومة، كُنت أسب نفسي عندما ضغطُ عليه بالحديث وأجبرته على الاعتراف بهذا، فبالطبع كانت الكلمات ثقيلة على لسانه، وكانت ملامحه الجامدة تخفي وراءها الكثير من الآلام، الآلام التي لا زلت لا أعرف حقيقتها كاملًا، فهو لم يقل سوى هذه الجملة ورحل بعدها، حتى أنه لم يبكي ولم ينفجر، بقي في حالة من الثبات والبرود لآخر اليوم، وككل يوم....

___

أسدلت السماء ستارها وتغلغلت عُتمتها بقاع المكان، في هذه الليلة وفي خِضم تفكيري الشارد فيما سيحدث غدًا، حيث أخبرنا لويس أن الإجراءات ستنتهي تمامًا بالغد وستسنح لنا فُرصة السفر، ولأننا في القوائم السوداء؛ اضطررنا لاستخدام أسماءٍ مُستعارة حتى لا نُثير الشكوك ونحن نستقل الطائرة المُتجهة لتل أبيب، اضطررنا أن نُزيِف الجنسية الفرنسية حتى لا نضطر لتزييف تأشيراتٍ أخرى.

جف حلقي في تلك الليلة وأنا ممدة على الفراش بجوار آنابيا، فأنا مُنذ جِئتُ إلى هنا ولم أنعم بنومة هنيئة، دائمًا ما ينغص الفكير على حياتي، كما أن المنزل هذا ليس مُريحًا بالمرة، يكفي أننا ننام ونبيت مع جُثة تجلس على الأريكة، في بعض الأحيان أعتقد أن روحها العابرة ستأتي للانتقام منا، أو ربما طردنا من منزلها.

رفعتُ جذعي عن الفراش وأنا أفرك عيني وأعُدل من وضعية القُبعة التي تُغطي شعري، نزعتُ الغطاء عن جسدي وتركتُ الفراش لأرتدي نعلي عازمة على الذهاب إلى حُجرة الطعام لأتجرع كأسًا كبيرًا من المياه يُغطي على جفاف حلقي.

كان المنزل ساكنًا سكون مدينة مسكونة، والظلام دامسٌ لدرجة تجعلك تعتقد أن المنزل يقطنه العفاريت، في العادة أشعر بالرهبة وأنا أتجوّل في المنزل بهذا الوقت، لكن ظمأي الشديد يُرغمني على سبر أغوار خوفي والتحرك بسرعة صوّب حُجرة الطعام تحديدًا أمام الثلاجة الصغيرة المحتواة على زجاجة مياه باردة تناسب هذا الطقس الحار.

انتشلتُ كوبًا زجاجيًا وفركته قليلًا أسفل المياه قبل أن أضعه على الطاولة وأملأه بالمياه المُثلجة، تجرعته على مرة واحدة وكُنت على وشك العودة إلى حُجرتي واستكمال النوم لولا هذا الصوّت الذي جعلني أنقبض مكاني.

صوّت شهقاتٍ مكتومة وأنفاسٍ متلاحقة تغلغلت جسور عقلي وجعلتني أتبعها مُرغمة، هذا لأنني فتاةٌ فضولية لا تترك شيئًا إلا وتعرف ما يخفية وما سببُه.

تحركتُ بأطرافٍ مُرتجفة صوّب الخارج ولساني لا يُردد سوى الآيات القُرآنية، هذا المنزل بنجاسته أفضل مرتع للشيطان والجان، وربما هذا اللويس يضحى من عبدة الشياطين وليس مُلحدًا.

كانت هذه شكوكي وأنا أتحرك بآلية نحو الشهقات المكتومة لأتوّقف مرة واحدة حينما أدركت حقيقة الأمر...

يجلس لويس أمام طاولة مُستديرة ومعه كأسًا من الجعة يتجرعها على مرة واحدة ويملأه مجددًا وهو يشاهد مجموعة من الصوّر، لم أشأ أن أتدخل وأقترب منه أو حتى أعرف سبب شهقاته، فهو بالأساس غريب الأطوار، لا أنسى غزله الصريح ومداعبته لتلك الجثة بهذه الوقاحة، بل وحديثه معها وكأنها على قيد الحياة.

تقدمتُ نحوه بضع خطواتٍ ثقيلة وتوّقفت لأتابعه من بعيدٍ وهو يكتم شهقاته ويُفرق ما بين الصوّر بحركاتٍ عنيفة متهجنة، أشعر أنه يتعمّد تعذيب حاله بهذه الصوّر التي لا أعرف ما هي، لكن هيئته جعلتني أشفق عليه للغاية، جعلتني أرغب بالحديث معه والتلطيف من روعه قليلًا، ففي النهاية، كان يساعدنا طوال هذه الأيام وآوانا بمنزله، وهو أيضًا كان مأويًا معنا باعتباره هاربًا من العدالة هو الآخر.

اقتربتُ نحوه بخطواتٍ مترددة حمحمت بعدها حتى لا يُصاب بالذعر، كُنت وقتها أرتدي إسدال الصلاة وأرمقه بنظراتٍ حانية بدت مُشفقة رغم أنني حاولتُ جاهدة إخفاء شعوري بالشفقة.

كفكف دموعه بسرعة ليرمقني بنظراتٍ جامدة خالية من المشاعر، يبدو أنه يشعر بالريبة من وجودي، أتمنى ألا يفهمني بطريقة خاطئة:

-معذرة .... استمعتُ إلى شهقاتك رغمًا عني ... هل يوجد ما يُضايقك ؟

قُلتها بصوّتٍ مُترددٍ يحمل أرطالًا من الأدب المبالغ به، وما كان منه سوى أن نظر لي نظرة جامدة قال معها رغبة بإنهاء الحديث:

-لا يوجد شيءٍ ... إتركيني وشأني

أنهى حديثه ببعض الوقاحة التي لم تؤثر بي قيد أنملة، أعلم جيدًا أن المرء حينما يضيق به الحال، آخر ما يتمناه هو أن يحكي مُعاناته للغرباء.

-لم أقصد أن أتدخل بحياتِك .... أردتُ فقط الاطمئنان

قطع حديثي بنبرة مُستهجة:

-وأنا بخير ... لا داعي للقلق

استقبلتُ كلماته الوقحة المُستحقرة بطريقة عادية كِدت معها أهمُ بالرحيل وأتركه وشأنه، لكن فضولي يُرغمني على بقائي حتى أعرف حقيقة هذا الغريب، لماذا ترك جُثة زوجته ولم يدفنها حتى الآن ؟ ولماذا لا يُصدق بوجود الخالق ويعاملنا بازدراء ؟ وكأننا بالنسبة له مصدر عيشٍ ليس إلا، ففي النهاية أخذ منا 400 ألف يورو مقابل الخدمة التي أسداها لنا.

-أعلم أنك بخير، وأعلم أنك لن تُصرِّح بما يجيش به صدرك .... لكن دعني أسألك سؤالًا واحد ..... لماذا اخترت هذا الطريق وأنت تعرف نهايته جيدًا ؟...

قُلتها ببعض الحدة حتى ينتبه لحديثي ويتوّقف عن لكنته المُستحقرة؛ وجدته بعدها يرميني بنظراتٍ مُستخفة سأل معها بسخرية:

-وما هذا الطريق الذي اخترته ؟

-طريق الانحلال ... أن تترك ذاتك للشيطان وتُنفذ أوامره باستسلام .... وأنت تعرف جيدًا أن نعيم الحياة لا يدوم

هكذا قُلت باندفاع تشربه بعض العُمق الذي جعله ينفجر من الضحك ساخرًا، أرخى ظهره للوراء ليعبث بخُصلاته الحمراء القانية قليلًا قبل أن يرد علي بسُخرية:

-طريق الانحلال !! .... من أين تعرّف عليكم أرضوان ؟

بقي يُقهقه بسخرية جعلتني أستشيط غضبًا وأسبُ ذاتي ألف مرة على قراري بالحديث مع هذا الوقح، إلى أنها فترة وجيزة حتى وجدته يُبدل نظراته الساخرة بأخرى جحيمية رمقني بها وهو يقول ببعض الغضب:

-ومن قال لكِ أنني أتبِّع الشيطان ؟.... أنا أعيش على هواي، لا يوجد من أقوم باتباعه

قطعتُ حديثه هذه المرة باعتراض:

-الشيطان يهمُك أنك تسير على هواك ..... لكن الحقيقة أنك تُنفذ رغباته دون أن تعلم

كانت كلماتي منطقية أردتُ أن أخبره من خلالها أن عدم إيمانه بالله يعني أنه تركُ نفسه عبدًا للشيطان، ليس ضروريًا أن يسجد للشيطان حتى يضحى عبدًا له، فهناك عبودية تتمثل في تنفيذ أوامره دون أن تعلم، هكذا أرضتُ أن أخبره حتى يفق ويُدرك خطأه قبل فوات الأوان، لكنني لثاني مرة أصدم بنظراته الباردة وهو يقول بحدة:

-أيًا يكن .... على الأقل الشيطان لن يخذلني مثلما فعل إلاهكم

هكذا قال بنبرة جعلت الدماء تغلي بعروقي، لكنني حاولتُ المحافظة على ثباتي وأنا أسترجع كلمات والدي الذي جعلني أحفظها عن ظهر قلب، حتى انتهت ذكرياتي وأنا أسأل بثبات:

-ومن جعلك تعتقد أن إلاهنا خذلك ؟

تعمدّت الحديث بطريقته حتى ينصت لي جيدًا، فقد رأيتُ مُسلم أكثر من مرة يتعمّد الحديث بطريقة الخِصم حتى يستطيع التأثير عليه، وهو الذي أخبرني بهذه الحيلة ذات مرة.

تنهدٌ لويس تنهيدة عميقة أرخى معه ظهره للوراء مجددًا وبدا على وجهه الانكسار والضيق أثناء قوله:

-هل تعتقدي أنني وُلدتُ مُلحدًا ؟ .... هذا ليس صحيح، لقد وُلدتُ مسيحيًا كاثوليكيًا، وكُنت شديد التديُن، كان والدي قسيسًا، ووالدتي تقرأ علي نصوصًا من الإنجيل يوميًا .... كُنت كأي شابٍ مُتدينٌ يخشى على دينه ويُدافع عنه طوال الوقت .... لكن

صمتُ بُرهة عن الحديث ليستكمل بنبرة تزداد انكسارًا:

-تكالبت علي الأهوال .... فقدتُ والدي في ظروفٍ غامضة، ووالدتي .... أصيبت فجأة بمرضٍ خطير، وتوّفت بعدها بأيام .... لم يكن لي أي إخوة ولا حتى أصدقاء .... حتى صديق طفولتي الوحيدة، هاجر لدولة أخرى بأوروبا، ولم أعرف أين ذهب

أخذ نفسًا عميقًا ثم أطلقه ليستكمل حديثه:

-كُنت أتسآل دائمًا عن سبب ما يحدُث لي ؟ .... لماذا يعاقبني الرب هكذا ؟ لماذا ينغص علي حياتي ؟ أليس قادرًا على التحُكم بحياتنا كما تقولون ؟ لماذا يجعلنا نتعذّب ؟

أطلق تنهيدة عميقة أعقبت حديثه المُندفع والذي تبعه بنبرة أكثر هدوءًا:

-أدركتُ وقتها أن إيماني لم يكُن سوى مضيعة للوقت .... سِرت في اتجاهٍ آخر، بدأت العمل بكل ما تتوقعينه من الأعمال المشبوهة، أسرق وأنهب وأعتدي على السيدات من أجل المال، أقوم بالتزوير .... وفوق كل ذلك، كان إيماني ضعيفًا، أصبحتُ مسيحيًا بالبطاقة فقط، كُنت آمل أن يعوّضني الرب عن هذه الأيام ... ويُعطيني فُرصة أخرى لأتمسك به أكثر

رسم بسمة مُتهكمة على ثغره قبل أن يفضي بما بجعبته:

-وبالفعل أتت هذه الفرصة ..... ظهرت نتاشا أمامي، كانت كالملاك الذي يسير في عالمٍ يملأه الشياطين، ابتسامتها الساحرة كانت تُنسيني الفساد الذي تسببتُ به بالفترة الأخيرة .... اعتقدتها هدية من الرب، وأكثرتُ بعدها من صلاتي حتى أتوّب عمَ اقترفته من آثام، كنت على استعدادٍ للبحث عن وظيفة بسيطة والتقدم للزواج منها لنكوّن أسرة هادئة كُنت أحلم بها طوال حياتي

تلاشت بسمته المُتذكرة ليحل محلها نظراتٍ مُقتضبة تحمل غلًا دفينًا:

-وحتى هذه سُلبت مني قبل أسابيع من مجيئكم

تنفس الصُعداء وهو يمنع دمعة شاردة انحرفت عن طريقها وتوّقفت على وجنتيه:

-توّفيت نتاشا إثر حادث سير مرير .... اختفت آخر ذرة أملٍ لي بهذه الحياة .... ومن بعدها توّقفتُ عن الصلاة نهائيًا، عُدتُ إلى أعمالي المشبوهة، وأعلنتُ إلحادي .... لم أعُد أثق بهذا الإله الذي يُعذبني.... ولا بأي إلاهٍ آخر

انتظرته حتى يُفرغ ما بجعبته تمامًا حتى أتقدُم بجذعي وأقول بنبرة هادئة:

-من قال لك أنه يتم تعذيبك ؟ .... ربما كان هذا اختبارًا

كانت كلماتي كفيلة بضخ الدماء لأوردته وجعله يرميني بنظرة غاضبة تُكذب حديثي:

-إختبار !! ... ولماذا يتم اختباري ؟ أنا لم أترك عملًا خيرًا وإلا فعلته ارضاءً للخالق .... وأنتِ تقولين أنه يختبرني!!

بات يصيح بوجهي بتلك الكلمات المتضاربة التي جعلتني أحافظ أكثر على هدوئي وأنا أقول:

-نعم .... مهما فعلت من أعمال خيرية، ستظل في إختبارٍ حتى الآخرة

حرّكتُ يداي في الهواء وأن أفسر حديثي:

-هذه الحياة أشبه بالمدرسة ... إذا أردت النجاح، عليك أن تُذاكر جيدًا .... لكن المذاكرة وحدها لا تكفي، عليك أن تخضع للاختبارات باستمرارٍ حتى تتأكد أنك قادرًا على مواجهة الاختبار الأخير ... الاختبار الحقيقي

بقي صامتًا يتجرع حديثي كلمة كلمة وينصت لي بإذعان:

-عندنا بالإسلام، نعتبر جميع الصعاب والشدائد هي اختبارات لها أجرٌ عظيم، وقد تكلّم الله عن هذا في كتابه حين قال

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزُمر 10

وقد نعتبر الاختبارات أيضًا تكفيرًا عن الذنوب، وهذا يعني أن كُل ما سُلب من المؤمن الراضي في الدنيا سوف يعوّضه الله عنه في الدار الآخرة، قبل أن تُحاسب الله على ما تعاني منه، تذكُر ذنوبك التي اقترفتها، وتذكر أيضًا أن الله يحمل لك الحياة الصائبة والاختيار الأنسب.

أثرت كلماتي الحكيمة على القليل من شخصيته، لكنه مع ذلك سألني رغبة بإرضاء تلك الوساوس:

-وهل كان يعرف الله أن هناك مُظلمًا مُعذبًا ؟ وأن هناك السيء من البشر ؟ لماذا لا يجعل الجميع أسوياء ؟ لماذا خلق النار وهو بإمكانه إدخالنا جميعًا إلى الجنة ؟

بات نقاشي أشبه بنقاش الدُعاة الإسلاميين، مع ذلك كُنت أشعر بالسعادة وأنا في خُضم هذه النقاشات.

-الله لم يخلق مُعذبًا أو مُظلمًا أو حتى السيء من البشر .... هو فقط خلق لنا حُرية الإرادة، ونحن نختار أي طريقٍ لنسُلك

-ولماذا خلق لنا حُرية الإرادة ؟

-هذا لأننا من أسمى مخلوقات الله

لم يفهم مقصدي جيدًا لذلك حاولتُ التفسير بطريقة مُبسطة:

-برأيك أي الخيارين أفضل .... أن يتحكم أحدهم بتصرفاتك ويجعلك معصومًا من الخطأ ... أم أن يبقى لك حُرية الإرادة لتفعل ما يحلو لك ؟

صمتٌ ولم يُجب على سؤالي مما جعلني أحاول التفسير أكثر:

-الملائكة خُلقت مسلوبة الإرادة، تُنفذ رغبات الله فقط، أي أنها معصومة من الخطأ ... أما نحن، لسنا معصومين من الخطأ، هذا يعني أن أفعالنا الخيِّرة ستضحى ذات قيمة، لأننا قاومنا الخطأ .... لذلك فنحن أرفع المخلوقات، وأكثر من يقاوم الخطأ، هو من له جنة الفردوس

باتت عوالم السُخرية الطفيفة تلوح على وجهه رغم وقع كلماتي على مسامعه، يحاول العثور على ثغرة بحديثي حتى يتعمّد إيقاعي وتصديق حديثه، ربطٌ ذراعيه باستهجانٌ وهو يسأل:

-ما تقولينه ليس عدلًا .... لماذا يخلق جنة الفردوس وهو يعلم أن القلة فقط هُم من سيستطيعون تخطي العقبات ودخولها ؟

صمُتُ برهة عن الحديث وأنا أفكر في إجابة على سؤاله حتى انتهيتُ بقولي:

-لماذا برأيك يقوم عالمُ جليلٌ ببناء كلية الطب وهو يعلم جيدًا أن المتفوقين فقط هم من سيدخلونها ؟

صمتٌ ولم يجد إجابة لذلك واصلت:

-كذلك الله يخلق الجنة، حتى تضحى هدفًا ساميًا لمن يُريد النجاح بآخر إختبار...

طال حديثنا ونقاشنا لأكثر من ساعة حتى بدأت الشمس بالبذوغ، أقنعته ببعض التعاليم الإسلامية وحدٌثته عن القدر والجنة والنار والصبر وغيرها من القيم والمباديء الواردة في الإسلام، ومع كل كلمة أقولها، كان الوجوم يطغي على وجهه ولم يجد من الكلمات ما يدحض به حُجتي، وقتها تذكرتُ مقولة كان والدي قد أخبرني عنها سابقًا، هذه المقولة تقول " القليل من العِلم يجعلك مُلحدًا، أما دراسة مُتعمقة به، يجعلك مؤمنًا " هكذا اعتمدتُ على هذه المقولة وأنا أشرح وأفُسر له ما اقترفه بحق جُثة نتاشا التي يجب أن تُدفن كأي جُثة، فمهما كانت قُدرته على التحنيط، لن يستطع حفظ جُثتها لأكثر من يومين آخرين.

وفي نهاية حديثنا، أهديته نُسخة من القرآن مُترجمة بالفرنسية، والتي ابتعتها من رجلٌ مسكينٍ كان يبيعها على قارعة الطريق ولا يشتري منه أحد، بل كانوا حتى يرمقونه بازدراء وكأنه يبيع الملابس الخليعة.

عُدتُ بعدها إلى فراشي بنفسٍ راضية ونظرة قد تغيَرت مئة وثمانون درجة حيال لويس، انتقلت نظرتي من اعتقادي بأنه غريب الأطوار، إلى إشفاقي عليه، فهو طوال هذه الفترة كان في حالة من الضياع والتخُبط.

لا أعرف كيف أقوم بهدايته وأنا مطلوبة من العدالة وقد طلبتُ منه أن يُزيف لنا جوازات السفر، لكن هذا لا يُهم، أنا أفعل ذلك من أجل ابنتي فقط، وربما سأفكر جديًا بالتوبة بعد أن تُصبح ابنتي بين أحضاني.....

17يونيو 2015 ليون : فرنسا

ها قد أتى اليوم المنشود، اليوم الذي بقيتُ طوال هذه العشرة أيامٍ أدعو أن يمُر على خير وأنتهي من هذا الكابوس، كان لويس قد انتهى من تذاكر السفر واضطر لتزييف جوازات سفرنا لنحصل بعدها على جوازات سفرٍ فرنسية، وكان اسمي في هذا الجواز " راحيل ميمون " أما صورتي فلم تختلف كثيرًا عن صوٌرتي الحقيقة مع إضافة بعض التعديلات بواسطة تطبيقات الصوٌر.

استيقظنا باكرًا في هذا الصباح لنتناول فطورنا البارد ونتجه بعدها صوٌب الحُجرات حتى نأخذ أمتعتنا، لم يكن لويس بالمنزل وهذا ما آثار حيرتي، كذلك الرائحة الكريهة لم تكن قوية هذا اليوم مما زاد شكوكي أضعافًا، تلك الشكوك تبخرت مرة واحدة حينما وجدنا باب المنزل يتم فتحه ليدلف لويس بأعينٍ حمراء مُنتفخة وكأنه بقي لساعاتٍ في حالة من البُكاء المتواصل.

لم يشأ أن يسأله أحدهم عمَ حدث معه لكنني وجدته يقترب نحوي ويرميني بنظراتٍ ممتنة حمٌلت كمًا هائلًا من الأوجاع، أخبرني بصوٌتٍ خافتٍ أنه دفن جُثة نتاشا وأقام

عليها الحِداد، أخبرني أنه طوى صفحتها ولن يعيش على أطلال الماضي مرة أخرى، أي أنه سيحاول من جديد لعل القدر يُخبيء له المزيد من المفاجآت.

كانت كلماته هادئة نابضة بالحياة والأمل، تشكرني كذلك على المُصحف الذي هديته إياه والذي لم ينم ليلته بسبب غرقه في بحور كلماته الساحرة، وتشكرني كذلك على حديثي معه البارحة والذي غيَر الكثير من شخصيته وتفكيره، كان سيواصل تشكُري لولا تدخل جورج بالحديث وإمارات السُخط نابعة من عينيه، أقسم أنني اعتقده يظنني أقيم معه علاقة من ورائهم.

فض الحديث بيننا وسأل لويس عمَ سنفعله فيما بعد؛ عاد بعدها لويس لأرض الواقع وساعدنا على نقل حقائبنا بسيارة رازي التي انتظرتنا بالخارج...

وها نحن الآن، ندلف مطار ليون بحقائبنا وقناعات الوجه التي تدثرنا خلفها مُدعيين أننا نعاني من مرضٍ خطيرٍ، تذكرتُ انتشار مرض انفلوانزا الخنازير وقتها لكنني لا أعرف إن كان هذا المرض قد انتشر هنا أيضًا.

وقفنا في صفٍ عريضٍ لا آخر له حتى نقف أمام نافذة التذاكر ونتجه بعدها لنستقل الطائرة، كلما تقدمنا خطوة نحو النافذة، زادت ضربات قلبي وارتعادة جسدي، حتى أنني شككتُ في لحظة أنني سأهوي على الأرض من شدة الخوف.

كنت أنا ومُسلم أول من بالصف فأعطينا تذاكرنا وجوازات سفرنا المزوَّرة لهذا الرجل الذي بدوَّره سيُخبرنا أي طائرة سنستقلها، كان يتفحص حاجياتنا بنظراتٍ مُقتبضة جعلت أنفاسي تتهدج وتكاد تختنق، بادل حدقاته ما بيننا وبين الجوازات حتى شككتُ للحظة أن أمرنا سيُكشف وسيعلم أن أوراقنا ليست حقيقية، إلى أن ما قاله بعد ذلك، جعل قلبي يهوي أرضًا:

-أنزلا الأقنعة

أخبرنا بأمرٍ ونبرة قاطعة جعلتني أبادل نظراتي مع مُسلم حتى ينجدنا من تلك الورطة، فإذا رأى وجهنا، سيتم إبلاغ الشُرطة على الفور ومن بعدها سيُلقى القبض علينا.

-أعتذر سيدي .... نحن نعاني من مرضٍ خطير....

قالها مُسلم ثم مثل السُعال لفترة وجيزة قبل أن يواصل:

-لن نستطيع نزع الأقنعة ... وإلا سينتشر المرض في كل مكان

بقيت نظرات الجمود تلوح على وجه الرجل الحامل لجوازاتنا حتى أردف بإصرارٍ حمل معه إمارات التهديد والشك، فكان يتكيء على حروفه وهو يقول بتهديد:

-أنزلا الأقنعة .... وإلا سأبلغ الشُرطة....

الفصل الخامس عشر (معًا إلى جُحر الفئران)

((إيمان))

17يوليو 2015   ليون : فرنسا

ليست جميع الحماقات نرتكبها دون إرداتنا، فهناك حماقاتٌ نضطر لارتكابها....

لا زلنا نضع الأقنعة على وجوهنا وندّعي الثبات أمام هذان العينان اللتان على وشك إحراقنا أحياءً، كُنت أعلم أن انكشافنا سيأتي بسهولة، لكنني توّقعت أن نُكشف على الأقل ونحن داخل الطائرة وليس أمام البوابة، نحن حتى لم نلحق استلام بطاقة الصعود إلى الطائرة.

لاحت عوالم الصرامة على وجه مُسلم الواثب بجواري وهو يطالع موظف الطيران الذي يصرٌ على إزلاتنا لأقنعتنا حتى يتأكد أن صورتنا مطابقة للصورة الموجودة بجواز السفر، وعندما واصل أوامره الجلفة، وجدتُ مُسلم يمدٌ يده متفوّهًا بتهذيبٍ آصابني بالحيرة:

-حسنًا سيدي ... أعطنا جوازات السفر .... نحن لن نسافر اليوم

جحظت عيناي في ذهولٍ وأنا أنصتُ لحديثه العجيب ولا أعقب، كِدت أعترض حديثه لكنني أردتُ معرفة إلامَ يرمي بالضبط، فبالطبع يوجد برأسه خطة ما.

مدٌ مُسلم يده ليلتقط جوازات السفر والتذاكر متفوّهًا وهو يُشير على بُقعة تبتعد عنا ببضعة أمتار:

-أهذه هي الطائرة المُتجهة لإسرائيل ؟

أومأ الموظف إيجابًا وهو يرميه بعلاماتٍ مُتشككة حاول مُسلم إجحامها بقوله المُبرر:

-صديقي سيستقل هذه الطائرة .... لهذا السبب أسأل

لم يُعقب الموظف على حديثه وبقي يُتابعنا بحيرة ونحن نبتعد عن أمام النافذة ليتحرك مُسلم بخطواتٍ سريعة والجميع يتحرك وراءه بعد أن علم أن الموظف لن يتركنا وشأننا.

وضعنا حقائبنا بالخفاء بين الحقائب التي ستوّضع داخل الطائرة المرادة ثم اتجهنا فورًا إلى حيث مقر الركوب متحدٌيين جميع القوانين وعازمين على التحرر من هذه القيود مهما كلفنا الأمر، لكن يبدو أن الحظ لم يُحالفنا.

كُنا قد قُسمنا إلى فرقتين، حيث مُسلم وأنا وأرضوان نقترب من الطائرة بينما يذهب جورج مع آنابيا ورازي ليضعوا الحقائب، اعترضنا مجموعة من عناصر الشُرطة المدنية يقومون بأمورٍ تفتيشية على جميع الرُكاب قبل صعودهم الطائرة، ولأننا انسللنا للصف بخفاء، فكانت العيون مُتمركزة نحونا ونحن نحاول الاختباء قدر الإمكان حتى تقدم نحونا واحد من عناصر الشُرطة متفوّهًا:

-تذاكركم ؟

أخرج مُسلم التذاكر وأعطاها للشُرطي حتى يتفقدها بنظراتٍ مُتشككة سأل بعدها:

-أين بطاقة الصعود ؟

تبادلنا النظرات في حيرة لا ندري معها ماذا نقول، لكن أرضوان حاول إنقاذنا بتلك الورطة من خلال كلماته الثابتة:

-وما الفائدة من وجودها ؟ ألا تكفي التذاكر ؟

حاول التظاهر بالبراءة والجهل حتى لا يشُك بنا الشُرطي والذي تفوّه بصرامة:

-لا يجب أن تسافرا بدون بطاقة الصعود .... ارحلوا من هنا من فضلكم

هكذا أنهى الحديث وهو يُشير لنا بالابتعاد وكانت نظراته قد انقلبت إلى نظراتٍ تهديدية جعلت مُسلم يكوّر قبضته في غضب ويتقدم نحوه بعينين متقضتين بالشرر:

-وإن لم نرحل ؟.....

صمتٌ حتى ينتظر الشُرطي الذي ردٌ بوعيد:

-سأجعلكم ترحلون رغمًا عنكم

قالها الضابط بصوّتٍ غليظٍ جعل مُسلم يزداد غضبًا ويطبق على شفتيه في حنقٍ بالغ، يبدو أن هذا الشُرطي لن يتركنا وشأننا، وربما يكشف أمرنا فيما بعد، أو نكشف نحن أمرنا بأنفسنا!!

لكمة قوية هوّت على وجنة الشُرطي وجعلته يقع على الأرض ويزداد الصُراخ من حولنا، أمسكني مُسلم من مرفقي وجذبني بقوة حتى أهروّل معه مُخترقين الصفوف عازمين على الوصول إلى الطائرة مهما كان الثمن، لكنها لحظات قصيرة وتدهوّر كل شيء مثل الجبل الذي سقط على رؤوسنا.

العديد من الأسلحة أشُهرت علينا يصحبها نظراتٌ مُتقضة أرغمتنا على الاستسلام ورفع أيدينا لأعلى، فقد كُنت أقف بجوار مُسلم أرميه بنظراتٍ معاتبة ثم أرفع يدي في استسلام.

-أنزلا الأقنعة

قالها الشرطي بغضبٍ أرغمنا على الاستجابة وإزاحة الأقنعة، ففي جميع الأحوال، قُضي علينا، وانتهى أمرنا للأبد.

أزحنا أقنعتنا بحركاتٍ بطيئة آلية حتى انكشفت حقيقتنا وبدأت الصرخات والسباب تنطلق من حولنا وكأنهم رأوا وحشًا أو مُجرمًا مغمورًا، أو كأن هتلر عاد للحياة ويتمثل الآن بكلينا.

قبضٌ الشُرطي على سلاحه وكانت نظرات النصر تلوح على وجهه وكأننا غنيمة حربٍ دامت لسنوات، اقترب نحونا بخطواتٍ صارمة وكاد يُكبلنا بالأصفاد لولا ما حدث بعد ذلك....

صيحة عالية انطلقت من خلفنا يصحبها أرضوان ورازي وحتى جورج وآنابيا، أتى الجميع ليُخلصنا من براثنهما وينقضوا على عناصر الشُرطة حتى انطلقت نيرانهم في كل مكانٍ وتعالت أصوات الصرخات والاستنجادات، ومن ضيق الموقف، أصيب واحدٌ من عناصر الشُرطة برصاصة على كتفه كان من المُفترض أن تُصيب أرضوان لولا تحركه في آخر لحظة.

وكأي مكان أدلف إليه بالفترة الأخيرة، انقلب المطار إلى كارثة، وبدأت عناصر الشُرطة تنتشر في كل مكان والأشخاص يركضون ويستنجدون كما لو أننا أتينا لتفجير المطار.

ركضتُ خلف مُسلم وأرضوان حتى انقطعت أنفاسي، بينما ركض جورج وآنابيا ورازي باتجاهٍ آخر حتى تتشتت الشُرطة ولا تعثر علينا مرة واحدة، بقينا نركض ونركض وندفع موظفي الطيران على الأرض والعاملين الذين يحملون الحقائب وغيرهم من الرجال والنساء الذين دفعناهم دون قصدٍ حتى ننفد بجلودنا.

توّقفنا عن الهرولة في مكانٍ ناءٍ خلف جدارٍ يقع بنهاية الرُدهة داخل المطار، احنينا جذوعنا ونحن نلتقط أنفاسنا الهاربة ونحاول أن نعثر على بُقعة أخرى للهرب أو طريقة لاستقلال الطائرة دون أن تعثر علينا الشُرطة.

رفع مُسلم جذعه وهو يرمينا بنظراتٍ حادة واثقة حاول معها إرشادنا:

-يجب أن تعرفوا جيدًا أساليب المطاردة، لأن هذه هي التي ستُمكننا من النجاة

قطبتُ حاجباي وأنا أسأله بين لهيثي:

-وما هي هذه الأساليب ؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم أطلقه ليهم بالشرح بعدها:

-أولًا : حافظوا على هدوئكم، فالذعر سيُعيق قدرتنا على التفكير

أومأنا رأسنا إيجابًا لنستمع إلى ما تبقى من حديثه:

-ثانيًا : يجب أن نُغير اتجاهنا ولا نركض في خطٍ مستقيم، وهذا حتى نسبب حالة من الإرباك للمطارد

رفع آصابعه بعلامة ثلاثة وهو يواصل بين نظراتنا الممعنة بحديثه:

-ثالثًا : نستخدم المُحيط لصالحنا، أي نستخدم المباني والسيارات وغيرها من العوائق للإختباء أو لإبطاء حركة المُطارد

توّقف عند هذه النقطة ليتلتف حوله بحثًا عن طريقة لتنفيذ حديثه، وفي تلك اللحظة، تدخل أرضوان متفوّهًا بثقة:

-فهمتُ ما ترمي إليه .... وأعرف كيفية تنفيذه.....

____

كانت حركاتنا بطيئة ونحنُ نسير خلف أرضوان نتلفتُ يمينًا ويسارًا تجنبًا لعناصر الشُرطة، وأثناء سيرنا، اعترضنا أصوات أقدامٍ تأتي من الخلف ونعرف جيدًا أنها لواحدٍ من الشُرطة الذين بدأو بالتوّغل أكثر داخل المطار بحثًا عنا.

اضطررنا لدلوف المرحاض الذي كان قريبًا منا حتى نختبيء، كان المرحاض فارغًا لحُسن الحظ مما مكننا من الإختباء، لكنه لن يُمكننا من الاختباء طويلًا، فسرعان ما سينكشف أمرنا الآن، أو فيما بعد.

وقعت عينا مُسلم على عصا خشبية خاصة بالممسحة؛ اقترب نحو هذه العصا واستخدم جميع قوّته حتى يفصلها عن الجُزء الذي يُستخدم للتنظيف حتى يستخدمها للحماية.

تحرّك بعدها خارج المرحاض بحركاتٍ بطيئة وبقي واثبًا أمام الباب بنظراتٍ مترقبة ويدان ترفعان العصا باستعداد، وما هي إلا لحظة قصيرة حتى هوّى بهذه العصا على

ظهر الشُرطي مما جعله يُطلق تأوهًا مكتومًا قبل أن يقع مغشيًا عليه، وكُنت أنا أشهق بصدمة وأضع يدي على فمي خوفًا من تعرّض هذا الضابط للأذى، نحن حقًا لا ينقصنا المزيد من الجرائم.

أحنُى مُسلم جذعه ليلتقط سلاح الشُرطي ثم يُشير لنا بالاقتراب نحوه، وبالفعل فعلنا ذلك وبقينا وراءه نحتمي وراء ظهره ونتحرك وفق تعليمات أرضوان الذي يعرف المطار حُجرة حُجرة، فهو قد حفِظ الخريطة عن ظهر قلبٍ قبل مجيئنا.

توقفنا أمام حُجرة كُتب عليها " مركز التحكم " بالفرنسية والإنجليزية، رفع مُسلم السلاح وأمسك معه بترقُّبٍ ثم رمانا بنظرة عابرة قبل أن ينظر مجددًا لباب الحُجرة ويتقهقر للوراء بضع خطوات لينقض مرة واحدة على الباب مُحطمًا إياه باستخدام قدمه.

انقبض قلبي إثر تحطُم الباب وانقبض أكثر ونحن نقتحم الحُجرة ونجد بداخلها رجلين يرتديان ملابس موظفي الطيران بجوارهما رجلٌ آخر أعتقد أنه مُشغل مركز التحُكم الذي يقوم بإصدار الإذاعة، فهذه هي الغرفة المركزية المسؤولة عن جميع العمليات بالمطار، ويتم فيها استخدام نظامٍ صوّتيٍ للإعلان عن المعلومات المُهمة للمسافرين.

كان أمامنا أيضًا رجلان من مسؤولو الأمن رفعا أسلحتهما وأشهراها أمام مُسلم الذي لم يهتز ولو للحظة وبقي صلبًا أمامهما يرميهما بنظراتٍ مُتقضة تبعها بخطواتٍ بطيئة أوقفها أمام فوّهة السلاح مباشرة.

تحداه مسؤول الأمن أكثر وقام بتعمير السلاح بينما لمحنا يد مُسلم التي تُشير لنا من وراء ظهره حتى نبتعد، فيبدو أن هناك معركة أخرى على وشك النشوّب، هذه المعركة بدأت حينما حاول مسؤول الأمن إطلاق رصاصة لم تنجح باختراق رأس مُسلم الذي سبقه بحركة سريعة أمسك معها مرفق الرجل وركله على معدته، انطلقت النيران أيضًا من رجل الأمن الآخر لكن هذه الرصاصات لم تُصب سوى قدم زميله الواثب أمام مُسلم يئن من الوجع.

أما بقية من كان بالغرفة، فتولينا أنا وأرضوان أمرهما، حيث أمسك أرضوان سلاح رجل الأمن ووجهه على الموظفين مُهددًا إياهم بترك الحُجرة وإلا آصابتهما

الرصاصات، ولأنهما ضُعفاء، استجابا فورًا وتركا الحُجرة هما وفرد الأمن الذي أصيب ولم يعُد قادرًا على الحُركة.

لم يكن مُتبقي سوى رجل الأمن الثاني الذي جعلني أخلع حذائي وأهوّي بها بقوة على ظهره حتى يتشتت ويبتعد عن مُسلم، فقد كان مُنقضًا عليه يكيل له اللكمات ويحاول مُسلم إيقافه والدفاع عن نفسه، وعندما أتته تلك الضربات الضعيفة من حذائي، تراخت حركته قليلًا وبدأ بالتأوه قليلًا وهو يضع يده على مؤخرة رأسه موّضع ضرباتي.

انتهز مُسلم اللحظة وركله ركلة قاضية أصابت فكه وجعلته يبصق الدماء ويغيب عن الوعي تمامًا، فما إن غفا حتى أحنى مُسلم جذعه وأمسك بالأصفاد التي كانت بجعبة الرجل ليستخدمها بتكبيل يديه حتى لا يستيقظ ويُعيقنا مرة أخرى.

ما إن انتهى هذا العراك الصغير حتى اتجه أرضوان نحو أجهزة التحكم وواقترب بفمه من مُسجل الصوّت ليضغط بعدها على زر التشغيل حتى يصدح صوّته في المكان وهو يقول:

-على السادة الحضور ... يجب إعلامكم أن هناك قُنبلة ذرية تم اكتشافها داخل المطار وهي على وشك الانفجار .... برجاء التوّجه خارج المطار فورًا قبل أن تتعرضوا للأضرار، ونرجو أن يتم ذلك بهدوء، دون صياحٍ أو شِجار....

أنهى حديثه بثقة وكرر جملته بطريقة مُنغمة قلّد معها صوّت المذياع الموجود بالمطار، وما هي سوى فترة وجيزة حتى حلّت الكارثة بجميع الأرجاء وبدأ الناس يهرولون في ذعرٍ ويصرخون في استنجاد، حتى موظفو الطيران الذين اتصلوا بالشُرطة حتى تأتي للقبض علينا، أصبحوا الآن يهرولون بين المارة ويحاولون إخبارهم بالحقيقة لكن الأمر مُستحيلٌ أمام هذا العدد من المسافرين.

تركنا الحُجرة بعدها لنجد الفوضى تعُم المكان، تزاحم المطار مرة واحدة وانتشرت أصوات الصُراخ والبُكاء، ولأننا سببًا في نشر هذه الشائعة، لم يكن يُصيبنا أي من هذه المشاعر المُضطربة الخائفة، بل انتهزنا الفُرصة حتى نستقل الطائرة قبل العثور

علينا، فالشرطة الآن مشغولة بفض هذا الجمع من المسافرين والمحافظة على الهدوء، وأيضًا البحث عنا.

دفعنا العديد من المسافرين ونحن في طريقنا للطائرة المرادة وهذه المرة، سنستقلها مهما كلفنا الأمر، بقينا نهرول مجددًا حتى باتت الهرولة جُزء من حياتي، هذه المرة كانت المطاردة أسهل بسبب انشغال الشُرطة بالمسافرين وصعوبة العثور علينا وسط هذا الجمع من الناس.

كنا على شِفا جرفة من استقلال الطائرة لكننا توّقفنا بحثًا عن البقية، أخرج مُسلم جواله وحاول الاتصال بجورج دون فائدة، بالطبع لن يستمع إلى هاتفه وسط هذا الصُراخ.

جحظت عينا أرضوان مرة واحدة وهو يُشاهد بقعة بعينها دفعتني لرؤية ما يراه وتزداد صدمتي أنا الأخرى....

كان هناك مجموعة من رجال الشُرطة يكتنفون رازي حتى أوقعوه على الأرض وكان رازي لا يتوقف عن المقاومة حتى وضع الشُرطي ركبته على ظهره وضغط عليه وهو يقبض على ذراعيه ويضع بهما الأصفاد عنوة، وشُرطي آخرٌ يتشبث بذراع جورج ويمنعه عن الحركة هو وآنابيا التي حاولت المقاومة معهم بلا فائدة، فهما على وشك أن يتم الإلقاء بهما على الأرض كرازي.

تغلغلت الدماء بعروق أرضوان كما تغلغلت دمائي أنا ومُسلم، لكن لأن أرضوان هو أول من شاهد ما حدث، فكان أول المتحركين، وجدناه يهرول بأقصى ما لديه ليدفع جموع الناس وينقض على الشُرطي الواثب فوق ظهر رازي وهو يصيح به:

-ابتعد عنه أيها الحقــير....

كِدنا نتحرك أنا ومُسلم حتى نقوم بإنقاذهم لكن المسافرين كانوا يتحركون أمامنا بكثرة ويمنعوننا عن الحِراك، ومع ذلك لم نستسلم وعزمنا على تخليصهم حتى تدخل القدر وقلَّب جميع الموازين.

شاهدَنا واحد من الشُرطة الواثبون بجوارنا أنا ومُسلم ليضع يده على خِصره مُخرجًا سلاحه ومُشيرًا على زملاءه حتى يلحقوا بنا، تأزم الموقف وقتها وأُصبت بحالة من التشتت وأنا لا أعرف ماذا أفعل.....

____

((جورج))

17يوليو 2015 مطار ليون : فرنسا

لا أعرف حقًا إن كان هذا حظًا أو صفعة على الوجه، ففي حالتنا هذه، اختفت جميع القوانين، ولم يعُد هناك وقتٌ للتفكير، نحن حتى لم نعُد نعرف إن كنا مظلومين أو مجرمين، فإن كانت حادثة بيناك هي مُجرد سوء حظ، فماذا عن الحريق والسطو والسرقة والاعتداءات العديدة التي قُمنا بها في سبيل الهروب والنجاة، آكاد أجزم أننا أصبحنا من أمهر المجرمين في العالم.

وضعنا الحقائب في الخفاء ونحن نرتدي الأقنعة ونحاول قدر الإمكان التقليص من حديثنا حتى مع موظفي الطيران ومسؤولو الأمن، فعندما يحادثنا واحدٌ منهم، أستخدم مهارتي الفائقة في التمثيل وأجعل صوٌتي غليظًا حتى لا يتم كشفنا، لكننا مع الأسف كشفنا أنفسنا، بأنفسنا!!

انقضننا على الشُرطة التي كانت تحاول تكبيل إيمان ومُسلم ودفعهما للنهاية، لا نعرف كيف تم كشفهما ولا حتى ما الذي حدث، حيث أننا أرغمنا على الافتراق حتى لا يتم العثور علينا بسرعة، وكان مُسلم وإيمان يتقدمان الصف ويقودانا نحو الطائرة المرادة آملين بنجاتنا دون أن يشعُر أحد، لكن الآن، بات الجميع يعرف بوجودنا.

أمسكتُ يد آنابيا ونحن نهروِّل بعيدًا عن الشُرطة ونتصادم بالمارة والمسافرين الذين كانوا في حالة ذعرٍ ستبقى معهم لأيام، وربما بعد هذا اليوم سيخشى الجميع من الاقتراب من المطار ومن ليون وربما من فرنسا بأكملها.

تقدم رازي الصف وهو يهرول ويُشير لنا باتباعه، يبدو أنه عثر على مكانٍ جيدٍ للاختباء، وأثناء هروٌلتنا كنا نتعمّد السير بين المسافرين حتى لا تجرؤ الشُرطة على إطلاق النيران، بهذه الطريقة سنتمكن من الهرب بسرعة.

توقفنا عن الركض داخل حُجرة الجمارك التي يتم اختزان البضائع بداخلها، ولأن رجال الأمن والشُرطة انتشروا في كل مكانٍ بحثًا عنا، كانت الحُجرة فارغة إلا من الحقائب والصناديق التي استخدمناها كدروعٍ للحماية.

تصاعدت أصوات اللهيث وتقاطرت ذرات العرق على جبهتي لأجففهم بسرعة متفوّهًا:

-يجب أن نعثُر على طريقة للهرب

التقطُ أنفاسي مُجددًا واضعًا يدي على صدري كمحاولة لاستجماع شتات نفسي ومواصلة الهرب، وكان رازي يتلفتُ يمينًا ويسارًا ويرفع رأسه بضع أمتارٍ تخطت الصناديق حتى أنزلها مرة واحدة وهو يقول:

-الشُرطة في كل مكان

طغى اليأس على وجوهنا وجلسنا على الأرض في استسلامٍ تام، إذا تحرٌكنا خطوة، ستم كشفنا، وإذا بقينا سيتم كشفنا أيضًا، في جميع الأحوال، سيكون الهلاك مصيرنا.

ومع تلك الهالة التي تلبستنا، عزمنا على المحافظة على هدوئنا وتجنب الذعر قدر الإمكان، وبالفعل كان هدوئنا وصبرنا في صميم نجاتنا لأننا بعد فترة وجيزة بدأنا نستمع إلى ضجيج وتعليماتٍ تُصدر من المذياع، لم أفهم ما كان يُقال بصورة جيدة، أو لم أسمعه جيدًا بسبب أصوات الفزع والصُراخ التي تعالت مرة واحدة.

زاد الهرج والمرج في أقل من بضع ثوانٍ مما جعل قلوبنا ترتعد، لا أريد المزيد من السطو المُسلح هنا أيضًا، يكفي ما حدث بالمركز التجاري.

رفع رازي رأسه بقلقٍ ثم أنزلها بعوالم مرتاحة آشار معها بأصابعه حتى نتبعه وننتهز هذه الفوضى لنستطيع استقلال الطائرة والهرب؛ اتبعنا إشارته في صمت وبقينا نتحرك وراءه بخطواتٍ هادئة تارة ومذعورة تارة أخرى حتى لا نُثير الشكوك، اعتمدنا مرة أخرى على حيلة التخفي بين المسافرين حتى لا يستطيع أحدٌ أن يُميزنا، لكن يبدو أن هذه الحيلة ذات مفعولٍ ضئيل.

ففي أقل من بضع دقائق على هرولتنا، وجدنا خمسة من رجال الشُرطة يحاوطوننا من كل حدبٍ وصوّب وقد استنتجت وقتها أن الشُرطة طلبت المزيد من الدعم حتى يستطيعوا القبض على " عصابتنا"

رُفعت الأسلحة أمام وجوهنا ولم نكن نملك من الأسلحة سوى أيدينا والتي لن تُقارن أبدًا بهذه الأسلحة التي يمتلكونها؛ هذا ما جعلنا نرفع أيدينا باستسلام ونبحث بأعيننا في كل مكانٍ عن البقية لعلهم يأتون لإنقاذنا، هذا ما اعتقدناه قبل أن نُدرك أن الشُرطة ربما ألقت القبض عليهم قبلنا!!

شُحبت الألوان من وجهي وبدأتُ أشعر بالاختناق وبقلة الهواء من حولي، ازدادت سخونة جسدي وكِدت أصرخ بهم وأخبرهم أنني بريء، أنا لم أفعل شيئًا سوى أنني ساعدتهم على سرقة هذا الوغد واعتديت عليه وعلى بعضٍ من رجال الشُرطة وربما كُنت سببًا بتوّريطهم مع بيناك بطريقة غير مباشرة، أهذه بالنسبة لكم جرائم!!

أرجع رازي رأسه للوراء حيث أقف أنا أستقبل نظراته وأفهمها جيدًا، يُريدنا أن نهرُب مهما كلفنا الأمر، وما هي إلا بضع ثوانٍ حتى دلفنا مرحلة الدفاع وحاولتُ ركل الضابط الواثب بجواري ركلة آصابت صدره بينما استخدمت آنابيا آظافرها الطويلة وهي تقوم بنبش وجه الضابط الآخر حتى يبتعد عنها، أما رازي، فقد انقلبٍ إلى وحشٍ كاسرٍ يحمل شيئًا من البراءة أثناء انقضاضه على الشُرطي الواثب أمامه والذي أطلق العديد من الطلقات العشوائية التي من شأنها إضافة المزيد من الصرخات على صرخات المسافرين المذعورين.

لم يكُن هذا الشِجار متكافئًا بالمرة بسبب كثرتهم وبسبب الأسلحة التي يمتلكونها، فما هي إلا بضع ثوانٍ حتى تكاثر ثلاثة ضُباطٍ علي وقبضوا على ذراعي حتى استكانت

حركتي تمامًا بين أيديهم، بينما قبض الضابط الآخر على آنابيا وحاوطها بيديه الثقيلة مما آصابني بالغضب وجعلني أدفع الضابط الذي يُحيطيني ويحاول تكبيلي.

أما عن رازي، فقد آصابته صاعقة كهربائية جراء انقضاضه على الضابط الواثب أمامه والذي استخدم هذه الحركة الدنيئة حتى يجعله يسقط على الأرض ويستطيع هو الوثوب على ظهره وتكبيله.

بات العالم شبيهًا بهوّة ضيقة على وشك إصابتي بالاختناق، حياتي تنتهي أمام عيني وأنا لا أستطيع الحِراك، بِت أفكر بعائلتي التي تركتها لأنقذ هذه المجنونة وأفُكر أيضًا بآنابيا التي لا دخل لها بما يحدث، هي في الأساس أتت إلى إيمان طلبًا للمساعدة لكن إيمان وضعتنا جميعًا في مأزقٍ وربما سينتهي مُستقبلنا على يديها.

استسلمنا في هذه اللحظة وشعرنا أنها النهاية، لكن صوّت أرضوان بدأ يتردد في الأرجاء لنجده ينقض كالأسد الشرس على الضابط الواثب فوق رازي والذي استقبل العديد من الركلات واللكمات الآتية من أرضوان الغاضب.

انتهزنا الفُرصة أنا وآنابيا واستطعنا التحرر من قبضتهم وكِلنا لهم العديد من الضربات حتى وجدنا المزيد من الضباط ومسؤولو الأمن يهرعون نحونا ومعهم أسلحتهم، كنا نعلم جيدًا أننا لن نستطيع مواجهة هذا العدد من الشُرطة، ففي النهاية نحن لسنا أبطالًا خارقون، لذلك لجأنا للمرة التي لا نعلم عددها للركض.

جذبتُ ذراع آنابيا بسُرعة واستجبنا لصُراخ أرضوان الذي يُطالبنا بالهروب على أمل أن يأتي ورائنا هو ورازي، وهذا بالفعل ما حدث، تقدمنا الصف أنا وآنابيا وواصلنا الركض والركض وسط المسافرين بأنفاسٍ رعدية وقلبٍ لا يتوّقف عن الخفقان، وحينما أدركنا أن الشرطة أضاعتنا، توُقفنا عن الرُكض قُرب بوابة صعود الطائرة وحاولنا التقاط أنفاسنا.

تلفتُ ورائي بحثًا عن أرضوان ورازي اللذان اختفيا فجأة ونحن نركض، زاد الطنين بأذني من كثرة الفوضى والصُراخ وبدأ يمتزج مع الصراعات التي اخترقت قلبي دون هوادة.

-أين ذهبا ؟

سألت آنابيا في قلقٍ وقد بدأت تتلفت حولها هي الأخرى، ومع ازدياد قلقنا، جذبتها من ذراعها وحاولنا العودة من حيث أتينا لعل رازي وأرضوان يقفان على بُعدٍ منا، وياليتها كانت هكذا.

فما إن تراجعنا بضع خطواتٍ حتى تصلبتٌ أجسادنا أمام هذا المنظر، تيبس جسدي على الأرض وتعالت الأنفاس بصدري وأنا أشاهد ما يحدث ولا أعرف ماذا أفعل، شعور العجز يُكبلني وأنا آرى كلًا من رازي وأرضوان على بُعد بضعة أمتارٍ منا، بعد أن تم تكبيلهما بالأغلال ويتحركان باستسلامٍ .... مع الشُرطة!!

____

((إيمان))

بات الهروب الآن جزءًا من حياتي، فبعد أن كُنت فتاةً مسؤولة تتحمل أخطأها، بت الآن لا أفعل شيئًا سوى الهرب، أقسم أنني إذا قررت أن أحوّل حياتي لفيلمًا سينمائيًا ستنقطع الكهرباء وقت عرض الفيلم.

جذبني مُسلم بعيدًا عن رجال الشُرطة الذين يراقبوننا بعينيهم، واصلنا الاندثار بين المسافرين لا نعرف أي طريقٍ نسلُك، جميع الطُرق هنا نهايتها الهلاك، والحقيقة أنني سأمتُ من الهرب، وسأمتُ من الركض.

بعد بضع دقائق من اندثارنا بين المسافرين في محيط بوابة صعود الطائرة المنشودة، استطعنا رؤية جورج وآنابيا من بعيد وهما يستقلان الطائرة، هذا يعني أنهم في آمان، وها هُم يستقلون الطائرة التي على وشك الإقلاع بعد دقيقة أو اثنتين.

ما إن رأيناهما حتى ارتاحت قلوبنا واستنتجنا أن رازي وأرضوان قد رحلا بعد تأدية مهمتهما، أو ربما أرغما على استقلال الطائرة ومواصلة الرحلة معنا، آشار لي مُسلم أن أتبعه بسرعة صوّب الطائرة حتى لا تُقلع ويضيع علينا فُرصة النجاة للمرة المئة.

هروَّلنا مجددًا لكن هذه المرة غطينا وجوهنا بالأقنعة واستطعنا الاندثار بين المسافرين، وبسبب الزحام، لم تعثر علينا الشُرطة ونحن نخترق الصفوف ونصعد الطائرة في سلام...

كان جورج يجلس على أحد المقاعد العشوائية نظرًا لأننا لا نمتلك بطاقة الصعود، فقط معنا تذكرة السفر والجوازات المزورة التي لم نجد الوقت الكافي لرؤية أي مقعدٍ مُزيفٍ كُتب لنا.

كامعتني آنابيا وهي تطمئن علي وأنا أفعل المثل وأتشكر الله على نجاتنا، لكنني في نفس الوقت، أردتُ أن أتأكد أن رازي وأرضوان قد استطاعا الهرب، كان يجب أن نتأكد من ذلك قبل صعودنا الطائرة.

-أين رازي وأرضوان ؟.... لماذا لم تأتيا بهما معكما ؟

كانت كلماتي حادة معاتبة لأن هذا ما كان يجب أن يحدث، لن يستطيعا الهرب على أي حال، وكانت نظراتٌ جورج كسهامٍ مارقة اخترقت نُياط قلبي، فكان يسبل بعينيه لأسفل ونظرات الحُزن تتقاطر كالهدير، أنهى هذه النظرات بكلماتٍ خافتة مليئة بالضيق:

-أرضوان ورازي اتقبض عليهم

خفت صوِّته بعد هذه الجملة ثم واصل بقلة حيلة:

-أنا آسف .... مقدرتش أعمل حاجة

قالها بالعربية التي وجهها نحوي وجعلتني آكاد أنفجر من البُكاء، هوَّى جسدي على أقرب مقعدٍ وشعرتُ بالاختناق وأنا أحاول إخفاء دموعي، جعلني مُسلم أجلس بجوار النافذة وبقي واثبًا بالقُرب مني يراقبني وأنا أضرب رأسي بالنافذة متفوِّهة بشعورٍ من الذنب:

-أنا السبب

انهمرت دموعي الحبيسة بعدها وانخرطتُ بالبكاء الصامت ووحل الندم، ليس سهلًا أن تتسبب بإنهاء مُستقبل شابين من زينة الشباب وأفضلهم، فقط لأهوائك الشخصية، كم أشعر بالذنب وأرغب بتمزيق شراييني لأتخلص من هذا العذاب، أنا السبب في كل ما يحدث من البداية، لو لم أتهاون مع هذا المدعو بشارون لما حدث كل ذلك، أخشى أن يُنفذ بهما حُكم الإعدام ويضحى موّتهما كغصة مريرة تُلازمني طوال العُمر.

اقترب مُسلم نحوي حتى جلس بالمُقعد المجاور لي وهو يحاول التهدئة من روعي رغم نظراته الحزينة:

-هما مش متوُرطين زيينا .... إن شاء الله هياخدو حُكم مخفف

لم تكن كلماته دهانًا لحروقي الدامرة، فحتى ولو كنت أنا ومُسلم المجرمان الأساسيان وبقيتهم يساعدوننا ليس إلا، ستبقى عقوبة السجن تتلبس هذين المسكينين، ربما سيتم سجنهما من خمس لسبع أعوام وستضيع أحلامهما وسنواتٍ من عمُرهما، وكل هذا بسببي أنا.

-افتكري بنتِك يا إيمان .... هي دلوقتي محتجالِك

قالها مُسلم بنبرة حنونة بعد أن فقد الأمل في بثي بعض الأمل وتطرق لهِوة أخرى، وهي ابنتي، ابنتي التي سأفعل أي شيءٍ حتى أستعيدها حتى لو اضطررت لتدمير العالم.

آعادت هذه الكلمات إنعاشي من جديد واعتدلتُ في جلستي استعدادًا لمواجهة ما هو أصعب، واجهتُ ما يكفي من الكوارث حتى أصبحتُ حجارة صلبة لا تؤثر بها الرياح والأعاصير، كفكفتُ القليل من دموعي وأنا أطمئنهم بنظراتي أنني بخير، وما هي سوى لحظاتُ وجيزة حتى وجدنا مُضيفة الطيران تتقدم نحونا دون أن تدري من نحن.

-عفوًا ... أتانا أمرٌ بإخلاء الطائرة ....يجب أن ترحلوا من هُنا

تجهمت ملامحي وأنا أرمقها وأبادل نظراتي ما بينها وبين بقيتهم، ما هذا الذي تعنيه بحديثها ؟ ولماذا حظي بهذا السوء ؟

-هل هُناك عُطلٌ بالطائرة حتى يتم اخلاءها ؟

قالها مُسلم بثقة ونظراتٍ جامدة جعلت مُضيفة الطيران تُجيبه بأدب:

-لا ... الطائرة سليمة .... لكن يبدو أن هذا بسبب بعض الدواعي الأمنية

كُنت أعلم أنها لن تجروء على إخبارنا بأن الشُرطة تبحث عن مجموعة من الإرهابيين حتى لا تزيدنا ذعرًا، فقد استطعتُ أن أرى مجموعة من رجال الشُرطة تخترق الصفوف وفي طريقها للطائرة التي دلفناها!!

ربتُ على كتِف مُسلم بذعرٍ حاولتُ إخفاؤه قدر الإمكان وأنا أشير على رجال الشُرطة حتى انتبه مُسلم للأمر وازدادت ملامحه حدة:

-نحن لن نترك الطائرة

قالها بصوتٌٍ جهوريٍ صارمٍ أمام المضيفة التي آعادت أوامرها:

-سيدي هذا لا يجوز ... يجب أن تتركوا الطائرة الآن

وكانت كلماتها كقطعة من اللحم أمام أسدٍ جائع؛ تجهمت نظراتُ مُسلم مرة واحدة وبدأت عيناه تُطلقان شراراتٍ من اللهب، تحوّل في أقل من ثانية إلى وحشٍ كاسرٍ لأول مرة آراه، حسنًا، هو معه كامل الحق، لا ينفع اللين أبدًا مع هذه الحياة، خاصة هذه الظروف.

كان لا يزال يحتفظ بالسلاح الذي سرقه من مسؤول الأمن ولم يُطلق منه سوى رصاصة واحدة، رفع هذا السلاح أمام الرُكاب الذين بدأو بالصُراخ والمضيفة التي شهقت في رُعبٍ ولم تعُد تعرف ماذا تفعل.

آحاطها مُسلم بذراعه وصوِّب فوهة السلاح على رأسها وهو يصرخ بغضب:

-أقلعوا بهذه الطائرة اللعينة .... هيـــا

انقبض قلبي وعاود جسدي الارتجاف وأنا أرمق ما يحدث بعينين جاحظتين، فكان مُسلم يهُدد الجميع بسلاحه ويصرخ بهم أن يُغلقوا أبواب الطائرة وإلا فجُر رؤوسهم، أصبحتُ مُتيقنة أنني سببٌ بتحويله إلى هذا الوحش الغاضب.

زادت الفوضى في الطائرة وكان هناك بعض الركاب يُخرجون هواتفهم ويحاولون الاتصال بالنجدة لولا سلاح مُسلم الذي يُصوِّب نحوهم ويجعلهم يجلسون في صمتٍ، وكانت الفوضى تعُم في المكان حتى بدأت بقية المضيفات يتلفتن حولهن في ذعرٍ حتى استجابت واحدة منهن لأوامر مُسلم وأخرجت المذياع الصغير حتى تقول بكلماتٍ مُتلعثمة:

-برجاء ربط الأحزمة .... فالطائرة على وشك الإقلاع....

سردت بقية التعليمات بأنفاس ُمرتجفة ولا يزال مُسلم يصوِّب سلاحه عليهم ويصرخ بهم حتى يتحركوا، أصبح الرُكاب والمضيفات والطياران رهائن لدينا حتى تنتهي هذه الرحلة، وكل هذا حتى نسافر من هنا، أدركتُ في هذه الأيام أن العالم لا يمد لنا يد المساعدة، فعلينا انتشالها بأيدينا، حتى لو افتعلنا العديد من الكوارث، وهذا الذي فعلناه بالضبط.

انطلقت الطائرة أخيرًا إلى وجهتها المرادة، ورغم ما فعلناه من مصائب وكوارث، إلى أنني لن أتوِّقف أبدًا، لن أتوِّقف حتى تعود إلي ابنتي، نحن الآن في طريقنا لأرضٍ مُقدسة أصبحت تحت أيدي مجموعة من الفئران عنوة، ونحن مع الأسف، لن نذهب إلى الأرض المُقدسة، بل سنذهب إلى الفئران، وسأظل هناك حتى أنتزع ابنتي .... من جُحر الفئران....

(نهاية الجُزء الأول)

الجزء الثاني

الفصل الأول (بربريون إرهابيون)

((راموئيل))

8يونيو 2014   أورشليم : إسرائيل

ليس المنزل كصاحبه، وليست الدولة كأبنائها، هذا ما ينطبق على جميع دوّل العالم، فيما عدا هُنا...

نحن هنا، يجب أن نخضع لسياسة دولتنا، ليس لأنها على صوابٍ دائمًا، بل لأننا إن لم نفعل ذلك سيتم سحقنا من الدول المجاورة، ومن القبائل الإرهابية التي احتلت جزءًا من أرضنا، لا مكان هنا للوّد والمسامحة، فلا سلام مع شخصٍ يتمنى قتلنا.

رغم أنني أعلم جيدًا أن دوّلتنا الحبيبة أخضعت معُظم الدوّل المجاورة وجعلتهم أسفل قبضتها، لكنها لم تستطع حتى الآن أن تخضع القبائل الإرهابية الذين يترصدون لنا من الحين للآخر، رغم أننا تكرمنا وأعطيناهم جزءًا من أرضنا إلا أن طمعهم يجعلهم يرتكبون الحماقات من أجل الحصول على المزيد من الأراضي، لكن هذا لا يُهم، فنحن ننتصر في جميع المعارك بالنهاية.

استيقظتُ صباح هذا اليوم على صوّت رنين الهاتف الذي آشار إلى الساعة الثامنة صباحًا، يتعين علي أن أستيقظ باكرًا بصورة يومية حتى أبدًا الاستعداد قبل الذهاب إلى كتيبتي.

اغتسلتُ جيدًا وبدّلت ثيابي إلى سترة فضفاضة زيتية أسفلها بنطالٌ من نفس اللون لكن بدرجة أكثر قطامة، في النهاية سأبدّل ثيابي حالما أذهب إلى المُعسكر لهذا السبب اخترتُ ملابس فضفاضة مريحة.

أزاحتُ المقعد حتى أجلس بجوار والدي، الجنزال " أزاريا مُردخاي " الذي يقود الكتيبة التي أخدِم بها، كما أن أوامره سيفًا على رقبة الجميع، فيما عداي لأنني ابنته الوحيدة، فمُنذ وفاة والدتي، وهو يهتم لأمري ويُشدد على التحاقي بالجيش حتى

أستطيع الدفاع عن نفسي من المُعتدين، ولا يتكرر ما حدث لوالدتي، فقد قُتلت على يد مجموعة من الأوغاد.

ربتٌ والدي على كتفي بابتسامة هادئة تنحّى معها عن صرامته المعهودة وهو يقول بالعبرية:

-انتهي من فطوركِ سريعًا .... اليوم ستبدأ عملية الجرف

أنهى الحديث بتنبيهٍ مُشددًا على بدء العملية البرية على غزة، فبعد أيامٍ من العدوان وإطلاق القذائف، ها قد حانت اللحظة التي سنتوّغل فيها بريًا إلى القطّاع وسنحاول الضغط على تلك الحركة المزعومة حتى نتوّلى نحن إدارة القطاع، وقد آفاد رئيس الأركان " بيني جانتس" بأننا لن نتوّقف عن إطلاق النيران حتى ترضخ لنا حماس وتُسلم الراية.

ترك والدي المائدة بعد أن أنهى فطوره وقام ليرتدي ثيابه لأنه سيتجه مباشرة لإدارة أمور الجيش، أما أنا، فلا دخل لي بهذه الحروب، فأنا في الكتائب المدنية التي تقوم بحماية المواطنين ومراقبة الفلسطينيين، وسأذهب اليوم إلى الضفة الغربية لتأدية وظيفتي....

خرجتُ من حُجرة تبديل الأواعي بسُترة زيتية سميكة وقُبعة من القطيفة لأضع بعدها اللاسلكي وأبدًا العمل، وبصفتي رقيبًا للعمليات، يتعين علي ضبط الأمور وتوزيع المهام، وأحيانًا أشارك بالقتال إذا لزم الأمر.

جلستُ أمام المكتب وأنا أمسك ببعض الخُطط العسكرية وأقرأ بعض التقارير التي صدرتها صحيفة " جيروسالم تايمز " وبالطبع وفقًا لمَ أعطيناه لها من أوامر، لن نترك هذه الصحيفة تُصيغ هذه الأخبار على هواها وفقًا لمَ يمليه عليها العرب، خاصة المُسلمون.

دلف آفراهام حُجرتي بعد أن طرق الباب بضع طرقات، وآفراهام هو مُجرد عسكري حديث التجنيد، هو بالكاد لا يتخطّى التاسعة عشر من عُمره، وربما لا يهوّى التجنيد وسيتركه بعد قضاء الخدمة العسكرية، فالتجنيد هنا إجباريًا من عُمر الثامنة عشر، إجباريًا أيضًا على الفتيات، لكن الفتيات يقضين ثمانية عشر شهرًا فقط والرجال مرغمون على التجنيد لثلاثة أعوام.

-حضرة الرقيب .... الدروز يثيرون المشاكل مجددًا، يريدون الانضمام إلى وحدات الجيش

أطلقتُ زفرة سائمة من هذا الحديث الذي أشعر بالضجر بسببه بصوّرة يومية، فالجميع يعلم أن الدُرز لا يرغبون بالانضمام إلى الجيش سوى من أجل الامتيازات التي يحصلون عليها، هم بالأصل ليسوا إسرائيليين ولا يمتلكون حتى الجنسية، أو لنكن أكثر صدقًا، المجُتمع الدُرزي يقع بالجولان السورية، التي أصبحت ملكًا لنا، لكن مُعظم هؤلاء الأغبياء الذين يسكنون هذه المنطقة، يرفضون التخلي عن جنسيتهم السورية ويصرّون على مقاطعة الخدمة العسكرية حتى فرضنا على شبابهم التجنيد الإجباري مُنذ عام 1956 وأسمينا هذا القرار بـ" حلف الدم " حينما تعهد قادة الطائفة بالولاء لنا مقابل تعزيز مكانتهم الإجتماعية والإقتصادية.

وبعدها بعدة أيام، تأسست الكتيبة الدرزية وكان اسمها " حيرف " أو " السيف " وعادة ما تقاتل في حدودنا مع لبنان، لكن رئيس الأركان " غادي أيزنكوت " سيُصدر قرارًا عمَ قريب بحلّ هذه الكتيبة بسبب مطامعها التي لا تنتهي، وربما يسمح لهم بالانضمام إلى وحدات الجيش، لا أعرف حقًا، لكنني أتمنى ذلك، فهم يتحدثون العربية بطلاقة ويعرفون الكثير عن الثقافة العربية، وهذا ما نُريده بالضبط، يجب أن تعرف عدوّك جيدَاً حتى تستطيع مجابهته.

أنهيتُ حديثي مع آفراهام وأنا أؤكد له أن يُرسل لرئيس الأركان وجهة نظري بهذا الموضوع وربما يقوم بكتابة تقريرٍ مُفصل عنها؛ أومأ آفراهام بموافقة ثم رحل، وبعد رحيله ضِقتُ ذرعًا واجتاحتني هالة من الملل.

تركتُ المكتب بعد فترة على أمل مشاهدة التدريبات العسكرية وتحفيز الجنود وربما التدُرب معهم ومراقبة الأجواء....

بدأتُ التجوّل في الضفة الغربية قُرب حواجز التفتيش، أضع سلاحي بخصري وأرمق جميع العرب بنظراتٍ جامدة مُترقبة، أحاول استشفاف نظرات الغدر بأعينهم، أحسستُ ببعض الجلبة عند واحدة من الحواجز فوضعتُ يدي على السلاح وأنا أهروّل بأقصى ما لدي لأحاول إنقاذ الموقف.

كان يوجد بعض الزُملاء يُكبلون مجموعة من الشباب ويدفعونهم بحدة صوّب عربات الترحيل، لم أكن أعرف سبب إلقاء القبض عليهم لذلك التفتُ صوّب كاليب حتى أسأله بفضول:

-ما الأمر ؟

كانت نظراتُ البُغض على كاليب وهو يُجيبني بغضب:

-هؤلاء الأوغاد كانوا يحاولون تنفيذ عملياتهم الانتحارية

صككتُ على أسناني بغضبٍ وحمدتُ إليهوم أنهم استطاعوا إنقاذ المؤقف وإلقاء القبض على المُجرمين، هذه العمليات الانتحارية يفعلونها دائمًا ويعتبرونها عملياتٌ جهادية، لا أفهم كيف يُفكر هؤلاء الحمقى.

استقليتُ عربة الترحيلات بالقُرب من السائق وبالقُرب من كاليب، تحركنا بالعربة حتى توّقفنا أمام سجن عوفر، نقلنا المعتقلين بعد أن وضعنا الطماشة على أعينهم وكبلنا أيديهم جيدًا، كان من بين المساجين طفل بالتاسعة أو الثامنة لا أعلم كيف يجعلونه يُنفذ هذه العمليات الانتحارية!!

واصلتُ السير داخل الزنزانة لأتفقد الأوضاع وأحاول كتابة بعض التقريرات، تفقدتُ المساجين في باديء الأمر ثم اتجهتُ إلى العيادة الطبية التي تحتوي على مزيدٍ من المعتقلين المصابين.

لم أكترث لإصابتهم أو حتى وجودهم من الأساس، فما أوقفني عن تفحصهم بإمعانٍ هو هرولة ليمور نحوي وملامح الذعر تنطلي على وجهها، يبدو أن هناك كارثة قد حلُت على رؤوسنا.

آرادتني أن آتي بسُرعة وأحاول العثور على حلٍ لهذه الورطة، للحظة اعتقدتُ أن هناك مُعتقلًا لقى حتفه تحت وطأة التعذيب، وهذا قد يضعنا بمُشكلة كبيرة مع العالم، حتى ولو كان هذا المُعتقل يستحق.

يجلس على الفِراش طفلٌ يبدو بالسابعة من عُمره، كان يُتمتم بكلماتٍ غير مفهومة ودموعه تنحدر من عينيه ببطء، غطت الجروح سائر وجهه وكانت ثيابه ممزقة استطاعت أن تجعل الكدمات ظاهرة للعيان، ناهيك عن قدمه التي تقوّست وربما تعرضت لكسرٍ مضاعف.

لم يتوّقف جسد الصبي عن الارتجاف والأنين مما جعل ضربات قلبي تهوّي من شدة الخوف، ومن شدة الغضب أيضًا:

-ما الذي فعلتموه ؟

قُلتها بغضبٍ عارمٍ وأنا أشير على هذا الصبي وتُجيبني ليمور بجهلٍ وقلة حيلة:

-لم يكن يُريد أن يعترف بأنه ألقى الحجارة_

قطعتها بغضبٍ عارمٍ وأنا لا أتوقف عن الصُراخ:

-هل هذا يعني أن تتصرفو بهذه الحماقة ؟.... هذا الطفل إذا عاد إلى السُلطة الفلسطينية وهو بهذه الحالة سيتم تحوّيلنا جميعًا إلى التحقيق

انتفضت إثر كلماتي التي جعلت الخوف يتدفق إليها، فربما تخسر وظيفتها بسبب منظمات حقوق الإنسان التي لن تتركنا وشأننا إذا علِموا ما نفعله مع المُعتقلين، خاصة الأطفال.

صمتتْ ليمور ولم تُعقب وكأن لسانها قد مُزق، أكملتُ تقريعي وأنا أمدُّ يدي نحوها بغضب متفوّهة:

-أعطيني التقرير الطبي

أومأت ليمور بارتباك وبدأت تبحث حولها حتى أخرجت لي بضعة أوراقٍ كتبت بهم حالة هذا الصبي ومدّت الأوراق نحوي بارتعاد.

انتشلتُ الأوراق من بين يديها بغضبٍ عارمٍ وأنا أفكر بطريقة تُخلصنا من هذه الكارثة دون أن نتعرض للتحقيق ويتم إيقاف بعض الجنود عن العمل.

سرقتُ نفسًا عميقًا ثم أطلقته وأنا أتقدم نحو حُجرة مدير الأركان، والمسؤول عن هذا المُعتقل، أديتُ التحية العسكرية وأنا لا أزال أحمل معي هذه الأوراق وأقول بنبرة مُرتبكة:

-سيدي حدثت مُشكلة .... هناك صبي في حالة مزرية إثر تعرضه لتعذيبٍ عنيف ... حتى يعترف

حاولتُ التبرير لمَ فعله هذا الضابط الأحمق الذي لا يُفكر بالعواقب، وكانت ملامح السيد جلعاد _ مُدير المُعتقل_ باردة، هادئة وكأنه لا يكترث لحديثي، فقط يمدُّ يده حتى يقرأ التقرير الطبي قبل أن نُرسله إلى الصحافة التي بدوّرها ستنقل الأخبار للسُلطة الفلسطينية.

أخذ السيد جلعاد يُمرر عينيه على الأوراق حتى بدأت عوالم الغضب تطفو على وجهه، وهذا بالضبط ما كُنت أعتقده:

-ما هذا الهُراء ؟ .... لا يجب أن نُرسل هذا التقرير للصحافة

كنت أعلم هذه الإجابة جيدًا وأعلم كيف ستجعلنا نقع في العديد من المشاكل مع منظمات حقوق الإنسان؛ أحنيتُ رأسي بخزيٍ وأنا أستقبل تقريعه حتى وجدته يقول وهو يمدُّ الأوراق نحوي:

-لا تُرسلو هذا التقرير

اعترضته وأنا أرفع قامتي:

-ما الذي سنقوله إذا سأل أحدهم عمَ حدث للطفل ؟

رسم بسمة متهكمة ساخرة على ثغره قبل أن يُخبرني بالحلّ بكل بساطة:

-ومن سيُصدق طفلًا صغيرًا ؟.... أخبروهم أنه تعارك مع واحدٌ من المُعتقلين، أو دعسته سيارة بعد أن أطلق سراحه .... وإذا حاول هذا الصبي أن ينطق بالحقيقة...

توّقف بُرهة عن الحديث وهو يُشير بإصبعه ويتكيء على حروفه حتى أنتبه جيدًا لأوامره:

-أخبروهم أن هذا الصبي كاذبٌ بالفطرة .... وهناك شهودٌ على ذلك

أومأتُ رأسي بإيجابٍ لألتقط بعدها التقرير الذي سألقيه في القمامة، فلا فائدة من وجوده من الأساس....

أخبرتهم بأوامر مُدير المُعتقل وبدأو بالتنفيذ دون تعقيب، وربما اطمأن فؤادهم من خلاصهم من تلك المُعضلة، التي للعلم، ليست أول مرة.

دقت الساعة الثانية وكان هذا موّعد الغداء، جلسنا سويًا_ أنا وبقية الجنود_ في حلقة دائرية وبدأنا تناول الوجبات التي يوفرها لنا الجيش، عادة ما تكون هذه الوجبات من الوجبات السريعة غير الصحية بالمرة، ففي اعتبارهم، الصحة النفسية أهم بكثيرٍ من الجسدية، هي ما تجعلنا نواصل العمل بانتشاءٍ وسعادة، فإذا كانت وجبة الغداء تتكوّن من الخُضار والأرز الأبيض لن يشعر الجنود بوجود حافزٍ لأعمالهم، أما لو كانت الوجبة تتغير يوميًا وتتكوّن مما لذ وطاب، سننُهي أعمالنا بسعادة وحماسٍ حتى نحصل على هذه الوجبة في النهاية.

أحيانًا يتعين علينا كفتيات أن نرتدي ثوّب الرجال ونحن بالجيش، وهذا حتى نأمن مضايقاتهم وبعضًا من سُخريتهم، ولأن الجيش يرغمنا على التجرد من النعومة واللين لنرتدي ثوّب الصرامة والانضباط.

أثناء تناولنا للعشاء، كان يوفيل يجلس بجواري يفتح جواله على مقطع قام بالتقاطه لإحدى انتصاراته، لم أحب يوفيل يومًا ودائمًا ما أحاول تجنب الحديث معه، تصرفاته غير متزنة بالمرة ودائمًا ما يبدو في حالة من السُكر والانتشاء، يكفي أنه في كل مهمة يتعمّد التقاط صورة للمقتولين حتى ولو كان المقتول طفلًا أو إمرأة، وتم قتلهم دون قصد.

هذه التصرفات تُصيبني بالاشمئزاز، نحن لم نلتحق بالجيش حتى نقتل الأبرياء، رغم أنني لا أعرف أبرياء هناك، لكن هذا لا يعني أن نُطلق الرصاص على طفل لا يتعدّى الثالثة من عُمره، لأنه سيتعين علينا أن نُخبر العالم أننا قتلناه بالخطأ وسيضعنا ذلك في العديد من المسآلات.

والمُشكلة الأكبر أن أغلبهم لا يرون هذه مُشكلة بالمرة، بل يرون أن معهم كامل الحق بتأميننا من الأطفال، ففي النهاية عندما يكبرون سيحملون راية الجهاد عن أبيهم، وسيقتلوننا.

فتح يوفيل مِقطعًا على هاتفه كان به صوّرة لكُرة قدمٍ تتدحرج على الحشائش بهيبرون، بقي المقطع ساكنًا حتى أتى طفلًا صغيرًا_ أعتقد أنه عربيًا_وحمل هذه الكرة التي ظنها لعبة جديدة، لكن هذه اللعبة الجديدة انفجرت بوجهه وجعلته أشلاءً، فيوفيل قد وضع القذائف داخل كُرات القدم من أجل هذا الغرض، من أجل أن يُشاهد الأطفال وهي تنفجر.

تعالت أصوات ضحكاتهم الشامتة ولم أكن أشاركهم هذه الضحكات المُختلة، كُنت أجلس في هدوءٍ أتناول غدائي وأحاول التركيز على الهدف الأساسي وهو تأمين الدولة وليس القتل بلا فائدة، وأثناء جلوسي الساكن، جاء ليفي_ خبير الذكاء الاصطناعي الذي يعمل بالجيش_ ليفي معروفٌ بذكاءه ومُكره وخططه الفريدة من نوعها، وهذه المرة، كان معه مجموعة من الأوراق ويُعدل من وضع عويناته قبل أن يجلس بجواري ليقص علي فكرته الجديدة قبل دخول حيز التنفيذ.

-جائتني فكرة ستجعل نظام الآمان يتغير لمئة وثمانون درجة

قالها بطريقة حماسية ليجعلني أنتبه لحديثه، فما إن اعتدلتُ في جلستي حتى وجدته يُقرب الورق من عينيه ويبدأ قرائته بصوتٍ مسموع:

-بعد العديد من البحث والابتكار، توّصلت إلى ثلاثة أنظمة أمنية جديدة...

قلّب الأوراق أمام نظراتي الممعنة ثم واصل الشرح:

-النظام الأول .... الذئب الأبيض... وهو ببساطة نظامٌ جديد قد ابتكرته ليتم وضعه على نقاط التفتيش، يمُكننا من خلاله فحص بيانات الفلسطينيين بسهولة عن طريق تمرير بطاقات هوٌيتهم على الجهاز وستظهر لنا جميع بيناتهم وتحركاتهم قبل حتى اقترابهم من حاجز التفتيش .... بهذه الطريقة سنستطيع إحباط العديد من الهجمات الفلسطينية قبل وقوعها

لاحت عوالم الإعجاب على وجهي وأنا أنصتُ لما تبقى من حديثه:

-النظام الثاني .... الذئب الأزرق، وهو ببساطة مجرد تطبيقِ يتم تفعيله على جهاز المحمول .... وبواسطة هذا التطبيق، يُمكن أن يلتقط المستوطنين صوٌرًا لأي فلسطينيِ يرونه وسيقوم هذا التطبيق بمعرفة جميع البيانات الخاصة بهذا الذي التقطوا له الصوٌر ..... وهذا بالطبع تحت إشرافٍ القوات العسكرية والذكاء الاصطناعي .... وعن طريق هذا التطبيق، سنأمن شرهم وهجماتهم ضد المستطونين، وسنستطيع معرفة الإرهابيين بسهولة

قلّب الأوراق مجددًا حتى وصّل لآخر ورقة وشرع بقرائتها بنبرة متحمسة:

-وآخر نظام ... آسميته الذئب الأحمر، وهو أيضًا سيتم وضعه بحواجز التفتيش وسيستخدم خاصية التعرٌف على الوجه، وعن طريق هذه التقنية .... سنستطيع تتبع الفلسطينيين أينما ذهبوا .... وسنعرف متى سيقومون بهجماتهم

أعجبتني أفكاره الماكرة والذكية بالوقت ذاته ووعدته بتوٌصيل أوراقه لقائد أركان الحرب حتى يتم تفعيل هذه الأنظمة، أعلم أن الوقت ربما يأخذ أكثر من سبعة أعوامٍ

حتى يتم تفعيلها رسميًا، لكنني أعلم أيضًا كم ستجعلنا أكثر سيطرة وإحجامًا لتحركاتهم.

تحدثنا فيما بعد عن الوحدة 101 التي تُثير الجدل بيننا في الفترة الأخيرة، وهي بالمناسبة، أكثر الوحدات خُبثًا ودهاءً، هذا لأنها تتوّلى إطلاق القذائف الانتقامية على أراضي الأعداء وتم تقسيمها إلى فئتين، الفئة الأولى سُميت بـ" سايارات " وهي تتوّلى المعلومات الاستخباراتية وتستخدم أنظمة ذكاء إصطناعي بمهارة، حتى أنها تعرف جيدًا أين يقع قواد الحركات الإرهابية النابعة من فلسطين، والفئة الثانية تُدعى " ميسترافيم " وهي التي تقوم بالتخفي بين الفلسطينيين حتى تُنفذ العمليات الاغتيالية ضد بعض العناصر المُحددة.

قطع تسامرنا الطويل صوّت إنذارٍ بدأ يصدح بصوّرة عالية، تكرر هذا الإنذار أكثر من مرة حتى أصبنا بالذعر وتركنا موائدنا استعدادًا لمواجهة المخاطر.

-تحركوا بسرعة .... هناك اشتباكٌ بأورشليم الشرقية

قالها واحدٌ من الجنود بطريقة مذعورة مُحفزة جعلتنا نترك ما تبقى من غدائنا ونحمل أسلحتنا استعدادًا لتصدي الهجمات....

____

أسمع العديد من أصوات الطرقات الحادة التي تضرب عربتنا الحربية التي ستتوّغل إلى موقع الاشتباك، حاولتُ معرفة سبب هذه الطرقات لكن زميلتي إليازار أعادتني مكاني وحذرتني من الخروج من العربة حتى لا تصدمني تلك الحجارات الكبيرة التي تُلقى فوق رؤوسنا.

استمرت العربة تتحرك نحو الموقع المنشود ونحو إطلاق النيران الذي يتبادل مع جنودنا وبعض المتمردين، هدأت طرقات الصخور وحلّ محلها أصوات الأعيرة النارية التي جعلتني ألتقط سلاحي وأرتدي الخوزة استعدادًا للقتال.

تحركنا أنا وإليازار ببطءٍ بين الحشائش نحاول تجنب الطلقات النارية قدر الإمكان ونختبيء خلف إحدى البنايات، استطعتُ رؤية رجلٌ يحمل سلاحًا بدائيًا ويُغطي وجهه بالوشاح وهو يُصوِّب نحوِّنا أعيرته عازمًا على التخلص منا.

تدفقت الدماء بعروقي وازددتُ تحفزًا وأنا أرفع سلاحي وأطلق بعض الطلقات صوِّب الهدف، وبعد فترة من تبادل النيران، استطعتُ إصابة واحدُ من الإرهابيين وأرديته صريعًا.

رسمتُ بسمة مُنتصرة على ثغري وأنا أخرج اللاسلكي الخاص بي متفوِّهة:

-سيدي ... أصبنا واحد ... حوِّل

أعدُت اللاسلكي داخل جيبي وواصلتُ القتال بجوار زميلتي حتى أصبنا أربعة أهدافٍ متتالية وجرحنا حول اثنين، بدأت أصوات الأعيرة تقل تدريجيًا حتى باغتني صوِّتُ اللاسلكي الذي يُصدر تعليمات القائد:

-اتجهوا فورًا إلى تقاطع 72 ... حوِّل

علمتُ أن الاشتباكات قد انتقلت إلى بُقعة أخرى لكنني لم أكن أعرف كيف سننُفذ الأوامر وننتقل من هذه البُقعة وسط هذه الأعيرة، بقيتُ في حالة من التيه لفترة حتى خطرت ببالي فكرة ربما تُساعدنا.

-سأتحرك من اليمين ... وأنتِ تحركي من اليسار ... وسنتقابل في التقاطع

وجهتُ أوامري صوِّب إليازار حتى تصغي لي جيدًا ونجعلهم يتشتتون من تفرقنا، فإذا حاولنا التدثر قدر الإمكان لن يستطيع هؤلاء الأوغاد النيل منا.

تلفتُ يمينًا ويسارًا قبل أن أشرع بالتحرك وفق الخطة، تحركت قدماي بسرعة وانسيابية ولازلتُ أتلفتُ يمينًا ويسارًا وأطلق طلقاتٍ عشوائية، كان قلبي يخفق بهلع وأحاول قدر الإمكان أن أتحرر من هالة الخوف التي تتلبسني الآن وفي كل اشتباكٍ أخوضه.

كُنت على مقربة من المنطقة المرادة، وكنت على وشك النجاح بالأمر، لولا ما حدث بعد ذلك...

وجع رهيبٌ آصاب رُكبتي وكأن أحدهم قام بتمزيقها؛ أطلقتُ صرخة متألمة مكتومة وأنا أسقط على الأرض بعد أن نالت مني هذه الطلقة النارية.

تدفقت الدماء من ركبتي بغزارة وكان الوجع لا يضاهي أي وجع شعرت به من قبل، حتى أنني حاولت كبت دموعي حتى لا أنفجر بالبكاء وسط هذه المعركة.

تحاملتُ على حالي وحاولتُ الوثوب عن الأرض بصعوبة، جسدي ساخنُ لدرجة تجعلك تشعر أنه كُتلة من اللهب، العرق يتصبب من جبهتي كما لو أنني أسفل سيلٍ من الأنهار، وفوق كل هذا، كان الوجع يزداد قوة وأنفاسي تقل تدريجيًا حتى شعرتُ أنها النهاية.

تراخت قوتي مرة واحدة ولم أعُد أتحمُل السير على قدمي المصابة أكثر، كانت دمائي لا تزال تنزف بغزارة وأنفاسي تتصاعد وتقل رويدًا، أرخيتُ ظهري للوراء بتلك البناية التي أجلس أمامها، وكان البكاء وشيكًا في تلك اللحظة.

لا زالت أصوات الأعيرة تتبادل وتجعل فُرص النجاة تتقلص، كنت أعرف أنني أحتاج إلى المساعدة لذلك بحثتُ بجعبتي عن اللاسلكي لكن للأسف، كانت محاولاتي فاشلة، فاللاسلكي قد وقع على الأرض وأنا أحاول الوثوب من تلك البقعة.

ضاقت أنفاسي أكثر وازداد وجعي حتى أصبح أضعافًا مضاعفة، انهمرت قطراتُ العرق على جبهتي وفقدت الشعور برُكبتي كاملة في تلك اللحظة، وبعد مرور أكثر من ساعة على تلك الحالة، يأستُ من قدوم أحدهم لمساعدتي وقررت الاستسلام لهذا الأمر، ففي النهاية سيأتون للبحث عني.

أُغلقتُ عيناي باستسلام وتراخت عضلاتي كاملة وبت فاقدة لمعاني الحياة في تلك اللحظة، وجهي أضحى شاحبًا وأنفاسي بدأت تختفي، كما أن دمائي الغزيرة التي ذرفتها جعلتني أشعر بالدوار ... وأغيب عن العالم....

____

لا أدري كم من الوقت بقيته على تلك الحالة، لكنني ممتنة لبقائي على قيد الحياة، عظامي المتحطمة تجعلني أشعُر أنني بقيتُ على هذه الحالة لأيام، حاولتُ تحريك أطرافي واستعادة أنفاسي بلا فائدة، أنتظر مجيئهم حتى الآن لإنقاذي، كيف تركوا ابنة الجنرال بهذا الوضع حتى هذه اللحظة ؟

غشتني غمامة بيضاء لا أعرف مصدرها لكنها تجعل الرؤية مشوشة، حاولتُ فتح جفوني بصعوبة لتبدأ هذه الغمامة بالاختفاء وتتضح الرؤية، كان هناك طيفٌ يقف أمامي لا تظهر ملامحه جيدًا، لكنها لحظاتُ قليلة حتى اتضحت الرؤية وانتفض جسدي بعد أن علِمت من هذا الحقير.

-ابتعد عني

قُلتها بوجومٍ وأنا أزيحه بيداي حتى لا يلمسني بيديه الرديئة، فقد كان أمامي رجلٌ ذو بشرة بيضاء ولحية كثيفة نسبيًا أشبه باللِيف التي نجلي بها الصحون، وعيناه رمادية غائرة تُمشطني بعناية وكأنني فريسته الجديدة.

من الوهلة الأولى، أدركتُ أنه عربيًا، ثيابه البسيطة ونظراته الغريبة جعلتني أتيقنُ مئة بالمئة أنه ليس يهوديًا، وليس اسرائيليًا، فببساطة، هذا الوقت الذي يأتي فيه الفلسطينيون لإسعاف جرحاهم وإزاحتهم عن الطريق بعد هذا الاشتباك.

وثبتُ عن الأرض وأنا لا أتوّقف عن سبّه بالعبرية التي على الأحرى لن يفهمها، بقيتُ أتلفتُ حولي بحثًا عن سلاحي وأغراضي ولا أجدها أبدًا، هذا الحقير اتضح أنه لصٌ ووقح.

انتبهتُ أيضًا على قدمي المجروحة لأتفاجأ بضماضة تُحطيها وتمنع الدماء من الانبجاس، لكن هذا لن يُهديء من ثورتي وغضبي من هذا اللص، ولن أتركه قبل أن أستعيد حاجياتي.

-أيها اللعين ... أين أخذت أسلحتي ؟...

لم أتوقف عن الصُراخ به وهو يرميني بنظراتٍ باردة مُستخفة، بالطبع لا يفهم حديثي، وأنا لا أريد أكثر من نظرات جهله هذه.

-أهكذا تتشكرين من أنقذ حياتِك ؟.... يا لكي من ناكرة للجميل

تصلُّبت أهدابي مرة واحدة وأنا أستمع إلى حديثه الذي كان بـ.... العبرية!!

-هل .... هل تتحدث العبرية ؟

خفُت حديثي وأنا أسأله لعل الأمر قد اختلط علي، وهو ليس فلسطينيًا كما كُنت أعتقد، ربما هو من الاسرائيليين العرب، وأتى لإنقاذي، لكن أين ذهبت أسلحتي ؟

أرخى ظهره للوراء ليستند على جدار البناية رابطًا ذراعيهٍ بتهكمٍ واضحٍ قال معه:

-أخبرنا الرسول أن نتحدث بلغة أعدائنا

حسنًا، هذه الكلمات، أكدت لي شكوكي أكثر، هذا الوغد أتى هنا لسرقتي، وأنا لن أتركه قبل أن أحيل حياته إلى الجحيم.

اقتربتُ نحوه بنظراتٍ متقدة وأنا أقول بتهديد:

-أعد لي أسلحتي .... وإلا ألقيتُ القبض عليك

تجاهل حديثي بوقاحة وبدأ ينظر إلى أظافره ويُجيبني بحدة:

-ولماذا أعيدها لكِ ؟.... حتى تقتلي المزيد من الأطفال ؟

صككت على أسناني بغضب من أكاذيبه، فأنا لن أسمح له أن يُلقي علي هذه الاتهامات، رغم أن يوفيل قال أنه آصاب طفلًا بالخطأ لكن هذا لا يعني أننا نتعمّد قتلهم.

-أنا لم أقتل أي من الأطفال .... ثم أنكم من تطلقون أطفالكم وتجعلونـهم يهرولون أثناء الاشتباكات

أطبق على شفتيه بغضبٍ من حديثي الصادق، فهو لن يجد مبررًا لمَ يفعلونه، لكنه رد بعد فترة وجيزة بكلماتٍ مُستنكرة حادة:

-أنتم من اقتحمتم منازلنا أولًا .... أتريدوننا أن نُرحب بكم وأنتم تفجرون منازلنا ؟

زفرتُ بملل من حديثه الذي أعلمه جيدًا، فهم دائمًا ما يدّعون أنهم الضحايا ونحن الأوغاد، حتى بعد أن وقف العالم بجوارنا، فحتى العرب يساندوننا.

-هذا لا يُهم .... أعطني أسلحتي الآن

أعدتُ السؤال عليه باستهجانٍ ويدٍ ممتدة نحوه حتى يُنفذ الأوامر، ففي جميع الأحوال، وجهه قد حُفظ في ذاكرتي وسأصدر عمَ قريب، مذكرة باعتقاله.

-بل يُهم .... يُهم أكثر من أسلحتِك الغبية....

بدأ يصرخ بوجهي بتلك الكلمات الحادة وهو يقترب نحوي ويرميني بنظراتٍ حاقدة واصل معها حديثه المستهجن:

-إسمعي أيتها الخرقاء، أنا لا آهابكِ، ولا أهاب أمثالِك .... وإذا فكرتِ في العودة إلى هنا، فأنا الذي سأحيل حياتكِ إلى الجحيم

تحوّل حديثه مرة واحدة إلى تهديدٍ واضح جعلني أشعر بالحيرة لإنقاذه لي، كان من الأجدر أن يتركني ألقى حتفي حتى تأتي القوات لإنقاذي، مهلًا ... هو أنقذني حتى لا تأتي القوات وتأسر المزيد منهم، فهمتُ لعبتكِ أيها الحقير.

-أتحاول تهديدي يا هذا .... أنت لن تستطيع الاقتراب مني...

مددتُ يدي مرة أخرى وأنا أهتف بنبرة آمرة ازداد معها غضبي من هذا الوقح:

-هيا ... أعطني أسلحتي قبل أن أُنفذ وعيدي

أطلق زفرة طويلة تبعها بإغلاق عينيها وتمتمته بالعربية، وجدته يتحرك لداخل البناية ليأتي بحقيبة بلاستيكية بيضاء اعتقدتُ أنه وضع أسلحتي بداخلها، لكنني تعجبتُ من إخراجه لعُلبة دهانٍ بيضاء قام بمدّها نحوي متفوّهًا:

-سأعطيكِ ما هو أهم من الأسلحة .... خاصة بالنسبة لكِ

قالها فور أن انتشلتُ هذا الدهان عنوة وأدركتُ أنه دهانٌ لعلاج الحروق؛ هذا ما جعل نظراتي تتحوّل إلى أخرى مليئة بالحيرة حتى سألته:

-ما هذا ؟

بدأ يتحرك أمامي استعدادًا للرحيل أثناء إجابته الوقحة:

-هذا دهانُ للحروق .... ربما تحتاجينه بعد احتراقكِ بنار الجحيم

تضاعف غضبي من رده الوقح وأردتُ النيل منه بأية طريقة، قبضتُ على الدهانِ بغضبٍ عارمٍ وتحركتُ وراءه ببعض الصعوبة حتى أوقفته عن السير متفوّهة:

-توّقف يا هذا...

صرختُ به حتى يتوّقف عن السير وما إن استجاب لأوامري حتى مددتُ يدي نحوه آمرة:

-أعطني بطاقتك .... هيا .... أنا أعمل بالجيش ويجب أن تُنفذ أوامري

تمتم مجددًا بالعربية وكان يبدو عليه إمارات الاستخفاف، لكنني بقيتُ ممدة ذراعي وبقيت نظراتي الحادة تطالعه حتى بدأ العبث باستسلام في جعبته متفوّهًا:

-سأعطيكِ إياها ... لكن ليس لأنني خائفٌ منكم ... بل لأنني سأمتُ من صوتكِ المُزعج

حافظتُ على ثباتي رغم رغبتي الشديدة بنحر عُنقه، أخرج هوٌيته من جعبته ومدٌها نحوي ببرودٍ حتى أتفقدها وأعلم هوية هذا اللص، أول ما وقعت عيناي على هوٌيته، تأكدتُ من كوٌنه فلسطينيًا واسمه .... عبود سعد التاجي!!

الفصل الثاني (جيش القردة والخنازير)

((عبـــود))

8يونيو 2014   رام الله : فلسطين

صريرٌ هادرٌ يضرب الآذان، أدخنة عبقت الأجواء وطغت على المكان، العديد من الأقدام التي تهرول، العديد من الصرخات والاستغاثات، ومن بينها، كان هذا الطفل الصغير يبكي رفقة والده المُستلقي على الأرض بدماءٍ مُضرجة حوله، دموع الطفل البريئة تنحدر من عينيه بلا هوادة، يداه الرقيقتان لم تكن تلعبان مثل أقرانه، بل كانت تُحرك جسد أبيه برجفاتٍ تعصف بكيانه وكلماتٍ متقطعة لم تتوقف عن قول " بابا " وكأنه بهذا النداء سيُعيده للحياة، سيجعله يفتح عينيه ويُمسد على وجنته الصغيرة الناعمة ليُطمئنه ببقاءه بجواره.

اعتقد الطفل أن الحياة ستراف به وتُعيد إليه والده، لكن الحياة أقسمت على جعله يتكبد العناء رغم عُمره الصغير، لم ترأف بحاله وجعلت أصوات الطلقات النارية تزداد من حوله، ومع شدة صوّتها، كان يرتعد جسده بلا هوادة، يتشبث أكثر بجسد والده وتنقبض أنفاسه، لا يقدر على التحرك خطوة ولا يقدر على البكاء والصُراخ، فقد جفُّت دموعه، وتمزقت حنجرته، ناهيك عن آماله التي تحطمت وجعلته يستسلم لمصيره، فهو لا يُريد أن يترك والده.

ارتفع هذا الطفل عن الأرض وبقيت دموعه تنحدر على وجنتيه ويداه تُمدان لا يُريد أن يترك والده، بقي يصرخ ويصرخ محاولًا التملص من قبضة هذا الرجل الذي أتى لإنقاذه من الطلقات النارية، ازدادت دموع الصغير وهو يمدٌ يديه ولا يقول سوى ... " بابـــا"

شهقة مدوية أطلقتها وأنا أستيقظ من هذا الكابوس، بقيتُ لفترة على الفراش أحاول التقاط أنفاسي والتمسيد على صدري، فأسوأ ما في هذا الكابوس الذي يتردد علي يوميًا، أنه ليس كابوسًا ... بل هي ذكرياتٌ حاولت مرارًا أن أطردها وأضعها في خانة الأحلام السيئة.

بصقتُ على يساري وبدأتُ بالاستعاذة من الشيطان الرجيم كما كانت تُخبرني والدتي، تركتُ بعدها الفراش لأتجه صوّب المرحاض أضع القليل من المياه على وجهي وأتوضأ لتأدية فروضي قبل الذهاب إلى العمل.

ما إن أنهيتُ فروضي حتى اتجهتُ فورًا إلى حُجرة الطعام حيث تقف والدتي العزيزة تُعد لي وجبتي المُفضلة وهي " قلاية البندورة"

رسمتُ بسمة حانية على ثغري قبل أن أقترب نحوها متفوّهًا:

-صباح الخير ياما

ردت علي بوّدٍ وحبورٍ بالغ وهي تضع أمامي طنجرة الفطور مع كسرة من الخُبز الشامي وكأسٌ من الشاي، تناولنا سويًا فطورنا البسيط وكانت تطمئن على حالي وتسألني إذا كانت نومتي هنيئة أم لا، بالطبع لم أخبرها عن الكابوس الذي يأتيني يوميًا، فوالدتي شديدة الحساسية وتخشى علي للغاية، خاصة بعد وفاة رب المنزل.

أنهيتُ فطوري لأضع الطنجرة مع بقية الصحون وأترك سبيلًا للمياه الفاترة بأن تتغلغل بينهم، قبلتُ رأس والدتي بحبورٍ قبل أن أخبرها برحيلي وأتركها تدعو لي دعواتها المُحببة إلى قلبي والتي أنتظرها يوميًا.

انسللتُ الدرجات بعد أن أغلقتُ باب المنزل وكُنت على وشك المضي قِدمًا لولا مجيء كل من مسعود وحسن يحملان معهما إماراتُ الترقب مع إشاراتٌ أفهمها جيدًا، يريدانني أن أبتعد عن كاميرات المراقبة حتى يتسنى لنا الحديث بأريحية دون أن تترصدنا أعين الفئران.

-وينها المصاري ؟... المواد على وصول

كُنت أعلم أنه يتحدث على مواد التصنيع التي ستذهب إلى غزة حتى تُعينهم بحربهم، فكما تعلمون، القطاع محاصرٌ من جميع الجهات، ولا يوجد منفذٌ لدخول الأسلحة سوى بطُرق مُحددة.

قديمًا، كانت الطريقة المُثلى للحصول على الأسلحة شديدة التعقيد، أثناء الحرب الأولى، كان هناك مجموعة من الشباب يقطنون بالكويت ينقلون لنا الأسلحة عن طريق السواحل الكويتية، فكانت الذخيرة والبنادق تخرج من هذا الساحل وتذهب من المطلاع إلى البصرة بالعراق ثم تمشي في طريقٍ طويلٍ حتى البوكمال بسوريا، ومن هناك يتم نقلها إلى فلسطين.

ومُنذ القليل من الأعوام، كان القطاع يُسيطر على الأنفاق مع مصر، فكان يتجمع السلاح في إيران أو سوريا وينتقل عن طريق الشحن البحري لليمن وصولًا للسودان ومن هناك يتم نقله بريًا إلى مصر ويذهب بعدها إلى غزة، لكن الآن، يستحيل اتباع هذه القاعدة بعد انتهاء عصر الإخوان وتبديل رئيسهم.

أصبحنا في هذه الأيام نبتاع الأسلحة بأموال المُتبرعين وأحيانًا نحصل على دعمٍ من ميليشيات إيرانية ومن سوريا وأحيانًا كوريا الشمالية، وفي بعض الأحيان، نستخدم أموال التبرعات ونبتاع من خلالها الأسلحة الأمريكية عن طريق السوق الأسود.

وهناك طريقة أخرى نضطر اللجوء إليها عندما تضيق الطُرق، هذه الطريقة تجعلنا نبتاع مواد التصنيع كمواد خامة تُستخدم عادة للبناء والزراعة، هذا ما يجعلها تمُر بسهولة من خلال المعابر الاسرائيلية.

أخرجتُ حفنة من الأموال كُنت قد ادخرتهم لهذا الغرض، أعطيتُ الأموال لمسعود وأنا أربت على كتفه متفوهًا:

-هدول ألفين شيكل .... بس تيجي المواد راح عطيك قدون مرتين

بادلتُ نظراتي بينهما وأنا أواصل بصوتٍ مُحذرٍ مُنخفض:

-ديرو بالكُن .... المستوطنين راح يسوو هجامتهن هال يومين

أومأ رأسيهما بتفهمٍ لحديثي، فبصفتي حاصلًا على درجة الماجستير بالدراسات الاسرائيلية وخبرتي بالتعامل مع اليهود والاسرائيليين بت أعرف جيدًا كيف يفكرون وما هي الطريقة المُثلى للتعامل معهم.

هذه الدولة المزعومة، لا تأوي سوى المجرمين والقاتلين، فهي قد فعلت ذلك مع ألكس عودة، الناشط الفلسطيني الأمريكي الذي أغتيل على يد ثلاثة أوروبيين لجؤوا إلى اسرائيل وعاشوا تحت حماية الحكومة الاسرائيلية بعد أن عرقلت مسار التحقيق، وهي بالتالي تأوي هؤلاء المجرمين حتى تحصل على خدماتهم.

صحيحٌ أنني لستُ مقاومًا بالمعنى الحرفي، فأنا لم أحمل سلاحًا بحياتي، ولم أقم بقتل دجاجة حتى، ففي الأساس، كنت صحفيًا ماهرًا اؤدي عملي على أكمل وجه، لكن يبدو أن أسطورة " الأكثر ديموقراطية بالشرق الأوسط " لم تكُن سوى كذبة أخرى من آكاذيبهم، فبعد محاولاتي العديدة لنشر الحقيقة، قامت السُلطات الاسرائيلية بحجبي عن العمل ومنعي من ممارسة الصحافة نهائيًا، هذا ما جعلني أضطر للعمل بإحدى المقاهي لأحصل على قوت يومي.

لكنني لم أنسى هذا الظُلم الذي تعرضتُ له يومًا، تعلمتُ بعدها أصول الإسعافات الأولية وبِت أساعد المصابين مجانًا وأدعم حركات المقاومة بالأموال تارة وبالأفكار تارة أخرى، أنا الوحيد الذي يستطيع التحدث بالعبرية بطلاقة.

واصلتُ الطريق بقدماي رغم امتلاكي لسيارة عتيقة ورثتها عن والدي، فالسيارة مع الأسف لن تستطيع اختراق الحواجز التفتيشية وربما يتم التحفظ عليها.

كنت أعلم أنني سأبقى لساعاتٍ طويلة أقف بصفٍ عريضٍ حتى يتم تفتيشنا قبل الذهاب إلى القُدس، وما إن أتى دوري بعد ساعة ونصف، رفعتُ يداي حتى يبدأ الجُندي بتفحص جعباتي ثم يأخذ بعدها هويتي ويقوم بفحصها لأكثر من ساعة ثم يُعطيها لي ويتركني أواصل الطريق، بل أواصل الدخول في حواجز التفتيش التي لا تنتهي.

دلفتُ أخيرًا المقهى متُجهًا إلى حُجرة إعداد المشروبات وأنا أرتدي المريول وأبدأ باعداد الطلبات التي أخبرني بهم عاصي، أعدتُ كأسًا من الشاي ووضعته على صينية معدنية التقطها عاصي وأخذها صوّب الزبون الذي أعلمه جيدًا، جميع الزبائن هنا أعتاد رؤيتهم يوميًا، فأما أن يكونوا عاطلين عن العمل يأتون فقط لتمضية الوقت، وأما لديهم إجازة اليوم ولا يأتوا سوى مرة واحدة بالأسبوع وأيضًا من أجل تمضية

الوقت، فأغلب السهرات لا تأتي سوى بالمساء، وأحيانًا ما يضحى المساء فترة حظر التجوال الذي يفرضوه في بعض المناطق خاصة وقت الأزمات.

-نافع بدوش يدفع حق الشاي

قالها عاصي بلكنة تحمل بعض الغضب من نافع، نافع لا يأتي إلى أي مكانٍ إلا بعد افتعال المشاكل، فهو في مُنتصف العقد الثالث من عُمره وحتى هذه اللحظة، لا يستطيع العثور على وظيفة جيدة رغم حصوله على أعلى الدرجات بإدارة الأعمال، لا يزال حتى الآن يأخذ الأموال من والدته المُسنة ويأتي هنا لتضييع الوقت ولافتعال المشاكل التي من خلالها يُنفس بها عن غضبه من ذاك العالم.

أطلقتُ زفرة نافدة صبرها وأنا أرد ببعض الغضب:

-إذا ما دفع .... ما راح يفوت لهون مرة تانية

أخفضتُ من صوّتي وأنا أواصل بتهكم:

-مش ناقصة كحاته هاد كمان

أومأ عاصي بإيجابٍ ليعود بعدها إلى نافع عازمًا على تنفيذ تهديدي الصريح، استطعتُ السماع إلى أصوات الشجار وصوّت نافع الغليظ الشبيه بأصوات الجزارين، ومع ذلك تجاهلته كليًا وبدأتُ اعداد القهوة كثاني طلبٍ لي في هذا اليوم.

أتى عاصي بعد شِجارٍ قصيرٍ انتصرنا به واستطعنا طرد نافع من هنا قبل أن يفتعل شجارًا آخرًا، وجدته ينتشل جهاز التحكم ويفتح التلفاز على أمل مشاهدة الأخبار وما يحدث في غزة الآن، فحسب ما أعرف، ستبدأ العملية البرية اليوم، وقد أعلنت القوات الاسرائيلية بأنها لن تتوّقف قبل احتلال القُطاع.

كان التلفاز مفتوحًا على قناة الجزيرة التي تبث الحرب بصورة مباشرة، أصوات القصف تتعالى من التلفاز وتجعلك تعتقد أنك اقتحمت الأحداث لا إراديًا، ففي جميع الأحوال، غزة هي جُزء من فلسطين، ولا يجب أن نعتبرها دولة مُنفصلة عن الضفة

الغربية، فهذا ببساطة ما يفعله الاحتلال، نحن حتى لا نستطيع الذهاب إلى غزة سوى بعد العديد من التصريحات والاجراءات وكأننا نُسافر إلى دولة أخرى.

-الله يعينهم .... لك مش قالو إنه راح يكون فيه هُدنة ؟

رسمتُ بسمة ساخرة على ثغري وأنا أجيبه بثقة:

-مستحيل .... الهدنة بالنسبة إلن متل الغول .... ما راح يقبلو فيها لو شو ما صار

غسلتُ يداي ثم بدأت بتجفيفها وأنا أواصل حديثي الواثق:

-بتتذكر إش صار بحرب 48 ؟ .... كان اليهود بيطالبو بهدنة " إنسانية " حتى يشحزو قواتهم، لأنن عارفين إن المقاومة وقتها .... ما كانت متل اليوم....

أمسكتُ البراد لأملئه بالقليل من الماء استعدادًا لإعداد الشاي وأنا أقول:

-بس هس .... يقدروش يطالبو بأية هُدنة لأنن عارفين إن حماس راح تجيب سلاح وتقوي جبهتها

أومأ عاصي مُتفهمًا ثم عاود مشاهدة الأخبار التي كُلما شاهدناها نزداد مُقتًا لهذا العالم، نُدرك أن العالم لا يخلو من الظُلم من مُجرد لقطاتٍ لا تعرض سوى أقل بكثيرٍ مما يحدث على أرض الواقع.

-عم يقولو إن الأونروا عم توّفر مساعدات للاجئين

أطلقتُ ضحكة ساخرة عقب حديثه الذي علقتُ عليه بما يجيش بصدري:

-لك هاي الأونروا كذبة كبيرة .... من وين الأوروبيين يروحو يفجرو مدنيين ومن وين يساوولنا مُنظمات لإغاثة اللاجئين ؟.... لك هدول هن إللي خلقو اللاجئين وعم يطلعو قدام العالم ملايكة

بان على وجهه التصديق وهو يشيح بيديه متهكمًا من هذا الوضع:

-إيه والله معك حق

أعطيته صينية معدنية تحتوي على كوبين من الشاي الأحمر مع أكياسٍ من السكر؛ أخذ عاصي الصينية وبدأ يتحرك صوّب الطاولة المرادة لكنني أوقفته بقبضتي التي مُدت لتلتقط كتفه مع عيناي اللتان بدأتا تنطلقان كالسهم المارق صوّب أكثر شخصٍ أمقت دخوله هذا المقهى .... ناصر.

-إش جابة لهاد كمان ؟

قُلتها بضيقٍ عارمٍ وأصابع صوّبتها على ناصر الذي كان يرفع هاتفه حديث الصيحة ويتحدث أمامه بلغة إنجليزية مُتقنة، صحيح أنني ادخرتُ كامل وقتي لتعُلم العبرية لكنني لا زلت أفهم الانجليزية وأتحدثها بصورة متوّسطة، أعلم أن هذا المنافق أخذ أموالًا طائلة حتى يقوم بتصوّرينا ونشرها على صفحته، يريد العالم أن يُصدق أننا كفلسطينيون، لا نضجر من الاحتلال ونجلس مع الاسرائيليون جنبًا إلى جنب، يريد العالم ألا يلتفت لجرائم الاحتلال ويُصدق أنها دولة ديموقراطية لا تُفرق بين أحد.

هذا ما يُثير حفيظتي ويجعلني أكاد أقترب من ناصر المنافق وأقوم بطرده من المقهى، ألا يكفي أنه تنازل عن جنسيته ووافق على جنسية هؤلاء الملاعين ؟!

-قولتله المرة الماضية ... بس ما بعرف إش جابه

قالها عاصي مُبررًا ليزداد غضبي أضعافًا وأبدأ بنزع المريول عن خصري متفوّهًا:

-خليك هون .... أنا راح اتعامل مع هال الخنزير

أطلقت عيناي العديد من الشرارات وأنا أتجه صوّب ناصر لأقبض على هاتفه مانعًا إياه من التصوير:

-لك شوبك خيي ؟

قالها ناصر باعتراضٍ وبنبرة مُرتفعة زادتني غضبًا وأنا أغلق هاتفه وأحاول الحفاظ على هدوئي وأنا أطرده بأدب:

-ممنوع التصوير هون

-وإش إللي مانعه .... أنا آخد تصريح

قالها بصلفٍ وهو يحاول انتشال هاتفه ومعاودة التصوير، لكنني قبضتُ على الهاتف جيدًا وأنا أقول بإصرارٍ لم يخلو من غضبي العارم:

-هالتصريح تبله وتشرب ميته .... يلا إطلع لبرة

انتبه ناصر على لكنتي المهاجمة والتي جعلته يثب أمامي راميًا إياي بنظراتٍ متعالية قال معها ببعض التهديد:

-إذا ما سمحتلي أصوّر ... والله لأشتكيك للي أكبر منك وبخليهن يزتوك بالسجن

كُنت أعلم جيدًا عمَ يتحدث، هذا الحقير يستخدم جنسيته الاسرائيلية لينشر كلماته المُهددة، كمَ لو أنني سأهابه، ومع زيادة صلفه وجدتني أخرج عن شعوري وأقبض على تلابيبه متفوّهًا بنظراتٍ مشتعلة:

-مفكرني خايف منك ولا شو ؟....

دفعته بقوة قُرب باب الخروج من المقهى وأنا أتمتم باستهجان:

-فِش تصوير هون ولاك .... وإذا مش عاجبك روح بلّط بالبحر ولا تفرجيني وشك مرة تانية

عدّل ناصر من هندام ملابسه بكبرياءٍ وهو يرميني بنظراتٍ متوّعدة قبل أن يُلملم كرامته التي بعثرتها وينطلق بها خارج المقهى، أعلم أنه لن يُنفذ أي من وعيده، فرغم

أنه يحمل الجنسية الاسرائيلية، إلا أنه يُعامل كمواطن من الدرجة الثانية، ولا يُنفذ له أي من هذه الطلبات، هذا الحقير يربح قوت يومه عن طريق النفاق والخِداع.

زفرة حارقة خرجت من جوفي وأنا أعوِّد مجددًا إلى حُجرة إعداد المشروبات أحاول التهدئة من أنفاسي المتلاحقة والمحافظة على هدوئي قدر المستطاع، لا أعرف كيف أحافظ على هدوئي وسط هذا الكم من الصُخب.

قبل أن أرتدي المريول وأعاود العمل، تذكرتُ تلك الأغراض التي أريد ابتياعها قبل حظر التجوال؛ هذا ما جعلني أقترب نحو عاصي وأوأمنه على المقهى حالما أذهب إلى الصيدالية لابتياع بعض الأدوية.

تركتُ المقهى وعاودتُ السير بين الطُرقات مُتجنبًا تلك الكاميرات المتراشقة في كل مكان، صدح بعض الضجيج بالقُرب مني، ولم يكن هذا الضجيج سوى صوُت لهو الأطفال ومرحهم، هرول نحوي ولدان بالتاسعة والثامنة من العُمر يدُعيان " سند " و"أكرم"

كانت البسمة الهادئة تشق ثغري وأنا أمرر يدي على خُصلات شعريهما الداكنة الكثيفة وابتسامتهما التي تبعث بداخلي السرور والسكينة.

-خيي عبود .... خلصت الجزء السادس

-وأنا كمان خلصته وبدأت بالسابع

قالها سند وهو يرفع إصبعه بفخرٍ من ذاته، فأنا قد أخبرتهما أنهما إذا أكملا حفظ القرآن فسوف أعطيهما مكافأة كبيرة، ومع كل جزءٍ يتمانه يحصلان على مكافأة صغيرة حتى يتشجعا لحفظ المزيد.

-عفارم عليكم....

كان التشجيع طاغ على حديثي وأنا أخرج لهما حفنة من الأموال تُعادل خمسة شيكل، لكل واحدٍ منهما اثنين ونصف شيكل يبتعان بهم أي نوعٍ من الحلوى، تهلل وجه

الصبيين وتطايرت الفرحة من عينيهما وهما يقفزان بتلك المكافأة ويتشكرانني بوجهٍ صبوحٍ ثم يعاودا اللعب مع أقرانهم مجددًا.

تابعتُ خطواتهما البريئة ثم أكملتُ السير بتؤدة قطعتها مجموعة من الأصوات المتداخلة للمرة الثانية، وكانت هذه الأصوات، تُصدر من فتاةٍ أمريكية ربما أتت من قناةٌ إخبارية صهيونية لنقل الأخبار من هنا، بحيادية مزيفة، فهي لا تنتقي سوى النماذج الهادئة الأقل تأثرًا بالأحداث حتى لا ينفعل معها المتلقون ويقفون بجوار القضية، وإذا صادفت مصدرًا منفعلًا أو متأثرًا، فهي تمحي المحاورة بينهما وترفض عرضها على الفضائيات، أعرف هذا التضليل الإعلامي جيدًا، وأحفظه عن ظهر قلب.

-عفوًا سيدي .... هل يمُكنني إجراء حوارًا معك ؟

سألتني بإنجليزية طليقة حاولتُ معها كبت زفرتي وعدم إظهار مُقتي من هذا الإعلام الفاسد.

-طبعًا .... تفضلي

كانت البسمة الزائفة السمجة مُرتسمة على وجهي وأنا أتقبل عرضها لأرى ما الذي ستسألني إياه.

-كيف ستنتهي الحرب الدائرة برأيك ؟

تقصد الحرب الدائرة بين حماس والاحتلال، وأعلم أنها تنتظر مني إجابة شافية تُظهر استسلامنا وندمنا على الدخول في هذه الحرب.

-ستنتهي بانتصار الحق

تعمدتُ إجابتها بإبهامٍ حتى لا تقطع حديثي وتحاول إقناعي بوجهة نظرها ... الخاطئة.

-هذا يعني أن اسرائيل ستنتصر ؟

-لقد قُلت انتصار الحق وليس انتصار الإرهاب

ردتُ عليها بتهكمٍ وفظاظة مبطنة أعهدها مع هذه الأنماط، فهمت المذيعة أنني أوجه اتهاماتٍ صريحة لدولتها الحبيبة وهذا ما جعلها تحاول إقناعي:

-لكن حماس هي من بدأت بإطلاق القذائف .... هذا يعني أنها السبب بهذه الحرب

كُنت أعلم أنها ستطرق إلى تلك الكلمات الحمقاء التي تحمل كمًا من الجهل يزن فيلًا، فلا أحد يرى جرائم الاحتلال التي تدفعنا للمقاومة، يرون فقط مدافعتنا ويُفسرونها على أنها بداية الصراع.

هذا ما جعلني أومأ رأسي تأكيدًا على حديثها بسُخرية وتهكم، فلا وقت لي بسرد بداية القضية أمام هذه الجاهلة التي لن تُصدقني وستُلقي بأحاديثي في أقرب سلة للمهملات.

-نعم نعم ... حماس هي من بدأت بإطلاق القذائف، وهي أيضًا التي تسببت بالبيج بن وبمقتل الأميرة ديانا

قُلتها بسخرية جعلتها ترميني بنظراتٍ مُبهمة استنتجت معها:

-مهلًا .... هل تحاول تضليل الإعلام ؟

-نعم، أضلل الإعلام حتى لا تضطري إلى فعل ذلك

هكذا أجبتها بتهكمٍ جعلها تزدرد ريقها بحرج، اتهامي الصريح جعلها تُدرك أنها تحاول تضليل الإعلام بطُرقٍ ملتوية، ومع ذلك واصلت أسئلتها لعلها تُكذب اتهامي غير المباشر لها.

-إذا .... هذا يعني أنك تقف مع الإرهابيين ؟

كانت تقصد حماس بحديثها لكنني ضربتُ بعزيمتها وثقتها الأرض ضربة قاتلة حينما رفعتُ إصبعي مشيرًا به على كلينا وأنا أقول:

-هذا صحيح .... لهذا السبب أقف معكِ

أطبقت على شفتيها من حديثي الذي ضرب كبرياءها في الصميم وجعلها تقول بهجوم:

-معذرة سيدي .... لا يجب أن تقول علينا إرهابيون .... جميع الدوّل العربية تقف بجوارنا، حتى دولة الإمارات، أرسلت مجموعة من الأطباء النفسيين لمعاونة الجيش الاسرائيلي

رسمتً ضحكة متهكمة على ثغري وأنا أحطم حديثها للمرة التي لا أعلم عددها:

-الإمارات العربية تعرف أنكم مُختلون عقليًا

ابتلعت لسانها من إهانتي الصريحة التي أتت في الصميم، كادت تدحض حديثي مجددًا لولا الإشارة التي وجهتها نحوها بأصابعي وأنا أقول:

-أخبري دولتكم الحبيبة أن تُرسل الحفاضات مع المساعدات التي تبعثها للجيش .... فاسرائيل لا تتوقف عن البكاء لدولتكم كلما ألقت حماس قذيفتها عليهم

أنهيتُ الحديث بهذه الجُملة وتحركتُ بعيدًا عنهم وأنا مُتيقنٌ أن هذا الحوار سيتم إلقاءه بالقمامة، أو ربما يتم تحريفه على أهوائهم.

على كلٍ، نحن لن ننتظر الإعلام الغربي حتى يُدافع عنا، سيرفع الحق رايته يومًا ما وسيُجبر الجميع على معرفة الحقيقة، حتى أولئك الذين على استعدادٍ للتضحية بحياتهم من أجل إخفاء الحقيقة.

توّقفتُ أمام الصيدالية أبتاع الشاش والقُطن والعديد من الأدوية الخاصة بمداوة الجروح والحروق وأي إصاباتٌ من الممكن أن تُصيب المقاتلين.

خرجتُ من هذا المكان مُحملًا بهذه الأدوية وفي طريقي لإحدى المستوطنات المحتواة على مجموعة من الفلسطينيين ومن بينهم إحدى كتائب المقاومة، عزمتُ على إعطاءهم تلك الأدوية ثم العودة لاستكمال العمل بالمقهى.

انحدرت الشمس قليلًا لتتعانق مع الأرض في مشهدٍ غروب تستجم له الأنفس، لكن ليس هنا، فما هي إلا بضع دقائق حتى دق ناقوس الخطر وبدأت أصوات الطلقات النارية تتبادل في كل مكان، بإحدى مستوطنات القدس الشرقية.

أدركتُ أن المستطونين انتهزوا فترة الحرب وانشغال الإعلام وهجموا على مجموعة من المدنيين لسرقتهم وطردهم عنوة من منازلهم، ولا أحد بالطبع سيقف بطريقهم، هؤلاء المجرمون محميون من الاحتلال، ولا يوجد قانونٌ هنا، وكأن السرقة منا لا تُعد سرقة بقاموسهم، بل هي حق مشروع.

اشتبك مجموعة من المستطونين المُسلحين مع عناصر من المقاومة مما أدى إلى إصابة مستوطنٍ وفرار الآخر، لتبدأ بعدها معركة صغيرة انقلبتٌ إلى اشتباكٍ مريرٍ اضطر فيه المستطونون الجُبناء بإبلاغ القوات الاسرائيلية للحصول على الدعم، ها هُم الآن على وشك إخبارهم أننا من بدأ الاشتباك وأن الجيش سيأتي لحماية مواطنيه منٌا.

احتميتُ بإحدى المباني الفارغة أنتظر انتهاء هذا الاشتباك ومعاودة السير، ليس لأنني خائفٌ من صوّت الرصاص أو منظر الدماء، فأنا مُعتادُ على تلك الأشياء، لكنني أيضًا لستُ خارقًا حتى أتحرك وسط تبادل الأعيرة دون أن يُصيبني خدش، خاصة وأنا لا أحمل أي نوعٍ من السلاح.

بقيتُ لساعة أو أكثر أختبأ خلف الجدران وأتابع الاشتباك بحرقة، داخلي هالة من الغضب أريد إخراجها والإطاحة بجميعهم لولا عجزي وقلة حيلتي.

انتهى الاشتباك بعد مرور ساعة أو ربما أكثر وبدأت أعضائي تتحفز لانتشال المصابين ومحاولة مداواتهم قدر الإمكان.

أمسكتُ حقيبة الأدوية وهرعتُ صوّب طفلٍ صغيرٍ يأن بوجع على الأرض بعد تلقيه رصاصة فوق رُكبته، حاولتُ إسعافه قدر الإمكان بقلبٍ يخفق بهوادة خوفًا على ذاك الصغير الذي آراد اللهو والمرح لكن العالم أرغمه على خوّض هذه المعارك.

بدأتُ أتحرك في كل مكانٍ بحثًا عن المزيد من المصابين لكنني لم أكن أجد سوى القتلى، قُتل طفلين بالعاشرة والسابعة وتم نقل جثامينهما على عرباتٍ صغيرة لعدم السماح بدخول عربات الإسعاف، اضطرب قلبي أكثر وتحسرت على هذه الأرواح البريئة التي ذهبت هباءً.

عُدت مجددًا إلى المبنى الذي كنت أحتمي به على أمل أن أطلق العنان لدموعي وأنفجر بعيدًا عنهم، لا يجب أن يُلاحظ أحدهم انكساري وعجزي، هكذا لن نستطيع مساندة بعضنا.

بقيتُ بالداخل أحاول تنظيم أنفاسي المتلاحقة ودموعي التي بدأت تنحدر بهدوءٍ، كُنت على وشك الصُراخ وتحطيم الجُدران لولا صوّت الهمهمة الخافت الذي انبعث بالقُرب مني.

رفعتُ رأسي بعوالم حائرة وبدأتُ أتبع صوّت الهمهمات التي أدركت فيما بعد أنها أنينًا.

صدمني وجود فتاةٌ تبدو بأواخر العشرين ترتمي بجوار الجدار بملابس أعرفها جيدًا، وأمقتها كل المُقت.

تدفقت الدماء بعروقي وأنا أشاهد تلك الفتاة تحمل سلاحًا وتنبعث الدماء من رُكبتها اليُسرى، أطبقتُ على شفتاي بحنقٍ منهم وأنا أقترب نحوها وأنزع عنها السلاح بغضب، هذا السلاح الذي تقتل به الأطفال، لا تستحقه، من الأفضل أن أحطمه إربًا حتى لا تحصل عليه مجددًا، لكنني انتهزتُ الأمر، وقررتُ أن أخبئه أسفل إحدى الحجارة وأخبر واحد من المقاتلين عنه حتى يستخدمه في القتال، وربما يتم تصنيع مثله.

عُدتُ مجددًا صوّب هذه الفتاة، ليس لأنها لفتت نظري بخُصلاتها البنية المسترسلة وملامحها الأوروبية، فهي لا تعنيني من الأساس، وأنا أعرف أن قاتلة مثلها لا تستحق سوى الموت، والموت بهذه الطريقة.

لكنني في لحظة، توقفتُ عن السير لأجد يديها تتشبث بقدمي وترتجف بطريقة أعرفها جيدًا، وجدت دموعها تنحدر على وجنتيها والعرق يتصبب من جبينها وهي تهزي بالعبرية:

-لا تتركني .... لا تتركني أرجوك...

باتت كلماتها متوّسلة ويداها ترتجفان، لم تترك قدمي ولم تتوّقف عن الاستنجاد بهذيان جعل قلبي ينفطر لأجلها، ففي النهاية، أنا لستُ مثلهم، لن أترك ضعيفًا مخذولًا دون أن أساعده مهما كانت جرائمه، ثم أنني إذا تركتها، ربما يعتقد جنودها الأغبياء أننا نحتجزها كرهينة ويقوموا بتفجير مُجمعٍ سكنيٍ من أجلها.

عزمتُ القرار وقتها على مداواتها والسماح لها بالرحيل حتى لا تتعقد الأمور، أعلم أننا من المفترض أن نقتلها، لكننا لن نقتل شخصًا أعزلًا يئن من الوجع، لسنا بلا ضميرٍ مثلهم.

داويتها بأنفاسٍ مُضطربة وعينانٍ تتلفتُ في كل مكانٍ خوفًا من أن يراني فلسطينيًا ويعتقدني خائنًا، أو يراني مستوطنًا ويعتقدني أعتدي عليها، أمسكتُ بالمقص لأمزق سروالها حتى بُقعة الدماء، ثم أمسكتٌ بالملقط بعد أن مررت قداحتي بالقُرب منه ليضحى محدبًا أستطيع به نزع هذه الرصاصة.

ما إن انتهيتُ من تخييط جرحها وتنظيف دماءها، لاحظتُ اسمها المكتوب على زيها العسكري والذي كان " راموئيل أزاريا " لكنني لم أكترث لاسمها العجيب وواصلتُ مداواتها حتى وجدتها تفتح عينيها ببطء....

"الدولة العُنصرية ستُربي النشأ على فكرة أن شعبها متفوّقٌ على سائر الشعوب"

جملة قرأتها بإحدى الكُتب التي تتحدث عن العُنصرية، العنُصرية التي نحياها دائمًا وأبدًا، والعجيب أن هذه الجملة خرجت من كتابٍ خطه أدولف هتلر، أكبر أعداء اليهود، وهو في الوقت ذاته، أكثر من يتبعون خطواته، وكأنهم أبناءه وليسوا أعداءه.

هذا ما يؤكد نظريتي مئة بالمئة، لا توجد طريقة لمحاربة هذا الكيان والقضاء عليه، سوى باتباعنا نفس خطواته، ولأننا نحمل قدرًا من الإنسانية والضمير، لا نستطيع ممارسة فواحشهم حتى نُحرر دوٌلتنا، لكننا نستطيع استخدام الخداع والمُكر واستقطاب عقول الغرب، ينقصنا فقط القُدرة على فعل ذلك، وربما الشجاعة أيضًا.

طرأ بذهني هذه الفتاة التي تشاجرتُ معها قبل ساعاتٍ من وصولي المنزل، كانت البسمة المتهكمة تُرتسم على شفتاي وأنا أتذكر ملامحها ونظراتها الغاضبة من حديثي، فكما قرأت في هذه المقولة، هي تعتقد أنهم شعبٌ مميزٌ يفوق الجميع ذكاءً وشجاعة، ولا يُخطؤون أبدًا.

آصابتها الصدمة حينما وجدتني أجابهها بصدرٍ رحب دون ذرة خوف، والأدهى أنها لم تكن تحمل سلاحًا حتى تستخدمه ضدي كما يفعل بقية الأوغاد أمثالهم، ربما هذا ما جعل غضبها يزداد أضعافًا حتى أنها أصرّت على أخذ هوٌيتي حتى تحفظ اسمي جيدًا، وأنا لا أخشى هذه الخطوة، ولا أخشى سجون الاحتلال حتى.

وأنا بالعاشرة من العُمر، ألقي القبض علي ذات مرة بادعائهم بأنني ألقيتُ عليهم الحجارة، رغم أن والدتي أكدت أكثر من مرة أنني لم أترك المنزل.

أتذكر بكائي وقتها ومحاولتي المستميتة بالتشبث بيد والدتي حتى لا تتركني لهم، لكن في النهاية، انتصروا على جسدها الضعيف وجذبوني كالبهائم نحو عربة الترحيلات لأبقى بالمُعتقل لعامين كاملين قبل أن يُصدر قرارٌ بالإفراج عني.

مُنذ هذه اللحظة وأنا لا أهابهم ولا أدع مجالًا للشعور بالخوف منهم حتى، أصررت على دراسة مُعتقداتهم وأفكارهم حتى أعرف الطريقة المُثلى للتأثير عليهم، هؤلاء الأوغاد ينقصهم عقابٌ جللٌ يقضي على عزيمتهم ويفضحهم أمام العالم.

قطع شرودي وتفكيري المُستميت، صوّتٌ مُرتفع جلجل حصون المنزل؛ دب الذعر أوصالي خوّفًا على والدتي، تركتُ مضجعي لأتجه صوّب الباب وأجد والدتي تقف أمام باب حُجرتها تضع يدها على صدرها بخوف وتضع خمارًا على شُعرها.

فُتح باب المنزل بحدة كاد يتحطم معها، اخترق المنزل مجموعة من المسلحين يرتدون ثيابًا داكنة ويقتحمون المنزل كما لو كان منزلهم، بدأو بالعبث وتدمير المنزل دون اكتراثٍ لوجودنا حتى وقعت عينيهم علي.

انقض علي مجموعة منهم ليُكبلونني بالأصفاد ويأمرونني بالتحرك، استسلمتُ لهم خوّفًا على والدتي التي ربما يُصيبها الأذي إذا صدر مني أي رد فعلٍ هجومي، خاصة ومعهم هذا الكم من الأسلحة.

تحركتُ معهم بهدوءٍ وأنا أتلفت صوّب والدتي أحاول تهدئتها بعيناي وطمأنتها أنني سأضحى بخير وسأعود لها، فأنا لم أرتكب أي جُرمٍ بقامسوهم، ولم ألقي ولو حجارة واحدة على عرباتهم حتى، والقائهم القبض علي لا يعني سوى أمرين لا ثالث لهما، أما أنهم يعتقدونني مُشتبه به وأنني من المقاوميين، أم أن لي علاقة بهم وربما أتعرض للمسآلة حتى أعترف بأسمائهم، وفي جميع الأحوال، سألوذ بالصمت حتى يعتقدوا أنني بريء.

استلقيتُ عربة الترحيلات جبرًا ليضع أحدهم الطماشة على عيناي حتى يحجب الرؤية عني، كانت الساعة تكاد تقترب من الواحدة بعد مُنتصف الليل والجو متلفحٌ ببرودة ونسماتٍ عليلة تناسب هذه الأجواء.

لم أكن أرى ما يحدث حولي بسبب يداي المُكبلتين وعيناي المغطاة، شعرتُ بأحدهم يدفعني صوّب حُجرة ضيقة أكاد أشتم رائحتها العطنة ولا أعرف بالضبط حجمها لكنني تذكرتُ تلك الأيام جيدًا.

لازالت الطماشة على عيني وحاولتُ أن أتذمر وأعترض وأسألهم عن سبب وجودي لكن يبدو أنهم يتعمدون تجاهل حديثي، شعرتُ بأقدامٍ تقترب نحو أذني وجسدي المسجي على الأرض والذي لا أستطيع تحريكه بسبب أطرافي المُكبلة، وما هي إلا

بضع ثوانٍ حتى شعرتُ بركلاتٍ قوية تُصيب معدتي وظهري وسائر جسدي يتبعها صوّت عصا غليظة تهوي على جسدي وكتفي الذي شعرتُ بانكساره.

حاولتُ كبت أنيني قدر الإمكان ولم أصدر سوى تأوهاتٍ خافتة خرجت من جوفي سهوًا، وبعد مرور ساعة أو أكثر، توّقفت الركلات والضربات وبت أشعر بسائلٍ لزج يخرج من أنفي وفمي مع عظامي التي أشعر بتحطمها كُليًا، حاولتُ الوثوب عن الأرض بلا فائدة، وحاولت الصياح بهم لكن جروحي تمنعني في كل مرة.

اقترب نحوي واحدٌ من هؤلاء الأوغاد ليرفع جسدي عن الأرض ويُجلسني على ركبتاي، تلفتُّ برأسي يمينًا ويسارًا محاولًا استشفاف الأصوات وتقدير عدد الضباط بلا فائدة، أزيحت الطماشة أخيرًا عن عيني لتتضح هذه الحُجرة العطنة ويتضح أيضًا ... هذه الفتاة.

-كأنه عجبتك الترويقة ؟

قالتها راموئيل بابتسامة مُتشفية ولغة عربية جعلتني أرمقها بحيرة، هذه الحيرة آجابتها بذراعين مربوطين ونبرة متهكمة حاولت معها تقليدي:

-شو ؟ .... الرسول علمنا نحن كمان إنه نتكلم بلغة أعدائنا

رميتها بنصف ابتسامة ساخرة من تقليدها لحديثي، فبالطبع تعرف العربية وتتحدثها بطلاقة، أتعتقد هذه أنني لا أعرف أن اللغة العربية مفروضة على مدارسهم ؟ خاصة وهي بالجيش.

-إش بدِك ؟

رفعت رأسي بشموخ وأنا أقول لها هذه الكلمات، فقد تبيّن الآن حقيقة الأمر، هي التي أمرت بإحضاري هنا ومعاقبتي على وقاحتي معها.

-بدي ياك تعتذر

قالتها بصلفٍ ونظرة تحمل من الغرور ما يعادل غرور الطاووس، لكن نظراتها المتعالية لم تُفقدني إنشًا من عزيمتي وأنا أرُد عليها:

-ولشو بدّي اعتذر ؟ .... منشان قولت الحقيقة ؟

تدفقت الدماء بعروقها وهي تهاجمني بحديثها:

-لأ ... إنت كذاب ... نحن مو بنقتل أطفال، وهاي مو دولتكم، ربنا عطانا هادِ الأرض

كذبُت حديثها بنبرة واثقة:

-قصدِك الإنجليز

-نحن كنا هون من قبل الإنجليز .... كنا هون من تلات تلاف سنة

قالتها بثقة ونبرة متزعزعة قليلًا أثبتت لي أن حُجتها ضعيفة، فهذه الأرض المُقدسة احتلها العديد من الدول الاستعمارية، ومنها دوٌلتهم المزعومة التي طُردت من هنا قبل ثلاثة ألاف عام وعن قريب ستُطرد مرة أخرى.

-ونحن أنسال الكنعانيين وفي أبحاث بتثبت هال حكي....

حاولتُ إرخاء ظهري للوراء رغم ألمي وأنا أحاكيها بقامة شامخة:

-إنتو بقى .... في دليل يثبت إنكن من أنسال اليهود يلي كانو هون من تلت تلاف سنة ؟

أُلجمت من حديثي ولم تجد من الكلمات ما تقوله، هم بالأساس لا يعرفون أجدادهم حتى يقوموا بإجراء تحاليل تحديد النسل، والتي للعلم، ممنوعة منعًا باتًا حتى لا يعرفوا الحقيقة، حقيقة أنهم حفنة من المستعمرين.

رفعت سبابتها أمامي بنظراتٍ تتقد شرًا وهي تقول:

-مو مهم الماضي .... المهم الحاضر، ونحن يلي موجودين اليوم، يعني إنتو مجبورين تخضعولنا ورجلكن فوق راسكن....

هدأت نبرتها قليلًا وهي تواصل باستحقار:

-أصلًا المفروض تشكرونا لأنه عطيناكم أرض تضلو فيها

-إنتو يلي المفروض تشكرونا لأنه قبلناكم كلاجئين لما كانت الدول الأوروبية تقتلكن

هكذا رددتُ عليها بنبرة صارخة ونظراتٍ لا تختلف استحقارًا عن نظراتها، وكعادة الأمر، لم تجد من الكلمات ما تقولها وابتعدت عني بضع خطواتٍ قالت معهم بتهديد:

-تمام ... أنا رح فرجيك مين هن اللاجئين

ابتعدت عن الحُجرة وهي تُشير على زملاءها إشارة أعرفها جيدًا، فما إن رحلت عن الحُجرة حتى اقترب نحوي مجموعة من الضُباط يرفعون عصييهم ويرمقونني بنظراتٍ تتقد شرًا، كانوا يرفعون العصا نحوي وكُنت أعرف أنني لن أنفد بجلدي سوى بعد العديد من الكسور والضمور، لكنني قبل أن أفقد القُدرة على النُطق، صرختُ بأعلى ما لدي بلغة عبرية حتى يفهمها جميع من هنا:

-لا أحد يعلم متى ستنتهي الحرب .... لكن جميعنا يعلم كيف ستنتهي....

الفصل الثالث (ربما كُنت خاطئة)

((راموئيل))

16يونيو 2014 أورشليم : اسرائيل

لا توجد لذةُ في الحياة تُضاهي لذة الانتقام، تشعر وقتها بأنك تملكت العالم وأنك تستطيع النيل من أي شخصٍ يُعركل طريقك، وبعد أن انتقمتُ من هذا الوقح، اعتقدتُ أنني سأشعر بالفرحة والانتصار، لكن لا أعلم لماذا أشعر بشيءٍ ناقص.

لا زلتُ أتذكر نظراته الجامدة المليئة بالكبرياء، لازلتُ أتذكر كلماته الواثقة رغم ضعفة وقلة حيلته، هو لا يملك من العتاد ولو مدٌية، ومع ذلك يستخدم لسانه السليط بنحرٌ العقول وإشعار الجميع بالذنب، ولا يجب أن أنسى أنه قام بمداواة جروحي وعلى الأغلب أنقذني من الحياة لسببٍ لا أعرفه.

مكثتُ على فراشي لساعاتٍ طويلة أتذكر حالته المزرية وكيف كان جسده مليئًا بالسحجات والكدمات بعد أن أصدرتُ مُذكرة باعتقاله وتعذيبه، لكنني بعدها شعرتُ بذنبٍ طفيفٍ فأمرتهم بالإفراج عنه وإيداعه بالمشفى.

عقلي يتضارب من شدة الصراعات، فهناك من يلومني لأنني لم أقم بقتله ولم أتركه يتعفن بالزنزانة، وهناك من يُشعرني بأنني مُجرمة ناكرة للجميل لأنه داواة جروحي وأنا أمرتُ بتعذيبه.

مسدتُ على رأسي لأنفض أفكاري الأخيرة حتى لا يبقى أي تعاطف اتجاههم، هكذا أخبروننا بالمدارس وبالدورات العسكرية، أخبروننا أن العرب هم سبب نهايتنا وأنهم بربريون لا يعرفون شيئًا سوى العُنف، ولهذا السبب لا يجب أن أتعاطف معهم أبدًا، وإلا سينتقل ما حدث بالمحرقة هنا، وسيتم إبادتنا مجددًا.

لكن عبود لم يبدو عنيفًا أو بربريًا، بل كان واثقًا من حديثه وكأنه مؤرخ تاريخ، كان يرميني بنظراتٍ اعتقدتها في باديء الأمر بغيضة كارهة، لكنني ما إن تمعنتُ بها، وجدتها مُنكسرة مُحملة بالانتقام.

ماذا إذا كان عبود على صواب، وأنا على خطأ ؟ ماذا إن كانت هذه الأرض هي بالفعل أرضهم، وأننا مجرد دخلاء ومستعمرين ؟ فحسب ما أقرأ بالكُتب، القوة المُستعمرة هي التي تطالب بالدعم العسكري دائمًا، ونحن لا نتوقف عن المطالبة بدعمٍ يفوق المليارات من الولايات المتحدة والدول الأوروبية، نحن ننفق على الجيش والعسكر أكثر مما ننفق على تطوير الدولة والمرافق العامة.

وما يدعو أكثر للتفكير، أنهم أخبرونا بالمدارس أن دولة اسرائيل هي نتاجٌ للمحرقة، وأننا هنا فقط لحماية أنفسنا، إذا كيف قمنا بتوقيع وعد بلفور قبل المحرقة بخمسة وعشرين عامًا ؟؟ ولماذا تأسس الصندوق الاستعماري لليهود قبل المحرقة ؟ لماذ نحتاج إلى صندوقٍ استعماريٍ من الأساس ونحن الدولة الأم ؟

كل تلك الأسئلة بدأت تتزاحم داخل رأسي وتجعلني أشعر بالتيه والضياع، أشعر أنني لا أكاد أفقه شيئًا عمَ يحدث حولي_ولن تتوّقف هذه الأفكار التي جعلني عبود أفكر بها_ حتى أعثر لهم على إجابة مُرضية.

انتبهتُ إلى الساعة التي آشارت إلى الثامنة والنصف مما يعني أنني إذا بقيتُ دقيقة أخرى، فحتمًا سأتأخر على العمل بجيش الدفاع؛ تركتُ الحُجرة لأتحرك صوّب الطاولة التي تنتصف البهو حيث يجلس والدي يتناول فطوره ويسألني عن سبب تأخري وأردُ أنا بنبرة مُقتضبة لا تحمل شغفًا بالحياة.

جلستُ بهدوءٍ أتناول الفطور وأرمق والدي بين الحين والآخر لعله يجد القليل من الإجابات على تلك الأسئلة التي تكاد تُفجر رأسي:

-أبي

التفت والدي نحوي منتبهًا لحديثي ولا يزال يتناول البيض المخفوق بالشوكة والسكين.

-أليس من المُفترض أن هذه الدولة لليهود ؟

أومأ رأسه مؤكدًا فأكملتُ سؤالي بفضول:

-إذا كيف كان هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية والذي دعا لإقامة هذه الدولة مُلحدًا .... ولا يتبع أي من الأديان ؟

تنهد تنهيدة خافتة قبل أن يرمقني بنظراتٍ هادئة قال معها:

-عزيزتي ... هرتزل ليس جزءًا من دولتنا، هو فقط كان يساعدنا على استعادتها

-ولماذا نعتبر هذه دولتنا ... أليس سيدنا إبراهيم _والد اليهود_ من أصل عراقي ؟

أخذ نفسًا عميقًا وأطلقه بنفاد صبرٍ من أسئلتي التي لا تنتهي، وجدته يُجيبني مجددًا بنفس نبرته الواثقة:

-لأن هذه الدولة هي بداية عهد اليهود .... بداية المملكة .... ثم أن وجودنا هنا هو مطلبٌ إلاهي، جميع الكُتب السماوية تُشير إلى أن هذه الأرض هي هديتنا من الرب

قطبتُ حاجباي بعدم تصديقٍ لحديثه حتى سألتُ ببعض الشك:

-هذا يعني أن دولتنا دينية ؟

أومأ رأسه إيجابًا وكاد يواصل فطوره لولا سؤالي:

-إذُا كيف ندعم المثلية ونُقيم لهم النوادي ؟.... أليس هذا مخالفُ للدين ؟

هنا وقد فقد كامل صبره وشعرتُ أنه سيُطيحني ويسبني، أو ربما يتجاهلني ويترك الفطور، لكنه بدلًا من كل ذلك، وجدته يوقف سيل أسئلتي بكلماته المؤّبخة:

-توقفي عن مشاهدة تلك المقولات المعادية للسامية .... وانتهي من فطوركِ بسرعة، فلدينا الكثير من العمل....

هكذا أنهى الحديث بنظراتٍ مُقتبضة تاركًا إياي في حيرة من أمري وعدم رغبة بالذهاب إلى الجيش، فحتمًا لن أجد أية مُتعة فيما أفعله بالأراضي الفلسطينية

وستجعلني هذه الأسئلة غارقة في وحلٍ من الحيرة حتى أعثر على إجابة، وأعرف الحقيقة....

بدأت الشمس بالانحدار قليلًا، وطوال هذا اليوم، كنت أقف على حواجز التفتيش وأصدر قراراتٍ بشأن اعتقال بعض الإرهابيين ثم أواصل التسكع بأورشليم القديمة أحاول تنفيض هذه الأفكار عن رأسي.

اتجهتُ دون قصدٍ إلى الضفة الغربية، تحديدًا، المقهى الذي يعمل به عبود، لا أعرف ما الذي أوصلني إلى هنا، لكنني تذكرتُ آخر مناقشة بيننا والتي انتصر فيها كالمرة السابقة، وأنا لن أتركه ينتصر ويُجدد كبرياءه وتعاليه علي، حسنًا، قابلتُ العديد من الفلسطينيين الشُجعان، لكنني لم أقابل أحدهم بمثل وقاحته وثقته الطاغية.

كنت أريد الحديث معه بهدوء وسؤاله عن تلك الأسئلة، لكنني تذكرتُ أنني لا يجب أن أثق به، ولا يجب أن أسمم عقلي بادعاءاتهم الكاذبة وكلماتهم المعادية للسامية؛ لهذا السبب حافظتُ على يقيني التام ومعتقادتي التي بت أشك بها مؤخرًا، ثم تقدمتُ نحوه بنظراتٍ جامدة.

كان عبود يقوم بجلي بعض الأكواب وكان المقهى خاليًا تمامًا بسبب اقتراب الحظر، زيّن وجهه بعض الجروح والكدمات وكان يتوّقف في كل ثانية ليضع يده على معدته بأنينٍ ثم يتحامل ويواصل العمل، أمام نظراتي التي كانت تتابعه بشماتة.

-ألا يجب أن تعود إلى منزلك .... أما أنك تريد أن يتكرر الأمر

انتبه لوجودي وتوقف هنيهة عن جلي الأطباق ليرميني بنظرة عابرة ثم يواصل العمل وكأنني لستُ موجودة، هذا ما جعلني أشعرُ ببعض الغضب من تجاهله لوجودي، فقولت بتعالٍ:

-هلا تكرمتُ وأعدت لي كأسًا من الشاي

لم يلتفت نحوي مجددًا وواصل ترتيب الكؤوس وهو يقول بصلفٍ وبالعبرية التي يُتقنها:

-ألا ترين أن المقهى مُغلقًا ؟

رفعتُ حاجباي بتعالٍ ثم أبعدتُ نظراتي عنه وأنا أواصل إثارة حفيظته بكلماتي المتكبرة:

-لا .... لا يبدو لي مُغلقًا

-إذا من الأفضل أن ترتدي عويناتًا

هكذا ردٌ علي بطريقة آثارت حفيظتي وجعلتني آكاد أنفجر من الغيظ.

-تأدب أيها الوقح .... وإلا جعلتهم يضربونك مجددًا

أنهيتُ الحديث بتهديدٍ ونبرة صارخة جعلته يتوّقف عمَ يفعله ويلتفتُ بجذعه نحوي يستند على الطاولة التي تفصل بيننا ويقول بتحدٍ:

-ماذا تُريدين ؟ .... ولماذا تركتي كتيبتِك ؟ ألا تخافي من " الإرهابيين " ؟

يحاول السُخرية والاستخفاف بي، لكنني لن أسمح له أن يُقلل من شأني مرة أخرى:

-لا أخاف منكم .... أنتم من يهابوننا ويرتعدون من مجرد اقترابنا نحوكم

قهقه بسخرية بعد حديثي واستمر ذلك فترة من الزمن حتى أردف:

-نحن نخافكم !! .... ألهذا السبب نحمل معنا السلاح في أي مكانٍ نذهب إليه حتى المرحاض ؟

قالها وهو يُشير على السلاح الموضوع بخصري والذي أستخدمه للدفاع عن النفس، وكانت كلماتي أشبه بفتيلٍ تم نزعه حتى تنفجر قنْبلتي، كُنت أريد أن أنتقم منه وأجعله يشعر بالغيظ، لكن يبدو أن السحر قد انقلب على الساحر.

ترك عبود حجرة إعداد المشروبات بعد أن أنهى التنظيف وكان على وشك العودة إلى منزله قبل بدء حظر التجوال، تعمدٌ أن يتجاهلني ويعتبرني غير موجودة فكان يسير بخيلاءٍ حتى توّقف أمام باب الخروج لأتبعه بنظراتٍ متقدة عازمة على إخضاع هذا الوقح.

-انتظر هنا...

صرخت به بهذه الجُملة حتى يتوّقف عن المضي ويقف أمامي يُتمتم باللغة العربية وأظن أنه يقول بعض الأدعية التي لم أتفهمها، على كُلٍ، حاولتُ أن أنظم أنفاسي المتلاحقة حتى أستطيع دحض الترهات التي تفوّه بها ونحن بالزنزانة، حسنًا، أردتُ أن أعثر على أجوبة لأسئلتي ولكن بطريقة غير مباشرة حتى لا يعبث بي هذا الأحمق.

-من أين أنتم ؟

لم أكن أعرف كيف أبدأ الحديث لهذا السبب وجدتني أبدأ بتلك الطريقة التي جعلته يرميني بنظراتٍ مُبهمة وكأنه لا يفهم سؤالي.

ربطتُ ذراعاي بتهكمٍ وأنا أعيد عليه السؤال لعله يفهم:

-من أين أنتم ؟ .... ما هي دولتكم ؟

في تلك اللحظة، تأكدتُ أن نظراته لم تكن نابعة من جهله، بل ربما ساخرة من سؤالي، فقد كان يرفع نصف شفته العلوية بتهكمٍ قال معهم.

-حقًا .... أهذا هو السؤال الذي تسألينني إياه!!

كاد يعدو بعيدًا عني ويتركني خالية الوفاض لولا تشبثي بذراعه حتى يتوّقف عنوة.

-انتظر .... يجب أن تُجيبني على سؤالي

هتفتُ بوجهه بحدة حتى وجدته يدفع يده باستحقارٍ قال معه بنظراتٍ جامدة ونبرة تعادل صُخب نبرتي:

-لمَ لا تسألي نفسكِ هذا السؤال أولًا ؟

-ولماذا ؟ ... أنا أعرف أنني من هنا

رفع حاجبيه بسُخرية من حديثي وبدأ يقول:

-وأين كان يعيش جدكِ إذا ؟

سألها بنبرة بدت ودودة رغم السُخرية التي تحملها في الباطن، هذا ما جعلني أرتبك قليلًا لأنني أعرف أن جدي قد وُّلد ببلجيكا وجدي الآخر وُّلد ببريطانيا، لكنني بالطبع لن أقول هذا وأسمح له بالسُخرية مني.

-مولد جدي في دولة أخرى ... لا يعني أننا من هذه الدولة التي وُّلد بها .... نحن جذورنا تعود هنا منذ ثلاثة آلاف عام

اتسعت حدقتيه ببعض الغضب حتى بدا منفعلًا وهو يقول:

-ومن هو جدكِ الذي وُلد هنا منذ ثلاثة آلاف عام ؟

ألجمتُ مكاني ولم أجد ما أقوله، أو لم أجد من الوقت ما يكفي لأنه كان يحادثني بطريقة مُنفعلة سائمة من ادعاءاتي الكاذبة من وجهة نظره.

-أنا سيدي انولد برام الله، سيد سيدي انولد بنابلس .... سيد سيد سيدي انولد بالخليل ..... سيدي التامن انولد من هون

انفلتت أعصابه وبدأ يتحدث بالعربية وهو يُشير تارة على نفسه وتارة على الأرض، أنهى إشاراته بسبابة اتهامٍ موّجهة نحو وجهي مع نظراته الحادة الأشبه بجمرة نارية والتي بدت وكأنه سيقوم بتهديدي:

-فلا تقوليلي إن هاي مش أرضي

هدأ قليلًا وبدأ يتنفس الصُعداء ولا زلتُ أرمقه بثباتٍ حافظتُ عليه بصعوبة، حاولتُ تجاهل نظراته الواثقة ولكنته التي بدت صادقة لكنها لم تؤثر بي، ولن أدعها تؤثر بي، لهذا السبب حافظتُ على لكنتي الباردة وأنا أقول بلا مبالاة:

-مو مهم .... هاي الأرض هدية إلنا لأنُ نحن عانينا من الهولوكست

قُلتها بهدوءٍ تامٍ حاولتُ معه إيصال رسالة له أننا نستحق أن نجد موطنًا لنا يحمينا من المحرقة، رغم أنني بت أشك بأن هذه الدولة هي نتاجُ للمحرقة.

أطبق عبود على شفتيه ببعض الحنق حتى وجدته ينفجر بوجهي مرة واحدة:

-ونحن شو ذنبنـــا

ألجمتني نبرته الصارخة وجعلت قدماي يتيبسان على الأرض ليواصل صرخاته:

-نحن شو ذنبنا .... نحن رفضنا الهولوكست، وسمحنالكم تلجأولنا، بس إنتو....

آشار بسبابته علي ببعض الاتهام ثم واصل:

-إنتو قتلتونا ... ودمرتو ديارنا ... وجايين تسوو حالكن أصحاب الأرض .... لك فيش حدا بياخد الأرض بالقوة ويقول عنا هدية الله

تحشرج صوّته وهو يصرخ بوجهي وبدأت عيناه تنضبان ببعض الدموع المكبوتة وهو يواصل بما يجيش به صدره:

-تعرفي إش يعني طفل صغير يروح على السجن وينضرب لأنه كان بيلعب ؟ .... تعرفي شو يعني تتركي ديارِك وإلا إجت الجرافة وقتلتك إنتِ وعيلتِك ؟ .... تعرفي شو يعني دارك ينقصف وإنتِ تلفي بالشوارع منشان تلاقي مكان تاني تنامي فيه ؟؟

لم أجب على أسئلته الصاخبة ووجهه الذي أضحى أحمرًا كجمرة من اللهب، رفع سبابته أمامي مجددًا وهذه المرة كانت عيناه تطلقان حممًا بركانية ثائرة:

-هيك علمكم دينكم ؟ .... ردي عليي .... القتل والقصف موجود بدينكم ؟

ترقرقت قطراتُ من العرق على جبهتي وأنا لا أعلم ماذا أقول، لا أستطيع تكذيب ما يقوله خاصة وأنا أعمل بالجيش وأعلم جيدًا أن ما يقوله صائب، رغم أننا نملك حججنا أمام أي منزلٍ نُلقي عليه القذيفة.

طريقته التي بدت صادقة ووجهه المتأثر بما يقول، جعلني أشعُر بزبزاتٍ تعتمر كياني، وكأن ضميري بدأ بالاستيقاظ ويجعلني أكاد أعتذر له عمَ تسبب به جيشنا المجرم، وفي النهاية، قررت أن ألوذ بالصمت وأتابع انفعالاته التي بدأت تهدأ تدريجيًا حتى استعاد أنفاسه ورمقني بنظرة معاتبة أنهى معها الحديث بالعبرية:

-قبل أن تدّعي أنكم دولة مسالمة وأنكم أصحاب الأرض.... إقرأي عن تاريخكم

بصق تلك الكلمات بوجهي ورحل دون أن يُعقب ودون أن ينتظر ردّي، لم أجد بالفعل ردًا على حديثه ولم أرغب أن أنفذ ما أتيتُ من أجله وأقوم بإثارة حنقه، حتى أنني شعرتُ بالشفقة اتجاهه ولا أعلم لماذا، وازداد شعوري بالجهل لمَ يحدُث حولي.

كُنت أتسآل دائمًا عن سبب ارتكاب المجرم لجريمته، وكيف لا يُفكر بضحيته قبل أن يقتلها بهذه البشاعة، وفي لحظة، اعتقدتُ أنني هذا المُجرم الذي يضع العديد من الحُجج قبل أن يودي بضحيته.

وبعد حديثي مع عبود، كان يخالطني شعورٌ بالضياع، أريد أن أصدق ما يقول، وفي نفس الوقت لا أريد الانجراف لمعادة السامية والأفكار المتطرفة، فربما يفعل ذلك

حتى يجعلني أتمرّد على دوّلتي، وربما أيضًا يقول الحقيقة، لن أعرف قبل أن أبحث عن الأمر بنفسي.....

____

ظلُّت نظراته المُنكسرة ونبرته الحادة تمُر أمام عيني وتعصف بذهني، وددتُ لو أمسكت بالمزهرية وأضربها برأسي حتى أتوقف عن التفكير، ذكرياتُ متضاربة تمُر أمام عيني كُنت أتجاهلها فيما مضى، قبل أن أضع نفسي موٌضع الضحية.

تذكرتُ هذا الطفل الصغير الذي يئن وجعًا بعد تعرٌضه للتعذيب على يد جنودنا، تذكرٌت الفقر المُدقع بإحدى القرى الفلسطينية التي أتانا أمرٌ بإزالتها، تذكرتُ أيضًا تلك الكرات المملؤة بالمتفجرات حتى تنفجر بوجه الأطفال وتحوٌلهم لأشلاء، الحقيقة أمامي طوال الوقت، لكنني أتجاهلها أو أضع أمامها المبررات.

ربما عبود على حق، لا يوجد مبررٌ لقتل الأطفال ولا يوجد مبررٌ أيضًا لطرد أناسٌ أبرياء من منازلهم التي وٌلدوا بها، لهذا السبب يتم إلقاء القذائف علينا، لهذا السبب يوجد انتحاريون، طوال حياتي كُنت أظنني بطلة الحكاية، أظنٌ أنني أمنع الفساد وأقضي على المجرمين، لماذا الآن أعتقد أنني ممن أدٌعي القضاء عليهم ؟؟

حاولتُ التحرر من أفكاري عندما انتشلت الجهاز اللوحي وبدأت أعبث به عازمة على العثور على الحقيقة، كان البحث أصعب مما أتخيل، جربتُ البحث باللغة العبرية لكنني أكتشف أن الحقيقة يتم حجبها، جربتُ البحث بالانجليزية لأجد العديد من المعلومات السطحية لكنني كلما أتعمٌق أكتشف المزيد من المقالات التي يحاول الإعلام أن يحجبها بكل الطُرق.

من بين هذه المقالات، وقع بين يدي مقالة دوٌنها جون هوبكنز عالم الجينات الذي قال بها أن الأبحاث الجينية أكدت أن 97 % من اليهود القاطنين باسرائيل لا يحملون أية جينات عبرية تارخية وبالتالي لا يجب اعتبارهم ساميون لعدم امتلاكهم لأي رابطٍ دمويٍ بهذه الأرض، بينما يوجد 80 % من الفلسطينيين يحملون الجينات العبرية التاريخية مما يعني وجود رابط دموي بينهم وبين هذه الأرض، أي أنهم ساميون.

أنهيتُ المقال وأنا متيقنة مئة بالمئة بأن معادة السامية لا تعني معاداة الاسرائيلين، بل نحن الذين نعادي السامية!!

ارتجفت أصابعي وأنا أواصل وبدأ الغضب يتغلغل أكثر بأوردتي وأنا أقرأ المزيد من التاريخ...

قرأتُ عن الانتداب البريطاني وهجرة اليهود واتفاقية كامب دايفيد التي رفضها الفلسطينيون واتخذناها ذريعة حتى نُلقي اللوم عليهم، حضرتُ محاضرات آفي شلام، المؤرخ الاسرائيلي الذي لقبه العديد بالخائن، هذا فقط لأنه يقول الحقيقة، تحدّث عن اضطهاد الاحتلال والعنصرية التي ننتهجها، تحدث عن القمع والاستعمار، وكلها صفاتٌ لا تختلف عنا أبدًا.

شاهدتُ فيلمًا وثائقيًا يدُعي من أوشفيتز إلى أورشليم، كان يتحدث عن جرائم الهاجانا وآرجون والمزيد من جرائم الاحتلال، مذبحة حيفا_ الأربع مذابح_ مذبحة أورشليم، مذبحة بلد الشيخ والعباسية، والخِصاص، وباب العمود، والشيخ بُراق، ويافا، وسابرا وشاتيلا، والأقصى، والمسجد الإبراهيمي، وطنطورة، جميعها مؤُثقة من مصادر اسرائيلية، فكان القاتلون يتحدثون عن مجازرهم بابتسامة عريضة مُختلة، حقًا، صدُق من قال : من يكشف الأعداء هُم الأعداء أنفسهم!!

توّقفتُ عند مذبحة جولدشتاين التي ارتكبها باروخ جولدشتاين ضد المصليين في أحد المساجد وقتل منهم 29 وهُم سجودًا، والأكثر فظاعة، أن هذه الواقعة حدثت عشية عيد بوريم، أحد أهم الأعياد بالنسبة لنا!!

توّعكت معدتي وازدادت حرارة جسدي وأنا أشاهد الجُثث والجرحي والقتلى، شعرتُ مرة واحدة بالاختناق وأنني أريد تفجير المكان والصُراخ بهم، كيف يجعلوننا نركتب هذه الجرائم ويُهموننا أنها جرائم مشروعة!!

بت أفهم سبب حركة " بيش جيفول " التي أقامها مجموعة من الجنود الاسرائيليون احتجاجًا على ما يحدث بالأراضي الفلسطينية، من يرفع سلاحه أمام الأطفال ويسبب الذعر للضُعفاء، لا يستحق أن يُقال عليه جنديًا، بل هو مُجرمٌ بالمعنى الحرفي.

كم كنت غبية حينما قررتُ الالتحاق بالجيش والدفاع عن أهلي وشعبي، كانوا يخدعوننا طوال الوقت، يقولون لنا أن سلام اليهود مرهونٌ بإنغاص حياة الفلسطينيين، وأنا بكل سذاجة صدقتهم، كيف تجاهلتُ حقيقة أن الإرهاب لا يُحارب بالإرهاب، والعنف لا يجلب سوى المزيد من العُنف، كيف سمحتُ لهم بالعبث بعقلي ؟؟

ألقيتُ الجهاز اللوحي على الفراش وأنا أفرك رأسي من شدة الإرهاق، ارتميتُ بظهري على الفراش لا أعرف ماذا أفعل، كل ما أريده الآن، أن تنتهي هذه الليلة حتى أذهب إلى عبود في الصباح، لا أعرف لماذا، لكنني أريد أن أراه الآن!!

الفصل الرابع (تاريخي لا يجب أن يُمحى)

((عبــود))

17يونيو 2014　　رام الله : فلسطين

كلما مرّت الأيام، ازدتُ يقينًا بأن هذا العالم لم يُخلق للحالمين، الأحلام هنا تماثل الأطياف التي لا معنى لها، فلا هي تتحقق، ولا أحد يهتم برؤيتها، والأكثر قساوة، هو أنك في محاولاتك لتحقيق أحلامك، ينتهي بك الأمر بتدمير كل شيء.

طوال الليلة الماضية، كان عقلي يُعذبني ككل يوم، هذه المتطفلة يبدو أنها لا تريد أن تتكرني وشأني، لا يكفيها أنها أمرت رجالها بضربي والتنكيل بي، بل أتت بقدميها نحو مقهاتي وجعلتني أنفجر عنوة بوجهها وأفصح عمَ يجيش به صدري، لم أبالغ حينما أقول أنني وددتُ أن أنتشل خنجرًا وأُدثره بعُنقها ثم أقتلع عينيها وأتركها تنزف حتى الوفاة، ولا يهمني إذا كُنت سأتلقى إعدامًا فيما بعد، فيكفي أنني سأتخلص من هذه المتحذلقة.

أقسم أنني نادمُ أشد الندم على إسعافها ومداواتها في هذه الليلة، كان من المُفترض أن أضحى وغدًا مثلهم وأتجاهل توّسلاتها وبكاءها كالفتاة الصغيرة، أتمنى حقًا ألا أراها مُجددًا، وإلا هذه المرة لن يمنعني شيءُ من صفعها والقاءها من نافذة الشُرفة.

مشطتُ شعري جيدًا قبل أن أخرج من المرحاض عندما شارفت الساعة على السابعة صباحًا، اعتدتُ على الاستيقاظ باكرًا من أجل العمل، لكن اليوم، لا أعتقد أنني سأذهب، لازالت بعض الضمور تُحيط بجسدي وتجعلني أتأوه كلما تحركتُ قيد أنملة، والبارحة قسوّتُ على حالي وأرهقتُ بدني وذهني لدرجة جعلتني أعود إلى المنزل كمومياءٍ خرجت من قبرها للتو؛ هذا ما جعل والدتي تُصاب بالذعر وتجبرني على البقاء بالمنزل حتى أمتثل للشفاء.

لكنني استيقظتُ وأنا بكامل عافيتي، فيبدو أنني سأحاول إقناعها بالذهاب إلى العمل وربما آخذ أدويتي وأضع الدهان على جروحي قبل النزول، تبًا لكِ راموئيل، هي السبب في كل ذلك.

-يسعد صباحِك يما

قُلتها بابتسامة مُشرقة لوالدتي التي استيقظت للتو وبدأت بتحضير الفطور حالما رأتني أمامها، كُنت على وشك مساعدتها كما نفعل دائمًا لولا جرس المنزل الذي طفق يصدح بصورة تكرارية.

فتحتُ باب المنزل باعتقادي أن جارات والدتي قد أتين لزيارتها وربما لطلب خدمة منا، فنحن الجيران بمثابة عائلة واحدة.

تيبسٌ جسدي بإنكارٍ واضح وتحوّلت عوالم وجهي إلى الاستهجان وأنا أرى هذه المتطفلة .... مرة أخرى.

أغلقتُ عيني بغضبٍ مكبوتٍ وكِدت أغلق الباب بوجهها لولا نظراتها المستعطفة وهذه العُلبة التي مدتها نحوّي متفوّهة:

-أنا أسفة .... فينا نتكلم شوي ؟

رمقتها بحيرة وهي تمد نحوي هذه العلبة البلاستيكة التي تحتوي على كعكٍ بالسُمسم يبدو أنها ابتاعته من إحدى المتاجر القريبة من هنا، ولا أعرف حقًا سبب ابتياعها لهذا الكعك، حتى أن هيئتها هذه المرة، تختلف تمامًا عن آخر مرة رأيتها بها، فكانت ترتدي سُترة وردية تحمل كلماتٍ باللغة الانجليزية أسفلها سروالٌ فضفاضٌ من الجينز، لكنه ليس فضفاضًا إلى هذه الدرجة، بل كان يتناسق مع جسدها ويجعلها فتاةً بسيطة تجعلك لوهلة تعتقد أنها ليست مجندة بجيش الاحتلال.

والأغرب من كل ذلك، هو عدم مجيئها بأيٍّ من الأسلحة، ومجيئها بعوالم تمزج ما بين الأسف والندم.

لم أنبس ببنت شفة وكانت نظراتٌ الرفض تلوح على وجهي، فلا يوجد أحاديث بيننا حتى نتحدث بها، أنا بالأساس لا أريد رؤيتها مجددًا.

-عبود ... أنا أسفة

كررت اعتذارها وهي تمدُّ نحوي هذه العُلبة كهدية اعتذار، لماذا تعتقد أنها خطيبتي التي أغضبتني وجاءت حتى تعتذر مني ؟

-إش بدِك ؟

هكذا أجبتها بنظراتٍ مقتضبة جعلتها تطالعني ببراءة طفولية وهي تواصل الالحاح:

-بدي إعتذر .... أنا عرفت الحقيقة .... وبدي إحكي معك

كُنت على وشك طردها وصفع الباب بوجهها لولا قدمها التي وُضعت على حافة الباب لتمنعني بكلماتها المترجية:

-بترجاك خلينا نحكي .... أنا عرفت شو سويت دولتنا.... وبدي ياك تحكيلي أكتر ....

عادت إلى براءتها مجددًا وهي تواصل:

-أمانة عليك تحكي معي .... أنا ما بعرف حدا من فلسطين غيرك

سرقتُ نفسًا عميقًا وبدأت ألعن معرفتها بي ومداواتي لجروحها، فهي الآن ستلتصق بي كالعلكة وستعاملني وكأنني من عالمٍ آخر، وربما تسخر مني في النهاية، لا يجب أن أثق بهم بهذه السهولة.

تبادلت نظراتنا في فترة وجيزة من الزمن وكل منا يُفكر بقرارة نفسه، هي تُفكر في كيفية اخضاعي وأنا أفكر في طريقة لابعادها عني، حتى أنني فكرتُ باستخدام مبيد الحشرات، لكن هذا ربما يتسبب بوفاتها وأنا لا أريد حربًا جديدة.

طالت مُدة صمتي مما جعل ابتسامتها تتسع مرة واحدة باعتقادها بأنني وافقتُ على الحديث معها.

-راح تحكي معي ما ؟..... أنا بعرف إنك شهم وقبضاي وراح توافق...

قالتها باندفاع وهي تقترب من الباب عازمة على تخطي جسدي واقتحام المنزل، لكنني دفعتها للوراء باعتراضٍ قُلت معه:

-وين رايحة إنتِ ؟.... شو دار أبوكي هو ؟

تراجعت خطوتين للوراء لتتبدل عوالمها إلى أخرى متخاذلة لم تدُم لبضع ثوانٍ حتى تحوّلت إلى نبرة فضولية قالت معها وهي تتفحص المنزل بعينيها:

-عايش لحالك ؟

-ما خصِك

قُلتها بنفاد صبرٍ لأنه ليس من شأنها أن تعرف مع من أقطن، أقسم أنها إذا أخبرت قياداتها بطردي أنا ووالدتي من المنزل واعطاء منزلنا لمستوطنين أوغاد سأجعلها تتحسر على حالها هي وجيش الحفاضات خاصتها.

-عبــود .... مين عال باب ؟

أتى هذا الصوّت من الداخل، تحديدًا من والدتي التي انتبهت لوقوفي وحديثي مع هذه المُتحذلقة، ربما انتبهت أيضًا لصوتها الأنثوي وظنتها زوجتي المُستقبلية.

أطلقتُ تنهيدة خافتة حمّلت اعتراضي لما سيحدث بعد قليل، فها هي والدتي تقف الآن بجواري بعد أن لمحت أمامي فتاةٌ حسناء الملامح تحمل معها كعكًا بالسمسم وتُرتسم على وجهها ابتسامة هادئة مُرحبة جعلتني أكاد أنفجر بوجهها.

-مين هالحلوة عبود ؟

الآن والدتي ستتخذها ذريعة لتزويجي، ففي حياتي لم أحادث أية فتاة ولم أضع فكرة الارتباط والزواج في عقلي لدرجة جعلت والدتي تشكُ بميولي الجنسية، والحقيقة أنني لا أفكر في الزواج الآن، وكل ما أفكر به هو العمل والمقاومة ورعاية والدتي، فأنا لن أتركها وحدها لأتزوج.

-أهلين خالة .... أنااا...

ترددت قليلًا حتى لا تفصح عن هويتها، بالطبع ستلقى ردة فعلٍ أخرى من والدتي حينما تعرف من تقف أمامها الآن.

-أنا رفيقة عبود، اتعرفنا بالقهوة .... واتشاكلت معه فاجيت حتى صالحه

لو كانت هناك جائزة للكذب، لربحتها الآن هي ودولتها بجدارة.

لم أشأ أن أفصح عن حقيقة الأمر خوفًا من ردة فعل والدتي التي ربما تنهرني وتعاملها بصلف، حسنًا أريدها أن تعامل هذه المجندة بصلف لكن هذا قد يؤثر على صحة والدتي التي تعاني من العديد من الأمراض.

-شو اسمِك يا صبية ؟

سألتها والدتي بحنانٍ بالغ باعتقادها أن راموئيل ابنة بلدتي، وكان سؤال والدتي المفاجيء سببًا في جعل راموئيل تغتاب لأمرها وتطالعني بنظراتٍ مُستنجدة.

كُنت سأتركها على هذه الحالة، لكنني في لحظة، صدقتُ نظراتها المترجية ووجدتني أجيب والدتي بدلًا منها:

-اسمها نيچار يما

خرج هذا الاسم من جوفي عنوة وكان الاسم محملًا بالذكريات المريرة التي انتقلت بدورها إلى والدتي التي تذكرت ما يعنيه هذا الاسم وكانت ملامح البُكاء تنطلي على وجهها وهي تقترب من راموئيل وتعانقها عناقًا دافئًا جعلها تجذب راموئيل إلى الداخل وتُلقي عليها وابلٌ من الكلمات الترحيبية المبالغة.

أخذت والدتي كعك السُمسم من راموئيل وأخبرتني أن أعد الشاي حتى نتناول الفطور سويًا، كُنت في أوج الغيظ والغضب في تلك اللحظة، فهذه المتطفلة نفذت ما تريده واقتحمت المنزل.

أعدتُ الشاي رغم أنفي وكنت أرغب بوّضع سُم الفئران والتخلص منها، حيث كانت راموئيل ترسم ابتساماتها السمجة وتتحدث مع والدتي وكأنها من عائلتنا، ووالدتي لم تتوقف عن الثرثرة وبدأت تحادثها عني وعن طفولتي وشخصيتي الفريدة من نوعها التي تحمل العديد من الصفات الغريبة، حتى أنني شككتُ في لحظة أنها ستطلب يدها.

لم تترك راموئيل كذبة واحدة إلا وقالتها، أخبرت والدتي أنها قادمة من بيت لحم وتمتلك متجرًا بالقدس يقترب من مقهاتي، وكانت تتعثر كلما قالت كلمة " القُدس " وكأنها لا تعتاد هذه الكلمة وتعتاد على كلمة " أورشليم " مثلما يقولون.

دلفت والدتي حُجرة الطعام لتستكمل طهي الفطور وكانت راموئيل بجوارها تتلفت حولها بارتباكٍ وتحاول مساعدة والدتي وفقًا لتعليماتها، لا أنكر أنني نحيتُ حقيقتها جانبًا وبدأتُ أتعامل معها كما لو أنها سائحة أتت لتستكشف فلسطين وأهلها.

لم أشأ أن أتدخل في أحاديثهما النسوية واتخذتُ جانبًا لكنني أبقيتُ عيناي عليهما في ترقبٍ واقتضابٍ لاحظته راموئيل جيدًا وكانت تتلفت نحوي في كل مرة لترميني بنظراتٍ مطمئنة وكأنني سأصدقها، مهما قرأت من معلومات، لا يتغير المرء من ليلة وضحاها، وستنقلب هذه المتطفلة وتظهر على حقيقتها عمَ قريب.

انتهينا من اعداد الفطور وامتلأت السفرة بالصحون المحتواة على الفول والحُمص والفلافل وقلاية البندورة والشاي بالنعنع، جلست راموئيل بجوار والدتي من الناحية الأخرى وكنت أنا مقابلًا لها أتابع تحركاتها العفوية وحديثها مع والدتي وكأنها والدتها هي، لا أنكر أن هذا أصابني بالغيرة، لكنني أيضًا شعرتُ بالغضب من كذبها المُستمر.

انتهى الفطور وساعدنا والدتي بغسل الصحون وتنظيف المكان، بقيت والدتي بحُجرة الطعام تقوم بجلي الصحون وتأمرنا ألا نتدخل وأن نجلس بالشرفة ونتسامر قليلًا حالما تنتهي وتجلس معنا، لا بد أنها تُريدنا أن نتعارف أكثر.

اتخذتُ مقعدًا في الشُرفة أراقب الطريق بنظراتٍ مقتضبة ولمحة من الضيق تهفو على وجهي، بات واضحًا أنني لا أطيقها ولا أريدها أن تبقى أكثر من ذلك، وجدتها تتحرك نحوي بابتسامتها السمجة وكلماتها التي بدت عفوية:

-والدتك كتير ظريفة

قالتها بمدح لم أصدقه ولم أشأ أن أعلق على حديثها، فقط أراقب عفويتها بغضبٍ طفيفٍ وأنتظرها حتى تنتهي من الحديث وأستطيع توّبيخها على كذبها على والدتي، رغم أنني الآخر كذبت عليها، لكنني لم أستطع أن أجعل والدتي تنفعل بسببها.

انقلبت ملامحها مرة واحدة إلى الضيق وهي تقول بنظراتٍ مصوّبة للأسفل:

-بتعرف شي .... أنا ما شوفت أمي ولا مرة .... من زمان كنت أتمنى حس باحساس إنه يكون عندي أم

باتت كلماتها صادقة هذه المرة وهي تتطلع تارة لأعلى ثم تارة للطريق في حسرة، يبدو أن طريقتها العفوية مع والدتي كانت نابعة من فؤادها بالفعل، لأنها تشعر بالنقص.

-أسفة لأنه كذّبت .... بس ما كان في حل تاني

لم أنبس ببنت شفة وبقيت نظراتي مقتضبة تحاول تجاهلها قدر الإمكان مما جعلها تتأمل الطريق وتتجاهل نظراتي لفترة وجيزة قطعتها بسؤالٍ فضولي:

-صحيح .... ليش والدتك ضمتني وقت قُلت إن اسمي نيچار ؟ .... بتعرفو حدا بهالـ الاسم ؟

تلاشت نظراتي المُقتضبة وحلّ محلها نظراتٍ مُنكسرة تحمل كمًا من الحزن الدفين، لم أجب على سؤالها وتعمدتُ تجاهلها كما أفعل منذ وطأت أقدامها منزلي الطاهر، لكن نظراتي كانت تُجيب على أسئلتها دون قصدٍ مني.

-عبود لا تضل ساكت .... أنا بدي نفتح صفحة جديدة سوا وإنت عم تضلك تعطيني هال وش الخشب

أطبقتُ على شفتاي بغضبٍ من ثرثرتها حتى انفجرتُ بوجهها مرة أخرى:

-إش بدِك تعرفي ؟ .... بدِك تعرفي مين هي نيچار ؟

قُلتها بانفعالٍ لا يتماشي مع انكساري ورغبتي بطيِ هذه الذكرى كغيرها من الذكريات، فكلما أتذكر هذه الذكريات، أزداد ازدراءً لراموئيل وبقية جيشها.

-نيچار كانت أختي .... وماتت، ماتت وهي بالتوجيهي

تنفستُ الصُعداء وأنا أحاول جاهدًا ألا أترك مجالًا لهذه الدموع بأن تنحضر أمامها وتجعلني أبدو ضعيفًا مغلوبًا على أمره.

-كانت مريضة ... والدوا اللي كان لازم تاخده كانش موجود بالدار .... ولأنه كان في حظر تجوال، قدرناش نجيبه .... فماتت

وقفت لألتقط أنفاسي وأحاول منع دموعي الشاردة من الانحدار، وكانت راموئيل ترمقني بشفقة جعلتني أسب ذاتي على هذا الحديث الذي بصقته أمامها بهذا العنفوان، عقلي الأحمق كان يريد إلقاء اللوم عليها وعلى جيشها الذي أطلق علي الرصاصة عندما حاولتُ تحدٌيهم وخرجتُ من منزلي حتى أبتاع لها دواءها، لا زالت هذه الذكرى عالقة بذهني هي وذكرى وفاة والدي، وكل هذا بسببهم.

-أنا أسفة ... عنجد آسفة

قالتها راموئيل وهي تتابع دموعي التي هربت على وجنتاي فجففتها بسرعة وحاولتُ الحفاظ على صمودي وصلابتي أمامها.

قرٌبت أناملها من يدي الموضوعة فوق سور الشرفة وكأنها كانت تُريد أن تربت علي، لكنني جذبتٌ يدي بعيدًا عنها لأمنع أي تلامسٍ بيننا، ليس فقط لأنها اسرائيلية، بل لأنه أيضًا لا يجوز.

لاحظت ابتعادي عنها فلم تصرٌ على الأمر وبقيت ترمقني بنظراتٍ متأسفة انتهت بي :

-امبارح ضليت اليوم كله حاول إفهم الحقيقة .... عرفت كل الجرايم اللي عملوها جيشنا، لهيك إجيت لهون... مو بس حتى اعتذرلك

توقفت عن الحديث لترى ردة فعلي التي بقيت جامدة حتى آعادت طلبها بنبرة صادقة هذه المرة:

-عبود أمانة عليك تصدقني .... أنا بدي إفهم الحقيقة .... بوعدك إني إذا فهمتها، ما راح إجي جنبك مرة تانية

-وإذا عرفتيها .... إش راح تسوي ؟

هكذا سألتها وأنا أرفع رأسي بشموخٍ أمامها لأجدها تُجيبني بشجاعة:

-راح وقف ضدن .... راح انضم لحركة " بيش جيفول " وراح وقف معكم ضد الاحتلال

نظرات التصديق كانت على وجهي وامتزجت مع صمتي الذي غلف مجلسنا حتى قالت:

-بس تقولي الحقيقة .... وإنت راح تشوف شو راح سوي....

أردتُ هذه المرة أن أصدقها وأتوقف عن طريقتي الصلفة، ففي النهاية، هي وحدها لا تُمثل الجيش ولا تُمثل الدولة حتى، وربما تعرضت لغسيل الدماغ وحانت اللحظة لتستيقظ.

-أي حقيقة بدِك تعرفي ؟

سألتها ببعض الشك حتى لا أنخدع بطريقتها الودودة وأعطيها معلوماتٍ عن المقاومة، لكنها وأدت شكوكي حينما قالت بابتسامة عريضة:

-تاريخ .... احكيلي عن التاريخ

بددت كلماتها القليل من شكوكي نحوها، فالتاريخ لن يتم استخدامه من قبل القوات الاسرائيلية، حتى أنني أكاد أجزم أن المدارس الاسرائيلية لا تُعلم أطفالها التاريخ، لأنهم ببساطة، لا يمتلكون تاريخًا، ولا يمتلكون جغرافية أيضًا.

-موافق .... بس مش أنا يلي راح احكيلِك.....

انتهى حديثنا بقرارٍ لا أعرف كيف اتخذته، لكنني الآن، أقف أسفل البناية أمام سيارتي التي كنت سأستقلها لولا تدخل راموئيل حتى تُذكرني أننا ربما نطوف بأرجاء المدينة بحثًا عن الحقيقة، هذا يعني أنني لن استطيع استخدام سيارتي ذات اللوحة البيضاء والتي لن تُمكنني من دخول العديد من المناطق بسبب سياسة الفصل العُنصري التي يفرضها الاحتلال، فاللوحة البيضاء تعني أنني فلسطينيًا، أما الصفراء تعني أنني أمتلك الجنسية الاسرائيلية وأستطيع أن أجوب المدينة بأكملها بدون أي عوائق.

أخذتُ مفاتيح سيارتها حتى أتوّلى أنا القيادة لأنني لستُ فتاةٌ بجديلة ولن أسمح أن تقودني إمرأة، لم تعترض راموئيل على قراري واكتفت بمراقبتي بحيرة حتى تفهمت الأمر فيما بعد.

اتجهنا أولًا إلى مكتبة القُدس وانتقيتُ لها العديد من الكُتب التاريخية التي كتبها مؤرخون بريطانيون وعرب، فبعضها كان بالانجليزية وبعضها بالعربية الفصيحة، تحدثنا كذلك مع الأستاذ فايد، مُعلم التاريخ بأحد المدارس، وكان يتحدث عن الانتداب البريطاني والانتفاضات والعصابات الصهيونية وحتى المقاومة في القرن العشرين، كُنت أعلم مُسبقًا عمَ يتحدث عنه لكن راموئيل بدى على ملامحها الذهول والصدمة، حتى أن الأستاذ فايد ظنها سائحة تتقن العربية، أو ربما فلسطينية قدت أغلب حياتها في دولة أوروبية أفقدتها هويتها.

لم أشأ أن أخبره الحقيقة حتى لا يتردد في محادثتها لكنني عزمتُ على إخباره حينما ترحل راموئيل وأتأكد أنها لن تُخلف بوعدها.

حادثتني أيضًا عن الكثير من العادات اليهودية، كعدم أكلهم للحوم مخلوطةً مع منتجات الحليب لأن هذا ينافق ديانتهم، كما أخبرتني أيضًا أنهم في عيد الغُفران يقومون بذبح دجاجة بيضاء والتلويح بها فوق الرأس مع ترديد دعاءٍ خاص للتكفير عن الذنوب، ومن بعدها يُحرم عليهم أكل هذه الدجاجة.

وأنا كذلك كُنت أحادثها عن الإسلام وعن حياة الرسول والصحابة مُكذبًا جميع الحجج والافتراءات التي ينشرها الغرب عن ديننا الحبيب.

والعجيب أنني لم ألمح أي من نظرات الغدر على عينيها، بل كانت ودودة تتصرف بعفوية وتتفاعل مع أي شيءٍ أقوله، حتى أنها أعطتني أملًا بحياة أفضل وأخبرتني أنها ستسعى جاهدة حتى يتوّقف الاحتلال والفصل العُنصري ويعيش الجميع في سلامٍ ومحبة.

شككتُ للحظة بأنها راموئيل المتحذلقة التي قابلتها أول مرة، هذا ما جعلها تحادثني عن نظامهم التعليمي المتطرف والذي يصوُّر لهم العرب بأنهم بربريون متخلفون خُلقوا حتى يكونوا عبيدًا للغرب، وأن المسجد الأقصى يجب أن يتدمر حتى يعيدوا بناء هيكل سُليمان الثالث، هذا فقط جزءٌ من المعتقدات التي يغرسونها بأذهانهم منذ الصِغر حتى يتربوا على العنصرية والكراهية.

قلة قليلة فقط من الاسرائيلين هُم من عرفوا الحقيقة، بعضهم عاد إلى موطنهم الأصلي وبعضهم بقى هنا وشكّل العديد من الحركات الداعية للسلام ووقف الاحتلال، ومنهم حركة " بيش جيفول " التي فعلها حفنة من الضُباط احتجاجًا على سياسة دولتهم ورفضًا للخدمة في الأراضي الفلسطينية.

أما المستوطنين، فلم يكونوا ضمن هذه الحسبة، بل هُم مجموعة من المجرمين، وراموئيل شاهدت بعينها كم الكراهية التي في قلوبهم رغم أن جميعهم مغتربون يحملون الجنسيات الأمريكية والأوروبية، ومساندة جيش الاحتلال لهم، يجعل الجيش متوّرطًا في هذه الجرائم أيضًا.

وعلى مدار العديد من الأسابيع، ازداد حديثي مع راموئيل وأحيانًا أجدها أمام المنزل تصرٌ على مقابلة والدتي والاطمئنان عليها، حتى أن والدني أحبتها واعتبرتها ابنتها التي ماتت في رعيان شبابها.

وطوال هذه المُدة أيضًا، كانت راموئيل تصطحبني إلى منظمات السلام وتدفعني للحديث عن أحوالنا والتكاتف مع مجموعة من الاسرائيليين والفلسطينيين حتى نُحقق السلام ونقضي على الأنظمة العنصرية، وكان من بينهم شابًا فلسطينيًا يُدعى راشد، وهو مصوٌرًا محترفًا قام بتصوير فيلمًا وثائقيًا عن ما يحدث بالخليل من جرائم يفعلها المستوطنين، وكان يُشرف على هذا الفيلم شابًا اسرائيليًا يُدعى يوري لوتيم.

من يدحض سياسة هذه الدولة لا يمثلون سوى عشرون بالمئة فقط من اسرائيل، وحتى نحاول إيصال رسالتنا للعالم سيتطلب منا أكثر من خمسة أعوام، خمسة أعوامٍ أو أكثر حتى نثبت لهم أن فلسطين دولة مُستقلة وأن هذه الأرض لا تصلح لهويتين، ولأن الغرب لا يستمعوا أبدًا للعرب، قررنا أن نوٌصل هذه الرسالة عن طريق الغرب، لعلهم فيما بعد يصدقوننا ويتوٌقفوا عن دعم هذه الدولة المزعومة....

9أغسطس 2014 قرية الولجا ببيت لحم : فلسطين

صباح هذا اليوم، كان زاخرًا بالأحداث والنشاطات، في البداية، كُنا في اجتماع أجرته إحدى حركات السلام التي تأسست مُنذ عامين واتخذت جملة " الأرض للجميع " شعارًا لها، يشترك في هذه الحركة مجموعة من الفلسطينيين واليهود، وكانت تدعو إلى إقامة وطن قومي لفلسطين، وتحدثنا قليلًا مع نشطاء حركة " تعايش " والتي تُظهر تضامنًا مع فلسطين من خلال بناء علاقات في الضفة الغربية وتحديدًا الخليل، حيث يتعرض الفلسطينيون إلى العُنف والمضايقات، وكان هؤلاء النُشطاء يحاولون توفير الحماية الشخصية ضد العُنف، مثل قيامهم باصطحاب الأطفال الفلسطينين إلى المدرسة أو مرافقة الرعاة كحاجزٍ لمنع المضايقات.

وبعد الانتهاء من هذه الأمور، قررنا الترفيه عن أنفسنا والذهاب إلى التسوٌق باعتباره إجازة من العمل، وراموئيل حتى لم تعُد تذهب إلى الجيش كما وعدتني.

تجوّلنا في سوق السبطات الشعبي وسوق باب خان الزيت، الذي يُعد من أجمل أسواق مدينة القُدس الواقعة داخل أسوارها، فكان عبارة عن شارع طويلٍ يشتمل على عدد من الدكاكين المتقابلة في صفين، تتكوّن هذه الدكاكين من متاجر للأحذية والملابس والبهارات وغيرهم من المستلزمات.

أصرّت راموئيل على ابتياع الوشاح الفلسطيني وأخبرتني أنها ربما تضحى ذكرى سعيدة تُذكرها بهذه الرحلة، وبعد أن ابتعتُ لها الوشاح، ذهبنا إلى قرية الولجا تحديدًا أسفل شجرة الزيتون.

نجلس الآن بين الحشائش نتنعم بنسمات الهواء العليلة رغم حرارة الطقس، كان مجموعة من المستوطنين يحومون حولنا لذلك قررنا الحديث بالعبرية حتى لا نُثير الشكوك ونجعلهم يصوِّبون أسلحتهم نحونا وربما يقتلوننا دون أن يرف لهم جفن.

كانت راموئيل تعبث بالوشاح وتتفرس أشكاله ورموزه التي لم تفهمها لذلك سألت بالعبرية:

-ما معنى هذه النقوش ؟

مدُّت نحوي الوشاح حتى أشرح لها؛ أمسكتُ طرف الوشاح وأشرتُ بإصبعي نحو نقوشٍ متمايلة باللون الأسود وانا أقول:

-هذا الرسمات .... ترمز إلى ورق الزيتون.... نسبة إلى شجرة الزيتون التي صمدت حتى مع ويلات الاحتلال

حرّكتُ يدي نحو الخطوط المتشابكة وأنا أواصل الشرح:

-وهذه .... ترمز إلى شباك الصيد، مما يُشير إلى العلاقة الوطيدة بين الصياد الفلسطيني والبحر

همهمت راموئيل بإعجاب ثم وضعت الوشاح على رقبتها وهي تسأل:

-هل كان الفلسطينيون يحبون الصيد ؟

كانت نظراتي بعيدة عنها وأنا أرسم بسمة هادئة مليئة بالحنين لما سبق:

-نعم .... جدي كان يحكي لي عن ذهابه إلى البحر مع والده .... كُنت أتمنى أن أحيا قبل الاحتلال حتى يتسنى لي رؤية البحر

أنهيتُ حديثي ببعض الضيق الذي خرج مني سهوًا وأنا أتحسُّر على حالي، فرغم أن بحر فلسطين لا يوجد أجمل منه، إلا أنني لا أستطيع حتى أن أخطو بجانبه.

يبدو أن راموئيل لاحظت ضيقي وبدأت تتفرس عيناي رغم محاولاتي المريرة بغض البصر وعدم تفحص ملامحها، فطوال هذه الفترة التي قضيناها سويًا، حافظتُ على العلاقة الرسمية بيننا ولم أضعها حتى في خانة الأصدقاء، فما بيننا لا يُعتبر صداقة، نحن نسعى للسلام والعدل ليس أكثر.

-هل تريد الذهاب إلى البحر ؟

رميتها بنظراتٍ متهكمة وأنا أرُد عليها:

-وكيف لي أن أذهب ؟

أرخت راموئيل ظهرها للوراء وبدأت تدور بعينيها في كل مكانٍ حتى وجدتها تقف بجوار الشجرة وتنزع الوشاح لتضعه داخل حقيبتها حتى تقول بإصرار:

-لا تقلق، أنا سأجعلك تذهب إلى البحر .... وسنتحداهم....

الفصل الخامس (روميو وجولييت)

((راموئيــل))

10أغسطس 2014   أورشليم : اسرائيل

"كل سلاح مهما يكن منافيًا لمباديء الإنسانية، يُصبح وسيلة إنسانية ما دام الغرض من استعماله، الدفاع عن الحُرية"

جملة سُطرت على أعقاب المحرقة وكانت سببًا في وقوف الكثيرون بجوار أدولف هتلر حتى يتخلص من اليهود، وهي نفس الجملة التي بدأنا بدراستها وتصديقها في المدارس اليهودية!!

بدأتُ أتيقن الآن أننا نسير على تعليمات هتلر، حتى ولو أقنعنا العالم بغير ذلك، اتبعانا لسياسة الفصل العُنصري والاضطهاد العرقي، لا يجعلنا فقط مثل هتلر، بل يجعلنا أسوأ بمراحل، على الأقل هتلر لم يمتلك تلك التقنية العالية التي نستخدمها هذه الأيام، ولو كان يمتلكها لما قُضي على اليهود نهائيًا.

أشعر بالفخر لأنني بدأتُ أفهم الحقيقة، ينقصني فقط المناهضة والوقوف ضد هذه الأنظمة المتطرفة.

تمددتُ بجسدي على الفراش أستعيد ذكرياتي مع عبود وأتذكر الأمكنة التي ذهبنا إليها، أشعر بالخزي لأنني لقبُت هذا الشعب الأبي بإرهابيٍ في أحد الأيام، أقسم أنني سأعود إلى بلجيكا وأترك هذه الفوضى، لكنني فقط سأنشر الحقيقة أولًا.

فتحتُ الخزانة على أمل إخراج ملابسي حتى أذهب إلى دعاة السلام ثم أتجه إلى عبود لأخبره بآخر التطوّرات، وقع بين يدي هذا الوشاح الذي ابتعته بالأمس، جعلني أتذكر كلمات عبود الهادئة وفخره واعتزازه حينما يتحدث عن بلدته، ملامحه الهادئة العربية باتت محببة إلي الآن، بل أنني أتوق شوقًا للذهاب إليه والحديث معه، أنا حتى لم أمضي على مُذكرة انتقالي حتى لا يتم إرسالي إلى تل أبيب وأمتنع عن رؤيته مجددًا واستكمال مخططاتنا.

صار وجهه وحديثه يأتيني في كل لحظة حتى في المنام، أتسآل إن كنت اقتحم ذكرياته كما يفعل معي، رغم أنني في البداية كُنت أشعر بأنني متطفلة وأنه لا يطيقني، الدفء الذي شعرتُ به في منزله الصغير وبين أهله وجيرانه، لم أشعر به في حياتي، فحتى عائلي لا أفقه عنهم شيئًا، ووالدي لا يراني سوى كي يُخبرني بتعليماته الصارمة ظانًا بأنها هي التي ستحميني من بطش المُعتدين، لا يعلم أنه بهذه الطريقة يجعلني عبدة لأنظمتهم السادية، أو ربما يعلم ويفعل ذلك عن عمد.

-راموئـــيل

انتفض جسدي إثر هذا الصياح الهادر من خارج الحُجرة، من شدة ذعري، ارتجفت أطرافي وأنا أقذف الوشاح بالخزانة قبل أن يراه والدي ويُمزقه إربًا.

وجدته أمامي يرميني بنظراتٍ جحيمية زادتني ارتباكًا وخوفًا، هذه النظرات لا تعني سوى شيئًا واحدًا:

-هل يُمكن أن أفهم سبب تغيبكِ عن المُعسكر ؟

سألني بنبرة هادئة في باديء الأمر لتتحوّل بعدها إلى لكنة تهديدية آشار معها بسبابته على وجهي متفوّهًا:

-أتعرفي ما الذي يحدث لمن يتغيَب عن الخدمة العسكرية ؟

كُنت أعرف عمَ يتحدث، فمن يتغيَب عن الخدمة العسكرية يتم سجنة لثمانية وعشرون يومًا، وربما تمتد هذه المُدة إذا أصررت على عدم العودة إلى الجيش.

الجيش بالنسبة لدولتنا هو واجب مُقدس، لا يُمكنك أن تحمل الجنسية الاسرائيلية دون أن تلتحق بالجيش، وإلا سيتم اعتقالِك أو تلقيبك بالخائن، فحتى بعد الخدمة العسكرية التي تبدأ من الثامنة عشر، يتم إدراج أسمائنا في قائمة جنود الاحتياط، وفي أقوات الحروب_ أي أغلب الأوقات_ سيتم إجبارنا على العودة مجددًا إلى الجيش وإلا سيتم الإلقاء بنا في السجن.

لا يوجد سوى طائفة الأورثوذوكس هم فقط من يتم إعفائهم من الجيش لأنهم متدينون متشددون، لكنني متيقنة أن تلك الأنظمة ستقوم بإجبارهم حينما تشتد وطئة الحروب.

-لا أريد العودة إلى الجيش

قُلتها بثباتٍ وصرامة لوالدي الذي كان على شفا جرفة من صفعي صفعة قوية.

-ما الذي تقولينه ؟ .... أنسيتي أنكِ في قائمة المجندين الأساسيين ؟

ارتفعت نبرتي قليلًا وأنا أعترض:

-لا لم أنسى .... لكنني لا أنسى أيضًا أنك من أجبرتني على هذه الخطوة .... لم أكن أريد الالتحاق بالجيش

حاولتُ التقاط أنفاسي بعد صياحي بوجهه والتفريغ عمَ يجيش بصدري، ففي النهاية، تخرجتُ من كلية القُدس للتكنولوجية وحصلتُ على درجة الماجستير بالهندسة التقنية، أي أن مكاني ليس بالجيش، حتى ولو أقنعني والدي أنه سيضعني بقسم التكنولوجية، وهذا ما فعله في باديء الأمر حتى أرغمني على خوّض الصفوف الأمامية للجيش، وأنا كالبلهاء، كنت أوافق دون اعتراض، فقط لأنه والدي والأكثر تفهمًا لم يجب علي فعله.

-وما الذي قلب كيانكِ مرة واحدة ؟_

قالها بنبرة ساخرة جعلتني أنفجر بوجهه:

-لأنكم تكذبون .... أجبرتمونا على قتل الأبرياء واقتحام منازلهم .... كيف تجعلني أنضم إلى هذه الأمور ؟ .... ألم تُخبرني طوال الوقت أن نتحلّى بالمباديء ؟

حاولتُ استمالة عواطفه في نهاية حديثي لعله يعدل عن قراره ويدعمني، لكنني تناسيتُ تمامًا أنه الجنرال أزاريا.

-هذه المباديء هي حماية دولتنا وشعبنا ..... ولن نستطيع حماية شعبنا إلا بإضعاف هؤلاء الأوغاد

أشعلت كلماته النيران بداخلي خاصة وأنا أعرف جيدًا عمن يتحدث، كيف يعترف أمامي أنه يتعمّد التخلص منهم ويقنعني أنه يفعل الصواب، كيف يُلقبهم بالأوغاد وهم أكثر شعبٍ يتحمل الصِعاب ويتحمّل أذيتنا، بل ويقاومها أيضًا ؟

-توّقف عن نعتهم بالأوغاد ... لا يجب أن_

كُنت على وشك الانفجار بوجهه للمرة الثانية لولا بتره لحديثه وإمساكه من مرفقي بطريقة قاسية أجبرتني عن النظر إلى عينيه والاستماع إلى حديثه المتوّعد:

-إسمعي يا هذه ..... إن لم تعوّدي إلى الجيش وتتوّقفي عن مشاهدة المقاطع المعادية للسامية .... أقسم أنني سأجعلهم يضعونكِ بالسجن ولن أهتم بكونكِ ابنتي الوحيدة

أطبقتُ على شفتاي بحنقٍ من حديثه ثم دفعتُ يدي بعيدًا عنه وأنا أقول بإصرار:

-وأنا لن أعود.....

____

أعلم جيدًا أن والدي لن يُنفذ أي من تهديداته، هو فقط يقول ذلك حتى أرضخ له، ربما يفهم خطأه فيما بعد ويأتي ليستميلني بطريقة لينة، ومع ذلك سأصرُ على رفضي حتى يتركني وشأني، فبخلاف كونه يُحبني ولن يرضى لي الأذى، لن يقبل أيضًا أن تكون ابنته خلف القضبان، فهذا سيضحى وصمة عارٍ في تاريخه العسكري.

ذهبتُ أولًا إلى ديفيد كيلان، أحد أعضاء حركة " تعايش " وقد اتفقنا سويًا على بعض الفعاليات التي من شأنها نشر السلام والعدالة، تجوّلنا قليلًا داخل حُجرة الاجتماعات وبدأ يريني بعض الصوّر التي التقطت لمجموعة من المستوطنين يحاولون إخضاع إحدى العائلات ويقومون بسرقة منازلهم.

شعرتُ بالازدراء أكثر من دولتي التي تسمح بهذه الجرائم وتدّعي أنها دولة ديموقراطية، فلو قام فلسطينيٌ بعملية طعنٍ فاشلة لأحد الضُباط، ستُمارس الدولة سياسة العقاب الجماعي وتُدمر الحي الذي يقطن به هذا الشاب بأكمله !! وقد حدث هذا أكثر من مرة واحترقت العديد من القُرى.

-لا يجب أن نصمت على هذا الظُلم الذي يتعرض له الفلسطينيون على يد المستوطنين .... يجب أن نحتج على هذا الأمر

قُلتها بنبرة مُندفعة حملت الكثير من غضبي وازدرائي، لكن ديفيد لم يكن يبدو عليه الانفعال وهو يحادثني بنبرة أقرب لقلة الحيلة:

-ما باليد حيلة .... صحيح أن دولتنا تسمح لنا بإقامة الحركات والنشاطات .... لكنها تفعل ذلك حتى تبدو أمام العالم كدولة ديموقراطية

توقفنا عن السير ليواصل ديفيد حديثه بضيق:

-هي حتى لا تلتفت لآرائنا وتحجم احتجاجاتنا السلمية .... أنسيتي ما حدث بحرب لبنان ؟

قطبتُ حاجباي بحيرة جعلته يفُسر حديثه:

-عام 1982 ... وقعت إسرائيل في حربٍ مع لبنان، أسفرت هذه الحرب عن مقتل الكثير من الأبرياء، هذا ما جعلنا نقف وقفة محتجة حتى تنتهي هذه الحرب .... لكنهم اعتقلوا العديد منا وقتلوا حوالي خمسة .... ومن بعدها ونحن نُفكر ألف مرة قبل الاحتجاج

أسبلتُ بعيناي لأسفل وأنا أفكر بحديثه وأزداد مُقتًا لسياسة هذه الدولة، حتى أنني لم أكن أعرف أننا خُضنا حربًا مع لبنان في نفس العام الذي وُلدتُ به.

-وماذا عن حرب غزة ؟.... أيمكننا انتهاز هذه الفُرصة لنُكثف نشاطاتنا

قُلتها ببعض اللهفة التي جعلته يُفكر قليلًا قبل أن يقول:

-نعم .... في هذه الحالة سنحاول إيصال صوٌتنا للغرب... خاصة أمريكا، فهي المُسيطرة على وسائل التواصل الاجتماعي......

____

حديث ديفيد كان أشبه بطوق النجاة الذي ألقي في بحرٍ من التخبطات والاحباطات، لازلتُ حتى الآن أحاول العثور على طريقة نستطيع من خلالها إيصال رسالتنا إلى العالم، فبعد أن تحدثتُ مع الفلسطينيين وجربٌت معاناتهم، أصبحت قضيتهم هي قضيتي أنا أيضًا.

توٌقفتُ بسيارتي أمام منزل عبود والبسمة تُرتسم على ثغري، ليس فقط لأنني أحمل بعض البشارة وبعض الأمل، بل لأنني أيضًا سآراه أخيرًا، فأنا أنتظر هذه اللحظة مُنذ بداية اليوم.

طرقتُ الباب بضع طرقاتٍ وما هي إلى ثوانٍ معدودة حتى فتح عبود الباب وكان يرتدي حلة سوداء أنيقة ويحمل الممشط بين يديه وكأنه على وشك تمشيط خصلاته الداكنة.

-أهلا وسهلا

قالها بوٌدٍ حمٌل معه القليل من الاستعجال، لكنه ما إن أدلٌى بترحيبه حتى أردفتُ بابتسامة واسعة:

-كُنت عند ديفيد وخبرني إنه لازم نكثف نشاطتنا هاليومين .... بدنا العالم يعرف الحقيقة

كاد يرد على اقتراحي لولا صوٌت والدته التي أتت من الداخل بملابسها المُطرزة ووشاح شعرها الذي يتماشى مع ثيابها.

رحبتْ بي والدته الخالة بيسان، ثم استأذنت لتواصل ارتداء ثيابها، ليلتفت عبود نحوي متفوّهًا باستعجال:

-عفوًا .... عندنا عرس ولازم نلحق

كاد يستأذن ويُغلق الباب لولا نظرات الذهول التي طغت على وجهي، أقال للتو أن لديهم زفاف ؟

-عرس!!

لا أعرف لمَ الذهول يغتابني الآن، فأنا لم أذهب إلى زفافٍ عربي ولو لمرة، وأتشوّق لرؤية كيف تضحى زفافتهم وأعراسهم.

أومأ عبود وكاد يُغلق الباب لولا إيقافي له بكلماتي المتوّسلة كالطفلة الصغيرة:

-بدي روح معكم

بدت كلماتي مُقررة رغم أنني حاولت استعطافهم بشتى الطُرق.

-ما يصير تروحي ... منِك معزومة

قطبتُ حاجباي ببراءة طفولية بدأتُ الالحاح معها:

-بترجاك عبود .... ما راح يلاحظو ... بترجاك....

واصلتُ الالحاح عليه بنبرة طفولية استطاعت أن تخترق فؤاده بنجاح وجعلته يرضخ لي ويوافق على مجيئي معهم، أكاد أجزم أن عبود يتعامل معي كطفلة صغيرة، فهو طيِّب القلب لدرجة تجعله يهم بإنقاذ أكثر شخصٍ يمقته بهذه الحياة.

رافقتُ الخالة بيسان صوّب البُقعة التي يلتف فيها النساء ويبدأن بالتصفيق والغناء، لم أكن أفهم أغانيهم لكنني بدأتُ أصفق بجوارهن وأتمايلُ بجسدي مع النساء اللاتي يتمايلين حول العروس.

كان هناك مجموعة من السيدات يحملن على رؤوسهن أونية مُستدير تشتمل على الورود والزينة ويلتفن بها حول العروس، وسيدة أخرى تتشدق بفلكلورًا شائعًا في الأعراس، لم أفهم منه كلمة واحدة لأنني لستُ جيدة لهذه الدرجة بالعربية، فهناك مصطلحاتُ قديمة لا أعرفها حتى الآن.

اعتقدتُ في باديء الأمر أن عبود سيحتفل معنا لكن الخالة بيسان أخبرتني أنه في البقعة التي يتجمع فيها الرجال، فهذا الزفاف صغيرٌ لا يُشبه الأعراس الشائعة العصرية التي آراها يوميًا...

لكنني في النهاية، حظيتُ بأوقاتٍ رائعة لم يشوبها شائبة وأتمنى تكرارها، لكن بعد أن تنتهي هذه الصراعات....

9أكتوبر 2014 أشكيلون : إسرائيل

تُعانق الشمس الرمال الناعمة لتجعل السماء الزرقاء ملبدّة بالغيوم ومُلطخة بمزيج من البنفسجي والبرتقالي، انعكس ضوء الشمس على سفحة المياه لتجعلنا أشبه بمن يجلس داخل لوحة رسمها فنانٌ مُحترف.

كُنت أجلس على رمال الشاطيء أمام عبود الذي يبتعد عني بضعة أمتار يُغلغل يده في الرمال ويتأمل المياه الزرقاء ونسمات الهواء العليلة، غرقنا في فترة طويلة من الصمت ونحن نتأمل هذا المنظر الخلاب حتى بدأتُ الحديث بتساؤل:

-لماذا تشعُر بالضيق ؟ .... ها أنت تجلس أمام البحر كما كُنت ترغب

أنهيتُ الحديث بلهفة حاولتُ معها تبديدٍ ملامح الضيق المُنطلية على وجهه، فرغم أنها ليست أول مرة نذهب فيها إلى بحر أشكيلون، إلا أن عبود لايزال يرمق البحر بنظراتٍ شاردة تحمل أطنانًا من الضيق.

-كيف لي أن أشعر بالسعادة وأنا لا أستطيع التجوّل في بلدتي بأريحية ؟ .... فحتى هذا المنظر الخلّاب، ممنوعٌ علينا

أسبلتُ بعيناي لأسفل وأنا أتمعن في حديثه الصائب جيدًا، فلولا وجودي وحيازتي على هذه الجنسية، لما استطعنا الذهاب إلى هنا أبدًا، كم هو صعبٌ على المرء أن يحيا في دولة يسودها التطرف والعُنصرية.

رسمتُ بسمة مطمئنة على ثغري وأنا أحاول النظر إلى عينيه لعلي أبثه القليل من الأمل:

-لا بأس .... عمَ قريب، ستستطيع التجوّل هنا وقت ما تشاء

أومأ رأسه دون أن ينبس ببنت شفة وبقي يرمق المياه في حالة من الصمت حاولتُ قطعها بكلماتي المرحة:

-أتعرف .... أحيانًا آتي إلى هنا في الشتاء وأرقص على الرمال بأريحية حتى لا يراني أحد

التفت نحوي ليرميني بنظرة مبهمة لم أفقهها لكنني وثبتُ على الرمال أحاول انتشاله من حالة التلبد والضيق الغارق بهما، فتحتُ جوالي على أغنية أجنبية ثم وضعته على الرمال لأبدأ بجذبه وأنا أقول بإلحاح:

-هيا .... لا تجعل الضيق يُسيطر عليك .... لن تجد فرصة أخرى للرقص على شواطيء أشكيلون

وثب عبود عن الأرض بنظراتٍ متجهمة صحح معها كلماتي:

-اسمها عصقلان .... ثم أنني لا أحب الرقص الغربي

أومأتُ رأسي بتفهمٍ ثم أحنيتُ جذعي لألتقط هاتفي عن الأرض وأعطيه له متفوّهة:

-حسنًا .... أخبرني أي أغنية تُفضل الاستماع اليها

وأخيرًا وجدته يبتسم لي ابتسامة هادئة جعلت الفراشات تتطاير داخل صدري، كيف لهم أن يُلقبوا هذا الحنون ذو الابتسامة الساحرة بالإرهابي!!

عبث قليلًا بهاتفي حتى صدح صوّت موسيقى شرقية لم أستمع إليها مُسبقًا، وضع الهاتف على الرمال متفوّهًا:

-هيدا هي الأغاني

قالها بلُغة عربية ونبرة دعاني معها لرقصته التي لم أكن أعرف ما هي، فقد كان يُحرك قدميه حركاتٍ متمرّسة ثم يضع يده على خصره تارة ويرفعها تارة أخرى.

اتسعت بسمتي تلقائيًا وأنا أشاهد حيويته واندفاعه الذي جعلني أحاول مشاركته لا إراديًا متناسية تمامًا أننا تقف على ممتلكاتٍ اسرائيلية وربما يأتي أحدهم لإلقاء القبض علينا.

لكن هذا لا يُهم، نحن لا نرتكب فاجعة، فقط نرقص رقصة الحُرية كما أخبرني عبود، فما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى بدأتُ أقلد حركاته وأضحك من قلبي كلما أخطأت وتعثرت قدمي، اندرج هذا اليوم من أكثر أيامي سعادة ودفئًا، خاصة وأنا مع عبود، الذي أزداد تعلقًا به يومًا بعد يوم....

____

13يوليو 2015 أورشليم : اسرائيل

مرّت الأيام ولم تتغير الأحوال، صحيح أن الحرب على غزة قد انتهت بصورة رسمية_أو ربما شبه رسمية_ لكن الأوضاع بقيت كما هي، لا يزال العدوان قائمًا، ولا يزال التطرف والعنصرية ينهشان جُدران هذه المدينة المُقدسة.

حاولتُ أكثر من مرة أن أدفع الجهل عن الجميع لكن محاولاتي كانت أشبه بمن يحاول تحوّيل الطين إلى رمالٍ ناصعة البياض، لا أعرف كيف يحيا الجميع هنا بهذا الكم من الجهل والكراهية، هم حتى لم يتعاملوا أبدًا مع الفلسطينيين ويعتمدون على أحكامهم المُسبقة، حتى دولة حيفا_ أكثر دولة يقطنها الفلسطينيون ويعملون بها_ لا تخلو من التطرف والعُنصرية، يتم معاملة الفلسطينيون فيها معاملة العبد الذي خُلق حتى يعمل تحت أرجلهم.

هؤلاء الحمقى، يعتقدون أن اسرائيل لا تتبع نظامًا عُنصريًا وأن جرائم المستوطنين ما هي سوى نتيجة لخوفهم من الجماعات " الإرهابية " الفلسطينية، لا أعرف إذا شاهدوا بأعينهم ماذا يفعل المستوطنين بالأبرياء كيف ستضحى ردة فعلهم، لا زلتُ حتى الآن أشعرُ بالضيق والغضب على هذا المَجمع السكني الذي احترق بالكامل على يد مجموعة من المستوطنين فقط لأن هناك واحدٌ من قاطني هذا الحي قتل اثنين من ضباط الدفاع، كيف لهم أن يُطبقوا سياسة العقاب الجماعي ويقتلوا العديد من الأبرياء دون أن يعاقبهم القانون !! أين العدالة في هذه الدولة ؟

على كلٍ، سأحاول قدر الإمكان أن أكثف نشاطاتي حتى ولو كُنت الوحيدة، لا أعرف كيف تغيرتُ بهذه الطريقة، أصبحتُ أكثر تعقلًا وأكثر تفهمًا لمن حولي، حتى أنني أحببت الإسلام والمُسلمين ولم أعد أشعر بالازدراء من ناحيتهم أبدًا، يكفي أن عبود واحدًا منهم، وأنا بحياتي لم ألقى بشهامته وحنانه، ليس فقط لأنه يسعى لإرضائي، بل لأنه أيضًا يسعى لإرضاء جميع من حوله، فكان البارحة يلهو مع أطفالٍ صغار ويعاملهم بحنانٍ لم أرى مثله بحياتي.

تمنيتُ في تلك اللحظة أن أضحى عربية حتى أستطيع الإفصاح له عن مشاعري، لم أعُد أطيق رؤيته أمامي بصورة شبه يومية دون الإفصاح له عمَ يجيش بصدري، وأنا متيقنة أن هذا لا يجوز، نحن من عالمين مُختلفين، عالمين يكره كل واحدٍ منهما الآخر ويتمنى القضاء عليه بأية طريقة، والأسوأ أن عالمي هو الذي يُمثل الشر والفساد، وحتى ولو انفصلت عنه، سيبقى والدي عُثرة في حياتي، فهو أبدًا لن يوافق على

زواجي من عبود، ولن يوافق حتى إذا أخبرته أنني أنوي تغيير ديانتي إلى الإسلام، وأنوي السفر من هذه الدولة أيضًا.

كل تلك المخططات أحاول دفنها داخل ذهني لأنني لو أفصحتُ عنها، ستتدمر حياتي بأكملها، علاقتي بوالدي بدأت تنحدر في هذه الأيام، معاملاتنا أصبحت أكثر صلافة ودائمًا ما يتشاجر معي حتى يُعيدني إلى الجيش ويُعيدني كما كُنت سابقًا، لكنني أرفض وبشدة، فمن يرغب في العودة إلى الجهل والكراهية ؟

انتهيتُ من ارتداء ملابسي المكوّنة من ستُرة صيفية وسروالٌ رماديٌ مُريح، قررتُ الرحيل من المنزل قبل أن أتقابل مع والدي ويحتد الشجار بيننا ككل ليلة، بل ككل وقت.

كانت الساعة تُشير إلى السابعة مساءً لذلك حاولتُ التحرك بهدوءٍ حتى لا ينتبه لي والدي ويسألني أين أذهب، بالطبع لن أخبره أنني اتفقتُ مع عبود على الحديث سويًا بحديقة سوخير القابعة بأورشليم.

تحركتُ بخطواتٍ متأنية صوّب عبود الذي يجلس على أحد الأركان، فلا يوجد حظر تجوالٍ في هذه الأيام، مما يعني أنه لن يستأذن باكرًا ككل مرة.

لم يكن ينتبه لمجيئي وكان يقرأ من القرآن بصوّتٍ عذبٍ صدح طنينه داخل صدري:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ{

جلستُ بجواره على بُعد بضعة أمتارٍ أتأمل هذه الآية وأتمعنُ في حروفها جيدًا، انتبه عبود لمجيئي فأوقف قراءة القرآن وأغلق مُصحفه ليتطلع إلى نظراتي الشغوفة:

-ما معنى هذه الآية ؟

سألته بنبرة هادئة جعلته يبتعد بأنظاره عني ويفتح المُصحف مجددًا ثم يُغلقه قليلًا ويلتفت نحوي حتى يشرح لي بالعبرية حتى أفهم:

-يُخبرنا الله سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية أنه لا بد أن يُبتلى عباده بالمحن ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر...

صمتٌ هنيهة ليعتدل في جلسته ويواجهني حتى يواصل الشرح بلهفة:

-بشيءٍ من الخوف والجوع، تعني القليل منه، لأنه لو ابتلانا بالخوف كله أو الجوع لهُلكنا، والمحن لا تُهلك

كان يقرأ لي جزء من الآية بالعربية الفُصحى ثم يُفسرها بالعبرية أثناء قوله:

-ونقصٍ من الأموال، تعني ذهاب بعض أموالنا، والأنفس ... تعني ذهاب الأحباب، والثمرات يُقصد بها ثمار النخل والأشجار

بدأ يُحرك يديه عندما انغمس في الشرح أمام نظراتي الممعنة:

-هذه الأمور لابد لها أن تقع علينا، والعليم الخبير، أخبرنا بها، وقال أنها إذا وقعت.. سينقسم الناس إلى قسمين... الجازعين والصابرين.... الجازع تحدث له المصيبتان.... خسارة المحبوب بحصول هذه المصُيبة، وخسارة ما هو الأعظم، وهو الأجر بالامتثال من الله بالصبر.... أي أنه سيعود بالخُسارة والحرمان، ويُنقص من إيمانه ويشعر بالنقص

توقف عن الحديث لتنقلب نبرته إلى أخرى هادئة راضية:

-أما الصابر .... لا يشعر بالنقص، ويحتسب أجره عند الله، لأنه يعلم أن ما يُدركه من الأجر بصبره ... أعظم من المصيبة التي حلُت عليه .... سيعتبر المصيبة نعمة بحقه وسيكافئه الله

همهمتُ بذهولٍ وإعجابٍ من حديثه ونبرته الرخيمة، كانت هذه الآية مثالًا حيًا على ما يحدث، جعلتني أفكر أكثر بهذا الدين المسالم وأربط ما بينه وبين صبرهم ومقاومتهم.

-ألهذا السبب لم تفقدوا إيمانكم حتى هذه اللحظة ؟

سألته بفضولٍ ورغبة في المعرفة جعلته يجُيبني بهدوء:

-نحن نسلُك طريق الصبر .... لأننا لا نملك طريقًا آخرًا .... ونزيد من إيماننا لأننا نعرف أن الفرج في نهاية الطريق .... فكما قُلت لكِ مُسبقًا ..... لا أحد يعرف متى ستنتهي الحرب .... لكن جميعنا يعرف كيف ستنتهي

تذكرتُ هذه الجُملة التي صاح بها بالعبرية حينما أمرت الجنود بضربه حتى تتهشم عظامه، كُنت أشعر ببعض الحرج من تذكيره لي بتلك الذكرى لكنني تداركتُ الأمر بعدها وقررتُ الاستمتاع بهذه السماء الكحلية المُزينة بالنجوم، صِرت أتأملها لفترة وجيزة من الزمن قطعتها باقتراح:

-ما رأيكَ أن أساعدك في حصول على جنسية اسرائيلية .... ستستطيع التجوّل في كل مكانٍ بأريحية وستتخلص من هذه الأنظمة القمعية

حاولتُ مساعدته باقتراحي حتى لا يضطر الحديث بالعبرية ولا يضطر المجيء هنا بعد عناء، لكنني وجدته يقطع حديثي بنبرة مُندفعة صارمة حملت شقًا من الاستنكار:

-لا .... لا أريد

أبعد نظراته عني ليواصل الحديث وهو يتأمل الحشائش:

-لا أريد أن أتخلّى عن جنسيتي الفلسطينية

-لكن الجميع يعتقدونكم إرهابيون

كُنت أقصد الغرب بحديثي وكُنت أعتقد أنني بهذه الطريقة سأستميله وأجعله يحيا حياةً أفضل يستحقها كما يستحقها بقية الفلسطينيون، فقط إذا اعترفوا بهذه الدولة، لكنني وجدته يهاجمني مرة أخرى:

-بالنسبة لي .... أن يدعوني العالم بإرهابي، أفضل بكثيرٍ من أن يدعوني أهلي وأصدقائي بالخائن

تفهمتُ وجهة نظره وشعرتُ بالخزي بسبب هذا العرض الذي عرضته، لم أقصد أن أدفعه للاعتراف باسرائيل، فأنا أيضًا بت أكره هذه الدولة، لكنني فقط أردته أن يتجوّل بأريحية ولا يضطر الانصياع لهذه القوانين العسكرية الظالمة.

مرّت بيننا برهة طويلة من الصمت تأملتُ فيها لحيته المُجذبة وعيناه الرماديتان الساحرتان، أردتُ في تلك اللحظة أن يضمني إلى كنفه وأنهل القليل من دفئه، لكنني أعرف أن عبود لن يوافق أبدًا، هو حتى لا يقبل أن يجعلني أضع يدي على يده، وأنا لا أعترض على هذا الأمر، يكفي وجوده بجواري وحديثه معي بتلك النبرة الهادئة المليئة بالكبرياء.

سرقتُ نفسًا عميقًا ثم أطلقته في الهواء وأنا أرمق السماء بابتسامة هادئة قُلت معها باستنتاج:

-أتعرف ..... قصتنا أشبه بحكاية روميو وچولييت

انتبه لحديثي وبدأ يرميني بنظراتٍ عابرة حتى فسرّت دون أن أحيد بنظراتي عن الحشائش الداكنة:

-كلانا من عالمين مختلفين .... عالمان يتعاركان دائمًا، ولا يوجد وفاقٌ بينهما .... ونحن عالقانِ في المنتصف

طالعني لبُرهة من الزمن وبدأ يتفرّس حديثي حتى قال مؤيدًا:

-معكِ حق .... لكنني أدعم عالمي، وأريده أن ينجو

اتسعت بسمتي بفخرٍ لأنني أعرف جيدًا أنه سيتمسك بعالمه مهما كانت الصعوبات، كان يجب أن ننتقم من الدول الأوروبية، هي التي بدأت المحرقة، وهي التي بدأت المذابح ضد اليهود، وهي أيضًا السبب في هذه الأزمة وهذه المظالم، وأنا سأقف

بصف عبود، ليس فقط لأنني أحبه وأكاد أهيم به، لكن لأنني أمتلك عقلًا يستطيع التفريق ما بين الصواب والخطأ، ربما لن أستطيع الانضمام إلى عالمه بسهولة، لكنني أستطيع مواجهة عالمي وإعادة تشكيله.

-وأنا أيضًا أريده أن ينجو

قُلتها بعد فترة وجيزة من الصمت لأجعله يرمقني بأريحية ويمتنع عن التعقيب حتى يعاود تأمل هذه النجوم، وبعد فترة أخرى من الصمت، رفعتُ رأسي لأعلي وبدأتُ أقول بتمنٍ:

-أتمنى ألا تنتهي حكايتنا كما انتهت حكاية روميو وچولييت

التفت ليرمقني بنظراتٍ تحمل مزيجًا من القلق والشك رغم كلماته الآملة:

-وأنا أيضًا أتمنى ذلك......

الفصل السادس (ظنون كاذبة)

((عبــود))

13يوليو 2015 القُدس الشرقية : فلسطين

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) 12(

آية بدأتُ أحتضرها في ذهني أثناء مشاهدتي لرئيس الولايات المتُحدة وهو يُطالب بنشر السلام والعدل بين الجميع، ولهذا يقف حليفًا مع اسرائيل حتى يحُققوا سويًا هذا الـ" سلام"

لا أفهم كيف يُصدقون أنهم دُعاة السلام، وهم سبب الفساد في هذه الأرض كما ذُكر في الآية الكريمة، صِرتُ متيقنًا الآن أن ما كُتب في هذا الكتاب المبجل يحدث في أيامنا الحالية، وكأن الله عز وجل يعرف ما سيحدث ويحاول تنبيهنا به.

ورغم مقابلاتي العديدة مع راموئيل، وحديثنا سويًا عن كيفية وقف العدوان، لم أتوقف عن مساعدة الحركات التحريرية سواء كان بالمال أو بالأفكار، حتى أنني بدأتُ أعطيهم دروسًا بالعبرية حتى يستطيعوا التعامل مع العدو جيدًا، ربما يجب علينا دراسة التوراة والديانة اليهودية أيضًا حتى ندحض افتراءاتهم ونستخدم ديانتهم ضد سياستهم كما يفعلون معنا بالضبط.

أتت راموئيل على ذهني مرة واحدة وأنا أقف داخل المقهى أقوم بإعداد خمسة فناجين من القهوة، لا أنكر أنني ظننتها متحذلقة ومتطفلة في البداية، لكن مع الوقت، اتضح لي أنها كانت مُغيبة عن العالم، تتبع فقط ما يُتلى عليها من ادعاءاتٍ باطلة، وتسير خلف التيار مهما كان، لم أرى في عينيها ولو نظرة خُبثٍ واحدة، فهي تتعامل بعفوية وجرأة لم أعهدها أبدًا في أي فتاةٍ عربية، وهذا بالطبع بسبب ميولها الأوروبية واتباعها لتقاليدهم التي تجعلها تتعامل مع الجنس الآخر بهذه الانفتاحية.

أتى مسعود إلى المقهى حتى يأخذ مني الأموال كما اتفقنا، كان يرتدي ثيابًا سوداء ويتلفتُ يمينًا ويسارًا حتى لا تلتقطه أي من الدرونات أو الكاميرات المُثبتة على جميع الأبنية.

ما إن رأيته حتى أعطيت فناجين القهوة لعاصي حتى يُعطيها للزبائن، ثم دثرٌت يدي داخل جعبتي لأخرج منها ألفي شيكل وأعطيهم لمسعود الذي وضعهم فورًا داخل جعبته وبدأ يقص علي آخر الأخبار.

-اتنين من المستوطنين حاولو يتهجٌمو علينا .... بس نحن ربيناهم

أنهى حديثه ببسمة فخورة جعلتني أثني عليه وعلى جميع المقاومين ثم أردفتُ بتحذير :

-ديرو بالكن لأن الجيش راح يحس بيالي صار

رفع رأسه بطمأنينة قال معها:

-لا تقلق كل إشِ تحت السيطرة ..... بس بدنا طريقة تانية لنتخلص من هالـ ملاعين

فكرٌت هنيهة قبل أن أرفع رأسي نحوه وأقترح بثقة:

-هدول المستوطنين .... بيجنٌو بس يشوفو علم فلسطين ... لهيك

صمتٌ برهة قبل أن أواصل بثقة أكثر:

-فيكن تحطو علم فلسطين وتلغموه .... وإذا حاول حدا منن إنه يرفع هالـ علم الطاهر .... راح يتفجر ويصير أشلاء

ابتسم مسعود بتأييدٍ تامٍ لفكرتي وأخبرني أنه سيبدأ بتنفيذها، وبعد بُرهة وجدته يقترح :

-وفينا كمان نزرع جواسيس بين جيش الاحتلال .... شو رأيك تساوي هاد الإش ... إنت أكتر حدا بيفهم عالـ اليهود

لا أعلم لمَ أصابني التوتر بعد حديثه، ربما لأنني تذكرتُ راموئيل وعملها بالجيش، ورغم أنها تركت التجنيد، إلا أنها لازالت على علاقة بجيش الحفاضات هذا، يكفي أن والدها يقود إحدى الوحدات.

-لأ .... ما يصير .... إنت بتعرف إن لساني فلتان، راح خرِّب كل إشِ

قهقه مسعود بتأييدٍ لحديثي لأنه يعلم كم أنني أتواقح أحيانًا مع من لا أهواه، مما قد يجعلني أرتكب العديد من الشجارات بين جيش الاحتلال، كما أنني لا أستطيع الكذب والخداع، حتى ولو في سبيل الوطن، فالخداع والكذب ليسا من شيِامي أبدًا ولا أظن أنني مناسبٌ لمهمة كهذه، وإلا كنت انتهزتُ صداقتي مع راموئيل وجعلتها تفصح لي عن أسرار الجيش.

ورغم أن راموئيل تعرف الكثير، لكنها لن تجروء على الاعتراف على جيشها، ليس لأنها تدعمهم، بل لأنها ستعتقد أنني استغلُها ولن تثق بي أبدًا، فأنا كذلك لا أخبرها شيئًا عن المقاومة ولا أسألها عن جيشهم حتى، ولا أعرف إن كان هذا صوابًا أم خطأ...

رحلٌ مسعود بعد حديثنا الوجيز وبقيت عوالم الشرود والتيه يطوفان حول رأسي ويجعلانني أفقد تركيزي، أعلاقتي مع راموئيل تُعد خيانة للوطن رغم أن كلانا يسعى للسلام ؟ أكان من المُفترض أن أستغل علاقتي بها وأحصل على المعلومات ؟

لكنني سأشعر بالوضاعة حينما أفعل ذلك، راموئيل اعتذرت أكثر من مرة عمَ فعله جيشها، فكيف لي أن أغدر بها ؟ أنا لستُ هكذا...

ما إن انتهت فترة الدوام، اتجهت أقدامي صوِّب مقبرة الشُهداء، هنا حيث يرقد والدي العزيز الشهيد " سعد التاجي"

عندما أشعر أن الحياة خانقة لا أمل بها، آتي إلى هنا وآحادثه عمَ يجيش بصدري، رغم أنه لا يبادلني الحديث ولا يواسني، إلى أنني متيقنٌ أنه يستمع إلي ويتمنٌى أن تنزاح الهموم عن كاهلي، أخبرته عن راموئيل وكيف كانت مختلفة عن بقية الاسرائيليين، حتى أنني لم أعُد أحتسبها منهم، ففي النهاية، هي تحمل الجنسية البلجيكية.

سألته عمَ يجب علي أن أفعل، أأحاول استغلالها حتى أعرف أسرار جيشهم ؟ أم أأمن لها وأضع يدي بيدها حتى نُحرر هذه البلاد ؟ لم أخبرها حتى عن المقاومة ولم أخبرها عن أسرارنا، فقط أحادثها عن التاريخ وعن الاسلام، وحتى الأماكن التي نذهب إليها، لا أعتقد أنها سرًا بالنسبة للاسرائيليين، فجميعها آماكن شعبية تمتليء بجنود الاحتلال، ولو كانت راموئيل تخدعني، لمَ أصرٌت على كشفي لأسرارنا، لكنها حتى لم تسألني ولم يبدو عليها أنها ستغُدر بي.

آه، عقلي يزداد تشتتًا، أسأل الله أن يلهمني الصواب، ولا يتركني في هذه الحالة....

قرأت الفاتحة وسورة يس على روح والدي ثم وضعتُ الأزهار التي جلبتها معي أمام قبره قبل أن أرحل وأعود إلى المنزل، ربما سأصلي استخارة حتى أعرف أي قرارٍ سآخذ.....

____

أتى المساء ولازالت أفكاري تُعذبني، حاولتُ إلهاء نفسي والقيام ببعض الواجبات المنزلية حتى تناسيتُ قليلًا تخبطاتي ورغمًا عني بدأتُ أسترجع ذكرياتنا المُحببة، أتذكر ابتساماتها المُتلهفة، كلماتها العفوية ورغبتها الدائمة في معرفة الحقيقة، ياإلاهي .... لماذا لا تخرج عن بالي ؟

-عبود .... كيفك يما ؟

قالتها والدتي بنبرة حنونة وهي تجلس بجواري على الأريكة، كانت تُربت على كتفي تربيتاتٍ هادئة بددت القليل من تشتتي وضياعي.

-لسا عم تقابل نيچار ؟

كانت تتحدث عن راموئيل التي لم أخبرها حتى الآن عن حقيقتها، أشعر بالخزي لمَ أفعل حقًا، فوالدتي حتى الآن، تُصدق أنها فلسطينية من عائلة منفتحة، وحديث راموئيل بالعربية الطليقة جعلتها تتأكد من هذا أكثر.

-يمَا ميصيرش هِك إشِ .... شو راح يقولو عنا الناس ؟

قالتها بعِتاب ما إن أومأتُ رأسي وأكدتُ لها أنني لازلتُ أتحدث مع راموئيل وأتقابل معها، وبالطبع لم أخبرها أنها راموئيل.

-ولاد الناس منن لعبة .... إذا بدك تحاكيها، بتروح للبيت من بابه وتطلب إيدها

ما إن أدلت هذه الجُملة حتى كِدت أبصق فؤادي، عن أي يدٍ تقصدها والدتي ؟ أتريدني أن أتقدم لإبنة قائدٍ بجيش الاحتلال ؟

-بس يما نحن .... فِش إش بيناتنا

-لكان ليش لسة بتقابلها .... يعني أختك لو لسا عايشة، كُنت ترضى إنها تتقزدر مع زلمة غريب عنا ؟

بدأت بالعبث أكثر داخل عقلي حتى تزيدني شعورًا بالذنب، فلو كانت شقيقتي على قيد الحياة وكانت ترافق رجلًا غريبًا، أقسم أنني كنت سأقتلع عينيها وأجعلها تمتنع عن الخروج من المنزل حتى تعدل عن أمرها.

امتنعتُ عن الإجابة وكان صمتي بمثابة إجابة شافية تعرفها والدتي جيدًا، فهي تعرف ميولي الشرقية واتبعاي للتعاليم الدينية الصحيحة.

-هس بتروح تتصل فيها وتقولها إن ميصيرش تطلعو مع بعض مرة تانية .... قولها إنه أنا وأمي جايين لنطُلب يدك

بدأت قطرات العرق تنساب على جبهتي وسخونة تحتاج جميع أوصالي، أقسم ان والدتي ربما تنهار وتفقد وعيها حينما أخبرها الحقيقة، حقيقة أنني ... أغرمت بهيودية!!

اضطررت بعدها لترك المنزل واعدًا والدتي بأنني لن أراها ولن أرافقها وسأتصل بها عمَ قريب لنُحدد الزفاف، أعلم أنني لن أنفذ أي من كلماتي، لكنني سأحاول جاهدًا أن أخفي علاقتي بها وأخبر والدتي أن النصيب وقف بيننا ولم يحالفنا الحظ، هكذا أفضل من أن أجعلها تعرف الحقيقة وتتدهور حالتها الصحية.

جلست بإحدى حدائق القُدس بعد أن أعطت راموئيل اسمي للجنود حتى يسمحوا لي بالدخول، اتفقنا على المقابلة والحديث سويًا لكنني جئتُ قبل المِعاد بساعة كاملة حتى أتامل السماء الصافية وأقرأ القرآن الذي ربما يستطيع الترطيب على نيراني المُشتعلة وتخبطاتي التي تزداد في كل لحظة.....

14يوليو 2015 القُدس الشرقية : فلسطين

نمتُ نومة هنيئة بعد هذه الليلة التي قضيتها مع راموئيل، كانت ليلة مليئة بالدفء والراحة، بقينا نتحدث عن أحلامنا وطموحاتنا، كلانا نحلم بعالمٍ يسوده السلام والعدالة، حتى أنني بدأتُ أصدق أن هذا العالم ليس بهذه القسوة وربما يأتي الفرج عمَ قريب.

كما أنني أزداد تعلقًا براموئيل يومًا بعد يوم، لا أعتقد أن ما أفعله صائبًا، كيف لي أن أتقدم إلى خُطبتها ؟ الطريقة الوحيدة لاجتماعنا سويًا داخل منزلٍ واحد، هو بعيدًا عن هذه الدولة، وأنا تعهدتُ على عدم ترك بلدتي إلا بعد أن أحررها من كيد المُعتدين، حتى ولو تطلب ذلك العديد من التضحيات، ففي النهاية .... لماذا سأموت إن لم أمت فداءً للوطن ؟

أثناء جليي للأكواب داخل المقهى، صدح صوّتٌ مرتفع وصل طنينه إلى أذني، هذا الصوّت المقيت أعرفه جيدًا، وأكاد أتيقنُ أنه يرفع من صوّته حتى أستمع إليه.

-هس أنا بدي إسألك سؤال يا صادق

رماني بنظرة عابرة حقودة ثم آعاد نظراته إلى صادق الذي ينتظر ما سيقوله نافع بتشفي:

-إش بيقولو عن يالي بيحكي عن الحرية والاستقلال وبيوقف مع حركات المقاومة وبنفس الوقت عمَ يتقزدر مع اسرائيليين ....

-بيقولو عنه منافق

هكذا ردٌ عليه صادق لترتفع النيران بداخل صدري، أعلم جيدًا أن هذا الوغد يقصدني بحديثه:

-لا تقول هيك يا صادق ... مايصيرش تحكي عن حدا بهالـ طريقة

آعاد نظراته نحوي ليتأمل نظراتي المُشتعلة وهو يقول:

-خاصة ونحن قاعدين بقهوٌته

كوٌرت قبضتي بغضبٍ جحيمي انتبه له عاصي وحاول تهدئة الأجواء والنظر إلى نافع نظراتٍ مُستنكرة، كُنت على وشك الانقضاض عليه لولا عاصي الذي وقف أمامي وأخبرني بنظراته ألا أنتبه لهما وأواصل العمل، وأنا بالفعل كُنت سأرضخ له لولا حديث نافع:

-كانو يقولولنا إن المال عزيزه غالي .... أكيد هالـ اسرائيلية عمُ تعطيه مصرياته

أنهى الحديث بقهقهة ساخرة استطاعت أن تُفجر ما تبقى من ثباتي، فهو يهينني أمام عيني.

لا أعلم ما الذي فعلته، لكنني انقضضتُ كالثوّر الهائج على نافع ودفعته دفعة كانت كفيلة بإسقاطه عن المقعد، أمسكته بعدها من تلابيبه راميًا إياه بنظراتٍ مُشتعلة أشبه بالجمرات النارية وأنا أهتف بوجهه:

-مين يالي عمُ تعطيه مصرياته ولاك ؟

كانت كلامتي مُهددة غاضبة لم تؤثر بنافع وجعلته يدفعني عنه باستهجان:

-إيدك ولاك .... راح تضربني منشان هالـ حشرة ؟

لكمته لكمة قوية تركت كدمة بنفسجية أسفل عينه اليُمنى وجعلته يتحسس اللكمة بألمٍ وغضب، فكان يهتف بعدها بصوّتٍ مُرتفع أنصت إليه جميع من يجلس بالمقهى، أصبحتُ الآن كالذي يقف وحيدًا على المسرح أمام جمهورٍ عريض:

-مفكر حالك زلمة .... لك والله لخلي سيرتك عالـ لسان ياللي رايح وإللي جاي

لم يتوّقف عن الحديث بصوّتٍ جهوري وجهه نحو الزبائن أثناء قوله:

-اسمعو يا عالم .... هاد ياللي عامل فيها وطني وبيقول عن ناصر مُنافق ..... عمَ يرافق واحدة اسرائيلية ومقضيها حُب وغرام

بدأت الهمسات المصدومة تتناقل بين الجميع خاصة وأنهم يعرفونني جيدًا ويعرفوا كم أنني أحب بلدتي وأدعم حركات المقاومة، هذا الخبر حطُم ثقتهم بي وجعلهم يشعرون بالخزي والازدراء مني، رغم أنني لم أخن بلدتي أبدًا.

كاد يواصل نافع حديثه وتزيينه كمَ يهوى حتى يجعلني خائنًا في نظر الجميع، فلطالما يغار مني ويتعمُد مضايقتي، هذا فقط لأننا كنا نرتاد المدرسة نفسها وكنا نتنافس في التفوق حتى استطعتُ افتتاح مقهاتي وإدارة عملي، وهو لا يزال عاطلًا حتى هذه اللحظة.

تقدمتُ بضعة خطواتٍ للأمام وكُنت على شفا جرفة من الانقضاض عليه مُجددًا وضربه حتى النزيف.

-لك اســكت ولاك...

صرختُ بوجهه بغضبٍ جحيميٍ حتى يتوّقف عن الحديث، فأنا الذي لطالما كانت لدي ردودٌ مجحفة على الجميع، أقف الآن كالدجاجة المبتلة لا أستطيع تبرأة ذاتي ولا أستطيع تكذيب حديثه، هذا ببساطة لأنه لا يكذب، أنا بالفعل أرافق اسرائيلية، ولن أستطيع التبرير لأنني لا أستغلها، ولن يفهم أحدهم أنني عضوٌ في حركات السلام الاسرائيلية لأنه ببساطة، لا أحد يُصدق في هذه الأمور.

كِدتُ أنقض عليه مُجددًا لولا تشبث عاصي بي وإحاطته لصدري بذراعيه ليدفعني بعدها خارج المقهى ويترك لزميلنا الثالث فؤاد مهمة تلبية طلبات الزبائن حالما يُهديء من روعي.....

جلستُ في بُقعة هادئة قريبة من المقهى تكاد تخلو من السُكان، بقينا لفترة وجيزة في حالة من الصمت أحاول فيها التهدئة من روعي واستعادة أنفاسي المتلاحقة، وبعد هذه الفترة، وجدتُ عاصي يقول بنبرة مهدئة غير مُصدقة لتلك الافتراءات:

-لا تهتم ببالي قاله هالـ نغش ... إنت بتعرف إنه غيران، وأكيد عمَ يكذب

-لأ .... مش عم يكذب

قُلتها بسرعة وبنبرة خافتة بها شعورٌ بالحرج؛ بدأت عوالم عاصي تتحوّل إلى الصدمة تدريجيًا حتى أنني ظننته سيوِّبخني كما سيفعل الجميع، لكنه للعجب، حافظ على نبرته الهادئة أثناء قوله:

-مش عم يكذب !! .... يعني إنت مرافق اسرائيلية ؟

أومأتُ رأسي بخزيٍ آصابه بخيبة الأمل، حتى بدأ يوبخني بصوّتٍ هاديء:

-شو سوييت يا خوي ؟ .... يعني دونًا عن البنات الفلسطينيات الحلوين .... جاي ترافق واحدة يهودية!!

كُنت أعرف أنه سيقول هذه الجُملة، فبدلًا من أن ألتفت إلى جمال الفلسطينيات وجدتني أقع أمام فتاة اسرائيلية تعتنق اليهودية وتعمل بجيش الاحتلال سابقًا، ما الذي علي فعله بهذا القدر، أنا حتى لم أختر الوقوع بحُبها، وهي التي اقتحمت حياتي وجعلتني أتعلق بها، ولا أعرف إن كانت تبادلني هذه المشاعر أم لا، لكنني الآن بت متيقنًا أنني لا أستطيع التخلّي عنها، حتى ولو اعترضني العالم.

-هيك نصيبي ... شو إعمُل .... أنا حبيتها، رغم أنها من ديانة تانية وما بتعرف إشِ عن عاداتنا .... بس كأنه اتعلقت بإختلافها

دون أن أدري، وجدتني أتحدث بهيامٍ عندما اخترقت أفكاري، فكانت الابتسامة الحالمة تتزين على ثغري ونبرتي الهائمة جعلت عاصي يراقبني بابتسامة هادئة لا أعرف إن كانت ساخرة لأنه أول مرة يراني بهذا الهيام، أم غير مصدقة لأنني أتحدث عن فتاة اسرائيلية بهذه الطريقة.

-لا تقلق .... أنا ما حكيتلا أبدًا عن المقاومة .... ولا حتى خبرتا عن يالـ بنساويه .... أنا داير بالي منيح

قُلتها بثقة وأنا أرفع من نبرتي تجاه عاصي الذي يزال يرمقني بابتسامة بلهاء أنهاها بتربيته على فخذي وكلماته الداعمة:

-أنا واثق فيك لا تقلق ... بس دير بالك منيح .... هدول اليهود .... مالن آمان أبدًا

قالها بتحذيرٍ أشبه بتعليمات الأم حينما تُحذر أبنائها من المخاطر، تفهمتُ تحذيره وطمأنته برأسي بأنني لا أثير شكوكها ولا أخبرها أي من أسرارنا، فأنا لستُ خائنًا في النهاية، وأتيقنُ أنها لن تخدعني.

بعد بُرهة وجيزة من الصمت بيننا، وجدت عاصي يبتعد عني راسمًا بسمة مرحة على ثغره وهو يُنهي الحديث:

-كانو يقولولنا بالجامعة إن الحُب بيخليك أعمى .... بس ما قالو إنه بيخليك أطرش كمان

قهقهت على دعابته التي كان يقصدني بها لأنني أرافق راموئيل رغم ما نراه ونسمعه عن اليهود والاسرائيليين، وبعد فترة، رحلٌ عاصي وعاد إلى المقهى، بينما استأذنتُ أنا لعدم رغبتي برؤية الزبائن، على الأغلب لا يزالوا يتهامسون علي وربما يسبونني أو ينعتونني بالخائن إذا اقتربتُ من المقهى.

أخبرني عاصي أن أعود إلى المنزل حالما يتدبر هو أمر الزبائن، قررتُ الرضوخ له وبدأتُ السير بعيدًا عن المقهى لكنني شعرتُ برغبتي في التجوٌل وعدم العودة إلى المنزل باكرًا، فربما تجوٌلي يساعدني على التخلص من تلك الأفكار التي تعصف بذهني وتجتمع مع ضغوطات الحياة التي لا تنتهي......

أحاول السير بهيامٍ وسط طُرقات المدينة، أتجنب الغرق أكثر في مُستنقع أفكاري، جميع الإشارات تجبرني على الابتعاد عن ذاك الطريق، جميعهم يقتنعون أن التحرير لن يأتي سوى باستخدام العُنف، وأنا أيضًا اعتقدتُ ذلك في بداية الأمر، لكنني الآن، وبعد أن اخترقت حياتي راموئيل، أصبحت متيقنًا أن بإمكاننا نقل رسالتنا للعالم والمطالبة بحريتنا.

لم أعُد أكترث لمَ يقوله الناس، ينعتونني بالخائن، لا يُهم، طالما أنني أؤمن بما أفعل، فلا تهمني آراء الجميع، لم أخن بلدتي ولم أتخلّى عن جنسيتي حتى، فلا يحق لأحدٍ أن يُلقي علي هذه الافتراءات.

كلما تعمقتُ أكثر بأفكاري، وجدتُ أقدامي تتحرك أسرع فأسرع، وكأنني في سباقٍ مع الزمن، استنشقتُ نسمات الهواء العليلة رغم القيظ الذي نعيشه، راقبتُ هرولة الأطفال ومرحهم الذي كان كفيلًا بجعلي آتناسى أوجاعي وأضحك على برائتهم بصورة تلقائية، كم وددتُ أن أعود طفلًا لألهو معهم بهذه الأريحية دون أن تكبلني تلك الأفكار.

وفي أقل من بضع ثوانٍ، انقلبت الأوضاع رأسًا على عقب، تناسيتُ للحظة أننا في فلسطين، نمو الأطفال ووصولهم إلى الشيَب، هو مُعجزة في حد ذاتها.

تبدلت أصوات الأطفال المرحة بأخرى مذعورة تبتعد عن هذه المدرعات والآليات التي تقتحم هذه القرية البسيطة، وكعادتنا المقاومة، بدأ شباب الحي بالتقاط الحجارة والقاءها على تلك المُدرعات، وبعض الرجال والنساء يقفون فوق المباني ويفعلون الشيء ذاته لعلهم يستطيعون إبعاد هذه الآليات المُدمرة عن حيَهم.

أتتذكروا حينما قُلت أن المسالمة قد تُجدِ نفعًا ؟ هذه القاعدة لا يجب اتباعها الآن، فما إن يقتحم العدو آراضينا، سنتناسى السلام، وسنبدأ بالدفاع عن أنفسنا بأي طريقة ممُكنة.

تلفتُ حولي في تيهٍ وتخبطٍ يجعلني أتشتت ولا أعرف ماذا أفعل، أصبحتُ في هذه اللحظة بمنتصف معركة لا أفقه عنها شيئًا، بدأت الطلقات النارية تنبعث من أسلحة الجيش على المدنيين الذين لا يمتلكون سوى الحجارة.

تغلغلت الدماء في عروقي وقتها وتكاثرتُ الأدخنة والأصوات المذعورة والمتأوهة التي آعادتني إلى سنواتٍ قديمة، حيث اليوم الذي استُشهد فيه والدي!!

تناثرت الدماء حولي حينما آصابت النيران مجموعة من الشباب الشُجعان، وقتها وصل غضبي إلى ذروته فأحنيتُ جذعي لألتقط حجارة كانت أسفل قدمي حتى ألقيها على هذا الجندي اللعين.

رفعتُ الحجارة لأعلى بكل غلٍ أعتمره وكدتُ ألقيها لولا....

تيبس جسدي كالذي تحوّل إلى تمثالٍ من الشمع، تسارعت نبضات قلبي وبدأت تتهشم وتتحوّل إلى شظايا صغيرة، شعرتُ بوغزة تخترق صدري ونيران تتكبد بفؤادي، لا أصدق أن تلك الوعود كانت كاذبة، لا أصدق أنني آرى راموئيل، تقف بين الجيش ومعها سلاحها!!

لم أتحرك قيد أنملة وتراخت عضلات جسدي حتى سقطت الحجارة التي كُنت أحملها، ودتُ أن أصرخ بها وأصفعها على خداعي، ألم تُخبرني أنها لم تعُد تذهب إلى الجيش ؟ أكانت تخدعني طوال هذه الفترة ؟ كيف وهي طوال الليل والنهار تبقى معي ؟ أكان بقاءها معي جزءًا من وظيفتها ؟

تصاعدت أنفاسي أكثر وأردت البكاء والصراخ لكن دموعي تأبى التحرر بعد أن شلّتها الصدمة وأحرقتها نيرانُ الخُذلان، كيف كُنت أبلهًا لهذه الدرجة ؟ لمَ لم أستمع إلى حديثهم وأبتعد عنها، أنا مجرد ساذجٍ حقير، سمحتُ لهذه اللعينة أن تخترق حصون قلبي، وأنا الذي ظننتها بريئة تحاول العثور على الحقيقة، اتضح أنها تعثر على مزيدٍ من المعلومات.

تحوّلت نيران قلبي إلى غضبٍ عارم كاد يُحرق الأخضر واليابس، قبضتُ أكثر على الصخرة وعزمتُ على تصوّيبها على راموئيل لأنتقم منها على خداعها، لكن فجأة .... أوقفني هذه المرة صُراخ طفلٍ صغيرٍ يئن من الوجع.

ألقيطُ الحجرة عنوة وكانت حركاتي مذعورة خائفة وأنا أرى هذا الطفل الصغير ملقيًا على الأرض بعد أن تلقى رصاصة في معدته وجعلته يئن من الوجع ويكاد يلتقط أنفاسه الأخيرة، ولأنني تعلمتُ الإسعافات الأولية، فكان يجب أن أنقذه بسرعة، خاصة وأنا أعرف هذا الطفل جيدًا.

-أكـــــرم!!

صرختُ بأعلى صوّتٍ لدي حتى يستمع لي أكرم ولا يشعر بالاحباط، تحمل يا صغيري حتى آتي إليك وأنتشلك من هذه الحرب التي لا دخل لك بها.

هروّلتُ بأقصى ما لدي متجاهلًا النيران التي يطلقها طرفُ واحد ويقابلها المقاومون بالحجارة، كانت المُدرعة تقف قبالة القرية ولا أعرف لماذا توّقفت عن الحراك، يبدو أن هذه القرية هي هدفهم الثاني.

واصلتُ مناداة أكرم حتى لا يستسلم للموت ويُغلق عينيه، وأثناء هرولي، اخترق أذناي صوّت رصاصة تتجه نحوي ولا أعرف مصيرها!!

الفصل السابع (الوجه الآخر للعبودية)

((راموئــيل))

14يوليو 2015   أورشليم : اسرائيل

عندما تحيا في عالمٍ يسوده الظُلم، تأكد أنك لن تستطيع استمالته للصواب، فالرؤوساء ظالمون، والمرؤوسون بمثابة عبيد، لا يفكرون سوى في كيفية النجاة من هذا العالم، حتى ولو تطلب الأمر اتباعهم للرؤوساء والانصات لهم دون تفكير.

هكذا كُنت في البداية، قبل أن يظهر عبود بحياتي ويجعلني أرى العالم من منظورٍ آخر، انتشلني من الغيبة والضباب، وآراني ما غفلتُ طوال حياتي عن رؤيته، جعلني أتأكد أن محاولاتي الواهية للنجاة لم تكن سوى إلحاق الأذى بالآخرين، وحانت اللحظة حتى ينتهي كل ذلك، ويسود العدل بين الجميع.

انتشلتُ ستُرتي الزيتية من الخزانة عازمة على ارتدائها فوق بنطالٍ أسودٍ فضفاض، أمسكتُ الممشط لأمشط خصلاتي البنُية وأرفعها على ذيل الحصان بسبب حرارة الطقس، والتي لا أتحملها بتاتًا بسبب طبيعتي الأوروبية.

وللعجب، اكتشفتُ أن اسرائيل من أكثر الدوّل إصابة بسرطان الجلد، وهذا ببساطة، لأن جلودهم الأوروبية لا تتحمل حرارة الشرق الأوسط، أكد لي هذا أننا بالفعل لسنا من هنا.

قطع حديثي الداخلي دخول والدي _ أو اقتحامه_ لحجرتي، كانت نظراته تنم عن الغضب والغيظ، لكنني رمقتها بلامبالاة، هذه النظرات باتت اعتيادية مُنذ تركتُ الجيش.

-هذا آخر إنذار لكِ راموئيل .... يجب أن تعودي إلى الجيش الآن .... وإلا أصدرتُ مذكرة باعتقالِك

رغم حديثه المُهدد، إلى أنني حافظتُ على ثباتي وأنا أتشدق:

-إفعل ما بدالك .... أنا لن أعود

استدرتُ مجددًا نحو المرآة وواصلتُ تجذيب خصلاتي ونثر العِطر على ملابسي متجاهلة والدي الذي أكاد أجزم أنه يشتعل الآن من إصراري.

-حسنًأ راموئيل .... افعلي ما شئتي .... لكن لا تبكي فيما بعد إذا حدث مكروهٌ لهذا العربي الذي تُرافقينه

اتسعت حدقتاي في ذعرٍ تصلبت معه أهدابي، هل يقصد عبود بحديثه ؟ هل عرف الحقيقة!!

التفتُ بسرعة صوّبه لأجد التشفي باديٌ على ملامحه وهو يقول:

-ماذا ؟ .... هل اعتقدتي أنني لن أعرف ؟ .... رأيتكِ أكثر من مرة وأنتِ معه من خلال أجهزة المراقبة

ازدردتُ ريقي في توترٍ وبدأت أنفاسي تتصاعد وتختنق تدريجيًا، أعلم جيدًا أن والدي لن يُمرر الأمر مرور الكرام، وربما يأمر رجاله بأذية عبود!!

-أبي أرجوك .... لا تجعل رجالِك يقتربون منه

كادت دموعي تنحدر وأنا أتوسل إليه، كم شعرتُ بالمهانة وأنا أكاد أُقبل يده حتى يبتعد عن عبود، فلا دخل له بالأمر، لكن والدي تجاهل توّسلاتي وقال بتهديد:

-إذا أردتي له النجاة .... عليك تنفيذ الأوامر....

هكذا انتهى حوارنا، انتهى بارتدائي ملابس الجيش مُرغمة وجلوسي داخل المُدرعة لتنفيذ الأوامر، كان الغضب بادٍ على وجهي، عكس الحماس الذي كان ينتابني في مثل هذه المهام، أخبرنا القائد أننا سنعتقل مجموعة من الإرهابيين، وأكد لي تحديدًا أن

لا أحد سيتأذى، تبدد القليل من غضبي بعد حديثه، لكنني أيضًا عزمتُ على إيقافهم ومحاولة تهريب " الارهابيون " الذين أعرفهم جيدًا وأعرف أنهم مقاومون.

السبب الآخر لموافقتي هو رغبتي في إعلان العصيان، سأبتعد نهائيًا عن الجيش هذه المرة، لكنني سأبتعد بعد أن أفسد عمليتهم وأحدث انقلابًا، لن أوافق على تهديدي الدائم من قِبل والدي، ولن أشعر بالراحة وأنا في ذاك المنزل، ربما سأتخفّى بين الفلسطينيين حتى أعثر على طريقة للسفر ومن بعدها سيصطحبني عبود بعد أن أقوم بإقناعه، يمُكننا نشر رسالتنا ونحن في دولة آخرى حتى لا يتأذى كلينا.

تحركت المُدرعة وداخلها مجموعة من الجنود يتسامرون فيما بينهم حالما تصل المُدرعة والآليات إلى وجهتهم، اغتابني بعض الشك لوهلة من كثرة الآليات والجرافات التي لا أعرف فائدتها، أكل هذا من أجل إلقاء القبض على مجموعة من الشباب ؟

كُنت سأشُك بالأمر أكثر لو أننا لسنا باسرائيل، لكنني استنتجتُ أن هذه العربات ما هي سوى شكلياتٍ هدفها إحداث الذعر بين المدنيين، فبإمكاننا إلقاء القبض على طفلٍ بالسابعة من عُمره ونحنُ نتحرك بهذه المدرعات والأسلحة المُدمرة، فمُهمة هذا الجيش ليست فقط قتل الفلسطينيين والقضاء عليهم، فما أهم من ذلك هو بث الرُعب في قلوبهم.

أمسكتُ ببُندقيتي وأركنتها بين فخذاي لأغرق في حالة من الشرود والتفكير في كيفية إعلان العِصيان وتدمير مُخططاتهم، علي أن أعثر على طريقة لتهريب المُعتقلين من بين هذه الآليات، وأثناء انغماسي بالتفكير، قطعني صوّت إليازار وهي تتحدث مع يوشعنون بنبرة متلهفة:

-وأخيرًا أُمرنا بكيسوفيم .... لا تعرف كم أحب هذه المهام

جحظت عيناي مرة واحدة والتفتُ نحوهما لأعيد على مسامعي ما قالاه، كلمة " كيسوفيم " جعلت النيران تتدفق بأوردتي، وعندما تكون المُهمة كيسوفيم، هذا يعني أننا في طريقنا لتدمير البنية الأساسية للأراضي الفلسطينية، أي أننا لم نأتي هنا لاعتقال الشباب، بل جئنا لتدمير منازل مجموعة من الأبرياء!!

قبضتُ على سلاحي فورًا وأنا أشعر بغضبٍ عارم، ليس فقط لأننا جئنا لتدمير القُرى، بل لأنهم تعمدوًا خديعتي، رفعتُ السلاح صوّب زملائي وأنا أصرخ بهم في غضب:

-لا أحد سيُنفذ كيسوفيم .... أوقف المدرعة

وجهتُ فوهة السلاح نحو السائق وأجبرته على إيقاف المُدرعة في قرية بسيطة بالقُرب من أورشليم، ما إن توّقف السائق حتى شعرتُ بالحجارة التي يتم إلقاءها علينا من أهل القرية والمدنيين، وحتى الأطفال كانوا يدافعون عن قريتهم ببسالة.

انطلقتُ كالسبع الغاضب ووقفتُ أعلى المُدرعة أرفع سلاحي على الجنديين اللذان يقفان أعلى المدرعة ويُطلقون النيران على المدنيين بحُجة " الدفاع عن النفس من الحجارة"

تصاعدت أنفاسي أكثر وأنا أرى الجثث تتناثر على الطريق، من بينهم طفلٌ صغيرٌ يئن من الوجع ويكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، وامرأة لقت حتفها بواسطة رصاصة اخترقت جمجمتها.

-ألقي سلاحك يوفيــل

صرختُ بهذا السادي عديم الإنسانية حتى يُلقي سلاحه ويتوقف عن قتل الأبرياء، لكنه رماني بنظراتٍ محتقرة ورفع سلاحه أمام وجهي حتى بات كلانا يرفع السلاح قبالة الآخر.

تصلبتُ نظراتي المتحدية أمام نظرات يوفيل الحاقدة وكنت على وشك ضربه بسلاحي لولا عيناي التي التقطتا عبود، كان يقف على بُعدٍ منا يرميني بنظراتٍ مُنكسرة لن تذهب عن بالي أبدًا، نظراتٌ تحمل مزيجًا من الخُذلان والتحطُم، كنت أريد أن أخبره أنني أرغمت على المجيء وأنني جئتُ فقط لأوقف مخططاهم، أقسم أنني شعرت بخنجرٍ ينحر عُنقي ويُغرق الأرض بدمائي بسبب هذه النظرات.

تراخت عضلاتي مرة واحدة أمام نظراته، وتصاعدت وتيرة أنفاسي حتى عاود الغضب زيارتي، رفعتُ بندقيتي لأعلى حتى أهوي بها فوق رأس يوفيل لولا هذه الصخرة التي ألقيت بيننا واختل توازني إثرها، وما كان من يوفيل سوى التفاتته السريعة صوّب مصدر إلقاء الحجارة ليُطلق رصاصتين متتاليتين آصابت أحد المدنيين .... وكان الهدف هو .... عبود.

-عبــود!!

صرختُ باسمه حتى تحشرجت حنجرتي، هوّى جسده على الأرض بعد تلقيه لرصاصتين متتاليتين آصابت صدره مباشرة، ألقيتُ بندقيتي على الأرض بقوة شعرتُ معها أنها تهشمت ولم تعُد تصلح للاستعمال، تجاهلتُ الحجارة التي تُلقى علي وواصلتُ الهرولة بدموعٍ تنهمر على وجنتي.

جثوّت على الأرض قُرب جسد عبود المُلطخ بالدماء وكان يرميني بنظراتٍ مُحطمة حاول معها الحديث بصعوبة، ضعُفت نبضاته أكثر وقلّت أنفاسه مما زادني ذعرًا وجعلني أنخرط في البكاء وأحاول ترجيه بكلماتٍ متقطعة عربية:

-عبود لا تتركني بترجاك .... أنا راح ساعدك لا تقلق

رفعتُ ذراعه عن الأرض ووضعتُ يدي أسفل عُنقه لعلي أستطيع رفعه عن الأرض وإسعافه بأية طريقة، لكن محاولاتي كانت هباءً، فجسدي الهزيل لم يستطع رفعه عن الأرض، كما أن نبضاته بدأت تسكن تمامًا، وأنفاسه تتلاشى حتى شعرتُ بتوّقفها نهائيًا.

تركته على الأرض بخيبة أمل، وبدأتُ تحريكه واستشعار نبضاته المُنعدمة، حتى هذه اللحظة، لم أكن أصدق أنه رحل عن الحياة، لم أكن أصدق أنه تركني في مُنتصف الطريق، بعد أن جعلني أرى الحقيقة، وأشعُر بالانسانية.

-عبود فتح عيونك ... فتح عيونك....

انهمرت الدموع على وجنتي أكثر وأنا أحرك جسده وأعتذر، أعتذر لأنني السبب في كل ذلك، فكانت مُهمتنا هي تدمير القرية التي يسكن بها عبود وربما كان من ضمن الأوامر أن يقتله الجنود، وهذا كله بسببي، حتى يُبعده والدي عني ويُعيدني إلى الجيش، يعتقد أنني بهذه الطريقة سأخضع لهم مجددًا.

-من شان الخالة بيسان فتح عيونك .... هي ما راح تقدر تعيش من دونك....

ازدادت وتيرة بكائي أكثر وانهمرت دموعي كشلالاتٍ على جسده حتى اختلطت بدماءه، وجدتني أحتضن جسده ولا أكترث لدماءه التي غطت يداي وملابسي، فقط أحتضن جثته وأبكي على صدره بصوّتٍ مُرتفع.

كُنت أرسم مخططاتٍ لرحيلنا واستكمال رسالتنا، كنا فقط نُريد أن ننشر السلام والمحبة، لماذا العالم يقتل دعاة السلام ؟ لماذا العالم يقتل الإنسانية ؟

تشبثتُ بجسده أكثر حتى شعرتُ بالأيادي تنتشلني عن الأرض، استنتجتُ بعدها أن مجموعة من الجنود أتو ليدفعوا جسدي بعيدًا عنه، فإذا التقطت الكاميرات ما أفعله أمام الملأ، ربما يختل نظام الدولة.

بقي الجنود يدفعونني عنوة بعيدًا عن جسده حتى التقطتت عيناي هذا الطفل الصغير الذي سكُنت حركته تمامًا وانتقلت روحه إلى بارئها، جثة عبود وجثة هذا الطفل الصغير الذي أعتقد أنني رأيته ذات مرة، جعلتني أحاول دفعهم بعيدًا عني وأنا أصرخ بهم بهيستيرية:

-قاتلون .... قاتلون .... ابتعدو عني ... ابتعدو عني....

لم يكترثوا لصراخي وبقيوا يجذبونني على الأرض صوّب المُدرعة التي استقليتها عنوة وتم إعادتي إلى منزلي بأمرٍ من القائد....

-هل جننتِ ؟ ..... كيف تبكين على جسد واحدٍ من هؤلاء الارهابيون ؟

يصرخ والدي بوجهي بهذه الكلمات بعد عودتي إلى المنزل ووقوفي في البهو أرمقه بأعينٍ مُنتفخة حمراء ونظراتٍ تكاد تنفجر وتتحوّل إلى نيرانٍ هاجرة، أبعد كل هذا يقول عنهم ارهابيون ؟ أقسم أنه لا يوجد إرهابيُ غيركم.

-هذه هي نتيجة تدليلي لكِ .... كان يجب أن أجعلهم يُلقوا بكِ في السجن بدلًا من هذه المهزلة

تصاعدت وتيرة غضبي حتى وجدتني أنفجر بوجهه:

-هل تشعر بالسعادة الآن ؟.... أهكذا تشعرون بالسعادة .... حينما تقتلون الأبرياء !!

-عن أي أبرياءٍ تتحدثين ؟.... هذا الغبي كان يستغلكِ أيتها الحمقاء

-لا تنعته بالغبـــي

تحوّل وجهي إلى كتلة من اللهب وأنا أصرخ بوالدي ويصرخ هو بي حتى كادت أصواتنا تخترق الجُدران.

-توقفوا عن الكذب .... ألا تشعرون بالخزي وأنتم تنشرون الحقد والكراهية بيننا .... أنتم جعلتمونا حمقى من أجل مطامعكم، جعلتمونا مجرمين من أجل أهوائكم .... أنا لا أكره بحياتي أكثر منكم

رفع سبابته أمامي بنظراتٍ متقدة قال معها:

-إصمتي .... نحن لم نجعلكم مجرمون .... نحن ننُفذ ما كُتب في التوراة .... وما كُتب علينا هو إعادة امبراطوريتنا المجيدة وهدم هذا المسجد

هدأت نبرته قليلًا واقترب نحوي وهو ينُظم أنفاسه ويقول لي بتحذيرٍ زائف:

-عودي إلى حقيقتكِ راموئيل .... وتوّقفي عن معاداة السامية

هنا ولم أعد أتحمل خاصة بعد هذه الجملة التي بت أمقتها ولا أصدقها، فعندما تقل تبريراتهم يبدأو باتهام الآخرين بـ" معاداة السامية"

-كفى هذه الكلمة ..... لا أحد يُعادي السامية غيركم .... تبًا لكم ولهيكلكم اللعين

بصقت هذه الجُملة بصراخ جحيمي ثم اندفعتُ صوّب حجرتي لأرتكن بداخلها وأصفع الباب ورائي صفعة كادت تُحطمه، وما إن بقيتُ وحدي حتى تهدمت حصوني وتهاوت قلاع الغضب التي كنت أحتمي بها أمام والدي وأمثال والدي.

ارتميتُ على الفراش وأنا أنتحب بصوّتٍ مُرتفع حتى تكوّمت عليه كالجنين، أفكر بعبود ونظراته المنكسرة، أفكر بحنانه وشهامته رغم اختلافه عني، أفكر في قصة حُبنا التي لم تكتمل، قصة حُب كان مُقدر لها أن تتوّج بزفافٍ رائع يليق بكلينا، لكن قسوة العالم حالت بيننا وبين هذا الزفاف، وكأن العالم اجتمع على القضاء علينا.

تذكرتُ حينما قال لي عبود أنه لا يتمنى أن تنتهي حكايتنا مثلما انتهت حكاية روميو وچولييت، وها قد تحققت أمنيتك يا سارق القلوب، لم تنتهي حكايتنا مثلما انتهت روميو وچولييت .... بل انتهت بطريقة أسوأ.....

16يوليو 2015 أورشليم : اسرائيل

ليومين كاملين أتكوّم على الفراش ولا أبرحه نهائيًا، بكيتُ حتى جفت دموعي وأصبحت عيناي حمراء دامية وأنفي لا يختلف عنها احمرارًا، لو كان عبود هنا لما سخر مني وأخبرني أنني أصبحتُ بهلوانًا.

احتضنتُ الوشاح الفلسطيني الذي ابتاعه لي عبود عندما رفض أن يجعلني أنفق ما بجعبتي، كان دائمًا ما يعاملني بلُطف، لم يكن يجعلني أنفق أي من أموالي وأنا معه، رغم أنني أعلم جيدًا كيف يجد صعوبة باقتناء الأموال، ووالدته .... آهٍ على قلب هذه المسكينة، كيف ستتحمل فراقه ؟

كيف ستتحمل أنني _ بعد أن ظنتني ابنتها_ تسببتُ بوفاة قرة عينها، فبعد هذه الواقعة، انتشر مقطع لي وأنا أبكي على جثة عبود وأرفض الابتعاد عنه، وكان المقطع بعنوان " شاهد مجندة اسرائيلية تبكي على جسد شابٍ فلسطيني ... بعد أن قتلته بدمٍ بارد"

لكن والدي، رفض انتشار هذا المقطع وسلّط جميع وسائل التواصل الاجتماعي حتى اختفى تمامًا عن الساحة، وبقيت معاملاته الجافة معي، لا أنكر أنه حاول البارحة أن يُعيدني إلى " صوابي " لكنني رفضتُ وصرختُ بوجهه فتركني على راحتي.

لم أبرح الفراش طوال هذين اليومين ولم أضع في فمي أي من الطعام والشراب، شعرتُ أن جسدي قد التصق بالفراش ووسادتي أصبحت سحابة مليئة بالدموع على وشك الإمطار، انتابني النوم في تلك الليلة بعد أن أرهقتني أفكاري وذكرياتي، وعندما استيقظت، كانت الرؤية مشوشة، لا أعلم إن كان هذا بسبب عيناي التي يغشاهما الدموع، أم أنني بدأتُ بالهذيان من شدة الحُزن.

-نيچار ... أمازلتِ نائمة ؟

اخترق هذا الصوّت الحنون حلمة أذني وجعلني أحاول الانتباه إلى مصدره.

-من أنت ؟

قُلتها بصوّتٍ واهنٍ لتغتابني ابتسامة هادئة أعرفها جيدًا، كيف لا أعرفها وهي ابتسامة ... عبود!!

-لا تبكي راموئيل .... أنا بجوارِك

انهمرت دمعة واهنة على عيني وأنا أرى ابتسامته المُشرقة ووجهه المُستنير، أعرف أنه ليس هنا، وأنه من وحي خيالي لكنني مع ذلك تحدثتُ معه وكأنه يجلس معي بالفعل:

-لكنك قُتلت بسببي .... أنا آسفة

كان صوّتي متقطعًا نادمًا بددته ابتسامته الراضية وهو يقول:

-أنا لم أقتل .... أنا استشهدت .... أي أنني في مكانٍ أفضل

-لكنني السبب

تحشرج صوّتي مجددًا وامتزج ببكائي واحتضاني لهذا الوشاح.

-ششش .... لا تلقي اللوم على ذاتِك .... أنتِ بإمكانِك تغيير العالم، أليس هذا ما أخبرتني إياه ؟

ذكّرني بوعدي الذي قطعته عليه في إحدى جلساتنا مما جعلني أوميء برأسي وأستمع إلى بقية كلماته:

-لن تُغيري العالم وأنتِ تبكين على الفراش .... هيا راموئيل .... استيقظي، لا تدعي الضيق يقف عُثرة في طريق حُلمنا

وثب عبود عن الأرض وبدأ يتقهقر بضع خطواتٍ للوراء لأثب بجذعي عن الفراش وأنا أقول بترجٍ:

-أين ستذهب ؟ .... لا تتركني وحدي

اتسعت بسمته الساحرة وهو يقترب أكثر نحو الباب متفوهًا:

-لا تقلقي ... أنا هنا بجوارِك .... فقط تذكري ما أقوله دائمًا....

استقمتُ بجذعي أعلى الفراش أتابعه يبتعد عني رويدًا رويدًا وهو يُنهي حديثه العابر:

-لا أحد يعرف متى ستنتهي الحرب ... لكن الجميع يعرف كيف ستنتهي

اختفى بعد هذه الجُملة التي أيقظتني من غيبوبتي المؤقتة، لا أحد يعرف متى ستنتهي الحرب، لكن الجميع يعرف كيف ستنتهي، ستنتهي بانتشار العدل، باستعادة الحقوق، بانتصار الخير، ولن ينتصر الخير بالبكاء على الأطلال، يجب أن نتحرك، يجب أن نُسرع من مُدة هذه الحرب، سنجعلها تنتهي للأبد، ويسترد عبود وبقية الأبرياء حقوقهم.

وثبتُ عن الفراش بنظراتٍ متُقدة مليئة بالتحدي، أعدتُ الوشاح إلى الخزانة واتجهتُ فورًا إلى المرحاض، إن كنت بالفعل أهيم بعبود، فلن أجعله يشعر بالخُذلان مرة أخرى، سأنفذ ما خططنا له سويًا، سأجعل حلمه حقيقة.

انتهيتُ من غسل وجهي ومحاولة إزالة ما بقي من آثار البكاء، خرجتُ بعدها من الحجُرة بعد ارتدائي لكنزة بيضاء تحمل نقوشًا بسيطة أسفلها سروالٍ من الجينز الفاتح، تركتُ شعري منسدلًا على كتفي قبل أن أترك الحجرة بنظراتٍ جامدة أحاول تنفيذ مخططي القادم.

كان والدي يجلس مع أحد معارفه لا أعرف عمَ يتحدثان، فلا يبدو لهذا الرجل أنه من عُمر والدي، فكان رجلًا يافعًا ذو ملامح جذابة تخطف الأنظار.

على كُلٍ، لا وقت لتأمل ملامح هذا الوسيم، فالمظاهر الخارجية خداعة، خاصة هنا.

-شالوم

قُلتها بابتسامة مُرحبة حتى ينتبها إلي؛ تفاجأ والدي من إشراقتي مما جعله يبادلني التحية باستفسار:

-شالوم عزيزتي .... هل انتهيتِ من بكاءكِ ؟

تجاهلتُ نبرته الساخرة وأنا أرد عليه بثبات:

-نعم.... كنت على حق .... لا يجب أن أبكي على أولئك الأوغاد

تبعت حديثي ببسمة متشفية جعلت والدي يرمقني بفخرٍ ويقول بقرارة نفسه : ها هي بُنيتي تعود إلى صوابها، أما صديقه، فكان يثب عن الأريكة ويصافح والدي باستئذان، يبدو أنه آراد أن يتركنا لنتحدث في تلك الأمور " العائلية"

-إجلسي راموئيل

دعاني للجلوس على الأريكة بجواره لعله سيُخبرني بأمرٍ طاريء:

-أخبرتُ السيد أيزنعوت أننا سنذهب إلى تل أبيب حتى يوفر لنا منزلًا هناك .... وأنتِ بالطبع ستأتي معي وستبتعدي عن الأراضي الفلسطينية ... أليس هذا ما أردتيه ؟

لم أنبس ببنت شفة واكتفيتُ بالإيماء برأسي بخضوع:

-سأخدم هناك لفترة مؤقتة وأنتِ أيضًا ستعملي بوحدة أخرى هناك .... وسنعود كلانا إلى أورشليم بعد شهرين أو أكثر

وثبتُ عن الأريكة وأنا أوميء برأسي بموافقة قُلتُ معها بطريقة متلهفة:

-حسنًا والدي .... سأضب أمتعتي إذاً.....

____

أصبحت السماء كحلية داكنة يلمع من بينها بعض النجوم الزاهية، وفي تلك البقعة التي أسير بها تزامنًا مع صوُت الآذان الذي يصدح من أحد المساجد، نسمات الهواء العليلة تتضارب سويًا وتجعل اوراق الشجر تتلاطم كالأمواج، كانت الاضاءة خافتة في هذه القرية ذات المنازل الصغيرة، ليست قرية بالمعنى الصحيح، بل هي مُخيم، مخيم جنين.

توقفت أقدامي صوّب أحد المنازل التي أعرفها جيدًا، منزلُ صغيرٌ من الطوب، طرقت على الباب وانتظرتُ بضع دقائق حتى فتح لي رجلُ بالعقد الثالث يرتدي جلبابًا أبيضًا ويبدو أنه على وشك ترك المنزل.

-مسعود ؟

سألته حتى أتأكد فكان يوميء برأسه إيجابًا وعلى وجهه إمارات الحيرة حتى سأل:

-مين حضرتِك ؟

سرقتُ نفسًا عميقًا ثم أطلقته لأحافظ على ثباتي وأنا أجيب:

-نيچار .... اسمي نيچار .... جايِ من طرف عبود....

أحنيتُ رأسي بضيقٍ وأنا أواصل بنبرة خافتة:

-ربنا يرحمه

أسبل بعينيه لأسفل وهو يدعو له بالرحمة ولم يرفع نظراته نحوي حتى أردفتُ:

-أنا بعرف كل شي عن الجيش...

لم أشأ أن أخبره أنني كُنت أعمل بجيش الدفاع الاسرائيلي وأنني أمرتُ بالذهاب إلى منزل مسعود وإلقاء القبض عليه لأن القوات الاسرائيلية اشتبهت به وقالت أنه إرهابيًا بعد أن التقطته أجهزة المراقبة وهو يُلقي إحدى القذائف على مجموعة من المستوطنين المسلحين، ولأنني أعرف معنى كلمة إرهابيٍ في قاموسهم، مزقتُ مذكرة اعتقاله وحميته من براثن المعتقل، فشابُ يافعُ مثل مسعود، يجب أن يواصل القتال من أجل الحُرية.

لم يُخبرني عبود عن أي من رجال المقاومة ولم يأتي بذكرهم حتى، لكنني رأيتُ مسعود يتردد على المقهى الخاص بعبود أكثر من مرة مما جعلني أستنتج أنهما

يعرفان بعضهما بعضًا، وبما أن مسعود من المقاومين، هذا يعني أن عبود له علاقة بحركات المقاومة.

-كيف بتعرفي ؟

سألني ببعض الشك فحاولتُ إخفاء الحقيقة ضمنيًا بقولي:

-ساويت حالي يهودية .... وهنن جندوني بالجيش .... فينا نتعاون

لازالت عوالم الاستنكار والشك على ملامحه وهو يسأل:

-كيف فينا نتعاون ؟

رفعتُ قامتي لأعلي وأنا أسرق نفسًا عميقًا وأطلقه لأنني على شفا جرفة من ارتكاب أكثر الأمور خطورة.

-بدي انضم لحركة المقاومة.....

____

17يوليو 2015 تل أبيب : إسرائيل

أنا الفتاة التي لطالما آمنت بدولتها وحكامها، حتى اصطدمت بالواقع المرير، واقع يخلو من العدل والمساواة، حيث يعيش الجميع تحت وطأة الاحتلال، ولا أعني هنا أن تُسيطر عليك دولة وتضطدهك بشتى الطُرق، فاليهود لا يتم اضطداهم هنا، بل يتم استعبادهم.

أدركتُ أن جميعنا محتلون، عقولنا لا تعرف معنى الحرية، فقط نسير خلف التيار منعًا للمشاكل، حتى وجدنا أنفسنا عبيدًا لهذه الأنظمة السادية، ومن يُفكر بالانحراف عن قواعدهم، لا يلقى سوى الذُل والمهانة.

لهذا السبب قررتُ ألا أنحرف، قررتُ أن أنفذ حُلمنا أنا وعبود، أقسم أنني سأجعلهم يدفعون ثمن دمائك الطاهرة التي انسكبت على هذه البلدة المُقدسة، أقسم أنني سأجعلهم يدفعون ثمن دموع والدتكِ التي تبكيك رثاءً وتتذكرك بين الحين والآخر، سأدفعهم ثمن قتلهم للبراءة وقتلهم للحرية.

الفرق أنني سأتبع أسلوبهم، سأهمهم أنني عبدتهم المُخلصة، وسأطعنهم من وراء ظهورهم، سأريهم الوجه الآخر للعبودية....

كان هذا أول يومٍ لنا في تل أبيب، سنبقى هنا لفترة وجيزة ربما تمتد لثلاثة أشهرٍ أو شهرين، وهذا لأن والدي لديه بعض الاجتماعات مع القادة ورجال الدولة، أما بالنسبة لي، لم يؤثر بي الأمر مُطلقًا، ربما أستفيد من الأمر عن طريق بقائي مع القادة الكبار ومعرفتي لخططهم المستقبلية المدُمرة والمستعمرة أيضًا، سأفعل ما بوسعي حتى تنزاح الأقنعة عن وجوههم.

قطع شرودي وانغماسي بالتفكير، أصواتٌ مرتفعة ومتداخلة تقترب من بوابة المطار، المطار الذي كنا نقوم بحراسته وتأمينه أنا وبقية الزُملاء، صدح صوّت اللاسلكي الخاص بي فاستمعتُ إلى تلك الأوامر التي تقول أن هناك مجموعة من الإرهابيين أحدثوا جلبة وتسببوا بذعر المسافرين، لكنهم الآن، بين يدي حاييم الذي استطاع إلقاء القبض عليهم وعلى وشك أخذهم إلى سيارة الترحيلات، فعلى ما يبدو أن أولئك الإرهابيون لا يحملون الجنسية الاسرائيلية.

لاحت بسمة مُنتصرة على ثغري بعد أن فكرتُ قليلًا في هذا الأمر، ها قد أتت فرصتي لأنتقم منهم جميعًا، هؤلاء الإرهابيون هم هذه الفرصة، فإذا أردت نشر الفساد، استعن بالفاسدين، وبالطبع سيُساعدونني في تلك المهمة، ما إن أقوم بتحريرهم.

تحفزت حواسي أكثر ما إن تطرقتُ لهذه الأفكار وهرعتُ فورًا إلى الداخل حيث ظهر حاييم واثنين من الضُباط لا أعرف اسمهم، لكنني كُنت الأعلى رتبة من بينهم لذلك هتفتُ بلكنة آمرة:

-حاييم .... اتركهم .... سأتولى أنا أمرهم .... هكذا أخبرني القائد

اعتقدتُ في باديء الأمر أن هؤلاء الإرهابيون هم رجالٌ بأجسادٍ ضخمة وملامح مُخيفة، لكنني تفاجئتُ حينما أبصرتُ فتاتين يبدوان بمنتصف العقد الثاني ورجلين آخرين لا يبدو عليهما الخطر، باستثناء هذا الرجل ذو اللحية والنظراتُ الثاقبة، وهو الوحيد الذي بدا وكأنه يحاول المقاومة.

استجاب حاييم لأوامري باستنكار ثم تبعه زملاءه وتركوني مع هؤلاء الغُرباء، كانت يداهم لا تزال مُكبلة بالأغلال فاقتربتُ منهم وحللتُ وثاقهم تنفيذًا لخطتي الانتقامية، فرغم أنهم لا يبدو عليهم ملامح الإرهاب، إلى أن هذا لا يمنع أنهم قاموا بسطوٍ على الطائرة وركابها !! هذا ما أخبرني به حاييم قبل أن يرحل، وهذا يعني أنهم خطرُ على العالم، وغنيمة بالنسبة لي.

كُنت أعرف أنهم لن يتحركوا من أمامي بعد أن أحلّ وثاقهم، لأنه ببساطة، نحنُ محاطون بالعديد من الضباط والحواجز الأمنية، هذا يعني أن خطوة منهم ستساوي تكبيلهم وترحيلهم من هنا، لهذا السبب هم بحاجة لي، كما أنني بحاجة لهم أيضًا، لكن يجب أولًا أن أعرف هويتهم.

-جواز السفر ؟

وجهتُ سؤالي الصارم صوّب الفتاة التي تضع حجابًا على شعرها مما أخبرني أنها تعتنق الإسلام، وربما أيضًا من دولة عربية، فملامح العرب مميزة، لكن الفتاة الثانية ذات الشعر الذهبي لم تكن ذات ملامح عربية، بل كانت ملامحها أوروبية خالصة، وكانت تتلفت حولها بارتباكٍ عكس تلك الفتاة التي ترميني بنظراتٍ مُبهمة استشفيتُ معها أنها لا تفهمني، كيف ستفهمني وأنا أتحدث أمامها بالعبرية ؟

-جواز السفر من فضلِك ؟

أعدتُ سؤالي باللغة الإنجليزية لعلها لغة شائعة يتحدث بها الجميع، فلازلتُ غير متأكدة أنهم عرب، بدأت الفتاة ذات الحجاب بالعبث في حقيبتها قليلًا حتى أخرجت أمامي جواز سفرٍ فرنسيٍ مدته نحوي لتزيدني شعورًا بالحيرة، إذا هم فرنسيون!!

فتحتُ الجواز لأتأكد من هوٌيتهم وكان اسم هذه الفتاة ..... رحيل ميمون!!

الفصل الثامن (انقلاب في تل أبيب)

((إيمان))

17يوليو 2015   تل أبيب : فلسطين المُحتلة

أتعرف ما هو شعورك حينا تجتمع الراحة مع الخوف ؟ نعم، هذا ما كنت أشعر به وأنا على متن هذه الطائرة، أشعر بالراحة لأنني أخيرًا تركتُ فرنسا في سلام_ أو إلى حدٍ ما_وأشعر بالرهبة مما سأقبل عليه، فأنا في طريقي نحو التهلكة، في طريقي لمواجهة المزيد من الكوارث، يكفي أننا على متن طائرة قُمنا بالسطو عليها ونشرنا الذعر بين ركابها، حيث وقف مُسلم خلف القبطان يهُدده بسلاحه ليواصل الطيران بينما أخذ جورج السلاح الآخر الذي سرقه مُسلم وبدأ يُهدد به بقية الموظفين والرُكاب وأنا أعلم جيدًا أنه لا يفقه شيئًا عن استخدام الأسلحة، عكس مُسلم الذي رأيته بعيني يستخدم السلاح بمهارة حينما حدث سطوٌ بهذا المركز التجاري.

انتبهتُ الآن أننا تعرضنا للسطو سابقًا فقررنا أن نسطو على طائرة بركابها الآن !! كم سيفتخر بي والداي حينما يريا اسمي يسطع بين أسماء أخطر المجرمين.

بعد مرور أكثر من أربع ساعات، وصلت الطائرة إلى وجهتها في مطار تل أبيب، فما إن توّقفت حتى بدأ الركاب بترك الطائرة في ذعر وكانوا يُهرولون بسرعة صوّب حقائبهم قبل أن نقتلهم كما يعتقدون، حاولنا نحن الاندثار بين المسافرين حتى لا ينتبه أحدهم لنا، وبالفعل كِدنا ننجح في هذا الأمر وأخذنا حقائبنا لولا صوّت المذياع الذي بدأ ينادي علينا ويذيع صفاتنا وما نرتديه حتى ينتبه الجميع من تلك " العصابة الإرهابية"

-يا الهي .... ما الذي سنفعل ؟

سألت آنابيا بذعرٍ وهي تتلفت حولها وكان مجموعة من الضباط الاسرائيليون يرمقوننا بنظراتٍ مُقتضبة ويُشيرون علينا.

-تحركوا بسرعة

قالها مُسلم بتقريرٍ بدأ يُحرك معه العربة التي تحمل حقائبنا ونتحرك وراءه بقلوبٍ لا تتوقف عن إصدار الضجيج، فالمطار هنا شديد الرقابة ويمتليء بالعديد من الضباط ورجال الأمن وأجهزة المراقبة، أي أننا هذه المرة هالكون، وسيتم ترحيلنا إلى مصر بصفتنا إرهابيون، أي سينتهي مُستقبلنا، ولا تخبرونني أنني متشائمة، فلا يوجد أي نطفة للأمل هنا.

حاولتُ التوقف عن التفكير بطريقة سلبية وأنا أتحرك خلف مُسلم الذي يجُر العربة بسرعة ويتحرك بخطواتٍ أقرب للهرولة، لكننا توُقفنا مرة واحدة أمام عدد من فوهات السلاح المصوّبة على رؤوسنا، هذه المرة صوّبها ضباطُ اسرائيليون.

-ارفعوا أيديكم

صاح بها الضابط بلكنة انجليزية مُتقنة كما لو أنه بريطانيًا_ أو هو هكذا بالفعل_ كان يُشهر أمامنا سلاحه ويرافقه اثنين من زملاءه يرمقوننا باستهجان، اعتقدتُ أن مُسلم سيتحداهم ككل مرة لكنني تفاجئتُ أنه يرفع يديه باستسلام ويصدمنا بأنه ألقى سلاحه حتى لا يُثير الشكوك، ألقى سلاحه والسلاح الذي كان مع جورج أيضًا، أي أننا الآن لا حول لنا ولا قوة.

كادت دموعي تُذرف وكنت على وشك البكاء على حالي، يبدو أن محاولاتي ستتوّج بالفشل هذه المرة، فلن أجد منقذًا كما حدث بفرنسا، ليس ونحن محاطون بالأوغاد ومعاديو الإسلام، فنحنُ في الجانب المظلم من تلك الأرض المُقدسة، حيث لا وجود للمسلمين ولا لأصحاب الانسانية، تذكرتُ هذا الفيلم العربي الأقرب إلى حالتنا، كم تمنيتُ أن يأتينا أحد الجواسيس وينقذنا من هذا العراء.

كبلنا الضابط بحدة ثم أخذ يأمرنا بصوّتٍ جهوري حتى نتحرك أمامه ويتم ترحيلنا عن هنا، استجبنا له رغمًا عنا واستعنا بالله حتى ينجدنا من تلك المُعضلة، فلا مُعين الآن غيره.

توّقفنا عن السير عندما ظهرت هذه الفتاة ذات الخُصلات البنية المسترسلة والبشرة ناصعة البياض، كانت ترمقنا بنظرات مُحتدة وتتحدث مع هذا الضابط بلغة لا أفهمها لكنني استشفيتُ لكنتها الآمرة.

رحل الضباط بعد حديثها وبقيت وحدها تقف أمامنا بنظراتها الصارمة بعد أن حلُت وثاقنا ومدُت يدها نحوي وكأنها تُريد مني شيئًا ما، أخبرتني بإنجليزية ركيكة أن أخرج جواز سفري فحركتُ يدي ببعض الارتباك، ليس خوفًا منها، بل خوفًا من جواز السفر المُزيف الذي سيجعلنا نقع بالمزيد من الكوارث.

مررت عينيها على جواز السفر لفترة وجيزة ثم آعادته لي لتتحدث بعدها بفرنسية جيدة إلى حدٍ ما:

-لا تقلقوا .... أتيتُ للمساعدة ... سأساعدكم على الخروج من هنا

جحظتُ عيناي في حيرة من حديثها ولم أكن أعرف ماذا أقول، عن أي مساعدة تتحدث هذه، هي بالكاد رأتنا ونحن مكبلون بالأغلال والجميع ينعتنا بالمجرمين، ألا يكفي وشاح شعري الذي يُصيبهم بالذعر ؟

-لا داعي للمساعدة ... نحن سنتدبر أمورنا

قالها مُسلم باستهجانٍ ونبرة غليظة لم تؤثر بهذه الفتاة أبدًا فكانت تحادثنا ببرودٍ أقرب للعنجهية:

-لا أعتقد أن أمامكم حلٌ آخر....

بسطت يدها وحركتها داخل المطار وهي تواصل:

-الشُرطة في كل مكان .... وأنتم بالقائمة السوداء .... أي لن نستطيعوا الخروج من هنا

بدت كلماتها منطقية إلى حدٍ ما، فإذا تركتنا سيتم تكبيلنا من جنودٍ آخرون، وهذه المرة لن نجد من ينقذنا، فربما هي نتاج دعائي إلى الله.

-حسنًا ... سنأتي معكِ

قُلتها بلهفة وعدم تصديقٍ في نفس الوقت، لكن مُسلم طغت عليه النظرات المُتشككة وهو يقول بإصرار وصوتٍ غليظ:

-لا ... لن يتحرك أحدُ من هنا ... ولا نريد مساعدتك

أدركتُ فورًا أن مُسلم لا يزال يشُك بها وهو معه الحق في ذلك، فهي ترتدي ثياب الجيش الاسرائيلي وتحمل معها سلاحًا، بل وربما تحمل الجنسية الاسرائيلية أيضًا، أي أنها ليست محلٌ ثقة أبدًا، لكننا أيضًا لسنا خبراء سياسيون أو حتى نعمل بالمخابرات حتى تهتم لأمرنا، مهلًا، نحن في عداد المجرمين، هل ستقوم بتجنيدنا لصالح دولتهم ؟

-خلاص يا مُسلم خلينا نروح معاها .... معندناش حل تاني

قُلتها بقلة حيلة لأننا بالفعل لا نملك حلًا آخرًا، ربما نستطيع الهرب منها فيما بعد، لكن الآن، لا يوجد مفرٌ من هنا سوى عن طريق هذه الغريبة.

-إيمان عندها حق ..... بعدين إحنا سرقنا وقتلنا وضربنا ظباط بعدد شعر راسنا .... فمجتش على دي يعني .... نبقى نديها على دماغها لو حسينا بأي عوٌق

قالها بصوٌتٍ مسموع أمام هذه الغريبة التي لا تفهم حديثنا العربي، حيث كانت ترمقنا بنظراتٍ حائرة ونحن نتحدث.

-ما الذي سنفعل ؟.... هل نذهب معها ؟.... لا أريد أن نبقى هنا .... أشعر بالخوف الشديد

علقت آنابيا بهذه الكلمات القلقة التي هدأها جورج بنبرته الهائمة:

-لا تخافي عزيزتي آنابيا .... خاصة وأنا معكِ

أطلقتُ زفرة سائمة من حديثه الهائم ثم عاودتُ الحديث بجدية وتقرير:

-خلونا في المُهم ... سنذهب معها الآن حتى نتخلص من هذه الاجراءات الأمنية.... بعدها سنرى ما الذي سنفعله وكيف سنعثر على ذاك الوغد

أنهيتُ الحديث بالفرنسية وبغلٍ دفينٍ من هذا الحقير المُتسبب في جميع هذه الكوارث، وما كان من مُسلم سوى الموافقة المُرغمة ومعاودة النظر نحو هذه الفتاة التي سألت:

-هل اتفقتم ؟

أومأتُ رأسي بإيجابٍ وأنا أقول:

-نعم ... سنأتي معكِ

حرٌكت رأسها إيجابًا ثم اقتربت منا لتعاود تكبيلنا حتى نستطيع الخروج من المطار وكأننا مُجرمون تم إلقاء القبض علينا، وما إن نفذنا أوامرها وسرنا وراءها حتى توٌقفنا بعيدًا عن المطار بصورة نسبية.

توٌقفت عن السير والتفتت نحونا لتحلٌ وثاقنا وهي تقول مُعرفة:

-أدعى راموئيل .... سأوفر لكم الحماية حينما تنتهوا من مهامكم

قطبتُ حاجباي بحيرة من كلمة " مهامكم " أهي تظننا بالفعل مجرمون وأتينا لنُفجر أحد المراكز العسكرية أو السياسية ؟ لا أريد تخييب ظنها وإخبارها أننا مجرد عاديون جئنا فقط حتى نعثر على وغدٍ استغل سذاجتي واحتال علي.

تحركت راموئيل أمامنا وأخبرتنا أنها ستوٌفر لنا منزلًا صغيرًا بعيدًا عن الأعين، هي لا تعرف حتى سبب مجيئنا لكنني أظنها تعتقدنا جماعة إرهابية خطيرة.

-أنا البت دي مش مستريحلها

قالها مُسلم بحدة وبلغة عربية مسموعة لأنها بالطبع لن تفهمنا، وكان جورج يرد عليه مطمئنًا:

-ولا أنا مستريحلها ... أصل مفيش حد بيساعد حد كدة وهو ميعرفوش .... إحنا نستنى شوية يمكن تجبلنا شقة ولا حاجة .... وبعدها نخزوٌقها ونديها بالطوبة على دماغها .... ونبقى نشوف هندفن الجُثة فين

اتسعت حدقتاي في صدمة من حديث جورج وصدمة أكثر من رد مُسلم:

-بالظبط ... وكدة كدة هي من جيش الاحتلال يعني لو قتلناها هندخل التاريخ

حمدتُ الله أن راموئيل هذه لا تفهم حديثنا وإلا فجرت رؤوسنا بهذا السلاح الذي تحمله، مررنا بالعديد من المنشآت في طريقنا نحو هذا المنزل المجهول، وما لفت نظري هي تلك اللافتة التي كُتب عليها بخطٍ عريضٍ و باللغة العبرية والانجليزية:

"عصابة ليخي تستخدم قاعدة هذه المنشأة كملجأ سري للأسلحة ويتم استخدامها مُنذ الانتداب البريطاني خلال ما يُعرف بـ" حظر التجوال العظيم " عام 1946" ...

قرأت بعدها لافتة أخرى بالقُرب من إحدى المدارس لكن اسم العصابة كان " الإتزيل " هذا ما جعل الحيرة تراوضني وتجعلني أتوٌقف عن السير حتى أرضي فضولي:

-ما هذه اللافتات ؟

توٌقفت راموئيل عن السير عندما انتبهت لسؤالي وتفحصت هذه اللافتة لبرهة وجيزة قطعتها بإجابة شافية:

-هذه المنشآت كانت تُستخدم لتخبئة الأسلحة .... قبل قيام دولة إسرائيل، عصابات الليخي والهاجانا وغيرهم .... كانوا يقومون بحفر الأنفاق أسفل المنشآت الاجتماعية حتى يُخبؤوا أسلحتهم بداخلها ولا تعثر عليها القوات البريطانية....

رفعتُ حاجباي بذهولٍ من حديثها وبدأتُ أربط ما بينه وبين ما يحدث بهذه الأيام، ألم يكن القادة الاسرائيليون يقولون أن حركة " حماس " تستخدم المشفيات والمنشآت كقواعد عسكرية ؟ هل كانوا يفشون أسرارهم ونحن لا نعرف ؟ حقًا ... صدُق من قال أن كل اتهام، هو اعترافُ في حد ذاته.

-لكن ما هذه " الإتزيل " ؟ سمعتُ عن الهاجانا وليخي .... لكنني لم أسمع عن أي عصابة تُدعى إتزيل

أنهيتُ الحديث وأنا ألتفت إلى تلك اللافتة وأتفحص شعار الإتزيل الذي آثار ريبتي، هذه المرة وجدتُ مُسلم يُجيبني بعلمية:

-الإتزيل هي ميليشية صهيونية تُعرف أيضًا باسم " الأرجون " وقد ارتكبت العديد من المجازر في حق الفلسطينيين منذ عام 1948 ولقبتها بريطانية بعصابة ارهابية خطيرة.... وإذا تفحصتي شعارها جيدًا .... ستلاحظي أنه يحمل دولة الأردن وليس إسرائيل، لأن هذه العصابة تعتبر الأردن جزءًا من دولتهم وكانوا يُخططون لاحتلالها

رفعتُ حاجباي بذهولٍ من كم المعلومات الصادمة التي ألقاها مُسلم وأكدت عليها راموئيل وهي تواصل السير أمامنا بين المنشآت والمدارس والمعابد اليهودية وعلم اسرائيل الذي يزين كل شبرٍ من هذه الأرض ويجتمع مع الكلمات العبرية التي لا أفهمها.

كان سيرنا هادئًا لا يشوبه شائبة لولا صوّت الإنذارات التي صدحتُ مرة واحدة وتبعها العديد من أصوات الصُراخ والاستنجاد، توقفت راموئيل عن السير وتقهقرت بضع خطواتٍ وهي تصيح بنا:

-إذهبو بسرعة إلى هذا الكيبوتس....

صرخت بنا وهي تُشير إلى إحدى المباني التي لا أعلم لماذا تدعوها بالـ " كيبوتس " لكننا على أي حال ركضنا بسرعة صوّب هذه المباني لنحتمي بها بعد أن استمعنا إلى اللاسلكي الخاص بها والذي صُدر منه صوّتٌ غليظ يقول بلكنة آمرة:

-حزب الله بدأ بالهجوم .... أخبري القواد حتى يتحركوا

-عُلم سيدي

قالتها راموئيل بصوّتٍ قيادي ثم التفتت نحونا مجددًا وكانت تدفعني أنا ومُسلم صوّب الكيبوتس الذي لا أعرف ماهيته حتى الآن، فيبدو أن سيرنا أوصلنا إلى قاعدة عسكرية يتم تبادل القذائف فيها مع " حزب الله " الحزب السياسي الإسلامي في لبنان.

لا أعرف حتى أأشعر بالسعادة لأن القذائف تُلقى عليهم وتُصيبهم بالذعر، أم أشعر بالحسرة على حظي السيء، لكنني اطمأننتُ إلى حدٍ ما حينما دلفنا هذا المنزل الصغير المُلقب بالكيبوتس والذي أخبرني مُسلم فيما بعد أن كلمة كيبوتس هي كلمة عبرية تعني " التجمع " وهي تقال عن تلك المنازل الصغيرة التي تُشكل سويًا مدينة زراعية صغيرة كانت تُستخدم قديمًا في الاجتماعات الراديكالية " الديمقراطية " للتحدث عن إقامة دولة لليهود في فلسطين مُنذ عام 1910، أما الآن فهي تُستخدم للسياحة وربما لا تزال تُستخدم في تلك الاجتماعات السرية ذات الأهداف المُدمرة.

-يعني حبكت حزب الله يضرب دلوقتي ؟

قالها جورج بضجرٍ من حظنا السيء فأجبته أنا بمزاح وسعادة:

-شكلهم بيرحبو بيا

اختبأنا بضع دقائق داخل هذا المنزل الصغير حتى أتت راموئيل أخيرًا ولا أعتقد أنها نفذت أي من الأوامر، فقد راقبتها من بعيد وهي تؤمن المكان وتتأكد أنه لا يوجد مدنيون في تلك المنطقة العسكرية، فقد اتضح أن صوّت الصراخ والاستنجادات أصدرها مجموعة من الضباط النساء حديثو التجنيد.

آشارت لنا راموئيل بالخروج من هذا المبنى ومواصلة السير خلفها حتى وصلنا إلى سيارتها، لا أعرف لما اصطفت سيارتها في هذا المكان البعيد، كما أننا سألناها عن أمتعتنا وهي أجرت مكالمة هاتفية قصيرة باللغة العبرية ثم أنهتها وهي تطمئننا أنها ستتوّلى أمر حقائبنا، أصبحتُ أكثر اطمئنانًا من هذه الـ راموئيل، فربما تريد مساعدتنا بالفعل، وليس كما يعتقد مُسلم.....

تراصت المباني البيضاء بجوار بعضها في تلك المنطقة المسماة بالمدينة البيضاء، أمرتنا راموئيل بالبقاء في صمتٍ حتى لا يُلاحظنا أحد، فحسب ما قالت، تهتم الحكومة بمواطنيها بطريقة مبالغٌ بها، فلا يوجد أي يهوديٍ فقيرٌ هنا، ربما لأن جميع السُكان هم من الدول الأوروبية وقاموا بدفع تذكرة الطيران قبل المجيء، كما أن دولتهم المزعومة توّفر لهم سُبل الراحة حتى تُخبر الجميع أنها دولة ديمقراطية مسالمة، فلا أحد يرى وجهها الحقيقي.

على كلٍ، دلفنا منزلًا صغيرًا ذو أثاثٍ بسيطٍ عصري وحجرة طعام على التراث الأمريكي، ارتميتُ على الأريكة بإرهاقٍ أرغب في أخذ قيلولة طويلة قبل بدء المعركة، رغم أنني مُتيقنة أن النوم لن يأتيني أبدًا هنا.

-يوجد في هذا المنزل حُجرتين .... لكنني لا أعتقد أن المنزل يحتوي على مُستلزماتٍ وطعام .... لذلك سأذهب لابتياعهم لكم حالما تنتهوا من تبديل ملابسكم

قالتها راموئيل بنبرة جامدة وكانت على وشك الرحيل وتنفيذ قرارها لولا وثوبي عن الأريكة لأقول:

-هل يمكنني المجيء ؟

توّقعتُ أنها سترفض لأننا نفدنا بأعجوبة من الشُرطة، لكنها أومأت رأسها إيجابًا وطمأنتني بأن لا أحد يعلم أننا مطلوبون من العدالة، فصورنا لم تُنشر بعد.

انتشلتُ حقيبة يدي واتجهتُ نحوها في حماس لأنني أعشق التسوّق، كما أن راموئيل هذه لا تبدو محض شكٍ أبدًا، بل تبدو أنها ودودة وأنها ستساعدنا.

-استني يا إيمان .... أنا هاجي معاكي

أوقفني مُسلم بهذه الكلمات التي لمحتُ معها عوالم القلق، فهو لا يزال يشُك بأمرها، ولا يُريدني أن أبقى معها وحدنا.

-مينفعش نسيب جورج مع آنابيا لوحدهم

قُلتها بتنبيهٍ وأنا أتلفتُ بعيني صوُّب جورج الذي يبدو أنه سعيدً بما سنفعل وكان على وشك محاصرة آنابيا وإجبارها على الاعتراف بحبها له، أو ربما مغازلتها بطريقته السمجة التي تتنافى تمامًا مع مبادئنا العربية، وكان مُسلم يعرف هذا الأمر جيدًا فالتفت صوُّب جورج وهتف بوجهه بأمر:

-جورج .... تعالى

تجاهله جورج وواصل حديثه مع آنابيا التي بدأت تتفاعل معه حتى قطعهما مُسلم وهو يجذب جورج من ياقة ثيابه من الخلف ويدفعه عنوة حتى يأتي معنا.

لاحت بوادر التذمر والاعتراض على وجه جورج وهو يستجيب مُرغمًا إلى أوامرنا، خاصة وهو يعلم أنني منبع هذه الأوامر:

-تصدقو إنكو قطاعين أرزاق .... دا أنا كنت لسة هوِّريها مشاعري الجياشة

آحاطه مُسلم بذراعه وبدأ يدفعه للأمام متفوِّهًا ببعض السُخرية:

-مشاعرك الجياشة ديه تخليهالك وإنت بتتحسر بيها على نفسك

دبدب على الأرض بتذمُرٍ وهو يتبعنا للأمام وبقي مُسلم بجواري يُراقب راموئيل بنظراتٍ مُتشككة جعلتني أسأله:

-ليه جيت معايا ؟ .... على فكرة راموئيل دي شكلها طيبة وهتساعدنا

ضم حاجبيه باستنكارٍ وعدم تصديقٍ قال معه:

-طيبة !! .... دي لابسة لبس الـ IDF .... ومعاها بندقية ومسدس ده غير الجنسية الاسرائيلية .... كل ده وبتقوليلي طيبة!!

أومأتُ رأسي بثقة من حديثي وأنا أقول:

-أيوة اسمع مني .... أنا بعرف الناس من نظرة عينيهم

-أه ... بآمارة آدم مش كدة

قالها بسُخرية جعلتني أسبل بعينياي لأسفل وأتذكر هذا المخادع الذي تسبب بمجيئنا هنا منذ البداية، فهذه هي نظرتي للجميع، نظرة تُشبه سيرُك المسالم بالبهو حتى تفاجئك المنضدة وتجعلك ترتطم بحافتها ويتألم إصبعك الصغير، وما أدراك بهذا الألم الذي تتسبب به هذه الضربة.... !!

———————————————————————

لم نترك المنزل منذ جئنا من السوق المركزي ومعنا بعض الأطعمة والمعُلبات، استأذنت راموئيل لبُرهة من الوقت لتقضية حاجاتها وأخبرتنا أنها ستأتي مجددًا وستُملي علينا بعض التعليمات التي قد تساعدنا في تنفيذ ما نُريده، لا أعرف لماذا تتعامل معنا وكأننا أتينا لتفجير إحدى المُعسكرات الاسرائيلية.

كُنت أجلس على الأريكة وأحمل معي كيسٌ من الرقائق أتناولها وأشاهد التلفاز على إحدى الأفلام الأجنبية المليئة بالإثارة والتشويق، تجلس آنابيا بجواري من المُفترض أنها تتابع الفيلم معي لولا تدخل جورج وجلوسه أمامها مُقترحًا عليها أن يُعلمها اللغة العربية، فآنابيا قد سأمت بقاءها مع مجموعة من العرب دون فهمهم.

-هل حقًا ستُعلمني العربية ؟

قالتها آنابيا بحماسٍ طفوليٍ جعل جورج يوميء برأسه ويُخبرها بالفرنسية:

-بالطبع عزيزتي .... العربية سهلة للغاية

اعتدلت آنابيا في جلستها وكلها آذان صاغية لجورج الذي بدأ يشرح لها وكأنه معلمٌ جليل:

-أول كلمة ستتعلمينها هي كلمة سهلة للغاية .... فقط كرري ورائي

أومأت آنابيا إيجابًا وفي تلك اللحظة تناسيتُ هذا الفيلم وانتبهتُ لحديثهما:

-بـ..حـ..بـ..ك

اتكأ على الحروف وقالها ببطء وبصوّتٍ مُتقطعٍ حتى تُكرر آنابيا وراءها:

-با ... هبـ...ك

حاولت آنابيا نُطق الكلمة بطريقة صحيحة لكنها لا تستطيع نُطق حرف الحاء رغم محاولات جورج المستميتة معها، وكنت أنا أتابعهما وأنتظر اللحظة التي سيُخبرها فيها جورج معنى هذه الكلمة.

-باهبك " بحبك " ؟

قالتها آنابيا بعد فترة من التدريب ليبتسم لها جورج ببلاهة أخذ يُصفق معها تشجيعًا لها؛ ابتسمت آنابيا إثر اطراءاته ثم سألته بعد فترة:

-وما معنى هذه الكلمة ؟

انتبهت حواسي لما سيقوله جورج وكان هو يسترخي بظهره للوراء متفوّهًا بثقة زائفة:

-هذه كلمة عربية شائعة .... تُستخدم للنداء على الأشخاص .... لكن لا تستخدميها مع أحدٍ سواي.... فالجميع يُحب أن يتم مناداته بآسمائهم

رفعت آنابيا حاجبيها ببلاهة وتصديقٍ قالت معه:

-حقًا ؟.... أي أنني عندما آناديك .... أقول بهبك

زادت بسمة جورج الحالمة واستند على باطن كفه وهو يُغمغم بهيامٍ تأمل معه ملامحها البريئة:

-طالعة من بوقِك زي العسل

لم أتحمل خداعه لها وانتهاز فرصة أنها لا تفقه شيئًا عن العربية، لهذا السبب تدخلتُ بالحديث:

-لا تُصدقيه ... إنه يمزح معكِ .... هذه ليست كلمة للنداء

زم جورج شفتيه بتذمُر استهجن معه:

-وإنتِ إيه إللي دخلِك إنتِ ما تسبينا في حالنا

أمسكتُ أقرب وسادة التقطتها يدي وألقيتها عليه حتى يتوقف عن مغازلة هذه المسكينة وانتهاز ميولها الأوروبية، وكانت آنابيا تقهقه على شجارنا الصبياني وتحاول تهدئتنا حتى قطعنا صوّت الباب الذي يتم فتحه بهدوء لتظهر راموئيل من خلاله، فهي الوحيدة التي تمتلك مفتاح المنزل.

-أعتذر عن التأخير .... كُنت أؤمن وجودكم

وثبتُ عن الأريكة لأقترب من مُسلم الذي كان يحتسي القهوة ويُدخن بالقُرب من المطبخ الأمريكي، لكنه ما إن رآها حتى انقلبت ملامحه إلى الجمود والاستنكار وقام بإطفاء لفافته والوثوب عن المقعد متفوّهًا:

-لا داعي للاعتذار .... ثم أننا لا نحتاج إلى المساعدة

كُنت أعرف أن مُسلم سيحاول صدها رغم أنني أتمنى الحصول على مساعدتها، لهذا السبب وجهتُ حديثي بلغة عربية مسموعة صوّب مُسلم حتى يتوّقف عن معاملتها بصلف:

-يا مُسلم في إيه .... ما تخلينا نسألها عن إللي ما يتسمى شارون أيزنعوت ده ... مش يمكن تعرف هو فين

-شارون أيزنعوت!!

قطعتنا راموئيل بتلك الكلمات المتفاجئة وتقدمت نحونا بضع خطواتٍ وقد تخلُّت عن رداء الضُباط في تلك اللحظة وارتدت سترة سوداء عادية.

-هل تبحثون عن شارون أيزنعوت ؟

سألتنا بالفرنسية مما جعلني أرمقها ببعض الصدمة، كيف علِمت أننا نبحث عنه، فقد كان حديثي بالعربية ؟

أومأتُ رأسي بحيرة لأؤكد لها عمَ نُريد فوجدتها ترفع من نبرتها قليلًا وهي تقول:

-ليش ما قولتو من الأول ؟

سقط فكي في صدمة أمام حديثها المُتقن باللغة العربية، والذي يبدو أنها تتحدثها أكثر من الفرنسية.

-إنـ...إنتِ ... إنتِ بتتكلمي عربي ؟

سألها جورج بصدمة وعرق يكاد يتصبب على جبينه، فكل ما يُفكر به الآن : هل استمعت إليه وهو يتفق مع مُسلم على قتلها والتخلص من جُثتها!!

-إيه .... بحكي عربي .... وبعرف إنه الأسماء يلي بالجوازات تباعكن مانها صحيحة

تيبس جسدي على الأرض وشعرتُ أنني سأهوي من شدة الصدمة، فبالطبع استمعت إلى أسمائنا التي ننادي بها بعضنا مُنذ مجيئنا إلى هنا، يبدو أن غباء العالم اجتمع لدينا في هذه اللحظة وجعلنا نتناسى أننا نحمل أسماءً مزيفة ويجب أن نتناسى أسمائنا الحقيقية لفترة مؤقتة، وصدمتنا أمامها ربما تجعلها تقول في قرارة نفسها : من هؤلاء الحمقى الذين أساعدهم ؟

بعد فترة وجيزة من الصمت أخرجنا مُسلم بنظراته الجامدة التي لم تتغير، فهو قد أخبرني مُسبقًا أن اللغة العربية هي ثاني لغة يتم تعليمها بإسرائيل، خاصة الجنود، لكن من يُتقن هذه اللغة يتوّلى الخدمة في الأراضي الفلسطينية ومن يتوّلاها هنا بالكاد يعرف العربية، فكيف لهذه الغريبة أن تتُقن العربية ولا تخدم بالآراضي الفلسطينية ؟

-أين شارون أيزنعوت ؟

سألها مُسلم بالفرنسية التي اتفقنا على جعلها اللغة الأساسية حتى تفهمنا آنابيا، فجميعنا الآن نلتف في حلقة وننتظر حلولًا شافية عن تلك المُعضلة التي نحن بها.

-لا أعرف بالضبط ... لكنه صديق والدي، ومن السهل العثور عليه.... كما أنه صحفيٌ مشهور

قطبت حاجبيها بعد فترة لتسألنا بفضول:

-ما الذي تُريدونه منه ؟

-اختطف ابنتي .... وأنا أريد استعادتها

ازدادت الحيرة على وجهها وهي تقول:

-ماذا !! .... هذا مستحيل، صحيح أن السيد أيزنعوت لا يختلف وضاعة عن بقية الحُكام هنا .... لكنني لا أعتقد أنه يقوم باختطاف الأطفال

شعرتُ بالحيرة أكثر وهي تنعت حكامها بالوضاعة وللحظة شككتُ أنها جاسوسة رغم ملامحها الأوروبية، ربما تحمل الجنسية اللبنانية أو السورية وأتت هنا لتتجسس عليهم مُستغلة بشرة البيضاء وملامحها الأجنبية.

-لم يختطفها بالمعنى الحرفي .... فهي بالأساس ابنته .... لكنها ابنتي أنا أيضًا، وهو الذي قام بخديعتي وسرق أموالي وحرمني من رؤية ابنتي الوحيدة .... لهذا السبب أنا أريدها، لا يجب أن أتركها لتترعرع هنا

أنيهتُ الحديث بتحدٍ لم يُغير من ملامح راموئيل التي وجدتها تومىء رأسها بتفهمٍ وتتجه صوٌب الأريكة متفوٌهة بتقرير:

-حسنًا سأساعدكم....

هرعنا نحوها بحماسٍ ولهفة فيما عدا مُسلم الذي لازالت نظراته المستنكرة تحوم حولها، اتخذتُ المقعد المجاور لها على الأريكة وأنا أسأل بلهفة:

-ماذا سنفعل ؟

رسمت راموئيل بسمة ماكرة على ثغرها وهي تقول:

-ليس من السهل مواجهة هذا الوغد شارون واستعادة ابنتِك، فأنا أعرفه جيدًا، هو لا يختلف أبدًا عنهم .... لذلك...

سرقت نفسًا عميقًا ثم أطلقته لتتقدم بعدها بجذعها وتواصل بنبرة واثقة:

-سنتبع قواعدهم .... ونحاول تدميرهم حتى نستعيد ابنتِك

لم أفهم بالضبط ما الذي تقصده بتدميرهم، لكن كلماتها أكدت لي أننا بصدد قلب الموازين وإحداث الفوضى والانقلاب مثلما فعلنا بفرنسا، هذه المرة سيكون الانقلاب في .... تل أبيب!!

الفصل التاسع (بنك اللحم)

((راموئـــيل))

17يوليو 2015   تل أبيب : إسرائيل

قد تعتقد أن الخيانة هي الإقبال على طعن الآخر من وراء ظهره أو إفشاء أسرار دولتِك، لكن لا، الخيانة هنا لا تعني سوى أنك علِمت الحقيقة واتخذت مؤقفًا ضد الاضطهاد والعُنصرية، فإن لم تكن عُنصريًا هنا، فسيتم تلقيبك بالخائن....

بدأت رحلة تمردي مُنذ وطأت أقدامي تل أبيب، توّقفتُ عن التفكير في السلام والعدالة، كل ما أريده هو الانتقام، الانتقام لعبود ولجميع الأرواح البريئة التي أزهقت بسببهم، وأول ما فعلته هو إنقاذ حفنة من المجرمين ومساعدتهم على تنفيذ خططهم الإرهابية، يجب أن يتزعزع الأمن حتى تتدمر أسطورتهم.

كُنت أعرف أنني محض شكٍ بالنسبة لهم، خاصة هذا الرجل ذو اللحية الذي سمِعتهم يُنادونه بـ" مُسلم " اسمه فقط سيتسبب بذعر السُكان هنا، كما أن نظراته الغليظة وملامحه الجامدة أكدت لي أنه ليس رجلًا مسالمًا، لكن بقيتهم لم يبدو عليهم معاني الإجرام، بل كانوا يتعاملون بعفوية خاصة هذه الأوروبية التي لم تكن تفقه حديثهم بالعربية.

تجاهلتُ حديثهم من وراء ظهري ورغبتهم برحيلي لأنني أحتاجهم كما يحتاجونني بالضبط، فإذا أتوا هنا للتمُرد، فهنيئًا لكم بالمساعدة، فأنا سأفعل أي شيءٍ حتى يتزعزع الأمن هنا.

أعطيتهم منزلي القديم الذي كُنت أقطنه لفترة مؤقتة في بداية خدمتي بالجيش، قبل أن أنتقل للأراضي الفلسطينية، وعندما أتيتُ هنا مع والدي، كان صديقه قد وُفر لنا منزلًا فسيحًا يليق بمكانة والدي المرموقة.

ذهبتُ إليهم في المساء لمواصلة امدادهم بخدماتي، أدركتُ وقتها أنهم بعيدون تمامًا عن الإرهاب، فما أتوا من أجله كان نابعًا من عاطفة أمٍ تَرغب في استعادة ابنتها

الوحيدة، ولسوء حظها، أن والد ابنتها وخاطفها، لم يكُن سوى شارون أيزنعوت، هذا الشاب الماكر الذي رأيته أكثر من مرة يزور والدي في منزلنا، وهو الذي وٌفر لنا منزلًا هنا بتل أبيب.

رأيتُ شارون أكثر من مرة على الفضائيات، كان من ألمع المؤثرين وأكثرهم مكرًا وخداعًا، استطاع بكل مهارة أن يستقطب الإعلام الغربي ويقنعهم أننا مسالمون لا نرغب بالحروب والقتالات وأن العرب هم مصدر الفساد، يكفي حديثه الواثق أمام أجهزة التصوير وملامحه الوسيمة التي تجعل الجميع يُصدقه فقط لأنه وسيم.

على كُلٍ، عندما ذُكر اسم هذا الوغد أمامي، أصررت على مساعدتهم أكثر، فاستعادة طفلة صغيرة من بين يدي هذا المخادع، لهو أصعب مما تتخيلوا، يجب أولًا أن نهدم أسطورته ونجعله مُكبلًا بالأغلال، ومكبلًا بالأغلال هنا لا تعني أن يكون مُجرمًا، بل يكفي أن نجعله يقف مع الحق حتى يتم سجنه طوال حياته.

جلستُ على الأريكة بمنتصف البهو أرميهم بنظراتٍ قيادية جعلت حواسهم تنتبه لي.

-ما الذي تقصدينه بتدميرهم ؟

سألتني إيمان بالفرنسية الطليقة لأننا اتفقنا على جعلها اللغة السائدة، ولأنني من أصل بلجيكي، كنت أتقن الفرنسية إلى حدٍ ما، وعندما قررتُ الهجرة_ أي مُنذ عام_ عاودتُ تعلُم الفرنسية حتى أستطيع التعايش ببلجيكا، فبالطبع لن أبقى بالأحياء اليهودية فقط، هذا إن بقيتُ يهودية من الأساس.

-شارون ليس سهلًا أبدًا ..... ولن تستطيعي استعادة ابنتكِ دون أن يبتعد تمامًا عن الساحة

قُلتها بثقة جعلتهم يرمقونني في حالة من الصمت والتيه حتى عقُب مُسلم باستنتاج:

-هل تقصدي أننا .... سنحاول سجنه ؟

لاحت بسمة متهكمة على ثغري وأنا أؤكد حديثه:

-بالضبط .... وسنفعل ذلك بأسهل طريقة ممكنة

-وما هي هذه الطريقة ؟

سألني جورج فأجبته ببعض الخُبث:

-يكفي فقط أن ينشر مقاطعًا يتعاطف فيها مع الفلسطينيين ويؤكد دعمه لهم .... وقتها سيثور العالم لأنه من المؤثرين المرموقين، وكلماته سيفًا على الجميع .... وعندما يصل الخبر إلى الحكومة الاسرائيلية .... ستُصدر فورًا قرارها بسجنه ومنعه من مزاولة الإعلام .... وعندما يتم سجنه ... سنستطيع بكل سهولة أن نستعيد ابنتكِ وترحلوا من هنا للأبد

هكذا أنهيتُ الخطة بفخرٍ جعل أعينهم تجحظ في ذهولٍ وإعجاب، لكن إيمان كانت الأكثر لهفة وحماسًا من بينهم، بالطبع لأنها ابنتها الوحيدة.

-وكيف ستُنفذ هذه الخطة ؟

أرخيتُ ظهري للوراء وأنا أقول بثقة:

-بسيطة .... يمُكنني اختراق حساباته على وسائل التواصل الاجتماعي والقيام بهذه المُهمة .... هل معكم حاسوب ؟

سألتهم بنهاية الحديث فكانوا يتبادلون النظرات في تيهٍ حتى نفوا برؤوسهم مما أكد لي أنهم لا يمتلكون، هذا ما جعلني أثب عن الأريكة عازمة على الرحيل بقولي المُقرر:

-حسنًا إذًا ... سأقوم بهذه المُهمة في منزلي .... لا تقلقوا، لن يأخذ الكثير من الوقت.....

18يوليو 2015 تل أبيب : إسرائيل

طوال الليل أجلس أمام الحاسوب أستعيد مهاراتي فيما يخص التكنولوجية وأحاول اختراق الحساب الخاص بشارون، لا أنكر أن الأمر لم يكن سهلًا أبدًا وكان حسابه مؤمنًا كما لو أنه قائدًا عسكريًا، ولأنني تعلمتُ الهندسة التقنية على يديهم، استطعتُ أخيرًا أن أخترق حساباته وأعبث بما يُقدمه من محتوى.

نشرتُ العديد من المقاطع التي يحاول الإعلام الاسرائيلي إخفاءها، مقاطع لبعض الجنود المُختلين الذين يصوِّرون جرائمهم، ومقاطع للمستوطنين وهم يحتفلون أمام الانفجارات التي تحدث في غزة، ولم أكتفي بهذا القدر، بل نشرتُ العديد من الوثائق التي تثبت أن الفلسطينيين هم أصحاب الأرض وبعض البحوثات التي تثبت أننا لسنا ساميون كما يتم إيهامنا وإيهامهم.

أنهيتُ نشر هذه المقاطع ببسمة خبيثة تبعتها بتثاؤبٍ عميقٍ لأنني لم أنم مُنذ البارحة، حتى أنني كنت على وشك الاستلقاء لولا عقارب الساعة التي وصلت إلى الثامنة صباحًا.

أغلقت الحاسوب ووثبتُ عن الفراش حتى أقوم بالتمطؤ وتحريك ظهري وعضلاتي لعلي أستفيق قليلًا وأستقبل هذا اليوم الحافل، عندما أتانا إنذار بالأمس لأن حزب الله كان يُطلق علينا القذائف، لم أساعد الجنود ككل مرة، تركتهم يُلقون قذائفهم واكتفيتُ فقط بإبعاد المدنيين حتى لا يتأذى أي بريء، وهذا الذي سأفعله اليوم والأيام التالية، سأدمر مخططاتهم مهما كان الثمن.

خرجتُ من الحُجرة على صوِّت والدي الذي كان يتحدث على الهاتف وتبع حديثه قهقهاتٌ ماكرة أعرفها جيدًا، علاقتنا في هذه الأيام كانت فاترة لكنه يحاول استمالتي واعادتي إلى كنفه في كل مرة، ولن أكذب وأقول أنني لم أنجذب إلى حنانه معي، ففي النهاية هو لا يزال والدي وأنا بحاجة إلى صدره الحنون، أحاول حتى التبرير لأفعاله فقط لأنه والدي وهو الوحيد الذي تبقى من عائلتي التي لا أعرف عنها شيئًا.

أنهى والدي المكالمة فانتهزتُ الفُرصة حتى أسأله بلُطفٍ زائفٍ عن سبب هذه المكالمة، لعلني أرسل الرسائل المُشفرة لمسعود حتى يعرف القليل عن أسرار الدولة، فكما وعدته مُسبقًا، سأساعد المقاتلين مهما تطلب الأمر.

-ماذا أبي ؟ .... مع من كُنت تتحدث ؟

تبعتُ حديثي ببسمة هادئة جعلته يُبادلني ذات البسمة ويمسك بالشوكة والسكين حتى يقول:

-لا شيء عزيزتي .... هذا واحدٌ من الجنود .... كتيبته أغارت على عائلة إرهابية تسكُن بالضفة الغربية، وعندما تأكدوا من إخلائهم لمنزلهم، قرروا هدمه .... لكنهم وجدوا طفلٌ صغير لا يتوّقف عن البُكاء .... وبالطبع لن نقتل طفلًا رضيعًا، لذلك أنقذناه وأودعناه في واحدٍ من ملاجئنا

اتسع بؤبؤ عيني في صدمة واشمئزازٍ من حديثه، يُسمي هذه عملية إنقاذ وهُم من تسببوا بقتل عائلة هذا المسكين !! مع أي حثالة أسكن أنا، كُنت على وشك التقيؤ بعد حديثه لكنني لُذت بالصمت وتيبست حركتي حتى عاود والدي الحديث ببساطة:

-ما بكِ راموئيل ؟

استعدتُ ثباتي مُجددًا وأنا أرفع رأسي نحوه وأسأل:

-هل علِمت جماعة الصليب الأحمر بأنكم فعلتم ذلك ؟

نفى برأسه وهذا كان متوّقعًا، لكن إجابته جعلت الدماء تتغلغل بعروقي وأنا أثب عن المقعد هاتفة بوجهه:

-كيف فعلتم ذلك ؟ .... أنتم من قتلتم عائلته، والآن ستقومون بتجنيده حتى يقوم بخدمة من قام بقتل عائلته !! .... لا أصدق أنكم ستفعلون ذلك

منعتُ سبة بذيئة كادت تخرج من جوفي وتجعل والدي يعاود الشك بأمري، يجب أن أظهر أنني معارضة على تلك الجريمة التي ارتكبوها دون أن أظهر حقدي لهم، فإذا فعلتُ ذلك ستتدمر جميع مخططاتي، وسيذهب انتقامي لعبود هباءً.

-تأدبي يا فتاة، أنسيتي أنني والدُك .... ثم من قال لكِ أننا سنقوم بتجنيده

-بقاءه معنا هو ما قال لي .... أليس التجنيد إجباريًا ؟

وثب والدي عن مقعده ليتقدم نحوي ويحادثني بطريقة حنونة، فهو قد سأمٍ عراكاتنا التي لا تنتهي كما لو أننا أعداءٌ مُنذ الطفولة، كان يضع يديه على كتفي وعيناه مُسلطتان في مُنتصف عيناي أثناء قوله الهاديء:

-حبيبتي .... لن أدعهم يُجندونه، فالفلسطينيون حاملو الجنسية الإسرائيلية لا يتم تجنيدهم_

قطعتُ حديثه وأنا أبتعد عنه متفوّهة بصرامة:

-هذا لا يُبرر فداحة ما فعلتم .... هذا الطفل يجب أن يعود إلى السُلطة الفلسطينية .... هُم من يقرروا مصيره وليس أنتم .... وإن لم تأمرهم بذلك، سأفعلها أنا نيابة عنك...

بصقت هذه الجملة بصلفٍ واتخذتُ أدراجي صوّب الباب لأفتحه وأترك المنزل وداخلي نيرانُ لا تُطفأ، ولا يوجد ما يُطفئها سوى شيءٌ واحدٌ فقط......

رام الله : فلسطين

مرٌ أكثر من أربع ساعاتٍ كاملة وأنا أقود السيارة في طريقي إلى الضفة الغربية ثم إلى رام الله، لا أنكر أن الضباط حاولوا منعي من دخول هذه المنطقة وحذرونني أكثر من مرة لكنني أصريتٌ على المجيء وتحديتُ جميع العوائق، لم يكن يبدو علي أنني مُجندة لهذا السبب حاولوا منعي من الاقتراب من الضفة الغربية بُحجة أن الفلسطينيون قد يكونون خطرًا علي، ليس لأنهم لا يريدونني أتأذى من أفعالهم الشنيعة هناك والتي لا يُفرقوا فيها بين أجنبيٍ وفلسطينيٍ كما حدث مع الناشط الأمريكي توم، الذي تلقى رصاصة أردته صريعًا حينما كان يدافع عن طفلٍ صغير، ورايتشل كوري ناشطة السلام الأمريكية التي جرفتها جرافة اسرائيلية آرادت هدم منازل الفلسطينيين في رفح وهدمت بالفعل عدة منازل دون الاكترات لقاطنيها.

ارتجف جسدي وأنا أصعد الدرجات ببطء ومعي كيسٌ بلاستيكيٌ مليءٌ بالمُستلزمات والأطعمة وكيسٌ آخر يحتوي على بعض الأدوية التي تُعالجِ الأمراض الُمزمنة كداء السُكري والضغط، وبداخل الأكياس كان يوجد ألف شيكلًا ادخرتهم من أموالي الخاصة ووضعتهم داخل الحقائب مع رسالة صغيرة أعلى كُل ذلك.

قُمت بالدق على الجرس بضع دقاتٍ ثم هرولتُ بأقصى ما لدي لأختبيء خلف الجدار وأشاهد تلك السيدة ذات العباءة السوداء ووشاح الشعر الأسود، ورغم شحوب وجهها والضيق الكامن بين عينيها، إلى أنها احتفظت بثباتها وصمودها ولم تفقد عقلها رغم وفاة أبناءها وزوجها وبقاءها وحيدة بالمنزل.

كانت الخالة بيسان تقف على أعتاب منزلها تتلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن الطارق الذي كان أنا، كم أردتُ الارتماء بين أحضانها والاعتذار لها وأنا أبكي بصوّتٍ مُرتفع، فأنا لم أنسى حنانها الجارف ومعاملتها لي وكأنني ابنتها، كانت لي خير أمٍ لكنني خذلتها ولم أكن ابنتها المُطيعة.

ترقرقت دمعة شاردة على وجنتي وأنا أتابعها من بعيد وأتذكر عبود في الوقت ذاته، انتبهت أخيرًا إلى هذه الحقيبة التي وضعتها على الأرض مع رسالة تحتوي على **"إلى هذا الصدر الحنون الذي أغرقني في بحر دفئه ورعونته، أتمنى أن تقبلي مني هذه الهدية من هذا المجهول الذي يتمنى رؤيتكِ والالتماس من حنانكِ .... لا تعتبرينها هدية شفقة، بل اعتبرينها اعتذارًا من هذه الحياة القاسية التي حرمتكِ فلذة كبدكِ وسندكِ في هذا العالم .... عبود سيظل في قلوبنا، وقلبي أنا بالأخص، وهو الآن يراكي ويتمنى لكِ الصمود من أجله، أتمنى وأنتِ تقبلين هذه الهدية، أن تدعي له من كُل قلبِك، ولا تقلقي ... لن ينسى أحدٌ عبود، ولن ننسى أي واحدٍ من الشُهداء"**

كانت رسالتي باللغة العربية الفُصحى وكُنت أراقبها من بعيدٍ وهي تقرأها حتى دمُعت عينيها عندما تذكرت عبود، ودمُعت عيناي أيضًا وأنا أراقبها تنتشل الحقائب البلاستيكية عن الأرض وتتلفت يمينًا ويسارًا مرة أخرى قبل أن تُغلق الباب، أعرف أن ذلك لا يُعتبر اعتذارًا، لكنني أحاول ... أحاول جاهدة....

مقبرة الشهداء / رام الله : فلسطين

أقف الآن أمام المقبرة المنقوش عليها اسم " عبود سعد التاجي " نسمات الهواء هنا عليلة رغم حرارة الطقس، تذكرتُ وقتها أن عبود أخبرني أن الشهداء تفوح منهم رائحة المِسك، ربما لهذا السبب لم يكن الجو حارًا في تلك المقبرة.

تيبس جسدي أمام المقبرة وبقيتُ هكذا لفترة أحاول أن أمنع انفجاري بالبكاء بشتى الُطرق، لكنني كالعادة فشلتُ فشلًا ذريعًا، فمُنذ سفري إلى تل أبيب وأنا أسجن دموعي في سجنٍ أقوى من أقوى السجون بالعالم، وعندما ذهبتُ لزيارة الخالة بيسان بدأت دموعي تطُالب بالحُرية، وعندما وصلت أقدامي إلى هنا، كانت دموعي قد أعلنت العصيان والتمُرد وتحررت بالفعل.

هوّيتُ بجسدي على الأرض فوق الرمال الرطبة وانخرطتُ بالبُكاء وأنا أتذكر حديثنا سويًا، أقسم أنني لم أشعُر بالحُب سوى وأنا معه، لم يدق قلبي لأحدٍ سواه رغم أنني لستُ صغيرة، فأنا قد تخطيتُ الثلاثين مُنذ عامينٍ أو ثلاثة، لكنني بحياتي لم ألتقي بمن هو مثل عبود، رجلٌ شهمٌ مكافحٌ يُضحي بنفسه من أجل الجميع، وعندما آراد أن ينشر العدل والمساواة، بدده العالم وحاول محوه عن الطريق، مثلما يفعل دائمًا.

تغلغلت يداي بين الرمال وأحنيتُ رأسي لأسفل وأنا أواصل البكاء والاعتذار حتى باتت دموعي أشبه بالأمطار والسيول، وبعد أن أفرغتُ القليل مما بداخلي، رفعتُ رأسي ببعض الدموع العالقة بين جفوني وعيناي التي باتت حمراء ككتلة من اللهب.

جففتُ دمعاتي بظهر كفي لأن باطنه أصبح مليءٌ بالتُراب، حاولتُ التقُدم من مقبرته وأنا أقول بصوّتٍ مسموعٍ وكأنه يسمعني من أسفل التراب:

-لا تقلق عبود .... أنا راح آخذ حق ... وحق كل الأبرياء يلي ماتو .... بوعدك إني راح ساوي هيك

قُلتها وأنا أرفع يدي وأضعها على رمال مقبرته بعد أن أنهيتُ حديثي المُتحدي وعاودتُ الحديث مُجددًا بلكنة لا تتوقف عن الاعتذار:

-الخالة بيسان منيحة .... وأنا راح زورا ودير بالي عليها....

أعدتُ يدي مُجددًا على وجنتي لأكفكف الدموع المتمردة التي عاودت الانحدار وبدأت تختلط معها الذكريات، ألم يُخبروننا أن الصوّر تساعدنا على التذكُر، لماذا المقابر تجعلني أتذكر أكثر من الصوّر ؟

تذكرتُ جلوسنا أسفل شجرة الزيتون وحديثه عن تاريخ دولته بكُل فخرٍ واعتزاز، أخبرني وقتها أنه لا يحقدٍ على أحدٍ يحيا في دولة مُستقلة، فمصدر فخره بالأساس هو كوّنه فلسطينيًا، والحقيقة أن معه كامل الحق، فبقية الدول المُستقلة هي مجرد عبدة لإسرائيل والدول الاستعمارية الأخرى، فلسطين هي الدولة الوحيدة التي ترفض الاستعمار وتقاتله ببسالة.

عادت دموعي تنهمر مجددًا حتى رفعتُ يدي لأضعها على رمال قبره وأنا أقول:

-اشتقتلك كتير....

كُنت سأواصل الحديث والرثاء على قبره وربما قراءة الفاتحة التي بقيتُ أحفظها لأيامٍ معدودة حتى أقرأها أمام قبره، فهو قد أخبرني مُسبقًا أنهم يقرؤون هذه السورة وقرأها لي ونحن في مقبرة الشهداء سويًا وهو يُخبرني عن الأرواح البريئة التي فُقدت بسبب هذا الاستعمار.

جحظت عيناي مرة واحدة وتوقفت دموعي عن الانحدار ليتصلب جسدي بأكمله، غلغلت يدي أكثر داخل التُربة وضربات قلبي تتسارع في رُعب، هذه الرمال أكثر رطوبة من المقابر الأخرى، وكأنها رُدمت مُنذ أيامٍ قليلة، بعد وفاة عبود!!

كاد قلبي يتوّقف وأنا أحاول طرد هذه الأفكار عن ذهني، معرفتي بأسرارهم، يجعلني أكثر خوفًا.

دون وعيٍ مني، بدأت بالحفر والنبش في المقبرة بطريقة هيستيرية حتى أتأكد من شكوكي، أعلم أن النبش بالقبور منافٍ للأخلاق، وهو منافٍ أيضًا بالعقيدة اليهودية، هذا إن كان هناك جُثة من الأساس!!

واصلتُ الحفر والحفر حتى أحدثتُ جوفًا كبيرًا اتسخت ملابسي إثره، لكن ملابسي لم تكن ذات أهمية الآن، فالأهم من ذلك أنني مع الأسف تأكدتُ من شكوكي، تأكدتُ أنهم أكثر حقارة مما أعتقد، فجُثة عبود، لم تكُن موجودة ... بل كانت مسروقة!!

____

تل أبيب : إسرائيل

انتشرت الأقاويل وغمرت الضجة سائر العالم، خاصة بعد هذه المقاطع التي نشرتها بواسطة الحساب الخاص بشارون، ينقصنا فقط القليل من الوقت حتى يتم إلقاء القبض عليه وانتهاء أسطورته للأبد.

كُنت سأفرح بهذا الانتصار لولا بشاعة ما حدث، هؤلاء الأوغاد يثبتون لي في كل مرة أنهم لا يملكون قيد أنملة من الإنسانية، لا هُم يتركون الأحياء على راحتهم، ولا حتى الأموات، وفوق كل ذلك، يعانون من مرض الانتصار، يجب أن ينتصروا في أية معركة حتى ولو تسببوا بقتل العديد من الأبرياء، وحتى لو أجمع العالم على هزيمتهم.

شعرتُ بالاختناق وأنا في طريقي للعودة وبدأت الدموع تنساب على وجنتي بحسرة، وما هي إلا لحظاتُ حتى تحوّل ضيقي إلى هالة كبيرة من الغضب، فإن كانوا قد نجحوا بقتل عبود، لن أتركهم يمثلون بجثته بهذه الوحشية.

توّقفت سيارتي بالمدينة البيضاء حيث يجلس أولئك الغُرباء، لم أكن أعرف ماذا أفعل ومن سيُساعدني في مُهمة كهذه، فأنا لا أعرف أحدًا هنا، لهذا السبب لم يكن لي سواهم، رغم أنني لا أعرفهم بصورة جيدة، لكنني أعرف أنهم استطاعوا السطو على طائرة برُكابها وبالطبع سيستيطعون مساعدتي بما أنوي فعله.

ولجت المنزل في هدوءٍ رغم ارتباكي وكان الجميع في البهو يشاهدون الأخبار التي بدأت تنتشر ويثنون علي بالعربية والفرنسية، حمحمتُ حتى ينتبهوا لي فكانت إيمان أول من لاحظ وجودي لتثب عن الأريكة وتتقدم نحوي بابتسامة بشوشة قالت معها:

-شكرًا أوي .... هُما كدة هيقبضو عليه ؟

أجبتها بنبرة فاترة حاولتُ معها إخفاء ضيقي لكنني لم أفلح أبدًا:

-إيه .... شوية وقت وراح يسوو هيك

قطبت إيمان حاجبيها وهي تتفحص ملامحي المتضايقة التي جعلتها تشُعر بالقلق وتقول:

-هو في إيه ؟ .... في مشكلة ؟

لم أستطع المقاومة أكثر ووجدتني أوميء برأسي إيجابًا وأرفع من صوّتي المُتحشرج إثر دموع الخُذلان وقلة الحيلة التي بدت طاغية على ملامحي:

-نعم ....هناك مُشكلة.....

قُلتها بالفرنسية المُتقطعة وغرقتُ بعدها في وصلة بكاء مريرٍ جعلت إيمان تتفحصني ببعض الشفقة ثم تنتشل ذراعي وتواصل جذبي نحو الأريكة حتى أجلس عليها وأحاول التهدئة من روعي:

-ماذا بكِ ؟

سألتني آنابيا بصوّتٍ رقيقٍ جعلني أرفع رأسي وأحاول التجفيف من دموعي وأنا أقول:

-أحتاج إلى المساعدة .... أرجوكم

لفحتني نظراتهم المتفحصة والحائرة ولاذوا بالصمت لفترة حتى سأل جورج:

-أي مساعدة ؟

سرقتُ نفسًا عميقًا ثم أطلقته وأنا أعترف:

-لا يجب أن أترك لهم عبود .... أرجوكم ساعدوني

باتت كلماتي متقطعة غير مفهومة مما زاد من حيرتهم وجعل مُسلم يندفع بوجهي قليلًا:

-من عبود هذا ؟ .... وكيف يُمكننا المساعدة ؟

استنشقتُ القليل من الهواء مجددًا لأستجمع طاقتي وأنا أقول بثباتٍ غمره طيفٌ من الذكريات:

-عبود هو شاب فلسطيني، من أجمل شباب هذا العالم ..... كان شابًا ذكيًا وشهمًا، يُحب الجميع ويُحب العدل والسلام .... لكنهم...

تقطع صوّتي وامتزج مع دموعي وأنا أواصل:

-لكنهم قتلوه بدمٍ بارد ... كما قتلو العديد من الأبرياء .... وأنا...

أشرتُ على نفسي وأنا أواصل اعترافي:

-أساعدكم لأنني أمقتُ هذا المُستنقع الذي وُلدتُ به .... ولن أسمح لهم بسرقة جُثة عبود

لاحت الصدمة على وجه إيمان وهي تقول:

-ماذا !! .... كيف سرقوا جُثته ؟

آجابها مُسلم هذه المرة بطريقة علمية لا أعرف معها كيف أتى بهذه المعلومات الصحيحة:

-يفعلون ذلك مُنذ قديم الأزل .... يسرقون الجثث الخاصة بالشهداء ويتاجرون بأعضاءها .... وفي العام الماضي، نشرت القناة العاشرة الاسرائيلية تحقيقًا حول هذا الأمر وتضمن التحقيق مجموعة من التصريحات الصادرة عن مسؤولون رفيعو المستوى الذين أقروا بسرقة أعضاءٍ بشرية من جثامين الفلسطينيين لمداواة الجرحى من جنود الاحتلال.... ويتم وضع هذه الأعضاء ببنك اللحم

سقط فك آنابيا في صدمة بينما بقيت إيمان في حالة من الصمت والاشمئزاز حتى واصل مُسلم بعد أن رماني بنظرة عابرة غير مفهومة:

-هذا البنك من أكبر بنوك اللحم في العالم، كما أن شبكة السي إن إن، نشرت تحقيقًا في عام 2008 يؤكد أن اسرائيل تحتل المرتبة الأولى عالميًا في الإتجار بالأعضاء البشرية بشكلٍ غير قانوني

شعرتُ في هذه اللحظة أن إيمان ستتقيأ من الاشمئزاز وهي تهتف باحتقار:

-يا إلهي .... أوصلت بهم الوضاعة لهذه الدرجة!!

رفعتُ رأسي نحوها لأرميها بنظراتٍ قاتمة مليئة بالكراهية وأنا أفضح المزيد من أسرارهم التي أعرفها جيدًا:

-ليس ذلك فقط .... فهُناك منشأة عسكرية تحتجز الفلسطينيين بطريقة وحشية ..... يقومون بإجبار أكثر من عشرين مُعتقلًا بالاستلقاء على الفراش عاريو الجسد معصوبي العينين، مُكبلين بالفراش ويرتدون الحفاضة، ويبقو على هذه الحالة لأكثر من أسبوع، حسب مُدة التحقيقات التي لا تنتهي

جعدت وجهها باشمئزازٍ أكثر وكانت على وشك سبهم سبة بذيئة، أو ربما فعلت ذلك بقرارة نفسها، وهي معها الحق في ذلك، فأنا أيضًا أشعر بالاشمئزاز حينما أفكر بحقارتهم.

-وماذا سنفعل إذا ؟

سأل جورج باستعدادٍ تامٍ لمَ سأمليه عليهم، وبعد فترة وجيزة من الصمت، نصبتُ قامتي وأنا أقول:

-يجب أن نتحرك بسرعة .... لن أترك لهم عبود .... حتى ولو تعرضتُ للخطر

جلس مُسلم على أقرب مقعدٍ وهو يقول باستنتاج:

-هذا يعني أننا سنخترق مجمع حداسة الطبي أليس كذلك ؟

شعرتُ بالغرابة أكثر لأنه يعرف أين يقع بنك اللحم لكنني كبتُ حيرتي وقُلتُ بتحدٍ:

-بالضبط .... لدي خطة باختراق المُجمع واستعادة جُثث الشُهداء....

20يوليو 2015 مجمع حداسة الطبي بأورشليم : اسرائيل

كان هذين اليومين من أكثر الأيام إرهاقًا بالنسبة لي، لم يكن يجب أن ننتظر حتى يتم سرقة أعضاءه والمتاجرة بها، لهذا السبب قُمتُ بإعداد الخُطة بأسرع ما يُمكن وحصلتُ على بعض التصريحات المزٌورة التي ستساعدنا على دخول المُجمع بصفتنا أطباء حديثو التخرج.

يتكوّن المُجمع من حُجرة واسعة تحتوي على أكثر من مئة جُثة لمئة شهيد، فأول من يتم سرقة أعضائهم هم الفلسطينيون، ومن بعدهم المهاجرون ثم العُمال الآجانب، لا يتم أخذ أي عضوٍ من أي يهوديٍ لأن هذا لا يتفق مع عقيدتنا، سرقة الأعضاء عامة لا تتفق مع عقيدتنا لكن لا تتخيَل أن اسرائيل يتبعون أي من الأديان.

انقصمنا إلى فريقين وأخضعنا بعضٌ من الموظفين والأطباء حتى ينقلوا معنا الجُثث ويُعيدونها إلى السُلطة الفلسطينية باعتبارنا أنهينا سرقتها وتفريغها من الأعضاء، كانت خطتنا تتلخص في نقل الجُثث الجديدة إلى الحُجرة الأخرى ونحاول تغطيتها بهذا الغطاء الأزرق الذي يدُل على الانتهاء منها، ولأن الجُثث كانت أكثر من

المتوّقع، قررنا الاستعانة بمجموعة باسلة من المقاوميين الفلسطينيين الذين لن يقبلوا بهذه الحقارة، وقد أوصلني بهم مسعود وأخبرني أنهم على استعداد للتضحية من أجل هذا الوطن.

اقتحم المقاومون حُجرة إخفاء الجُثث متنكرين في زي الأطباء ومعهم تصريحاتٍ مزيفة لأطباء يعملون هنا بالفعل، وبسبب ارتدائهم لأقنعة الوجه، كان صعبًا على الحُراس أن يقوموا بكشفهم.

كانت معي إيمان وآنابيا بينما ذهب مسلم وجورج مع مجموعة من المقاومين لتأمين المكان بالخارج، تجوّلنا قليلًا داخل المُجمع نفتح ثلاجات المؤّتى ونُخرج منها الجُثث حتى يتم تغطيتها ونقلها في الخفاء، وأثناء قيامنا بذلك، توّقفت يدي عِند جُثة عبود، كان شاحبًا خاليٌ من المعالم وشفاهه زرقاء تحفها العديد من الهالات، لازالت أثار الرصاص على صدره وجسده أشبه بكُتلة من الثلج، كان يوجد علامة للمشرط على صدره فعلمتُ أنهم حاولوا العبث بمحتويات جسده لكنهم لم ينتهوا من ذلك، ولن أدعهم يواصلون العبث به وأنا على قيد الحياة.

آحطتُ وجهه النحيل البارد بيداي وبدأت دموعي بالانزلاق وجسدي يرتجف من الألم، نعم ألم فؤادي الذي لم يندمل.

واصلتُ البُكاء في صمتٍ جعل آنابيا تتابعني بشفقة بينما رحلت إيمان لتساعد المقاومون بتغطية الجُثث، شعرتُ بيدٍ حنونة تُوضع على كتفي يليها صوّت آنابيا الرقيق:

-هيا .... يجب أن نرحل

أومأتُ رأسي إيجابًا وتركتُ جُثة عبود لأبتعد القليل من الأمتار فاسحة المجال لواحدُ من المقاومين حتى يرفع جُثته العارية ويقوم بتغطيتها جيدًا وتهيئتها للدفن مرة أخرى.

كِدنا ننجح بهذه المُهمة لولا صوّت العراك الذي نشب خارج الحُجرة يليه أصوات الطلقات النارية..... !!

الفصل العاشر (عنتر وعبلة .... ووالدها !)

((جورج))

20يوليو 2015 المُجمع الطبي حداسة بالقُدس : فلسطين المُحتلة

أصبحتُ متيقنًا أن العالم جعلنا مغناطيسًا، نجذب المصائب نحونا مهما كانت، وهذه المرة، كان الهدف ساميًا.

لا أعرف كيف انطليُت عليهم كذبتنا واعتقدوا بالفعل أننا أطباءٌ اسرائيليون، حتى أنهم سمحوا لنا بنقل الجُثث ووضعها في العربات الكبيرة التي سرقها واحدٌ من المقاومين، وفي هذه الحالة لا تُسمى سرقة، فالسرقة من اللصوص لا تُعد سرقة من الأساس.

يعتقد البعض أن القضية الفلسطينية هي قضية للمسلمين فقط، لكن هذه أكبر كذبة أسمعها في حياتي، هذه قضية جميع العرب، قضية الإنسانية التي لن تقبل بالاستعمار والاضطهاد، هذه الأرض مُقدسة لجميع الأديان السماوية، وأنا بالطبع لن أقف في صف المُعتدين وهُم بدمرون المدينة التي وُلد فيها يسوع عليه السلام.

أنهينا وضع الجُثث وكنا على وشك الرحيل في هدوء، لولا رجل الأمن الذي للحظة شك بنا، وجدناه يقف أمامي وأنا بجوار مُسلم نقوم بغلق باب العربة قبل أن ننطلق بها، وكُنا نقف وقتها على مقربة من البوابة الخارجية ننتظر أن يتم فتح البوابة لنا.

-هل انتهيتم من هذا الكم من الجُثث ؟

سألنا بعدم تصديقٍ حمل نظراته المقتضبة التي آجاب عليها مُسلم بهدوء ولكنة انجليزية جيدة إلى حدٍ ما:

-نعم ... يجب أن نرحل الآن قبل أن تتحلل الجُثث

تفحصنا رجل الأمن لبُرهة طويلة وحاول استشفاف ملامحنا ومطابقتها مع بطاقات الهوية المزيفة التي يحملها، وما إن أنهى تفحصه وجدناه يقول بصرامة:

-انزعا الأقنعة

خرجت تنهيدة سائمة من جوفي إثر تذكري لهذا الموقف الذي يتكرر، لا أعتقد أن الأمر سيمُر بسهولة هذه المرة، لكنني تدخلت مُنتهزًا قُدرتي على الحديث باللغة العبرية، فأنا أتحدث كلًا من العبرية واليونانية من أجل بعض الدواعي الدينية، وحمدًا لله أنني أستطيع ذلك حتى أحادثهم وأحاول تبرئتنا.

-يا سيدي .... نحن هنا من أجل العمل ولا يجب أن نزيح الأقنعة ... فكما تعرف الجُثث تنقل الغازات والجسيمات المُتحللة عبر الهواء .... ومن الممكن أن نُصاب بالبكتيريا والعدوة

لم تكن هذه الكلمات من معلوماتي الخاصة، فجميعها معلومات تلاها علينا مُسلم ونحن ننقل الجُثث حتى نتوّخى الحذر، لكنني استخدمتُ لغة الجُسد الخاصة بالأطباء وأنا أتحدث بثقة وكلماتٍ مُنمقة وقورة استطاعت بمهارة أن تجعل رجل الأمن يرضخ لي ويتركنا وشأننا.

-انت بتتكلم عبري ؟

سألني مُسلم بتفاجؤٍ فأومأتُ رأسي إيجابًا وأنا أقول بفخر:

-طبعًا .... إللي قُدامك ده معاه أربع لغات .... عبري ويوناني وفرنسي وشوية انجليزي ... إنتُ فاكرني أي حد ولا إيه

لم يكُن يبدو عليه الفخر والتفاجؤ كما توّقعت، بل كان يرميني بنظراتٍ لا مبالية تحوّلت إلى أخرى مُفكرة حتى وجدته يُغلق باب العربة بإحكام ويتجه مجددًا صوّب المُجمع:

-حيث كدة بقى .... تعالى معايا

قطبتُ حاجباي بحيرة وأنا أتابعه يجذبني عنوة صوّب الباب دون أي سبب، فنحن قد أنهينا نقل الجُثث وبقي فقط أن ننتظر البقية حتى نرحل من هنا في سلام.

-آجي فين ؟

لم يُجب على سؤالي وواصل دفعي صوّب الباب حتى توّقف أمام رجل الأمن متفوّهًا بصوّتٍ هامس:

-قوله إننا نسينا حاجات جوة وعايزين نُدخل نجيبها

قطبتُ حاجباي مُجددًا والحيرة قد تملكت مني لكنني مع ذلك نفذتُ ما يقوله على أمل أن أفهم في النهاية.

دلفنا المجمع مجددًا وصعدنا الدرجات حتى الطابق الثاني حيث بنك اللحم، كان يتحرك بحركاتٍ سريعة وأقدامٍ تتجه نحو مُختبر الكيمياء الحيوية، تابعته في صمتٍ حتى أفهم ما يُريد، فلا يوجد جُثث هنا، لا يوجد سوى المعامل التي يتم استخدامها في حفظ الأعضاء .... مهلًا، الأعضاء المسروقة!!

أدركتُ المغزى من مجيئنا لكنني لم أبادر بأي شيء، أو لم ألحق حتى المبادرة، فكان مُسلم قد أخرج سلاحه الذي أخذناه من المقاوميين للدفاع عن النفس، يبدو أن مُسلم لم يفهم بعد كلمة " الدفاع عن النفس"

-طالما جينا هنا .... يبقى نعمل إللي علينا

أنهى كلماته وهو يضغط الزناد ويُطلق رصاصة على باب المُختبر أدت إلى فتحه وتسببت أيضًا بذعر العُلماء والأطباء، وما كُنت أفكر فيه، هو أن ما يفعله مُسلم هو ضربٌ من الجنون، من أنقذنا من الموت هو مجموعة المقاومين الذين أتوا واخرجوا أسلحتهم ليبدأ بعدها تبادل الطلقات بين رجال الأمن وضباط الاحتلال وبين المقاومين، بينما توّغل مُسلم داخل المُختبر وأطلق النيران على الخزانة ثم انتشل حاوية القمامة وأفرغها من محتوياتها وبدأ يُدمر المعمل بكل غلٍ يحمله.

لا أنكر أنني ساعدته فيما بعد وبدأتُ أنا الآخر بتدمير هذا المعمل الذي يحتوي على الأعضاء المسروقة، صحيحُ أننا نجحنا بإخراج الجُثث لكننا لن نتركهم ينتفعون بهذه الأعضاء.

بقينا نُحطم ونُحطم حتى داهمتنا الطلقات النارية وبدأت تتبادل بالقُرب من المُعمل؛ اختبأتُ بجوار مُسلم خوفًا من الرصاصات بينما رفع مُسلم سلاحه وبدأ يُطلق النيران بمهارة جعلتني أكاد أكون متيقنًا أن مُسلم هو ضابطٌ متقاعدٌ واتجه للتجارة، أو ربما هو جاسوس وعضوٌ في المخابرات، فمهاراته القتالية فريدة من نوعها، وذكاءه الفطري لا يجعله سوى جاسوسًا، أوه ... سُيكتب اسمنا في التاريخ أخيرًا وسيتم إنتاج العديد من الأفلام لنا.

تبًا، ما الذي أفكر فيه الآن ؟ أنا لا أعرف حتى إن كنا سننجح في الخروج من هنا.

غطيتُ أذناي بيداي حتى لا أسمع أصوات الطلقات النارية وتجعلني أتبوّل على سروالي من الخوف، وعندما هدأ تبادل النيران، استنتجتُ أن المقاومون انتهوا من اثنين من الضُباط وأصابوا ثلاثة، ومُسلم وحده قتل واحدٌ منهم وأصاب أكثر من اثنين، كما أصيب واحدٌ من المقاومين لكن إصابته كانت هينة لأننا توّخينا الحذر جيدًا في هذا الهجوم .... لكن الهجوم لم ينتهي بعد.

استطعنا تدمير المخُتبر وإفساد أعمالهم الشيطانية فقررنا الانسحاب قبل أن يتحوّل الأمر إلى معركة دامية، بدأنا بالتحرُك تدريجيًا ومراقبة إيمان وراموئيل وآنابيا وهن يرحلن في الخفاء متخفيين بين الممرضين، وكانت راموئيل تحُيطهن وتؤمن لهن الطريق.

جذبني مُسلم كالماشية وبدأ يتحرك معي في الرُدهة حتى نبتعد عن الضباط الذين يُلاحقوننا، توّقفنا عن الركض لنلتقط أنفاسنا بالقُرب من إحدى المعامل، فكان العرق يتصبب من جبيننا ويسقط على الأرض كالأمطار الغزيرة، زادت هرولة الأقدام وبدأت تقترب نحونا مما أوقد العديد من النيران داخل قلوبنا.

أخرج مُسلم سلاحه وحاول التصوّيب به والقضاء عليهم لكنه صُدم بنفاد الذخيرة، أي أننا انتيهنا.

أعلم أنني لستُ فتاة، لكنني أقسم أنني كُنت أولول وأندب في حظي كالسيدات:

-يعني خلاص ... انتهينا ؟

رفعتُ رأسي لأعلى وأنا أواصل السب والندب:

-يعني إنت مجنون وعايز تموّت نفسك ... أنا مال أمي بالليلة دي، أنا المرة الوحيدة إللي ضربت بيها بالمسدس كانت في .... GTA وأخرتها هموت هنا_

قطعني مُسلم بنظراتٍ مستهجنة قال معها:

-ما تخرس بقى .... بعدين إنت لو موت هنا هتبقى شهيد

-إنت كدة بتطمني ؟

بالطبع أعلم أنني إذا لقيتُ حتفي هنا سيتم تكريمي_هذا إذا علموا من أنا من الأساس_ لكن غريزة البقاء تجعلني أخشى الموت في كل مرة، أنا لستُ معتادًا على تلك المخاطر، ومُنذ قراري لمساعدة ابنة خالتي تعيسة الحظ، وأنا أواجه الموت في كل ساعة.

-تعالى ... أنا عرفت هنهرب إزاي

أيقظني مُسلم بهذه الكلمات الأشبه بشعلة من الضوء وسط ظلامٍ حالكٍ، كان يجذبني بعدها من ذراعي ويركل باب إحدى الحُجرات الخالية والتي يبدو أنها حُجرة خاصة بالمرضى، لا زال صوّت الهرولة يضرب خلف آذاننا ويجعل صدري يتحطم من القلق.

-هنعمل إيه ؟

سألته بتيهٍ حمل قلقي العارم وكانت إجابته كفيلة بجعلي أهوي على الأرض من الخوف.

-هنُط

تيبس جسدي على الأرض ولم أستطع تحريكه قيد أنملة، هل قال أننا سنقفز أم أنني أتوّهم ؟ هل يريدنا أن نموت بطريقة أسرع ؟ ... حسنًا أنا الآن أفضل أن أستشهد على أن أموت هذه الميتة.

-يلا اتحرك هيدخلولنا

جذبني مُسلم عنوة حتى وقفنا على حافة النافذة، زادت رجفة جسدي هذه المرة وأصبحت قدماي رخوة كحلوى الهُلام.

-إيــه ...بقولك إيه .... أنا ... أنااا... أنا شكلي عايز أخُش الحمام

لم أكن أكذب وقتها، فأنا بالفعل سأبلل سروالي من الخوف.

-ما تخلص هو وقته

صُرخ مُسلم بوجهي وحاول إجباري على القفز لكن محاولاته لم تنجح سوى في جعلي أكثر خوًفًا:

-ط..طب استنى أصلي الأول

لم يتركني لأؤدي آخر صلاة لي وأخبرني أن أؤديها حالما نقفز من هنا، هذا إن بقينا على قيد الحياة، أقسم أنني كُنت سأبكي في تلك اللحظة لكنني لم أفعل ذلك واكتفيتُ بارتجافة جسدي الذي أصبح وكأنه شعلة من الكهرباء.

جلس مُسلم على حافة النافذة وأجبرني على الجلوس بجواره، حاول طمأنتي أن العربة ستأتي وتقف أسفلنا ولن نتأذى، لكن القفز من مسافة كهذه ورؤيتها من الأعلى، كادت تجعلني أصاب بالدوار وأحاول التراجع لكن لا فائدة، فالأقدام تقترب أكثر ... وأكثر ... بقيت تقترب حتى....

لفحني الهواء السريع ونحن نقفز من أعلى ويرتطم جسدنا بسقف العربة؛ التوّى كاحلي وأنا أسقط على سقف العربة وأطلق تأوهًا عاليًا وأنا أتلوى كالذبيحة يمينًا

ويسارًا بجسدٍ مُحطمٍ لا أعرف كيف سأستخدمه فيما بعد، على كُل حال، تحركت العربة بأقسى سُرعة لنخرج من ذاك المُجمع للأبد...

____

مقبرة الشُهداء / رام الله : فلسطين

سلْمنا جميع الجُثث إلى السُلطة الفلسطينية وانتشر هجومنا بين صفحات الجرائد والإعلام، أطلق عليه البعض عملية إرهابية والبعض الآخر أطلق عليه عملية نبيلة هدفها سامٍ، وأنا بالطبع مع الرأي الثاني، فهذه أول كارثة أفعلها عن طيب خاطر، خاصة وأنني أكاد أكون متيقنًا أن هذا المدعو بشارون على شفا جرفة من الانهيار خاصة بعد عمليتنا، وسنقترب أكثر من استعادة تيا_ابنة إيمان_ والرحيل من هنا قبل أن نُحدث فوضى دبلوماسية.

ساعدنا بعض المقاومين في دفن جُثة عبود بمكانها ووقفنا جميعنا نقرأ عليه آياتٌ من القرآن، فيما عداي أنا وآنابيا كُنا نتابعهم من بعيد ونتمنى له الراحة في قبره، فحتى راموئيل كانت تُشاركهم وتنهمر دموعها مما جعلني أوقن أن ما كان بينها وبين هذا المدعو بعبود أكبر مما كُنت أتخيل، لدرجة تجعلها تتمرد على رعيتها.

انفض الجمع بعدها ورحل الجميع بعد أن وضعوا بعض الأزهار البيضاء، كانت إيمان تعبث بهاتفها وعلامات الضيق على وجهها، فقد علِمنا أن ما فعلناه لشارون كان هباءً، فما هي إلا بضع ساعاتٍ حتى قام بتنزيلٍ منشورٍ ينفي به جميع المنشورات التي أطلقت على صفحته دون علمه، كما أنه أخبر الجميع أن حسابه تم اختراقه وأنه قد أنشأ حسابًا آخرًا أكثر آمنًا واحكامًا، لم أشعر بالذهول أبدًا، فأنا أعرف أن الإيقاع به ليس بهذه السهولة وفق ما قالته راموئيل، يبدو أن ابنة خالتي تعيسة الحظ بالفعل.

جلست راموئيل على الأرض أمام المقبرة في حالة من الصمت، فقط تُريد البقاء مع نصفها الآخر كي تحاكيه بنظراتها النادمة، أما عن مُسلم فكان يتحدث مع إيمان ويحاول تهدئتها وبثها بعض الأمل، كُنت ممتنًا له في تلك اللحظة، فهو الوحيد الذي يُساعدنا بدون مقابل، أو ربما يوجد مقابلٌ وأنا لا أعرفه.

-هل أنت بخير ؟

لفحني هذا السؤال الرقيق النابع من كتلة البراءة التي تقف بجواري .... آنابيا.

رسمتُ بسمة مطمئنة على ثغري وأنا أوميء برأسي إيجابًا وأشعر بالفراشات تتطاير داخل فؤادي، فهي بالطبع قد شعرت بالقلق علي بعد قفزي لهذه القفزة.

-أنت شُجاعٌ للغاية

قالتها بفخرٍ جعلني أكاد أخرج القلوب من عيناي، رغم أنني كُنت كالفرخ المبلول وأنا في تلك المُهمة، لكن هذا لا يُهم، هي قد أثنت علي وهذا يكفي.

-وأنتِ كذلك شجاعة .... رغم برائتكِ

أحنت رأسها بخجلٍ طفولي، وما هي إلا لحظاتٍ حتى تحوّل هذا الخجل إلى بعض الانكسار وهي تقول:

-لم يُخبرني أحدهم من قبل أنني شجاعة .... دائمًا يقولون أنني بلا فائدة

ذبُلت ملامحي مرة واحدة وأردتُ في تلك اللحظة أن أضمها وأربت على ظهرها وأنا أكذب حديثهم بحدة، لكنني بدلًا من ذلك، حاولتُ النظر إلى عينيها الخضراء اللؤلؤية وأنا أقول لها بهدوء:

-كيف وأنتِ أنقذتيننا مرتين .... مرة بفرنسا ومرة الآن

حاولتُ تذكيرها بمساعداتها لنا بفرنسا وما فعلته اليوم من بطولاتٍ لا يجب أن يقول عنها أحد أنها بلا فائدة، فهي التي أنقذتنا من الحضيض وساعدتنا بما لديها.

-أنتِ مثل الجواهر آنابيا .... يعتقد البعض أنها مجرد حجارة ثمينة لا فائدة منها .... لكن الحقيقة أن من يرى أهميتها، هو فقط من يُقدر جمالها ورونقها

استطعتُ بكلماتي الهادئة أن أجعلها تتبسم بحرجٍ وترميني بنظراتٍ شاكرة لطيفة، لم تستطع التعليق على كلماتي الهائمة وبقيت في حالة من الصمت والخجل حتى بادرتُ بالاقتراح:

-ما رأيكِ في الذهاب إلى كنيسة القيامة ؟.... بما أننا قريبون من القُدس

لم تنبس ببنت شفة واكتفت بالإيماء برأسها مما جعل الحماس يتغلغل داخل صدري ويدفعني للتحرُك صوّب إيمان والبقية، فما إن وثبتُ بينهم حتى وجدتُ راموئيل قد وثبت عن الأرض تُجفف دموعها العالقة بين جفونها وتحتفظ باحمرار عينيها وانتفاخ أنفها إثر البكاء المرير.

-لا أعرف كيف أشكركم على هذه الخدمة ... أعدكم أنني سأفعل ما بوسعي حتى ننل من شارون ونجبره على إعادة ابنتكِ

قالتها راموئيل بلكنة مُتحدية ولغة فرنسية حتى تفهمها آنابيا، لكن إيمان سألت بضيقٍ وخيبة أمل:

-ماذا سنفعل ؟

لم تُجبها راموئيل وبقيت تُفكر لوهلة حتى أردفت في النهاية:

-لا أعرف .... لكننا سنجلس في مكانٍ هاديء ونتفق على ما سنفعله

حمحمتُ حتى ينتبهوا لي ويتوّقفوا عن الحديث، فأنا بالفعل قد سأمتُ من المهام والإرهاق البدني والذهني، نحن بالفعل بحاجة إلى بعض الراحة ولو لفترة قصيرة حتى نشحذ قوّتنا من جديد:

-أنا وآنابيا نُريد الذهاب إلى بيت لحم .... أعتقد أن من حقنا أخذ بعض الراحة

قُلتها بمدافعة حتى يتركوننا وشأننا، وللعجب، كانت نظرات الموافقة على وجوههم حتى بادرت إيمان بالاقتراح:

-معك حق .... وسنذهب نحن أيضًا إلى المسجد الأقصى ... أريد الذهاب إليه منذ فترة طويلة

أومأت راموئيل إيجابًا وهي توافق على حديثنا بجمود:

-حسنًا إذا ... يمكننا قضاء بعض الوقت والحديث بالمسجد الأقصى وأنتما يُمكنكما الذهاب إلى بيت لحم.... وسنضع بعدها الخطط عندما نعود إلى تل أبيب....

____

بيت لحم : فلسطين

الراحة الحقيقية هي الراحة التي تأتي بعد شقاءٍ دام لأيام أو حتى سنوات، هكذا كُنت أفكر وأنا أتجوّل في تلك المنطقة المُقدسة قُرب كنيسة المهد، كانت آنابيا تجاورني وهي تراقب المكان بذهولٍ وإعجاب، لم تكن تعرف حتى أن تلك الكنيسة هي التي وُلد المسيح في موقعها، ولم تكن تعرف حتى أن كنيسة القيامة_ التي ذهبنا إليها فيما بعد_ سُميت بهذا الاسم نسبة إلى قيامة السيد المسيح بعد صُلبه.

أخرجت هاتفها وأخذت تلتقط العديد من الصوّر لصخرة الجلجلة والقبر المُقدس، وكذلك باب الكنيسة الذي يحمل نقوشًا باللغة التركية ذات الأحرف العربية والتي هي عبارة عن أناشيد وتراتيل إنجيلية.

لم تكن تعرف شيئًا عن دينها، ولا حتى عن أي مذهب تتبع، لذلك انتهزتُ الفُرصة وقصصتُ عليها كيف كانت مريم مخطوبة ليوسف وقبل أن يجتمعا وجدت نفسها حُبلى من الروح القُدس، وكيف آراد يوسف تخليتها سرًا (أي تطليقها أمام الشهود لكن بدون علة) وعندما كان يُفكر في هذا الأمر ظهر له ملاك الرب في الحُلم قائلًا " يا يوسف ابن داوود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حُبل به فيها هو من روح القُدس، فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع، لأنه يُخلص شعبه من خطاياهم " وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب " هوذا العذراء تحبل وتلد ابنًا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره " الله معنا " فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك

الرب وأخذ امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع، وهذا وفق ما كُتب في انجيل متى.

أنهيتُ حديثي معها أمام عوالم الذهول المنطلية على وجهها، تعجبت من كوني أعرف الكثير عن ديانتي وتعجبت كذلك من اتقاني للغة العبرية واليونانية حتى أستطيع قراءة الكتاب المُقدس والإنجيل بنسختهما الأصلية، كما أنني أحب علم النفس والفلسفة ولن أجد أفضل من اليونانيين في ذلك.

-كيف هي اليونانية ؟ .... هل هي لغة صعبة، أم أن العبرية والفرنسية أصعب ؟

سألتني بفضولٍ وذهولٍ من معرفتي لكل هذه اللغات، وهي لا تتحدث سوى الفرنسية والانجليزية التي تعلمتها بالمدرسة.

-لا ... ليست صعبة أبدًا .... ربما أكثر لغة أحبها من بينهم

همهمت بتفهمٍ ثم سألت:

-ولماذا تُحبها لهذه الدرجة ؟

رسمتُ بسمة واسعة وأنا أراقب عينيها الخضراء اللؤلؤية البريئة مع وجنتيها الطفولية، ودون أن أنتبه لحديثي وجدتني أقول بهيام:

-أحبها لأنها .... لأنها بريئة .... ساحرة.... تجذبني نحوها دون أن أعرف

لاحظت عيناي الشغوفتان فتوّردت وجنتيها بخجل وأخذت ترمق الأرضية ببسمة مُحرجة جعلتني أتدارك ما أقول بتوتر:

-أأ....أتحدث عن اليونانية

أومأت رأسها بتصديقٍ زائفٍ لحديثي ثم بقينا لفترة وجيزة من الصمت والسير حتى قالت بقلق:

-والدي يكره العرب .... ولو رآنا سويًا .... حتمًا سيقوم بتوٌبيخي، خاصة بعد ما فعلته

أنهت الحديث بعبوسٍ جعلني أتوٌقف عن السير وأحاول طمأنتها:

-لا تقلقي .... سأبقى معكِ مثلما بقى عنترة مع حبيبته عبلة حتى تزوجها

كُنت ألمٌح لها للمرة التي لا أعلم عددها وهي تتجاهلني أو تتعمد تجاهلي كالعادة، فكانت تُقطب حاجبيها بحيرة سألت معها:

-من هذا الرجل ؟ .... ومن هي عبلة ؟

اتسعت بسمتي بلهفة وأنا أُفسر لها لعلها تفهمني هذه المرة:

-عنترة هو من أشهر شُعراء العرب، اشتُهر بقوته وشجاعته، وكان والده يعامله كالعبيد بسبب سواده... أحب ابنة عمه عبلة أعظم حُبٍ وأشده، وكانت أجمل نساء قومها، لكن أبيها حال دون زواجهما فقط لأن عنترةً أسوٌد البشرة، حتى بعد أن كرمٌه قومه.... لكن عنترة تحدٌى العالم، وتحدٌى أبيها حتى تزوٌج منها في النهاية

ابتسمت بإعجابٍ على حديثي وكانت ابتسامتها طفولية تُشبه بسمة الأطفال حينما أنتهي من سرد إحدى الحكايات أمامهم.

-وما علاقة هذه الحكاية بنا .... هل أنا مثل عبلة ؟

وقفت قبالتها أحاول تنظيم أنفاسي والنظر في عينيها لأفصح عمَ يجيش بصدري، سأمتُ من التلميحات التي لا طائل منها، وحان الوقت حتى أفصح عن حقيقة مشاعري.

-نعم ... أنتِ هي عبلة .... وأنا عنترة الذي سيتحدٌى العالم من أجلِك

لاح على وجهها عوالم الإبهام وعدم الفهم مما جعلني أفسر أكثر بشجاعة:

-آنابيا أنااا....

تنهدتُ وأنا أستجمع قواي ثم رفعتُ عيناي نحوها متفوّهًا:

-أحبكِ آنابيا .... منذ الوهلة الأولى وأنا أحبِك .... ولن أقدر على الكُتمان أكثر من ذلك، حتى وسط هذه الظروف

توّردت وجنتيها في خجلٍ ولم تُعقب، طفقت تتحرك أمامي في صمتٍ دون ردة فعل حتى ظننتُ أنها سترفضني وستُقرر الهرب، أو ربما تضعني في خانة الأصدقاء.

هروّلتُ نحوها حتى بِت أسير بجوارها محاولًا استشفاف ردة فعلها غير المتوّقعة:

-ألن تُعقبي ؟

سألتها بلهفة لأجدها ترفع عينيها الخضراء نحوي متفوّهة:

-أعرف أنك تُحبني ... وأنا كذلك أحبك

إن كان لفؤادي صوّتًا لمَ طفق يُهلل الآن، شعرتُ بضربات قلبي تتسارع وفراشاتُ تُرفرف حولي، أهي تعترف الآن أنها تُحبني أم أنني داخل واحدة من أحلامي.

زادت من سُرعة أقدامها وكأنها تحاول الهرب قبل أن تتحوّل إلى كُتلة من الخجل، حاولتُ السير بمحاذاتها وأنا أقول بعدم تصديق:

-هذا يعني أننا .... من الممكن أن نتزوج ؟

تلاشت عوالم الحرج عن وجهها وحلّ محلها عوالم الضيق والعبوس أثناء قولها:

-لا أعرف .... ولا أعتقد أنني مناسبة

توقفتُ عن السير لأقف قبالتها أمسكُ أناملها الباردة مُجبرًا إياها على النظر في عيناي لأبثها سُبل الاطمئنان بحديثي:

-لن أتزوّج غيركِ ... حتى ولو أجبرونني على غير ذلك .... ثم من قال لكِ أنكِ غير مناسبة ؟ ألا تكفي ابتسامتكِ البريئة التي تُذيبني ؟

بدأت تبتسم في خجلٍ ولم تُعقب، لكن ابتسامتها تلاشت مرة واحدة لتتسع حدقتيها في صدمة وهي ترفع رأسها قليلًا وتوّجهها في نقطة خلف ظهري، تعجبتُ من ملامحها التي تغيرَت مرة واحدة حتى وجدتها تُطلق شهقة مصدومة من جوفها وهي تقول:

-أبي!!

نعم، من يثب خلفي الآن هو .... والدها!!

الفصل الحادي عشر (مواجهة حاسمة)

((جورج))

20يوليو 2015 بيت لحم : فلسطين

حياتنا أشبه بمن اعتقد أنه استطاع الهرب من راشقة صاروخية ليتفاجأ بهذه الراشقة تُلقى عليه من مكانٍ آخر....

تيبس جسدي على الأرض وبدأتُ الاستدارة ببطء لتتقابل عيناي بعيني هذا الرجل ذو النظرات الحارقة، لم أكن قد رأيتُ والد آنابيا من قبل، وكانت هذه أول مقابلة بيننا، وياليتها لم تكُن.

شُعرت أن أحدهم أمسك خنجره ومزّق بها حنجرتي، فلا أنا قادرٌ على الحديث، ولا على التنُفس حتى، لا أعرف ماذا أفعل، يتملّكني العجز والتيه لدرجة تجعلني أرتكب أمورًا لم أخطط لها، خاصة وأنا أرى ملامح آنابيا تنقلب مئة وثمانون درجة وتتحوّل براءتها إلى شهقاتٍ مرتعدة ترقرقت معها القليل من الدموع.

-هل ظننتي أنكِ ستستطيعين الهرب بهذه البساطة ؟ .... هل ظننتي أنني لن أعرف أنكِ مع مجموعة من الحثالة تقومون بنشر الفساد ؟

كانت كلماته رعدية غاضبة جعلت الدماء تتدفق بعروقي، ومع ذلك حافظتُ على صمتي ولم أتدخل حتى لا أفسد الأمر، فقط أتمسك بأنامل آنابيا جيدًا محاولًا بثها بعض الطمأنينة.

-لا تقل عنهم حثالة_

صرخت آنابيا بوجهه بين دموعها المُترقرقة لكن والدها بتر كلماتها بسبابة مُهددة آشارها أمام عينيها اللؤلؤية:

-أصمتي أيتها الحقيرة .... كيف تتجرأين على عصيان أوامري ؟

وهنا ولم أعُد أتحمّل الصمت، خاصة وهو يُهينها أمام عيني؛ أطبقتُ على شفتاي بحنقٍ لأترك بعدها أنامل آنابيا وأندفع صوّب هذا الكهل لأبعده عن طريقنا وأنا أهتف بملامح متجهمة:

-إبتعد عن هنا ... عساك أن تنعتها بالحقيرة مجددًا ... أفهمت

كانت كلماتي مُهددة وعيناي تُطلق شراراتٍ من اللهب كفيلة بإحراق العالم، كما أن دموع آنابيا لم تتوّقف عن الانهمار وحاولت إبعادي عن والدها خوّفًا من أذيته لي، فكما علِمتُ مؤخرًا، اتضح أن آنابيا من عائلة غنية، والدها رجلٌ أعمالٍ مرموقٍ في فرنسا، ووالدتها توّفيت منذ فترة مما جعلها مُرغمة على الانصياع لوالدها المُتكبر وعشيقته المُتسلطة، لكن ليس بعد الآن، فهي الآن تحت رعايتي، حتى لو لم أتزوجها بعد.

-لا تتدخل أيها العربي المُجرم .... ابنتي ستعود معي رغمًا عن أنفها

قالها وهو يمدٌ ذراعه لينتشل آنابيا التي اختبأت خلف ظهري في ذعر، حتى أنني وجدتها تتمسك بثيابي وكأنها تحتمي بي من شرور العالم.

تملكني الغضب وقتها وقبضتُ على ذراع والدها لوكاس قبضة قاسية لأدفعه بعدها عدة أمتارٍ للوراء، كانت عيناي مُشتعلة وأنا أهتف بوجهه بحدة:

-أخبرتك أن تبتعد .... آنابيا لن تأتي معك ... أليس كذلك آنابيا ؟

هدأتُ من نبرتي وأنا أسالها لأجدها تومىء برأسها إيماءة بطيئة قالت معها بصوّتٍ واهن:

-نعم .... سأبقى مع جورج

كادت كلماتها البريئة تجعلني أبتسم رغمًا عني رغم ضيق الموّقف، لكنني حافظتُ على ثباتي وأنا أرمق والدها بنظراتٍ واثقة صارمة جعلته يُطلق زفراتٍ حارقة قبل أن يبصق بوجهنا:

-حسنًا .... لكِ ما شِئتي .... لكن لا تندمي فيما بعد

بصق كلماته المُهددة ثم رحل من أمامنا لأتفاجأ بمجموعة من الأشخاص يلتفون حولنا ليراقبوا ما يحدث، وما إن رحل والدها حتى اجهشت آنابيا في البكاء والانهيار دون توّقف، حاولتُ أن أهدئها قدر الإمكان لكنني لم أستطع، لذلك تحركتُ معها بروية لأقرب مقعدٍ قابلنا وأجلستها عليه لأخرج محرمًا من جيبي وأحاول كفكفة دموعها التي أغرقت وجهها:

-لا تبكي أرجوكِ .... ها هو قد رحل، ولن يأتي مُجددًا ... لا تقلقي

باتت عوالم عدم التصديق تلوح على وجهها لتنزلق المزيد من عبراتها أثناء قولها المُتقطع:

-سيعود ... أنا متأكدة، هو لن يتركني هنا .... أنا خائفة

انخرطتُ مجددًا في البكاء مما جعل فؤادي يتمزق، أقسم أن الحجارة كادت تبكي معنا في تلك اللحظة.

وجدتني أضمها إلى كنفي محاولًا حجبها عن العالم، جسدها لا يتوّقف عن الارتجاف وكان ساخنًا كشمسٍ شديدة الالتهاب، أردتُ في تلك اللحظة أن أخبئها بين ضلوعي، فهي فتاةُ هشة لن تتحمل المزيد من الخُذلان، خاصة لو كان هذا الخُذلان ممن اعتقدته في يومٍ من الأيام سندًا لها.

-أعدِك أنني سأحميكي من شرور العالم .... وسأحميكي من والدكِ .... لكن لا تبكي أرجوكِ، دموعكِ تجعلني أتمزق إربًا

أبعدتها عني لأُحدق بعيونها الذابلة ووجهها الأحمر، لم تُحرك عينيها نحوي وكانت عوالم الانكسار تلوح على وجهها وهي تمسك بمحرمي المُبلل وتحاول استخدامه لتجفيف مُخاطها ودموعها.

-جميعنا سنظل بجواركِ ولن نتخلّى عنكِ أبدًا .... وأنا سأتزوجكِ وأجعل اسمكِ مُقترنًا باسمي .... لن يجرؤ أحدٌ على ابعادكِ عني .... فقط ثقي بذلك

حاولتُ قدر الإمكان تهدئتها حتى بدأت تستكين وتوميء برأسها إيجابًا، لا أعلم إن كانت تُصدقني أم تخشى علي، لكنني سأنفذ وعدي لها، حتى ولو كانت حياتي هي المقابل....

القُدس : فلسطين

استطعنا بعد عناءٍ أن نستقل سيارة الأجرة ونذهب إلى القُدس بعد أن أسدلت السماء ستارها، بيت لحم قريبة من القُدس لكن المُعتدين يحتلون جزءًا كبيرًا من تلك المدينة بما في ذلك المسجد الأقصى، لذلك تعيُن علينا المرور بالعديد من الحواجز والبوابات حتى تأكدوا أننا لسنا فلسطينيان، وللعجب، عاملنا ضباط الاحتلال بصورة جيدة، ليس لأننا أغراب، بل لأننا نحمل الجنسية الفرنسية، جنسية آنابيا الحقيقية وجنسيتي المزيفة، كما أننا مسيحيان، وهذا ما يجعلهم يعاملوننا بطريقة جيدة حتى لا يتعاركوا مع المُجتمع المسيحي، أي الغربي.

على كُلٍ، كانت الساعة قد شارفت على الحادية عشر مساءً، وفي هذا اليوم الطويل وددتُ لو أننا نعود إلى تل أبيب وننام نومة طويلة، أو ربما ننام هنا في هذه الليلة، المهم أننا نغُط في نومٍ عميق، فما أريده الآن هو التمدد على الفراش والتنعُم بالهدوء فقط، فلازال كاحلي يؤلمني إثر هذه القفزة ويؤلمني أكثر بعد تجوّلي مع آنابيا.

لم يكُن محببًا أن نذهب إلى هذا المسجد المليء بالمسلمين، هذا ما قاله لنا جنود الاحتلال لكننا لم نكترث لهم، فلا يوجد خطرٌ هنا غيرهم، وكان المسجد الأقصى يختلف تمام الاختلاف عما نراه في وسائل التواصل الاجتماعي، فلا توّجد هذه القبة الذهبية والبناء الأشبه بالأبنية الجرافيكية الزرقاء، بل كان المسجد يعتج بالأتربة ويعتليه قبة داكنة عفا عليها الزمن، لكنه مع ذلك يحتفظ برونقه وتراثه رغم قلة الاعتناء به.

كُنت قد سألتُهم عن هذا الأمر فور مجيئي أنا وآنابيا لأجد مُسلم يُخبرني أن ما نراه من صوَّرٍ على وسائل التواصل لم يكن المسجد الأقصى، بل كان قبة الصخرة، وهذا ما يُريده الكيان الصهيوني، فهدفهم الأول هو هدم المسجد الأقصى لإعادة بناء هيكلهم الثالث، لكنهم إذا فعلوا ذلك أمام الملأ لن يتركهم العالم، خاصة المُجتمع الإسلامي؛ لهذا السبب يحاولون حجب الصوَّر الحقيقية للمسجد الأقصى واستبدالها بصوَّر مسجد قبة الصخرة حتى لا يُلاحظ العالم أنهم يهدمون المسجد ببطء!!

جلسنا على الأرض في تلك الباحة المقابلة للمسجد وكانت راموئيل تحمل معها الحاسوب تعبث به بإمعان وبجوارها إيمان ومُسلم من الجهة الأخرى، حيث يُشير لها مسلم بما تفعل وإيمان تُراقب في صمتٍ وقلق، جلستُ بهدوءٍ بجوار إيمان أقترب من أذنها هامسًا:

-لما أقولِك بعد كدة إني دنجوان ومعديها .... تبقي تصدقيني بعد كدة

قُلتها بنبرة واثقة فخروة بما حققته اليوم، لكن ثقتي قد تُرجمت إلى قلقٍ انطلي على وجه إيمان التي بادلتني الهمس:

-إنت عملت إيه ؟

رسمتُ بسمة متبهنسة على ثغري وأنا أجيب:

-علُقتها وخليتها تعترفلي بُحبها .... عشان تعرفي بس إن أنا مش أي حد

عدُلت من ياقة قميصي بفخرٍ قابلته إيمان بنبرة تحمل بعض الغضب:

-هو إنت يا بني آدم معندكش دم .... آنابيا مش ناقصة إن حد يلعب بمشاعرها

آصابتني كلماتها ببعض الغضب الذي جعلني أهتف بإنفعالٍ صادق:

-ومين قالِك إني بلعب بمشاعرها ؟ .... أنا فعلًا بحب آنابيا، ولما نرجع مصر هنتجوز....

أبعدتُ نظراتي عن إيمان وأنا أواصل:

-صحيح أنا في الأول كُنت واخد الموضوع تسلية .... بس دلوقتي الوضع اتغير .... آنابيا تستاهل إن حد يحبها

آصابتها كلماتي الصادقة في صميم قلبها وجعلتها ترميني بابتسامة لا أعرف إن كانت فخورة أم ساخرة، لكنها ربتت على كتفي تربيتة أخوية حنونة قالت معها:

-ربنا يسهلك ... أهو على الأقل حد فينا يطلع بحاجة....

رفعت سبابتها وهي تقول بتحذير:

-بس خُد بالك منها .... ولو عملتلها حاجة أنا إللي هقُفلك .... آنابيا غلبانة وملهاش حد

بادلتها بربتة أخرى مُطمئنة وأنا أخبرها بعيناي أن آنابيا أصبحت الآن جُزءًا من فؤادي ولن أقدر على أن أمسها بسوء، فإذا آصابها مكروه، فهو سيُصيبني أنا الآخر.

لم أتوّقع أبدًا أن أقع في مُستنقع الحُب، فلطالما كُنت أحلل الجميع وأعثر على ثغرة في جميع النساء اللآي أقابلهن حتى لا أقع في بئر الحُب العميق، آنابيا لم تحتل موّطني حتى تجعلني أهيم بها، فالاحتلال لا يُخلف وراءه سوى الفوضى والفساد، لكنها آحاطتني بأسوارها وبنت موطنها حولي، ليُصبح موطني هو موطنها، وحياتها هي حياتي.

-رفاق .... وجدتُ طريقة للإيقاع بشارون

آفاقتني راموئيل بتلك الكلمات الصارمة وجعلتني أترك الحديقة المليئة بالفراشات التي كُنت غارقًا بها في ذهني وأنتبه إلى ذاك الواقع المرير، وجدتُ راموئيل تتقدم بجذعها للأمام وتضع حاسوبها في مُنتصف الدائرة وهي تشرح الخطة بقيادية:

-يمُكننا اتباع الخطة السابقة .... لكن بالعكس

لم يفهم أحدهم حديثها فكان الجميع يرمقها بإبهامٍ حتى فسرٌت بعد تنهيدة قصيرة:

-يمُكننا استدراجه حتى يفصح عن أسرار الدولة وجميع الجرائم التي يقوم بإخفاءها .... وقتها سيُفتضح أمره أمام الجميع، وسيضحى أمامهم كرجلٍ منافقٍ لا يجب الوثوق بكلماته

أغلقت حاسوبها بابتسامة متلهفة على ثغرها تبعتها بقولٍ:

-هكذا سينتهي أمره كُليًا .... وسنستطيع وقتها استعادة تيا

لاحت عوالم الإعجاب على وجه الجميع وبدأت النظرات تتبادل بيننا حتى سألت إيمان:

-وكيف يُمكننا أن نفعل ذلك ؟

التفتت راموئيل نحوها لتُجيبها بثقة:

-يُمكننا أن_

قطع حديثها صوّت ضجيجٍ حادٍ يُصدر بالقُرب منا، لم نكُن نعرف سبب هذا الضجيج وقد تملكنا الفضول لدرجة جعلتنا نلتفت في نفس الوقت.

تغلغلت الدماء بعروقي كما تغلغل الغضب والضغينة في عروق الجميع، فما يحدث خلف ظهرنا لا يوجد له مُسمى آخر سوى جريمة أخرى يرتكبها الاحتلال بصورة شبه يومية.

ارتفعت أصوات الضُباط وهُم يصرخون بمجموعة من الشباب ويُبرحونهم ضربًا حتى أوقوعهم على الأرض، كانوا ثلاثة شُبانٍ فقط لا يحملون أيًا من الأسلحة ومع ذلك لم يتوٌقفوا عن المقاومة وإبعاد الستة ضُباط الذين يحاوطونهم ويضربونهم بأسلحتهم.

لم يكن حولنا سوى رجلين كهلين يراقبان ما يحدث من بعيد وإمارات الغضب وقلة الحيلة على وجهيهما، ففي النهاية، لن يستطيعا مواجهة الضُباط وإيقاف جريمتهم وهما بالكاد يستطيعان السير، فربما تخطى عمرهما الثمانون.

وجدتُ مُسلم يثب عن الأرض كوحشٍ كاسرٍ لا أعرف كيف يتحوَّل بهذه الطريقة، هذه ليست أول مرة أرى فيها نظراته الرعدية، ولا أعتقد أنها أول مرة بالنسبة للجميع، فيكفي ما فعله قبل أن نُسافر إلى هنا مباشرة.

انقض مُسلم كالوحش الكاسر على الضابط من الخلف وطفق يركله حتى سقط الضابط أرضًا واستطاع الشاب أن يثب عن الأرض ويُساعد مُسلم في ركل الضُباط والإطاحة بهم هو والشابان الآخران.

تعالت أصوات الصياح والهتافات الغاضبة التي امتزجت مع أصوات السُبابات والركلات، أتى المزيد من الضُباط حتى أصبح عددهم أكثر من تسعة، علمنا وقتها أن مُسلم لن ينفد بفعلته ولا يجب أن نتركه وحده، ففي النهاية كان فقط يُدافع عن بعض المواطنين العُزل.

كانقضاضة الأسد على فريسته، وجدنا أنفسنا ننقض على الضباط ونحاول إبعادهم عن مُسلم والشباب الآخرون وركلهم بأقدامنا وبأي حجارة نتلقفها بأيدينا، فكانت إيمان تنقض على الضابط من وراء ظهره وتضربه بحذائها وأنا أدفع الضابط بقوة أسقطته على الأرض لأواصل ركله بغلٍ حتى وجدتُ ضابطًا آخرًا يُكبلني ويُحيطني بذراعيه حتى تلقى لكمة قوية سددها له مُسلم وواصل لكمه حتى سقط مغشيًا عليه.

اعتقدتُ لوهلة أننا سننتصر في تلك المعركة الأشبه بشجارٍ يحدث في إحدى الحارات الشعبية، لكن ما حدث أن عدد الضُباط قد تكاثر مرة واحدة وبدأو بإطلاق النيران علينا وضربنا بأسلحتهم حتى سقطُ على الأرض أستقبل الضربات على ظهري ببندقيته الحادة ويحاول مُسلم دفعهم بعيدًا عني لكن محاولاته تبوْ بالفشل عندما تلقى ضربة على رأسه أفقدته الوعي وجعلت الدماء تتناثر من جمجمته.

حاولتُ الوثوب عن الأرض وأنا أتحسس نبضات مُسلم بذعر حتى وجدتُ الأنامل تنتشلني وترفعني بقسوة، كُبلت يداي بالأغلال كما كُبلت أيد كلًا من مُسلم وإيمان

وكذلك آنابيا التي شاركتنا العراك بأناملها الرقيقة، أما راموئيل، فلا أعرف حتى أين ذهبت.....

____

((إيمان))

22يوليو 2015 مركز تحقيق المسكوبية / القُدس : فلسطين

خيَم الظلام لفترة طويلة في هذا المكان، آخر ما أتذكره هو رسغاي المكبلان بالأصفاد، وأصواتُ مبهمة تتداخل حولي لا أعرف إن كانت مُستخفة، فخورة أم غاضبة، فقد استحال العالم الآن إلى اللون الأسود، وأصبحت الأيادي تدفعني للأمام كما الماشية، تسوقني إلى قدري الذي لم أعُد أعرفه، فمُنذ بدأت رحلتي وأنا لا أحسب حساب الخطوة التالية، فكلما حسبتها أتت الحياة لتصفعني كفًا وتُعيدني إلى نُقطة الصفر مُجددًا، بات النجاح في هذا الأمر حُلمًا صعب المنال، ومع ذلك ليس مُستحيلًا، لا زلتُ أتشبث بتلك الشعرة التي تُخبرني أن بإمكاني استعادة ابنتي الحبيبة.

ألقيتُ في زنزانة صغيرة لا أستطيع أن أُقدر حجمها حتى، أعمتني الطماشة التي غطت عيني مُنذ يومين، بُقيتُ مُكبلة بالأغلال أفترش الأرض الصلبة ولا أستطيع الحراك، الساعة هنا أشبه بالدهر، فما بالك بثمانية وأربعين ساعة!!

ثمانية وأربعون ساعة وأنا أفترش الأرض الصلبة عاجزة عن الحراك حتى تصلبت عضلاتي، لم يدخل الطعام إلى جوفي فباتت معدتي تُصدر أصواتًا تُشبه زمجرة الضباع، وكان حلقي جافًا كصحراءٍ جرداء، ناهيك عن رغبتي الشديدة بدخول المرحاض، والظلام الذي أعمى بصيرتي.

كُنت أتسآل إلى متى سأبقى في هذه الحالة، لم أعُد حتى أتحمل، هذا الوضع لا يتحمله إنسيٍ ولا حتى البهائم، حاولتُ الصُراخ أكثر من مرة لكن حلقي الجاف لم يُسعفني ولم يجعلني أخرج سوى أصواتًا ضعيفة مليئة بالإعياء، استسلمتُ للأمر في النهاية وبدأتُ أفكر فيما أوصلني إلى تلك الحالة، أهذا كله لأنني حاولتُ مساعدة بعض المواطنين من كيد المُعتدين ؟ أم لأنني ركلتُ الضابط الاسرائيليُ بحذائي ؟؟

أرهقني التفكير حتى استسلمتُ للنوم في النهاية، بدأتُ أتخيُل حياتي الزهيدة وأنا في منزلي الدافيء أتنعم بأحضان والدتي الحنونة وأستمع إلى نصائح والدي وصوِّته العذب في تلاوة القرآن، بـِـت أتخيل صغيرتي وهي تبكي بين ذراعاي وأنا أهدهدها برقة وأقص عليها الحكايات حتى تنام.

قررتُ أن أحيا داخل الوهم لفترة، لعله أفضل من هذه الحياة...

قطع أفكاري صوِّت أزيز الباب وهو يُفتح بهدوء؛ انتفض جسدي وشعرتُ برجفة تسري في كياني، أهكذا ستضحى النهاية ؟ هل سيُصدر حكمًا بسجني هنا ؟ أم أنهم سيقومون بترحيلي ؟ سيقومون بترحيلي قبل استعادة ابنتي!!

كادت الأفكار تقتلني قبل صدور الحكم؛ لذلك حاولتُ إيقافها واستجماع ما تبقى من ثباتي، صحيحُ أن الرؤية لا تزال مُعتمة، لكنني تيقنتُ من وجود أكثر من رجلٍ داخل الحُجرة، كُنت أحصي عدد ضربات أقدامهم على الأرض وأستمع إلى نبراتهم المختلفة والتي كانت باللغة العبرية.

ما هي إلا لحظاتُ حتى أمسكني أحدهم من كتفاي وأجبرني على الاعتدال في جلستي على الأرض، من كثرة ارهاقي لم أجد طاقة للمقاومة وسبُّهم كما أفعل بالعادة، جلستُ على ركبتاي بقلبٍ مُضطربٍ مما سيحدث، فربما ظنوا أنني واحدة من الجواسيس، وربما جاؤوا ليبرحونني ضربًا بسبب ما فعلته بهم، أو ربما يضحى الأمر أسوأ من مُجرد الضرب.

هكذا كانت أفكاري السوداء تُعذبني أكثر من العذاب البدني حتى، أخذتُ أتلفتُ حولي في تيهٍ حتى ترأى إلى مسامعي صوِّت أقدامٍ واثقة تقترب نحوي، لفحتني رائحة عطرة كادت تسلبني وتجعلني أغفو من جمالها، سرعان ما تبدد انجذابي بتلك الرائحة وتحوّل إلى اقتضابٍ وقلق، تلك الرائحة الساحرة أشعُر أنني اشتممتها ذات مرة، وأتيقن أنني لا أريد اشتممامها مجددًا.

أزيلت الطماشة عن عيني وكانت الرؤية مشوشة لفترة، لكنها سُرعان ما اتضحت واستنتجتُ أنني في حُجرة صغيرة ذات إضاءة خافتة، لكن ما استنتجته أيضًا وما جعل عيناي تتسع في صدمة، وفؤادي يهوي من موضعه، والنيران تعتمر بداخلي،

هو صاحب الأقدام الواثقة الواقف أمامي، والذي اتضح فيما بعد أن أقدامه مخادعة أكثر من كوٌنها واثقة.

سقط فكي وأنا أرميه بنظراتٍ مُشتعلة قُلت معها:

-آ ... آدم!!

الفصل الثاني عشر (تجارة العقول)

((شارون))

22يوليو 2015 تل أبيب : اسرائيل

لا يوجد ما يُسمى بالكراهية، فالمعنى الأدق لهذه الجُملة، هو العبث بالعقول، بإمكانك أن تبث الكراهية اتجاه جماعة محددة، فقط عن طريق نشر الأخبار بطريقة مُعينة، فلا تعتقد أن مهنة الصحافة بهذه البساطة، هذه المهنة تجبرك على معرفة الجمهور واستمالاتهم جيدًا، ومن خلال معرفتك لهم، تستطيع العبث بعقولهم متى وأينما شِئت، يُسميها البعض بالمهنة المُؤثرة، وأنا أعتبرها مهنة لا تختلف عن التجارة، الفرق أن ما نُتاجر به في الأسواق هو المُنتجات، أما ما نُتاجر به في الصحافة، هي الأفكار والمُعتقدات، والعائد المادي لنا هو تشكيل العقول، أي أنها ببساطة .... تجارة العقول.

أذكُر أيامي المعدودة التي كُنت فيها بفرنسا، الدولة التي وُلدت بها، تربيتُ وسط أسرة صهيونية متطرفة، حتى أن والدتي أسمتني شارون نسبة إلى آرييل شارون، رئيس الوُزراء الاسرائيلي السابق المعروف بمواقفه المُتطرفة ضد الفلسطينيين، ورغم حمله للجنسية الفلسطينية، إلى أنه تخلُّى عنها وانضم إلى ميليشيا الهاجانا، كما ارتكبت وحدته مجزرة في قرية قيبة بالضفة الغربية أسفرت عن مقتل 70 فلسطينيًا، وكان هذا ردًا على عملية فلسطينية سقط خلالها قتلى في الجانب الاسرائيلي.

وخلال حرب يوم كيمبور، نجحت فرقته في عبور قناة السويس ومحاصرة القوات المصرية حتى اعلنًا انتصارنا بتلك المعركة، وفي عام 1982، نجح في غزو لبنان، وتسبب بطريقة غير مباشرة في مذبحة صبرا وشاتيلا التي ارتكبتها الميليشيات المسيحية اللبانية، أي ببساطة، ما ارتكبه هذا الرجل يعادل ما ارتكبه جميع رؤوساء الوزراء من بعده، وكانت والدتي تأمل أن أضحى ذا شأنًا كبيرًا مثله.

سافرتُ إلى اسرائيل وأنا بالعاشرة من العُمر، درستُ العلوم السياسية ودرستُ بعدها الصحافة حتى أصبحتُ محررًا لفترة وجيزة في صحيفة يرديعوت، ومن بعدها مراسلًا لأكثر من قناةٍ فضائية وكان ظهوري على الشاشات يزيد من متابعة الخبر، ليس بسبب لباقتي ولا حتى المعلومات التي أقولها، بل بسبب وسامتي وجاذبيتي.

الناس أكثر الكائنات سذاجة، فهُم يتأثرون بالمظهر أكثر مما يتأثرون بالأقاويل، هذا ما جعل مهنتي أكثر سهولة، فبسبب عيناي الزرقاء وخُصلاتي الملساء وتقاسيم وجهي المنضبطة، أصبحتُ وجهة مُشرفة للقنوات الفضائية، أصبحوا يصرّون علي حتى أظهر على شاشاتهم، وكُنت أتعمّد الرفض في البداية حتى أتلُقى أفضل العروض، حتى وإن تلقيْتها كُنت أرفض في البداية وبعد الحاحاتهم وتنازلاتهم أوافق بشرط تسييري للأمور وفق ما أُريد.

تصاعدت رُتبتي في وقتٍ قصيرٍ للغاية، حتى استطعتُ افتتاح جريدتي الخاصة، جريدة يسرائيل أيزنعوت، لم أكن أنحرّف عن سياسة الدولة، بل كُنت أضيف عليها وأنشر الأخبار بطريقتي الخاصة، الطريقة التي من شأنها، إخفاء الحقيقة، وتكرار الأكاذيب، الطريقة السائدة في إعلامنا، فالحقيقة إن تم اخفاءها، لن يتأثر بها أحد، والأكاذيب إن تكررت، سيُصدقها الجميع وتتحوّل إلى حقائق، وهذا ما عزِمت عليه مُنذ بداية مجيئي.

نشأتُ على كُره العرب والمسلمين مُنذ الصِغر، كان والداي يرياني كم العمليات الإرهابية التي يفعلها المُسلمون ضد بعضهم، شاهدتُ مجازر بشار الأسد في سوريا، طالبيان في أفغانستان، وجرائم داعش في العراق وبعض الدوّل العربية الأخرى، بِت متيقنًا أنهم مجموعة من البربريين، يقولون أننا معتدون بسبب ما نفعله مع الفلسطينيين، وهم يتقاتلون سويًا مُنذ قديم الأذل.

كُنت أعلم من البداية أن العرب إن نجح اتحادهم، سينتهي عهدنا للأبد، لذلك عزِمت على نشر الفرقة بينهم، وأفضل أنواع الفرقة، هي ضمُّهم إلى صفوفنا، فهناك مقولة تقول " إذا أردتُ أن تأمن شرٌ العدو ... تحالف معه " وهذا ما فعلناه مع مِصر والأردن ودوّل الخليج والجزائر والمغرب وغيرهم، وعن قريب، سنفعل الشيء ذاته مع العراق ولبنان وسوريا واليمن، سنأمن شرهم عن طريق ضمهم إلينا، وعندما نتأكد من كوٌنهم عبيدًا لنا، سنحاول اخضاعهم وكسر عزيمتهم، سنفعل ذلك حتى يتحوٌلوا من مُجرد عبيد، إلى جزءٍ من دولتنا.

لم يكن هدفي السيطرة على البلاد، ولا أنا بقادرٍ على فعل ذلك حتى، أنا فقط أريد الأمن والسلام للمُجتمع اليهودي، ولن يتحقق هذا الأمن طالما يوجد من يكرهوننا ويتمنون فنائنا.

توّقفت أفكاري عند هذه النقطة وأنا أصطف بسيارتي قُرب الجريدة، فتحتُ الباب لأعدل من بزتي الكحلية وأغلغل يداي في خُصلات شعري الحريرية، أسير بشموخ وثقة وأرسم بسمة جذابة كلما رأيتُ فتاةً أمامي، فالفتياتُ هنا يُفتنن بي، وأنا أنتهز هذه الفُرصة وأعبث معهن حتى ننام ليلتنا سويًا ويذهب بعدها كل واحدٍ إلى طريقٍ آخر، أفعل ذلك مع جميع الفتيات، وأحيانًا أشعُر بالحقارة لأنني أفعل ذلك بفتيات بلدتي، أُحطم قلوبهن وأهمهن أنني العاشق الولهان.

كُنت أحاول أن أفعل ذلك مع فتاةً فلسطينية، لكن هيأتي الأوروبية تجعلني أكشف بسهولة، كما أنني بالكاد أفهم العربية، وهؤلاء الفلسطينيات لا يبرحن منازل أبويهن إلا بعد الزواج وتلك الأمور السخيفة، لذلك عندما سافرتُ فرنسا حتى أحضر اجتماعات اللوبي الصهيوني، والتي ببساطة، يتم عقدها وقت الحروب والأزمات، فهدفها الأول هو التأثير في مؤسسات صُنع القرار الرسمية، وكسب دعم الدوّل الكُبرى في مواجهتنا مع الدوّل العربية، ولأنني سافرتُ أثناء حربنا مع غزة، فكان يجب علي أن أحصل على هذا الدعم، خاصة وأنا أحمل الجنسية الفرنسية وأتحدث الفرنسية بطلاقة.

أثناء رحلتي في فرنسا، قابلتُ فتاةٌ عربية وأنا في إحدى المكاتب أشتري بعض الكُتب، وكانت هذه المكتبة خاصة بصديقٍ لي، فكُنت أعرف جميع محتوياتها خاصة وأنا أهيم بالمعرفة والقراءة.

قابلتُ هذه الفتاة الحمقاء المدعوة بإيمان، لم تكن تختلف سذاجة عن بقية الفتيات التي أعرفهن، فُتنت أيضًا بوسامتي فقابلتها بابتساماتٍ ساحرة ونبرة هادئة بريئة، كُنت أعرف أنها كجميع المسلمات، فيجب أن أعاملها باحترامٍ وتهذيب، فأنا أعرف أن المُسلمات المتدينات لا يقبلن التلامس ويرغبن دائمًا بوّضع العلاقة في إطارٍ شرعي؛ لهذا السبب أوهمتها أنني مُسلمًا وأن اسمي آدم، لأن اسم آدم هو اسمٌ شائعٌ في جميع البُلدان.

كُنت أعبث بمشاعرها بصورة يومية، أهمها أنني شابٌ مثاليٌ ولن تجد مثلي في حياتي، أدافع عنها ضد معاديي الإسلام المُنتشرون في فرنسا وأنفق ما بجيبي على إطعامها ومعاملتها كطفلتي الصغيرة، كُنت أفاجئها بحركاتي الرومانسية التي آراها في الأفلام، وعلِمتُ جيدًا أنها لن تخضع لي كليًا إلا بعد الزواج.

وهكذا انتهى الأمر بزواجنا السري بعد أن أقنعتها أنني سأسافر معها إلى مصر وسأخبر والداها عني، حاولتُ طمأنتها قدر الإمكان وأنا أواصل لُعبتي معها حتى نجحتُ أخيرًا في سلب عُذريتها، من المُفترض أن تنتهي لُعبتي عند هذا الحد وأتركها بعد أن أسرقها وأفاجئها بأن زواجنا ليس حقيقيًا، أردتُ أن أحطمها وأجعلها تشعُر بالخزي والعار مما فعلته، لكنها فاجئتني بحبلها.

كُنتُ غاضبًا لأن علاقتنا وصلت إلى هذا الأمر، فأنا لم أكن أريد الإنجاب منها، لكن سعادتها بالجنين انتقلت إلي أنا الآخر، كُنت أعرف أنها ستتمسك بالجنين خاصة بعد أن أخبرنا الطبيب أنها فتاة.

بقيتُ بجوارها أكثر من المُدة التي أريدها، أعتني بها قدر الإمكان وأحرص على تلقيها كل سُبل الراحة والحنان والرقة، لم أكن أفعل ذلك من أجلها، فأنا لم أعجب بها حتى، لكنني لن أترك لها ابنتي مهما تطلب الأمر، لن أترك ابنتي لهذه الغبية.

انتظرتها حتى وضعت جنينها وأسميناها سويًا تيا، كانت طفلة ذات ملامح ملائكية، ورثت عيناي الزرقاء الواسعة والقليل من ملامح والدتها، وبعد بضعة أشهرٍ من انجابها_أي بعد أن تأكدتُ أن يُمكنها الافتراق عن والدتها_ وضعتُ حبوبًا منوِّمة في العصير الذي قدمته لإيمان، وعندما تأكدتُ من سباتها العميق؛ ضببتُ أمتعتي وأمتعة ابنتي وسرقت كل ما لديها من أموالٍ ومقتنيات، ليس لأنني بحاجة للمال، بل لتأديب هذه الغبية، والانتقام أيضًا من العرب.

أخذتُ ابنتي وسافرتُ إلى تل أبيب، تركتُ لها رسالة نصية أعلم أنها حطمّت قلبها، وهذا ما أريده بالضبط، رغم أنني أرسلتُ إليها بعض الإشارات عن موطني الحقيقي لكنها لم تفهم أبدًا، وهذا ما أكد لي أنني لن أترك لها ابنتي أبدًا، سأجعلها تتربّى هنا في بلدتها الأصلية، سأجعلها فتاةً يهودية تلتحق بالجيش وتحارب معهم ضد الجماعات الإرهابية الفلسطينية، سأجعلها تستعد لقتال العرب.

تنهدتُ تنهيدة عميقة وأنا أفتح حاسوبي وأبدأ بنشر بعض المنشورات على مؤّقعنا الإلكتروني، لكنني قبل أن أباشر بكتابة حرفٍ واحد، داهمني صوّت الباب الذي أخذ يطرق بدون توّقف، أذنت للواثب خلف الباب بالدخول وكان مدير التحرير وذراعي الأيمن، وثب أمام مكتبي وهو يملي علي بطريقة مُقتضبة مليئة بالتيه:

-سيدي هُناك مُشكلة....

نبهني لتلك الكلمات فرفعتُ رأسي نحوه لأسمعه يقول:

-جيش الدفاع قتل طفلين فلسطينيين بالسابعة والعاشرة بالضفة الغربية

لاحت عوالم اللامبالاة على وجهي من تلك المصائب التي تحدث بتكرار، فالجنود يتعمّدون قتل الأطفال، باعتقادهم أن النبتة السامة يجب اقتلاعها قبل أن تنمو وتنشر الفساد.

-وما المُشكلة في ذلك ؟

سألته باستسفارٍ لأجده يُجيبني ببعض الارتباك:

-الجديد أن الاعلام العربي قد التقط الواقعة .... والفلسطينيون لا يتوّقفون عن طلب التعاطف عن طريق مقاطعهم السخيفة التي يُصدقها الجميع .... وهذه الحادثة بدأ يتحدث عنها الرأي العام الغربي وسنتعرض للمقاضة في النهاية

أنهى حديثه دُفعة واحدة وكِدت أقهقه بداخلي لأنه وضع جميع هذه السيناريوهات من مقطع واحدٍ فقط، متى سيفهم هذا الأحمق أن العرب لا يكترثوا للفلسطينيين، ولن يتحركوا من مرقدهم إلا بعد أن تُمس سُلطاتهم وأمنهم القومي، فالعرب أجبن من مجابهتنا، وبالطبع لن يثوروا من مقتل حفنة من الأطفال.

-ويحك يا رجل ... لمَ كل هذه الأفلام .... أعرف طريقة لتدارك الأمر

أرخيتُ ظهري إلى الوراء وأنا أستخدم أسلوب " تحويل انتباه الأمة " من أساليب تغيير الرأي العام، نستخدم هذا الأسلوب حينما تعلق إحدى قضايانا بأذهان العالم كما حدث مع محمد الدرة سابقًا، تعمل هذه الحيلة على تحوِّيل انتباه الأمة من هذه القضية إلى قضية أخرى تماثلها قوة لكنها تبتعد جغرافيًا عن القضية الأخرى، كنشرنا لبطولات كأس العالم أثناء حربنا على غزة، حتى ينتبه الجميع إلى كُرة القدم ويتناسوا تمامًا ما نفعله.

-هناك مهرجانُ سينمائيٍ على وشك البدء .... انشر الكثير من المعلومات عنه، واحرص على مقابلات الممثلين وعرض أزيائهم .... فالناس يهيمون بهذه الأشياء

قُلتها بقيادية وعاودتُ النظر إلى حاسوبي لمواصلة العمل، إلا أن مساعدي لم يتحرك ساكنًا ولازالت عوالم التيه على وجهه وهو يقول:

-فعلنا ذلك بالفعل .... ولا يزال الجميع يتحدث عن تلك الواقعة ويصفوننا بالمجرمين

أطلقتُ زفرة سائمة من جوفي وأنا أفكر بتلك المُعضلة حتى قررتُ اللجوء إلى طريقة أخرى، الطريقة التي نلجأ إليها حالما تتعقد الأمور، ودائمًا ما تنجح هذه الطريقة في تشتيت الأنظار عننا وإضعاف عزيمة العدو.

-اتصل بعصابة يافيف ومرهُ أن يرتكب إحدى الهجمات بالأماكن العامة في دولة من الدوّل الأوروبية .... بل اجعله يتواصل مع فرقه في روسيا حتى يُنفذوا هم هذه المهمة

أومأ مساعدي إيجابًا فيما واصلتُ أنا بتحذير:

-ولا تنسى أن تجعل هذه العصابات يُغطون وجوههم جيدًا ويهتفون بجملة " الله أكبر".... وعندما تنتهي من الأمر، أخبر الصحفيين أن ينشروا أخبارًا تؤكد أن داعش وراء هذه الهجمات وأن الأمة الإسلامية تتحمل مسؤولية ما حدث

حفظ مساعدي هذه الأوامر في ذهنه جيدًا وانطلق لتنفيذها فورًا، تعمدتُ اختيار روسيا هذه المرة بسبب معاداتها لأمريكا، صحيح أنها تعترف بدولتنا، لكنها ستحارب ضدنا في النهاية بسبب خلافاتها الدائمة مع حليفتنا، وأنا أردتها أن تتوّقف عن دعم الدول العربية حتى وإن لن تدعمنا، فيكفي إبعادها عن ساحة القتال.

عُدت وحيدًا في مكتبي أفتح حاسوبي وأبدأ إعادة تدوّين هذا الخبر بما يتفق مع سياستنا، فأول قاعدة في قاموسنا : استخدم الكلمات لتحظى على المزيد من التعاطف،

فعندما تنتشر الأخبار_ كخبر هذين الطفلين_ يجب أن نتحدث عنها، لكن بطريقتنا الخاصة، طريقة لا تجعلنا مُذنبين، ولا تجعلنا أبرياء.

فكلماتُ مثل الأطفال والصغار، تؤثر أكثر على المتلقيين، لذلك نستبدلها بفتى وفتاة وعُمرهم، فأغلب الناس لا يهتمون بالأرقام، وبدلًا من أن نكتب، أطلق جيشنا الطلقات النارية على فُلان، نقول : الطلقات النارية أطلقت على فلان، فاستخدام المبني للمجهول لا يؤكد أننا ارتكبنا هذه الجريمة، ولن يجعل المتلقيين يظنوننا كتبنا خبرًا كاذبًا، لأننا ببساطة لم نكذب، نحن فقط أخفينا.

ففي النهاية، نشرتُ الخبر بعنوان " طلقاتُ نارية وجدت طريقها إلى فتيان بالسابعة والعاشرة عن طريق الخطأ أثناء بعض الاشتباكات " فدائمًا ما نحرص على استخدام جُمل " الدفاع عن النفس وعن طريق الخطأ " حينما نتحدث عن الهجمات الاسرائيلية.

يجب أن نضع في ذهننا أهم قاعدة، والتي تقول : من الصعب الوصول إلى المصداقية، لكن خسارتها هو أسهل ما يكون، لهذا السبب يجب أن نحرص على الحصول على ثقة الآخرين، خاصة الغرب، ولا تحاول أبدًا أن تثبت مصداقيتك بطريقة تتعارض مع الاعلام أو المجتمع العالمي، فما لا يقبله العالم، يجب ألا تقبله أنت أيضًا، فإذا كان العالم ضد إرهابنا للفلسطينيين، فلا يجب أن نقول أننا نتعمد إرهابهم وأن لنا أسبابنا، هكذا سيعتقد الجميع أننا ساديون، يجب أن نُخبرهم أننا نسعى للسلام معهم، وأننا نبذل ما بوسعنا لفعل ذلك لكن هجماتهم الارهابية هي ما تدفعنا لتلك الأخطاء الشنيعة التي يذهب الأطفال ضحيتها .... ولكي تؤثر أكثر على الآخرين، لا تنسى أن تلعب دوْر الضحية دائمًا.....

بعد ساعاتٍ من تدوين المنشورات والرد على التعليقات بات ظهري أشبه بعيدانٍ من الخشب المُقبل على الانكسار، حاولتُ القيام ببعض التمطؤ قبل أن أثب عن المكتب وأغلق الحاسوب.

لم يتوقف هاتفي عن الصدوح فأغلقه وأطلق زفرة سائمة من هذا الثرثار الذي لن يتوقف قبل حصوله على المال، انسللتُ الدرج حتى الطابق الأرضي وانعطفتُ يمينًا متخطيًا الكافيتيريا الصغيرة وهمسات الفتيات المغرمات.

-عم شارون

هتف بها ولدٌ صغيرٌ بالعاشرة وهو ينقض علي باسطًا ذراعيه استعدادًا للمعانقة؛ عانقته في المقابل وأنا أمسد على خُصلاته السوداء الناعمة دون إزاحة تلك الشارة الخضارة المُحيطة بجمجمته الصغيرة، فكان الصبي يرتدي كنزة سوداء أسفلها سروالٌ فضفاض يُشبه سراويل الصاعقة، أبعدته قليلًا عن جسدي رامقًا هذين الخطين المرتسمين على كلتا وجنتيه وأنا أقول بجدية حمّلت الرقة:

-شالوم أيها البطل .... هل انتهيتم من التصوير ؟

أومأ الصبي زاكير إيجابًا وطفق يتحدث عن كيفية تلبيته لتعليمات المُخرج وأخذه للعديد من الصوّر وهو يُمثل وكأنه يتلقى دروسًا في إحدى المنظمات الجهادية، فكما تعلمون، عندما لا نعثر على دليلٍ لمبرراتنا، يجب أن نخلق واحدًا، فكيف سنؤكد للجميع أن الأطفال الفلسطينيون هم خطرٌ علينا لأنهم يلتحقون بالجماعات الإرهابية مُنذ نعومة آظافرهم ؟ كُنا مجبرين على أخذ بعض الأطفال_ أصحاب الملامح العربية _وجعلهم يرتدون ثيابًا تُشبه ثياب المنظمات الإرهابية الفلسطينية كمُنظمة " حماس " ومن ثم نلتقط لهم العديد من الصوّر وهو يقومون بالتدريب حتى ننشرها ونؤكد تبريراتنا.

ينقسم الإعلام هنا إلى شقين، شقًا داخليًا يتمثل في غسل أدمغة المواطنين، وخارجيًا يتمثل بإيهام العالم وإخضاعه لنا، فالداخلي نستخدم فيه أساليب الكراهية، فبالتالي يتعين علينا نشر كل ما يجعل الفلسطينيون خطرًا علينا، حتى لو لم نجد أدلة لذلك، كأن نصوّر قذيفة وهمية تُلقى على المسجد الأقصى وننشرها بعنوان " أطلقت حماس صاروخًا باتجاه المسجد الأقصى وتسبب هجومها في إلخ " وأشياء من هذا القبيل، أما خارجيًا، فعلينا اتباع سياسة السلام، فالعالم يتأثر أكثر بالرسائل الإيجابية، يريد أن يسمع أن الإرهاب يُمكنه أن يتوّقف.

صافحتُ الصبي الصغير وحثيته على إكمال العمل حتى أبتاع له لوحًا من الشوكولاة، وعندما رحل، واصلتُ الطريق حتى مقاعد الكافيتيريا لأجلس أمام هذا الشاب العربي المدعو بـ ... ناصر.

-نعم .... ما الذي تُريده ؟

سألته بالانجليزية لجهله العبرية، فكان يُجيبني بملامح متجهمة تحمل بعض الغضب:

-أين أموالي ؟ .... نفذتُ ما تريدونه .... حتى أنني التقط صوّرًا لبعض الفلسطينيين وهم في أوضاع جيدة وسعيدة وسط الاحتلال

طرقتُ بإصبعي طرقتين على الطاولة قبل أن أسترخي للوراء راميًا إياه بنظراتٍ مستحقرة، فهذا اللعين قد أخطأ ويجب أن أحذره قبل أن يتمادى:

-حقًا ..... وماذا عن البث المباشر الذي كدنا نُفتضح بسببه ؟

كُنت أتحدث عن بثه المباشر الأخير، حينما كان يتحدث عن الإيخاء بين اليهود والعرب حتى داهمه حفنة من المستوطنين الأغبياء وطفقوا ينعتونه بالإرهابي، فقط لأنه يعتنق الإسلام.

ورغم أنه آزال المقطع تمامًا إلى أن الأعداء انتهزوا الفرصة واحتفظوا بالمقطع حتى يُظهروا للعالم كم أننا عنصريون.

-أنت تعرف أنني لم أكن أقصد ذلك .... لم أكن أعرف أن المستوطنين سيقولون هذا

تقدمتُ بجذعي للأمام وأنا أرميه بنظراتٍ معاتبة قُلت معها بصرامة:

-لن أعطيك سوى مئة دولارٍ فقط .... وإذا حدث هذا الخطأ لا تأتي إلى هنا وتبكي من أجل الأموال

بصقتها بوجهه وأنا أخرج ورقة نقدية خضراء وأضعها على الطاولة بحدة قبل أن أثب وأترك البناية بأكملها....

اعتجت الجريدة بالخارج بالمزيد من الصحفيين الأمريكيين، فقد اعتادوا على المجيء بعد أي حادثة كُبرى، وبما أن جيشنا المتهوِّر قد قتل طفلين، وارتكب بعض المجازر في الضفة الغربية، فكان يتعيَن علينا التبرير للعالم.

أتمنّى الآن أن ألتحق بالجيش حتى أسبُّهم على تهوُّرهم الدائم، لا يعرفون حتى كيف يقضون على الإرهاب دون ارتكاب الأخطاء الكفيلة بوَضعنا تحت المسآلات.

-سيد شارون من فضلك .... هلا تحدثت معنا ؟

قالتها مراسلة من جريدة نيويورك تايمز؛ توّقفتُ عن السير وبدأتُ تعديل بزتي والنظر للكاميرات بوجهٍ واثق، فالثقة هي ما تحمل الناس على التصديق، حتى ولو كانت زائفة.

-ما تعليقك على مقتل هذين الطفلين بالضفة الغربية ؟ .... ألا تجد هذا وحشيًا ؟

هناك قاعدة تقول، لا أحد يُخطيء، حتى دولتنا، فإذا جعلك العالم مُذنبًا، فلا تعترض أبدًا، أكد على خطأكٍ وأعرب عن الأسف الشديد وأنك ستسعى لتلافي الأخطاء في المُستقبل، فالقاعدة تقول : تحدث أكثر عن المُستقبل، فالماضي في طي النسيان.

-بالطبع هذا وحشيًا .... ونحن ننشر تعازينا لأهل هؤلاء الصبية المساكين .... ونتمني من كل قلبنا أن تتوّقف تلك الجماعات الإرهابية عن تنفيذ عملياتها التي يذهب ضحيتها أطفالٌ أبرياء

إجابة مُنمقة ذات نبرة هادئة تتغلغل في الصدور، وهذا وفق قاعدة : استخدم نبرة صوّتٍ تتماشى مع كل إجابة على حدا.

-لكن سيدي .... هناك مصادر تؤكد أن تلك الهجمات الإرهابية الدائمة سببها الضجر من حواجز التفتيش ومظاهر الاحتلال

قالتها مراسلة أخرى من جريدة أجنبية مجهولة، وكانت إجابتها تحمل كمًا من العداء لسياستنا، مما يعني أنني سأتبع قاعدة : عندما تواجه عدوًا متعصبًا، استخدم الأسلوب البلاغي.

وبالحديث عن الحواجز التفتيشية، لا يجب أن أقول أن هدفها الاستيلاء على المزيد من الأراضي، هكذا سنظهر كمُعتدين أوغاد، يجب أن أتبع طريقة بلاغية تُثير العاطفة، وفي نفس الوقت، يجب أن يرضي التبرير عالمًا بأسره.

-أعلم أن العديد من الفلسطينيين يضجرون من تلك الحواجز .... ونحن نسعى للتقليل من أثرها على المدنيين الفلسطينيين ..... لكننا أيضًا بحاجة لها من أجل الأمن والسلام

حركتُ يدي وأنا أواصل بطريقة بلاغية:

-تخيلي معي أن يذهب طفلٌ إسرائيليٌ إلى مدرسته وتُداهمه قنُبلة انتحارية نفذها أحد الإرهابيين ؟ ...... تخيّلي أن يتحوّل هذا الطفل الصغير إلى أشلاء...

أفضل طريقة لبلورة العاطفة اتجاه قضية، هو أن تضعها في قائمة ما تعنيه بالنسبة لأكثر الفئات قيمة، أي الأطفال.

-لولا هذه القنابل الانتحارية لما وُجد حاجزٌ واحد حتى

-وما سبب المستوطنات إذًا ؟.... فلا يأتي منها سوى الجرائم

قالتها تلك الصحفية المتعصبة وكأنها تحاول الإيقاع بي بعد أن فشلت في محاولتها الأولى.

-المستوطنات هي نتاج ديمقراطيتنا ..... فما نُريده ونسعى إليه دائمًا .... هو أن يتعايش الطفل الفلسطيني مع الطفل الاسرائيلي بدون فروقٌ بينهما .... المستوطنات تُمكن أبناء رعيتنا بالاختلاط مع الفلسطينيين والتعايش معهم من أجل مُستقبلٍ

مُشرقٍ ..... أما تلك الجرائم التي تتحدثين عنها .... فسببها الدائم هي الحركات الإرهابية كحركة حماس، وما يفعله المستوطنين، هو مُجرد رد فعلٍ نتيجة الخوف

-هل يعني ذلك أن حماس هي السبب في جميع الأزمات ؟

تذكرتُ عدة قواعد عندما تطرقت إلى هذه النُقطة، أولهم : يجب أن تفصل بين الفلسطينيين وحماس، حتى لو أننا متأكدون أنهم واحد، ولكي نؤكد على القاعدة الأخرى وندعمها، يجب أن نتبع قاعدة : ضع أمثلة تؤكد أن حماس لا تهتم بمواطنيها.

-نعم .... هي السبب، هي التي تبدأ بإلقاء القذائف وتعريض مواطنيها للخطر ..... وعندما نرُد عليهم، تُفقد العديد من الأرواح البريئة .... وهذا بسبب حماس التي تستخدمهم كدروعٍ بشرية .... دعيني أسألكِ سؤالًا .... كيف لحماس أن تمتلك القُدرة على بناء جميع هذه الأنفاق ولا تُكلف نفسها وسع بناء ملاجيء لحماية المواطنين ؟

كان سؤالي حادًا وكلماتي تُظهر التعاطف لكلا الطرفين، الاسرائيليون والفلسطينيون، كما أنني أكدتُ لها أن حركة حماس لا تسعى سوى لنشر الفساد وأنها لا تنتمي أبدًا لفلسطين، فعندما يعرف الجميع أن إيران هي السبب في إقامة حماس وحزب الله، سيزداد دعمهم لإسرائيل.

-ما يحتاجه الفلسطينيون هو الازدهار الاقتصادي والتقدم الاجتماعي .... هذا أهم بالنسبة لهم أكثر من دعمهم لتلك الجماعات الإرهابية.....وقتها سنُفكر في رسم الحدود السياسية بيننا والموافقة على حلٌ الدولتين

-هل هذا يعني أن اسرائيل على استعدادٍ لتحقيق السلام مع الفلسطينيين ؟

داهمتني مراسلة نيويورك تايمز بهذا السؤال قبل أن أخطو بعيدًا نحو سيارتي، حاولتُ أن أجعل إجابتي هذه المرة مُنمقة قدر الإمكان بها بعض الختامية حتى أنتهي من هذا الحوار وأباشر أعمالي، ولكي تضحى إجابتي مُنمقة، اتبعتُ قاعدة : الطريقة الأفضل لتؤكد على إمكانية السلام في المُستقبل، هي أن تؤكد كيف كان السلام ممكنًا في الماضي:

-اليوم، نجحت إسرائيل في تحقيق السلام مع دولتين من جيرانها، الأردن شرقًا، ومصر جنوبًا، ونطمح أيضًا لتحقيق السلام مع لبنان وسوريا والمزيد من الدوَل العربية، ولا يوجد أسبابٌ منطقية لعدم استطاعتنا .... نحن بصدد دعوة قادة الدول العربية لزيارة أورشليم حتى نقضي سويًا على الجماعات الإرهابية ونعمل على نهاية ثقافة الكراهية بيننا .... نحن نطمح لخلق واقعًا جديدًا، واقعًا مسالمًا ... واقعًا جيدًا للطرفين، اليهود والعرب، حيث نستطيع أن نُقدم الأفضل لأطفالنا وأحفادنا بالشرق الأوسط، نُريدهم ألا يخافوا من الحروب والإرهاب والعُنف مجددًا ..... نسعى للوصول إلى السلام الدائم مع الفلسطينيين، ومستعدون أيضًا لتوفير الأمن والراحة لأولئك المستعدون لنبذ الإرهاب والاعتراف بنا .... وأنا هنا أتحدث عن المواطنين الحقيقيين، ليس أولئك الذين تلطخت قلوبهم بالكراهية اتجاهنا

أنهيتُ حديثي بنبرة خطابية واثقة ثم ابتعدتُ عن الصحفيين لأذهب إلى سيارتي الفارهة ماركة فولكسفاكن، استقليتها وأدرتها بسرعة لأبتعد عن هذا المُحيط، فقد تأخرتُ على ميعادي مع ضابط الشُرطة الذي يتسلم قضيتي.

ففي الأيام القليلة السابقة، قام وغدٌ حقيرٌ باختراق حسابي ونشر العديد من الصوَر والشائعات الكاذبة، لا تتوّقعوا كم الضجر الذي شعرتُ به وقتها، أقمتُ حسابًا آخرًا في لمح البصر ونشرتُ عليه تحذيرٌ لجميع قرائي حتى يعرفوا أن هناك من اخترق حسابي الشخصي، وبعد العديد من الإبلاغات، أُغلق حسابي المُخترق وبدأتُ العمل على آخر، لكنني لم أنسى المُتسبب في تلك الفعلة وهرعت إلى الشُرطة لأُقدم بلاغًا.

جلستُ على المقعد أمام الضابط أنتظره حتى ينتهي من الاطلاع على بعض الأوراق والمُستندات، وما إن طالت مدة عبثه بالأوراق، شعرتُ بالضجر لتجاهله لي، حتى ولو كان الأمر هامًا، فأكثر ما أكرهه في هذه الحياة هي تجاهلي.

-حضرة الضابط ..... أيمكنني أن أفهم إلى أين وصلت التحقيقات ؟

سألته بضجرٍ حتى انتبه لي وهو يضرب الأوراق على الطاولة أفقيًا بعد أن جمعهم سويًا، وضع الأوراق جانبًا ليرميني بنظراتٍ يائسة أردف معها:

-أعتذر للغاية سيد شارون ..... فيبدو أن المُخترق كان شديد الحِرص على ألا يتم كشفه .... لكن لا تقلق، نحن لا نتوٌقف عن البحث

اصطكت أسناني في غضبٍ وأنا أفكر في هذا المُخترق اللعين، كيف استطاع التغلب على أنظمتي المُشفرة، فلا يتغلب عليها إلا من درس الهندسة التقنية هنا، وبالطبع من فعل ذلك لا يمت لهنا بصلة، فالجميع يكنون الولاء لدولتنا، هذا يعني أما المُخترق جاسوسًا ماهرًا، أو خائنًا وضيعًا.

-أتمنى أن تعثروا عليه في أسرع وقت ..... فإذا بقي مُخترقً كهذا طليقًا .... سيخترق بعدها ملفات الدولة

اتبعتُ سياسة بث الذعر حتى لا يتقاعس الضابط ويُباشر عمله في أسرع وقت، فأنا أتوق للانتقام من هذا اللعين ومشاهدته خلف القُضبان.

فُتح الباب على مصراعيه مرة واحدة ليدلف منه ضابطًا شابًا حديث التعيين، أدى التحية العسكرية قبل أن يثب أمام الرقيب متفوّهًا بصرامة:

-سيدي ... يجب أن تأتي من أجل التحقيقات

أومأ الرقيب إيجابًا ثم استأذنني بأدب:

-أعتذر مُجددًا سيد شارون ..... فعلي التحقيق مع مرتكبي حادثة الأقصى .... خاصة وأنهم لا يحملون الجنسية الفلسطينية

قطبتُ حاجباي بمزيجٍ من الفضول والحيرة، فعملي كصحفيٍ يجعلني ألتفت لأي خبرٍ وأعرف تفاصيله لعلي أستخدمه كقصة خبرية في عددنا القادم.

-عفوًا .... ما هي حادثة الأقصى ؟

كان الجهل مُنطليًا علي مما دفع الضابط لمقابلتي بحيرة، بالطبع يتوّقع أنني أعرف كل صغيرة وكبيرة بهذه الدولة كوني صحفيًا، لكن الفترة الأخيرة كُنت مشغولًا بالعديد من الأمور فلم أجد وقتًا لقراءة الأخبار اليوم.

-حادثة وقعت مُنذ يومين ..... مجموعة من الفرنسيين المسلمين قاموا بالاعتداء على ضباطنا أثناء تأديتهم لمهامهم .... لكن لا تقلق، اعتدائهم لم يسفر سوى على إصاباتٍ بسيطة لا تحتاج أكثر من أسبوعٍ واحدٍ لعلاجها

لم أهتم لحالة الضُباط وأردتُ معرفة المزيد من التفاصيل عن تلك الحادثة:

-هل صوّر أحدهم تلك الواقعة ؟

أردتُ رؤية المشاهد الحية لأشبع فضولي، خاصة وأنا أعرف جيدًا أن العالم أصبح مؤّثقًا على تلك الشاشات الصغيرة، وكان ظنّي في محله، فقد أخبرني الضابط أن رجلًا فلسطينيًا قد التقط الواقعة بهاتفه ونشرها على وسائل التوّاصل، مما يعني أنه سيتعيّن علي إعادة نشر المقطع وصياغته وفق سياستنا، فتركنا للأمر، يعني سماحنا لهم بغسل أدمغة شعبنا.

أمسكتُ الهاتف من يد الضابط وحدقتُ جيدًا بالظلال التي تتحرك وتنقض على الضباط في تلك الليلة المُظلمة، وبسبب الأنوار الخافتة، استطعتُ رؤية شابان يبرحان الضُباط ضربًا خاصة هذا الرجل ذو اللحية والذي كانت عيناه تُنزران بالشر والغضب وكأنه ليثًا شرسًا، لمحتُ فتاةً رقيقة تجذب الضابط من سُترته وتحاول إبعاده عن شابٍ آخرٍ أملس لكن ملامحه لم تكن فرنسية أبدًا، لم أجد أي ملامح أوروبية في هذين الرجلين، ربما هذه الفتاة الرقيقة هي فقط الأقرب إلى الفرنسية.

بقيتُ أتابع المشهد بفضولٍ قطعه عيناي اللتان جحظتا مرة واحدة في صدمة، فمن ظهر بالمقطع جعلني أعتدل في جلستي وأحدق جيدًا في تلك الفتاة .... تلك الفتاة التي أعتقد أنني أعرفها، بل أنا متأكدٌ من ذلك.

ما إن تأكدت شكوكي، وجدتُ ابتسامة مُتهكمة تُرتسم على ثغري وأنا أقول:

-هل قُلت أنهم فرنسيون ؟

سألتُ بشكٍ رغم أنني متيقنٌ من أنهم ليسوا كذلك، فهذه الفتاة، هي التي أكدت لي شكوكي، وربما هؤلاء هم أتباعها، أما عن تلك الفتاة التي تبدو أوروبية، فيبدو أنها مجرد سائحة آرادت أن تفعل شيئًا نبيلًا، فهذا ما يفعله ناشطو السلام دائمًا.

-نعم .... يحملون جوازات السفر الفرنسية

أغلقتُ هاتف الضابط ووضعته على الطاولة متسائلًا بإصرار:

-أين سيتم التحقيق معهم ؟

رمقني الضابط بحيرة قبل أن يُجيب:

-بمركز تحقيق المسكوبية بأورشليم .... لماذا تسأل هذا السؤال ؟

وثبتُ عن مقعدي عازمًا على الذهاب إلى أورشليم ووضع حدٍ لتلك الخرقاء، لكنني قبل أن أتحرك، رميتُ الضابط بنظراتٍ غامضة وأنا أجيبه:

-لا شيء ..... لدي حسابٌ قديم .... مع واحدٍ منهم....

مركز تحقيق المسكوبية / أورشليم : إسرائيل

عزمتُ على الذهاب إليها اليوم قبل الغد، فعمَ قريب سيتم التحقيق معها وبالتالي سيُفرج عنها، فهي لم ترتكب جناية، حتى أن إصابات الضُباط إثر اعتدائهم لم تصل مدة علاجها لواحدٌ وعشرون يومًا، بالإضافة إلى أنهم يحملون جوازات السفر الفرنسية، هذا يعني أنهم سيتساهلون معهم حتى لا يحدث خلافًا مع المجتمع الفرنسي، ونخسر حليفًا قويًا.

اتسائل ما الذي فعلته هذه الخرقاء حتى تحصل على جواز سفرٍ مُزيفٍ كهذا، فلا أحد شك بالأمر مُطلقًا، يبدو أن المزوِّر ماهرًا، لكن هذا لا يُهم، حالما يعرفوا أنها من مِصر وقامت بتزوِّير جواز سفرها، سيضعها هذا في عدة كوارث، أولهم ترحيلها المباشر إلى مصر بعد أن يتم سجنها والتحقيق معها كجاسوسة !! وربما ستُسجن هنا للأبد.

اصطحبني مجموعة من الضُباط حيث غُرفة إيمان التي عُرفت باسم " راحيل " ياله من اسمٍ أحمق.

دلفتُ الحجرة بخطواتٍ واثقة أستعد معها لتلك المواجهة، كانت إيمان ترتمي على الأرضية الصلبة، عندما رفعها الضُباط عن الأرض، استطعتُ رؤية الاعياء متجلٌيًا في نظراتها الذابلة ووجهها الشاحب، فقدت الكثير من الكيلوغرامات مُنذ آخر مرة رأيتها بها، كما أن ثيابها أصبحت رثة ينبعث منها رائحة كريهة.

أزاح الضابط الطماشة عن عينها فكانت تحني رأسها وتُضيق عينيها قبل أن تعتاد على الرؤية، وعندما رأتني؛ تصلبت أهدابها وشُحبت ألوان وجهها، أما أنا، فكُنت أراقبها ببرودٍ تامٍ أنتظر أن تبدأ هي الحديث.

-أ.... آدم!!

قالتها بتفاجؤٍ قابلته ببرودي ونبرتي المُستفزة:

-اسمي هو شارون

حالت بيننا فترة وجيزة من الصمت لازلتُ فيها أتابع ملامحها في هدوءٍ وتقابلني هي بنظراتٍ مقتضبة تتحوّل تدريجيًا إلى كُرهٍ دفين، وأنا أيضًا كنت في حالة من الغضب الطفيف، حتى أنني شككتُ للحظة أنها من اخترق حاسوبي، لكنني نحيتُ هذه الشكوك لأنني متيقنٌ أنها خرقاء ساذجة ولن نستطيع أن تفعل ذلك:

-توّقعتُ أن تأتي منذ فترة طويلة .... ألهذه الدرجة لا تكترثي لابنتكِ

بالطبع لم أردها أن تأتي، لكنني أتعمَّد إشعارها بالضعف حتى تعرف أنها غير قادرة على مواجهتي، فكلما آثرتُ حنقها، قلُّت عزيمتها.

-لا يُهم المدة التي أخذتها .... المهم أنني أتيت .... وابنتي سأعيدها إلى أحضاني

قالتها بنبرة قوية واثقة لم أعهدها أبدًا، يبدو أنها تعلمت الكثير في تلك الأيام التي كانت تبحث فيهم عني.

رسمتُ بسمة مُستخفة وبدأتُ أقترب نحوها ببطء حتى باتت الهوة بيننا لا تتعدُّى البضع أمتار، جلستُ على ركبتاي لأقابل نظراتها المُحتقرة وأنا أقول:

-ومن قال أنني سأسمح لكي .... لا تنسي أنكِ الآن في دولتي ..... أي أنني المُسيطر وليس أنتِ

-هذه ليست دوٌلتك أيها المُحتل الحقير ..... ولن تستطيع أن تحرمني من ابنتي

صرخت بوجهي بتلك الكلمات وقد تحوٌل وجهها إلى كُتلة من اللهب، لكنني مع ذلك لم أظهر أي من عوالم الغضب أو حتى أنفعل معها في الحديث، فالقاعدة تقول : الانفعالات الزائدة تدٌل على قلة الثقة، مما يعني أنها مُرتبكة، وتُغطي ارتباكها وخوفها بستار الغضب حتى لا تظهر أمامي كجروٍ مُبتل.

-بل أستطيع أيتها العربية ..... هل تُريدينني أن أجعل ابنتي تتربى في دولة نامية كدوٌلتكم ؟ .... ألم تقولي لي أنكِ عانيتِ من قلة الفُرص وسوء الأحوال الاقتصادية في دولتكِ الأم ؟ .... كيف تُريدينني أن أوافق على جعل ابنتي تتربٌى في بيئة كهذه

رفعتُ من نبرة صوٌتي لأظهر مدٌى اهتمامي بابنتنا، فأنا لن أوافق على أن تتربى ابنتي في دولة عربية حقيرة تمنعها من الحصول على العديد من الفُرص، من الأفضل لها أن تتربٌى هنا، في دولة ديمقراطية آمنة ومُتقدمة عن بقية الدوٌل بالشرق الأوسط، وبدا أن كلماتي قد أصابت إيمان في الصميم، جعلتها صامتة لفترة تُفكر في صدق كلماتي وتسبل بعينيها لأسفل، لكنها رفعتهما مجددًا وهي تقول بإصرار:

-أن تتربى في دولة نامية .... أفضل من أن تتربى في دولة زائفة مع محتلين

ما إن أدلت تلك الكلمات حتى انفجرتُ بالضحك على جهلها، ستبدأ بترديد أننا دولة مُحتلة كالببغاء بينما الحقيقة أنها دولتنا نحن، وأنا لا أملك وقتًا لشرح التاريخ لتلك الحمقاء.

واصلتُ الضحك لفترة كانت كفيلة بإصابتها بالحنق، وعندما أنهيتُ وصلة ضحكي قررتُ إنهاء الحديث متفوّهًا:

-لا تقلقي على ابنتنا إيما ..... فهي في مكانها المناسب ..... بعيدًا عن جهلكم

بصقت آخر كلماتي بحقارة وازدراء وعدوّت صوّب الباب لأخرج من هذه الحُجرة، لكنني توّقفت عندما صدح صوّتها المُرتفع الأقرب للصُراخ:

-لماذا فعلت ذلك بي ؟ ..... لقد وثقت بك

التفتُ ببطء لألمح نظراتها المُنكسرة ودموعها التي تكاد تترقرق على وجنتيها، لا أنكر أنني تأثرتُ قليلًا من نبرتها، لكنني لم أستسلم، حافظتُ على هدوئي قدر الإمكان وأنا أستمع إلى حديثها الممتزج بالبكاء:

-لقد أحببتك من قلبي .... كُنت على استعدادٍ لتحدي العالم من أجلِك ..... ما الذي فعلته لك حتى تغدر بي ؟

كُنت أعلم أنها ستسعى للعثور على إجابات، والحقيقة أنني أنا أيضًا لا أحمل إجاباتٍ مباشرة، فقد كُنت أتسلّى ليس إلا، أتسلّى بمشاعر هذه العربية السخيفة حتى انقلبت تسليتي مرة واحدة ووجدتني أنجب منها فتاةً جميلة.

لا أنكر أنني تعلقت قليلًا بإيمان، فرغم سذاجتها إلا أنها كانت حنونة ومُنفتحة، أحبتني من كل قلبها وكانت ترعاني جيدًا، لكن هذا لا يجوز، هي مُسلمة وأنا يهودي، وأنا لن أتنازل عن ديانتي الحبيبة، ولن أتنازل عن كُرهي للعرب.

عاودتُ السير اتجاهها حتى توّقفتُ أمام عينيها مباشرة، ركعتُ على رُكبتي واستندت على الركبة الأخرة وأنا أمامها أرميها بنظراتي الحاقدة التي أجبتُ معها:

-لا شيء .... لا يوجد أسباب .... لكنني لستُ نادمًا .... أتعرفين السبب ؟

لم أدع لها فُرصة للإجابة لأنني قُلت:

-لأنني أكرهكم .... أكرهكم جميعًا .... لا أحد منكم يُحبنا، كيف تُريدنني أن أحب مجتمعًا يتمنى الموت لنا ؟

اشتعلت نظراتي أكثر حتى وثبتُ عن الأرض أشُير عليها بسبابتي وأنا أتكلم بصُراخِ وصدق، فقد فقدتُ ثباتي الذي تعمدتٌ ارتدائه مُنذ جئتُ هنا.

-جميعكم تكرهوننا ..... مُنذ المحرقة وأنتم تطردوننا من دولة إلى أخرى ..... وعندما وجدنا مكانًا آمنًا .... أردتم قتلنا أيضًا واتهمتموننا بأننا مُعتدون

توّقفتُ عن الحديث لألتقط أنفاسي وأحاول استعادة هدوئي مجددًا، كانت إيمان تتابعني في صمتٍ تامٍ يحمل القليل من الازدراء، لكنني تجاهلتها وقررت إنهاء الحديث بتهديد:

-إسمعي أيتها الحمقاء .... أما أن ترحلي وتتناسي ابنتنا للأبد .... أم تبقي هنا وتتعفني بالسجن....

تل أبيب : إسرائيل

عُدت أخيرًا إلى المنزل بعد يومٍ مُجهدٍ توّجه هذه المقابلة الأخيرة، لا زلتُ أشعر بصداع جامح إثر صُراخي عليها، فأنا بطبعي، نادرًا ما أصرخ على أحد، دائمًا ما كُنت الفتى الهاديء الحكيم قليل المشاكل، حتى أن والداي اعتبرانني ناضجًا عندما

أتممت التاسعة، صحيحٌ أنني لعوبٌ بعض الشيء، وأحب النساء، لكنني لستُ همجيًا أبدًا، ولا أعرف كيف أفقدتني صوابي هذه العربية.

ملستُ على جبهتي وأنا مُستلقٍ على الفراش حتى داهمتني أصواتٌ صغيرة أصدرتها صغيرتي الحبيبة، كانت تيا علَى وشك البُكاء وهي بجواري على الفراش تُحرك يديها وقدميها الصغيرتان بطريقة عشوائية.

ارتسمتُ بسمة هادئة على ثغري وأنا أتلفتُ نحو هذه الصغيرة متفوّهًا بطريقة طفولية حنونة:

-هل تريد أميرتي الحبيبة أن تستيقظ ؟

آجابتني بأصواتٍ لا معنى له فأمسكتُ أناملها الصغيرة وقبلتها برقة، رسمت صغيرتي ضحكة لطيفة زينت وجهها المُكتنز وجعلتني أشعر بالسكينة التامة، لم أشعر بنفسي حتى وأنا أتمدد بجوارها على الفراش أقرب رأسي الكبير _بالنسبة لها_ من صدرها وأضم جسدها نحوي لأتلمس دفئه وحنانه، لازالت صغيرتي تيا تُهمهم بأصواتٍ غير مفهومة فبدأتُ التربيت على بطنها بحنانٍ بالغ قُلت معه بصوّتٍ خافتٍ مُطمئن:

-لا تقلقي أميرة بابا .... لن يُفرقنا أحد، حتى والدتكِ الغبية ..... أعدكِ أننا سنظل سويًا ولن نفترق أبدًا

بقيتُ مستلقيًا جوارها لساعة أو أكثر، فأنا لا أشعر بالوقت أبدًا وأنا بجوارها، حتى أنني في بعض الأحيان أحكي لها عمَ يحدث بحياتي وأستشيرها بمشاكلي التي لا تفقهها حتى، فهي كالضوء الذي أنار حياتي وجعلها مُشرقة مليئة بالأمل والتفاؤل، ولن أسمح لوالدتها بسرقة هذا الضوء من حياتي.

صدح صوّت الجرس فجأة لأستيقظ من غفوتي القصيرة وأثب عن الفراش لأفتح لهذا الزائر، لا زلتُ أرتدي منامتي المتكونة من كنزة رمادية وسروال مريحٌ أبيض، وجدتُ أمامي صديقًا عزيزًا علي كُنت قد تعرفتُ عليه في فرنسا، وتعجبتُ من مجيئه

إلى هنا، فهو رجلٌ أعمالٍ مرموقٍ وله مكانة عالية، وربما أتى هنا لإتمام بعض الصفقات.

-لوكاس !! .... مرحبًا بك

رحبُت به بابتسامة عزبة قابلها لوكاس بنبرة فاترة وهو يدلف المنزل، صحيح أن الفرق بيننا يتعدي العشرون عامًا، لكنني لا أُصادق أبناء جيلي، فأنا أنضج منهم، لهذا السبب لا أصادق سوى كبار السن، أكثر من يفهمني.

-مرحبًا شارون .... أحتاجك في خدمة ضرورية

قلقت من نبرته المحتاجة ودعوٌته للجلوس على أريكة البهو.

-ما بك لوك ؟ .... هل تواجه مُشكلة ؟

سألته بقلقٍ بالغٍ آجابه لوكاس بعجز:

-نعم .... إنها ابنتي .... آنابيا

-ما بها ابنتك ؟

سألته بفضولٍ لأجده يُطلق تنهيدة حارقة قبل أن يُجيب:

-عصت أوامري .... أحبت شابًا عربيًا حقيرًا.... ولا تُريد العودة إلى فرنسا

-وما المُشكلة ؟... أليست ابنتك ناضجة ؟

سألته بلامبالاة جعلت لوكاس ينفعل وهو يُجيبني:

-ألا تفهم ما أقول .... إنها تُحب عربيًا حقيرًا .... ويجعلها ترتكب العديد من الجرائم .... أتتخيل كيف سيؤثر ذلك على سُمعتي!!

فهمتُ الآن سبب ضجره، فبالطبع ابنته افتعلت كارثة ما بسبب هذا العربي وبدأت الألسنة تتحدث عنها في فرنسا، مما سيؤثر على مكانة لوكاس المرموقة؛ لهذا السبب يُريد إخضاع ابنته واعادتها إلى كنفه حتى يثبت للجميع العكس ويحفظ ماء وجهه أمامهم.

-هل تُريدني أن أعثر على هذا الشاب ؟

سألته بشكٍ فآجابني:

-لا .... أنا أعرف من هو .... وأعرف أين يكون ؟.... إنه هنا

اتسعت حدقتاي في حيرة أكثر وحافظتُ على صمتي حتى أخرج لوكاس هاتفه وآراني هذا المُقطع الذي انتشر مؤخرًا عن ذاك الهجوم الذي حدث بالأقصى، كان يُشير على الشاب الأملس والفتاة الأوروبية التي اتضح أنها ابنته، وكان يشرح لي بتجهم:

-هذه هي ابنتي .... وهذا هو الحقير المُجرم الذي تُرافقه .... وهو ليس فرنسيًا .... ومطلوب من العدالة أيضًا

تسمرت أصابعي أثناء تحدث لوكاس، فما يشغل بالي الآن أن هذا العربي له علاقة بإيمان، فالمقطع يُظهر إيمان وهي تدافع عنه، ناهيك عن الشبه الطفيف بينهما، وعندما قال لوكاس أنهم مطلوبون من العدالة في فرنسا، علمت أن إيمان متوٌرطة معهم، هذا يعني أن هناك طريقة للإيقاع بهم، هذه الطريقة توٌصلتُ إليها وأنا أسترخي للوراء راسمًا بسمة مُنتصرة على ثغري وأنا أقول:

-فهمتُ ما تريده.... تريدني أن أكتب مقالة تحذيرية ضدهم ..... حتى يتم إلقاء القبض عليهم أليس كذلك

أومأ لوكاس في لهفة قال معها:

-بالضبط .... لكن لا تقترب من ابنتي .... ولا أريدهم أن يُسجنو فقط .... أريدهم أن يختفو عن الوجود

أنهى حديثه ببنبرة غاضبة جعلت ابتسامتي المُنتقمة تظهر على ثغري حتى تقدمتُ بجذعي لأربت على كتفه متفوِّهًا:

-لا تقلق عزيزي لوك ..... فأنا أعرف كيف سأنتهي من أولئك الأوغاد.....

الفصل الثالث عشر (كيف حدث ذلك ؟)

((إيمان))

23يوليو 2015   القُدس : فلسطين

نظراته الكارهة استطاعت الاستيلاء على كامل عقلي، طوال هذه الأيام حاولتُ العثور على أجوبة للأسئلة التي تدور في ذهني، لماذا فعل ذلك ؟ ما الذي فعلته حتى يخدعني ؟ وعندما عثرتُ على الإجابة، تمنيتُ أنني لم أسأل أبدًا.

كيف استطاع تخبئة نظراته الكارهة خلف ابتساماته الساحرة وطريقته المُهذبة ؟ كيف غفلت عن كونه خائنًا حقيرًا مُنذ البداية ؟ لطالما ظننتُ أن الحياة هي التي صفعتني، لكنني الآن، صِرت متيقنة أنني أنا التي صفعتُ نفسي، أنا التي أوقعتُ نفسي، سذاجتي وغبائي كانا السبب في هذه المتاهات، والآن أنا في مُنتصف الطريق، لا أعرف كيف أواصل ولا أعرف كيف أعود، لكن مقابلته لي بالزنزانة جعلت العجز يتملكني، فهو قادرٌ على إنهاء مسيرتي ومنعي تمامًا من رؤية ابنتي.

صحيحُ أنني في هذه الأرض المُقدسة التي لطالما وددتُ الذهاب إليها، لكنني الآن، أتمنى أن أختفي عن العالم، فلا مزيد من الكذب، أنا مجرد ساذجة ضعيفة، كيف يُمكنني مجابهتهم ؟ تبًا لأفكاري الحمقاء التي جعلتني أشبه نفسي بالبطل الخارق وأنا أقول أنني لن أستسلم، فالآن أنا أعرف جيدًا أن شارون لن يتركني أبدًا، وربما سأسبب الأذى لرفاقي.

استندتُ على الجدار قبل أن أهوي من فرط الإرهاق، خرجنا للتو من الزنزانة بعد أن تكفلت راموئيل بذلك بسبب علاقاتها المُتعددة، علمتُ أن آنابيا لم تُسجن أبدًا لأنها ببساطة، لم تؤذي أحدهم بأناملها الرقيقة، ولا أعتقد أيضًا أنني أذيتُ أحدًا، لكن لأنني مُسلمة، سيتوجب عليهم التحقيق معي أولًا.

تملكني الصُداع الجسيم وبدأت معدتي تُصدر أصواتًا تُشبه زئير الأسود، فأنا لم أتناول شيئًا لأكثر من يومين، ورغم أنني لم أتعرض إلى التحقيق أو المسائلة، إلى أن حديثي مع شارون كان يُضاهي أي تحقيقٍ قد أتعرٌض له.

بعد فترة وجيزة من البقاء في حالة من الصمت واليأس، استمعتُ إلى أقدامهم تقترب نحوي، ظهر جورج أمامي ببعض الكدمات التي تُغطي أسفل عينه وكان ذراعه مُضمدًا، أما عن مُسلم، فقد كان الأكثر تضررًا، حيث أنه لم يستطع السير في ثبات وكان يتكيء على راموئيل وجورج نصف فاقدًا للوعي والدماء تنسل من أنفه وجبهته، ناهيك عن ثيابه الممزقة المليئة بالأتربة والمزيد من بُقع الدماء، كان وجهه مليئًا بالرضوض والسحجات وعيناه مُغلقتان ولسانه يهزي بكلماتٍ غير مفهومة.

حجظت عيناي في قلقٍ وأنا أتابعهم يُحركونه صوّب السيارة حتى سألتهم بنبرة واهنة :

-هو في إيه ؟

آجابني جورج وهو يُغلق باب السيارة:

-تلاقيهم وجبو معاه في التحقيقات

كُنت أعلم أن مُسلم أكثر من سيتضرر من بيننا، فبخلاف أنه مُسلم، كان هو من بدأ العراك، وهو كذلك أكثر من أبرح الضُباط الاسرائيليون ضربًا، فتعرضه لهذه الجروح، هو انتقامًا لهم ليس إلا....

استقلينا السيارة وقررنا العودة إلى تل أبيب لنيل قسطٍ من الراحة، رائحة العرق والقذارة تفوح من ملابسي وتجعل وجهي يتجعد باشمئزاز، لكنني أتماسك وألوذ بالصمت التام أثناء الطريق الذي استمر لأكثر من ثلاث ساعات.

كان جورج يجلس بالخلف يتحدث مع آنابيا عمَ فعله بالتحقيقات ويسألها عن أحوالها، وراموئيل تقود بجواري أعتقد أنها لاحظت نظراتي المُحبطة وملامحي الأقرب للبكاء، وعندما سألتني عمَ حدث، أجبتها بكلماتٍ فاترة غير راغبة في الحديث، فإذا تفوّهتُ بكلمة واحدة، أعلم أنني لن أتوّقف حتى تنهمر دموعي وأنخرط في البُكاء.....

تل أبيب : فلسطين المُحتلة

تلألأت السماء بالنجوم الزاهية بعد أن أتى الليل وانتهينا من أخذ حمامٍ ساخنٍ يعوّض هذه الأيام، ارتديتُ منامة وردية فضفاضة وغطيتُ خُصلات شعري بقُبعة قُطنية أرتديها عادة عند الخلود إلى النوم.

أجلس بالُقرب من الفراش الذي يتمدد عليه مُسلم غائبًا عن الوعي وعلى رأسه الكمادات، فقد ارتفعت حرارته وواتته حمى صعبة إثر تعرضه للضرب المُبرح والنزيف الحاد.

ضمدت راموئيل جراحه وأعطته بعض الأدوية وساعدتها في تغيير ملابسه أنا وجورج، أما آنابيا فكانت تحاول طهو الطعام لنا رغم جهلها بالطهي، حسنًا، جميعنا يجهل الطهي فلم نكن سنُضيف شيئًا إذا ساعدناها، حتى أنا التي بقيتُ لأيامٍ وحدي في المنزل كُنت أعتمد دائمًا على تناول الوجبات السريعة وأحيانًا أستشير والدتي في بعض الأمور لكن الأمر ينتهي بي بتخريب كل شيء.

أتت آنابيا أخيرًا بعد بقاءها لأكثر من ساعتين في حجرة الطعام تحاول إعداد شيئًا لنأكله لكن الأمر ينتهي بإعدادها المعكرونة سريعة التحضير، وحساء الخضروات، أقصد ..... الخضروات المسلوقة بالملح.

تناولتُ الطعام بفتورٍ تامٍ ورغبة مُلحة بالاختباء في حجرتي بعيدًا عن العالم، فمُنذ مجيئنا وأنا لم أنبس ببنت شفة وحافظتُ على صمتي وملامحي الجامدة حتى سألت راموئيل بقلق:

-إيمان .... شو في ؟ .... كأنه متضايقة ؟

أنزلتُ الشوكة التي تشابك بها حبات المعكرونة وقد قررتُ أن أفصح عمَ يجيش بصدري، فربما يُصبح الحِمل أخف وزنًا:

-قابلت شارون

بصفقتها بطريقة مباشرة جعلت الجميع ينتبه لي في صدمة، فيما عادا آنابيا التي لم تفهم حديثي لكنها التقطت كلمة " شارون " الكفيلة بإصابتهم بالغضب.

-قابلتيه إزاي ؟.... وقالِك إيه ؟

طفق جورج يُلقي أسئلته الحادة أمامي التي جعلتني ألوذ بالصمت حتى تلألأت الدموع بعيناي وأنا أقول باستسلام:

-قالي إنه خلاص .... خِلصت....

رفعتُ رأسي الذي تحوّل إلى اللون الأحمر وسيطرت عليه بعض الدموع المُتمردة، قصدت الحديث بالفرنسية هذه المرة حتى يفهم الجميع قراري .... قراري النهائي الذي لا رجعة فيه.

-سنسافر إلى مصر .... لا مزيد من المثابرة .... لا يمكنني أن أتحدّى شارون

لاحت عوالم الصدمة بينهم وظننت أنهم سيقومون بتقريعي، أكاد أتيقن أنهم الآن يتسآلون في قرارة أنفسهم : أبعد ما عانيناه بسببك تقولين أننا يجب أن نستسلم ؟ ..... أعلم أنني واجهتُ الكثير مُنذ بداية الرحلة، لكنني مُتيقنة أن شارون سيأذيهم إذا عاندتُ وواصلتُ الطريق، فهو ليس سهلًا، وأنا لن أتحمل أن يتضرر أحدهم مثلما تضرر أرضوان ورازي بسببي في فرنسا، لن أتحمل أن يتأذى أحدهم بسببي مرة أخرى.

-ماذا يعني هذا ؟ ..... هل قررتي الخضوع لهذا الأرعن ؟

كانت راموئيل أكثر غضبًا من بيننا لأنها لم تُحقق انتقامها، فأنا متيقنة الآن أنها تساعدنا فقط كي تنتقم لعبود، لكن لا، لن تنتقم من خلالي، فأنا فتاة ساذجة، لستُ بطلة من أبطال المقاومة، ولن أستطيع مواجهتهم.

-نعم .... سأرضخ له .... من أنا حتى أتحداه ؟.... أنا مُجرد فتاة خرقاء ... أوقعت نفسي في الخطأ، وأوقعتكم معي ..... لا دخل لكم بمصيبتي .... أنا التي يجب أن أتحمل وليس أنتم

تصاعدت أنفاسي وبدأت تتكاثر الدموع على وجنتي وأنا أتحدث بنبرة مُرتفعة:

-لا أفعل شيئًا سوى إلحاق الضرر بالآخرين .. شارون معه حق .... أنا فتاةُ غبية، ابنتي لا تستحقني

تهدجت أنفاسي وبدأت الدموع تنزلق على وجنتي بهوداة، شعرتُ أنني داخل غُرفة مغلقة لا هواء بها، شعرتُ أنني أتقلص تدريجيًا حتى أصبحت بحجم النملة التي لا حول لها ولا قوة، تنتظر أن يدعسها الآخرون، وأنا قد تم دعسي حتى تلاشت قوّتي الوهمية، ولم أعُد أقدر على المقاومة.

أحسستُ بآنامل آنابيا الرقيقة وهي تُربت على ظهري حتى أهدأ وأتوقف عن البُكاء، فكانت تقول لي بنبرتها الرقيقة:

-إهدأي إيمان ؟ .... لا تخضعي لهذا الحقير أرجوكي .... ألم تقولي لي أنني يجب أن أواجه ؟ .... كيف تقولي لي ما لا تستطيعين فعله ؟

تذكرتُ حديثي مع آنابيا ونحن بفرنسا حينما كانت تمُر بإحدى نوبات بكاءها، فما تمُر به يصعب على المرء تحمله أيضًا، لكن، على الأقل هي مجبورة، أما أنا، فأنا السبب في معاناتي، وبإمكاني التوّقف متى أردت، لكنني وقتها سأفقد الكثير .... أولهم ابنتي.

-لا أستطيع .... لا أستطيع المقاومة ..... أنسيتي الحريق الذي تسببت به في فرنسا ؟ .... أنسيتي أنني تسببتُ بمقتل العديد من الأشخاص وتسببتُ أيضًا بسجن رازي وأرضوان ..... أنا عار على هذا العالم .... وعار على والداي .... أنا لا أستحق ابنتي .... ولا أستحق مساعدتكم

كان صراخي يمتزج بدموعي الأشبه بسيلٍ جارفٍ من الأنهار، بدأتُ أشهق وأرتعد وأنا أضم ساقاي وأنخرط في بكاءٍ مرير، تيقنتُ أن المرء حينما يبكي، عقله يُعذبه

بالمزيد من الذكريات السيئة حتى يزداد بكاءه، وأنا تاريخي حافلٌ بالكوارث التي ذهب ضحيتها الكثير، وسيذهب أكثر إن لم أتوّقف، فالأيام التي بقيتها هنا تعرضتُ لحادثين كبيرين وعلى وشك التعرض للمزيد وإيذاء أصدقائي.

ربما هذه العوائق هي إشارة من الله، ربما كان يجب أن أتوّقف مُنذ البداية وأنا التي أعاند، يبدو أن هذا مصير ابنتي المُستحق، مصيرها الذي تسببتُ به.

جلست راموئيل على رُكبتيها أمامي وبدأت تطالعني بنظراتٍ غائرة وكأنها تُعاتبني على قراري:

-ومن قال لكِ أننا مُسيرون ؟ .... من قال لكِ أننا نُريد التوُقف ؟

رفعتُ عيناي نحوها بعد أن توُقفت دموعي لفترة مؤقتة سنحت لي أن أستمع لها وهي تقول:

-جميعنا سِرنا في هذا الطريق بمحض إرادتنا .... وإن كُنا نُريد الرحيل ..... لرحلنا مُنذ فترة طويلة

حدقت بمُنتصف عيناي وهي تقول بتقرير:

-نحن من نُقرر متى سنتوقف .... ونحن لا نوافق على ترك ابنتكِ مع هذا الحقير

تدخل جورج ليُصيف على حديثها بتأكيد:

-نعم .... لن أوافق على ترك إبنة شقيقتي في هذا المُستنقع .... أتريدينها أن تُشعر بالخُذلان عندما يمتد بها العُمر .... أتريدينها أن تقول أن والدتي تخلّت عني ؟ .... هل تقبلي أن تتخلي عن ابنتكِ ؟

بدا وكأنه يُقرعني بتلك الكلمات وعلى وشك الصُراخ بوجهي حتى أستيقظ، وإن جئنا للحق، كانت كلماته كفيلة ببثي المزيد من الطاقة والحماس، حتى أن دموعي توّقفت عن الانهمار وحاولتُ كفكفة ما تبقى منها وأنا أقول بعجزٍ بعد فترة من الصمت:

-وماذا عسانا أن نفعل ؟ .... كيف سنُنفذ خطتنا ؟

ربتت راموئيل على فخذي وهي تقول باطمئنان:

-لا تقلقي .... سأعثر على شخصٍ يتحدث العبرية ونستطيع الوثوق به حتى يقوم بهذه المُهمة .... لن يتطلب الأمر الكثير من الوقت

تقدم جورج نحونا وهو يُعلق على حديث راموئيل بثقة:

-وفري مجهوداتكِ راموئيل ..... فأنا أعلم من سيقوم بهذه المُهمة

التفتنا جميعًا نحوه لنجده يؤشر على نفسه هاتفًا بثقة:

-أنا أتحدث العبرية ..... وسأقوم بهذه المُهمة.....

____

24يوليو 2015 تل أبيب : فلسطين المُحتلة

بعد مروري بنوبة اليأس التي خالجتني البارحة، قررتُ اليوم أن أتحدّى القدر، لا مزيد من الاستسلام، لا مزيد من الرضوخ، أصبح هذا شعاري من الآن فصاعدًا، فقد أقسمتُ على مواصلة الطريق وتحدّي الأهوال مهما كانت صعوبتها، لن أسمح لهذا الوغد شارون بأن يتغلّب علي مرة أخرى.

خرج جورج من حُجرة تبديل الملابس مُرتديًا بزة سوداء ذات كنزة طويلة وقُبعة صغيرة تُسمى " الكيبا " فهي تلك القُبعة التي يرتديها اليهود عادة.

لقنته راموئيل دوّره جيدًا وأعطاه مُسلم بعض النصائح وهو على فراشه لا يزال يتلقى العلاج لحُمته، كان جورج هادىء الأعصاب تمامًا رغم أنني أكاد أتيقنُ أنه يثور من الداخل، فأنا أعرف جورج جيدًا وأعرف كيف يتعمّد التظاهر بالقوة أمام الآخرين وحتى ولو كان هشًا من الداخل، فلطالما أخبرنا ونحن صغارًا أنه سيتحمّل مسؤولية

كارثتنا ويكون في قمة ثقته وشجاعته وهو يعدنا بذلك، لكن حينما يسأل والدينا عمّن حطّم الزجاج مثلًا نجده أول الهاربين.

أملّت عليه راموئيل قواعدها المُتلخصة بـ : كُن واثقًا، متفتحًا، عمليًا .... حتى يستطيع أن يجذب شارون، لكن جورج _كالعادة_يُذكرنا أنه مُديرًا للموارد البشرية وأنه أكثر من يستطيع تحليل الآخرين واستدراجهم للأجوبة الصحيحة، كما يفعل بعمله.

وفي نهاية حديثنا، وجدناه يختتم حواره بطمأنينة وثقة:

-لا تقلقوا يا رفاق .... سأستدرجه وأسجل كل كلمة يقولها .... وسننتهي من هذا الوغد قريبًا

فتح باب السيارة الرمادية الخاصة براموئيل وتحرك بها بعيدًا أمام نظراتنا القلقة، فإذا تم كشفه ستضحى نهايتنا حتمية.....

بعد رحيل جورج قررتُ ولوج المنزل لتفُقد أحوال مُسلم والتسامر معه قليلًا، فهو الوحيد الذي أرتاح في الحديث معه كما لو كان معالجًا نفسيًا، في العادة، أنا فقط من يُثرثر ويفضي عمَ بباله، وهو لا يحادثني سوى بكلماتٍ قصيرة غامضة حينما أحاول أن أسأله عن ماضيه أو عن سبب مساعدته لي، تذكرتُ حينما أخبرني جورج أنه يشك في كوّن مُسلم عميلًا متخفيًا وأنه يعمل بالمخابرات المصرية، وبسبب مهارة مُسلم في القتال وغموضه غير المفهوم، بدأتُ أصدق شكوك جورج الأشبه بمشهدٍ من الأفلام والروايات البوليسية.

-عامل إيه دلوقتي ؟

قُلتها بوِّدٍ وأنا أجلس بجواره على المقعد الخشبي أتفحص ضمادته بعيناي وكدماته المُترسبة أسفل عينيه، ساعدته على الاعتدال في جلسته وبدأ يسعل قليلًا قبل أن يتحشرج صوّته وهو يحاول الإيماء بطمأنينة.

-جورج خلاص هينفذ ..... أنا بجد خايفة أوي لتحصل حاجة

كانت عوالم التشاؤم تلوح على وجهي رغم تفاؤلي في بداية الحديث، وكعادة الأمر، حاول مُسلم أن يمتص تشاؤمي بقوله:

-تفاؤلو بالخير تجدوه .... خلي أملك بربنا كبير .... إن شاء الله المرادي هتصيب

كلماته الهادئة الحكيمة ذكرّتني بوالدي حينما يقوم بنصيحتي، فدائمًا ما كان يُخبرني أن أبذل قصارى جُهدي وأتكل بعدها على الله، وأنا أبذل جُهدي لأكثر من شهرٍ كامل حتى كاد جسدي يتلاشى من الإرهاق.

لفحتنا فترة وجيزة من الصمت والتحديق في أماكن شاردة حتى استجمعتُ قواي وحاولتُ إرضاء فضولي حياله للمرة التي لا أعرف عددها:

-على فكرة أنااا ..... كُنت عايزة أرجع مُصر وأفكني من الحوار ده كله ..... بس كلهم قالولي إنهم عايزين يساعدوني ..... ما عدا إنت

أحنيتُ رأسي في نهاية الحديث أحاول استشفاف ردة فعله التي لم تتغير أبدًا، فبعد فترة وجيزة وجدته يُجيبني بهدوء:

-إنتِ عارفة كويس إني مكمل معاكي للآخر

-أيوة منا عايزة أعرف ليه ؟ .... إشمعنا أنا بالذات ؟ يعني أرضوان ورازي وحتى راموئيل وآنابيا .... كلهم عندهم أسباب عشان يساعدوني ..... وجورج كدة كدة أخوية .... لكن إنت .... أنا مش عارفة إنت بتعمل معايا كدة ليه ؟

بصقتُ كلماتي دفعة واحدة مُحملة بنفاد الصبر والرغبة العارمة في إرضاء فضولي، وكان هو أمامي لا يزال يرمقني بملامح هادئة أغلق معها عينيه لفترة ثم فتحهما وكأنه يستجمع قواه حتى يُجيبني:

-أوعدِك إني هقولِك السبب في الوقت المناسب .... بس حاليًا .... عايزِك تعرفي إني قبل ما أشوفِك .... كُنت إنسان فاضي، معندوش هدف .... ومعندوش حاجة أعيش عشانها، ولما شوفتِك_

كاد يواصل الحديث بطريقته المُبهمة التي قطعتها باستنتاجٍ واثق:

-أااااه .... يعني إنت قصدك إنك بتساعدني عشان زهقان ؟

استطعتُ رؤيته وهو يزم شفتيه في حنقٍ حاول معه كبت النيران التي بدأت تشتعل في عينيه لسببٍ لا أعرفه، وكأنني اقترفتُ خطأً أو قطعتُ لحظته الحالمة.

-هو ده إللي إنتِ استنتجتيه ؟!

قالها باستنكارٍ وغضبٍ لم أفهمهما فبدوّت كالبلهاء وأنا أطالعه في صمتٍ حتى أردف مُسلم بأمر:

-إمشي يا إيمان .... إمشي .... سبيني أنام من فضلِك

آشار على الباب المفتوح وهو يأمرني بالرحيل وعوالم الغضب تطوف حول وجهه، لا أعرف ما الذي قُلته حتى يضحى بهذا الغضب لكنني تركتُ حُجرته على أي حال وعاودتُ التفكير في جورج وما سيفعله بتلك المُهمة.....

((جورج))

24يوليو 2015 حانة دينيم درينكس فيرست / تل أبيب : فلسطين المُحتلة

ليومٍ كاملٍ أحاول التدرب على الحديث بطريقتهم وتقليد حركاتهم حتى أستطيع تنفيذ المُهمة، كانت راموئيل تتابع شارون طوال الوقت حتى عِلمت أنه يقضي مُعظم لياليه في تلك الحانة، حيث يتجرع أفخر أنواع الخمور ويتحدث مع الحسناوات حتى يثمل ويعود إلى منزله.

بدوّتُ كمن يُنفذ عملية استخبارتية فشلها يعني الموّت للجميع، حتى أنني بدأتُ أتخيل نفسي أدهم صابر أو رأفت الهجان، كُنت أجلس على طاولة مُستديرة أضع الساق فوق الأخرى وأأمر النادل أن يأتيني بكأسٍ من خمور الآراك التي أعرف أنها مشهورة هنا، فهي نوّعٌ من الكحول المستخلصة من عصارة الينسون ويتم تصنيعها في لبنان أوأرمينيا، حتى أن الزجاجة كُتب عليها باللغة العربية، وهذا ما قصدته لأبرهن على ثقافتي العربية التي تجذب أغلب المؤثرون.

طفقتُ أطوف بعيناي بحثًا عن شارون وفقًا للصوّر التي أرتني إياها راموئيل، لا أنكر أنه وسيمًا بعينيه الزرقاء الواسعة وبشرته ناصعة البياض التي تتماشى مع خصلاته الناعمة وتقاسيم وجهه المُنضبطة، وسامته المُفرطة جعلتني أشعر بالغيرة، فبالطبع الفتيات سترتمي في أحضانه يوميًا، وأنا الذي أسعى لأنال قلب فتاةٍ واحدة فقط.

حسنًا، لم آتي هنا للتفكير في الفتيات، فعلي التركيز في مُهمتي، كان يجلس شارون على الطاولة المقابلة يرتدي بزة رمادية فاخرة تكاد تلمع من النظافة، الملابس التي يرتديها أوّحت لي أنه شخصية مُسيطرة تتميز بالقوة وفق ما يقوله علم الألوان.

أمامه زجاجة كبيرة من الخمر من ماركة " jack Daniels'' مما يدل على احتفاظه بثقافته الأوروبية، يعتدل في جلسته وينصب قامته بثقة واضحة مع انفراج راحة اليدين، ومن خلال تحليلي السريع، أجد أنه شخصية مُنبسطة حدسية تعتمد على التفكير والتحكيم، مما يعني أنه.ENTJ

بعد انتهائي من تحليلي السريع لشخصيته قررت الدخول إلى الخطة ومحاولة لفت انتباهه بأية طريقة، سأعتمد على الاستمالات السياسية بما أنه بارعُ بها، ويجب أن أستخدم النساء كمدخلٍ باعتبارهن أكثر العناصر لفتًا لانتباهه.

تظاهرتُ بالثمالة وأنا أرفع كأس الآراك نحو فمي دون أن أتجرع منه، فيجب أن أبقي ذهني مُتيقظًا، بدأتُ أتحدثُ بصوّتٍ مُرتفعٍ يدّعي الثمالة وأنا أقول:

-يا رجل .... لا أعرف كيف للفتيات العربيات أن يضحين بهذا الغباء ..... فالفتاة التي أواعدها من لبنان، جعلتها تنقل لي ما يحدث بجيشهم .... وهذا فقط لأنها تُحبني

بما أننا في تل أبيب، تعمدُت أن أذكر لبنان بسبب هجمات حزب الله المتكررة في هذه المنطقة، هذا يعني سهولة لفت انتباههم.

بدأتُ ألقى بوادر النجاح حينما وجدتُ شارون يطقطق آذانه نحوي وبدا على وجهه الحماس فيما سوّف أقوله بعدها، وبما أني لستُ جيدًا لهذه الدرجة بما يخص السياسة، فكُنت أعتمد على مزيجِ من المعلومات التي قرأتها سريعًا قبل مجيئي مع بعض المعلومات التي سأبتكرها.

-قالت لي أن السُلطة اللبنانية لا توافق على ما يفعله حزب الله، ودائمًا ما ترفع سلطتهم شعار " لا للحرب " أي أنها على وشك الانقلاب على تلك الجماعة الإرهابية ..... لا تعرف يا صاح كم هذا يُصيبني بالانتشاء، فهم على شفا جرفة من الانهيار .... وما علينا سوى نشر القليل من الشائعات حتى نزيد الطين بلة

رفعتُ من نبرة صوّتي موّجهًا ضفة الحديث إلى النادل الواثب بجواري والذي بدا وكأنه يرميني بنظراتٍ بلهاء لا تفقه شيئًا عن حديثي، أشك أنه يقول الآن في قرارة نفسه : دع هذا الثمل ينتهي من حديثه الفارغ أمامي حتى أقتاد المزيد من الأموال.

-عفوًا يا سيد ..... لكن الشائعات وحدها لا تكفي .... فالأمر يتطلب أكثر من ذلك

حاولتُ إخفاء ابتسامتي المُنتصرة حينما استطعتُ أخيرًا أن ألفت انتباه شارون وأدفعه عن الحديث في أكثر الأمور التي يبرع بها، فلن أجد ما هو أبرع منه في الخداع وتلفيق الأكاذيب المُضللة للإعلام.

وثبتُ عن مقعدي وأنا أحمل كأس الآراك وأتحرك نحوه ببطءٍ وحركاتٍ غير مُتزنة تحُيطها نظراتٌ حادة وأنا أجلس أمام شارون متفوّهًا باستفهام:

-وكيف تعرف أن الأمر يتطلب أكثر من مجرد شائعات ..... ألك تجربة في ذلك ؟

قهقه بشيطانية قبل أن يتجرع الخمر المتبقي بكأسه بسرعة ويبدأ بإعدادٍ كأسٍ آخر وهو يُجيبني بنبرة غير مُتزنة:

-أنا لا أفعل سوى هذا الأمر

واصل القهقهة حتى لفحت أنفاسه المُقززة وجهي، حاولتُ أن أتركه يتجرع المزيد من الخمر حتى يصل إلى الثمالة ولا يُفكر في الكلمات التي يقولها، أشك أنه لا يستطيع أن يُميز من أنا حتى.

-وما الذي تفعله ؟ ..... أعطني بعض الخبرة حتى أوقع بهذه الدولة من خلال عشيقتي

أرخى شارون ظهره للوراء وهو يحمل كأس الخمر ويطالعني بنظراتٍ ماكرة، انتهزتُ الفُرصة بسرعة وأخرجتُ هاتفي لأفتح المُسجل وأسجل كل كلمة يقولها، حيث كان يقول بانتشاء:

-الشائعات تذهب في طي النسيان بعد فترة وجيزة ..... الأفضل لك أن تتغلغل بين أبناء الشعب أنفسهم .... والأفضل من ذلك، تغلغلوا بين الحُكام واجعلوهم يرضخون لكم .... فإذا نجحتم، سيغضب الشعب وينقلب على حكامه .... ومن بعدها يسود الفساد

استطرد في الحديث بثقة أكبر وكُنت أنا أرمق الخطوط المتحركة بهاتفي الذي لا يتوقف عن تسجيل كل كلمة يقولها:

-خُذنا كمثالٍ يا صاح ..... نحن من جعلنا الشعب ينقلب على ياسر عرفات بعد أن أوهمانه باتفاقية أوسلو التي جعلتنا نحصل على المزيد من الأراضي .... حتى أن المستوطنات أصبحت ثلاثة أضعافٍ عمَ كانت عليه قبل الاتفاقية .... أتعرف شيئًا آخرًا .... نحنُ من حرضنا حركة حماس وجعلناها تنقلب على فتح بعد أن أوهمانهم أن فتح تخضع للاحتلال، وأسفر النزاع بين الحركتين عن العديد من المجازر

انفجر في الضحك مرة واحدة وهو يواصل بانتشاء:

-تخيل ..... جعلنا الفلسطينيون يقتلون أنفسهم

كِدتُ أنفجر في الغضب لكنني سايرته في الحديث وبدأتُ أقهقه معه قهقهاتٍ شيطانية مزيفة سخرتُ معها:

-نعم نعم .... مثلما جعلنا الميليشيات اللبنانية المسيحية تقتلهم ذات مرة ..... يا صاح .... كم هو سهلٌ أن تقضي على العرب، فجميعهم يتقاتلون بلا سبب

واصل الضحك لفترة وجيزة قبل أن يضع كأسه على الطاولة ويسكب المزيد من الجعة أثناء حديثه الجاد:

-معك حق .... لكن لا تعتمد على هذا الأمر، فالفتيل دائمًا بحاجة إلى من يُشعله ..... ونحن هدفنا إشعال هذا الفتيل حتى نُسيطر على الشرق الأوسط

قطبتُ حاجباي بفضولٍ زائفٍ وبدأتُ أتجرع القليل من الآراك حتى لا يشُك بأمري وأنا أقول بإعجاب:

-هُو هُو .... يبدو أن لديكم المزيد من الخُطط

تقدم بجذعه وبدا وكأنه يخفض صوٌته تدريجيًا وهو يقول:

-ليس لدينا خُطط محددة .... فجميع خططنا مُستقبلية .... وما نفعله الآن، هو اللعب على جميع الأطراف.....

بدأ يلوٌح بيديه شارحًا:

-فبسببنا .... انقسم الوطن العربي إلى ثلاث فئات ..... العبيد ... المُستعمرون .... والمتمردون ..... العبيد نستحوذ عليهم تدريجيًا، والمستعمرون .... ندعمهم بكل ما لدينا حتى يقضوا على المُتمردين

ضيًقتُ حاجباي أكثر وأنا أمعن التركيز فيما يقول وأتسآل بعدم فهم:

-عفوًا .... هلا وضحت أكثر بالأمثلة

ابتسم شارون بسمة ماكرة وتجرع المزيد من الخمر أثناء حديثه الذي أشك أنه يعرفه حتى:

-ركز معي يا صاح .... المُستعمرون هم أكثر الدول سيطرة على الشرق الأوسط .... مثل السعودية، فنحن من يدعمها في حربها مع اليمن وعن قريب سندعم الإمارات في حربها مع أي دولة عربية أخرى ..... أما المُتمردون، فهي الدوّل التي لا تعترف بنا ودائمًا ما تعادينا، مثل اليمن التي تحدثتُ عنها مُنذ قليل .... ومثلما دعمنا الكويت في حربها مع العراق .... فالعراق أيضًا من المتمردين..... وقريبًا سنقضي على سوريا ولبنان بهذه الطريقة

أومأتُ رأسي بتفهمٍ قبل أن أسأله باستفسار:

-لكن .... لماذا لا تُريدون الهيمنة على المُستعمرين ؟

رماني ببسمة تهكمية قصيرة قبل أن يُجيبني باختصار:

-يا صاح ..... نحن فعلنا ذلك مُنذ قديم الأزل

همهمتُ بفهمٍ وعدم تصديقٍ لما يقول، ثم سألتُ بعدها لأجمع المزيد من المعلومات:

-وماذا عن العبيد ؟

تملكته بسمة متهكمة قبل أن يجُيبني:

-العبيد هم من يسيرون خلف سياسة التطبيع خوفًا من الحروب .... وهؤلاء نحاول ضربهم اقتصاديًا حتى يقعوا في الديون ويحتاجوننا .... وعندما نمدٌ يد العون لهم .... إعلم أنهم أصبحوا في قبضتنا

رفعتُ حاجباي بإعجابٍ زائفٍ ثم سألته:

-وفلسطين ؟ .... أليست ضمن هذه القائمة ؟

ما أن أدليتُ سؤالي حتى انفجر في الضحك بهستيرية أنهاها بنبرة ساخرة:

-لا يوجد شيءٌ يُدعى فلسطين .... هذه مُجرد دولة وهمية ..... وهذا ما سيعرفه العالم عمَ قريب

استشفيتُ ما يُريدونه من خلال نبرته الغامضة وتأكدتُ من تسجيلي لكل كلمة قالها قبل أن أتجرع ما تبقى من كأس الآراك وأستأذن للرحيل دون أن أجعله يشُك في أمري.

لا أكاد أصدق أنني نجحتُ في هذه المُهمة، لا أصدق أنني جعلته يفصح عن تلك المعلومات التي من شأنها تدمير أسطورتهم أمام العالم.....

____

المدينة البيضاء / تل أبيب : فلسطين المُحتلة

اصطفت السيارة بالقُرب من البناية وترجلتُ منها على عجل، لا أكاد أنتظر اللحظة التي سأخبرهم بها أنني نجحت، أننا سنقضي على شارون، وهذا بفضلي أنا.

ارتسمت البسمة على وجهي وأنا أتقدم نحو البناية وأصعد الدرجات في عجل متناسيًا المصعد، فقلبي يطير من السعادة لدرجة قد تجعلني أحلق في السماء، فإذا نشرتُ هذا التسجيل، لن أوقع بشارون وأستعيد ابنة شقيقتي فحسب، بل سأفضحهم أمام العالم وسيسطع اسمي بين المجلات والقنوات كالجاسوس الذي استطاع افشاء سرهم بمهارة.

بدأ يسبح خيالي فيما سأجنيه من أموالٍ باهظة حتى أجد المخابرات المصرية تطرق بابي وتترجاني للعمل معهم، حتى أنني بدأتُ أتخيلُ نفسي في رواية بوليسية واسمي في كُتب التاريخ بالقُرب من رأفت الهجان وعلي الزيبق.

حسنًا، يكفي هذا الآن، فيجب أن أريهم أولًا إنجازي العظيم.

-جورج !! .... إيه إللي حصل ؟

سألتني إيمان فوّر فتحها لباب المنزل، لكنني لم أجيبها وقررتُ الاحتفاظ بنبرتي الجامدة حتى أفاجئهم.

دلفتُ المنزل لأجد راموئيل تثب عن مقعدها بتأهُب، وآنابيا تأتي من حُجرة الطعام ومعها زجاجة من المياه المُثلج التي وضعتها على الطاولة قبل أن تطمئن علي بنظراتها.

-عملت إيه ؟ .... خليته يعترف ؟

رسمتُ نصف بسمة متفاخرة ثم وضعتُ يدي داخل جعبتي وأنا أثني رُكبتي قليلًا وأعيد جذعي إلى الوراء بحركة متفاخرة قُلت معها:

-طبعًا .... إنتِ فاكراني أي حد ولا إيه ؟.... دا أنا في أقل من ساعة زمن خليته يعترف بكل حاجة .... ومن غير ما يكشفني كمان

توقعتُ أن ألقى بعض الثناء والمدح لكنني اصطدمت بعوالم اللامبالاة على وجوههم، حتى آنابيا التي كانت ترمقني بتيهٍ وأنا أعتقد أنها لا تفقه أي مما قُلته بسبب حديثي بالعربية.

مدت إيمان يدها بلهفة قالت معها:

-طب ورينا

لا زالت حركاتي المُتكبرة تطوف بي حتى ألفت نظرهم إلى أهميتي، فبدوني لم يكن ليقدروا على الإيقاع بهذا الأرعن، أو لنكن أكثر صدقًا، كان لراموئيل ومُسلم دوّرًا في هذا أيضًا، فقد اتبعتُ جميع تعليماتهم حتى أحصل على هذا التسجيل الباهظ.

-وماله .... دا أنا هوريكم حتة تسجيل .... هيخليكم متصدقوش ودانكم

قُلتها بتبهنسٍ وأنا أخرج هاتفي وأفتحه لأبدأ العبث به بحثًا عن المقطع، وأثناء البحث، كُنت أقول لهم بإيجازٍ عمَ يحتويه التسجيل حتى يُصدقوا أنني توّصلتُ إلى الكثير من المعلومات الشائكة بفضل ذكائي، فكانت عوالم الصدمة واللهفة تتملكهم بعد كل حقيقة أدلي بها، الصدمة من الحقائق، واللهفة للحصول على هذا التسجيل.

وقفت راموئيل بالقُرب من إيمان تراقبني بلهفة كما وثبت آنابيا بجوارهن تنتظر ما سأفعله فيما بعد، كانت الأعين تترقبني وتتابع حركات أصابعي حتى بدأتُ بالارتجاف تدريجيًا.

تلاشت عوالم التبهنس مرة واحدة وبدا أن الجو يزداد حرارة رغم وجود المُكيف، تعرق وجهي مرة واحدة وأنا أعيد تفحص التسجيلات مرارًا وتكرارًا حتى استمر بحثي لأكثر من ساعة.... دون أن أجد التسجيل!!

-ها يا جورج ..... فين التسجيل ؟

بدأتُ بالتهتهة وأنا أعبث في هاتفي بارتباكٍ جعلني أقول باستنتاجٍ غير مُصدق:

-أنااا .... معرفش ازاي حصل كدة

لفحتهم عوالم القلق حتى سألت راموئيل:

-شو صار ؟.... وين التسجيل ؟

استجمعتُ قواي أكثر ورفعت قامتي عازمًا على إخبارهن الحقيقة مهما تطلب الأمر:

-أنا تقريبًا كدة ..... نسيت أعمل....!! save

الفصل الرابع عشر (أوافق على تحطيمهم)

((إيمان))

24يوليو 2015   المدينة البيضاء / تل أبيب : فلسطين المُحتلة

علمتني الحياة درسًا جديدًا، من يُعطيك الأمل، هو نفسه من يقوم بسلبه....

آعطاني آدم أملًا في حياةٍ مثالية تُشبه حياة الأميرات في الأساطير، لكنه في لحظة واحدة، أسقطني في هوة متأججة بالنيران لا أستطيع حتى الآن أن أخرج منها، والآن، بعد أن أكد لنا جورج أنه قادرٌ على هذه المُهمة، وكان في قمة لهفته وهو يتحدث عن نجاحه والمعلومات التي حصل عليها، أسقطنا في شرزمة من المتاعب بسبب خطيءٍ بسيطٍ أحمق اقترفه، الخطأ الذي جعلني أفقد صوابي وأنقض عليه انقضاضة الأسد على فريسته.

-وحياة خالتو !! .... يعني بعد ده كله تنسى تعمل..... !! save

حاولتُ انتزاع خُصلاته التي يتباهي بها وأنا أنقض عليه رادفة بسخرية:

-وعمال تقول أنا جامد ومفيش حد زيي .... حسستني يا أخي إنك توم كروز....

أمسكتني راموئيل من كتفي محاولة إبعادي عن جورج الذي طفق يدافع عن حاله:

-يعني الحق عليا إني بساعدِك_

قطعتُ حديثه بصوتٍ مُرتفعٍ صلف:

-يا أخي ياريت إيدي كانت تتقطع قبل ما أفكر أتصل بيك وأطلب مساعدة منك......

واصلتُ تقريعه وأنا أحاول الانقضاض عليه وتتعالى أصواتنا بين محاولات آنابيا لفض اشتباكاتنا بعد أن أخبرتها راموئيل سريعًا عمَ حدث، وبعد العديد من النزاعات رفعت راموئيل من صوُتها وهي تهتف بنبرة صارمة:

-توقـــفوا ..... توقفوا الآن .... يجب أن نُفكر في حلٍ لتلك المُعضلة

التقطُ أنفاسي وأنا أحاول استعادة رباطة جأشي رامية جورج بنظراتٍ غاضبة، وهو يبادلني إياها ببرودٍ كما لو أنه لم يُخطيء هذا الخطأ السخيف، فبسببه لن نجد فرصة أخرى للإيقاع بشارون.

-ماذا سنفعل ؟ .... لقد أضاع هذا الأحمق الفرصة من بين يدينا

قُلتها بغضبٍ عارمٍ وأنا أشير بسبابتي على جورج الذي بدا على شفا جرفة من الرد على إهانتي لولا تدخل راموئيل في اللحظة الأخيرة:

-لا تقلقوا .... هناك خطة بديلة

قطبت آنابيا حاجبيها وهي تُعلق بحيرة:

-مهلًا .... ألم تكن هذه الخطة البديلة ؟

التفتنا نحو آنابيا لنؤكد على صدق حديثها، فبالفعل كانت هذه خطتنا البديلة بعد أن فشلنا في الإيقاع بشارون أول مرة.

فكرت راموئيل هنيهة قبل أن تبادلنا بنظراتٍ قيادية قالت معها بثقة:

-نعم .... لكن هناك خطة أخرى

غيَرت نبرتها إلى أخرى تحذيرية وهي تواصل:

-لكننا إذا فشلنا بها ..... فسينتهي أمرنا .... إلى الأبد!!

ـــ

27يوليو 2015 المدينة البيضاء / تل أبيب : فلسطين المُحتلة

وكعادة الأمر، ستدفعنا الحياة مجددًا إلى ما لا نُريده، فالخطة التي وضعتها راموئيل، ليست كسابق الخطط التي تتسم بالمُكر والدهاء، فهذه الخطة كارثية، ستُخلف وراءها العديد من المتاعب، والمؤسف في الأمر، أننا لا نملك حلًا آخرًا.

داهمتني العديد من الكوابيس أثناء التفكير فيما آلت إليه الأمور، فطوال اليوم نستعد لهذه الخطة، طوال الأيام السابقة نحاول العمل بجدٍ وتوخي الحذر حتى لا نُخطيء مجددًا، عفوًا .... لا نُخطيء للمرة المئة.

لم يكن لنا دوٌرٌ كبيرٌ في هذه الخطة، فما علينا فقط سوى المراقبة والدعاء، أما الدوٌر الأكبر سيقع على عاتق راموئيل وكلًا من جورج الذي سيدفع ثمن خطئه، ومُسلم الذي بدأ يمتثل للشفاء وأصرٌ على مشاركتنا الخُطة لعدم مشاركته لنا لبضعة أيام.

اشتد بي الأرق وأنا لا أتوٌقف عن التفكير فقررت الوثوب عن الفراش والذهاب إلى الشُرفة لمشاهدة النجوم، فالسماء الصافية والهواء العليل، يبعث بداخلي بعض الاطمئنان، فكلما اقتربنا ليوم التنفيذ، يزداد خوٌفي أضعافًا، فعقلي أصبح يُفكر بالسلبيات قبل الإيجابيات، ربما لكثرة السلبيات التي نتعرض لها.

حافظتُ على خطواتي الهادئة وأنا أتحرك في الردهة محاولة قدر الإمكان تجنب الضجيج، فلا يجب أن أوقظ البقية.

كانت نسمات الهواء عليلة رغم حرارة الطقس، لكن الطقس هنا يُذكرني بالطقس العليل في الاسكندرية، ربما لأننا في شمال الشرق الأوسط، فتحتُ باب الشُرفة لأواصل خطاي نحو الخارج وأصطدم براموئيل الجالسة على المُقعد الخشبي ومعها المصحف!!

من المُفترض أنها أخبرتنا أنها ستعود إلى منزلها، فدائمًا ما تقضي معنا أغلب اليوم وتعود في المساء حتى لا يشُك والدها بالأمر، أما اليوم، فقد أصابتني الحيرة وأنا

أراها تجلس في الشرفة وعيناها تمرّان على كلمات القرآن، استشعرتُ الوجوم على وجهها للحظة من الثانية، علِمت أنها تحاول الهرب هنا....لا أعرف إن كان الهرب من والدها المُستبد الذي أخبرتني عنه، أم من حياتها المليئة بالأكاذيب.

بكل هدوءٍ، جلستُ بجوارها لأسبر أغوارها وأحاول امتصاص هدوئها، من العجب أنني أحاول إصلاح الجميع وأنا التي أريد من يقوم بإصلاحي.

-راموئيل .... بتعيطي ؟

سألتها بقلقٍ حالما لاحظتُ عيناها المتوّرمتان وأنفها الأحمر، كانت تلتفت نحوي بآلية حتى وجدتها تُكفكف دموعها وتُجيبني بثباتٍ تُحسد عليه:

-لأ .... ما في شي .... أنا منيحة

صوّتها المُتحشرج أثبت لي أنها تكذب، ومع ذلك لم أشأ أن أضغط عليها، فأنا أعلم كم يرغب المرء في الكُتمان عندما يستبد به الضيق؛ لهذا السبب حافظتُ على صمتي حتى وجدتها تُقلب صفحات القرآن متفوّهة باستذكار:

-عبود عطاني هاد المُصحف .... كان عمُ يقرا منه بالحديقة .... و ... كان صوّته كتير حلو

أنهت حديثها المُتقطع بدموع جارفة تنسل على وجنتيها، واصلت بكاءها حتى انفطر قلبي إلى نصفين ووجدتني أمسد على ظهرها محاولة التهدئة من روعها، يبدو أنها كبتت رغبتها في الانفجار لفترة طويلة.

-كان بيحب يضل معي .... بس أنا خذلته .... مات بسببي....

بكت بقهرٍ حتى تجعد وجهها وارتفع صوّت نحيبها، تركتها تُفرغ شُحنتها قدر المُستطاع وعندما واصلت البُكاء المرير، حاولتُ تبديد حُزنها وقهرتها ولو لفترة وجيزة، أعلم أن الحياة أحيانًا ما تسلب منا ما نُريد، لكنها أيضًا تُعطينا شيئًا في المقابل، وربما وجودنا معها في هذا الوقت هو مكافأة من الحياة، فقد أخبرتني سابقًا

كم كانت تمقت العرب وتتمنى موّتهم، لكنها بعد ظهور عبود، تغيرت وأصبحت تسعى لنشر السلام وتبديد الظُلم، لكنها تفاجأت بقسوة العالم حينما قَتل زميلها بالجيش من غيَر حياتها للأفضل.

-هو دلوقتي في مكان أحسن ..... متفكريش غير في ذكرياتكم الحلوة .... يعني....

بدلتُ نبرتي إلى أخرى مُبهجة وأنا أسألها:

-يعني مثلًا .... فكري في الحاجات الحلوة إللي كانت بينكم .... مثلًا ... إتعرفتو على بعض ازاي ؟

توّقفت عن البكاء لأتأكد أن حيلتي قد نجحت، فأنا أحاول جذبها من الذكريات المريرة إلى أخرى جيدة تدفعها للابتسام ولو لفترة قصيرة.

-اتقابلنا بإشتباك ..... ووقتها ..... كان يقولي بطريقة غير مباشرة إني راح روح على الجحيم....

التفتت نحوي لتواصل ذكراها بحنين:

-بس أنا ما سكتله .... قلتله إني راح زته بالسجن

أنهت حديثها بطريقة فخورة جعلتني أعلق بسُخرية:

-يعني هو شتمِك وإنتِ هددتيه !! ..... دا باينها كانت علاقة رومانسية خالص

انفجرت بالضحك لفترة على مزحتي وشاركتها بابتسامة هادئة حتى توّقف كلانا وبقينا نطالع النجوم في حنينٍ جعلها تفتح المُصحف مجددًا وتقول باستذكار:

-عبود كان يقولي إنه كل شي موجود هون ..... إنه هاد الكتاب متل السحر....

صدقتُ على حديثها بقولي المُتلهف:

-كلامه صحيح ... تعرفي .... في سنة 1963 .... أمريكا والاتحاد السوفيتي وقعو اتفاقية إن محدش فيهم هيستخدم النووي .... ولأن أمريكا مكنتش واثقة فيهم، قررو يطلقو مكوك في القمر الصناعي عشان يراقبو الجيش السوفيتي ويتأكدو إنهم التزمو بالاتفاقية....

باتت كلماتي تخرج بطريقة قصصية وأنا أقول:

-ولما طلعو الفضاء .... لقو أصوات غريبة، أصوات عاملة زي ما يكون حد عمال بيخبط على الباب .... في الأول افتكرو إن الاتحاد السوفيتي بيخدعهم وبيستخدم النووي .... بعدها العُلماء اكتشفو إن ده صوت النجوم ..... الغريب بقى .... إن في القرآن، في سورة الطارق كان في آية بتقول " والسماء والطارق، وما آدراك ما الطارق، النجم الثاقب " .... تخيلي إن القُرآن إللي نزل من أكتر من 1400 سنة، كان عارف صوت الطرق بتاع النجوم، الصوّت إللي العلماء استخدمو تقنيات عالية عشان يكتشفوه....

بدا الذهول والإعجاب على وجهها حتى أكملتُ الحديث بنفس لهفتي وأنا أتذكر ما كان يقصه علي والدي من قصصٍ تتعلق بمُعجزات القرآن، والتي كُلما استعمتُ إليها يزداد ذهولي وإعجابي بهذا الكتاب العظيم.

-وفي آية 26 من سورة البقرة .... ربنا سُبحانه وتعالى بيقول " إن الله لا يستحي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها " وبعد كدة العُلماء اكتشفو إن البعوض بيعيش على ضهره كائن أصغر منه

انتشلت المُصحف من بين يديها وأنا أشير لها على تلك الآيات متفوّهة:

-كل ما هتتعمقي .... هتلاقي حاجات بتحصل دلوقتي .... ربنا كان عارفها من آلاف السنين

لاحت بيننا فترة وجيزة من الصمت كُنت قد أعدتُ لها المُصحف وعلى وشك الوثوب والعودة إلى حُجرتي، لكنني وجدتُ ابتسامة هادئة تُرتسم على ثغرها وهي تقول بشغف:

-عبود كمان كان يحكيلي هيك قصص .... بتعرفي ؟....

انتبهتُ لحديثها الذي كان:

-كتيـــر حبيت هادا الدين .... وكان بدي صير مُسلمة وكُنت راح قول لعبود .... بس...

أحنت رأسها وهي تواصل بضيقٍ عارم:

-ما كان في وقت

-مفيش وقت ليه ؟ .... ما احنا فيها

قُلتها بسرعة وكأنني أتلهف لهذا الأمر، الأمر الذي فعلته مُسبقًا في فرنسا.

-كيف يعني ؟ ... أنا ما بعرف حتى كيف صير مُسلمة

ربتُ على مرفقها باطمئنانٍ قُلت معه:

-الموضوع أبسط مما تتخيلي .... رددي بس الكلام إللي أنا هقوله وإنتِ هتبقي مُسلمة علطول .... بس بشرط تكوني مُسلمة بجد

أنهيتُ الحديث بنبرة تحذيرية ثم بدأتُ بقوّل الشهادة وكانت تُردد ورائي في لهفة حتى انتهت بقولها:

-بس هيك!!

أومأتُ رأسي إيجابًا وكانت عوالم الذهول تتملكها، فهي لم تتوّقع أن تغير ديانتها إلى الإسلام بهذه البساطة، وجدتها تبتسم تلقائيًا لهذا الانجاز وتتشكرني من كُل قلبها، طفقنا نتحدث طويلًا عن تعاليم الإسلام ومبادئه وقد وعدتني أنها سترتدي الحجاب

حالما تنتهي مُهمتنا حتى لا يشُك والدها بالأمر، فإذا علِم أنها تعتنق الإسلام الآن ربما سيقبل على قتلها والتخلص منها بلا رحمة، فهو لا يكره أكثر من المسلمين.

وثبت بعدها لتتجه صوّب باب الشُرفة تستأذن بالرحيل لأن الساعة قد شارفت على الحادية عشر وستبدأ خطتنا في الغد لهذا السبب عليها أن تحصل على قِسطٍ من الراحة.....

((شارون))

27يوليو 2015 تل أبيب : اسرائيل

عندما نُحقق أهدافنا، نسعى دائمًا للتفكير في عواقبها على المدى البعيد، فإذا أردنا الإغارة على قرية فلسطينية، فنحن لا نفعل ذلك إلا عندما نتأكد أن لا أحد يرانا، ولا أحد سيُقاضينا، لا نفعل ذلك بطريقة عشوائية كأولئك البربريون، وهذا بالضبط ما ساعدنا على استعادة دولتنا في باديء الأمر، حيث بدأنا أولنا بحشد قواتنا، ثم الاستيلاء على الأراضي بطريقة سلمية، ثم استقطاب القوة العُظمى، وعندما تأكدنا من حصولنا على الدعم الكافي، بدأنا الإغارة بالطُرق المباشرة.

وهذا ما سنفعله أيضًا حتى نُدمّر المسجد الأقصى، فمثلًا، نحن نعرف أن تدمير معلمٍ كهذا، سيضعنا في العديد من المتاعب خاصة مع الأمة الإسلامية، لهذا السبب نبدأ أولًا بالتمهيد تدريجيًا قبل أن نضرب الضربة القاضية.

فبالنسبة للمسجد، فقد أعددنا خطة لتدميره على عدة مراحل، ربما تستغرق العديد من السنوات، لكننا سننجح في النهاية...

المرحلة الأولى تبدأ عن طريق الإعلام، حاولنا قدر الإمكان أن نحجب جميع الصوّر الخاصة بالمسجد الأقصى واستبدالها بقُبة الصخرة، فإذا قام أحدهم بالبحث عن ذاك المسجد، سيظهر أمامه مسجد قُبة الصخرة وسيعتقد أن المسجد الأقصى في حالة جيدة، وهو ليس كذلك.

نجحنا في هذه المرحلة أخيرًا، واستطعنا خداع العديد من الأشخاص، حتى المُسلمين، فبهذه الطريقة لن يعرف أحدهم ماذا نفعل، وسنتمكن من دخول المرحلة الثانية، ألا وهي .... المصليون.

سنبدأ أولًا بحجب حركة المُصليين واعتراض طريقهم وإلقاء القبض عليهم، وإذا سألونا عن السبب في ذلك، سنُجيبهم ببساطة أننا نوّقف مناقشات المنظمات الإرهابية التي تُعقد عادة في المساجد، وهذا استنادًا على الحُجج والبراهين.

بعد أن نُعيق حركة المُصليين، ونمنعهم من الدخول، سيستسلم الشعب ويتوّقفوا عن الإقتراب من المسجد الأقصى، ربما سيتجهوا إلى المسجد الإبراهيمي أو قبة الصخرة، صحيح أننا لم ننجح بعد في هذه الخطوة، لكننا نقوم بها حاليًا، وعمَ قريب سنجني ثمار نجاحنا.

المرحلة الثالثة تبدأ حينما يقل عدد المصليين ويتوقف المسجد عن إقامة الصلوات، وقتها، سيأتي دورنا في تهديم المسجد من الداخل، سنبدأ بالعبث بالأثاث وتدمير الأرضية ببطءٍ شديد، وإذا سأل أحدهم، سنقول أننا نقوم بإصلاحاتٍ وترميماتٍ لهذا المسجد العتيق، وعندما ننتهي من تدمير المسجد من الداخل، سنتعلل بأن المسجد لم يعُد صالحًا للاستخدام، وبالتالي علينا ترميمه من الخارج، وعندما يُصدقنا العالم، سنُنفذ الخطة ونُدمر المسجد ..... ولن ننسى طبعًا الثلاث بقرات الذين سنستخدمهم في إنهاء هدفنا السامي.

أنهيتُ رسم الخطة بطريقة مُنمقة على حاسوبي الشخصي، لم أشأ الذهاب إلى الحانة مرة أخرى بسبب ما حدث مُنذ بضعة ليالي، فقد أخبرني أحدهم أنني صِرت أهرتل بالأحاديث أمام رجلٍ غريبٍ لا أعرف من هو، ولن أدع فرصة أخرى للوقوع في هذه الهوة، فلا يجب أن أنسى أن إيمان هنا، ويجب علي القضاء عليها قبل أن تعثر على ابنتي.

قررتُ الذهاب إلى صديقٍ عزيزٍ علي لأقضي معه الليلة وأتحدث معه عن بعض الأمور السياسية، وكان هذا الصديق هو " أزاريا مردخاي " جنرالٌ في الجيش ويقود إحدى الكتائب التي تتوّلى جبهة القتال مع لبنان، وهذا لفترة مؤقتة بسبب اشتداد هجمات حزب الله في الفترة الأخيرة.

طرقتُ الباب بضع طرقاتٍ ولم أنتظر الكثير من الوقت حتى فتح لي أزاريا وأدخلني منزله بعد أن سألني عن ابنتي، أجبته بأنني تركتُ ابنتي مع المربية التي تتوّلى شؤونها مُنذ مجيئي هنا، فمن المُفترض أن تضحى نائمة في هذا الوقت.

بعد برهة من الترحيب، قادني آزاريا حيث أريكة البهو العصرية فجلسنا عليها لنحتسي القليل من الخمر، لم يكن آزاريا في حالة جيدة، وكان يبدو عليه الضيق والكُتمان، لكنني مع ذلك لم أشأ أن أسأله ما به لأنني أعلم أنه سيدلي بالحقيقة وحده.

-أريدكُ في خدمة ضرورية

هكذا باشر بالحديث في جدية جعلتني أتجرع ما تبقى من كأسي وأضعه على الطاولة فارغًا حتى أنتبه لحديثه بذهنٍ حاضر.

-هناك مجموعة من العرب .... يحومون حول ابنتي الوحيدة .... أخشى أن يقوموا بتلويث عقلها

تذكرتُ ما قاله صديقي لوكاس مُنذ عدة أيامٍ وتذكرتُ أيضًا أنني شاهدتُ ابنته راموئيل مع أولئك العربيون، وبما أن إيمان من بينهم، فيبدو أنني سأتعاون مع آزاريا ولوكاس لنقضي على هؤلاء الأوغاد.

-لوكاس يُعاني من المُشكلة ذاتها ..... هؤلاء العرب هُم لعنة علينا وعلى دوّلتنا

كُنت قد أخبرتُ آزاريا عن لوكاس فيما سبق وطلبتُ منه تصريحًا بمراقبة كلًا من إيمان وهذين الشابين العربيين حتى أعرف تحركاتهم، كما أنني أيضًا حصلتُ على مقاطع من فرنسا تشيد بأنهم مجموعة من المجرمين، أي أن الإشهار بهم هو غاية في مُنتهى السهولة، لكنني كما قُلت سابقًا، لن أضرب الضربة الأخيرة دون التمهيد للطريق أولًا.

-جائتني بعض الأخبار من فرنسا ...... كانت تقول أنهم عصابة إرهابية مُتمرسة، حتى أنهم أتوا إلى هنا بجوازاتٍ مُزيفة

جحظت عينا آزاريا في صدمة جعلته يتقدم بجذعه للأمام قائلًا بغضب:

-لن أسمح ببقاء هؤلاء الأوغاد في دولتنا ..... يجب أن أتخلص منهم بأية طريقة حتى لو اضطررنا لاستخدام الهسبارا ...

بدا أن آزاريا لا يُريد فقط سجنهم، هو يُريد أن يتخلص منهم نهائيًا، فنحن لا نستخدم الهسبارا، سوى لتبرير ما لا يُمكن تبريره، وعادة ما نستخدمه في حربنا مع غزة، حينما تسفر هجماتنا عن مقتل العديد من المدنيين، وهي بالمناسبة عبارة عن مقاطع فيديو ورسوم بيانية ومنشورات ووسوم على وسائل التواصل الاجتماعي، ووظيفتها تبرير استهداف المناطق المدنية وتحويل اللوم عن أعداد كبيرة من القتلى المدنيين إلى حماس، وهي أيضًا من الأسباب التي تجعلنا نتهم حماس باستخدامها للمدارس والمُستشفيات والأحياء كقواعد عسكرية، واستخدامهم المدنيين الفلسطينيين كدروع بشرية.

خلاصة الأمر، يريدني آزاريا أن أستخدم الهسبارا لنشر رسومٍ بيانية تُظهر أن الموقع الذي يقف فيه إيمان وأولئك العربيون، هو قاعدة عسكرية إرهابية ويجب تفجيرها فورًا .... وبالتالي سيُقضى عليهم نهائيًا، حتى ولو كانوا داخل الحدود الإسرائيلية، لكننا سننتظر أولًا حتى يتجهوا إلى مصر مرورًا بغزة، لأن هذا سيضحى طريقهم الوحيد بعد أن نُعيق حركة طيرانهم.

-لا يُفضل استخدام الهسبارا داخل الحدود الاسرائيلية .... سيتعين علينا دفعهم إلى غزة أولًا

أرخى آزاريا ظهره للوراء وهو يقول بنفاد صبر:

-لا يُهم .... ساعدني على التخلص منهم بأية طريقة .... مثلما تخلصنا من هذا العربي

يتحدث عن عبود الذي قُمت بنشر شائعاتٍ عنه تفيد بأنه يتزعم إحدى الحركات الإرهابية حتى يقوم واحدٌ من الضُباط بقتله، وهذا فقط لحماية ابنته من أولئك المُعتدين، وأعتقد أنني سأكرر الامر ولكن على نطاقٍ أوّسع.

أمسكتُ زجاجة الخمر الفاخرة وسكبتُ القليل منها داخل كأسي لأسترخي على الأريكة بأريحية قُلت معها:

-لا تقلق آزاريا ..... فلدي خطة أخرى سنقضي بها عليهم، دون استخدام الهسبارا حتى

قُلتها بثقة واستعلاءٍ جعل آزاريا يرمقني ببعض الشك لوهلة قبل أن يردف باستهجان:

-إفعل ما بدى لك .... المهم أن تتخلص منهم كما خلصتني من عبود ... وكما تخلصتُ أنا من زوجتي فريدا

كان قد أخبرني سابقًا أنه أمر زملاءه بقتل زوجته بسبب خيانتها ووقوفها في صف العرب أثناء حرب لبنان، عندما كُنت طفلًا بالثالثة من العُمر، أي عندما لم أكن في اسرائيل من الأساس.

سارت الأمور على وتيرة جيدة، وكنا على وشك التمتع بسهرتنا ونسيان هؤلاء الحُثالة لفترة مؤقتة، لولا هذه الأقدام التي اقتربت نحونا تلتها نظراتٌ مصدومة جاحظة جعلتني أنتبه لهذا الطيف وأتوّقف عن تجرع الخمر، حيث كانت راموئيل تقف أمامنا، يعلوها عوالم الصدمة وتتصاعد أنفاسها في عدم تصديقٍ قالت معه:

-والدتي !! .... قتلت والدتي!!

الفصل الخامس عشر (وداع قِسري)

((إيمان))

28يوليو 2015 تل أبيب : فلسطين المُحتلة

عندما تعرف أنك في خطر، تشعر أن ضلوعِك يتم تمزيقها بآلة حادة تُسمى الخوف، وحينما تعرف أن الخطر وشيكًا، فالآلة الحادة تقوم بنحرك يوميًا....

لم أستطع النوم أبدًا في هذه الليلة، مُنذ رحلت راموئيل وأنا أجلس على الأريكة أقرأ القرآن وأدعو الله أن يمدُّني الصبر والسلوان، بدأتُ أستشعر رحيق ابنتي يعبق بصدري من كثرة اشتياقي لها، أصوات بكاءها أتخيلها تطرق آذاني وتجعلني أهرع نحوها حتى أربت عليها وأضمها إلى كنفي، أكثر من شهرٍ وهي بعيدة عني بُعد الشمس عن الأرض، ورغم أننا في دولة واحدة، متجواران، إلى أنني أشعر بكارثة وشيكة، فحينما يجتمع الشمس مع الأرض، لا يحدث سوى الدمار، وأنا أتحدث عن شارون الذي يُ͏ُحيط ابنتي في عالمه الذي لا يُمكن أن يتصادم مع عالمي، فإما ينجح ويقضي علي، وإما أقضي أنا عليه وأفرُّ بابنتي من هنا، من هذا المُستنقع الغادر.

استيقظت آنابيا على آذان الفجر الذي لم أكن أسمعه لكنني استشعرته بفؤادي، فلا توجد مساجد هنا، أو ربما هُدمت....

كُنت أجلس على سجادة الصلاة واضعة الرُكبة فوق اختها لأجد آنابيا تتقدم نحوي ببطءٍ مُرتدية لمنامتها الرمادية ذات البُقع البيضاء والكلمات الفرنسية، تفرك عينيها لتُزيح أثر النُعاس ثم تجلس بهدوءٍ على الأريكة رادفة بصوّتٍ ناعس:

-أما زلتِ مُستيقظة من البارحة ؟

أومأتُ رأسي إيجابًا وأنا أقول ببعض القلق:

-لم يأتيني النوم

دائمًا ما تستيقظ آنابيا باكرًا، حتى أنني آراها دائمًا تجلس على الأريكة تحتسي قدحًا من الشاي وأنا أؤدي صلاة الفجر، بالطبع تفاجأت حينما رأتني اليوم وهي التي تعرف أنني لا أستيقظ قبل الثامنة صباحًا، وإذا تحسنت الأوضاع، فلن أستيقظ قبل الظُهر.

-لا تقلقي .... ستعود ابنتكِ اليوم ..... وسنمُر من هذه المحنة كما مررنا بالتي قبلها

قالتها بتشجيع جعلني أستمد القليل من قوّتي وأنا أوميء لها بامتنانٍ ثم تغتابنا فترة وجيزة من الصمت قطعتها آنابيا بارتباك:

-ما الذي .... ما الذي سيحدث حينما نسافر إلى مصر ؟ .... أي .... ما الذي سأفعله ؟

باتت مُترددة لا تعرف ما عليها فعله، فقد كانت الحيرة تكتنفها حيال هذا الأمر خاصة وأنا أعلم تمامًا كم تعتز بكبرياءها ولن توافق على إعالتها من قبل أحد، حتى جورج ....

وثبتُ عن الأرض لأجلس بجوارها على الأريكة وأضع المُصحف أمامي على الطاولة، ربتُ على فخذها باطمئنانٍ قُلت معه:

-ستبدأي حياةً جديدة .... ألا تُريدين ذلك ؟

أومأت رأسها بآلية وكأن هناك العديد من الأفكار والعوائق تعتج برأسها:

-كيف سأفعل ذلك ؟ ..... أتعتقدي أن والدي سيتركني وشأني ؟

حسنًا، فهمتُ الآن أن خوفها لم يكن نابعًا من كبرياءها، بل نابعًا من والدها الذي تسبب بتدمير حياتها.

-أنتِ ناضجة الآن .... لن يستطيع أن يتحكم بكِ .... خاصة في مِصر... وخاصة ونحن معكِ

أنهيتُ حديثي ببسمة مُطمئنة جعلتها تبادلني البسمة ببسمة أخرى لازالت تحمل علامات القلق لكنها تحاول إخفاءها أو ربما ستترك الأمور على شاكلتها، فأحيانًا يؤدي التفكير الكثير إلى الانتحار....

صدح صوّت الباب مرة واحدة ليجعلنا ننتفض في ذعر، فمن سيأتينا في هذا الوقت الباكر ؟ لا يُمكن أن تضحى راموئيل، فهي تملك مفتاحًا للمنزل، ثم ما سبب مجيئها في ذلك الوقت ؟ ألم تقُل أنها بحاجة إلى قِسطٍ من الراحة ؟؟

وثبتُ عن الأريكة وملامح الذعر تعتليني، لكنني تماسكتُ قدر الإمكان وأنا أدفع قدماي صوّب الباب وكأنني أدفعهما لمصيرهما المحتوم، تحركتُ آنابيا بجواري وعوالمها لا تختلف قلقًا عني، فكانت تُراقب من بعيد وأنا أفتح الباب ببطءٍ حتى....

ارتفع صوّت البكاء الصادر من راموئيل التي دلفت المنزل بوجهٍ أحمرٍ ودموع غزيرة، كانت تقول بتحشرجٍ من بين بكاءها:

-أنا بكرهن ... بكرهن...

واصلت البكاء بعدها بأنينٍ جعل قلبي ينقبض وأقوم بالتربيت على ظهرها تلقائيًا، وضعت آنابيا أناملها الرقيقة على ظهر راموئيل الذي طفق يرتجف كجسدٍ عارٍ يقف في السقيع.

-ماذا حدث ؟

سألت آنابيا بقلقٍ لكن راموئيل لم تُجيبها وواصلت البكاء والنحيب حتى أدخلتُها المنزل وأغلقت الباب جيدًا....

جلس ثلاثتنا على الأريكة التي توّسطتها راموئيل وجلستُ بالقُرب منها على جهة اليمين أربت على ظهرها حتى تهدأ كما تفعل آنابيا من الجهة الأخرى، وبعد فترة وجيزة من البكاء وجدناها تُجفف دموعها وتقول بفرنسية مُتحشرجة:

-قتلو والدتي .... قتلو والدتي....

جحظت عيناي في صدمةٍ وحيرة من حديثها الذي أخذت تنبس به بين دموعها، استنشقت مخاطها وحاولت مجددًا أن تستجمع ثباتها وهي تُفسر لنا:

-كانوا يخدعونني هذه السنوات .... أوهمونني أنها لقت حتفها بسبب الفصائل الفلسطينية .... والحقيقة أنهم السبب في موّتها بسبب بروتوكول هانيبال اللعين

لاح الغضب والقهر بآخر كلماتها لكنني لم أفهم ماهية هذا البروتوكول كما لم تفهمه آنابيا هي الأخرى، فآخر معلوماتي عن هانيبال، هو أنه حنبعل برقا كما يناديه الرومان، وحنبعل هو قائد قرطاخي أو تونسي سبب رُعبًا للامبراطورية الرومانية.

-ما هذا البروتوكول ؟

سألت آنابيا بفضولٍ فحاولت راموئيل التخفيف من وطأة دموعها وهي تشرح بوهن:

-إنه توّجيه عسكري .... مستوحى من القائد هانيبال القرطاجي .... هذا البروتوكول يتم استخدامه في الجيش الاسرائيلي مُنذ قديم الأزل .... وهدفه أن يمنع أسر الجنود أو الاسرائيليين من قِبل قوات العدو

استنشقت بعض الهواء ثم أخرجته حتى تستجمع قواها وتواصل الشرح بثباتٍ تُحسد عليه:

-عندما يحدث هجومٌ من المعتدين، وتستطيع حركات المقاومة أن تتوّغل بين الجنود والاسرائيليين ..... تقوم القوات الاسرائيلية بقصف هذه المنطقة التي يتجمع فيها عناصر المقاومة .... وبالتالي ... يتم قصف الاسرائيليين معهم، لأنهم إذا بقوا ... سيتم إتخاذهم كأسرى .... واسرائيل بالنسبة لها .... أن يُقتل مواطنيها أفضل من أن يتم أخذهم كأسرى

تصاعد صدرها وبدأ الغضب يجتمع مع دموعها وهي تواصل:

-أثناء حربنا مع لبنان .... ذهبت والدتي إلى الحدود رغبة في توثيق الحرب ومحاولة إيقاف العدوان بشتى الطُرق .... كانت تُريد .... كانت تُريد أن تُخبر العالم

أن اسرائيل ليست كما تبدو أمام العالم .... لكنهم تعمدو قصفها .... تعمدو قتلها مع بعض الناشطين حتى يُدمروا حدود لبنان

تقاطرت دموعها دمعة تلو الأخرى حتى أحنت رأسها واستندت بمرفقيها على رُكبتيها كي تواصل بقهر:

-كُنت فقط بالشهر الخامس .... لم أرها سوى بالصور فقط، ولا أعرف صوّتها حتى .... حُرمتُ من والدتي رغم حاجتي إليها

رفعت آنابيا أناملها الرقيقة أعلى ظهر راموئيل وبدأت تواسيها بصوّتها الرقيق:

-لا بأس ... أنا أيضًا والدتي توّفيت وأنا في عُمرٍ صغير

اجهشت راموئيل أكثر في البكاء وهي ترفع قامتها لأعلى متفوّهة:

-لكنهم لم يقتلوها....

انخرطت مجددًا في فجوة غائرة من البكاء والقهر من هذا العالم، حياتها أشبه بمن كان يحيا في منزلٍ هاديءٍ واكتشف فجأة أنه مُحاطٌ بالمجرمين، وأنه على وشك أن يُصبح واحدًا منهم.

داهمني الغضب مرة واحدة وتمنيتُ لو أستطيع صفع أولئك الأوغاد بأية طريقة، حتى أنني وجدت لساني يقول:

-سينتقم منهم العالم .... أنا واثقة من ذلك.....

ابتعدت راموئيل عن صدر آنابيا التي عانقتها حتى تُبدد حُزنها، كانت تُكفكف دموعها وتعتدل في جلستها لتنقلب عوالمها مرة واحدة إلى نظراتٍ قاسية لم أرها فيهم من قبل، حيث كانت تقول:

-معكِ حق .... سينتقم منهم العالم .... لكنني أيضًا سأنتقم منهم.....

لم أفهم ما قالته راموئيل ليلتها، لكن ما أعرفه الآن أننا في خِضم المعركة، في نهاية الرحلة، ودائمًا ما تضحى النهاية أشد صعوبة من الرحلة ذاتها، ورحلتنا كانت صعبة مليئة بالمشاق، فلا أتوقع سوى نهاية كارثية.

تسلم مُسلم عجلة القيادة بعد أن ذهبت راموئيل إلى مراكزالتحكم حتى تؤدي وظيفتها التي تتلخص في .... إطلاق صافرات الانذار.

تتلخص خطتنا في ذهاب راموئيل لإطلاق الصافرات التي من شأنها خداع المواطنين ودفعهم لترك منازلهم خوفًا من القذائف التي يتم اطلاقها من الدوّل الحدودية، ولأن اسرائيل معتادة على هذه الهجمات، فهناك ملاجيءٍ يتم اللجوء إليها للاحتماء من القذائف، وهذه الملاجيء تحت الأرض.

اصطفت سيارتنا بالقُرب من البناية التي يقطن فيها شارون والتي استطعنا بعد عناءٍ أن نعثر عليها، كنا ننتظر حتى يُصاب المواطنون بالذعر ويتركوا منازلهم حتى ينسل مُسلم وجورج من السيارة تنفيذًا لما تبقى من المهمة والذي هو .... خداع المربية التي تعتني بابنتي وإيهامها أننا من أتباع شارون وأننا أتينا بأمرٍ منه حتى يأخذ ابنته إلى مكانٍ آمن، وهي كمُربية لا صلة لها بابنتي، ستحرص على النجاة بنفسها ولن تكترث لطلبنا.

أما مُهمتي أنا وآنابيا، فهي تتلخص فقط في المراقبة وتأمين الطريق لمُسلم وجورج.....

أطلقت سرينة الإنذار مرة واحدة في تمام العاشرة صباحًا، صوّتها مزعجٌ يتغلغل في الآذان ويزداد ازعاجًا حينما ينتشر الصُراخ والذعر بين الاسرائيليين، هؤلاء الجُبناء يصرخون من مُجرد سرينة كاذبة، فما بالك بمن يستيقظ ليل نهارٍ على أصوات القذائف والقصف الحقيقي!!

تسارعت نبضات قلبي وأنا أراقب تلك البناية من بعيدٍ أنتظر هذه المربية التي أعرف شكلها جيدًا، حفظته عن ظهر قلبٍ حتى أستطيع تمييز ابنتي الصغيرة، كادت عيناي

تنبثقان من محجريهما وأنا أحدق في كل شجصٍ ينسل درجات البناية ويهرول في ذعر صوّب ملاجيء الاحتماء.

ترجل مُسلم من السيارة بُسرعة ومعه جورج الذي سيبدأ هو بالحديث مع المُربية باعتباره مُتقنًا للعبرية، تأكد كلاهما من أسلحتهما التي استعاراها من راموئيل رغم أنني أعرف أن جورج لن يستخدمها لأنه ببساطة لا يعرف كيف.

بقيتُ أنا وآنابيا داخل السيارة يتملكنا الرُعب من فشل المُهمة، فإذا فشلت ستضحى آخر فُرصة لنا لاستعادة ابنتي، أي أنني لن أستطيع رؤيتها نهائيًا، فما فعلناه مخالفًا للقانون، وما فعلته راموئيل سيجعلها تُكشف أمام القوات، وبالتالي لن تستطيع مساعدتنا مجددًا.

لا .... لن أدع مجالًا للأفكار السلبية بأن تُسيطر على عقلي ككل مرة، نحن سننجح في هذه المُهمة، هي ليست بهذه الصعوبة، ونحن لسنا بهذا الحُمق_ فيما عدا جورج_ أي أننا سنقدر عليها، وستعود ابنتي سالمة.

فتحتُ باب السيارة عندما ازداد توّترتي وخوفي ورغبتي في رؤية ما يفعلانه عن قُرب، تكاثر عدد الأشخاص وتعالت أصوات الصرخات حتى ظننتُ للحظة أننا لن نستطيع إيجاد ابنتي وسط هذا الكم من الأشخاص.

أشرتُ بإصبعي صوّب آنابيا حتى تبقى داخل السيارة حالما أقترب أكثر وأرى ما سيفعله جورج ومُسلم، تحركتُ خطوة والثانية ثم تسارعت خطواتي أكثر حتى وجدتني قريبة من الأشخاص، لكنني لم أشأ التوّغل أكثر مُتذكرة ما حذرتني إياه راموئيل، بأن وجودي سيُثير الشكوك، خاصة وأنا أرتدي الحجاب، فهم يعتبرون الحجاب كقذيفة وليس وشاحًا لتغطية الشعر.

استطعتُ بعد عناءٍ أن ألمح ابنتي من بقعة نائية لا يكاد يظهر منها شيئًا؛ رفعتُ قامتي لأعلى وحاوتُ الاقتراب من صغيرتي حتى استوّقفتني نظراتٌ حادة من أحد الاسرائيليين كادت تؤكد لي أنني سأحدث كارثة بوجودي هنا؛ هذا ما جعلني أهرول فورًا صوّب السيارة وأستقلها بقلبٍ مُضطرب، لن أضحى سببًا في إفساد الخطة هذه المرة، فجميع الخُطط يتم تحضيرها من أجلي.

حاولتُ تنظيم أنفاسي المتسارعة وتبديد قلقي الذي وصل إلى ذروته، أصوات السرينة لا تزال تصدح عاليًا حتى توقفت تدريجيًا، وعندما توّقفت تمامًا، ظننا أن الخطة ستبوء بالفشل....

فُتح باب السيارة الخلفي مرة واحدة لأنتفض أنا وآنابيا وكنا على وشك إطلاق صرخة مُستغيثة، لولا ظهور راموئيل أمامنا بوجهٍ أصفرٍ كالذرة ونظراتٍ شاحبة يبدو عليها الهلع، كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة لكنها استعادتها مرة واحدة حتى تقول:

-سننجح .... أعدكم بذلك

بثتنا ببعض الآمان لكنها لم تنجح بسبب عوالم وجهها المذعورة، فيبدو أنها ارتكبت كارثة ولم تُخبرنا بها، وما زاد شكوكي، هو بقعة الدماء على سروالها الخاص بالجيش!!

فُتح باب السيارة للمرة الثانية وهذه المرة، كان فتحها سببًا في عودة الروح إلى جسدي مُجددًا....

صوّت بكاءها العذب آعاد لي حياتي المفقودة، حتى أنني شككتُ للحظة أنها أمامي سالمة معافى، ظننتُ أنني لن أستعيدها مجددًا .... ظننت أنني لن أرى ابنتي مدى الحياة.

تصاعدت أنفاسي مرة واحدة، انهمرت دموعي بصورة لا إرادية، ليست دموعٌ حزينة، بل دموع السعادة وعدم التصديق.

-تيـــا!!

قُلتها بعدم تصديقٍ وأنا أحمل صغيرتي من بين ذراعي جورج وأضمها إلى صدري، نعم، هذه هي صغيرتي، هذه هي عينيها الزرقاوتين الواسعتين، هذا هو وجهها المُجتنز المُستدير ذو الغمازتين اللطيفتين، هذه هي رائحتها التي أعرفها جيدًا...

عانقتها بدفء العالم اجمع، استنشقتُ ربيعها كما أستنشق بستانًا مليئًا بالأزهار، ومع كل عناقٍ تزداد الدموع على وجنتي ويبدأ لساني بترديد كلمات الشُكر والامتنان، فبدونهم لم أكن لأعثر على صغيرتي أبدًا.....

تحرك مُسلم بالسيارة وبقيتُ أعانق صغيرتي حتى تمنيتُ للحظة أن أسجنها داخل ضلوعي حتى لا تبتعد عني أبدًا، بقي الآن أن نذهب إلى المطار ونرحل عن هنا للأبد .... نرحل قبل أن يتدهوّر الأمر أكثر.....

داعبت راموئيل صغيرتي وكُنت أهدهدها على رُكبتي وأعدها بتعويضها عن هذه الأيام، أو تعويضي عن افتراقها عني، فعلى الأحرى لن تتذكر كم عانيتُ حتى لا تبتعد عني وتذهب إلى والدها الحقير.

-يا رفاق ..... هناك كارثة!!

قالتها آنابيا بذعرٍ وهي تعبث بهاتفها ويبدو أنها قرأت إحدى الأخبار....

التفتنا نحوها بانتباهٍ لنجدها ترفع هاتفها نحونا كي نرى صوّرنا تملأ الجرائد الاسرائيلية مُرفقة بالعديد من الاتهمامات أهمهم " اقتحام بنك اللحم " وبالطبع لم ينسوا سطونا على الطائرة ودخولنا بجوازات سفرٍ مزوّرة وغيرها من الكوارث التي ارتكبناها بفرنسا والتي من شأنها أن تجعلنا في نظر الغرب .... " إرهابيون"

-أوه لا ..... الجميع يبحث عنا

قُلتها بقلقٍ عارمٍ وأنا أتفقد هذه الأخبار التي جعلتني آصاب بالاختناق، فيبدو أن الرحلة لم تنتهي بعد، وأنا التي ظننتها ستنتهي بعد استعادتي لابنتي.

-لا تذهب إلى المطار .... سيسهل العثور علينا هكذا

قالتها راموئيل بصرامة وجهتها نحو مُسلم الذي يقود السيارة ويتسآل بعينيه عمَ سنفعل، كانت راموئيل تُشير بيدها للأمام متفوّهة:

-إتجه نحو غزة بسرعة ...... هذا أأمن طريقٍ للعودة إلى مِصر....

استجاب مُسلم لأوامرها وقاد السيارة بالاتجاه المُراد، صوّب غزة، فإذا استطعنا الدخول، سنفرّ من العدوان، ونستطيع الهرب....

زاد مُسلم من سُرعة السيارة محاولًا أن يتخطى عناصر الشُرطة التي بدأت بالانتشار كانتشار الخنافس في المناطق الاستوائية، تلك النظرة الصارمة الحادة وجدتها تُرتسم على عيني مُسلم وهو يقود السيارة بتركيزٍ تامٍ ومهارة فائقة.....

انعطفنا يمينًا ويسارًا ونحن داخل السيارة حتى شعرتُ بالطعام الذي تناولته على الفطور يصعد إلى حلقي، تشبثتُ بابنتي جيدًا وحاولتُ التربيت على ظهرها حتى تتوّقف عن البكاء بسبب اهتزازات السيارة العنيفة، انطلقنا كالصاروخ بعيدًا عن سيارات الشُرطة التي باشرت باتباعنا وعزمت على النيل منا، لكن لا .... لن نتركهم يقضون علينا بعد كل هذا....

ارتطم رأسي بسقف السيارة التي قفزت مرة واحدة كالضُفدع، تعالى صوّت بكاء تيا مع كل هزة تجتاح السيارة وتجتاح قلوبنا أيضًا، لكن مُسلم بدا مُتمكنًا من تلك المطاردة حتى وجدناه يتحوّل إلى وحشٍ كاسرٍ مرة واحدة، فما إن مررنا صوّب بوابة الخروج من تل أبيب ودخول عصقلان_أو أشكيلون كما يقولون_ حتى اندفع مُسلم بالسيارة صوّب حُراس الأمن الذين لم يتوّقفوا عن إطلاق النيران، لولا سيارة راموئيل المُصفحة لما اخترقت أجسادنا تلك الشظايا.

أطحنا بضابطين يقفان على البوابة وجعلناهما يتدحرجان فوق السيارة قبل أن يسقطا على الأرض في بركة من دماءهما، لا أعرف إن كنا قد قتلناهما أم لا، لكنني مُتيقنة أننا في كارثة .... كارثة كبيرة!!

كثرت عربات الشُرطة التي تتبعنا وبدا مُسلم أكثر جنونًا وهو يقود بسرعة مهولة ويدعس أي شخصٍ يمُر من أمامه، وكانت راموئيل تتابع من يتبعنا في جمود، وآنابيا تقرض أظافرها في قلقٍ تتمنى لنا النجاة، أما جورج فكان يتمسك جيدًا بالمقعد وأعلم أنه على وشك التقيؤ، فأنا أيضًا أريد ذلك لكنني أتماسك قدر الإمكان من أجل صغيرتي.

واصلنا القيادة بسرعة فائقة حتى استطعنا المرور بالعديد من الحواجز والاقتراب من حدود غزة، لكننا وقعنا في خطأ، جعلنا نعود إلى الصفر .... أو ربما تحت الصفر!!

لم نكن نعرف أن الحدود الخاصة بغزة مليئة بالحُراس وضباط الجيش، بل أن الضباط الذين يحرسون غزة أكثر من أولئك الذين يحرسون تل أبيب أو أشكيلون، أحاطنا العديد من المُدرعات والآليات مرة واحدة حتى بتنا أشبه بالعصفور الذي وقع في المصيدة.

اضطر مُسلم أن يوّقف السيارة ويترجل منها بسبب تلك الأسلحة التي أشهرت أمامنا مع نظرات التهديد التي يرمينا الجنود بها، فإن لم نُسلم أنفسنا، سيتم تفجير السيارة في أقل من ثلاثين ثانية.

تصاعدت أنفاسي المذعورة وأنا أفتح الباب ببطءٍ وقلبي يرتجف مع كل ثانية، تمسكتُ جيدًا بصغيرتي التي لم تتوقف عن البُكاء وعزمتُ على عدم تركها أبدًا، سأظل بجوارها حتى ولو كان الثمن حياتي....

-ارفعوا أيديكم

هتف الجُندي بتلك الجملة الصارمة وهو يرفع بندقيته نحونا ويحاوطنا زُملاءه بالمزيد من البنادق؛ رفع جورج يده باستسلام وتبعته آنابيا بنظراتٍ توشك على البكاء، أما مُسلم فلم يتحرك قيد أنملة وبقي يرمقهم بنظراتٍ حادة ثابتة، مثلما فعلت راموئيل بالضبط، وكنت بين ذلك كله أشعر بتيهٍ أشبه بتيه المسافر حينما اكتشف انه تاه في صحراءٍ جرداءٍ حرارة الطقس فيها تزداد عن الأربعين.

لاحت فترة قصيرة من الصمت وكان الجنود يقتربون نحونا حتى يُكبلوا أطرافنا ... يقتربون ويقتربون حتى....

في أقل من ثانية، رفعت راموئيل سلاحها وأطلقت رصاصة صوّب هذا الجُندي الذي انفجرت دماءه وخر فاقدًا للحياة، فما اكتشفته للتو أن الدروع الواقية التي يرتديها الجيش الاسرائيلي عبارة عن أقمشة سميكة تُعرضهم للخطر إذا كانت مسافة الرصاصة صفر، مثلما فعلت راموئيل.

تسببت تلك الرصاصة في ضروبٍ من الهرج والدمار، حيث رفع مُسلم سلاحه وأطلق منه العديد من الرصاصات المُتمكنة التي أصابت جنديين وجعلت بقية الجنود يتأهبون لهذا القتال، ولأن الجنود يفوقننا عددًا وعتادًا، فكان الهرب لزامًا علينا....

أيقظت هذه الرصاصات عناصر المقاومة الذين يقومون بحراسة الحدود، فتلك الرصاصات تُعرضهم للخطر؛ سرعان ما انتشر بعدها دوّي الرصاص ونشبت معركة صغيرة قُرب الحدود، معركة وجدنا أنفسنا بداخلها، أو نحنُ من تسبب بها!!

اضطربت أنفاسي وشعرتُ بصخرة ثقيلة تجثم على صدري وتُعيق تنفسي، انسابت قطرات العرق على جبهتي ولم أكن أعرف ماذا أفعل، فصوّت بكاء صغيرتي يجعلني أكثر خوّفًا وتيّهًا.

أيقظتني راموئيل التي جذبت ذراعي ودفعتني بقوة بعيدًا عن الطلقات التي كادت تُصيبني، تمسكتُ جيدًا بصغيرتي حتى كِدت أعتصرها داخل أضلعي، واصلنا الهرولة بأقصى ما لدينا حتى استطعنا دخول غزة، فقد انشغل الحُراس بهذا القتال وتناسوا أمر البوابة .... أو ربما ظنناهم كذلك.

كُنت أهرول خلف راموئيل لكنها توّقفت عن الهرولة لتدعني أهرول أمامها وتستطيع هي تأمين الطريق خلفي، فأنا لا أملك عتادًا لأدافع به عن ذاتي، كما أن صغيرتي تُعيق حركتي وتجعلني أكثر حرصًا على حياتي.

رفعت راموئيل سلاحها وأطلقت منه طلقاتٍ عشوائية لا أعرف إن كانت آصابت أحدهم أم لا، لكنها أخفضت سلاحها وعاودت ترمقني بنظراتٍ حادة وتدفعني للأمام خوّفًا على سلامتي...

-لا تبَعدي عني .... أنا_

قطع حديثها صوّت طلقاتٍ نارية قريبة جدًا يبدو أنها.....

جحظت عيناي في صدمة وأنا أرمق جسد راموئيل يهوي على الأرض بعد تلقيها لرصاصتين أصابتا ظهرها، سقط فؤادي وشعرتُ أنني سأفقد الوعي وأنا أرمق راموئيل مُضرجة بدماءها أمامي !! مظهرها جعلني أصرخ في هلع:

-راموئــــيل!!!

((آنابيا))

حدود غزة : فلسطين

يرتجف جسدي كبناية تهتز إثر تعرضها لزلالٍ مُدمر، بدأت الدموع تتكاثر في عيناي وأنا أشعر وكأنها النهاية، أنا التي ظننتني شيئًا لا أهمية له، تضحى هذه نهايتي!!

هل هكذا ستنتهي حياتي ؟ بهذه السُرعة ؟ صحيحٌ أنني فكرتُ في الانتحار أكثر من مرة، لكنني لم أستطع انهاء حياتي وقتها، لماذا عندما أحببتُ الحياة أجدها تُسلب مني ؟ لماذا يأتيني الموّت حينما لا أكن مُستعدة له ؟

ظلت هذه الأسئلة تُعيق ذهني وتجعلني أشبه بالصنم، لا أنا قادرة على النجاة، ولا قادرة على الحركة، فأنا فتاةٌ ضعيفة لا تقدر على شيء، كيف لي أن أفر من هذه الويلات ؟

-هيا بسرعة

صرخة جورج أعادتني للحياة مجددًا عندما بدأت الطلقات النارية بالتبادل، وجدنا راموئيل تتحرك أمامنا جاذبة معها إيمان التي لم تترك صغيرتها مُنذ اجتمعت معها، أمسكني جورج من مرفقي بقوة حتى أحسستُ بأن عظامي ستتحطم بين يديه، أكاد أجزم أن المراجل تغلي بداخله من الهلع وهو يهرول أمامي، فدائمًا ما يتعمد إخفاء خوفه أمامي رغم أنني أستشعره بسهولة من عينيه.

انقطعت أنفاسي ونحنُ نهرول في الصحراء الجرداء مرورًا بحديقة ذات حشائش ذابلة، كدنا نقترب من الأسلاك الحديدية ونحاول اختراقها لولا توّقفنا مرة واحدة أمام هذا الجمع من الجنود الذين اعترضوا طريقنا وأحاطونا من كل جانب.

توّقفنا عن السير مُرغمين لأتمسك بذراع جورج حتى لا يتركني، فلن أقدر على مواصلة الطريق من دونه، ويبدو أنه تفهم هذا الأمر وجعلني أتمسك به بأريحية.

نصب جورج قامته وهو يرمق الضباط بنظراتٍ حادة لم أرها على جورج من قبل، وجدته يبسط ذراعيه أمامي لعله يُقيم ستارًا ما بيني وبين الجنود، وكنت أنا أرتعد من الخوف وأحاول الاندثار خلفه قدر الإمكان.

لم يقترب الجنود نحونا واكتفوا فقط بإحاطتنا بأسلحتهم وتهديدنا بأعينهم، شعرتُ بالغرابة لهذا الأمر لأنني ظننتهم سيُكبلوننا بالأغلال ما إن نقع بين أيديهم، خاصة ونحن لا نملك أي من الأسلحة، فجورج قد أوقع سلاحه ونحن نهرول.

صوّت سيارة فارهة سوداء وجدناها تقترب نحونا حتى ظننتُ لوهلة أنهم سيدفعوننا للسجن بتلك السيارة الفارهة، لكن ظنوني مع الأسف .... لم تكن صحيحة.

-إلى أين آنابيا ؟ ..... هل تعصين أوامري مُجددًا ؟

احتقن وجهي واتسعت حدقتاي في صدمة جعلتني أتصلب مكاني وأكاد أبصق فؤادي من شدة الخوف، تركت ذراع جورج وتقدمتُ خطوة للأمام مُسلطة عيناي الثابتتان على عيني والدي الذي يقف أمامي مباشرة ببزته الوقورة ونظراته الخبيثة.

لم أستطع النبس ببنت شفة رغم العديد من الكلمات التي أسجنها داخل حلقي، أريد أن أوبخه ولا أعرف، أريد أن أخبره أن يبتعد عني، فهو لم يفعل لي شيئًا جيدًا ولو لمرة واحدة، أهذا يُسمي نفسه أبًا، أقسم أن الغرباء كانوا يعاملونني أفضل منه.

تصاعد الغضب إلى عيناي وقررتُ أن أواجهه هذه المرة، فلا مزيد من الضعف، لا مزيد من الانصياع لرغبات الآخرين .... لا مزيد من آنابيا القديمة التي لا فائدة منها.

-ماذا تُريد مني ؟ .... أتعرف عزيزتك فرانشيسكا أنك هنا ؟

تعمدتُ إثارة حنقه بتلك الكلمات التي جعلت جورج يرمقني بإعجاب، بالطبع لم يعتد على صلابتي هذه، فهو الذي مرنني على المواجهة طوال هذه الأيام، وها أنا الآن أنفذ تعليماته.

تقدم والدي نحونا بخطواتٍ بطيئة حتى حدجني بدهاءٍ قال معه:

-لا أحتاج إلى تعليمات فرانشيسكا حتى أعيد ابنتي إلى صوابها

رفعتُ حاجبي بتهكم وأنا اهاجمه وقد تناسيتُ للحظة أنه والدي، حسنًا أنا لم أشعر أبدًا أنه كذلك.

-حقًا .... ولما لا تعُيد صوابك أولًا ؟!

استطعتُ استشعار ضحكة جورج المكبوتة على ردي غير المتوّقع، ردي الذي جعل والدي يرمقني بغضبٍ نهرني معه:

-ما الذي تقولينه أيتها المُتحذلقة ؟ .... أعلمكِ هذا العربي أن تتحدثي مع والدكِ بهذا الصلف ؟

-أنـــت لســـت والـــدي

انفجرتُ بوجهه بتلك الكلمات الغاضبة التي جعلت وجهي يتحوّل إلى اللون الأحمر، خاصة وأنا أواصل صراخي:

-أنت لست والدي .... أنت لا تُحبني .... تريد إعادتي فقط حتى تسلم من الأقاويل ..... تُريد أن تبيعني كسلعة بخيثة لأصدقائك الأوغاد ومن أجل صفقاتك اللعينة.....

بدأت الدموع تترقرق على وجنتي وأنفاسي تتصاعد حتى خفتتُ نبرتي مرة واحدة:

-ابتعد عني .... كفى تدميرًا لحياتي

لاحت بيننا فترة وجيزة من الصمت والنظرات المتبادلة التي تحمل العديد من المعاني، نظراتٍ لا تخلو من العتاب من ناحيتي، ولا تخلو من الاستخفاف والجمود من ناحية الذي يُسمي نفسه والدي.

سرعان ما وجدتُ ابتسامة مُتهكمة تُرتسم على شفتيه يليها خطواته التي ابتعدت عنا وتبعها المزيد من الجنود الذين ضيقوا الخناق علينا، وقف والدي بين أولئك الجنود متفوّهًا:

-هل انتهيتي من هذه المسرحية الهزلية ؟

لُذت بالصمت واكتفيتُ بنظراتي الحادة الشبيهة بنظرات الصقر، بقيتُ أطالعه بتلك النظرات حتى وجدت نظراته تتغير مرة واحدة إلى التهديد وهو يقول:

-ستعودي إلى فرنسا رغمًا عنكِ .... وسأجعلكِ تدفعين ثمن هذه المتاعب التي تسببتِ لي بها

ارتعد جسدي بطريقة هيستيرية خاصة بعد حديثه الذي أصابني بالرُعب، سُرعان ما وجدتُ الجنود يحاوطننا أكثر فأكثر حتى قبضوا على كتفاي وكتفا جورج الذي حاول دفعهم والصراخ بوجههم حتى يبتعدو عني.

استجمعتُ قواي وأنا أحاول التملص من قبضتهم ودموعي تنزلق على عيناي دون إرادة، خاصة بعد صوّت هذا اللكمة التي اخترقت وجه جورج وتبعها العديد من اللكمات والركلات التي أصابت معدته وصدره وسائر جسده.

هوّي قلبي على الأرض وأنا أصرخ بجورج وأحاول التملص بلا فائدة، فكان الجنود قد تكاثروا عليه وأوقعوه أرضًا وبدأو يُسددوا له المزيد من الضربات والركلات أمام نظرات والدي المتشفية ونظراتي قليلة الحيلة.

-اتركوه .... اتركوه....

بقيت أبكي وأصرخ بتلك الكلمات وكان الجنود يقبضون على ذراعي بقوة ويُرغمونني على رؤية جورج وهو على الأرض مُضرجًا بالدماء، اكتفيتُ بعدها بالبكاء الصامت ومحاولة إغلاق عيني والاكتفاء بالدُعاء كما علمني جورج.

ابتعد الجنود عنه مرة واحدة بعد أن هشموا عظامه وتركوه مسجيًا على الأرض لا يقدر على تحريك عظمة واحدة، فكان وجهه مليءٌ بالكدمات والسحجات والدماء تنسل من أنفه وفمه، وحتى ثيابه كانت ممزقة تُظهر من خلالها المزيد من الكدمات والجورح.

اضطرب قلبي أكثر ورفعتُ عيناي المنتفختان نحوه أحاول الاطمئنان عليه والتأسف له عمَ حدث، فلطالما اعتقدوا أن إيمان هي سبب جميع الكوارث، لكنني لا أختلف عنها أبدًا.

سعلُ جورج المزيد من الدماء وحاول الوثوب عن الأرض بوهنٍ حتى تلقى ركلة أخرى جعلت جسده يُعانق الأرض ويستسلم للظلمة، حاولتُ التحرر من قبضتهم للمرة التي لا أعلم عددها لكن محاولاتي تبوء بالفشل، رفع واحدٌ من الجنود مدُّيته وقام بفتحها وتقريبها من جورج وهو يلفذ أنفاسه بصعوبة، وبحركة سريعة أخذ يُمرر مديته على ذراع جورج حتى أحدث به جرحًا غائرًا جعله يُطلق صرخة مكتومة واهنة.

بدأتُ ألتقط أنفاسي بصعوبة وأنا أشاهد ما يحدث ببكاءٍ صامت ورغبة في إنهاء الأمر، فيبدو أن صرامتي وشجاعتي لم تفلح أيضًا مع هذا العالم.

استشعرتُ أنين جورج وهو يعانق الأرض والدماء تنسل من ذراعه، كان يحاول رفع رأسه نحوي لكن إعياءه منعه من الحراك واكتفى بنظرة واهنة مُحبة رغم آلامه، انقبض قلبي أكثر حينما وجدت الجُندي يرفع مدُّيته ويُريد جرحه مجددًا والقضاء عليه بتلك الطريقة الشنيعة، لكنني أوقفته بصرخاتٍ مُستسلمة:

-توقفو .... توقفو أرجوكم .... سأذهب معك .... أقسم أنني سأذهب معك إلى فرنسا ....

بقيت أنفاسي تتصاعد ودموعي تنسل حتى ارتسمت ابتسامة مُنتصرة على ثغر والدي وكأنه يشعر بالانتشاء من رؤيتي مُنكسرة بهذه الطريقة، كان يتقدم نحوي بنظراته المتشفية وإشاراته التي صوّبها نحو الجنود حتى يتوّقفوا عن إيذاء جورج.

أخفضتُ رأسي وواصلتُ البكاء بقهرة حتى شعرتُ بأنامل والدي تمتد نحو ذقني وترفع وجهي لأعلى، كانت عيناي المنتفختان الحمراء هي كل ما لاقاه والدي وهو يقوم يتأمل انكساري لفترة ثم يتركني ويبتعد القليل من الأمتار عني متفوّهًا:

-حسنًا إذا ..... سنعود كلينا إلى فرنسا .... وسنبدأ معًا حياةٌ جديدة .... لكن أولًا ....

توقف عن الحديث ليضع يده بخصره ويقترب نحو جسد جورج المسجي والذي ربما فقد الوعي بسبب دماءه الغزيرة، اضطربت أنفاسي أكثر وشعرتُ أن فؤادي سيتوّقف عن العمل حينما واصل والدي الحديث بمُكر:

-يجب علينا التخلص من أخطائنا....

لم أفهم معنى حديثه إلا حينما وجدته يُخرج سلاحه ويُصوبه على رأس جورج مباشرة، فما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى صدح صوّت ..... الطلقات النارية....!!!

الفصل السادس عشر (نلقاكم في رحلة أخرى)

((إيمان))

28يوليو 2015 حدود غزة : فلسطين

أكثر اللحظات التي ستظل عالقة في الأذهان .... هي لحظة النهاية.

انقبض فؤادي وأنا أشهد هذه الدماء الغزيرة المُنبثقة من راموئيل، شعرتُ أنني داخل حُجرة خانقة لا يوجد بها هواء، ولا يوجد بها حياة، فقط حُجرة مُظلمة صغيرة مُحاطة بمُثلث الخطر؛ نقص الطعام والماء، نقص الرفاق والأحبة ..... وانتشار الدمار.

تتبادل الطلقات النارية حتى بدأت أذناي تُطلق العديد من الصافرات، خاصة مع بكاء تيا الذي لم يتوّقف، بل يزداد حدة.

أريد الاعتذار لصغيرتي عمَ تسببتُ به، لم يكن يجب أن أضحى بهذه السذاجة، لم يكن يجب أن أخالف ما أمرني به والداي، فبسبب خطأي الأحمق، عرضتُ الجميع للخطر، وها أنا ذا، أقف في مُنتصف المثلث تنهمر دموعي على وجنتي وتتصاعد وتيرة أنفاسي وأنا أتحسس الدماء المُتدفقة من ظهر راموئيل وأحاول دفعها عن الأرض بجسدي الواهن.

-استـ.... استحملي .... استحملي يا راموئيل .... أنا_

خرجت الكلمات مُتقطعة من جوفي يحفها الدموع وقلة الحيلة، وجدتُ راموئيل تقبض على يدي التي لم تتوقف عن الارتجاف، والعجيب أن لمستها كانت مُطمئنة رغم أنها في خطر.

-نيـ .... نيچار .... اسمي ... نيچار

حاولتُ التقاط أنفاسي وأنا أستمع إلى هذا الاسم الذي تتلوه وتصف به ذاتها رغم أنني أعرف أن هذا ليس اسمها، أو ربما بدلته بعد اعتناقها الإسلام.

تمسكتُ بيدها أكثر وحاولتُ أن أرفعها عن الأرض وأنا أهتف بذعر:

-خلاص خلاص .... أنااا .... أنا هدوٌّر على حد يساعدنا

كُنت على وشك الوثوب وطلب المساعدة لولا راموئيل التي أمسكتني وأعادتني مُرغمة مكاني وهي تقول بصوٌتٍ ضعيفٍ واهنٍ:

-أنا .... قتلت بابا

جحظت عيناي في صدمة ولم أقدر حتى على التعليق، ألهذا السبب كانت هناك دماءٌ على ثيابها ؟ ألهذا السبب كان وجهها شاحبًا، ألأنها قتلت والدها!!

-لا تخلي حدَ يجي .... بد ... بدي روح لعبود

واصلت الحديث بتلك الكلمات المتقطعة التي جعلت قلبي ينقبض وشعرتُ بعدها أنني لا أستطيع التنفس، رغم ملامح الرضا على وجهها، وتلك الابتسامة الغريبة التي ارتسمت على ثغرها وهي تقول:

-بدي ... كون شهيدة

تعالى صدري بذعر بسبب حديثها المُستسلم للموت، فأنا لن أتركها لاستسلامها، لن تلقى حتفها بسببي.

-لأ ...لأ ... إن شاء الله حد هاييجي يساعدنا .... أنا هخليهم ييجو....

انهمرت دموعي بغزارة وأنا أتحدث وأتلفت حولي بحثًا عن المساعدة، لكن محاولاتي الواهنة لم تؤتي سوى المزيد من الفشل، فلا توجد مشفياتُ هنا، لا يوجد سوى الطلقات النارية!!

-ششششش .... لا تبكي....

لم تستطع مواصلة الحديث وبدأت تتأوه في ألمٍ وتبصق الدماء من جوفها مما يجعل دموعي تزداد انهمارًا ويداي لا تفارقان يديها وكأنها طفلتي التي لا أريد الافتراق عنها، بل هي شقيقتي التي أهدتني الحياة إياها رغم اختلاف ثقافتنا.

ارتخت عضلات راموئيل وبدا أنها تترك يدي تدريجيًا ويتحوّل جسدها إلى كتلة من الثلج، شُحبت ملامح وجهها وتباطأت أنفاسها لدرجة أنها لم تعُد قادرة على الحديث، رمتني بنظراتٍ راضية لم أرها بهم من قبل، أو لم أتوقّع أنني سأراها يومًا، نظراتُ المتقبل لهذا القدر، نظرات الذي ينتظر هذه اللحظة مُنذ قديم الأذل، وما آضاف على هذه النظرات هي كلماتها الخافتة المُتقطعة التي التقطت معهم أنفاسها الأخيرة.

-ما في حدَ بيعرف إمتى راح تنتهي الحرب ..... بس كلنا بنعرف كيف راح تنتهي ....

خفتُ حديثها مع آخر كلماتٍ قالتها لأجدها تُغمض عينيها ببطءٍ زلزل كياني وجعل فؤادي يكاد يتوّقف عن العمل.

-راموئيل .... راموئيل....

بقيتُ اناديها باستجداءٍ ولا أجد منها ردًا، انهمرت دموعي كالشلالات على وجنتي وأنا أتحسس نبضاتها وأتأكد أنها متوّقفة، لا تخرج الأنفاس من جوفها، وجسدها باردً كجبال الإسكيمو، آخر ما قالته هي تلك الكلمات المُبهمة التي لم أفهمها خاصة في هذا الوقت، لكنني متيقنة أنني سأفهم رسالتها يومًا ما، فكلماتها الأخيرة لن ترحل عن بالي يومًا.

أحنيتُ جذعي وأنا أترك العنان لدموعي حتى تنهمر بغزارة وصوّت بكاءي يتصاعد دون الانتباه لمَ حولي، لم يتبقى أحدُ لمساعدتي، ولا أعرف أين الجميع، أي أنها حتمًا النهاية، والأسوأ أنني تسببتُ بمقتل فتاةٍ حاولت أن تبدأ حياةً جديدة طاهرة، لكن حظها العثر أوقعها مع فتاةٍ لا يأتيها الحظ السعيد أبدًا.

بكيتُ حتى جفت دموعي وانهمرت على جسد راموئيل المسجي على الأرض فاقدًا لمعاني الحياة، أردتُ فقط أي أملٍ حتى أواصل، أي أملٍ حتى ولو كان صغيرًا، لكنني

أجد اللاشيء، فإن كانت الحياة تُعطينا شيئًا، فهي لا تُعطي سوى الشقاء، أما الأمل، فيتم انتزاعه رغمًا عنها، مما يعني أننا سنفشل أغلب الاوقات، وها أنا ألقى ثمار فشلي للمرة التي لا أعلم عددها، وربما هذه آخر مرة.

ضممتُ صغيرتي على صدري لتختلط دموعنا سويًا وأستطيع تقبيلها على وجنتها المُكتنزة، أردتها أن تفهمني في تلك اللحظة حتى أعتذر لها عن إهداءها لذاك الأب الحقير، أعتذر لها عن ربط اسمها باسم شخصٍ ينمو بداخله البُغض والكراهية، ضممتها أكثر داخل صدري حتى تناسيتُ ما يحدث حولي، فإن كانت هذه هي اللحظة الأخيرة، فسوف أقضيها مع ابنتي.

-انتهت اللعبة أيها العربية....

اغتابني هذا الصوّت ليسلبني من غفلتي ويجعلني أرفع رأسي بعيدًا عن ابنتي، لاحظتُ العديد من الظلال تُحاوطني والعديد من الأسلحة المُصوّبة على رأسي مباشرة، ومن بين هذه الأسلحة، كانت صوّرته البغيضة تتمثل أمام عيني، أكثر صورة أكرهها في حياتي.

-شارون!!

رماني ببسمة متشفية وهو يرتدي الرداء الواقي الخاص بالجيش، وجدته يرمقني باستخفافٍ فأزيد من القبض على صغيرتي ومحاولة الفرار بأية طريقة، لكن يبدو أنني في جوف الخطر.

انقض علي رجال الجيش وأحاطوني من كل حدبٍ وصوّب، تعالى صوّت بكاء صغيرتي وازداد أكثر حينما أمسكها حفنة من الجنود ثم دفعوني بقسوة ليعانق جسدي الأرض.

حاولتُ الاعتدال في جلستي والانقضاض على شارون الذي أمسك تيا وضمها إلى صدره وأخذ يُهدهدها حتى سكنت دموعها قليلًا، رفعتُ جسدي لأعلى استعدادًا للوثوب لتُداهمني ضربة قوية جعلتني أرتد للوراء وأعانق الأرض مُجددًا، أمسكني

أجد الجنود من كتفاي مثبتًا إياي على الأرض حتى لا أتحرك، ومع محاولاتي الفاشلة، عادت تنهمر الدموع على وجنتي مُجددًا وأنا أصرخ بتوّسل:

-شارون !! .... لا تأخذ تيا أرجوك .... لا تحرمني من ابنتي....

تصاعدت أنفاسي وتحوّل وجهي إلى كتلة حمراء، وكان هذا الحقير يرمقني بملامح باردة وابتسامة متهكمة وكأنه يتمتع برؤيتي ضعيفة.

-ألم أحذركِ من عدم الاقتراب من حاجياتي ؟

بدت كلماته غاضبة مُهددة رغم استخدامه للنبرة الهادئة، وكُنت أنا أحاول التملص من قبضة الجنود وأنا أصرخ:

-هذه ليست حاجياتك إنها إبنتي....

حاولتُ التقاط أنفاسي وأنا أشعر بالضعف يتملكني ويجعلني أبكي رغم مُقتي للبكاء في تلك اللحظة.

-شارون أرجوك .... لا تأخذها .... أعدك أنني لن أتدخل فيما تفعله .... أعدك أنني لن أفسد أعمالك ولن أحاول حتى .... لكن أرجوك .... لا تجعل ابنتي بعيدة عني

أحنيتُ ظهري بوهنٍ مع آخر كلماتي التي فقدت معها آخر ذرة من كرامتي، ومع ذلك لم أجد من شارون سوى قهقهة ماكرة قام معها بضم تيا إلى صدره والتحدث بعدها بفترة:

-لا تقلقي على تيا .... سأجعلها كالأميرات .... ولن تكن بحاجة إليكِ

لاحت عوالم الغضب على وجهي وأردتُ معاودة الصُراخ بوجهه، لكن هذه المرة بغضب، أردتُ أن أخبره : من أنت حتى تحرمني من ابنتي ؟ من أنت حتى تُقرر مصيرها ؟ كيف سيعامل ابنتي كالأميرات وهو مجرد مخادع حقير ؟ لكنني كالعادة، أستسلم إلى ضعفي وألوذ بالصمت، أكتفي فقط بالنظرات الماقتة.

اقترب شارون نحوي بضع خطواتٍ أخذ معهم يُهدهد تيا وكأنه يريد إثارة حنقي وإخباري أن صغيرتنا تُحبه ولن تستطع أن تفترق عنه، خاصة بعد أن توّقفت عن البُكاء، انتهت حركاته بوثوبه أمامي مباشرة وتقبيله لوجنة تيا قبل أن يوجه لها الحديث بحنانٍ يجعلني أزداد حنقًا.

-أعدِك أننا لن نفترق مجددًا يا فؤاد البابا .... ولن تقدر والدتك على التفريق بيننا

رفع نظراته نحوي ليُشير بعينيه صوّب واحدٌ من الجنود الذي التقط إشارته ورفع سلاحه مباشرة على رأسي، وكان آخر ما سمعته، هو كلمات شارون الموجهة إلى تيا:

-هيا عزيزتي تيا .... قولي وداعًا للماما....

((آنابيا))

لم أعرف معنى الحُب بحياتي، فآخر حُبٍ منحنتني إياه والدتي قبل وفاتها وأنا بالعاشرة، ومن بعدها وأنا أغلق قلبي بالمُفتاح، أغلقه بقوة حتى لا أعرف طريقة لفتحه، الوحيد الذي استطاع أن يهدم حصون فؤادي، هو الشخص الذي يقع على الأرض مُعلقًا بين الحياة والموت!!

تعالى صوّت صراخي ودموعي وأنا أتوّسل والدي حتى يترك جورج وشأنه، أقسم أنني سأنفذ طلباته، أقسم أنني سأبتعد عن جورج وعن جميعهم من أجله، لكن يتركه على قيد الحياة.

كان جورج على الأرض غائبًا عن الوعي يملأ جسده العديد من الكدمات والجروح وذراعه مُلطخًا بالدماء الغزيرة، حاولتُ مناداته للاطمئنان عليه لكن لا حياة لمن تنادي، وعندما رفع والدي سلاحه وكان على وشك تصويبه على جورج، تحشرج صوّتي وأنا أصرخ به ألا يفعل، لكنه لم يستمع لي .... واستمعتُ بعدها إلى صوّت الطلقات النارية!!

أطلق والدي تأوهًا عاليًا بعد تلقيه لتلك الرصاصة ذات المصدر المجهول، والتي آصابت ذراعه بمهارة، تركني هذا الجندي ليُدرك مصدر هذه الطلقات فانتهزتُ الفُرصة وركلته بمرفقي واستطعتُ سرقة سلاحه الآخر من جعبته.

انتشرت المزيد من الطلقات التي كان مصدرها المقاومون لأننا نقف على الحدود مباشرة، رصاصة أصابت أحد الجنود الواثبون خلف جورج ورصاصة أخرى أصابت ظهر والدي الذي كان يفر مهرولًا.

ظهر مسلم فجأة وهو ينقض على جُنديٍ آخر ويُدير رقبته دوٌرة كاملة أدت إلى كسره ومقتل الجندي، كان يقاتل بمهارة جعلتني أرمقه بحيرة وتيهٍ لكنني أعود بسرعة إلى الواقع وأحاول إطلاق النيران بطريقة عشوائية لم تُصب أحدًا، لكنني أيضًا استخدمت قدماي وذراعاي وأنا أركل الجنود بغضبٍ قد تكوٌن بداخلي وجعلني أشبه بأسدٍ لم يتناول الطعام ليومين ووجد أمامه رطلين من الطعام مرة واحدة.

رفع مُسلم جسد جورج الغائب عن الوعي وطمأنني بعينيه بأنه على قيد الحياة، لكننا يجب أن نُسرع قبل أن يفقد المزيد من الدماء؛ هروٌلتُ وراءه بقلبٍ ينتفض ذعرًا حتى أوقفتني هذه اليد التي قبضت على كاحلي.

توٌقفتُ عن السير لأخفض بصري إلى أسفل وأجد والدي يرمقني بنظراتٍ مُبهمة لوهلة شعرتها آسفة، نظراتٍ تحمل أكثر من معنى مما جعل فؤادي ينتفض لوهلة، فربما يُريد الاعتذار عمَ تسبب به، ربما يريد الاعتذار عمَ جعلني أعانيه مُنذ مجيئي إلى هذه الحياة.

انتظرته حتى يبدأ الحديث ويعتذر حتى ولو بكلمة واحدة، لكن طموحاتي ذهبت مع أدراج الرياح حينما وجدته صامتًا يكتفي بنظراته المُبهمة وتتراخى عضلات جسده حتى سكن تمامًا، اضطرب فؤادي وبدأ جسدي يرتجف، أهذه هي النهاية ؟ أيموت بهذه البساطة ؟ لم أسمع منه كلمة دافئة كتلك الكلمات التي يتلوها الآباء لأبناءهم، لم أرتمي بأحضانه يومًا، ولم أشعر بمعنى كلمة والدٍ بحياتي، فأنا بالنسبة له لم أكن أكثر أهمية من أمواله، بل أشك أنني أقل أهمية منهم حتى.

أيقظني صُراخ مُسلم من شرودي فابتعدتُ عن جسد والدي الذي أعتقد أنه فارق الحياة، وهرولت بأقصى ما لدي صوّب مسلم الذي انتهز الفُرصة واخترق الحدود وجعلنا نتدثر في منزلٍ صغيرٍ خالٍ من السُكان_ أو ربما تم إخلاءه_ داخل حدود غزة.

وضع جسد جورج على الأرض وخلع قميصه ليشقه إلى نصفين ويستخدم نصفًا منهما في تضميد الجرح الخاص بجورج ومنعه عن إذراف المزيد من الدماء.

-إبقي بجواره .... يجب أن أعثر على إيمان وراموئيل

قالها بلكنة آمرة قبل أن يتركني بجوار جورج ويذهب هو لتفقد البقية.....

____

((إيمان))

ليست المرة الأولى لي في موقفٍ كهذا، أجلس على ركبتاي وفوهة السلاح مصوّبة بالقُرب من رأسي، وأمامي هذه النظرات المتشفية وابنتي التي يحتضنها حيوانٌ مُفترس، كيف لهذه الأعين الزرقاء والوسامة المُفرطة أن تضحى بهذا الغل والدهاء، أكنت بهذه السذاجة حتى أقع في أسر عينيه ووسامته ؟

حسنًا، ربما أكون ساذجة وغبية ومتهورة أحيانًا، لكنني لستُ ضعيفة، لن أترك ابنتي له مهما حدث، لن أجعله يعبث بعقلها ويجعلها شيطانًا آخرًا، لن أسمح بذلك حتى ولو كان الثمن حياتي .... وحياتها!!

أطبقتُ على شفتاي بحنقٍ كوّرت معه قبضتي وتحركتُ بسُرعة البرق صوّب جثة راموئيل لأنتشل السلاح من بين يديها، لا أعرف منذ متى لدي هذه القوة، فربما هي غريزة البقاء .... أو قوة الأمومة.

أطلقتُ رصاصة أصابت قدم واحد من الجنود واخترقت عظامه بسبب قِصر المسافة، وثبتُ عن الأرض بُسرعة لأنقض على شارون بنظراتي الأشبه بنظرات الليث

الغاضب، كُنت أحاول نزع ابنتي من بين يديه وأنا أطلق الصرخات الغاضبة والكلمات الوعيدة، قبضتُ على السلاح جيدًا وأنا أطلق منه باتجاه الجنود لكن طلقاتي غير المُتمرسة لم تُصب أحدًا، فما فعلته هو أنها جعلت ابنتي تبكي خوفًا من هذه الأصوات.

-أعطيني ابنتي أيها الحقير

قُلتها بغلٍ دفينٍ وأنا أنقض على شارون وأهدده بسلاحي لكنه يرميني بنظراته الباردة كالعادة، تلك النظرات لم تدُم طويلًا بسبب تلك الضربة التي تلقيتها على رأسي من الخلف باستخدام أداةٍ حادة أعتقد أنها بندقية.

تأوهتُ بصوّتٍ مكتومٍ قبل أن أجد السلاح يقع عنوة من بين يدي يليه جسدي الواهن، لم تكن هذه الضربة بهذه القوة لكنني شعرتُ بالدوّار وبذاك السائل اللزق الذي بدأ ينسل على رقبتي داخل حجابي، ومع ذلك حاولتُ المقاومة وترنحتُ قليلًا وأنا أثب عن الأرض أستعيد توازني لأواصل الانقضاض عليه ومحاولة أخذ ابنتي من بين براثنه.

ولثاني مرة تغتابني ضربة قوية على ظهري جعلت توازني يختل وأسقط على الأرض لتأتيني المزيد من الضربات القاسية، تقوّستُ على الأرض وأنا أحاول حماية وجهي من هذه الضربات حتى خارت قواي وشعرتُ بعظامي المُتهشمة، ابتعد الجنود عني وبقيتُ أنا على الأرض أعجز عن تحريك عظمة واحدة من عظامي، بقيتُ أتأوه في صمتٍ وأحاول التحرّك بصعوبة حتى أصل إلى شارون الواثب أمامي يرميني بنظراتٍ شامتة ويقوم بهدهدة ابنتي حتى يُثير غيظي.

وأخيرًا استطعتُ الوثوب بضعة أمتارٍ قليلة ونظراتي تنُم عن الرغبة في الانتقام، لكن هذه الضربة تأتيني مُجددًا وتجعلني ألتصق بالأرض والاستسلام يغمرني، كُنت ألتقطُ أنفاسي بصعوبة بين هذا الوجع وأراقب خطوات شارون البطيئة وهو يقترب نحوي لتتحوّل نظراته إلى الغضب مرة واحدة أثناء قوله:

-هيا أيتها العربية ..... اعترفي أنكِ استسلمتي

لم أنبس ببنت شفة وبقيتُ أرمقه بنظراتٍ محتقرة، وبعد فترة من الصمت وجدته يحني ظهره ليضع صغيرتي على الأرض برفق قُرب أحد الجنود، وضع بعدها يده بخصره ليُخرج سلاحه ويصوِّبه للمرة الثانية على رأسي مباشرة، لكن هذه المرة، كانت نظرات الإعياء على وجهي، لا أستطيع التحرُك ولا استطيع المقاومة .... فقط الاستسلام هو كل ما أشعر به.

تباطأت وتيرة أنفاسي واجتاحت السخونة كياني وأنا أراقب صغيرتي للمرة الأخيرة وأعتذر لها بعيناي، فأنا فشلتُ في استعادتها، فشلتُ في مواجهة والدها.

-حسنًا .... لا بأس ... لا تعترفي ..... لأنكِ لن تجدي الوقت لذلك

قالها شارون وهو يضغط على الزناد وكان على شفا جرفة من إطلاق النيران لولا هذه الكلمات التي اخترقت المشهد:

-وأنت كذلك لن تجد الوقت للاحتفال لأنني سأفجر رأسك اللعين

وما كان هذا الصوّت سوى صوّت مُسلم الذي يصوِّب السلاح خلف رأس شارون مباشرة....!!

____

((مُسلم))

افترقت جميع طُرقنا حينما بدأت النيران تتبادل مرة واحدة، لم أكن أعلم أين رحل الجميع، لكنني اتجهتُ فوُرًا صوِّب فِرق المقاومة التي تحرُس الحدود واحتميتُ خلف أحد المباني غير مكتملة البناء وربما تُستخدم كقواعد عسكرية، طفقتُ أساعدهم في إطلاق النيران على الأعداء كجنديٍ يحارب في صفوف الجيش، وبسبب مهارتي في استخدام السلاح، أصبتُ العديد من الاسرائيليين واستعنتُ بسلاحِ آخر من فرق المقاومة بعد أن قررت دخول المعركة والبحث عن بقيتهم.

تحركتُ ببطءٍ وحذرٍ في بداية الأمر قبل أن ترتعد فرائسي عندما وجدتُ جورج ملقيًا على الأرض في حالة يُرثي لها، فالدماء تنبثق من جسده ويبدو أنه تعرض لضربٍ مبرحٍ، وما زادني غضبًا هو ذاك السلاح المصوّب على رأسه من قِبل رجلٍ عجوزٍ لا أعرف من هو، ولم أُفكر في ذلك حتى لأنني أخرجتُ سلاحي فوُرًا وصوّبته على كتِف هذا الرجل حتى أُحدث الفوضى وأساعدهما على الهرب، وبعد معركة قصيرة صعبة، استطعتُ إنقاذهما وحملتُ جورج على صدري ونحن نهروِّل إلى ذاك المنزل الذي كُنت أحتمي به.

وضعتُ جورج على الأرض وخلعتُ قميصي حتى أضعه على دماءه الغزيرة، أصابتني بعض الكدمات إثر هذا العِراك البسيط لكنني مع ذلك تشجعتُ لأساعدهم لأنني الوحيد القادر على فِعل ذلك.

تلفتُ يمينًا ويسارًا بحثًا عن إيمان وراموئيل حتى جحظت عيناي مرة واحدة عندما التقطُ جسد راموئيل المسجي على الأرض غارقًا في دماءه وساكنًا تمامًا؛ انقبض فؤادي وشعرتُ بالخوف أكثر على إيمان، فإن كان هذا مصير راموئيل، هذا يعني أن إيمان ليست بعيدة عن الخطر.

بأقصى سُرعة لدي وجدتني أهروِّل نحوهما حتى أصبحتُ على مقربة منهما، لمحتُ عوالم السكون على جسد راموئيل الذي أدركتُ فورًا أنه لقى مثواه الأخير، ربما لم تكُن علاقتي جيدة بهذه المدعوة براموئيل، لكنني بالفعل حزنتُ على فراقها، فهي قد ساعدتنا كثيرًا.

واصلتُ الطريق بحذرٍ وبطءٍ حتى استمعتُ إلى أصوات البكاء الصادرة من طفلة رضيعة أدركتُ فورًا أنها تيا، كما أدركتُ أيضًا أن هذا الوغد الذي يقف أمام إيمان يصوِّب سلاحه عليها هو شارون.

غلت المراجل بداخلي وأصبحتُ كالكتلة النارية، رفعتُ سلاحي لأعلى وصوّبته على رأسه مباشرة بعد أن قُمتُ بتهديده....

أخفض شارون سلاحه تدريجيًا فانتهزتُ الفرُصة وانقضضتُ عليه لأحاصر عنقه بذراعي القوي الذي كاد يُصيبه بالاختناق.

-إذا تحرك جنديُ منكم سأفجر رأسه

هددتُ بقية الجنود باللغة الانجليزية وسلاحي بينما حاول شارون نزع قبضتي عن رقبته وهو يقول بتقطعٍ إثر أنفاسه المختنقة:

-يا لكِ من فتاةٍ ضعيفة إيما .... تستعينين بأولئك البربريون حتى تواجهينني وحدي

قالها بسخرية ونبرة متهكمة جعلتني أقبض على رقبته أكثر وألصق فوهة السلاح بجمجمته وأنا أصك على أسناني بغلٍ دفين:

-إصمتُ أيها الجبان .... أنت تحتمي بالجيش بأكمله .... وتسخر منها لأنها تحتمي بحفنة من المدنيين

حاولتُ إثارة حنقه بكلماتي التي لم تؤثر به مُطلقًا، حيث كان يقول بتهكم:

-حقًا !! ... ومنذ متى يستطيع المدنيون حمل السلاح ؟

-أحيانًا يضطر الضعيف أن يحمل سلاحًا ليتخلص من أمثالكم

حركتُ ذراعي الذي يُحيط برقبته يمينًا ويسارًا وأنا أُدلي أمامه بتلك الكلمات وأراقب إيمان من بعيدٍ وهي تزحف على الأرض وتقترب من ابنتها التي بدأت تبكي خوفًا، وكان الجنود يحاوطونني من جميع الاتجاهات ويُشهرون أسلحتهم أمامي، فكنت أواجههم وحدي بسلاحٍ واحدٍ فقط، لكنني أمنعهم من الانقضاض علي عن طريق تهديدي لهم بأنني سأفجر رأس شارون إذا اقتربوا.

-ما الذي ستجنيه من قتلي ؟.... فأنت ميتُ لا محالة .... لن يتركك الجنود

حاول إضعافي بتلك الكلمات لكنني لم أكترث لها وأنا أقول بصرامة:

-لا يُهم ... المهم أنني سأخلص العالم من شرورِك

-لن ينتهي أمثالي .... لا تحلُم بذلك

ألصقتُ وجهي بأذنيه وأنا أقول بثقة:

-بل ستنتهي .... ستنتهي أسطورتكم قريبًا .... وستنتهي أنت الآن

قُلتها تزامنًا مع مجيء المزيد من القوات الاسرائيلية وتوّغل حركات المقاومة ساحة القتال ليبدأ تبادل النيران مرة أخرى، انشغل الجنود بهذا العراك وأخذوا مواضع الهجوم وهُم يطلقون النيران، لا أعرف حقًا كيف يُسمى جيش الدفاع الاسرائيلي وهو لا يفعل شيئًا سوى الهجوم ؟

ألقيتُ جسد شارون على الأرض وقُمت بتعمير سلاحي والإشارة به على رأسه استعدادًا لقتله، لكنه تدحرج على الأرض جهة اليمين ليبتعد عن مرمي السلاح ويُعركلني بقدمه حتى وجدتني أسقط أنا أيضًا ويسقط السلاح من يدي.

وثبتُ عن الأرض بأقصى ما لدي وانقضضتُ عليه قبل أن ينتشل سلاحي وينقلب السحر على الساحر، لكمته لكمة قوية أطاحت بوجهه وجعلت الدماء تنسل من فمه، لكنه مع ذلك لم يُظهر أي من عوالم الضعف وكان ينقض علي وينطحني برأسه حتى ارتد جسدي للوراء.

-أتعرف ما هو الفرق بيننا وبينكم ؟

آجاب على سؤاله بسرعة:

-نحن ننُفذ ما نريده .... وأنتم تكتفون بالدُعاء

أنهى كلماته بسخرية جعلتني أنقض عليه كوحشٍ كاسرٍ وأدفعه للوراء حتى ألصقتُ جسده بجدار بناية قريبة وسددتُ له لكمة أخرى جعلت بقعة بنفسجية تتكوّن أسفل عينيه.

-أتعرف أنت ما هو الفرق الحقيقي بيننا وبينكم ؟

رميته بنظراتي النارية وأنا أجيب على سؤالي بنفس طريقته:

-نحن نعيش في الواقع .... وأنتم تعيشون في الأكاذيب

أطبق على شفتيه في حنقٍ تبعه بدفعة قوية أبعدتني عنه عنوة وجعلتني أتلقى لكمته وأنقض عليه مجددًا ليضحى كل واحدُ منا يمسك بتلابيب الآخر ونرمق بعضنا بنظراتٍ نارية متبادلة:

-الأكاذيب تتحوّل إلى حقائق .... وواقعكم التعيس .... سيضحى جحيمًا بفضلنا

كانت كلماته مُهددة لكنها لم تؤثر بي وأنا أقبض على ملابسه متفوّهًا بتهكم:

-الجحيم هو هذا الذي ستذهب إليه بعد قليل

أنهيتُ كلماتي بدفعة قوية ناهية جعلت جسد شارون يبتعد عني بضع أمتارٍ في اتجاهٍ حددته بعيناي جيدًا، فقد رأيتُ رجلًا من رجال المقاومة يقف على مقربة منا يحاول تسديد طلقاته صوّب ضابط اسرائيليّ يختبيء خلف الجدار، وما فعلته هو أنني ألقيتُ جسد شارون باتجاه هذا الضابط ليتلقى هو تلك الرصاصة أسفل معدته ويسقط على الأرض مُضرجًا بدماءه.

تنفستُ الصعداء وجففتُ دمائي التي تنسل من فمي وأنا أراقب جسد شارون المسجي على الأرض يئن من الوجع ويبدو أنه سيلقى حتفه عمَ قريب، بصقتُ على وجهه بغلٍ ما إن سكنت حركته وتأكدتُ بعيناي أنه فقد الحياة، الحياة التي لا يستحقها.

هدأت الطلقات النارية وبدا السير سهلًا علينا، جاءت آنابيا من بعيد لتتفقد حالة إيمان وتحمل تيا برفقٍ على صدرها، هروّلتُ بسرعة نحوهما وحاولتُ مساعدة إيمان على الوثوب عن الأرض بجسدها الواهن المليء بالجروح.

-تيا ... أين تيا ؟

سألت بقلقٍ فطمأنتها آنابيا وأخبرتها أنها ستذهب بتيا إلى جورج الذي فتح عينيه واستعاد القليل من وعيه، تحركنا بحركاتٍ بطيئة واهنة قُرب الحدود لكننا عزمنا على الرحيل بأقصى ما لدينا بسبب الخطر الذي يُحيط بهذه المنطقة.

مررنا بجثة واحدٍ من الجنود الملقية على الأرض فاقدة للحياة فانتهزتُ الفُرصة ونزعتُ عنه السلاح لأدافع به عن أنفسنا حتى نتأكد أننا في آمان، لكن يبدو أن الآمان لا يعرف طريقه إلينا أبدًا.

ففي أقل من ثانية، باغتتنا رصاصة خائنة خرجت من أحد الجنود المختبئين خلف الأشجار يصوِّب رصاصته باتجاهٍ مُعين .... يصوِّبها على إيمان!!

شهقتُ آنابيا في ذعرٍ وخوفٍ وبكت تيا خوّفًا على والدتها التي سقطت على الأرض بعد تلقيها لرصاصة أصابت جانب معدتها وجعلت الدماء تتدفق منها بغزارة، أخرجتُ سلاحي فوّرًا وصوّبته على ذاك الجُندي بظراتٍ غاضبة جعلتني أطلق الرصاصة عليه وأرديه صريعًا، بينما سقطت إيمان على الأرض ولم تكن قادرة على الوثوب أبدًا.

انهمرت الدموع على وجنة آنابيا وشعرتُ أن جسدها قد تيبس على الأرض وقلبها أخذ يرتجف بخوّف، أخرجتها من حالتها المصدومة بصرختي لها أن تذهب بسرعة إلى جورج حتى لا تُصيبها هي وتيا إحدى هذه الطلقات، وما إن استجابت آنابيا لحديثي وهروّلت هي وتيا، التفتُ نحو إيمان وحملتها عن الأرض غير مكترثًا لدماءها التي أغرقت ثيابي.

حاولتُ التحرك بأسرع ما لدي حتى وصلتُ أخيرًا الى ذاك المنزل حيث يجلس كلًا من جورج الذي بدأ يستعيد وعيه وآنابيا التي تُهدهد تيا حتى تتوّقف عن البكاء رغم أنها تبكي هي الأخرى، وكذلك حقيبتي التي تركتها قبل كل ذلك لأنها تحتوي على أوراقنا وأموالنا.

تركتُ جسد إيمان على الأرض وانتشلتُ النصف الآخر من قميصي حتى أضغط به على جرحها كي يتوّقف عن إذراف الدماء.

-إيمان ... إيمان خليكي صاحية متغمضيش .... أرجوكي استحملي

قالها جورج بصوّتٍ خافتٍ ودموع بدأت تنسل على وجنتيه، بينما تحوّل جسد إيمان إلى كُتلة من الثلج وأخذت الدموع تنسل من عينيها في صمتٍ وتأوهٍ مكتومٍ جعلها تقول بصوّتٍ خافت:

-تيا ... تيا .... لا تتركوها أرجوكم

قالتها بفرنسية مُتقطعة حتى تستمع إليها آنابيا، وكنت أستمع إليها بعجزٍ وأحاول العثور على مساعدة بشتى الُطرق، ورغمًا عني شعرتُ بهوة تجثم على صدري، شعرتُ أن الدموع التي أسجنها لسنواتٍ عديدة حانت اللحظة حتى تنهمر وتغرق المكان.

وضعت آنابيا تيا على الأرض بجوار جسد إيمان التي حركت أناملها ببطءٍ وأمسكت يد تيا الصغيرة.

-متسيبهاش يا جورج .... خُد بالك منها ... و ... و... قول لماما وبابا إني آسفة .... قولهم إني مكنتش عايزة أسافر وأسيبهم... وقول لتيا إن أنا .... إن أنا بحبها، وكان نفسي أبقى معاها

انهمرت دموعها أكثر وازداد الضعف في كلماتها المؤّدعة التي جعلت جورج يرتعد خوّفًا ويتحرك نحوها بوهنٍ ليضع يده السليمة على كتفها محاولًا إيقافها عن الحديث رغم دموعه التي أخذت تنهمر:

-إنتِ مش هتسيبي حد .... وهتشوفي تيا وهي عروسة كمان

تدخلتُ بالحديث بطريقة جامدة رغم رغبتي الشديدة بالبكاء مثلهم:

-خلاص ... شوية وحد هييجي يساعدنا .... استحملي شوية

وجهت بصرها نحوي لترميني بنظرة لن أنساها طوال حياتي، نظرة تحمل مزيجًا من الاستسلام والامتنان:

-شكُرًا يا مُسلم .... وأسفة عشان ... عشان عرضتك للخطر .... أنا أسفة ليكم كلكم ... مكنتش....

بترت حديثها بأنفاسٍ متباطئة تلتقطها بصعوبة، شُحب وجهها مرة واحدة وبدأت شفتاها تتحوّلان إلى اللون الأزرق، قبضت أكثر على يد تيا وحاولت النظر إلى عينيها ثم النظر إلينا وإغلاق عينيها ببطء .... هدأت حركتها تدريجيًا حتى .... سكنت تمامًا.... !!

((جورج))

18أغسطس 2015 مستشفى الأهلي المعمداني / شمال غزة : فلسطين

تُعطيك الحياة فُرصة واحدة، لكن نحن، أعطتنا أكثر من فُرصة، رغم أن الفرص لم تأتي لنا على طبقٍ من ذهبٍ كما يدعون، فجميعها أتت بعد العديد من المتاعب والمعاناة، لكنها أتت في النهاية، وهذا كل ما في الأمر.

آخر ما تذكرته قبل إغمائي هو صرخات آنابيا المستجدية ودموعها التي جعلت قلبي ينشطر لنصفين، أردتُ أن أهرع إليها وأضمها إلى صدري حتى لا تبكي لكنني كُنت عاجزًا لدرجة تمنعني من الوثوب عن الأرض.

وعندما استعدتُ القليل من وعيي، وجدتُ آنابيا تجلس أمامي تحاول تطبيب جروحي بقلة حيلة، كانت دموعها لا تزال عالقة على أجفانها ووجنتها البريئة الحمراء، وجدتني أقبض على أناملها برقة وأطمئنها بعيناي بأنني بخيرٍ ولم أتأذي، فكيف أتأذى وهي منقذتي من العالم ؟

تلفتُ بعدها يمينًا ويسارًا بحثًا عن بقيتهم حتى أخبرتني آنابيا أن مُسلم ذهب ليعثر على إيمان وراموئيل، أردتُ وقتها أن أثب وأساعدهما لكن جسدي الواهن وعظامي المُحطمة منعتني من الحِراك، كما أن ذراعي المجروح لم أعد أشعر به أبدًا.

ربتت آنابيا على كتفي وأخبرتني أنها ستذهب عوّضًا عني وتطمئن عليهم من بعيد، لم أكن أرغب حقًا بتعريضها للخطر وكُنت على وشك الرفض لكنها نفذُت كلماتها بسرعة ووثبت عن الأرض حتى تُطمئنني، أو ربما تُطمئن نفسها هي الآخرى....

لم أصدق أن راموئيل قد لقت حتفها وتم دفنها داخل الأراضي الفلسطينية، فيبدو أن جيشها قد تخلّى عنها، صحيح أن لا أحد حضر عزاءها سوى ثلاثتنا، كما أن قبرها كان في بقعة نائية بعيدة عن بقية المقابر الفلسطينية، لكننا في النهاية دعوّنا كثيرًا من أجلها وتمنينا لها حياةً جيدة في الآخرة.

بعد مرور بعض الوقت على هذه الحادثة، ها أنا أجلس على الفراش بعد أن ضمدت جراحي ووضعتُ جبيرة على كتفي، كانت آنابيا قد تعافت من كدماتها تمامًا ولا زالت عوالمها تُنزر بالخوف، كما أن مُسلم قد انشغل طوال هذه الفترة في البحث عن طريقة لسفرنا من هنا، قبل أن تتدهوّر الأمور أكثر وتبدأ لعنتنا الكارثية هنا فقد انتشرت أخبارنا وسيبدأ الجيش بالبحث عنا مُجددًا عن طريق الدرونات وأجهزة المراقبة، فنحن لا ندلف بلدة إلا وندمرها، أكاد أجزم أننا أصبحنا قنابل نووية وليس بشرًا.

وثبتُ عن الفراش لأتحرك صوّب الخزانة وأنتشل حفنة من الأوراق، ثم أترك الحجرة وتتبعني آنابيا، بقيتُ أتحرك بالردهة وأبتسم للأطباء الودوديين في طريقي إلى حجرة بعينها.

-التحليل أهو .... عشان نخزوّقها في عين إللي يقول إنها مش بنتِك

قُلتها بمرحِ وأنا أدلف حُجرة إيمان الجالسة على الفراش بعد أن تعافت قليلًا، فقد أتى المسعفون في اللحظة الأخيرة قبل أن تفقد آخر أنفاسها، لا أصدق أننا نجوّنا للمرة الثانية، بل المرة المئة، فهذه كانت من أصعب الكوارث التي مررنا بها في حياتنا.

كانت إيمان تجلس على الفراش تُهدهد تيا برفقٍ حتى لا تتأوه مجددًا، فتلك الرصاصة تسببت في اضطرارنا لاستئصال كليتها اليُسرى وإخضاعها للعديد من العمليات التي تركت جروحها على جسدها وأرغمتها على اتباعٍ نظامًا صحيًا معينًا حتى لا تنتكس.

أمسكت إيمان التحاليل التي اضطررنا لإجراءها حتى لا يتهم أحدهم إيمان بالخطف وينتزعوا ابنتها من بين يديها مُجددًا، لم تكن إيمان بحاجة إلى التحاليل لأنها تعرف إبنتها جيدًا، لكن العالم لن يُصدقها إن لم نفعل ذلك.

-كيف حالِك إيما ؟

سألتها آنابيا بنبرة مرحة جعلت إيمان تزم شفتيها بضيقٍ قالت معه مُتذكرة:

-لا تقولي لي هذا الاسم مجددًا .... يُذكرني بما لا أريد تذكره

أومأت آنابيا بابتسامة على ثغرها واعتذارٍ بعينيها، ثم مدُّت يدها لتردف ببراءة:

-هل يُمكنني حملها ؟

وافقت إيمان على طلبها ومدُّت نحوها تيا برفقٍ لتبدأ آنابيا بمداعبة وجنتها المُجتنزة بأمومة لم أعهدها مُسبقًا، فلم أكن أعرف أن آنابيا تُحب الأطفال:

-أرى أنكِ أحببتها

سألتها بشجنٍ وأنا أقترب نحوها على الفراش الذي تستلقي به إيمان، ابتسمت لي آنابيا ابتسامتها البريئة وهي توميء رأسها وتقول:

-نعم .... أترى يداها الصغيرتان

-أراهم سينيوريتا .... وأتمنى أن أرزق بمثلها .... لكن من فتاةٍ أحبها

أدركت آنابيا رسالتي المُبطنة فابتسمت في خجل توّردت معه وجنتيها، كُنت على وشك مغازلتها مجددًا وأنا أرمقها بهيامٍ لولا حمحمة إيمان التي أعادتني إلى الواقع وذكرّتني أننا لم نرحل بعد، وأن حياتنا لا تزال في خطر.

دلف مُسلم الحجرة بنظراتٍ جامدة لا تختلف عنه أبدًا، فقد كان جامدًا حتى وإيمان على وشك الموت، وكان جامدًا أثناء العزاء الصغير الخاص براموئيل، حتى أنني ظننتُ أنه بلا مشاعر.

وجدناه يُلقي حفنة من الأوراق أمامنا ويقول:

-تواصلتُ مع القنصلية المصرية .... وأحضرتُ ما يثبت أننا مصريون .... أما آنابيا، فسيتعين عليها دفع ثمن التنسيق

أخبرنا فيما بعد أن التنسيق هو نظامُ مُجحف يُشير إليه الفلسطينيون على أنه رشوة يتم دفعها حتى يحصلوا على تصريح للمغادرة من خلال معبر رفح، وسعر التنسيق يتراوح بين 350 دولار إلى 600 دولار، لكن وقت الآزمات والحروب، وعندما تزداد رغبة الفلسطينيون بالمغادرة، يرتفع سعر التنسيق إلى ثلاثة أضعافٍ أو أكثر، ليتحوّل فيما بعد إلى نظامٍ ربحيٍ لشركة هلا المصرية للاستشارات والسياحة.

كما أن هذه الشركة غير مُسجلة على موقع وزارة الآثار والسياحة، حيث يتعين على الشركات المصرية في مجال السفر عبر الحدود القيام باجراءات التصاريح عوُضًا عنها، حيث نقوم بدفع المال نقديًا دون الحصول على إيصالٍ بالدفع، نحصل فقط على تذكرة تحمل أسمائنا، وقد فعل مُسلم ذلك ودفع ثمن التذكرة لآنابيا.

-هل سنرحل الآن ؟

سألت آنابيا ببعض القلق ليُجيبها مُسلم:

-نعم .... إذا بقينا أكثر سيعثر علينا الجيش، وربما تحدث معركة جديدة بسببنا

آضافت إيمان على حديثه وهي تحاول الوثوب عن الفراش بإعياء:

-نعم .... يجب أن نرحل في أسرع وقت، أصبحتُ قادرة على السير الآن، ويمكنني استكمال العلاج داخل الحدود المصرية قبل العودة إلى المنزل

وهكذا انتهت آخر أيامنا هنا، قبل أن نترك المشفى في وقت الغروب ونستقل إحدى العربات المؤجرة لنتجه بعدها إلى معبر رفح، لم يأخذ الطريق أكثر من ساعتين لكنني متيقنُ أن رحلتنا القادمة، ستضحى رحلة من نوع آخر .... هذه المرة رحلتنا رحلة المواجهة !!

((نهاية الجزء الثاني))

((نلقاكم في الجزء الثالث والأخير))

الجزء الثالث

الفصل الأول (يا مرحب بالوطن)

((إيمان))

1سبتمبر 2015   العريش : مصر

الراحة الحقيقية تأتي بعد سنواتٍ من المعاناة، والأيام السابقة كانت بمثابة عُمرٍ طويل بالنسبة لي، تعلمتُ في تلك الأيام ما لم أتعلمه طوال حياتي، تعلمتُ ألا أثق بأحدهم بهذه السهولة، وألا آمن للأغراب وأسلمهم حياتي، تعلمتُ أن أتحمل نتيجة أخطائي ولا أهرب من مُشكلاتي، فالهرب لا يوّلد سوّى المزيد من الهرب.

واجهتُ ما لم يواجهه محاربٌ ترعرع على الأزلام، أو قائدًا عسكريًا اعتاد على الحروب والقتال، فمواجهة الخطر وأنت لا حول لك ولا قوة، أصعب بكثيرٍ من مواجهتك للخطر وأنت بكامل استعدادِك.

رأيتُ الموت بأعيني، واستمعتُ للصُراخ والاستغاثات بحلمة أذني، تم نعتي بالعديد من الألفاظ البذيئة، والصاق صوُرتي بين صوٌر المجرمين الأكثر خطورة، تعرضتُ للإهانة والسرقة والسطو وكُنت على وشك فُقدان حياتي أكثر من مرة، لكن هذا لم يعُد مُهمًا، فما يُهم الآن، أن ابنتي أخيرًا تنام بين ذراعاي، ابنتي التي ظننتُ لوهلة أنني لن أستردها مرة أخرى، ها هي الآن تنام كالملاك على ذراعاي وقد نَمت قليلًا في تلك الأيام وبدأت خصلاتها البنُية الملساء تزيدها فتانة وجاذبية، خاصة مع عينيها الزرقاء الواسعة.

الشيء الوحيد الذي ورثته من والدها الماكر هو ملامحه الحسناء، فأنا سأبذل ما بوّسعي حتى أجعلها فتاةً مسالمة يخلو قلبها من البُغض والكراهية، سأجعل قلبها مُتعلقًا بالإسلام، وروّحها طاهرة لا تعرف المكر والبغاء، صحيحٌ أنني لا أعرف ما حلٌ بوالدها، لكن مُسلم طمأنني وأخبرنني أنه لن يظهر بحياتي مرة أخرى، يبدو أن كابوس شارون قد انتهى أخيرًا، وحانت اللحظة لنحيا بسلامٍ وسكينة.

لم نكن نرغب بالعودة إلى القاهرة بتلك الجروح التي تربصتنا وربما تزيد من قلق أبوينا، لذلك قررنا البقاء في العريش بعد أن تواصلنا مع القنصلية المصرية

واستردنا جوازات سفرنا المصرية بخلاف آنابيا التي أضطررنا لدفع ثمن التنسيق حتى نؤمن عبورها من معبر رفح، ولأنها ذات جنسية فرنسية، فكان ثمن التنسيق بخيثًا لدرجة نسبية.

فقدنا أمتعتنا ولم يكن معنا ولو كنزة واحدة نرتديها؛ لذلك أضطررنا لإنفاق ما تبقى من أموالنا في شراء العديد من الأوعية والأطعمة المُعلبة والسريعة، كان معنا خمسمئة ألف يورو لكننا أنفقناهم جميعهم في أقل من عشرة أيام، كنا فقط نُريد أن نتخلص من تلك الأموال المسروقة حتى نمحي أي ذكرة من تلك الرحلة المجنونة.

أكملتُ علاجي بإحدى المشفيات العريقة بالعريش وامتثلتُ للشفاء التام بعد بضعة أيام، لكنني لازلت آخذ بعض الأدوية بسبب كليتي التي تم استئصالها والتي ستُسبب لي العديد من المضاعفات على المدى البعيد، كذلك توّجنا رحلتنا بزفافٍ صغيرٍ أقامه جورج بكنيسة الشهيد مارمينا، حتى أننا جعلنا الزفاف مفتوحًا للعامة واستعنا برجلٍ غريبٍ حتى يضحى إشبينًا لجورج ويتم هذا الزفاف، فقد عجّل جورج من الأمر حتى يتوّلى رعاية آنابيا كاملة ويحميها في تلك البلدة الغريبة بالنسبة لها.

أما نحن، فقد وافقنا على قرار زفافهما بصدرٍ رحبٍ وحضرنا مراسم العُرس الصغير على أمل أن نتوّج قصة عشقهما التي بددت قسوة هذه الأيام السابقة، ورغم أنني دائمًا ما أتشاجر ما جورج وأنعته بالحماقة، إلى أنني أعلم كم أنه طيب القلب وأنه لن يتسبب بأذية آنابيا أبدًا.

وبعد مرور عشرة أيامٍ على بقائنا في العريش، قررنا أخيرًا العودة إلى القاهرة، بلدتي التي وُلدت وترعرعت بها، لا أعرف كيف أخبرهما عن تيا، لكنني تعلمتُ المواجهة، سأخبرهما الحقيقة مهما تطلب الأمر، سأخبرهما أن تيا ابنتي، وأنها لن تفترق عني مهما حدث .... تبًا، كلما أتخيل نفسي وأنا أقول هذه الكلمات أمامهما أشعر برجفة تعتمر أوصالي، لكنني سأقاوم هذه الرجفة، وسأخبرهما الحقيقة.....

2سبتمبر 2015　　القاهرة : مصر

توّقفت سيارة الأجرة تزامنًا مع توّقف أفكاري الشاردة واستكانة تيا على صدري، كانت تجلس آنابيا بجواري تُحدق في النافذة وهي تتأمل الطريق بلهفة، وجورج يجلس بالمُقدمة بجوار السائق الذي لم يتوّقف عن الحديث مُنذ بداية الطريق، فقد كلفتنا هذه الرحلة ما يقرب من الستمئة جنيه، أي لم يتبقى معنا سوى القليل من الجُنيهات.

افترق مُسلم عنا وقرر أن يبقى في إحدى الفنادق القريبة لعدم امتلاكه منزلًا في القاهرة، كُنت أريده أن يمكث معنا في البناية ونتدبر له منزلًا لكنه رفض رفضًا قاطعًا وأخبرنا أنه لا يُريد أن يُحملنا ما لا طاقة لنا، فكرامته لن تسمح له بالبقاء عالة على الآخرين.

تشكرته للمرة المئة على ما فعله من أجلي والذي لا أعلم سببه حتى الآن، فدائمًا ما يُخبرني أنه سيفصح لي عن سبب تحمله تلك الأهوال من أجلي في الوقت المناسب، لا أعرف متى سيأتي هذا الوقت، لكنني سأتحلّى بالصمت ولن أسأله مجددًا، يبدو أنه سيبقى غامضًا للأبد.

كُنت أعلم أنني بمجيئي للقاهرة، سأبدأ مرحلة جديدة من مراحل رحلتي المجنونة، هذه المرة لن تتلخص تلك المرحلة في الهرب كما حدث بفرنسا، ولا باسترداد الحقوق كما حدث بفلسطين، بل هذه المرحلة ستتلخص في المواجهة، مواجهة عائلتي بما فعلته، والذي لن يضحى سهلًا أبدًا، فأنا لم أتزوّج فقط من ورائهم، بل أنجبت أيضًا، وتسببتُ بحريقٍ جثيم، واتهمتُ بجريمة قتل ووُصمتُ بالإرهاب، وفوق ذلك، سافرتُ إلى تل أبيب دون إطلاعهم، وعرضتُ حياتي وحياة من حوّلي للخطر أكثر من مرة، أدعو الله من كل قلبي ألا يُشاهدا الصُحف الغربية حتى لا يعرفا ما اقترفته من كوارث، لأنني وقتها لن أجد منزلًا يأويني.

صعدتُ الدرجات ببطءٍ وبجواري جورج الذي كان يتخبط من القلق مثلي، فهو يعرف أن والدته لن تُمرر زواجه السري بهذه السهولة، خاصة وهو قد تزوّج فتاةً غربية عائلتها ليست معروفة، أو من الأفضل ألا يعرفها أحد.

حاولتُ التقاط أنفاسي وأنا أحمل الفراش المحمول الذي تستكين تيا بداخله، وباليد الأخرى أجرّ عربتي التي تحتوي على القليل من أمتعتي، تلك التي ابتعتها مؤخرًا،

وكان جورج يقف بجواري يجرُّ حقيبتين مخصصتينِ للسفر وآنابيا تقف بجواره تتلفت حوٌلها في تيهٍ وترددٍ حتى وجدناها تقول:

-جورج ... يـ... يُمكنني البقاء في إحدى الفنادق حالما تُخبر والداك عني

كانت تُحرك أناملها بتوٌترٍ وتتحدث بنبرة حرجة استطاع جورج تبديدها بابتسامته الهادئة رغم أنه لا يختلف عنها ارتباكًا:

-لا، لن تبتعدي عني سنيوريتا.... ستمُكثي في منزلي .... بالطابق الثالث

عبث جورج في جعبته قبل أن يُخرج المفتاح الذي أخذه من حارس العقار قبل مجيئنا هنا، ولأن آنابيا لا تفقه العربية، لم تكن تعرف أن هذا المفتاح الذي أخذه جورج كان خاصًا بمنزله الذي يجاور منزل شقيقته والذي من المُفترض أن يتزوٌج به.

أخذت آنابيا المفتاح من راحتيه وهي تومىء بتوٌترٍ أنهته بأخذها لحقيبتها وصعودها على الدرج وفق ما وصفه جورج عن منزله، كان يُريد الصعود معها وإيصالها بنفسه لكنها أصرٌت على بقاءه وإخبار عائلته، فعلى ما أعتقد، هي لا تريده أن يُبالغ في رعايتها، لكنني أعرف جيدًا أن جورج لم يكن يُريد أن يصعد معها إلى منزله للاطمئنان عليها فحسب، فربما يُريد الهرب من المواجهة التي سيقبل عليها بعد قليل.

ما إن رحلت آنابيا وتأكدنا أنها بالمنزل الصحيح، التفت جورج نحوي ليجد فؤادي يدق بصوٌتٍ مرتفع، صوٌتٍ استطاع أن يستمع إليه وهو في مكانه.

-هتقولي إيه لأهلِك ؟

سألني بقلقٍ وهو يرمق تيا نظرة عابرة ويعُيد النظر إلى ملامحي الشاحبة والتي حاولتُ تبديدها بنبرة ثابتة:

-هقولهم إيه يعني .... هـ ... هقولهم إنها بنتي ... أكيد مش هكدب عليهم

رفع حاجبيه باستنكارٍ قال معه بلكنة ساخرة كفيلة بإصابتي بوابلٍ من الإحباط:

-وحياة خالتو !!.... هتقوللهم إنها بنتِك وهُما هيكونو عادي .... دا على أساس إن بنتِك دي جاية بحنطور!!

صككت على أسناني بغضبٍ من حديثه المُحبط الذي جعلني أردف بنبرة أقرب للبُكاء :

-يعني أعمل إيه يعني ؟ .... ما لازم يعرفو الحقيقة ... وبعدين ...أنا عارفة إني عملت حاجة غلط، وأكيد هُما هيتفهمو إن أنا ندمانة

لم يكن يبدو على وجهه التصديق وهو يومىء إيماءاتٍ هادئة ويقول بعدها بسُخرية:

-وياترى بقى هتقوللهم إنِك ندمانة على أني غلطة بالظبط .... إنِك اتجوّزتي من وراهم ولا خلفتي من وراهم ولا حرقتي مول تجاري ولا سرقتي رجل أعمال ولا بيّتي عند واحد مُجرم وكافر مع ناس متعرفيهاش ولا عشان روحتي تل أبيب .... ولا على انتقامِك من إللي غفلِك ونصب عليكي ولا_

كاد يواصل سرد الأخطاء التي اقتفرتها والتي قد تجعل والداي يُصابان بسكتة قلبية إذا سردتها أمامهما، لكنني أوقفته بنبرة مستهجنة:

-أكيد مش هعرف أقول كل ده مرة واحدة .... هقولهم واحدة واحدة .... ومش لازم أجيب سيرة الزفت إللي اسمه شارون ده .... هقولهم إن اسمه آدم ... وبعدين...

رفعتُ من نبرة صوّتي وأنا أوّبخه حتى يتوّقف عن بثي بالطاقة السلبية:

-متقفلهاش في وشي ... أنا أساسًا رُكبي بتخبط لوحدها

سرقتُ نفسًا عميقًا ثم أخرجته وحاولتُ إخراج توّتري معه قبل أن ألتفت لأقابل الباب وأستعد لتلك المعركة التي على وشك الدخول بها، فطوال هذه الأيام، كان جورج يتوّاصل مع عائلتنا ويُخبرهم أننا في فرنسا وأننا ننعم بحياةٍ هادئة روتينية تخلو من المصائب والكوارث، رغم أننا لم نفعل سوى الكوارث.

تذكرتُ شيئًا قبل أن أطرق باب المنزل لألتفت صوّب جورج حتى أسأله:

-جورج...

توّقف جورج عن السير صوّب باب منزله ليلتف إلي مُصغيًا لحديثي المُضطرب:

-عندكم أوضة فاضية ؟

تفهم جورج سؤالي فأومأ برأسه إيجابُا وهو يقول:

-أه .... أوضة يوسي تقريبًا

أومأتُ بدوّري باطمئنانٍ لأنني سأجد مأوى لي ولإبنتي إذا تطوّرت الأمور، كُنت سأعاود طرق الباب لولا تذكرّي لشيءٍ آخرٍ أردتُ الحديث عنه مع جورج قبل أن يدلف كلًا منا إلى معركته الخاصة.

-صحيح .... إنت هتعمل إيه في موضوع آنابيا ؟ ... هتقولهم إنك اتجوزتها ؟

لاحت عوالم التوّتر على وجهه وهو يسبل بعينيه لأسفل متفوّهًا بتيه:

-معرفش

رفع رأسه بعدها ليواصل بسُخرية:

-معرفش أهالينا هيقولو علينا إيه .... واحدة رجعالهم بعيّل والتاني راجعلهم بزوجة .... ده مش بعيد يفتكرونا روحنا لخاطبة مش فرنسا

أنهى حديثه بمزحة ساخرة جعلتني أرسم بسمة هادئة على ثغري وألوذ بالصمت لفترة قبل أن أسأله بجدية:

-يعني هتعمل إيه بردو مفهمتش ؟

تنفس الصُعداء قبل أن يُبدل نبرته الساخرة بأخرى جادة وهو يقول:

-هقولهم إنها مراتي هيكون إيه يعني

قطبتُ حاجباي بشكٍ وأنا أقول:

-أيوة بس خالتو كانت رافضة موّضوع الجواز من برة ..... إنت عارفها بتحب الحسب والنسب وكدة

أغلق عينيه بنفاد صبرٍ من نبرتي المُحبطة التي تعمدتُ معها تقليده، حيث كان يقول بعدها باستهجان:

-وحياتِك ما تقفليها في وشي .... أنا أصلًا مش عارف أنا هعمل إيه

التفت بعدها ليُقابل باب منزله المجاور لمنزلنا، لكنه قبل أن يدق الجرس التفت نحوّي متسائلًا:

-بقولِك إيه ... عندكم أوضة فاضية ؟

أومأتُ رأسي بسُرعة وأنا أجيبه:

-أه ... أوضتي إن شاء الله

رماني بنظرة مُطمئنة قبل أن يردف:

-كويس أوي

قالها وهو يدق الجرس تزامنًا مع دقي الجرس وتمسكي جيدًا بالفراش الخاص بصغيرتي حتى لا أوّقعها على الأرض بسبب توّتري الذي وصل إلى أقصى ذروة له.....

انتظرتُ الباب إلى أن فُتح لأجد والدتي ترتدي حجابها الخاص بالصلاة وعلى وجهها علامات التيه، لكنها ما إن رأتني حتى أطلقت شهقة مدوية فتحت معها فاهها لتُغطيه بيديها وهي ترمقني بصدمة، لا تُصدق أنني أقف أمامها بعد هذه السنوات، فهي لم ترني لثلاثة سنواتٍ أو ربما أكثر.

رسمتُ بسمة متوّترة على ثغري وأنا أستقبل عناقها الدافيء الذي اشتقتُ له وأنا في سنوات الغُربة، أحسستُ بدمعاتها تنسال على كتفي مع كلماتها الحانية غير المُصدقة، حتى أنني شعرتُ وكأنها ستُحطم عظامي من شدة عناقها.

-يا حبيبتي يا بنتي....

بقيت تقول هذه الكلمات وغيرها من الكلمات الدالة على اشتياقها الجارف لي، وأنا أقف أمامها تجتاحني سخونة عالية ورغبة عارمة في البكاء، لا أعرف إن كان بكائي سيضحى ناتجًا عن السعادة أم الخوف، فأنا أيضًا أشتاقهما وأتمنى أن أبقى بين أحضانهما مدى الحياة، أقسم أنني لن أتركهما مجددًا، فأنا لن أحيا عبدة في دولة تضطهدني.

-مين إللي على الباب يا مُفيدة ؟

داهمنا صوّت والدي الجهوري من داخل المنزل لتبتعد عني والدتي وتجذبني من ذراعي الذي يمسك بحقيبة السفر، دفعتني والدتي داخل المنزل وهي تقول بصوّتٍ مُحملٍ بالبشاشة.

-إلحق يا عبده .... إيمان رجعت من السفر

ما إن بصقت والدتي هذه الكلمات حتى ترك والدي جهاز التحكم ليهرع نحوّي بملامح مُتلهفة جعلته يعود سنواتٍ إلى الوراء، سنواتٍ كُنت بها طفلة صغيرة تستقبل والدها وهو عائدٌ من العمل، ووالدي كان يُمثلني وأنا في هذه المرحلة من العُمر.

أحنيتُ جذعي بالخفاء لأضع الفُراش الخاص بتيا على الأرض دون أن ينتبها لوجودها، فسعادتهما بوجودي جعلتهما يتغافلان عن مجيئي بطفلة رضيعة لا يعرفا أنها حفيدتهما.

-إزيك يا قلب أبوكي .... عاملة إيه ؟ .... ومقولتيش ليه إنكِ راجعة من السفر ؟

تحوّلت نبرته إلى الحدة الطفيفة لأنه لم يأتي ليستقبلني من المطار_ كما يعتقد_ فهو لا يعرف أنني لم أستقل الطائرة وأنا آتي إلى هنا، ولا يجب أن يعرفا أنني لم أكن بفرنسا كما يظنان.

-إيـــه .... عادي .... كنت عايزة اعملهالكم مفاجأة

قُلتها ببسمة هادئة وتوتّرٍ بالغ مع نظراتٍ عابرة غير مرئية أحاول من خلالها تأمل صغيرتي التي صدح صوّت بكاءها مرة واحدة!!

أردتُ في تلك اللحظة أن تنشق الأرض وتبتلعني، فها قد أتت اللحظة التي أخشاها مُنذ بداية إنجابي لتيا، لحظة كشف المستور.

-مين دي يا إيمان ؟

قالتها والدتي بعلاماتٍ مُتعجبة وخطواتٍ تقترب قليلًا نحو تيا حتى رفعتها عن الأرض وبدأت تتأمل ملامحها الملائكية، وكُنت أنا في عالمٍ آخرٍ أحاول لملمة شتات نفسي واستجماع طاقتي لأخبرهما بالحقيقة، أو بالقنبلة التي سأفجرها.

-بنت مين دي يا إيمان ؟ .... وجبتيها منين ؟

سألني والدي ببعض الحدة كما لو كُنت اختطفتها من أبويها .... حسنًا، أنا اختطفتها من أبيها فقط.

شعرتُ بلساني يتوّقف تمامًا عن الحركة وكأنني لم أعُد قادرة على الحديث، تيبس جسدي على الأرض وبدأتُ أهديء من روعي حتى أخبرهما بهذه المفاجأة، أو الصدمة، لا أعرف حقًا.

يجب أن أهدأ الآن، فانا أعرف أنني مُذنبة، لكنني لم أقتل أحدًا حتى يلتف حوّل عُنقي حبل المشنقة، حسنًا، تسببتُ بمقتل العديد لكن هذا كان بالخطأ، الخطأ الوحيد الذي اقترفته عن عمد هو خطأ زواجي المزيف من شارون وإنجابي منه.

أأخبرهما أنني تزّوجتُ بيهوديٍ من ورائهم ؟ أم أخبرهما أن ذاك الصهيوني كان يخدعني وقام بسرقتي والعبث بمشاعري ؟ حسنًا ما الذي سيحدث إن أخبرتهما الحقيقة ؟ هل سيطردانني من المنزل ؟ هل سيُخرج والدي سلاحه الذي لا أعرف أين هو ويُفرغه على جمجمتي ؟ وما الذي سيحدث لتيا ؟ هل ستذهب إلى دار الأيتام بعد أن يقتل جدها والدتها ؟ هل ستُلقى على قارعة الطريق وينتشلها مُجرمٌ خطير يجعلها زعيمة لأخطر العصابات بالعالم!!

أه .... الأفلام ستجعلني آصاب بالجنون، هذا إن لم أكن أصبتُ به من الأساس.

-إيمان .... ما تقولي يا بنتي مين البنت دي وجبتيها منين ؟

أخرجتني والدتي من تلك الأفلام التي أرسمها بخيالي عندما سألتني ذاك السؤال؛ حاولتُ استجماع ما تبقى من قوّتي هذه المرة وأنا أقول بثباتٍ رغم تحطمي الداخلي:

-دي ... دي بنت ..... بنت...

((جورج))

القاهرة : مصر

ظننتُ أنني سأشعر بالحنين للوطن بعد هذه الأيام التي قضيتها بالغربة، لكنني على عكس الجميع، كُنت أرغب في الهرب والاختفاء عن العالم أنا والسنيوريتا الخاصة بي.

أحاول استجماع شجاعتي وأنا أخبرهما أنني تزوّجت ولا فائدة من الالحاح علي حتى أتزوّج ابنة عمتي التي أعتبرها بمثابة شقيقتي، فوالدتي إن لم تزوجني من آقاربي ستتركني أعذبًا حتى الممات، وهي تُريد أن ترى أحفادها قبل أن تلقاها المنية، وكأن شقيقتي يوسي ليس لديها أبناءُ كالقرود.

وها هو واحدٌ من هذه القرود يفتح لي باب المنزل ويصرخ باسمي وهو يدفعني إلى الداخل ويُخبر الجميع بمجيئي، والجميع هنا لا تعود على من بالمنزل فقط، فجميع قاطني البناية أصبحوا على علمٍ بمجيئي.

اندفعت يولا نحوي لآخذها في عناقٍ حميمي كما فعلتُ مع شقيقها يوسف:

-إنتو بتعملو إيه هنا ؟ .... وأبوكم فين ؟

سألتهما بفضولٍ ورغبة بالاطمئنان على شقيقتي لأجد تلك " السوسة " كما أسميها تُخبرني:

-بابا وماما اتخانقو عشان بابا كان عايز يتفرج على الماتش .... وماما عايزة تتفرج على المسلسل .... راحت ماما إيه بقى .... زعقت لبابا بصوت عالي وقالتله خلّى الماتش ينفعك .... وأخدتنا وجات هنا

أنهت حديثها وهي تُحرك يديها بقلة حيلة من شجارات والديهما الصبيانية، وثبتُ بعدها عن الأرض وأنا أهمهم بنفاد صبر وأخبرهما بمواصلة اللعب حالما أتفقد أحوال هذه العائلة المجنونة.

-إيه ده !! .... جورج !! ..... إنت جيت إمتى يا واد ؟ .... ومقولتش ليه إنك جاي ؟

وبختني والدتي بتلك الكلمات التي لم أتوٌقعها بتاتًا، فقد توٌقعت أن تأخذني في عناقٍ دافيءٍ وتبكي على صدري لأنها لم ترى ابنها الوحيد لثلاثة أشهرٍ متواصلة!!

-بت يا يوسي .... تعالي يا بت أخوكي رجع من السفر

قالتها بصوٌتٍ مُرتفع لتأتي يوسي من الداخل بملامح مذهولة ونبرة مُحبة، حتى أنني وجدتها تهرول نحوي وتعانقني بأخوة حامدة ربها أنني عُدتُ إليهم سالمًا، ها أنا الآن أشعر أنني في عائلة حقيقية.

لم أسأل شقيقتي عن شجارها مع بيشوي لأنني أعرف أنها ستبدأ وصلة تقريعها كما لو أنها رأت بيشوي يعانق صديقتها، فأنا أعرف أن بيشوي رجلٌ جيدٌ ذو أخلاقٍ حميدة، لكنه كشقيقتي بالضبط، يمتلك عقلًا لا يعادل عقول الأطفال الرُضع.

-تعالى يا حبيبي .... تعالى دا أنا هعملك شوية ملوخية من إللي قلبك يحبهم

قالتها والدتي بحنانٍ جعلني أبتسم بتلقائية وأنا أجلس على الأرض أتمدد بجذعي للوراء حتى أرتاح من السفر، أخذ يوسف حقيبتي وأدخلها الحجرة بمساعدة يولا لكنني حذرتهما من فتح الحقيبة والعبث بمحتوياتها.

-ها ... فين الأيفون ؟

قالتها يوسي وهي تجلس بجواري على الأريكة تمد يدها نحوي حتى أعطيها هذا الجوال الذي أخبرتني أن أبتاعه لها من فرنسا، ورغم أنني لم أوافق، إلا أنها لا تزال تقتنع أنني سأبتاع لها هذا الجوال البهيظ.

-أيفون مين ؟ .... مفيش أيفونات ؟

أنهيتُ حديثي بتهكمٍ ونظراتٍ غير مبالية لنظراتها التي تحوٌلت إلى الغضب مرة واحدة وهي تقول:

-يعني إيه مفيش أيفونات ؟ .... طب فين الهدايا طيب ؟ إنت جاي من فرنسا إيد ورا وإيد قُدام ؟

-وهو حد قالِك إني كُنت في سوق الجمعة ؟

زمتُ شفتيها باعتراضٍ وهي تستقبل كلماتي المخيبة للآمال من وجهة نظرها:

-وبعدين إنتِ مش متجوزة .... روحي خلّي جوزِك يجبلِك إللي إنتِ عايزاه

زادت كلماتي من غضبها مما جعلها تنفجر بوجهي:

-أنا مش هرجع لبيشو تاني ..... أنا خلاص جبت أخري، يعني إيه يعني يقولي إن المسلسل إللي بتابعه مش مهم وإن ماتش الكرة بتاعه ده هو المهم ..... مهم في إيه يعني مش فاهمة، كان بيلعب في الدوّري وأنا معرفش

زفرتُ الهواء من فمي بنفاد صبرٍ قررتُ معه الوثوب قبل أن أنفجر خاصة وأنا أشعر بإرهاق السفر، وإرهاقٍ آخرٍ ناجم عن الحقيقة التي لا أعرف كيف سأفجرها.

-إمشي من قدامي يا يوسي أنا تعبان ومش فايقلِك

دفعتها برفقٍ حتى تبتعد وكانت هي لا تزال ترميني بنظراتٍ حانقة قطعتها والدتي التي أخذت تهتف بصوّتٍ مرتفع:

-بت يا يوسي .... ابعدي عن أخوكي وسيبيه في حاله ده لسة راجع من السفر

وثبت يوسي عن الأريكة تُدبدب على الأرض بقدمها وتبتعد عني بلسانٍ لا يتوّقف عن التمتمة، حالما ابتعدت، وجدتُ والدتي تأخذ مكانها ولو كان والدي هنا لاستقبلني معهم وربما أغرقني بجنونه، لكنه الآن بالعمل.

جلست والدتي على الأريكة لتضع أمامي قدحًا من الشاي وترمقني بابتسامة مُتسعة لا أعرف لمَ آصابتني بالتوّتر:

-إيه يا حبيب أمك الغيبة دي كلها ؟ .... مش قُلتلي هو شهر واحد وراجع

أنهت حديثها ببعض القلق الذي جعلني أتوّتر قليلًا وأنا أبرر:

-معلش بقى يا ماما ... الكورس طوّل شوية .... بعدين أنا مكنتش لوحدي، إيمان كانت معايا

من الأفضل ألا أخبرها أن إيمان كادت تتسبب بموّتنا أكثر من مرة، لذلك حاولتُ تجميل صوّرتها أمام والدتي حتى تطمئن علي.

-ماشي .... المهم إنك جيت

بدلّت نظرتها المُحبة إلى أخرى جدية وهي تتقدم بجذعها للأمام حتى تُخبرني:

-قُصره .... أنا خلاص هكلم عمتك عشان نروح نخطب بنتها .... أنا اتفقت معاها على كل حاجة ... قُلتلها إن الولاد هيتخطبو أول ما ترجع من السفر

شُحب وجهي واختفت ألوانه مرة واحدة حتى أنني شعرتُ بأنني سأبصق ما ابتلعته من الشاي.

-نـ... نخطب مين بس يما .... أنا لسة جاي من السفر عايز آخد نفسي الأول

انسابت قطرات العرق على جبهتي وأنا أرتشف الشاي ببطء لعله يُهديء من روعي، وضعت والدتي أناملها الرقيقة على رسغي وهي تواصل بإصرار:

-وماله يا حبيبي .... ريّح براحتك .... بس على آخر الأسبوع تكونو مخطوبين .... كفاية أوي لحد كدة .... إنت قرّبت تعدي التلاتين وأنا لسة مفرحتش بيك

-يا ماما أنا لسة متمتش التلاتين أساسًا أنا عندي تسعة وعشرين سنة .... بعدين أنا مش هينفع أتجوّز تاني

رفعتُ من نبرة صوّتي مع آخر كلماتي التي خرجت من جوفي عنوة، فأنا بحماقتي، أخبرتها أنني تزوّجتُ ولا يجب أن أتزوّج مرة أخرى، هذا ما جعل ملامحها تتبدل إلى الصدمة مرة واحدة وهي تسأل:

-تتجوّز تاني يعني إيه ؟ .... إنت اتجوّزت أولاني!!

الفصل الثاني (لا تردد مع الحقيقة)

((إيمان))

2سبتمبر 2015   القاهرة : مصر

هناك حقائقٌ عندما يتم الإفصاح عنها، لا نجد من وراءها سوى الدمار والخراب، وكانت الحقائق التي على وشك أن أتلوها أمام والداي كفيلة بجعلهما يضربانني حتى الموت.

تحوّل جسدي إلى جمرة نارية وبدأت قطرات العرق الساخنة تنصهر على جبهتي حتى كادت تلامس عيناي وتحجب عني الرؤية، بدأت شفتاي تصطك ببعضها في ارتجاف ونظراتي تتبادلان ما بينهما وبين صغيرتي التي شرعت والدتي تداعبها حتى تتوّقف عن البُكاء، بينما كان والدي يُحدق بي في ترقبٍ وانتظارٍ للإجابة التي سأقولها.

-بنت .... بنت....

أخذتُ أردد هذه الكلمات وكأنني جهاز تلفازٍ مُعطل، وما إن اضجر والداي من ترديدي لهذه الكلمة، وجدتهما يقولان بنفسٍ واحدٍ محملٍ بنفاد الصبر:

-ها يا بنتي .... ما تقولي مين البنت دي ؟ .... لتكوني اتبنتيها من هناك ؟

وجدتُ نفسي أوميء برأسي وكأنني وجدتُ ما سيُخلصني من تلك المُعضلة:

-إيه ... أه أه ... دي ... دي بنت اتبنتها من فرنسا ... أ ... أصلي لقيتها ياعيني مرمية في الشارع وهي حتى لحمة حمرا فـ... فصعبت عليا .... قو ... قومت أخدتها وقولت أنا إللي هربيها بدل أهلها إللي رموها في الشارع

أنهيتُ كذبتي بنبرة متوّترة وجسدٍ حاولتُ المحافظة على ثباته رغم ارتجافه الذي يُشبه الهاتف الهزاز، مددتُ يدي بعدها لأنتشل تيا من والدتي وأنا أحاول التهرب بعيناي قدر الإمكان حتى لا يُلاحظا كذبي.

-هاتيها يا ماما .... شكلها عايزة تغير البامبرز

هدهدتها والدتي بحنانٍ قبل أن تسألني بفضول:

-هي اسمها إيه ؟ .... ولا إنتِ إللي سمتيها ؟

رسمتُ بسمة متوترة على ثغري وأنا أجيبها:

-أنا إللي سميتها .... سميتها تيا

طالعتها والدتي بنظرةٍ أمٍ حنونة وهي تقول:

-بسم الله الله أكبر عليها زي القمر .... معرفش عيلة إيه دي إللي ترمي عيالها وهي حتة لحمة حمرا .... أم إيه دي إللي تسيب بنت زي القمر كدة في الشارع

مددتُ يدي بسرعة لأنتشل تيا قبل أن يظهر ارتباكي وأنا أقول:

-معلش بقى يا ماما

اعترضت والدتي حديثي وهي تقول باستهجان:

-معلش ده إيه ..... دي أمها دي هتتشوي في نار جُهنم .... حسبي الله ونعم الوكيل فيها هي وإللي غلطت معاه .... إن شاء الله ربنا هيشويهم هُما الاتنين في نار جهنم عشان اللي بيعملوه في عيالهم

ازدادت سخونة جسدي وشعرتُ أنني سأحترق إثر دعاء والدتي المؤّجه إلي:

-خلاص بقى يا ماما .... سيبي أمها في حالها .... إحنا منعرفش ظروف الناس

تجاهلت والدتي ما قُلته وبقيت تدعو على والدي تيا_ أي أنا وشارون_ وهي تتحرك صوّب حُجرة الطعام يليها والدي الذي لم يتوقف عن الحسبنة والحوقلة وهو يزدري فعلتهما الشنيعة.

ما إن رحل والداي حتى أطلقتُ زفرة مطوّلة أخرجت معها ما يعتمرني من الخوف والارتباك، شعرتُ وقتها أن حملًا ثقيلًا قد انزاح عن صدري وأعادني إلى طبيعتي رغم أنني لم أقل الحقيقة، بل أضفتُ على أخطائي وذنوبي ذنب الكذب، سأحترق حتمًا بنار جهنم كما تدعو علي والدتي.

اتجهتُ فوُرًا إلى حُجرة النوم لأبدل الحفاضات الخاصة بتيا وأنا أداعبها وأعدها بكلماتٍ هامسة بأنني سأخبرهما الحقيقة حالما أستعدُ لذلك، وما إن نامت حتى تركتُ الحجرة لأتجه صوّب طاولة البهو العريضة المؤضوع عليها كل ما لذ وطاب من المأكولات التي تبرع والدتي بصُنعهم، فكان يوجد الخضار المحشو بأنواعه والدجاج المشوي مع حساء الكريمة الذي افتقدته للغاية، جلستُ بالمائدة لأبدأ تناول الطعام بنهمٍ كما لو أنني لم آكل لسنوات، تذكرتُ وقتها الوجبات السريعة التي كُنت أتناولها يوميًا في الغُربة والتي لم تكن تُغني من جوع.

كانا يسألانني عمَ فعلته بفرنسا وكُنت أحاول قدر الإمكان أن أجيبهما بإجاباتٍ مُختصرة حتى لا أفصح عن حقيقة ما حدث، فأنا لا أريد لقلبيهما أن يتوّقف بسببي، ربما لهذا السبب أنهيتُ طعامي بأقصى ما لدي وهرعت فوّرًا صوّب المرحاض لأستحم وأبدل ملابسي إلى أخرى مُريحة ثم أنطلق فوّرًا إلى منزل خالتي لعلي أستشير جورج أو يوسي عن تلك المُعضلة التي أنا بها.

اتصلت بي آنابيا قبل أن أترك المنزل وحاولت أن تسألني عمَ فعله جورج مع أبويه، وبسبب جهلي بهذا الأمر، طمأنتها بأنني سأعرف ما حدث وأوافيها بالأخبار فوّرًا حتى يهدأ بالها، فبالطبع أخبرهم جورج أنه الآن متزوّج ولن تستطيع والدته أن تزوّجه مرة أخرى.

طرقتُ باب المنزل لأجد يوسي تفتح لي الباب وعلى وجهها الذهول والاشتياق؛ عانقتي بحرارة وعاتبتني على عدم مجيئي فوّر أن أتيتُ من السفر، عانقتُ بعدها خالتي وتحدثتُ معها قليلًا قبل أن تجذبني يوستينا صوّب حُجرتها لنجلس ونتحدث بها كما نفعل دائمًا، فيوسي بمثابة شقيقتي التي لم تنجبها والدتي، هي شقيقتي في الرضاعة حتى.

تلفتُ في أرجاء المنزل بحثًا عن جورج لتفاجئني يوسي بقولها أن جورج قد رحل عن المنزل منذ قليلٍ ليبتاع بعض الأغراض، لكنني أعرف أين ذهب.

-ها .... قوليلي بقى عاملة إيه ؟ .... وإيه البنت الصغيرة اللي خالتي بتقول عليها دي .... إنتِ اتبنيتي من فرنسا ؟

علمتُ فوّرًا أن والدتي اتصلت بخالتي وأخبرتها كل شيء، فخالتي قد سألتني عن تيا ما إن خطوّت داخل المنزل وأنا تهربتُ من أسئلتها قدر الإمكان حتى لا ينزلق لساني بالحديث.

-إيمي ... قولي يلا .... البنت دي مين ؟ .... إنتِ فاكراني هصدق إنِك اتبنتيها والجو ده .... أنا عارفاكي كويس

تنهدتُ بخيبة أملٍ لأنها بالطبع كشفت كذبتي، فأنا إن كُنت قد رأيتُ طفلة رضيعة في فرنسا فسأضعها بإحدى الملاجيء هناك ولن آخذها إلى المنزل، وبالطبع يوسي تعرف أنني لن أوافق على اختطاف طفلة بريئة من دوّلتها الأم، حتى ولو كُنت سأوفر لها سُبل الرعاية، ففي النهاية، سيحاول والديها البحث عنها.

-بُصي .... أنا هقولِك على سر ... بس اوّعديني إنِك مش هتقولي لحد

رفعتُ سبابتي أمام وجهها وأنا أحذرها لأجد عوالم القلق تلوح بها وهي تقول:

-سر إيه ؟

تنهدتُ مجددًا لأستجمع طاقتي وأنا أقول بصوّتٍ خافتٍ نسبيًا:

-أنا متبنتش تيا .... أنااا ..... خلفتها

سقط فك يوستينا في صدمة واتسعت حدقتيها بعدم تصديقٍ لحديثي، انتهزتُ هذه الفرصة وقررتُ الإفصاح عمَ يجيش به صدري لعلها تُساعدني على إيجاد حلٍ لتلك المُعضلة، فأنا لا أعرف كي سأخبر والداي الحقيقة.

-وأنا في فرنسا اتجوِّزت من ورا ماما وبابا .... وخلفت منه تيا .... بس هو طلع شمال وخطفها وهرب .... راح تل أبيب ... فأنا بقى....

بقيتُ أسرد لها ما حدث بإيجازٍ وتفصيلٍ لبعض الأحداث المُهمة، وكانت معاني وجهها مصدومة تطالعني بأعينٍ جاحظة وفاهٍ مفتوح، وعندما انتهيتُ من سرد حكايتي، وجدتها تُطلق شهقة مصدومة تبعتها بكلماتٍ مرتفعة:

-إيه ؟ ..... إنتِ سفرتِ تل أبيب!!

أغلقتُ فمها بسُرعة قبل أن تفصح عن المزيد، احتددت نظراتي وقتها وأنا أوبخها:

-ششش .... بقولِك مش عايزة حد يعرف

كممتُ فمها حتى تأكدتُ أنها لن ترفع من صوّتها عندما أومأت برأسها إيماءة بسيطة، ابعدتُ يدي عنها لأجدها تخفض من صوّتها وهي تسأل بفضول:

-وهو جورج عارف الكلام ده ؟

رميتها بنصف بسمة ساخرة وأنا أقول:

-جورج كان معايا في كل حاجة

أطلقت شهقة مدوية أخرى وكادت تصرخ بتفاجؤٍ لولا تكميمي لفمها للمرة الثانية وأنا أهتف بتهديد:

-لو فتحتي بوُقِك وربنا ما هقولِك حاجة تاني

أبعدتُ يدي عنها وهي تعدني بنظراتٍ صادقة :

-خلاص خلاص مش هفتح بُقي

توّقفت بُرهة عن الحديث لتوّاصل بعدها بجدية:

-بس مين إللي نصب عليكي ده ؟ .... عرفتِ تلاقيه ؟

احتدت نبرتها مع آخر كلماتها حتى شعرتُ برغبتها العارمة بالفتك بهذا الحقير انتقامًا لي، لم أشأ إخبارها أنني انتقمتُ منه بطريقتي حتى لا تراني بصوّرة القاتلة ذات الوجه البريء، لذلك اكتفيتُ بإخبارها أنني أعدتُ ابنتي منه بعد مروري بالعديد من الأهوال وتركته وشأنه بعدها، فأنا حتى الآن، لا أعرف ما حلّ به.

-طبعًا عرفت ألاقيه أومل جبت بنتي منه إزاي .... دا أنا حتى معايا صوّر ليه ... استني هوّريهولِك

أخرجتُ الهاتف من جعبتي وعبثتُ به قليلًا أمام نظرات يوسي المترقبة، أنهيتُ عبثي عندما توّقفت عند الصوّرة التي جمعت بيني وبين شارون ونحنُ في إحدى المواقع الأثرية بفرنسا، مددتُ الهاتف صوّب يوستينا وأشرتُ بإصبعي عليه وأنا أقول بحنق :

-أهو .... هو ده الحيوان إللي نصب عليا

سقط فك يوسي مرة واحدة وبقيت تتطلع للصورة في ذهولٍ وصمتٍ تعجبته للغاية، فهي لم تُظهر أي من عوالم الغضب التي أظهرتها لي وهي تطلب مني أن ترى هذا الحقير وكأنها ستبصق على صوّرته.

-ده .... هو ده إللي نصب عليكي!!

قالتها بذهولٍ وهي تُشير على صورة شارون لأوميء أنا برأسي وأنا أجيبها بغلٍ دفين:

-أيوة هو ... شوفتي بقى

مصمصت شفتيها بتهكمٍ وهي تقول بنبرة هائمة تأملت فيها تقاسيم وجه شارون الوسيمة جيدًا:

-شوفت يا ختي .... ده ياريته كان نصب عليا أنا

ضممتُ شفتاي بغضبٍ من حديثها وأنا أنزع هاتفي بعيدًا عنها وأعيده إلى جعبتي وأنا أقول بحنق:

-على فكرة مش كل حاجة بالشكل .... إنتِ متعرفيش الراجل ده مين .... ده أكبر منافق شوفته في حياتي

لاحظت يوستينا غضبي فاعتدلت في جلستها على الفراش وهي تُربت على كتفي متفوّهة:

-ولا تزعلي نفسِك .... بكرة تعرفي سيد سيده وتتجوزي وتعيشي ملكة ..... حاولي تنسي التجربة دي وتشوفي مستقبلِك ... إنتِ لسة بنت صغيرة

كانت توّاسيني بهذه الكلمات حتى أتناسى هذه العلاقة الفاشلة وأبدأ من جديد، لكن كيف سأبدأ وأنا أحمل طفلة على ذراعي، فلن يقبل أحدهم أن يمس فتاةً قد مسها رجلٌ قبله، أي أنني لن أبرح منزل والداي حتى مماتي، فيكفي لي هذه التجربة.

كُنت أفكر في هذه الكلمات وفي مُستقبلي الذي تدمر وأنا أرمق بقعة شاردة وأقول بحسرة:

-بنت إيه بقى .... خلاص مبقتش بنت

قُلتها بيأسٍ على حالي لأن عُذريتي التي فقدتها مع رجلٍ خائنٍ ستمنعني من المحاولة مرة أخرى، وكانت يوسي تستمع إلي حتى ظننتها ستوّاسيني لكنها فاجئتني بشهقة مدوّية ضربت معها صدرها وهي تقول بصدمة:

-مش بنت !! ... يا مصيبتي !! .... بقيتي ولد!!

تغلغلت الدماء في عروقي وأنا أستمع إلى حماقتها التي ذكرتني بحماقة جورج، الآن أشعر أنني حمقاءٌ لأنني لجأتُ لهذه العائلة.

أطبقتُ على شفتاي بغضبٍ وأنا أهم بالرحيل بثوّران:

-تصدقي إن أنا أستاهل إللي حصلي عشان بتكلم مع واحدة زيِك .... وأنا هلاقيها منِك ولا من جورج

تمسكت يوسي بذراعي وبقيت تلح علي حتى أبقى ولا أرحل الآن، وبعد محاولاتٍ عِدة وجدتها تقول بترجٍ:

-خليكي بقى .... أنا ما صدقت رجعتي من السفر عشان نتكلم سوا زي زمان

دفعتُ يدها برفقٍ عني وأنا أهتف بوجهها بتذكر:

-نتكلم إيه ؟ الساعة عشرة بليل .... إنتِ مش عندِك بيت وواحد متجوزاه ؟

لاح الكبرياء على وجهها وهي تسترخي بجسدها للوراء وتربط ذراعيها أثناء قولها:

-أنا وبيشو متخانقين .... بس متقلقيش، هو هيصالحني زي ما بيعمل كل مرة

جلستُ بجوارها على الفراش وأنا أرفع حاجباي بتشكيكٍ لحديثها:

-بلاش الثقة الزايدة دي ..... بيشو ما هيصدق يخلص منِك ومن خناقاتِك

أصابتها كلماتي بالضجر لتنقلب ملامحها مئة وثمانون درجة جعلتها أشبه بصبية صغيرة رفض والدها أن يبتاع لها لوحًا من الشوكولاة.

-لا طبعًا .... بيشو بيحبني وهيتصل يصالحني دلوٌقتي

ما إن أنهت حديثها حتى صدح صوٌت هاتفها ليُزين اسم زوجها " بيشو " وقلبٍ أحمر شاشة الهاتف، ما إن رأت ذاك الاسم حتى طالعتني بنظراتٍ مُغيظة أمسكت معها الهاتف عازمة على وضعه على وضعية مُكبر الصوٌت أثناء قولها الواثق:

-مش قولتلك ... تلاقيه مقدرش يقعد من غيري

آجابت على الهاتف فوٌر إنهاءها لحديثها وعزمت على تكبير الصوٌت حتى أستمع إلى بيشوي وهو يطمئن عليها وتجيبه هي بغنجٍ ونظراتٍ متعالية وجهتها نحوي.

-أيوة يا حبيبتي .... بتعملي حاجة دلوقتي ؟

داعبت يوسي خُصلات شعرها وهي تُجيب بجمودٍ زائف:

-لأ مش بعمل حاجة

-طب بقولِك إيه ؟ .... ما ... تطلعي كدة البلكونة ؟

اقترح عليها بنبرة هادئة لتتسع ابتسامتها وتتحوٌل نبرتها إلى أخرى مدللة طالعتني فيها بغيظٍ ثم تابعت باستنتاجٍ هائم:

-ليه ؟ .... عاملي مفاجأة ؟

داعبت خُصلات شعرها وهي تتخيله يأتيها بسيارة كبيرة مليئة بالورود يصدح منها الأغنيات الرومانسية وهو يقف أعلاها يُغني معها بصوٌته الناشز ويستسمحها حتى تُصالحه، لكنها سقطت في أرض الواقع حينما أردف بيشوي من الجهة الأخرى:

-مفاجأة إيه ؟ .... أنا كُنت هقولِك تروحي تجبيلي القميص اللي كُنت ناشره ووقع بالغلط عندكم

لم أستطع أن أمنع نفسي من الانفجار بالضحك على هيئتها التي تغيَرت للغضب والإحراج مرة واحدة؛ زمجرت بغضبٍ وهي تُبدل وضعية الهاتف من التكبير إلى العادي لتضع الهاتف على أذنيها وتبدأ بسب بيشوي الذي تبجح وطلب منها طلبًا كهذا وهما في عِراكٍ من عراكاتهما الساذجة التي لا تنتهي، فمُنذ زواجهما وهما يتشاجران ويعودان لبعضهما دائمًا، حتى أنني إن لم أرى شجاراتهما سأشعر أن خطبًا ما قد حلٌ بهما.

تركت يوستينا الحُجرة لتوّاصل تقريعها لبيشوي بالشرُفة وربما ستُثير حنقه بقميصه الذي سقط من منزلهما بالطابق الثالث، ما إن رحلت يوستينا حتى هممتُ بالرحيل أنا الأخرى لأتفقد تيا لعلها جائعة أو ما شابه.

ما إن تركتُ الحُجرة حتى اصطدمتُ بجورج الذي أتى للتو من الخارج_ أو من عِند آنابيا_ وكان الوجوم والتيه يطغيان على وجهه، لكنه ما إن لاحظني حتى اقترب نحوي ليتمسك بكتفي ويدفعني بعيدًا عن والديه أثناء قوله الهامس:

-ها .... عملتي إيه ؟ .... قولتلهم ؟

أبعدتُ ذراعي عنه وأنا أسبل بعيناي بيأس طالبٍ اجتهد في المذاكرة ووجد الاختبار لا يمت لمَ ذاكره بصِلة.

-لأ ... مقدرتش .... لقيت نفسي بقولهم إني لقيتها في الشارع وإنها مش بنتي .... ده ماما لحد دلوقتي عمالة تدعي على مامت تيا لدرجة إني حاسة إني هموت محروقة

وجدته يتبع حديثي بنبرة واثقة:

-أنا قولت كدة بردو....

أبعد نظراته عني لبُرهة لأداهمه بسؤالي الفضولي المتلهف:

-وإنت عملت إيه ؟ .... قولتلهم إنك اتجوزت من وراهم ؟

رفعتُ قليلًا من نبرة صوّتي لعله أخبرهما بالحقيقة، لكنني تفاجأتُ من محاولاته لكُتماني مع كلماته المُحذرة الهامسة:

-ششش... اكتمي يا ولية هتفضحيني....

سرق نفسًا عميقًا وأطلقه ليواصل بهمس:

-مقولتلهمش طبعًا .... مع إن أمي زنقتني بالكلام وكانت هتخليني أعترف .... بس أنا اتهربت

ملأتُ فمي بكتلة من الهواء الذي أطلقته بأفأفة وضيقٍ من هذا المأزق، صدق من قال أن الكذبة الصغيرة تُخلف وراءها المزيد من الأكاذيب، فما بالك بكذبة كبيرة!!

-طب هنعمل إيه ؟ .... ما لازم نقولهم بأي طريقة

قُلتها بنفاد صبرٍ وغضبٍ من جُبننا وما كاد يُجيبني جورج حتى داهمنا صوّت خالتي وهي تقول بصوّتٍ جهوري:

-واقفين عندكم كدة ليه يا ولاد ؟ .... تعالو اقعدو معانا

انتبهتُ إلى صوّت خالتي فوجدتني أقول بارتباك:

-مرة تانية بقى يا خالتو عشان الوقت اتأخر ولا زم أروّح....

وجهتُ نظراتٍ ثاقبة مليئة بالاصرار صوّب جورج وأنا أقول:

-الموضوع ده لازم يخلص في أقرب وقت......

____

((جورج))

5سبتمبر 2015 القاهرة : مصر

حاولتُ أن أجعل الحياة تعود إلى سابق عهدها؛ استيقظتُ في الصباح الباكر لأتناول الفطور ومن ثُم أذهب إلى وظيفتي التي انقطعتُ عنها لأيام، إن لم يكن والدي يتوّلى الإدارة لما طُردت من هذه الشركة مُنذ فترة طويلة.

وبعد انتهاء الدوّام قررتُ المرور على آنابيا أولًا والتحدث معها قليلًا أسفل البناية لأنها آرادت أن تتجوّل قليلًا، وفي أثناء تجوّلنا، رآتني والدتي صُدفة ورمتني بازدراءٍ واستفهام جعلني أغرق في دوّامة أخرى من التوتر، رغم أنني أخبرتها أن آنابيا جارتنا الأجنبية الجديدة وكانت تسألني عن عنوان إحدى الآماكن لأجيبها أنا بابتسامة واسعة حتى أجمل صورة مصر أمام الغرب.

قصة غبية كنت قد ألفتها مُسبقًا حتى أقولها عندما يراني أحدٌ من معارفي، لا أعرف إن كانت هذه الرواية قد انطليت على والدتي أم لا، لكنني حافظتُ على ثباتي قدر الإمكان حتى لا يداهمها ولو شكًا بسيطًا واحدًا، فأنا سأخبرهما الحقيقة على أي حال، لكن ليس بهذه الطريقة المفاجئة، يجب أن أُمهد لهما أولًا كما قالت لي إيمان.

تنهدتُ بعُمقٍ وأنا أستريح على الفراش إثر عناء اليوم لأقرر بعدها تبديل أوٌعيتي وأخذ حمامًا دافئًا قبل أن يأتي مُسلم، فأنا قد أخبرته أنني أريد محادثته في أمرٍ بالغ الأهمية، فهو الأذكى من بين أصدقائي رغم الجفاء الذي آراه دائمًا على ملامحه.

أخرجتُ خاتم الزواج من جعبتي لأنني آخذه معي أينما ذهبت، لن أتركه هنا حتى تراه والدتي وتعرف الحقيقة.

تركتُ هاتفي على المنضدة المجاورة للفراش والخاتم داخل إحدى الأدراج قبل أن أنتشل منامتي الصيفية وأتجه إلى المرحاض، غمرتني المياه الدافئة لنصف ساعة

استطعتُ خلالها أن أرتب أفكاري وأستعد لمَ سأقبل عليه، فالهرب لن يُجدي نفعًا فيما بعد، خاصة وأنا أتحجج بجميع الحُجج حتى لا أذهب ليوأنا حتى أطلب يدها للزواج.

اضطررتُ على الانتهاء من الاستحمام بسرعة حالما استمعتُ إلى جرس المنزل يدق وصوٌت العصافير المزعجة يُغرق أركان المنزل، كانت الساعة قد شارفت على السادسة مساءً وكنت أعرف أن الطارق هو مُسلم، فأنا قد أخبرته أن يأتي بالخامسة.

جففتُ جسدي بأقصى ما لدي وارتديتُ منامتي بسرعة البرق حتى أفتح له الباب قبل أن يتقابل مع عائلتي المجنونة، ولسوء حظي، وجدتُ والدي يُحاصره في إحدى الزوايا ويرميه بنظراتٍ حادة وملامح صارمة هتف معها بصوٌت جهوري:

-هات البطاقة

بات التوٌتر على وجه مُسلم وهو يزدرد لعابة ويُخرج بطاقته ليُعطيها لوالدي الذي هدده بكشف هوٌيته والتأكد من خلوٌه من الآثام، ما إن رحل والدي حتى هندم مُسلم ثيابه الداكنة وآدار قبعته للخلف ليسألني:

-هو أبوك شغال في الحكومة ولا إيه ؟

آحطه بذراعي وأنا أرميه ببسمة ساخرة مطمئنة قُلت معها:

-لا متقلقش .... بابا مدير شركة عصير .... يعني آخره هياخد بطاقتِك دي ويلعب بيها كوتشينة

ابتسم بخفة على مزحتي لأجذبه بعدها ليجلس داخل الشُرفة بعد أن عرفته على والدتي وأخبرتها أنه صديقي الجديد...

جلسنا بالشرفة حتى نبتعد عن الأعين التي تترقبنا وتترقب حديثنا وأسرارنا، أتت والدتي بقدحين من الشاي واستأذنت بعدها لتتركنا وشأننا، وعندما تأكدتُ من رحيلها أخبرته بصوٌتٍ جادٍ وهامس:

-اسمع يا سطا .... أنا لسة مقولتش لأهلي إني اتجوّزت .... وبصراحة مش عارف أقولهم إزاي

قطب حاجبيه بحيرة واعتراضٍ ثم ارتشف رشفة من شايه قبل أن يضعه على الطاولة ويُخرج لفافة تبغه ليُشعلها أثناء قوله:

-ما تقولهم وإنت خايف من إيه ؟

نبرته الباردة وأخذه لأنفاس من لفافته جعلني أشعر بالضجر من ردة فعله، صحيحٌ أنني لم أره قلقًا أو خائفًا أو حتى مُهتمًا ولو لمرة، لكن على الأقل يُمثل أمامي أنه يهتم لجدية ما أقول:

-دا أنا أمي لو عرفت مش بعيد تتبرّى مني .... دي لحد دلوقتي عمالة تزن عليا عشان اروح اتجوز يوأنا وأنا مش عارف أقولها إزاي إني مش هينفع اتجوز تاني

رفع نظراته المتجهمة نحوي ليقول باستنكار:

-وآنابيا ؟ .... هتفضل مخبيها على أهلك ؟ .... دي مش حصالة ولا سبيكتين دهب .... دي بني آدمة وليها عليك حقوق .... أهمهم كرامتها إللي مش هتخليها توافق على إللي انت بتعمله

عبثت كلماته بضميري وجعلتني أشعر بالازدراء من نفسي، فآنابيا إن كانت تعرف ما أفعله أقسم أنها ستتركني للأبد.

-ما أنا عايزك تزُق معايا الحوّار .... يعني .... حاول تتكلم معاهم إنت الوحيد إللي هتقدر تقنعهم

سرق نفسًا آخرًا من لفافته قبل أن يُطفئها ويثب عن مقعده عازمًا على الرحيل رغم أنه لم يبقى سوى ساعة واحدة فقط.

وجدته يُربت على كتفي متفوّهًا بطمأنينة ووعد:

-هساعدك متقلقش .... بس الأول قولهم الحقيقة ... وسيب الإقناع ده عليا

اتسعت بسمتي الممتنة إثر حديثه وأنا أبادله بربتة أخرى تشكرته معها على ما قاله لي وما وعدني به، أردته أن يبقى أكثر ويتناول معنا العشاء لكنه أصرٌ على الرحيل بسبب ارتباطه بالعديد من المواعيد الأخرى، وقبل أن يترك الشُرفة التفت نحوي ليقول بتذكر:

-صحيح ... سلملي على إيمان

قالها بنبرة هادئة لا أعرف لمَ آصابتني بالغيرة والغضب أثناء تعجبي:

-إيمان!!

تلجلج صوّته بتوٌترٍ وهو يُعدل ما يقول بعد أن انتبه أنه يقف أمام شقيقها الذي يغار عليها:

-وآنابيا ... سلملي عليهم هُما الاتنين

اشتعلت عيناي مُجددًا وهو يذكر اسم زوٌجتي حتى أصبحتُ أشبه ببارودة على وشك أن تقذف نيرانها؛ دفعته خارج الشُرفة وأنا أقول بحنق:

-إمشي ... إمشي يا مُسلم بدل ما أخلي إللي فيا ييجي فيك

لاح التيه والارتباك على وجه مُسلم أثناء رحيله من المنزل ووعده لي بالمجيء مُجددًا عندما يتطوٌر الأمر، لكنه قبل أن يرحل ارتدى القُبعة مجددًا وتلفت يمينًا ويسارًا قبل أن يسير بهدوءٍ ورؤٌية بخطواتٍ سريعة تتجه إلى طريقٍ داخلي.

كُنت أتابع رحيل مُسلم من النافذة وأتعجب من تحركاته الحذرة والتفاته يمينًا ويسارًا، وقبل أن أستنتج سبب تحركه بتلك الطريقة، داهمني صوٌت والدتي الجهوري وهي تهتف بصوٌتٍ حادٍ من داخل المنزل:

-جــورج .... تعالى هنا بسرعة

انقبض قلبي مرة واحدة وشعرتُ أنني سأبصقه من النافذة، تحركتُ بخطواتٍ مُرتفجة داخل المنزل وأنا أدعو من كل قلبي على ألا يضحى ما أفكر فيه صحيحًا، لكنني مع الأسف، لم يفلح دعائي هذه المرة، ربما لأنني أدعو لشيءٍ سيءٍ، مثلما يدعو اللص أن يعاونه الله على هذه السرقة!!

-إنت اتجوِّزت من ورانا!!

ابتلعتُ ريقي بتوّترٍ بالغ وقد تيبست قدماي بالأرض وشعرتُ أنني سأنصهر كما ينصهر البُركان، كانت والدتي ترميني بنظراتٍ مُشتعلة وهي تمسك بخاتمي وتُظهره أمامي هو والهاتف الخاص بي، والذي تناسيتُ تمامًا أنه لا يحتوي على كلمة مرور.

-هي دي بقى إللي انت اتجوِّزتها من ورانا .... هي دي إللي عصيت أوامري عشانها ؟!

رفعتُ يدي نحوها بارتباكٍ لأحاول تهدئتها بتبرير:

-يا ماما ... أنا مكنـ_

قطعتني بصوّتٍ جهوريٍ كاد يُهدم المباني من قوّته وهي تهتف بغضب:

-إنت خليت فيها ماما .... رايح تُخطب وتتجوِّز بطوِّلك .... إيه يا أخي .... موِّتنا بالحيا

أطبقتُ على شفتاي بارتباكٍ وخزي من نفسي، فأنا أعرف كم تمنت والدتي أن تزوِّجني بنفسها وتُقدمني هي إلى زوجتي وعائلة زوجتي للتباهي بي أمام عائلتي وأصدقائها، لكن يبدو أنني خيِّبتُ آمالها.

-ورايح تتجوِّزلي خواجاية منعرفلهاش لا أصل ولا فصل!!

رفعت يدها بتهكمٍ وأخفضتها مُجددًا وهي تواصل بنبرة جارحة:

-أقول عليك إيه .... تلاقيها بلفتك بكلمتين وإنت زي الأهبل جريت وراها

اشتعلت عيناي بالغضب إثر كلماتها التي آهانت بهم آنابيا وجعلتني أعترضها بنظراتٍ مُتقضة:

-متقوليش كدة على آنابيا .... إنتِ متعرفيهاش

رفعت حاجبيها بتشفٍ وهي تتقدم نحوي لترميني بنظراتٍ صارمة غاضبة قالت معها بثقة:

-إيه إللي معرفهاش ... مش دي السنيورة إللي كُنت بتتمشى معاها الصُبح ؟ .... فاكرني عبيطة عشان أصدق الكلمتين إللي قولتهوملي ؟؟

ضربت كفًا على كفٍ وهي تعاتب نفسها وكأنها أفسدت في تربيتي:

-وأنا إللي بقول الواد متغير من ساعة ما رجع من السفر ليه .... أتريه مغفلنا وراح يتجوِّز

قطعت يوسي حديث والدتي وهي تُعلق بعدم تصديق:

-هو إنت اتجوزت فعلًا يا جورج ؟

رميتها بنظرة عابرة ولم أرُد على سؤالها، بل تدخل والدي في المقابل ليرد عليها بلكنة ساخرة:

-أيوة يا ختي اتجوز .... شكله كان ناوي يقولنا بعد أول عيِّل

صككتُ على أسناني بغضبٍ للمرة التي لا أعرف عددها وكنت على وشك أن أطيح بهم لولا أنني أحافظ على هدوئي قدر الإمكان لأنهم في النهاية عائلتي، لكن طاقتي قد

وصلت إلى آخر حدٍ لها، لم أستطع التحمل أكثر من ذلك فوٌجدتني أنفجر بهم بكلماتي :

-إنتو عايزني أعمل إيه يعني .... ما إنتو مش موافقين إني أتجوٌز من برة .... رغم إنكم عارفين إني مش عارف ألاقي البنت إللي بحبها هنا .... متحسسونيش إن المسيحيين مغرقين البلد .... بعدين أنا بحب آنابيا .... ومُش مستعد إني أتخلٌى عنها

بادلتني والدتي بقذيفة من قذائفها الغاضبة وهي تقول:

-حبتك عقربة يا بعيد .... بعدين ما أنا جبتلك بدل العروسة مية وإنت إللي مش راضي ... جاي دلوقتي تقول المسيحيين مش كتير

واصلت حديثها بنبرة أهدأ تحمل قليلًا من التحذير:

-يا بني الخواجات دول ملهمش آمان .... شوية وهتزهق منك وتشوفلها واحد غيرك

قطعتها بصوٌتٍ حادٍ أكثر غضبًا:

-دي مجرد أوهام في دماغكم .... آنابيا عُمرها ما هتخوني .... إنتِ بتقولي كدة عشان كُنت عايزانا نناسب عيلة كبيرة تتباهي بيها قُدام صحباتك ... لكن أنا...

أشرتُ على نفسي وأنا أواصل بانكسارٍ ودموعٍ متكوٌمة:

-أنا مفرقش معاكي في حاجة .... عايزة تحركيني على مزاجِك ولا كأن ليا شخصية .... أنا مش لعبة في إيديك عشان تقوليلي أعمل إيه ومعملش إيه

لا أعرف كيف تحوٌلت نبرة صوٌتي إلى الصُراخ مرة واحدة، لكنني شعرتُ وكأنني أفيض بمَ يجيش به صدري، أفصح عن تلك السنوات التي لم أكن أفعل فيها شيئًا سوى الاستماع لتعليمات والدتي حتى جعلتني ألتحق بكلية التجارة رغم أنها تعلم أنني أحب علم النفس، جعلتني أفعل الكثير من الأشياء في سبيل سعادتها وتباهيها أمام

الجميع، لكن أنا ... لا أذكر أنني فعلتُ شيئًا واحدًا لنفسي فيما عدا زواجي من آنابيا، وحتى هذا لا توافق عليه لأنه ليس بمشورتها.

-أنا يا جورج ... أنا مخلياك لعبة تحت إيدي ... دا أنا كل حاجة بعملها بتكون عشان مصلحتك وعشان أشوفك مبسوط....

رمقني والدي بنظراتٍ غاضبة شابهت نظراتي وهو يتدخل بالحديث ليهتف بغضبٍ من صراخي على والدتي وزوجته الحبيبة:

-إنت ازاي تعلي صوّتك على والدتك ؟...

أضافت والدتي على حديثه بتهكم:

-ما تلاقي الخواجاية إللي معاه قوّمته علينا .... ما الناس دي أهاليهم معرفوش يربوهم

أطبقتُ على شفتاي بغضبٍ قد وصل إلى ذروته حتى شعرتُ بالدماء تتغلغل بعروقي ووجهي يتحوّل إلى جمرة نارية وأنا أصرخ بكليهما حتى يتوّقفا:

-كفاية بقى .... أنا زهقت .... هو إنتو شايفني عيّل صُغير عشان اعمل أي حاجة الناس تقولي عليها ؟.... أنا كمان عندي شخصية وباخد قراراتي بنفسي

-قراراتك دي هي إللي هتوّديك في داهية قُريب

قالتها والدتي بنظراتٍ متجهمة تبعتها باختصارٍ لهذا الجدال الذي لن يتوّقف حتى تتحشرج حلوقنا من كثرة الصُراخ:

-قُصره .... البت دي تطلقها وتسيبها ترجع مطرح ما جات .... وبعد بُكرة نروح نخطب بنت عمتِك ... يإما متوّرنيش وشك هنا تاني

أنهت حديثها بتهديد جعلني أرمقهما بنظراتٍ ثابتة رغم أصوّات الحُطام التي تضرب في صدري، بقيتُ أطالعهما بعدم تصديقٍ ورغبة عارمة بالصراخ وتحطيم المنزل، هل يعتقدان أنني سأنفذ ما يقوله لي الجميع بهذه السهولة ؟ أنا لا أفعل شيئًا سوى تلبية ما يقوله الآخرون، لا أتأخر عن مساعدة أي منهم، ولا أتأخر عن تنفيذ طلبات الجميع، حتى عندما اتصلت بي إيمان وطلبت مني المساعدة لم أتأخر عليها، وساعدتها بكل ما أوتيت من قوة، لكن الآن، لن أخضع لأحدهم مرة أخرى، لن أسمح لأحدهم أن يُدمر مُستقبلي للمرة الثانية.

كوّرت قبضتي بغضبٍ بعد أن طالعتهم بنظراتٍ صارمة مطوّلة أنهيتها بصوّتٍ هاديءٍ مُحملٍ بالاصرار:

-وأنا مش هسيب آنابيا...

بصقتُ هذه الكلمات بوجوههم لأتجه بسرعة صوّب حُجرة النوم أنتشل حقيبة السفر لأضع ما أقابله من الأوعية، تحركتُ بسرعة رغم يدي التي ترتجف ونيراني التي لا تزال تشتعل بداخلي، تجاهلتُ صدمة والداي وأنا أبتعدُ عن المنزل وأرفض الاستماع إلى يوسي التي حاولت الالحاح علي حتى أبقى، لكنني لم أجيبها وودعتها بنبرة مبحوحة وكلماتٍ مُتقطعة.

فتحتُ باب المنزل بقوة لأصطدم بوجه آنابيا الملاصق لمنزلنا وملامحها البريئة المُزينة بالارتباك والتوّتر؛ أغلقتُ الباب بسرعة قبل أن يراها أحد وتأتي والدتي لتنتف خُصلاتها الذهبية وسبها بأفظع السباب، فوالدتي لا تزال تعتقد أنني سأسافر إلى فرنسا ولن آتي لزيارتهما مرة أخرى، لا تعرف أنني أتيتُ من فرنسا هاربًا، ومن سابع المستحيلات أن أعود إلى هناك مرة أخرى.

-آنابيا !! .... ما الذي أتى بكِ إلى هُنا

سألتها بقلقٍ قد ازداد الضعفين حينما لمحتُ حقيبة سفرها ونظراتها المرتبكة، ظللتُ أكذب نظراتي لفترة طويلة حتى داهمتني هي بكلماتها التي شقت قلبي لنصفين:

-جِئتُ لأوّدعك

أقسم أنني الآن أشعر أن فؤادي على وشك التحطم للعديد من الأجزاء، فكلمة وداع تأثيرها أكبر من كلمة الموت، فعلى الأقل نعرف أين تذهب روح الميت، لكننا لا نعرف أين ستذهب أرواح الأحياء، وهذا ما يُضيف على ألم الاشتياق، ألم الحيرة وخيبة الأمل.

-لا ... لا ترحلي .... أنااا ... أنا سأعيش معكِ

أمسكتُ برسغها حتى لا تبتعد، بقيتُ أتشبث بها كما يتشبث الطفل الصغير بوالدته لكنها أبعدتني بروية وأعينها تتكوّم بها الدموع:

-لستُ غبية جورج .... صحيحُ أنني لا أفهم العربية ... لكنني أستطيع التفرقة بين الصياح الغاضب... والأصوات العادية ... كما أنني...

وجهت نظراتها نحو حقيبة سفري لتتابع:

-أراك عازمًا على الرحيل من المنزل .... ولا أعتقد أنك تنوي العودة .... خاصة وأنت معي

جحظت عيناي بصدمة من حديثها والتصق لساني بحلقي ليمنعني من الحديث والتبرير لما استنتجته رغم أنه صحيحًا.

-طوال الوقت كُنت تحاول خداعي وتُخبرني أن والداك لن يعترضا على وجودي بينهما .... لكنك لا تستطيع الكذب...

رمتني بنظراتٍ منكسرة حطمت آخر آملٍ لي بهذه الحياة خاصة وهي تواصل:

-لا بأس .... لستُ غاضبة من كذبكِ علي .... أنت أردت أن تُشعرني بأنني مرغوبة، وأنا ممتنة لذلك....

أحنت رأسها بخُذلانٍ وهي تسترسل بخزيٍ وحسرة:

-لم يتقبلني أحدهم طوال حياتي .... لذلك لن أتفاجيء حينما تُخبرني أن عائلتك لا تُحبني

رسمت بسمة مُنكسرة على ثغرها جعلت دمعة شاردة تنحدر على وجنتي وأنا أستشعر ما ستقوله فيما بعد، ها هي يداها الرقيقتان تُداعب وجنتي برقة سببت القشعريرة بكياني، تبعت هذه الحركة بكلماتٍ مُحبة مليئة بالانكسار:

-شكرًا لك جورج ... أنت الوحيد الذي تقبلني ... أشكرك على هذه الأيام التي جعلتني بها أشعر وكأنني أميرة .... ولا تقلق علي ... أميرتك ستعتني بنفسها بعد الآن .... سأعمل مُعلمة للفرنسية ... وسأبتاع منزلًا صغيرًا .... و...

أخفضت يدها لتتشدق ببعض البكاء:

-لن آنساك أبدًا

ما إن بصقت هذه الجملة حتى قررتُ تحدي هذا الفم الذي يصمتُ ويتشنج فوّر رؤيتها، فإن لم أتحدث معها الآن، لن أجد الفرصة للحديث معها مرة أخرى:

-إبقي هنا آنابيا ... أرجوكي ... أعدكِ أنني سأصلح الأمور مع عائلتي .... هما فقط بحاجة لرؤيتك ... وأنا سا_

تلجلجت كلماتي وبدأت تتقطع وأنا على شفا جرفة من الانهيار، حتى أنني وجدتها توّقف حديثي وتُكفكف دمعاتها الشاردة أثناء قولها:

-لا تفقد عائلتك من أجلي ... أرجوك .... يمُكنك العثور على زوجة أخرى .... لكنك لن تستطيع العثور على عائلة أخرى .... وأنا ... لست أنانية لهذه الدرجة

بسطت أصابعها أمام عينيها لتُنزع خاتمها وتتأمله لأقل من ثانية قبل أن تلتقط كفي وتُدثر خاتمها بداخله وهي تُنهي الحديث:

-لا أستحق هذا الخاتم .... سأنتظرك حتى نباشر بإجراءات الطلاق....

تنهدت تنهيدة عميقة أمام دموعي التي أغرقت وجنتي رغم ثباتي الزائف أمامها، فها هي ترحل من أمامي دون أن أفعل لها شيئًا، دون أن أصرخ بها أو أوقفها أو أسجنها بالمنزل، تمنيتُ في هذه اللحظة أن أضحى رجلًا أرعنًا حتى أختطفها وأقيدها داخل المنزل حتى لا تبتعد، لكنني جبان، وسأبقى جبانًا للأبد، ما أفعله فقط هو مشاهدة رحيلها في صمت، والسماع لكلماتها المؤّدعة بلا اعتراض:

-وداعًا جورج.....

ـــ

((إيمان))

5سبتمبر 2015 القاهرة : مصر

لماذا تحدي الخوف أفظع من الخوف نفسه ؟ فطوال الأيام السابقة أحاول تجنب النظر للجميع، لا أعرف ماذا سيفعلان حينما يمتد بتيا العُمر ويُدركا أنها تُشبهني !! لا أعرف حتى ماذا سأفعل بمُستقبل تيا، كيف سأجعلها تلتحق بالمدرسة ؟ كيف سأكمل أوراقها وما يخص هوِّيتها ؟ كل تلك الأمور تعيقني وتجعلني أشعر وكأنني مُقيدة.

اعتقدتُ أن الكوارث ستنتهي حالما تضحى بين يداي، لكنني اكتشفتُ أنني أقتحم كوارث أخرى من نوّعٍ آخر...

-إلا صحيح يا حبيبتي هتعملي إيه في موضوع تيا .... عملتلها شهادة ميلاد ولا لسة ؟

سألتني والدتي بفضولٍ وهي تضع تيا على ركبتيها وتداعبها بحنانٍ كما كانت تفعل معي وأنا صغيرة، وكان والدي بجوارها يحتسي قدحًا من الشاي ويشاهد أحد الأفلام القديمة ذات الأبيض والأسود.

-معرفش ؟

أجبتها باختصارٍ وقلقٍ حاولتُ معهما إخفاء نظراتي عنهما، صحيحٌ أنني أكذب بكثرة في الفترة الأخيرة، لكنني لا زلتُ فاشلة فيما يخُص الكذب.

-يعني إيه معرفش ... هتعيّشي البنت من غير هوّية ؟ .... لازم توّديها أي ملجأ وتخليهم هُما يسموها ويسجلوها عندهم .... بعد كدة إمشي في إجراءات التبني طبيعي وخُديها تاني .... لكن قعدتها هنا كدة مش هتنفع .... إنتِ كدة هتضيعي مُستقبلها

انقبضت أوزاري إثر حديث والدتي الذي يعني أنني سأترك ابنتي في إحدى دوّر الرعاية وأنتظر لشهرين أو أكثر حتى تنتهي إجراءات التبني التي من الممكن أن تفشل أو لا تكتمل لأي سببٍ كان، أي من الممكن أن تبقى ابنتي في دار الأيتام لأنني لا زلتُ لا أعترف بها.

أدركتُ وقتها أن الكذب لن يفيدني، كذبتي يجب أن تنتهي قبل أن تفترق ابنتي عني مرة أخرى.

-لأ ... مش هينفع أعمل كدة

خرجت تلك الكلمات الصارمة من جوفي وأنا أعتدل في جلستي وقد اغتابتني أواصر الأمومة مرة واحدة، لن أسمح بإبعاد تيا عن أحضاني مرة أخرى.

-هو إيه إللي مش هينفع .... أمِك عندها حق .... إنتِ كدة كأنِك خطفاها

قالها والدي بحدة وتصديقًا على حديث والدتي حتى شعرتُ أنهما سيأخذانها إلى دار الأيتام بالفعل، لهذا السبب قررتُ استجماع ما لدي من قوة وأنا أقول بثباتٍ أحسد عليه:

-مش هينفع يا بابا .... عشان أنا مش خاطفة تيا

رمقاني بنظراتٍ حائرة يبدو أنها لم تفهم مقصدي، أو ربما لا تُريد فهمه.

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم أخرجته حتى أهديء من روعي وأواجه ارتجافة جسدي وترددي وأنا أقول:

-أيوة .... أنااا ... مش خاطفة تيا

تركت والدتي تيا على الأريكة لتعتدل في جلستها وترميني بنظراتٍ مُترقبة على وشك الانفجار مثلما كانت نظرات والدي، ورغم أنني أعرف عواقب ما سأقول، إلى أنني أخيرًا قررتُ التوّقف عن الجُبن ومواجهة أخطائي مهما كان الثمن، تحملتُ الكثير من أجل تيا، فلا ضيُّر في تحمل ما سأواجهه من ردة فعلٍ جحيمية تخُص والداي.

زاد ترددي أكثر وأنا أقول بصوّتٍ مُتقطع:

-تيا تبقى .... تبقى...

ازدادت سخونة جسدي لكنني واجهتها وأنا أسرق نفسًا عميقًا وأبصق كلماتي مرة واحدة:

-تيا تبقى بنتي بجد ..... أنا إللي خلفتها.... !!

الفصل الثالث (أزاح القناع)

((إيمان))

5سبتمبر 2015   القاهرة : مصر

صحيحٌ أن الندم لا يأتي سوى بعد ارتكاب الأخطاء، لكن أحيانًا يتعين علينا الشعور بالندم .... بعد أن نفعل الصواب...

كُنت أعرف أن المواجهة صعبة، بل تكاد تكون مستحيلة من شدة صعوبتها، لكنني واجهتُ هذه العوائق الأخيرة، وتحملتُ آخر الصعوبات من أجل ابنتي، حتى بعد أن تحوّل والداي إلى جمرة نارية توشك على إحراق الأخضر واليابس، وأضحيتُ أنا أقف فوق الأريكة أصرخ بتوّسلٍ أمام والدي الذي يصرخ بوجهي وعلى وشك أن يُفجر رأسي، ووالدتي التي تقف حائلًا بيننا حتى لا يهم زوجها على قتل ابنتهما.

تعالى صوّت بكاء تيا وهي تجلس على طرف الأريكة تشعر بالخوف من أصواتنا العالية، لا أعرف كيف سيضحى مُستقبلها وهي مع أمٍ لا تفعل سوى الكوارث.

-جايبالنا بنت في الحرام يا****

قالها بصراخ تحشرج معه صوّته ورفع معه نعله ليهوي به فوّق رأسي ليرتجف بدني وأنا أقفز فوق الأريكة مبتعدة عنه أثناء تبريري المتوّسل:

-والله العظيم كُنت متجوزة_
-الجواز بدون إشهار يعني باطل .... وحياة ربنا لاربيكي من أول وجديد

هكذا قطع حديثي بصُراخ ويداه تمتدان نحوي لأتدثر أكثر خلف ظهر والدتي وأنا أتأسف لهما:

-أسفة ... أسفة .... والله غلطة ومش هتتكرر تاني

زادت كلماتي من غضبه لأجده يقذف نعله ناحيتي لأنحني بدوِّري حتى لا يرتطم وجهي بقذيفته الأشبه بالراشقات الصاروخية، تبع قذفته بكلماتٍ غاضبة ونظراتٍ جحيمية شعرتُ معها أنها النهاية:

-وهي الغلطة دي ينفع تتكرر تاني!!

توّقف عن الصُراخ مرة واحدة ليضع يده على صدره بعد أن شعر بنغزة تُصيبه بسببي، أخذ يتأوه بصوّتٍ مسموعٍ حتى هرَعت والدتي نحوه وهي تقول بقلق:

-مالك يا عبده ؟

تأوه والدي وهو لا يزال يضع يده على صدره ويقول بوهنٍ وخيبة أمل:

-بنتِك .... بنتِك هتجيب أجلي يا مفيدة

رمقتني والدتي بنظراتٍ حانقة مزدرية وهي تقول بعِتاب:

-ليه كدة بس يا بنتي .... ليه تُحطي وشنا في الطين قُدام الناس ؟

بدأت الدموع تترقرق على وجنتاي من قسوة حديثهما ونبرتهما التي تدل على عدم مسامحتهما لي أبدًا، هذا ما جعل الدماء تتدفق بعروقي مرة واحدة حتى قفزتُ عن الأريكة لأقترب نحوهما بصوّتٍ مُنكسرٍ ومُرتفع:

-هو إنتو فاكرني مبسوطة ؟ .... فاكرني متعاقبتش على إللي عملته ؟ ... إنتو متعرفوش حاجة...

تعالت نبرتي وترقرقت معها الدموع وأنا أفصح عمَ يجيش به صدري بنبرة متحشرجة صارخة:

-أنا كل يوم كُنت بتعذب أكتر من اليوم إللي قبله ..... أنا اتسرقت واتخطفت واتضربت وعشت أيام محدش يقدر يعيشها ..... وكل ده عشان أرجّع بنتي لحُضني .... وفي الآخر تقولولي إنها بنت حرام ؟ ..... أنا إللي عملت الحرام مش هي

أشرتُ على صغيرتي ثم أشرتُ على نفسي لأتوقف بعدها عن الحديث وأحاول التهدئة من نبرتي وأواصل بدموعٍ متزايدة:

-أنا عارفة إني غلط .... وكل يوم بطلب السماح من ربنا .... إنتَ مش قُولتلي يا بابا إن ربنا غفور حليم ؟

تيبس جسد والداي وهما يُطالعانني بنظراتٍ مُبهمة لم أفهمها، لكنني تجاهلتها وواصلتُ الحديث بثباتٍ وصرامة كفكفتُ معها دموعي الشاردة:

-أنا مش هتخلّى عن تيا حتى لو الناس قالت إيه ..... وأسفة لو كُنت حطيت راسكم في الطين .... أنا همشي أنا وبنتي ومش هتشوفو وشنا تاني

شعرتُ برغبة عارمة في الانفجار حتى يتحوّل جسدي إلى العديد من الشظايا، شعرتُ أنني أغرق في مُستنقع آخرٍ لا أعرف ما هو، فالغرق في جميع الأحوال لا يُسبب سوى فقدان الأمل والاختناق، وأنا أشعُر بالاثنين، أشعر أنني أغرق في مُستنقع المحيط.

تحركتُ بخطواتٍ سريعة صوّب ابنتي التي لم تتوّقف عن البكاء حتى انتشلتها وهدهدتها قليلًا وأنا أدلف حجرتي عازمة على الرحيل، يبدو أن العقاب الذي دبّره لي الخالق لم ينتهي بعد.

دلفتُ الحُجرة لأتحوّل إلى بناية مُحطمة وتزداد الدموع على وجنتي لكنني أكفكفها واستنشط مخاطي حتى أدّعي الثبات أمام صغيرتي، حتى وإن كانت لا تفهمني، يكفي أن تعرف أن والدتها ستفعل من أجلها الكثير، ستتحمل فؤادها المُحطم من أجلها.

وضعتُ تيا على الفراش لأتجه صوّب الخزانة وأنتشل حقيبة السفر لأملئها بالأوعية، لكنني لم أضع سوى كنزة واحدة لأجد جسدي يتهاوة مرة واحدة وأنفجر مُجددًا بالبكاء

متذكرة هذه الأيام الصعبة التي مرّت علي والتي لم تنتهي بنهاية جيدة، ليست هذه النهاية التي أردتها، ظننتُ أنني سأهرب من تلك الأهوال لأتنعم في منزلي الدافيء، لكن اتضح أنني أدلف نارًا أخرى من نوّع مُختلف، نارًا لا تحرق الجسد الخارجي كما تفعل النيران عادة، فما تفعله تلك النيران هو إحراق ما يعتمر النفس ويجعلها حية ... الفؤاد.

توّقفتُ عن البُكاء لأرمق صغيرتي بأعينٍ منتفخة وأنفٍ أحمرٍ يسيل منه المُخاط، انتشلتُ المحرمة لأتمخط ومحرمة أخرى لكفكفة دموعي حتى لا تلاحظ تيا بكائي وتبكي هي الأخرى.

كانت ترمقني بنظراتٍ بريئة زيٌنتها عيناها الزرقاوتان الوساعتان، تُحرك قدميها بحركاتٍ عشوائية وفمها الصُغير يُصدر بعض الهمهمات وكأنها تُريد الحديث معي ومواساتي، برائتها الطاغية جعلتني أكتنز بسمة هادئة بين دموعي لأميل بجزعي نحوها أتمعنُ النظر بملامحها الساحرة أثناء مداعبتي لخُصلات شعرها القصيرة حتى توقفتُ عند يدها الصغيرة التي تمسكت بإصبعي.

قبلتُ يدها الصغيرة لأقول بعدها بصوّتٍ يائس:

-معلش بقى يا تيا .... شكل مفيش حد عايزنا .... أنا أسفة

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم أخرجته لتخرج معه المزيد من الدموع وأنا أقول بإصرار:

-عارفة إن إنتِ لسة مش فهماني ... بس عايزاكي تعرفي إني بعمل كل حاجة عشانِك .... عشان نبقى معِ بعض ..... وهفضل أحاول لغاية ما أموت .... عشان محدش هيقدر يبعدنا

قبلتُ يدها مجددًا وأنا أقول بنبرة نابعة من فؤادي:

-عايزاكي تعرفي إن ماما بتحبِك أوي .... وعُمرها ما هتسيبِك أبدًا .... بس لازم نمشي من هنا

-ومين قال إن لازم ؟

داهمتني هذه الكلمات من خلف ظهري ليرتعد بدني قليلًا وأنا ألتفت صوّب مصدر الصوّت لأتفاجأ بوالدتي الواثبة على حافة الباب وكأنها كانت تستمع لحديثي المسموع مع صغيرتي.

اعتدلتُ في جلستي وأنا أكفكف دموعي وأعاود المحافظة على ثباتي قدر الإمكان، وجدتها تجلس بجواري على الفراش لأحني رأسي خجلًا وخوفًا من تقابل عينينا بعد اكتشافهما لهذه الكارثة التي اقترفتها، لن يسلما من ألسنة الجميع بفضلي.

لم أنبس ببنت شفة وبقيتُ أحدق بالأرضية واحساس العار يتملكني، وكانت والدتي ترفع يدها الحانية لتُربت بها على ظهري أثناء قولها المُقرر:

-رجعي شنطتِك مكانها ..... دا بيتِك ... ومش هتخرجي منه غير مع جوزِك

-مفيش حد هيرضى يتجوّزني أصلًا

قُلتها بخيبة أملٍ وأنا أحني رأسي حتى تفاجأتُ بابتسامة والدتي المواسية أثناء قولها:

-وماله .... خليكي هنا في بيت أبوكي ... أهو أحسن بردو....

وضعت يدها على ذقني لترفع رأسي نحوها وهي تواصل بمشاكسة:

-عشان أشبع منِك ومن حفيدتي براحتي

تضخمت أصوات قلبي من كثرة دقها السريع بسبب شعوري بالحيرة والمشاعر المتخبطة، فأنا لا أفهم ما تقوله والدتي وكأنها تتحدث بالروسية.

أبعدتُ يدها بروية عني وأنا أعاود التحديق بالأسفل والمواصلة باعتذار:

-أنا أسفة .... والله العظيم هو إللي ضحك عليا

كادت دموعي تنهمر مجددًا لولا كلمات والدتي الأشبه بدهانٍ يداوي الجروح:

-متعتذريش مننا .... اعتذري من نفسِك اللي اتبهدلت بسببِك .... واعتذري من ربنا عشان يغفرلِك .... وأنا وأبوكي مش هنتخلُّى عنِك أبدًا .... دا انتِ بنتنا الوحيدة اللي طلعنا بيها من الدُنيا

رميتها بنظراتٍ آملة لم تدُم سوّى بُرهة قصيرة حتى عاودت نظرات اليأس تدحضني وأنا أقول:

-بس بابا مش عايز يكلمني

ربتت والدتي على كتفي وهي تُطمئنني:

-معلش .... أبوكي قلبه أبيض ..... هيتضايق شوية وهيرجع يلين في الآخر....

رفعتُ من نبرة صوّتي قليلًا وأنا أسألها بقلق:

-طب والناس ؟

رمقتني والدتي بنظرة دافئة وواثقة أثناء قولها:

-ربنا هو اللي بيحاسب مش الناس .... وإنتِ قولتي إنِك ندمانة ومُستعدة تكفري عن غلطِك

وضعت يدها الأخرى على كتفي لتجعلني أقابل جسدها بمباشرة حتى أستمع إلى كلماتها الهامة:

-إيمان .... أنا عايزاكي توعديني إنِك هتُّوبي بجد .... إوعديني إنِك مش هتمشي وتسافري تاني .... لإيما والله ما هسامحِك أبدًا

أخفضتُ ذراعيها بوعدٍ ونظراتٍ صادقة قُلت معها:

-متقلقيش يا ماما .... أنا مش هسيب البيت ده أبدًا .... وهعمل أي حاجة عشان أتغير .... بس بالله عليكي متحاسبيش تيا على إللي عملته .... بالله عليكي ما تقولي لحد إنها بنت حرام ولا تخلي حد يفكر بالشكل ده .... مش عايزاها تدفع تمن غلطتي

رسمت والدتي بسمة فخورة على ثغرها وهي تُمسد على كتفي متفوِّهة:

-أهي دي بنتي إللي ربيتها وشيلتها على إيدي وهي حتة لحمة حمرا ..... عارفة يا إيمان .... في بنات كتير بيرمو عيالهم في الشارع عشان صوٌرتهم قدام الناس ... بس إنتِ معملتيش كدة ... ومُستعدة تتخلَّي عن كل حاجة عشان متدفعيهاش تمن غلطتِك .... عشان كدة أنا فخورة بيكي....

غيَرت نبرتها إلى أخرى معاتبة متذكرة وهي تواصل:

-صحيح شايلة منِك بسبب إللي عملتيه .... بس طالما هتوٌبي ... يبقى خلاص

أبعدت ذراعها عني لتوٌجهها صوٌب تيا حتى داعبت قدمها الصغيرة بحنانٍ قالت معه :

-حفيدتي هتتربى هنا .... وأنا هقول لابوكي يخلصلها ورقها .... ومتقلقيش، أبوكي هيعتبرها زي بنته بالظبط .... وأنا كمان هحُطها في عنيا

آعادت يدها مكانها لتثب عن الفراش عازمة على إنهاء الحديث بتقرير:

-يلا .... قومي صلي ركعتين شُكر واطلبي السماح .... وتعالي عشان نحضر العشا ونتكلم بالهدواة مع أبوكي.....

لم أستطع تناول العشاء معهما بسبب نظرات والدي المُحتقرة وتجنبه الدائم للحديث معي، أعلم أنه لا يزال غاضبًا مما فعلت، لكنني لن أستسلم في طلب السماح منه،

وطلب السماح من الخالق، أعرف أنني سأعاني أكثر في الأيام القادمة ولن أسلم طوال حياتي من نظرات عائلتي المتعجبة من هذه الإبنة المجهولة، ومن نظرات المُجتمع التي ستوّصمني بالعار فيما بعد، لكنني لن أهتم لهذه النظرات، فما يُهمني الآن، هو أن يُسامحني الخالق، طالما نلتُ الرضا والسماح من الله ومن والداي، فلن يهمني شيءُ آخر، لن تُهمني الأحاديث، ولن تُهمني النظرات، المهم ألا تؤثر هذه النظرات على صغيرتي تيا، لا أعرف حقًا كيف سأخبرها أن والدها الحقيقي يهوديًا صهيونيًا، بل ومتوّرطًا في العديد من الجرائم، من الأفضل أن أحتفظ بهذه الحقيقة وأدفنها معي حتى مماتي، لن أخبر عائلتي حتى.

صحيحٌ أنني تعهدتُ على الصدق الدائم، لكنني كِدتُ أفقد حياتي وأنا أخبرهما أنني تزوّجتُ من ورائهما وأنجبتُ أيضًا، دون أن أفصح عن حقيقة ذاك الذي عبث بمشاعري، ليست جميع الحقائق ذات قابلية للكشف والإفصاح عنها، فمن الأفضل أن نخفي القليل من الحقائق حتى لا تتدمر حياة الآخرين.

أنهيتُ أفكاري وأنا أصعد درجات البناية عازمة على الذهاب إلى منزل جورج والاطمئنان عليه، فبعد أن مررتُ إلى منزله حتى أخبره بآخر المُستجدات، استشفيتُ نظرات والدته المتضايقة وأخبرتني يوسي أنه رحل من المنزل غاضبًا بعد أن رفضت والدته أن يتزوّج من آنابيا، هذا ما جعلني أستشعر أنه الآن يبيت بمنزله وربما آنابيا معه الآن.

طرقتُ على جرس المنزل لأنتظر قليلًا حتى فُتح الباب ليظهر مُسلم أمامي؛ جحظتْ عيناي في صدمة وحيرة وأنا أتأمله ببعض الاشتياق، فأنا لم أره مُنذ عُدنا من العريش.

-مُسلم !! .... إزيَك عامل إيه ؟ .... و ... بتعمل إيه هنا ؟

أنهيتُ سؤالي بفضولٍ جعله يفتح الباب ويدعوّني للدخول لأن جورج بالداخل، أخبرني أنه أتى بعد أن اتصل به جورج وأخبره أن آنابيا قد رحلت من المنزل ولا يعرفان أين هي، وجورج الآن على شفا جرفة من الانهيار، فقد كان يجلس على الأريكة يقوّس ظهره ويدفن رأسه بين راحتيه مُغطيًا بذلك علامات البؤس والحسرة.

أخذ يضرب على الأرض بقدمه وهو يسب ذاته لأنه تسبب بإيصال الأمور لهذه الدرجة، فهو لم يستطع إقناع والديه بها، ولم يستطع الإيفاء بوعوده التي ألقاها اتجاهها، أعلم الآن أنه يشعُر بخيبة أملٍ طاغية، فهذا الإحساس شعرتُ به أيضًا، وأعلم كم أنه يجعلك تشعر أنك ترغب بالاختفاء عن هذا العالم.

قطع مُسلم وصلة ندبه بكلماتٍ محفزة:

-هتفضل تندب كدة زي الولية المتطلقة !! .... يلا قوم ندوٌر عليها .... دي متعرفش حد في البلد

رفع جورج رأسه لتظهر ملامحه الشاحبة ونظرات الضيق والحسرة التي لم أعهدها منه مُطلقًا، فلطالما كانت نظراته مرحة رغم ما تقذفه الحياة بوجوهنا من ضروب المعاناة.

-إيمان .... هي آنابيا كلمتِك ولا قالتلِك أي حاجة ؟

وجه مسلم سؤاله نحوي بملامحه الصارمة التي أعرفها جيدًا، حاولتُ العودة إلى ذاكرتي قليلًا حتى تذكرتُ تلك المكالمة الهاتفية التي أتتني من آنابيا قبل أن أفصح لوالداي عن الحقيقة.

-أه كلمتني .... كانت بتسألني عن الفنادق إللي في مُصر

رسم مُسلم بسمة منتصرة لا أعرف سببها حقًا ولم أستطع أن أعرف حتى بسبب جورج الذي تدخل ليسألني بلهفة:

-وقُولتلها إيه ؟

رفعتُ قامتي بشموخٍ وأنا أجيبه بثقة:

-قولتلها الفُندق بتاع جوز عمتي .... إللي كُنا بنروحه ونلعب فيه في الأكوا بارك براحتنا فاكر

تناسى أوجاعه مرة واحدة ليعود معي إلى تلك الذكريات المحببة لقلوبنا أثناء قوله:

-يااه دي كانت ذكريات .... فاكرة يا بت الست الروسية إللي كنا بنعلمها مصري لغاية ما خليناها تشرشح في الآخر ؟

طغي الحماس على وجهي وأنا أتذكر معه تلك الذكريات:

-أيوة طبعًا .... فاكر إنت بياع الأيس كريم إللي كان بيخاف مننا ويديلنا إللي احنا عايزينه كل ما نقوله إننا نعرف المدير ؟

لوَّح بيده وهو يُعبر عن مدى عشقه لتلك الذكريات وما كاد ينغمس معي بالحديث حتى أوقفنا مُسلم بصوّتٍ مُرتفعٍ صارمٍ آعادنا للواقع المأساوي:

-ما تكتم إنت وهي خلونا نفكر في المُهم .... إحنا دلوقتي_

كاد يواصل الحديث بجدية قطعها جورج بتكملة:

-هندوّر على آنابيا عن طريق التليفون .... عارف أنا الموضوع ده

أنهى الحديث بثقة لا أعرف لما شعرتُ معها أن مُسلم سينفجر، حيث كان جورج يواصل وهو يمدُّ يده نحوي متفوّهًا:

-هاتي الرقم إللي كلمتِك منه آنابيا .... أنا هخلي حد في المباحث يتتبعه ويعرف هي فين

أخرجتُ هاتفي وأنا أعبر عن إعجابي بتلك الخطة التي لا أعرف أننا نستطيع فعلها، صحيحٌ أننا اقتحمنا أكبر مجمع للطب بفلسطين، لكننا لسنا خارقين لدرجة البحث والتتبع، ثم أننا لا نعرف أحدًا يعمل في المباحث العامة:

-فكرة حلوة بس هنتتبعه إزاي ؟ .... تعرف حد في المباحث ؟

كاد مُسلم يتحدث للمرة التي لا أعلم عددها لكن جورج قاطعه مجددًا بحديثه:

-لا معرفش ... بس هنحاول .... ولو منفعش، هدوّر عليها في الاقسام والمُستشفيات

فكرتُ قليلًا في حديثه وما قالته لي آنابيا بتلك المكالمة الهاتفية حتى مسدتُ على ذقني وأنا أسأل بفضول:

-أيوة بس هي ليه سألتني لو أعرف فندق كويس ولا لأ ؟

رفع مُسلم يده ليوقفنا عن الحديث كي نستمع له لكن جورج لم يسمح لذلك وهو يقول بلامبلاة لحديثي:

-عادي يعني يا إيمي .... تلاقيها بتسأل عشان لو عايزة تصيِف ولا حاجة .... وبعدين احنا مالنا

أطبق مُسلم على شفتيه بغضبٍ لا أفهم سببه حتى وجدناه يُطلق الأدخنة النارية من أنفه ويهتف بوجهينا بصوّتٍ مرتفعٍ قد نفد صبره:

-إنت يا جاموسة إنت وهي .... هي آنابيا تعرف مكان تاني في مصر عشان تروحله ؟ .... أكيد راحت للفُندق إللي إيمان قالتلها عليه

أنهى كلماته بصُراخ غاضبٍ جعلني أرفع حاجباي بإعجابٍ لهذا التفكير الجُهنمي، كيف لم يخطر ببالنا هذا الأمر ؟؟

-أه صحيح .... ما يمكن تكون راحت هناك فعلًا

علّق جورج بتلك الكلمات بأعينٍ غير مُصدقة جعلت مُسلم يُغلق عينيه بنفاد صبرٍ أنهاه بوضعه لذراعه على كتِف جورج حتى يسأله بعد أن حاول التهدئة من أعصابه التي فلتت .... على الأغلب بسببنا:

-جورج .... أنا عايز أسألك سؤال

انتبه جورج لسؤاله ليواصل مُسلم:

-هو الغباء وراثة عندكم في العيلة ؟

لم يفهم جورج سؤاله كما لم أفهمه أنا أيضًا؛ وجدتُ جورج يُقطب حاجبيه بحيرة وهو يُجيب على ذاك السؤال الغريب الذي يبدو وكأنه يحمل مزيجًا من الإهانة ... والاستنتاج:

-معرفش ... بس ليه ؟

تدارك مُسلم الأمر ودفعه خارج المنزل متفوّهًا بتقرير:

-طب يلا روحلها وخُد إيمان معاك .... أنا هفضل هنا عشان اقنع أهلك زي ما اتفقنا

أومأتُ برأسي أنا وجورج لنرحل بعدها من المنزل ونستقل السيارة الخاصة بجورج لننطلق بها فوّرًا صوّب ذاك الفندق الواقع بمصر الجديدة، وببقعة زاخرة بالمباني الحديثة والمناظر الخلابة.

أوقفنا السيارة بالقُرب من بوابة الفُندق لأتصل بزوج عمتي وأخبره بمجيئنا حتى يسمح لنا بالولوج بسهولة دون الخوّض في العديد من الإجراءات، وبعد أن استطعنا أخيرًا توّغل الفُندق، هرعنا فوّرًا صوّب حُجرة الاستقبال وتحدثنا مع الموظف حتى يُخبرنا عن الحجرة التي صعدت بها آنابيا، بالطبع لم يُعطينا هذه المعلومة لولا أن أكد عليه جورج أنه زوجها ويُريد أن يفاجئها.

أخبرنا الموظف أنها بالحجرة مئة وعشر، فهرعنا بسرعة صوّب المصعد وكبسنا على الأزرار حتى نصعد الطابق الأول، ما إن توّقف المصعد حتى أخذ جورج يهروّل بأقصى ما لديه على هذا الممر الطويل ذو الجُدران الرمادية واللمحة العصرية، من سرعة هرولة جورج وأنفاسه المتلاحقة لم أكن أعرف كيف ألاحقه وأخطو على نفس خطواته.

من كثرة تشتتنا وقلقنا، بات البحث عن هذه الحُجرة في غاية الصعوبة، لكننا في النهاية عثرنا على الحُجرة المرادة وأخبرتُ جورج حتى يهدأ ويجعلني أبدًا الحديث معها حتى لا تُغلق أبوابها بوجهه وترفض الحديث نهائيًا.

حاولتُ التهدئة من روعي والتنظيم من أنفاسي قدر الإمكان وأنا أطرق على الباب وأنتظر قليلًا حتى فُتح الباب فتحة صغيرة تبعها ظهور آنابيا وهي ترتدي منامة قصيرة كشفت عن ساقيها مع شعرها الذهبي الذي كانت تعقصه لأعلى بطريقة عشوائية.

رسمتُ بسمة هادئة وأنا أرحب بها ببعض الارتباك:

-مرحبًا آنابيا ..... هل لي أن أتحدث معكِ قليلًا ؟

رمتني بنظراتٍ مرتبكة مترددة أنهتها بفتحها للباب والسماح لي بالدخول، لكنني دلفتُ القليلُ من الخطوات ليتبعني جورج ويظهر من وراءي أمام آنابيا التي اتسعت حدقتيها بمزيجٍ من الإنكار وعدم الرغبة في الحديث:

-ماذا تفعل جورج ؟ .... ألم ننتهي من هذا الأمر

قالتها بحدة أعلم جيدًا أنها أخفت بها فؤادها الهش المتشوّق للعودة إليه، وقبل أن تُقرر الرحيل من الحجرة والتهرب من نظراته العاشقة، سبقتها صوّب الباب لأغلقه بسرعة وأمنعها من ترك الحُجرة قبل الحديث مع جورج.

-أعتذر صديقتي .... لكن ... يجب أن تتحدثا

قُلتها بأسفٍ بالغ بعد أن رمقتني آنابيا بنظراتٍ حانقة شعرَت معها بالغدر، أما جورج، فكان يتجاهل نظراتها المزدرية وهو يقترب منها ويطالعها بنظرات عاشقة قال معها :

-أخبرتني مُسبقًا أنني لا أستطيع العثور على عائلة جديدة .... لكنني أستطيع العثور على زوجة أخرى

بقيت آنابيا في حالة من الصمت والتيه حتى واصل جورج:

-وأنا أخبركِ أن ذلك مُستحيل .... فلا يوجد سوى آنابيا واحدة فقط .... وهي توجد هنا .... ولن تفارقه أبدًا

آشار على فؤاده مع آخر كلماتٍ له حتى كِدتُ أتقيأ من تلك الرومانسية المُفرطة، لكن آنابيا كانت تتابعه بارتباكٍ وترددٍ وكأن لسانها قد توٌقف عن الحركة.

-جورج ... هذا لا يجوز ... عائلتك_

كادت تواصل اعتراضها لولا جورج الذي أوقفها بكلماتٍ صارمة وخطواتٍ تقترب نحوها:

-أنتِ هي عائلتي ..... أنتِ هي الأنفاس التي أتنفسها .... لمَ لا تفهمي أنني لا أقدر على العيش بدونكِ

طالع عيناها الخضراء بإمعانٍ وهو يواصل بنبرة عميقة:

-ما الذي يقوله العالم على الجُندي الذي يترك سيفه ويُقرر الانسحاب من المعركة في آخر لحظة ؟

أحنت رأسها بحيرة قالت معها بصوٌتٍ خافت:

-لا أعرف ... يقولون أنه ... خائن

أومأ جورج تصديقًا على كلماتها التي آضاف عليها:

-هذا صحيح .... وأنا أرفض أن أضحى خائنًا ... وأرفض أن أترك المعركة خاسرًا .....

قبض على كفها مع آخر كلماته التي كانت:

-هيا آنابيا .... لا تتركيني في مُنتصف المعركة .... أقسم أن الأعداء سيقتلونني لأنني لا أحمل سيفي الذي أحارب به

لم أكن أفهم حديثه المُبهم لكنني شعرتُ أن آنابيا تفهم ما يقول وهي تُجيبه ببعض التردد وبنفس نبرته الغامضة:

-ماذا إن لم ننتصر ؟ .... ماذا إن لم يوافق والديك ؟

رسم بسمة مُطمئنة على ثغره وهو يقول:

-معركتنا لا يوجد بها الهزيمة .... أما الانتصار ... أو الانتصار ..... سنحاول سويًا حتى يرضخا .... ولا تقلقي ... والداي ليسا بهذا السوء ... هما فقط غاضبان لأنني تزوّجتُ من وراء ظهريهما

بقيت ساكنة لا تتحرك، أو ربما لا تعرف ما الذي عليها فعله، فجورج يُضيق عليها الخناق بكلماته العاشقة التي تجعلها ترضخ عنوة، يجعلها تنجذب إلى ابتسامته المطمئنة الساحرة حتى ولو كان يجذبها إلى التهلكة، لا أعرف كثيرًا عن العشق والغرام، خاصة بعد تجربتي الفاشلة، لكنني أعرف جيدًا أن قلبيهما متعلقان ببعضهما بعضًا.

ابتعد جورج عنها ليُخرج خاتمًا من جعبته ويُقربه نحوها بطريقة رومانسية شاهدتها كثيرًا بالأفلام، كان يقول لها بلكنة مرحة عاشقة لو كنت بموْضع آنابيا لمَ استسلمت فوْرًا بسببها:

-هيا سينيوريتا .... ارتدي خاتمكِ .... وعودي معي إلى ساحة المعركة.....

((مسلم))

5سبتمبر 2015 القاهرة : مصر

تعلمتُ طوال حياتي أن ظهورِك أمام شخصٍ ما صدفة، هو لأن هذا الشخص يحتاجك بطريقة أو بأخرى، ولأنني أؤمن بذلك، ساعدتُ إيمان لأول مرة، وساعدتها حتى عثرت على ابنتها، والآن أساعد ابن خالتها ليس لسببٍ لا أعرفه، بل لأنه أصبح صديقي الذي عوّضتني به الحياة بعد سنواتٍ من الوحدة والغُربة، فأنا لم أحظى بأي صديقٍ طوال حياتي، حتى قبل سفري وهجرتي.

حاولتُ الحفاظ على استقامتي متذكرًا بعض القوانين التي من شأنها أن تساعدني في مُهمتي، ومن بين تلك القوانين : كن صريحًا وموٌجزًا، أنظر إلى المعني بإمعان، كن هادئًا في انفعالاتِك، وواجههم بقوة وثبات، ويجب أن أتذكر دائمًا أنني أعامل أشخاصًا عاطفيين يتخبطهم الهوّى ويسوقهم الكبرياء والغرور مثلما قال ديل كارينجي.

دققتُ الجرس مرة واحدة وانتظرتُ قليلًا أمام الباب حتى فتحت لي والدة جورج ورمقتني بنظراتٍ مُستفهمة، وقبل أن أنبس ببنت شفة وجدتها تعتذر لي وتقول بأدب:

-أهلًا يا أستاذ مُسلم ..... جورج مش في البيت ومعتقدتش إنه هيرجع تاني

كانت نظراتها مُقتضبة ودموعها تتكوّم على عينيها حُزنًا على فلذة كبدها، انتظرتني حتى أرحل من أمامها وتستطيع هي غلق الباب لكنني اعترضتها بكلماتٍ مُهذبة:

-إزي حضرتِك يا مدام تفيدة .... أنااا .... مش جاي عشان جورج .... أنا جاي اتكلم مع حضرتِك ومع عمو .... ده بعد إذنكم طبعًا

رميتها ببسمة هادئة تنُم عن الثقة والثبات، مع كلماتٍ مُنمقة غير ملجلجة أو متوٌترة، ولمحة التوّسل البسيطة في عيناي جعلتها توميء برأسها إيجابًا وتسمح لي بولوج المنزل وهي لا تنفك ترميني بنظراتٍ حائرة ربما استشعرت معها ما أتيتُ من أجله، ففوٌر جلوسي على الأريكة وجدتها تقول باستعلاء:

-لو جاي عشان تستسمحني في جوازة جورج مع إللي ما تتسمى .... فإنسى .... أنا لا يُمكن أوافق إن ابني يتجوّز واحدة لا ليها أصل ولا فصل .... بكرة تلهف إللي وراه وإللي قُدامه

كلماتها المُندفعة الصارمة وتطبيق أصابعها مع بعضها ورأسها المرفوع باعتزاز أكدوا لي أنها امرأة واثقة لا تؤثر بها الكلمات بسهولة، وقبل أن أنبس ببنت شفة وأبدأ خطتي، جاء والد جورج السيد ميشيل ببسمته المرحة ويداه التي امتدتُ تباعًا لمصافحتي، لكنه ينقلب مئة وثمانون درجة وهو يجلس على الأريكة واضعًا القدم فوق الأخرى وراسمًا علامات الصرامة المُزيفة على وجهه، للوهلة الأولى تظنه شخصًا جادًا لا يعرف المُزاح، لكنه مُثل جورج تمامًا، لا يعرف شيئًا سوى المُزاح، فحتى نظراته الصارمة كانت مبالغة بها لدرجة الضحك.

تنهدتُ تنهيدة عميقة وأنا أسترجع قاعدة تقول : تحقيق البلاغة في القول، يعتمد على إيمانك فيما تتحدث.

-أنا عارف إنكم خايفين على جورج .... وأنا لو مكانكم كُنت هخاف زيكم بالظبط

تقدمتُ بجذعي وأنا أواصل بنبرة بليغة:

-بس خلونا نشوف الأمور بزاوية تانية....

رفعتُ يدي حتى تدعم حديثي:

-دلوقتي جورج بيحب آنابيا .... ومستحيل يتخلُى عنها .... أصله زي حضرتِك بالظبط .... عِندي وبيعمل إللي في دماغه

أنهيتُ الحديث بنبرة مرحة ثابتة جعلت السيدة تفيدة ترفع قامتها بفخرٍ قالت معه:

-إنت هتقولي ... دا ابني وانا عارفاه وعارفة دماغه الناشفة

انتهزتُ تصديقها على كلماتي وأنا أتذكر قاعدة أخرى تقول : الصدق لا يُمكن أن يكون صادقًا إلا إذا جعلت الآخرين يُصدقون حديثك:

-بالظبط كدة .... بعدين أنا عايز أسألكم سؤال ؟ ..... ليه بتقولو إن آنابيا ممكن تسرق جورج وتاخد إللي معاه ؟ ..... هي السرقة مش موجودة غير برة .... ما يمكن إللي يتجوّزها من هنا تعمل نفس الحاجة

انفعلت تفيدة إثر كلماتي وهي تلوّح بسبابتها أمامي باعتراض:

-منا عشان كدة كُنت عايزة اختارهاله بنفسي

-حتى لو حضرتِك إللي اختارتيها .... مش يمكن تحصل مُشكلة تانية ما بينهم ويسيبو بعض ؟

توقفت عن الحديث لتستمع إلي بإمعان:

-تعرفي حضرتِك إن نسبة الطلاق في مصر زادت بنسبة 83 % من سنة 1996 ؟ ..... أكيد مش كل دول اتجوّزو خواجات

تيبس جسدها وتبلم وجهها لعدم قُدرتها على الرد، تدخل السيد ميشيل في تلك اللحظة وهو يقول ببعض الجدية:

-يا بني ده بردو ميبررش إن جورج يروح يتجوز من ورانا ولا كأننا مش موجودين في حياته

أنهى الحديث باندفاعة ناجمة عن كسرته مما فعله ابنهما، في تلك اللحظة قررتُ استخدام قانون الصدق، وهو من أكثر القوانين فعالية في التأثير على الآخرين، حيث يتمثل هذا القانون في ذكر السلبيات أولًا والتصديق عليها، ثم تدعيمها بالإيجابيات، كما حدث بالحملة الدعائية لسيارة فولكس.

-أكيد طبعًا يا عمو .... جورج غلط لما أخذ قرار زي ده من وراكم .... وغِلط تاني عشان كِدب عليكم....

أرخيتُ ظهري للوراء لأواصل بنبرة آملة:

-بس في مثل بيقول .... كل عقدة وليها حلال

تراخت عوالم تفيدة وهي تسأل باستسفار:

-يعني نعمل إيه دلوقتي ؟

تلجلج قلبي بالانتصار بعد أن تأكدتُ أنني على وشك الوصول إلى مرادي، بقي فقط شعرة واحدة، هذه الشعرة بدأت حينما قُلت بتقرير:

-دلوقتي مقدمكوش غير انكم تشوفو العروسة .... ولو حسيتو بالقبول .... يبقى نستعوِّض ربنا ونعمل فرح تتباهو بيه قُدام الناس .... ولو لقدر الله مفيش قبول وحسيتو إنها مش تمام ... يبقى تفهمو جورج بالهداوة وكله يروح لحال سبيله

طالعاني بنظراتٍ مبهمة تتبادل فيما بينهما حتى أردف ميشيل:

-وهنشوفها إزاي ؟

اتسعت بسمتي هذه المرة وأنا أخرج هاتفي متفوّهًا:

-هتشوفوها دلوقتي....

أجريتُ مكالمة هاتفية سريعة مع جورج لأخبره أن الأمور تحت السيطرة وأن عليه أن يصعد درجات البناية ومعه آنابيا حتى تتم الأمور كما خُطط لها، فما هي إلا لحظاتٌ قصيرة حتى استمعنا إلى جرس المنزل لأهرع فوّرًا نحو الباب وأفتحه لأفسح المجال بعدها لكلٍ من جورج وآنابيا التي ولجت المنزل بخطى مترددة تبعتها إيمان التي وقفت بعيدًا لتراقب ما سيحدث بفضول.

تقدم جورج أولًا نحو والدته ليقف قليلًا أمامها ثم يُقبل رأسها متفوّهًا باعتذار:

-أسف يا ماما .... مكنش قصدي اعلي صوّتي عليكم....

تنهد تنهيدة عميقة ثم وجه نظرة عابرة صوّب آنابيا التي بادلته بابتسامة هادئة طغى عليها ارتباكها، عاد جورج بعدها بنظراته صوّب والديه ليواصل:

-أنا بحبها ... بحبها أوي

رسم والده بسمة بلهاء على ثغره وهو يتأمل آنابيا متفوّهًا بعدم تصديق:

-بقولِك إيه يلا .... هي دي العروسة ؟

أومأ جورج إيجابًا ليواصل والده:

-هي أمها لسة عايشة ؟

نفى جورج برأسه لتذبل عوالم ميشيل وهو يواصل:

-يخسارة

رمته تفيدة بنظراتٍ نارية جعلته يُحمحم بتوّترٍ قبل أن تقترب بعدها نحو آنابيا تتفحصها من أعلاها لأسفلها وتُملس على خُصلات شعرها الذهبية التي أعتقد أنها ظنتهم صناعيين، ستقع آنابيا مع حماةٍ تجعلها تفهم المعنى الحقيقي لكيد الحماوات.

-إنتِ عندِك كام سنة يا شاطرة ؟

طالعتها آنابيا بإبهامٍ وحيرة لأنها لم تفهم ما قالته حتى تدخل جورج بينهما مُفسرًا:

-مش هتفهم يا أمي .... مبتفهمش عربي

تدخل والده مُجددًا وهو يقترب نحو آنابيا ويقف بجوارها حتى يقول بمرح:

- je m'appelle michelle

ربت بعدها على كتِف جورج ليسأله ببلاهة تجاهل معها نظرات زوجته النارية:

-تعالى هنا يلا .... يعني إيه حما بالفرنساوي ؟

ابتسمت آنابيا اثر طريقته المرحة في الحديث وكانت تفيدة تشتعل من الغيظ من تصرفات زوجها الذي من المُفترض أن يتفق معها في رفضهما لهذه العروس، وقبل أن تنفجر تفيدة قررتُ أن أتدخل ببعض الجدية:

-ها يا مدام تفيدة .... آنابيا مش هتلاقي في طيبتها وحنيّتها ..... ومن معرفتي بيها ... أضمنلِك إن معدنها نضيف

تدخلت إيمان هذه المرة لتردف بتوّسلٍ وهي تتشبث بذراع خالتها:

-عشان خاطري بقى يا خالتو وافقي....

بقيت تلح عليها بطبيعتها المزعجة التي أعرفها حتى نفد صبر السيدة تفيدة وأطلقت زفيرًا مُعترضًا من جوفها رغم كلماتها المؤيدة:

-ماشي ... موافقة .... بس هنعمل فرح الأول.....

((جورج))

10سبتمبر 2015 دار الدفاع الجوي / القاهرة : مصر

لذة النهاية، لا تضاهي لذة أي طعامٍ في هذا الكوّن، فبعد الشقاء والمعاناة، ها قد أتت تلك اللحظة التي أحلم بها، حسنًا، لم أكن مُعذبًا في حياتي لهذه الدرجة، لكنني حظيتُ بمكافئتي التي كافئني بها الله، حظيتُ بهذه العينان الخضراوان الساحرتان، وذاك الشعر الذهبي الذي يطغي بريقه على بريق النجوم.

صدحت أصوات الأغاني الرومانسية الهادئة بعد أن أنهينا فقرة الرقص والاحتفال، وأتت تلك اللحظة التي ينتظرها جميع المعازيم من بينهم أنا، لحظة تناول الطعام.

وُضع أمامنا شتى أنواع المأكولات الشرقية التي أكدت والدتي على وجودهم بسبب اعتزازها بهوٌيتنا العربية، وكانت آنابيا بجواري تُملس على رداءها الرقيق الذي حرصتُ على جعله مُحتشمًا قدر المُستطاع، فلن أسمح لأحدهم أن يلتفت لجمالها سواي.

-لا أصدق أننا نحتفل بزفافنا .... كان هذا حُلمًا من أحلامي المُستحيلة

قالتها بلهفة طفولية جعلتني أتأمل بسمتها بهيامٍ قُلت معه باستذكار:

-وأنا أيضًا .... لكنه كان حُلمي لفترة مُؤخرة .... الفترة التي رأيتكِ بها أول مرة

توٌردت وجنتيها بخجلٍ وهي تبتسم لي ابتسامتها الرقيقة وتصمتُ لبُرهة قصيرة قبل أن تُحيط ذراعي بيدها وتُخبرني بلهفة:

-أخبرتني مُسبقًا أنني أشبه عُبلة .... وأنت عنترة بن شداد أليس كذلك ؟

أومأتُ رأسي إيجابًا وأنا أتذكر هذه الذكريات حتى قالت:

-إذا لمَ لا تُخبرني بتلك القصائد التي كان يقولها عنترة .... ألم تقل أنه كان شاعرًا ؟

ابتسمتُ بإعجابٍ من تذكرها لكلماتي رغم أنني أحبطٌها نوٌعًا ما بصدقي:

-وأنا أيضًا أرضتُ أن أترجم لكِ بعض قصائده إلى الفرنسية .... لكنني تذكرتُ أنني لا أفهمها بالعربية من الأساس

قهقهت بمرحٍ على حديثي الصادق الذي يُعرب عن مدى جهلي باللغة العربية، وبعد بُرهة وجيزة من النظراتٍ المُحبة المتبادلة بيننا، حدقتُ بعينيها بنظراتٍ عاشقة تغرق

في بحرها المُهلك، فأفضل أنواع الهلاك هو الهلاك فيمن تُحب، كُنت على وشك أن أغرقها بقصائدي الفرنسية الخاصة وأنا أحدق بعينيها البراقة وابتسامتها المتلهفة الطفولية، لكن الرياح تأتي دائمًا بما لا تشتهيه السُفن، ففي ظل هذه الجلسة الرومانسية، شعرنا بطيف أحدهم يُظلل علينا جلستنا الهائمة ويظهر معه صوّتٌ أنثوي أعتقد أنني أعرفه جيدًا .... بل ولا أريد أن استمع إليه الآن.

-ألف مبروك يا مستر جورج .... أتمنى الفرح يكون عجب حضرتك

شعرتُ بالاختناق وأنا أزدرد ريقي بصعوبة وتنهمر قطرات العرق وأنا أرمق ماريان _ التي رفضتها مُسبقًا_ تقف أمامي وترميني ببسمة ودودة تحمل كمًا من الخُبث والدهاء، يبدو أنها تذكرت معاملتي لها أثناء تقديمها على الوظيفة، يبدو أنها لم تنسى أنني كتبتُ بها مُذكرة كفيلة بتدمير مُستقبلها ومنعها من العمل في أي شركة عريقة، فأنا أكتب دائمًا هذه المُذكرات وأرسلها لأصدقائي أصحاب الشركات حتى نُحذر بعضنا من بعض المؤظفين، ونستطلع الأفضل من بينهم، أعتقد أنني على مشارف دفع ثمن ما فعلته مع الموظفين.

-مُتشكر أوي يا مدام ماريان

صكت على أسنانها بغضبٍ وهي تُصحح كلماتي:

-أنسة .... ومُنظمة حفلات كمان....

اقتربت نحوي خطوة واحدة شعرتُ معها بالرُعب من نظراتها الانتقامية التي آضافت عليها بكلماتها:

-صحيح مش الشغلانة إللي اتمنيتها ... بس يلا .... على الأقل خليتني أشوف ناس كان نفسي أشوفهم من زمان

ضاقت الهوة أكثر وشعرتُ أن ليلة العُمر ستنتهي حتمًا بكارثة، فأنا لا أعلم كم موظفٍ دمرتُ حياته يجلس بين المعازيم الآن ويدعو ربه أن تهطل الأمطار الغزيرة أو تحدث كارثة كُبرى لينتقموا مني.

ابتعدت ماريان عني ببسمتها المُرعبة التي قالت معها:

-فرصة سعيدة يا مستر جورج .... وأتمنى نتقابل مرة تانية

ابتعدت ماريان من أمامي لأتنفس بأريحية وكأنها كانت حِملًا ثقيلًا يجثو على صدري، وجدتُ إيمان تقترب نحونا حاملة معها تيا وأعتقد أنها تُريد التقاط صورة معنا قبل أن يتزاحم المعازيم حولنا ويمنعونها من تلك الفُرصة، كانت آنابيا تطالعني بحيرة وتعجبٍ من تلك الفتاة التي لم تفهم حديثها لكنها استرفدت من نظراتي أن هناك انتقامًا قديمًا بيننا، وقبل أن تسألني آنابيا أي من الأسئلة، رفعتُ يدي قُرب إيمان حتى تنتبه لي وأنا أقول بجدية ورهبة:

-تعالي يا إيمان بسُرعة....

أشرتُ بيدي صوّب ماريان التي وُلتني ظهرها وهي تتحدث مع بعض المُوظفين، كُنت أتحدث بأنفاس متلاحقة وخوفٍ عارمٍ مما قد يحدث:

-شايفة الست إللي هناك دي ؟...

قطبت إيمان حاجبيها بحيرة وهي ترمق ماريان وتوميء برأسها إيجابًا لأستكمل حديثي:

-روحي جبيها من شعرها واحبسيها في الحمام بسُرعة قبل ما تعمل حاجة

اتسعت حدقتي إيمان بصدمة من حديثي وطفقت تقول:

-إنت بتهزر!!

لوّحتُ بيدي وأنا أهتف بصدقٍ ورهبة:

-مش بهزر ... بقولِك الست دي ناويالي على شر .... أنا تقريبًا دمرتلها مُستقبلها ....

تلفتُ حوّلي بذعرٍ وعدم ثقة قُلت معها برجاء:

-يا نهار أزرق .... ده مش بعيد الموّظفين إللي رفدتهم كلهم هنا

قهقهت إيمان بسُخرية على حالي وطفقت تُربت على ظهري بطمأنينة:

-إهدى يا جورج .... إن شاء الله مفيش حاجة هتحصل .... أنا هروح أشوف مُسلم فين عشان اتصل بيا وكان عايزني.....

ـــ

((إيمان))

10سبتمبر 2015 دار الدفاع الجوي / القاهرة : مصر

لا أعرف إن كانت حقًا هذه هي النهاية، أم أن للقدر رأي آخر، فجميع الكوارث والعوائق قد انزاحت أخيرًا عن الطريق، حتى أن البهجة عاودت تجد طريقها نحو حياتي البائسة المليئة بالحظ السيء.

كان الزفاف يسير على قدمٍ وساقٍ منذ بداية اليوم، من كثرة سعادتي ظننتُ أنه زفافي أنا وليس زفاف جورج، صحيحٌ أنني أشعُر بالضيق لأنني لن أحظى بليلة كهذه، لكن هذا لا يُهم، فابتسامة واحدة من ثغر صغيرتي بالنسبة لي أفضل من مئة حفلة الزفاف.

اتصل بي مُسلم وأخبرني بنبرة فاترة غامضة بأنه يريدني خارج القاعة، لا أعلم ما هذا الطلب الغريب، لكن نبرته الغامضة حفزّت فضولي وجعلتني أوافق على مقابلته، لو لم أكن على معرفة بمُسلم لمَ ظننت أنه ينوّي اختطافي خاصة ونحنُ بالمساء.

قررتُ أولًا أن أذهب إلى جورج وأسأله عن آخر مرة رآى فيها مُسلم لعله يسترفد القليل من غموضه نظرًا لكونه يقرأ لغة الجسد بمهارة، لكن جورج فاجئني بنظراته المصدومة والخوف البادي على ملامحه وكأن أحدهم سيأتي لقتله هذه الليلة.

بعد أن طمأنته بكلماتي قررتُ تجاهل فكرة سؤاله والسير قِدمًا خارج قاعة الزفاف تنفيذًا لمَ قاله لي مُسلم، فمُسلم لم يظهر أبدًا بين المعازيم، لا أذكُر حتى أنني رأيته سابقًا يسير بين العامة، فربما هو شخصية انطوائية كما أخبرني جورج.

على كلٍ، مررتُ أولًا بوالدتي لأترك معها تيا بدلًا من حملي لها طوال مكوثي هنا، فأنا أريد أن أثبت للعالم أنني لا أخجل من وجود تيا بحياتي ولن أسمح أن ينعتها أحدهم بسوء.

تركتُ تيا مع والدتي وأخرجتُ هاتفي لأعاود الاتصال بمُسلم الذي يُجيبني بكلماتٍ مُختصرة أكد معها على خروجي من القاعة، وعندما نفذتُ كلماته، وجدته يرتدي قميصًا أسوّدًا فُتحت أزراره العلوية بطريقة عشوائية ومعها بنطالٌ رمادي اللون أعطاه مظهرًا جذابًا، كان الشرود يطغي على وجهه وهو يُدخن من لفافة تبغه وينتظر مجيئي على أحرٍ من الجمر.

ما إن انتبه لوجودي حتى أطفأ لفافة تبغه كي لا تُضايقني الأدخنة، وأخذ يعتدل في وقفته وهو يُطالعني بنظراتٍ تزداد غموضًا.

-نعم يا مُسلم ... عايزني في إيه ؟ .... ومش عايز تدخل القاعة ليه ؟

تنهد تنهيدة عميقة تبعها بنظرة متعمقة سأل معها مُستذكرًا:

-مش إنتِ كنتِ عايزة تعرفي أنا ساعدتِك ليه ؟ .... أنا بقى جاي عشان أقولِك

شُحب وجهي واختفت الألوان من معالمي، حتى أنني ظننته يعرفني مُنذ قديم الأذل، وأنه أحبني وأنا طفلة صغيرة ولم يُصدق أنه يراني بعد هذه السنوات، لهذا السبب قام بمساعدتي.

خرجتُ من تلك الأفلام التي رسمتها بذهني نظرًا لكوّني أعمل كمخرجة للأفلام الوثائقية وتخرجت من المعهد العالي للسينما، خرجتُ من تلك الأفلام على صوّته الهاديء ويداه التي كانت تتحركان بآلية نحو جعبته حتى أخرج حافظة نقوده وعبث

بها قليلًا إلى أن ظهرت صوّرة صغيرة هشة أوراقها وكأن صاحبها كان يمسك بها حتى تتبلل بعرقه.

مدٌ هذه الصورة قبالتي لتزداد عوالمي اذبهلالًا وأنا أرى تلك الفتاة العشرينية التي تبتسم بعذوبة أظهرت ملامحها البريئة، وما زاد ذهولي أكثر هو نبرة مُسلم الصادقة، التي أراها لأول مرة:

-دي ليان .... مراتي

اتسعت حدقتاي في صدمة إثر حديثه مما جعلني أسأل:

-إنـ... إنت متجوز ؟

-كُنت ... كُنت متجوٌز

هكذا آجاب على سؤالي لتزداد حيرتي أكثر خاصة وأنا أستمع إلى نبرته التي تحوٌلت إلى حُزنٍ دفين:

-كانت شبهِك أوي .... نفس ضحكتِك ... نفس هزارِك .... ونفس إصرارِك على أي حاجة بتعمليها....

رسم بسمة مشتاقة تحمل قليلًا من الانكسار وهو يواصل أمام حيرتي:

-حتى تهوٌرِك .... كل حاجة فيكي كانت بتفكرني بيها....

تلاشت بسمته المشتاقة لتتحوٌل إلى أخرى مُحطمة تحمل طِنًا من الرغبة بالبكاء أثناء قوله:

-إلا حاجة واحدة بس ..... إن أنا مقدرتش أساعدها

تيبس جسدي على الأرض وأنا أطالع دمعته الشاردة التي انحدرت على وجنته وجعلت ذهولي يزداد أضعافًا، هذه أول مرة أراه فيها يبكي، أو أراه حتى يتكلم بهذا الوضوح، أشعر أن ما سيقوله سيجعل حياتي تنقلب مئة وثمانون درجة.

-ماتت هي وعيلتي كلها .... في يوم واحد .... اليوم ده كان يوم فرحي...

أخذت تنهمر المزيد من الدموع على وجنتيه وهو يواصل بتذكرٍ أليم:

-اليوم ده كُنت فاكر إنه هيبقى أحسن يوم في حياتي .... كُنت فاكر إني هعيش مع ليان العُمر كله ... لغاية ما .... لغاية ما النار قادت في القاعة .... وأنا ساعتها كُنت برة عشان ... عشان العربية كان فيها مُشكلة.....

توّقف برهة ليلتقط أنفاسه ويحاول استجماع طاقته وهو يقول:

-حاولت أدخل وسط النار واساعدهم .... بس معرفتش ... وليان .... ليان كانت جوة .... فستانها اتحرق، ورجلها كمان .... مكانتش قادرة تتحرك .... ولما شافتني قُدامها ... قعدت تنده عليا ... كانت عايزاني اساعدها .... بس أنا...

ضرب على صدره وهو يواصل بنبرة باكية مقهورة:

-مقدرتش .... مقدرتش أدخل جوة النار .... شوفت النجفة اللي ولعت وهي بتنزل على دماغها .... شوفتها بتتحرق قُدامي هي وعيلتي كلها ..... بعدها أغمى عليا .... ولما فُوقت قالولي إن أنا الوحيد إللي عايش ... كلهم ماتو

تذكرتُ وقتها تمتمته باسم ليان عندما احترق المركز التجاري وكيف فقد أعصابه كليًا حتى ظنناه يعاني من فوبيا النيران، الآن أدركت سبب ارتعاده في تلك الليلة، كم شعرتُ برغبة عارمة لوضع يدي على فمه حتى يتوّقف عن الحديث، فإن كانت الذكريات تؤلمه لهذه الدرجة، فمن الأفضل ألا يتذكرها، لكنني مع ذلك لازمتُ الصمت، شعرتُ أنه يُريد أن يقول المزيد، يريد أن يفصح عن تلك الأسرار التي أخفاها لفترة طويلة.

وجدته يأخذ نفسًا عميقًا ويُكفكف دموعه بسُرعة قبل أن يواصل بنبرة ثابتة يُحسد عليها:

-حياتي بعدها اتدمرت .... مبقاش في حاجة عايش عشانها .... سافرت فرنسا عشان أنسى وأبدأ من جديد .... بس كُنت بضحك على نفسي .... كل يوم كُنت بموت عن اليوم إللي قبله .... لغاية ما قابلتِك .... حاسيت إنِك محتاجة مساعدة ... ومصدقتش نفسي لما عرفت إنِك مصرية .... قُلت أكيد دي إشارة ليا عشان أحاول من جديد ...... كُنت شايف قُدامي ليان وهي بتقولي إني أفضل معاكي للآخر ... لأني معرفتش اعمل كدة معاها

توّقف عن الحديث ليأتي دوّري حتى أسأله بحيرة:

-ليه جاي تقول الكلام ده دلوقتي ؟ ..... ليه مقولتش من زمان ؟

-عشان....

كاد يُجيبني بسرعة لكنه توّقف مرة واحدة لتنقلب عوالم وجهه إلى التردد وتعود مجددًا إلى النبرة الغامضة المُبهمة وهو يقول:

-عشان دي مش كل حاجة .... أنا مش مُسلم إللي إنتِ شوفتيه في فرنسا ... ولا إللي شايفاه دلوقتي ... أنا واحد تاني .... واحد لو عرفتيه .... هتكرهيه العُمر كله

ارتجف بدني بقلقٍ من حديثه الذي جعلني أسأل ببعض الاندفاع:

-واحد تاني إزاي ؟ .... أنااا .... أنا مش فاهمة حاجة .... هو في حاجة تانية إنت مخبيها ؟

أردتُه أن يُخبرني أنه لا يحمل المزيد من الأسرار لكن آمالي ذهبت مع أدراج الرياح، طغت عوالم الارتباك على وجهه تزامنًا مع ظهور بعض الأصوات من حولنا، تلك الأصوات جعلته يرتبك أكثر ويحاول إنهاء كلماته بسرعة وبنبرة مترددة أكثر:

-أيوة .... أنا عملت ذنب كبير أوي .... عملته أكتر من مرة .... أنااا_

وقبل أن ينبس ببنت شفة وجدنا عربات الشُرطة تلتف حولنا وتتوقف بالقُرب من قاعة الزفاف؛ ارتعد جسدي أكثر وظننتُ للحظة أنهم أتو للقبض علي، وأن جرائمي الخاطئة التي فعلتها في فرنسا لقت صديدها هنا، وسيتم تحوِّيلي إلى المحكمة الدولية، لكن ما جمّد أطرافي أكثر هو ذاك الضابط الذي اقترب نحونا بذهول حتى آشار على مُسلم أثناء كلماته الآمرة:

-اقبضو عليه

نفذ بقية الضباط تعليماته والتفو حوّل مُسلم الذي استسلم لهم تمامًا وجعلهم يُكبلونه بالأصفاد مكتفيًا بنظراتٍ مُعتذرة وجهها نحوي، انقبض فؤادي وقتها وشعرتُ وكأنني طفلة ضائعة في صحراءٍ جرداء من كثرة التيه، لم أكن أعرف كيف حدث ذلك في أقل من بضع ثوان، ولمَ أتت الشُرطة للقبض على أكثر شخصٍ ساعدني في تخطي تلك الصعاب، بقيتُ في حالة من الصدمة وأنا أتابع رجال الشرطة وهم يأخذونه صوّب عربة الترحيلات وعلى وشك التحرُك بعيدًا.

في هذه اللحظة، أدركتُ أنني إن لم أعثر على أجوبة الآن، فلن أعثر عليها أبدًا؛ لهذا السبب استجمعتُ قواي وأنا أهرول نحو الشُرطي وأسأله بنبرة ثابتة قلقة:

-في إيه يا حضرة الظابط .... هو عمل إيه ؟

رمقني الضابط بنظراتٍ مُقتضبة وهو يقول ما جعل قلبي يهوي مرة واحدة:

-ده مُسلم الجسار .... قتال قُتلة وهربان من العدالة بقاله سنين..... !!

الفصل الرابع (ماضٍ أسوّد ونهاية مؤلمة)

((مُسلم))

11سبتمبر 2015 القاهرة : مصر

طوال هذه الأعوام، أستعدُ للحظة التي ستُكشف بها الحقيقة، وعندما أتت هذه اللحظة، اكتشفتُ أنني لم أستعدُ بما يكفي....

توّلد الأقدار وتنمو مع صاحبها، وأنا حياتي قد قُدر لها أن تضحى على هذا المنوّال، حياةَ سوداء منحرفة، لا يوجد بها سوى الضغينة والبغاء....

بدأت حكايتي مُنذ موّلدي بعام 1979، وّلدت بأسرة مثالية حد الاختناق، وعائلة تتكوّن من المثقفين والعُلماء، فأعمامي يُديرون مجموعة من المدارس ووالدي عالمٌ مرموق ووالدتي أستاذة للعلوم السياسية بإحدى الجامعات العريقة، وحتى أبناء عمومتي وخيلاني يعملون بالطب والهندسة والسفارات والوزارات العليا وكل ما يجعل صوّرتنا أمام العالم مرموقة، فيما عدا أنا....

مُنذ موّلدي وأنا أعلم أنني سأضحى نقمة على هذه العائلة، وعالة على أسرتي، رغم محاولاتهما المستميتة في جعلي عظيم الشأن، حتى أن والداي قررا عدم الإنجاب مُجددًا حتى يتفرغا لتربيتي جيدًا وإخراجي للعالم بالصورة التي سيفخرا بها أمام الجميع، أي أنني أضحيتُ مشروعهما دون أن أعرف.

كان اهتمامهما الزائد بي يتحوّل تدريجيًا إلى سجنٍ يُكبل حركتي، فمُنذ عامي الخامس وأنا أرغم على اتباع القواعد الصارمة، كُنت أستيقظ بالسادسة صباحًا حتى بالإجازات، ووالداي يستيقظان يوميًا في هذا الوقت للذهاب لوظائفهما وأخذي إلى النادي لحضور تمرينات السباحة التي لم أحبها أبدًا، وفي فترة الدراسة، كُنت دائمًا أول من يحضر بالصف رغم رغبتي الشديدة بالنوم، فالنوم لا يأتيني بالثامنة مساءً كما يعتقد والداي.

وفي أيام الدراسة تزداد القواعد الصارمة وأرغم على المذاكرة لأربعة وعشرون ساعة، كانت والدتي لا تتركني وشأني إلا بعد أن أشرح لها ما أخذته بالمدرسة وما لم آخذه حتى، وحتى في الإجازات التي من المُفترض أن نتنعم بها ببعض الراحة، كُنت أبقى بالمنزل لأقرأ الكتب العلمية وأقوم بتلخيصها وإلا تم عقابي.

دائمًا ما كُنت أتمّرد وأطالب ببعض الحرية، لكن الأمر لا ينقلب سوى ضدي، حُرمت من اللعب مع رفاقي حتى ابتعد الجميع عني، أضحى جميع أصدقائي بالصف يرونني مُعقدًا لا أفعل شيئًا سوى المذاكرة، رغم أنني أوّد اللعب مثلهم، لم أشاهد الرسوم المُتحركة ولو لمرة واحدة في حياتي، فالتلفاز في المنزل لم يكن يحتوي سوى على المحطات العلمية والأفلام الوثائقية، وكُنت أجد متعتي في مشاهدة الأفلام الوثائقية الخاصة بالحيوانات، وحتى هذه حُرمتُ منها عندما لم أنتهي من قراءة إحدى الكُتب في الوقت المُحدد.

كُنت أرغم أيضًا على الذهاب إلى النادي وممارسة رياضة الكارتية والسباحة، لكنني تركتُ السباحة ما إن تخطيتُ مرحلة الابتدائية، حرص والداي على جعلي مثاليًا رغمًا عن أنفي، فحتى الحلوى والألعاب لم أحظى بهم، الألعاب الوحيدة التي تأتيني بعيد ميلادي كانت ألعاب الذكاء والشطرنج، والحلوى الوحيدة التي أتناولها هي الحلوى الصحية قليلة السُعرات، والتي لا ترضي شغفي ورغبتي بتناول السُكريات.

أذكُر أنني في يومٍ ما، وأنا بالثامنة من عُمري، أعطتني مُعلمتي بالصف لوّحًا من الشوكولاة بسبب علاماتي المرتفعة، كانت هذه أول مرة أتناول فيها الحلوى بحياتي، فوالدتي تحرص على إعداد فطورٍ صحيٍ لي يتكوّن من البيض المسلوق والخُبز مُتعدد الحبوب، وأحيانًا أتناول الشوفان بالمنزل، وعندما تذوّقتُ الشوكولاة للمرة الأولى شعُرتُ أنني أطوف في عالمٍ آخر، شعرتُ بسعادة عارمة كما لو كنت أتناول الممنوعات.

خبأتُ لوّح الشوكولاة أسفل وسادتي حتى أتناول منها يوميًا دون أن يراها والداي، لكن خطتي باءت بالفشل حينما دلفت والدتي الحُجرة لتنُظفها وبختني على وجود تلك الحلوى كما لو أنها رأت ابنها يُخبيء الممنوعات؛ أخذت مني غنيمتي وتركتني أبكي في حُجرتي وأتذمر أكثر من هذه الحياة، إلا أنها بعد فترة، عادت إلي ومعها كعكة صحية صُنعت بالموّز والكاكاو، قالت لي أن هذه الكعكة ستُغنيني عن الحلوى

الضارة التي ستجعل عُمري أقصر، ولأكن صادقًا، كانت الكعكة ذات مِذاقٍ جيد، ولم أتذمر بعدها من الطعام الصحي، فالطعام كان الأهون من بين كل ذلك.

كانت الجلسات العائلية أشبه بجلساتٍ نقاشية بالبرلمان، فجميعهم لا يتحدثون سوى عن المعلومات العلمية والحقائق السياسية ودائمًا ما تنتشر المناظرات والمناقشات حينما تتعد الآراء وينتصر واحدٌ منهم في النهاية، حتى أطفال العائلة الذين كانوا من سني وقتها، لا يلهون سوى بالألعاب الذكية ولا يتحدثون سوى عن المعلومات الخاصة بالحيوانات والمعلومات العامة، وكُنت أنا بين كل ذلك أحاول العثور على بوادر المُتعة، ما أرغب فيه هو اللهو بحق، لم أكن أرى ان ما يفعلونه ممتعًا، وكلما أحاول الغناء والدندنة بكلمات أغنية أستمع إليها صدفة في المدرسة، تأتي والدتي لتوّبخني وتخبرني أن أخفض من صوّتي.

وما أضفى على كل ذلك، هو تهكماتهما الدائمة وتلك اللعنة التي تلبستني مُنذ الصغر، لعنة ابن خالتي.....

دائمًا ما كان ابن خالتي رمزًا للمقارنة بيننا، ربما لأنه وُلد بنفس العام الذي وُلدتُ به، ولا أذكر أن علاقتي به كانت جيدة في يومٍ ما رغم أننا آقارب، لكن أسرتي جعلتني أمقته وأتمنى فناءه، كلما أحاول أن أظهر أمامهما بصورة المتفوّق الذي يرغبانه، يأتي ابن خالتي ويُدمر كل شيءٍ بنجابته وذكاءه المضجر.

في آخر عامٍ لي بالابتدائية، أصبحتُ الأول على المدرسة؛ كُنت سعيدًا بعلاماتي التي تخطت التسعة وتسعون بالمئة، اعتقدتُ أن والداي سيفرحان من أجلي، لكنني تحطمتُ ألف قطعة حينما وجدتهما يوّبخانني ويُخبرانني أنني لم أبذل ما يكفي، فابن خالتي أضحى الأول على الجمهورية!!

وقتها شعرتُ أن جميع محاولاتي لتحسين صوّرتي أمامهما لا تُجدي نفعًا، مهما فعلت، سيظل ناقصًا، وسيظل ابن خالتي الأفضل وسيظل فخر العائلة ومصدر تباهيها، أما أنا، سأظل في دائرة المقارنة والنقص التي لا تنتهي.

زاد يأسي وأنا على مشارف المراهقة، انعدم شغفي بالحياة ومن كل شيء، حتى أنني فكرتُ بالهرب أكثر من مرة، وما حفّز هذه الأفكار، هو ابن عمي .... (نافع الجسار)

كان ابن عمي هو الفرد المتطرف من العائلة، أذكر أن عمي دائمًا ما يذكره بالسوء ويقول أنه نادمًا على إنجاب مثل هذا الابن العاق، هذا فقط لأن نافع قرر أن ينحرف عن سلو العائلة والتحق بكُلية الفنون المسرحية بسبب حُبه للتمثيل والفن، والذي بالنسبة للعائلة نوّعًا من أنواع الانحراف، فمن لا يضحى طبيبًا أو مُهندسًا أو أي مهنة مرموقة، يتم اعتباره عالة على العائلة، وكان نافع أول من بدأ الانحراف.

لم أرى نافع سوى مراتٍ قليلة بحياتي كلها، دائمًا ما أسمع أنه ذو أخلاقٍ سيئة ولا يجب أن أقترب منه أبدًا حتى لا يُلطخني ويُفسدني، والغريب أنني أستمع لهذه الكلمات من أبويه!!

أول مرة رأيته بها، كانت في منزلنا، وكُنت وقتها بالعاشرة من العُمر، رأيتُ نافع يدلف المنزل بنظراتٍ مُنكسرة وأكتافٍ مُتهدلة، كان يتحدث مع أبي بنبرة هادئة مُترجية يُخبره فيها أنه يُحب فتاةً ما ويُريد أن يأتي أبويه لخُطبتها لكن أبويه رفضا تمامًا وأخبراه أنه لم يعُد فردًا من العائلة، كان يطلب من أبي أن يأتي معه لخُطبة هذه الفتاة بدلًا من عائلته، لكن أبي كان مثلهم بالضبط، أخذ يوبخه ويُخبره أن يرحل، فكيف سيتزوّج من فتاةٍ أقل من عائلتنا ؟ وكيف سيذهب معه وهو أقل من أن يفتخر به أمام عائلة هذه الفتاة ؟

كم شعرتُ برغبة عارمة بالصُراخ بوجه أبي وقتها، والتربيتُ على كتف نافع الذي ترك المنزل مكسور الخاطر، وقبل أن يترك المنزل رماني ببسمة هادئة منطفئة جعلت نيراني تحترق أكثر، وأفكر جديًا في الانحراف أنا أيضًا، فنافع لا يستحق هذه العائلة التي تُصيب الشخص بالاختناق، وانا أيضًا لا أريدها.

وأنا بالخامسة عشر من عُمري، وبعد التحاقي بالمرحلة الثانوية، بِتُ أشعرُ أن لا أحد قادرًا على إرغامي بما لا أريده، أصبح صوّتي يُعادل صوّت الليث في خشونته، ونظراتي أضحت أكثر حدة، خاصة عندما يُقرر والداي التُحكم في حياتي مُجددًا.

تعرفتُ على بعض الأصدقاء ممن يُقال عنهم أصدقاء السوء، وجدتُ نفسي المقيدة معهم وقررتُ التحرر من ذلك السجن، كُنت أفعل كل ما حُرمتُ منه طوال حياتي، أسهر حتى الصباح، أتناول الوجبات السريعة يوميًا، أشاهد الأفلام بأنواعها، وحتى أدخن السجائر وأرافق الفتيات.

لاحظ والداي تغيُّري التدريجي فباتا أكثر غضبًا من أفعالي، خاصة وأنا أرفض باستمرارٍ أن أذهب إلى عائلتي المملة، وأرفض أيضًا تناول الطعام الذي تُعده لي والدتي، وكثيرًا ما تعاركتُ مع أبي حينما يشتم رائحة عفنة تخرج من ملابسي ويراني آتي المنزل مع آذان الفجر، وحتى علاماتي بالمدرسة انحدرت لدرجة قد تجعلني أعيد العام الدراسي وأرغم على الدراسة بالصيف.

علِمتُ وقتها أنني أتحوّل تدريجيًا إلى نافع، فحتى والداي أصبحا يتعاركان معي يوميًا، وينعتانني بالابن العاق الذي لا فائدة من وجوده، وما هي إلا لحظاتُ قليلة حتى انتقلت هذه الكلمات إلى عائلتي التي بدأت تراني ولدًا سيئًا وفاسدًا، حتى أن والدي هدد بطردي من المنزل أكثر من مرة، وأنا أُنفذ ما أقوله وأعود بعد أن تبكي والدتي وتتذكر أنها أنجبتني.

وفي يومٍ من الأيام، عُدت إلى المنزل بالواحدة بعد مُنتصف الليل، وكانت رائحة الخمر تفوح من جسدي وأترنح في خطواتي كالسكير، وجدتُ والدي وقتها يقف بالبهو أمامي ونظراته تُنزر بالشر والضغينة، كان يهتف بوجهي بكلماتٍ حادة:

-كُنت فين ؟

لم أكن بحالة جيدة حتى أجيبه في ذلك الوقت لذلك وجدتني أقهقه بهيستيرية وأنا أجيبه بانتشاء:

-عند سونيا....

واصلتُ الضحك أمام نظرات والدي المقتضبة والتي انتهت باقترابه نحوي والتحديق بمُنتصف عيناي بتلك النظرات المُرعبة حتى قال:

-نفسي اعرف أنا عملت إيه في ُدنيتي عشان ربنا يبتليني بواحد زيَك

قبض على ياقة ثيابي وهو يرمقني بازدراء ويدفعني بحدة كادت تجعلني أرتمي على الأرض لكنني تماسكتُ وأنا أهندم ملابسي وأحاول التحدث معه بثبات:

-إنت عايز إيه ؟ .... ما تسيبوني في حالي....

-نسيبك دي لما تكون راجل عِدل يُعتمد عليه ... إنما إنت ..... إنت واحد صايع وفاسد ومحتاج إللي يربيك من أول وجديد

رفع من نبرة صوّته حتى باتت أقرب إلى الصُراخ، لكنني تناسيتُ كوّنه والدي وبدأتُ أرفع من صوّتي أنا الآخر وأنا أجابهه بغضبٍ دفين:

-وهو أنا بقيت كدة ليه ؟ .... مش بسببكم .... إنتو إللي طول الوقت كنتو خانقيني .... علطول اعمل كذا ومتعملش كذا لدرجة إني بقيت آلة مبتعملش حاجة غير إللي انتو عايزينها .... إنتو إيه ... عايزين تطلعوني أحمد زويل بالعافية!!

أطبق والدي على شفتيه وبدأت الدموع تنسل من عينيه وهو يجابهني بقلبٍ مُنكسر:

-خانقينك !! .... للدرجادي بتكرهنا ... دا أنا وأمك كنا بنعمل كل حاجة عشانك .... كُنا عايزينك تفتخر بنفسك قدام خلق الله .... جاي دلوقتي تقول خانقينك....

رفع صوّته مع آخر كلماته ليتلاشى ثباته مرة واحدة ويبدأ بالتقاط أنفاسه بصعوبة؛ جحظت عيناي في صدمة وأنا أتباعه يضع يده على صدره ويتنفس بصعوبة حتى هوّي مرة واحدة على الأرض.

-بابا!!

صرختُ باسمه وأنا أراه مُتسطحًا على الأرض تخرج الأنفاس من جوفه بصعوبة، بحثتُ بعيناي عن والدتي لكنني اكتشفتُ وقتها أنها ببعثة في إحدى الدوّل الأجنبية،

خارت قواي وقتها ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أبكي وأتأسف لأنني السبب فيما حدث له؛ اتصلتُ بنافعٍ لأنه الوحيد الذي سيُجيب على مكالماتي بعد أن نفرت عائلتي مني.

ذهبتُ إلى المشفى برفقة نافع ووالدي الذي أخبرنا الطبيب أن ضغطه قد ارتفع مما جعله يفقد الوعي، لكن صحته ستتحسنُ عمَ قريب، وسيعود معي إلى المنزل، أخبرتُ نافع بمَ حدث وكانت نظراته معاتبة وهو يقول لي:

-مينفعش إللي عملته ده يا مُسلم .... باباك معاه حق .... محدش هيرضى إن ابنه يعمل إللي انت بتعمله

قالها ببعض الحدة التي فاجئتني للغاية، حتى أنني قُلت له:

-ما إنت عملت كدة ؟ إشمعنا أنا ؟ .... أنا كمان اتخنقت من القوانين إللي هُما حاطينها

التفت نافع ليواجهني ويتحدث معي بجدية:

-أنا بندم كل يوم عشان مسمعتش كلام أهلي .... مع إني كُنت زيَك كدة بردو ... كُنت مخنوق وعايز حُريتي .... بس اكتشفت إني غلطان .... أهلك بيدوٌرو على مصلحتك .... ولو انت متضايق يبقى تقولهم وتعبر عن اللي جواك .... اثبتلهم إنك كويس من غير القوانين إللي هُما حاطينها

انتهى حديثي مع نافع بهذه الكلمات التي آعادتني إلى صوابي، فأنا لم أخلق لحياة التمُرد هذه، ولن أرضى أن أتسبب بأذية والداي أو التقليل منهما أمام الجميع، يجب أن أجعلهما يفخران بي بأي طريقة كانت.

قررتُ العودة إلى كنف العائلة وقواعدها بعد هذه الحادثة، لكن والداي لم يُرغمانني على أي شيء، فلا تزال نظراتهما المُقتضبة تلفحني في كل ثانية، خاصة بعد أن اكتشف والدي أنني أدمنتُ السجائر.

وكطبيعة الأمر، لم أكن أستطيع المذاكرة بشكلٍ جيد مما أدى إلى انحدار علاماتي وأنا بالثانوية العامة، وكانت هذه قُنبلة أخرى أقذفها بوّجه عائلتي، هذه المرة انفجرت القُنبلة بوجهي أنا الآخر، فدائمًا ما يُخبرني أبي أنه يريدني أن أضحى طبيبًا لهذا السبب شجعني على دخول الشُعبة العلمية، لكنني خذلتهما للمرة الثانية بهذه العلامات، خاصة وهي سنة مصيرية.

-جايب اتنين وسبعين !! ... ما طبعًا، ما انت واحد فاشل .... دا ابن خالتك طلع التاني على الجمهورية وهيدخل هندسة

هكذا كانت كلمات والدتي التي قارنتني مجددًا بابن خالتي حتى بات الغضب يعتريني، كُنت أتحطم يوميًا بسبب نعتهم لي بالفاشل، وأتحطم أكثر بهذه الاحتفالات التي تحدث يوميًا بمنزل العائلة على شرف ابن خالتي مصدر فخرهم وحُبهم.

شعرتُ بالانحطاط أكثر فأكثر، فأنا لستُ أقل من ابن خالتي هذا الذي يحظى على محبة الجميع حتى من أبواي، لذلك سأثبت لهم أنني الأفضل، وأنني أستحق التبجيل والثناء.

التحقتُ بكلية التجارة جامعة القاهرة وبالطبع كانت هذه الكلية بالنسبة لعائلتي من الكليات المتدنية، لكنني وجدتُ نفسي بها، أحببتُ الرياضة والتعاملات المالية، والتحقتُ بعدها بقسم إدارة الأعمال الذي استهواني بسبب حُبي للإدارة والتملك الذي ظهر مؤخرًا.

بدأتُ أقرأ العديد من الكُتب العلمية وفي جميع المجالات، عاودتُ زيارة عائلتي مُجددًا ومحاولة إخبارهم أنني لا أفترق عن هذه العائلة ويُمكنني أن أضحى ذا مكانة مرموقة مثلهم، لكن الحديث لم يكُن يُجدي نفعًا، فعائلتي كانت تتعمد تجاهلي وعدم الاستماع الي معلوماتي وآرائي السياسية فقط لأنني في تلك الكلية " المتدنية"

ومع ذلك لم أستسلم أبدًا، تعلمتُ العديد من اللغات في فترة قصيرة، تعلمتُ الفرنسية والألمانية والانجليزية والاسبانية والإيطالية وأضحيتُ أتحدثهم بطلاقة، كُنت أذاكر دروسي ليل نهارٍ وأحرص دائمًا على الحصول على أعلى العلامات، كُنت أسير على مقولة هكسلي التي تقول " إن الناس إن لم يكونوا صالحين فمن الممكن أن يكونوا

ذلك " وأنا بإمكاني أن أضحى ما يريده الجميع، فربما حاجتي للتمُلك والفخر هو ما أريده كي أشفي غليلي.

زادت محاولاتي لجذبهم ولم ألقى سوى الفتور واللامبالاة، وقتها قررتُ أن أسلك طريقًا آخرًا ربما يؤتي ثماره، هذا الطريق يعتمد على مقولة " الغاية تُبرر الوسيلة " مما يعني أنني سأبدأ طريقي تدريجيًا وباتباعي لطُرقي الخاصة.

قال أولف هتلر ذات المرة أنك إذا أردت النجاح، فعليك أن تفسح المجال لذلك، وهذه المقولة تعني أنك لن تنجح دون إزاحة ما يُعيق نجاحك عن الطريق.

وأول ما أعاق نجاحي هو هذا الفتى النجيب مُنير العُمدة، شابٌ بنفس مرحلتي العُمرية، نحيل الجسد وأبيض البشرة، ينحدر من عائلة فقيرة لذلك يتعيَّن عليه الحصول على أعلى العلامات ليسهل عليه العثور على وظيفة جيدة، مسكين هذا الرجل، لا يعلم أن الشهادات لا نفعل بها شيئًا سوى استخدامها في امتصاص الزيت من البطاطا المقلية.

كان مُنير من أوائل الصف، فدائمًا ما يسبقني بعلاماته الجيدة، خاصة وهو محبوبٌ بين المعلمين، فكُنت أضحى أنا الثاني وهو الأول، وأنا أردتُ المرتبة الأولى، لهذا السبب قررتُ التخلص من مُنير ليفسح لي المجال لتحقيق ما أريده.

تعرفتُ عليه ونشأت بيننا صداقة قوية في فترة قصيرة، فهو لم يمتلك أصدقاءَ حقيقيين ولو مرة بحياته، فدائمًا ما يتعرف عليه الأشخاص لتقضية المصالح، وأنا سأدفع عنه هذا البلاء للأبد.

بدأت خطتي حينما جعلته يتعرَّف على أصدقائي السيئيين ونتناول غدائنا سويًا، كنت أحرص على وضع المواد المُخدرة من أصدقائي في طعامه حتى بات مُدمنًا لدرجة نسبيًا، وعندما أقابله بالجامعة، يُخبرني أن الصداع يجتاحه ولا يعرف أي طريقة للتخلص منه، فأقوم أنا بدوري وأعطيه الحبوب المُخدرة فيتناولها وينتهي صداعه ويعاود طلب المزيد من هذه الحبوب، وعندما أهم بالرفض أجده يتحوَّل إلى وحشٍ كاسرٍ مُستعدٍ لإنفاق ما لديه من أموالٍ من أجل هذه الحبوب.

تغيَّرت معاني وجهه وطغي الشحوب على ملامحه، كان يتغيَّب في أغلب المحاضرات ويُعامل الأساتذة بجفاءٍ وضغينة حتى تدهوَّرت العلاقة بينهم، كذلك لم أعُد أعطيه من هذه الحبوب وأخبرته أن يذهب إلى أحد الرجال لابتياعها، فما هي إلا بضعة أيامٍ حتى تحوَّل إدمانه لتلك الحبوب إلى إدمانه على جميع أنواع الممنوعات.

أصبح لا يأتي الجامعة سوى نادرًا حتى رسب بالعام الثالث وقرر أنه لن يأتي الجامعة مجددًا، هذا ما جعلني أتأكد من نجاح خُطتي، فمُنذ هذا اليوم وأنا الأول على الجامعة، والأكثر شعبية بين المعلمين....

وحتى بعد أن وصلتُ إلى هذه المكانة لم أرضي أهوائهم، وبقيتُ منحطًا بالنسبة لهم، لذلك تعيَّن علي العثور على وظيفة بأسرع ما يُمكن ودون مساعدة من والداي اللذان قررا عدم التدُخل في حياتي واكتفيا ببثي نظراتهما المزدرية التي تلمع بخيبة الأمل.....

استطعتُ بعد عناءٍ دام لشهرٍ كامل أن أجد وظيفة بسيطة بإحدى البنوك، لم تكن هذه وظيفة أحلامي لكنني اتخذتها وسيلة لبداية حياتي، كُنت أداوم بالصباح من التاسعة حتى الخامسة مساءً، وأقتاد القليل من الأموال بنهاية الشهر.

وبإحدى الأيام، وأثناء الدوام، لفحتني هذه الوردة الساحرة التي حوَّلت حياتي البائسة إلى بساتين مُزهرة، رأيتُ ليان لأول مرة بطلتها الساحرة وابتسامتها الجذابة، كانت تُريد أن تفتح حسابًا بالبنك وتضع فيه أموالها الطائلة.

-سلام عليكم .... عايزة افتح حساب

سألتني بنبرة هادئة فأجبتها بعملية حاولتُ معها قدر الإمكان عدم تأمل ملامحها الآخاذة:

-ممكن البطاقة ؟

مددتُ يدي وأنا أسألها لتُعطيني بطاقتها وأبدأ بدوَّري بتسجيل بعض البيانات اللازمة لفتح حسابٍ لها، لكنني ما إن وقعت عيناي على اسمها حتى تحوَّلت نظراتي إلى

الذهول، حتى أنني قرأت اسمها أكثر من مرة " ليان حميد السيد " ابنة رجل الأعمال المشهور " حميد السيد " الذي يملك أكبر مجموعة شركات مُستحضرات التجميل بالشرق الأوسط.

أخفيتُ ذهولي وتصرفتُ بطبيعتي حتى أنهي لها الاجراءات، وبعد أن انتهيت، أعدتُ لها بطاقتها وبعض الأوراق قبل أن ترحل عن البنك وتبقى في ذهني....

عُدت المنزل في هذا اليوم لأبحث أكثر عنها وأعرف طريقة جيدة للدخول إلى حياتها، فوالدها سيجعلني أرتقي إلى أعلى المستويات، ناهيك عن أنها فتاةً جذابة مثالية إلى حدٍ ما، لم تكن وسائل التواصل الاجتماعي شاغرة في ذاك الوقت لكنني تواصلتُ مع القليل من معارفها وأدركتُ أنها في كلية الفنون الجميلة بعامها الثالث، أي أنها تعشق الفن والمرح، تُحب الحيونات الأليفة بأنواعها وتشارك في العديد من الفعاليات الخيرية، فصورتها تحتل المنظمات الخيرية بأنواعها.

أثناء بحثي عنها، كُنت أفكر في طريقة لاجتذابها، فهي فتاةَ بسيطة ليست كباقي الفتيات، أي أنها بحاجة إلى معاملة خاصة، وهذا لم يكُن صعبًا علي، فالأصعب الآن هو خطيبها الذي من المُقدر له أن يتزوجها حالما تنتهي من دراستها.

أصبح سمير حفنت هو هدفي الثاني الآن، فلكي أحصل على ليان، يجب أن أزيحه عن طريقي....

بحثتُ أكثر عن ذاك السمير لأعرف كيف أتصرف معه، وجدت أنه رجلًا متدينًا مكافحًا يسعى دائمًا للنجاح ويتحمّل المسؤولية، ينحدر من طبقة متوّسطة أقرب إلى الفقر ويرعى والدته وشقيقته الصغيرة، كما أنه يعمل موّظفًا بسيطًا بإحدى المؤسسات الحكومية.

كان يتعيّن علي أولًا أن أعثر على الفجوة الصغيرة بينهما حتى أجعلها أوّسع، وهذه الفجوة تتلخص في المستوى الاقتصادي بينهما، فعائلة ليان الغنية لا تتوافق مع عائلة سمير الفقيرة، لهذا السبب بدأتُ بإنشاء إحدى الإعلانات المزيفة عن شركة إمارتية خاصة بالاستيراد والتصدير تبحث عن شبابٍ للعمل في شركتها بمقابل ماديٌ جيد.

أرسلتُ هذا الإعلان إلى سمير عندما وضعته بالجريدة الوحيدة التي ستذهب إلى منزله، وكأي شابٍ يبحث عن فُرصة جيدة، أخرج هاتفه واتصل بهذا الرقم لأجيبه أنا وأدعي أنني رجلٌ إمراتيٌ أبحث عن موظفين، طلبتُ منه أن يأتي بإحدى العناوين لإجراء مقابلة مزيفة جعلته ينجح بها رغم ارتباكه الشديد، بعدها ساعدته بإجراءات السفر وأخبرته أنه سيذهب ولن يعُد أبدًا.

ومن الناحية الأخرى، بدأتُ أظهر أمام ليان أكثر من مرة وأتعمّد الاصطدام بها وطلب مساعدتها في بعض الأمور، أحيانًا أظهر أمامها كالشاب المساعد الذي ينفق على الفُقراء وأحيانًا أتعمد الظهور كرجلٍ قويٍ يدافع عن الضعفاء، أبهرتها بمعلوماتي ونظرياتي السياسية التي لم تكُن تعرفها، قصصتُ لها العديد من القصص التاريخية بطريقة مُسلية تُشبه طريقة شهرزاد، وفي كل مرة ينتهي اللقاء بيننا بوٌعدٍ بلقاءٍ آخر.

وعندما توّطدت صداقتنا علِمتُ أن سمير خطيبها أخبرها برغبته في السفر حتى يعثر على أموالٍ مناسبة لإنفاقها على زفافهما، أخبرتني أكثر من مرة أنها آرادته أن يعمل لدى والدها لكن والدها لم يوافق بسبب تدني مستواه المادي ورغبته بإقصاءه عن ابنتها، فهو لا يُناسب مستواهم.

كانت تشعر بالخزي والضياع وهي تقص علي هذا الخبر حتى أنني أردتُ ضمها والتربيت على صدرها لكنني لم أفعل ذلك، وواصلتُ خطتي بإقصاء سمير عنها الذي علِمتُ فيما بعد أن قصة الحب بينهما كانت تضاهي الأساطير والحكايات.

عندما تأكدتُ أن سمير سافر إلى الإمارات، تواصلتُ مع بعض معارفي وأخبرتهم أنه سيذهب إليهم للعمل بشركاتهم، لكن زملائي هناك لا يفترقون عن أصدقاء السوء الذين أعرفهم هنا، فما إن ذهب سمير للعمل لديهم، توّرط معهم باستيراد شُحنة أدوية غير صالحة للاستخدام، وقد تسببت بوفاة العديد، ولأنه أمضى على أوراق هذه الشحنة؛ جاءت الشُرطة وألقت القبض عليه ليُسجن بعدها وتنقطع سُبل تواصله مع ليان، حتى أنني أوّهمتُ ليان أنه تزوّج وتركها للأبد...

تقربتُ أكثر من ليان وأصبحتُ صديقها المُقرب الذي تلجأ له في الأزمات، انتهزتُ انفصالها عن سمير وأعربتُ لها عن جزءٍ من مشاعري ورغبتي بالبقاء بجوارها

للأبد، فالفتيات في هذه الفترة يفقدن الثقة بأنفسهن ويحتاجن لمن يُخبرهن بأنهن لا يستحقن من خذلهن يومًا.

انبهرت ليان أكثر بنظرياتي التسويقية وأخبرتني أنها عرضتهم على والدها الذي انبهر بدوٌره وآراد رؤيتي في الحال، وعندما قابلته أخبرني أنه سيُعينني بالشركة بالقسم المالي لعدم احتياجه للموٌظفين في التسويق والإدارة، وبسبب حُبي للرياضات، وقدرتي الفائقة على الإقناع، استطعتُ في وقتٍ قصير أن أحظى على انتباه السيد حميد وارتقيتُ حتى أصبحتُ مُديرًا للحسابات.

وأثناء مراقبتي لحسابات الشركة، شعرتُ بشيءٍ خاطيءٍ يحدث من وراء ظهرحميد، إيرادات الشركة لا تتساوى مع أسعار المواد التي نستوٌردها من الخارج، كما أن هناك جزءًا كبيرًا من الواردات يختفي بصورة مفاجئة؛ أدركتُ فوٌرًا أن أحدهم يعبث بحسابات الشركة ويجعلنا نبتاع ارداء المواد بأبخث الأسعار، رغم أننا نملك الأموال الكافية.

راقبتُ الموظفين بعينين شاردتين حتى تأكدتُ أن الخيانة لا تأتي من القسم المالي، بل هناك من هو أعلى رتبة يقوم بهذه الحقارة، وهذا الشخص هو .... دياب العشري، الرئيس التنفيذي للشركة، ونائب رئيس مجلس الإدارة، أي اليد اليُمنى للسيد حميد.

واجهته أولًا بالأمر في مكتبه وأخبرته أنني سأفشي أسراره للسيد حميد، فأنا أملك المُستندات حتى أدينه، وكطبيعة الأمر، واجهني بالسُخرية أولًا ثم التهديد ثم الرضوخ ثم الوعود .... وهذا ما أردته بالضبط.

-تخيُل بقى لو مستر حميد عرف باللي انت بتعمله ؟ .... هيكون مصيرك إيه وقتها ؟

غلت المراجل بداخله وهو يراقبني أعرض أمامه تلك المستندات وأجابهه بطريقة تهديدية جعلته يهتف:

-الورق ده لو وصل لمستر حميد ... همحيك من على وش الدنيا

رسمتُ بسمة ساخرة على ثغري وأنا أقول:

-في الحالتين هيوِّصل .... سواء أنا موجود أو مش موجود ..... فياريت توٌفر كلامك ده لحد تاني عشان أنا مش بتهدد

زمجر بغضبٍ وبقي يُطالعني بنظراتٍ مُقتضبة حتى أردف باستفسار:

-عايز إيه ؟ .... ليه موديتش الورق ده علطول لمستر حميد ؟

اتسعت بسمتي وأنا أعتدل في جلستي هادرًا بانتصار:

-جينا بقى للمُفيد .... بُص يا أستاذ دياب .... أنا عايز مصلحتي ومصلحتك .... مستر دياب رجله والقبر، وإنت إللي هتتوّلى مكانه .... وبصفتي يعني مدير المالية ... فانا عايز أمن فلوسك .... وأمنك إنت كمان

لم يفهم كلماتي الغامضة لذلك سألني بمباشرة:

-يعني عايز إيه ؟

تقدمتُ بجذعي وأنا أرمق مُنتصف عينيه وأقول بجدية:

-عايز الحلاوة .... نُص الفلوس إللي هتقلٌبها

جحظت عينيه في صدمة من عرضي الذي جعله يقول:

-نعم !! ... وبصفتك إيه ان شاء الله ؟

-بصفتي مدير زيي زيَك .... لأ وكمان معايا الورق إللي هيقضي على مُستقبلك....

صمت برهة عن الحديث ليُفكر في عرضي الذي أعلم جيدًا أنه سيوافق رغمًا عنه، لذلك قُلت:

-ها يا مستر دياب ؟

أطلق زفرة سائمة من جوفه وهو يقول:

-موافق....

ومن بعدها عاود دياب سرقة الشركة ونفذ وعده لي بإعطائي نصف مدخراته، جنيتُ أكثر من مليون جنيهٍ وراء هذه المكيدة، لكن الأموال لم تكن يومًا مطمعي، فمطمعي الأكبر هو السُلطة، هو أن أصبح مصدر فخرهم مهما كانت الطريقة، فعائلتي ربتني على المكانة العالية، فإن لم آخذها، سأحطم الجميع من أجلها...

عندما ادخرتُ ما يكفي من المال، حرصتُ على تثبيت أجهزة المراقبة داخل المكتب الخاص بدياب، وحرصتُ كذلك على تسجيل اعترافاته المتكررة وتسجيل الأوراق التي تثبت سرقته للشركة والتي أهمه أنني أمزقها.

وفي إحدى الأيام، أخبرتُ السيد حميد عمَ يفعله دياب وأريته العديد من الأدلة التي جمعتها، بالطبع لم يُصدق حميد ما أقوله وبقي في حالة من الصدمة والغضب حتى قرر إبلاغ الشرطة وتدمير مُستقبل دياب للأبد، تذكرتُ وقتها تلك النيران التي تضخمت بوٌجه دياب عندما كان رجال الأمن يركلونه خارج الشركة، وكيف كان يرمقني بازدراء وينعتني بالخائن ويُخبر الجميع أنني أيضًا أسرق من الشركة، لكن بالطبع لا يُصدقه أحد لأنه لا يملك دليلًا.

بعد أن رحل دياب، توٌطدت علاقتي أكثر بحميد كما توٌطدت بابنته ليان التي أدركتُ أنني أحبها بالفعل، فهي فتاةٌ ذات قلبٌ نقي وبسمة جذابة، حديثنا سويًا يبعث بداخلي ريحًا من الآمان والسعادة اللامتناهية، كانت تسعد لنجاحي وتقدمي بالعمل وتسعد أكثر حينما يمدحني والدها أمامها، كانت تبثني الشجاعة والمثابرة الذين فقدتهم من عائلتي، فعائلتي لم تتغير أبدًا اتجاهي، ولازالت تنعتني بالفاشل رغم التقدم الذي أحرزه في فترة قصيرة.

وما يزيدني ضيقًا هو أنهم لا يزالوا يعتقدون أنني ناقصًا، أنني عالة عليهم، فأنا مُجرد موٌظفٍ في إحدى الشركات ولا فائدة من وجودي، تلك الكلمات السامة التي يبثونها

نحوي في كل حينٍ تجعل غلّي الدفين يزداد أكثر، فأنا لا أفعل شيئًا سوى إثبات أنني لستُ فاشلًا.

أصبحتُ أقرأ المزيد من الكُتب، وأتعلم الكثير من المعلومات في جميع المحالات، فيجب أن أثبت أن الدراسة الأكاديمية ليست هي ما تجعل الشخص ناجحًا، فهُناك العديد من الأمور الأخرى، ومن بين تلك الأمور، أردتُ أن أفتتح شركتي الخاصة، شركة لمُستحضرات التجميل ومنتجات العناية بالبشرة، فهذا ما أبرع به الآن بعد عملي مع حميد لخمسة أعوام.

بدأتُ شركتي الصغيرة بتلك الأموال التي ادخرتها والتي سرقتها مع دياب، افتتحتُ شركة صغيرة بمنطقة مصر الجديدة، وأنفقتُ الكثير للدعاية لها، لكن دعايتي كانت جعجعة بالطحين كما يقولون، لم يكن لها فائدة رغم أنني سجلتُ الشركة باسمٍ مستعارٍ حتى لا يعرف حميد ويُدمر مسيرتي المهنية.

علِمتُ وقتها أن الجميع يتجهُون إلى شركة حميد باعتبارها الأشهر والأكبر، فهي بالتالي من أكبر منافسيني....

بدأتُ أسلك طريقًا آخرًا مُنذ ذلك اليوم، وأنفقتُ المزيد من الأموال على شركة دعائية أسفل القاع تتخصص بنشر الشائعات والفضائح، نشرتُ العديد من المقالات التي تثبت أن شركة حميد تستخدم موادًا غير مطابقة للمواصفات وتُسبب حساسية للبشرة، كما أنني أيضًا استعنتُ بعيناتٍ زائفة حتى تثبت ادعاءاتي، فما هي إلا بضعة أيامٍ حتى انتشرت هذه الأخبار كالهدير وقل المستثمرون والعملاء الذين يتعاملون عادة مع شركة حميد.

كُنت ألعب على الطرفين وقتها، فتارة أساعد حميد للقضاء على تلك الدعاية الكاذبة، وتارة أساعد على تمويل هذه الشائعات وأسرق من اموال الشركة حتى لا يبقى معهم ما يكفي لابتياع أغلى المواد وأفضلها، انحدرت الشركة وقتها وخسرت العديد من الأموال، وفي ظل انحدارها، بدأ الجميع يتجه إلى شركتي الصغيرة التي تستخدم أفضل المواد وتُعين الخبراء والعلماء.

ارتفعت مكانة شركتي في وقتٍ قياسيٍ واحتجتُ للمزيد من الموظفين لكثرة أعمالنا، ولكي أفعل ذلك، تسللت إلى موظفي شركة حميد وعرضتُ عليهم ترك هذه الشركة الخاسرة والعمل في شركتي بمُرتبٍ جيِّد، ولأن أغلبهم يسعون للحصول على المال، وافقوا بسرعة وأصبحت شركتي تمتليء بالخُبراء وذوي المكانات العالية.

بعدها أدركتُ أن شركة حميد ظلّت تنحدر_ بفضل دعايتي وسرقتي للموظفين_ حتى أعلنت إفلاسها وأُغلقت، وتدهوّرت صحة حميد أكثر إلى أن وافته المُنية.

كُنت أشعر بالوضاعة فقط من أجل ليان، فقد انفطر قلبها بعد وفاة والدها وتدهوّر ثروته، لكنني بقيتُ بجوارها ووعدتها أنني سأعوّضها عن تلك الأيام، فهي لا تمتلك أشقاء، ووالدتها متوّفية مُنذ الصِغر، أي ليس لديها غيري، لذلك بعد مرور أربعة أشهر، وبعد أن بدأتُ تعود إلى حياتها الطبيعية، عرضتُ عليها الزواج وأخبرتها أنني أريدها في منزلي، ولأن عائلتها ذات شأنٍ جيد _رغم الشائعات التي تدوّر حول والدها_ وافق والداي على طلب يدها وأعلنا خطبتنا في فترة قصيرة.

باتت حياتي تسير على نهج جيدٍ وتتقدم أكثر فأكثر، أصبحت عائلتي إلى حدٍ ما، ترفع من شأني بإعتباري مالكًا لإحدى الشركات المرموقة، لكن الغِل والحقد بقيا في قلبي بسبب شيءٍ واحدٍ فقط.

-وإيه يعني فاتح شركة منتجات عناية بالبشرة ؟.... دا إبن خالتك ربنا يحرصه فاتح شركة عقارات قد الدنيا والسفرا والوزرا بيتعاملو معاه

هذه هي الجُملة التي أسمعها دائمًا وأبدًا كلما حاولتُ إخبارهما بإنجازاتي، لازالت لعنة إبن خالتي الذي يتقدم عني دائمًا تطاردني، فتارة يُزدريان مني لأنني تخرجتُ من كلية " مدنية " وتارة يقولان لي، إنها مجرد شركة لمستحضرات التجميل لن تساعد على إنقاذ العالم مثل شركة ابن خالتك التي تساعد في بناء المُدن والعقارات وإسكان من لا مأوى له، لازلتُ ناقصًا حتى بعد ما بذلته من مجهود وما ارتكبته من ذنوبٍ لإرضائهما فقط.

لم أكن أعرف ما علي فعله حتى أرضيهما وأخبرهما أنني أستحق الثناء، كل ما يتمثل أمامي الآن هو ابن خالتي الذي يتعمّد التباهي أمامي ومعاملتي معاملة الميؤوس من

أمره، فلازال مصدر اهتمام العائلة وفخرها، ولازالت المقارنة بيننا شاغرة والتي يربح فيها بجدارة، أصبحتُ متيقنًا أن ما أريده الآن، هو التخلُص من ابن خالتي وليد عبد الحميد، بأية طريقة....

بدأت خطتي الخامسة بتوّغلي داخل شركة وليد وإيهامه أنني أريد العمل معه وربط الأواصر بيننا باعتبارنا آقارب يربطنا دمُ واحد، أخبرته أنني أريد بناء فرع جديدٍ لشركتي ولن أجد أفضل من شركته للتعاقد معها، وبسبب مهارتي في الإقناع؛ وافق وليد وأمضينا العقود سويًا، وأعطيته مبلغًا جيدًا من المال ليبدأ تنفيذ المشروع.

وعندما تأكدتُ أنه بدأ العمل في مشروعي، تسللتُ إلى المسؤول عن توصيل مواد البناء، واتفقتُ معه على تبديل مواد البناء بأخرى رديئة غير صالحة للاستخدام، ولأنه كان رجلًا طماعًا يُحب المال ويستعد للتضحية من أجله، وافق فوَرًا على خطتي واتفقنا على تبديل المواد.

بدأ العمال ببناء شركتي الوهمية تحت إشراف وإدارة وليد الذي توّلى كل شيءٍ بمهاراته وذكاءه الفائق، كان يعمل بإخلاصٍ كعادته، ويحرص على بناء أفضل وأجود المباني، لكن خطته هذه المرة باءت بالفشل بسبب تلك المواد السيئة التي استخدمها العُمال عنوة.

فبعد بناء الجزء الأول من المبنى، تهاوت البناية مرة واحدة وقُتل العديد من العمال، كانت كارثة بحقٍ، وأتت الشرطة للبحث في هذا الأمر، وبعد التحرّيات، أثبتت الشُرطة أن وليد يستخدم موادًا غير مطابقة للمواصفات مما أدى إلى هدم البناية وفُقدان العديد من الضحايا الأبرياء؛ تدمّر بعدها مُستقبل وليد، وحجزت الشرطة على شركته وأمواله، كما أنه أرغم على إعادة أموالي والاستماع الي كلماتي المعاتبة المزدرية التي بصقتها بوٌجهه لأنه " دمٌر حٌلم حياتي وقتل الأبرياء"

تدهوٌرت علاقة وليد بزوجته التي طلبت الطلاق فوٌرًا وسافرت هي وأبناءهما، كما أن صورته بين العائلة تغيٌرت مئة وثمانون درجة وأصبح الجميع ينعته بالسوء والفساد، حتى والدته التي بكت حسرة على فلذة كبدها وتمنت الموت قبل إنجابه.

وكُنت بين ذلك كله أبتسم ابتسامة واسعة مُبطنة وأعد ذاتي أن امبراطوريتي ستبدأ أخيرًا، فجميع العوائق قد انزاحت، ولم يبقى الآن سوى التنعُم في أواصر الراحة والخيلاء.....

أدركتُ بعدها مقولة " الغاية تُبرر الوسيلة " جيدًا، فإن لم أسر على هذا النهج لمَ اتجهت حياتي إلى المثالية التي هي عليها الآن، أصبحتُ فخر العائلة أخيرًا ومصدر اعتزازهم أمام الجميع، حتى والداي لم يتوّقفا عن الثناء علي ومدحي في جميع الأوقات، فأنا الآن أدير شركة كبيرة وعلى وشك الزواج من أميرة أحلامي، ولا يعيقني أي عاقبة تجعل حياتي مُضمحلة.

زادت معارفي الضعفين وأصبحتُ أربح نقاشات العائلة ومناظراتها بسبب قُدرتي على الإقناع التي اكتسبتها من القراءة والممارسة، قررتُ كذلك أن أتوّقف عن الألاعيب وأرضى بمَ لدي لأحيا حياةً مسالمة وهادئة، حياةً أتمناها مُنذ نعومة آظافري.

وفي عام 2009_عام النكسة بالنسبة لي_ تحوّلت حياتي مئة وثمانون درجة، كانت هذه ليلة زفافي، وكُنتُ أجلس على مقعدٍ وثيرٍ وبجواري ملكة أحلامي وبطلة حكايتي ليان، ترتدي رداءها الأبيض الساحر وتبتسم لي ابتسامتها المرحة الجذابة، حتى أنني من كثرة جمالها لم أكن منتبهًا على المعازيم أو مراسم الحفل.

اعتجت القاعة بالسفراء وأصحاب الشركات وجميع أفراد عائلتي بما فيهم نافع الذي عمِلتُ على إصلاح علاقته بأبويه طوال هذه الفترة، هنئني الجميع وتمنى لي السعادة والعيش في السلام قبل أن نلتقط العديد من الصوّر ونرقص على العديد من الأغنيات.

-إيه رأيك في الفُستان ؟ .... عمال تبحلق فيا من الصُبح ولغاية دلوقتي مقولتش رأيك

سألتني ليان ببسمة طفولية جعلت بسمتي تتسع هي الأخرى لألتقط بعدها كفها الرقيق وأقبله قبلة دافئة تمعنتُ فيها بملامحها الساحرة وأنا أقول:

-كان نفسي اعرف أقولِك رأيي .... بس مفيش كلام يوّصف جمالِك

ابتسمت لي بسمة خجولة أحنت معها وجهها وجذبت أناملها المُرتبكة بعيدًا عني، كادت تهم بالحديث معي بطبيعتها المرحة لولا هذا العامل الذي اخترق جلستنا بحديثه الجاد:

-مُسلم بيه ..... في حد بيقول إن العربية إللي جيتم بيها مركونة غلط والحكومة عايزة تشيلها بالونش .... لازم حضرتك تيجي بسرعة عشان السوّاق مشي

أطلقتُ زفرة سائمة من ذاك المُتعنت الذي يريد اقتطاع سعادتي من أجل تلك الأمور الغبية، وأمام إلحاحاته وإصراره على مجيئي وصف السيارة في مكانٍ آخر، قررتُ الاستئذان لبضعة ثوانٍ حتى أرى ما الذي سأفعله حيال هذا الأمر.

خرجتُ من القاعة مع ذاك المؤظف باتجاه سيارتي التي اكتشفتُ أنها ليست مُصطفة في مكانٍ خاطيء، فجميع السيارات الأخرى تصطف بنفس الطريقة، لكنني تغاضيتُ عن ذاك الأمر واستقليتُ السيارة حتى أنتهي من هذا الأمر وأعوّد مجددًا إلى مالكة فؤادي، تحركتُ بضعة أمتارٍ بالسيارة واصطففتها في مكانٍ آخر قريب، ثم ترجلتُ منها وعزمتُ على العودة إلى القاعة مجددًا لولا هذا الصوّت الذي كاد يُدمر أذناي.

تيبس جسدي على الأرض في صدمة وأنا أستمع إلى صوّت الصراخ والاستنجاد القادم من مكان قريب .... نعم، من داخل القاعة!!
لاح الذعر على جنباتي وأنا أهرول بأقصى ما لدي متغاضيًا عن ضربات قلبي المتسارعة والعرق الذي يتصبب على جبيني، كُنت ألهث من كثرة الركض حتى توّقفتُ أمام القاعة مباشرة لتزداد صدمتي وأنا أرى النيران تتصاعد في السماء لتخلق هذه الغيوم السوداء الكثيفة.

تنفستُ الصعداء وأنا أدور حول نفسي بتيهٍ ولا أعرف ماذا أفعل، كيف حدث ذلك ومتى ؟ لا أعرف حقًا، كل ما أعرفه أن الجميع الآن في خطر .... عداي!!

تجاهلتُ الأدخنة والنيران وأنا أهروّل صوّب بوابة القاعة الخشبية أحاول فتحها بلا فائدة، أشعر بسخونة تجتاح جسدي من الجهة الأخرى وتجعلني أعتقد أنني أقف بالقُرب من الصفيح الساخن، والمقبض كان الأكثر سخونة خاصة وهو مؤصدٌ بإحكام ويمنعني من الدخول.

تلفتُ حوّلي في ذعرٍ قد تملك مني وأنا أحاول الاستنجاد بلا فائدة، فلا أحد قريبٌ من تلك القاعة وكأنني وحدي بهذا العالم، بقي فؤادي يدُق في ذعرٍ وخوفٍ قد تحوّل مرة واحدة إلى صدمة وأنا أرمق مجموعة من الرجال أعرفهم جيدًا، يقفون على أعتاب القاعة يرمقونني من بعيد وعلى ملامحهم الخُبث والشماتة؛ صككت على أسناني بغلٍ دفينٍ وأردتُ الانقضاض عليهم وتدميرهم، لكن ليس الآن، يجب أن أعثر أولًا على طريقة لإنقاذ عائلتي.

دُرت حول القاعة بأقدامٍ مهرولة ولو كُنت أمتلك هاتفي لمَ اتصلتُ بالإطفاء فورًا، لكنني تركتُ هاتفي بالداخل، وجدتُ أخيرًا إحدى النوافذ الزجاجي فحطمتها بإحدى الحجارة واخترقتُ القاعة دون أن أنتبه لتلك الشظايا التي مزقت ملابسي وآلمتني.

التصق جسدي بالأرض وتصاعدت أنفاسي المذعورة وأنا أرمق الأجساد المحترقة والصرخات المستنجدة من النساء والأطفال والجميع، كِدت أنهار في تلك اللحظة وأنا لا أعرف ماذا أفعل، أشعر أنني عاجزُ لدرجة تجعلني أنهار كبناية شاهقة.

هروّلتُ في كل مكانٍ بين النيران المحترقة والصرخات المستنجدة، وحتى الجُثث المتفحمة، حاولتُ العثور على بصيص أملٍ بين هذه النيران ولم أجد، فليس كل ما يُضيء يبعث بداخلنا الأمل، احترقتُ قدمي بسبب النيران لكنني تغاضيتُ عن ذاك الحرق وواصلتُ الهرولة رغم أنفاسي التي بدأت تختنق.

توّقفتُ عن الحركة حالما استمعتُ إلى صرخات ليان تضرب بأذني كما تضرب السيول الحجارة، وجدتها تجلس على الأرض برداءها المُحترق وقدماها الحمراوتان المُتسلختان، تنهمر الدموع على وجنتها وهي ترمقني من بعيد وترفع يدها نحوي حتى آتي لإنقاذها.

-ليـــان!!

صرختُ بأعلى ما لدي حتى تتماسك ولا ترحل عن العالم الآن، فأنا بحاجة إليها، لا أريد أن أصبح وحيدًا، لكن يبدو أن القدر يُريدني أن أشقى.

رأيتها آخر مرة وهي ترميني بنظراتٍ مُنكسرة موجوعة ودموعها تسيل بلا توٌقف، وقبل أن أتحرك نحوها لأنقذها، فاجئتني هذه المصابيح المُحترقة وهي تسقط من الأعلى، باتجاه ليان مباشرة!!

-ليـــان!!!

صرختُ باسمها مرة أخرى حتى تحشرج صوٌتي من قوة صرختي، انهمرت دموعي بغزارة وأنا أهوي على الأرض أمام جثة ليان المُتفحمة، ضاقت الهِوة بي أكثر وشعرتُ بأنفاسي تختفي تدريجيًا، كل ما شعرتُ به الآن هو القهر والضياع، وما آضاف عليهم هو هذه الدموع الساخنة التي تسيل على وجنتي وتحرقني الضعفين، ليست عائلتي وليان هُم فقط من احترقوا، فأنا أيضًا قد احترقتُ في هذه الليلة....

غِبتُ عن الوعي بعدها لأفق وأجد نفسي داخل إحدى المشفيات الحكومية، وبجواري أحد الأطباء يقول أنني أفقتُ من غيبوبة دامت لشهرٍ كامل، أخبرني كذلك أنني الناجي الوحيد من ذاك الحريق المدمر الذي لا تعرف الشُرطة حتى الآن سببه، لكنني أعرف، وأعرف أيضًا أنني لن أترك هذا الأمر دون أن أنتقم.

وثبتٌ عن الفراش أتحسس تلك الحروق التي تركت ندباتها على قدمي وذراعاي، تركتُ المشفى بسرعة قبل أن أمتثل للعلاج الكامل، فالعلاج لن يُجدي نفعًا طالما أن قلبي مُحطمًا.

بقيتُ لأيامٍ طويلة داخل حُجرتي السوداء لا أفعل شيئًا سوى النوم والبكاء على الأطلال، تذكرتُ والداي وحنانهما رغم تهكماتهما، تذكرتُ عائلتي التي كانت تفتخر بي وتعدني مصدر إلهامها، لكنني أكتشف أنني السبب أيضًا في وفاتهم، فأنا المقصود من الحريق وليس هُم، من أشعل هذه النيران آرادني أن أتحطم وأصلٌ إلى تلك الحالة.

باتت معالم وجهي شاحبة، وملابسي سوداء داكنة، باتت نظرات الرُعب والجمود جزءًا مني، تناسيتُ الابتسام والسعادة، وتناسيتُ الاحساس بما يحدث حولي، فكل ما أشعر به الآن هو الاحتراق، أشعر بغضبٍ يكاد يُدمر العالم.

لم أكن أريد تدمير حياتهم وإزاحتهم عن طريقي كما فعلتُ سابقًا، فهذا لن يشفي غليلي، أريدهم أن يختفوا تمامًا عن العالم، أريد أن أحرقهم كما أحرقت روما قرطاجَ !!

تركتُ وحدتي بعدها وسلطتُ طاقتي المتبقية في الاستعداد للانتقام وتحقيق القصاص، تدربتُ على استخدام السلاح جيدًا و ضاعفتُ تماريني القتالية التي أفرغتُ معها العديد من الشُحنات، أما بالنسبة لشركتي، قررتُ بيعها لإحدى روّاد الأعمال لعدم قُدرتي على إدارتها والتمتع بها، فمن كنت أفعل ذلك لأجله ذهب ولن يعُد أبدًا.

وبعد عامٍ كامل من التمرينات المُكثفة والتخطيط المتواصل، أدركتُ أنني جاهزُ للانتقام، سأجعلهم يدفعون ثمن هذا الأروح البرئية التي هُدرت بسببهم.

وفي إحدى الأيام، كُنت أراقب هذا الأرعن من بعيد وهو يترك المتجر الذي بدأ يعمل به مؤخرًا، يتجه صوّب سيارته الذهبية ببرودٍ كما لو أنه لم يرتكب جريمة للتو، رؤيته من بعيد وهو يتصرف بتلك الطبيعة جعلت الدماء تتدفق بعروقي وجعلتني أتقدم نحوه بملابسي السوداء التي ساعدتني على الاختفاء في الظلام، وهذا القناع الأسود الذي غطيتُ به فمي مع تلك القبعة التي جعلتني أشبه بزعيم عصابة أمريكية.

انتظرته قليلًا حتى يفتح باب سيارته لأهرول أنا بدوّري وأفتح الباب من الجهة الأخرى؛ شهق بصدمة من مجيئي وظن أنني لصُ حقيرٌ يريد سرقة سيارته.

-إنت مين!!

سألني بذعرٍ لم يُغير من نظراتي الحادة وأنا أخرج سلاحي كاتم الصوّت في الخفاء متفوّهًا:

-يا تتحرك يا تتشاهد

ازدرد ريقه في خوفٍ من نبرتي المُهددة ورؤيته لسلاحي الموّجه صوّبه؛ تحرك بالسيارة دون أن ينبس ببنت شفة وكُنت أعرف أنه يكاد يموّت هلعًا، خاصة وأنا أراقبه بأعينٍ ثاقبة وأمنعه من مهاتفة الشُرطة.

بقي يتحرك بسيارته وفق تعليماتي وتهديدي حتى توّقف في بُقعة نائية، أمرته أن يترجل من السيارة وأنا أصوّب السلاح نحوه فنفّذ تعليماتي وهو يتوّسل لي بعينيه حتى أتركه وشأنه، وما إن ترك السيارة حتى ترجلتُ أنا الآخر من الناحية الأخرى وأنا أطالعه بنظراتي المُرعبة وأرفع سلاحي نحوه، وثبتُ أمامه مباشرة أتأمل نظراته المستغيثة التي تُصيبني بالانتشاء، رفعتُ قناعي لأكشف عن هوّيتي وأصيبه بالصدمة التي لم يلحق الشعور بها بسبب كلماتي:

-نسيت أقولك إنك هتتحرك .... وهتتشاهد

أنهيت حديثي برصاصة خرجت من سلاحي وأصابت رأسه من منطقة الصفر؛ انفجرت دماءه على الأرض وهوّى بدوّره جُثة خالية من الحياة، راقبتُ جثته ببرودٍ وغلٍ دفينٍ قبل أن أنتشلها عن الأرض وأعيدها داخل السيارة التي دفعتها بدوري حتى سقطت من أعلى التل وانفجرت كليًا، لكنني لم أرى النيران وهي تتصاعد حتى لا تجتاحني تلك الرجفة وتلك النوّبة التي باتت تأتيني مؤخرًا.

ذهبتُ بعدها صوّب دراجتي النارية التي تركتها على مقربة من تلك البُقعة النائية، رحلتُ من ذاك المكان وأنا أعلم أنني تخلصتُ من أول رجلٍ بالقائمة .... دياب العشري

وكان الثاني بالقائمة أكثر سهولة، فالقتل أول مرة أعطاني الشجاعة لأواصل الانتقام، والهدف الثاني تخلصتُ منه بطريقة أسرع وأهوّن، فقط تعيّن علي أن أرتدي زي عامل التوّصيل وأحمل تلك الوجبات السريعة صوّب هذا المنزل المُراد، لازلتُ أغطي وجهي بهذا القناع الأسود وتلك القبعة الرمادية، ولازالت نظراتي الحادة تُحيط بملامحي، دققتُ الجرس ببرودٍ وبقيتُ أمام الباب حتى فتح لي هذا الرجل الذي يقطن بمنزلٍ صغيرٍ بإحدى الأحياء الفقيرة.

أعطيته عُلبة البيتزا وانتظرته قليلًا لأراه يفتح العُلبة ويتبلم مكانه إثر تلك الرسالة التي تركتها داخل العُلبة والتي كانت:

"غلطة الشاطر بعشرة .... وإنت غلطتِك بموّتك"

اتسعت حدقتيه في صدمة بعد أن قرأ هذا الكلام ورفع وجهه نحوي ليراني أكشف عن وجهي وأرمقه بنظراتٍ حادة كالصقر الذي يرغب بالانتقام، استمعتُ إلى ضربات قلبه وأنا أقف مكاني حتى سقطت العلبة من بين يديه وكاد يهم بالصراخ والاستنجاد بالجيران لكنني سبقته بإطلاقي لرصاصتين متتاليتين على صدره جعلت جسده يتهاوة إلى الوراء.

أحنيتُ جذعي قليلًا لأتفقد نبضاته وأتأكد أنه فارق الحياة، وحالما تأكدتُ من ذلك، تلفتُ حوْلي لأتأكد من عدم وجود الجيران، فالساعة الآن قد تشارف على الثانية عشر بعد مُنتصف الليل.

أدخلت جُثته داخل المنزل وأغلقتُ بابه بهدوءٍ دون أن أكترث لقتلي لهذا الأرعن .... سمير حفنت

بعد تخلصي من ضحيتين، بات الانتشاء يعتريني كلما تذكرتُ أن بإمكاني قتل المزيد والانتقام إلى عائلتي وحبيبتي، بات غضبي وغلّي الدفين يصل إلى عنان السماء، أصبحت الدماء تزورني في أحلامي وفي كل الأوقات.

وبإحدى الليالي المُثمرة، كُنت أتجوّل بالقُرب من تلك الحانة النجسة أدُخن سيجارتي في انتشاء وأطوّف بعيناي الباردتان بحثًا عن هدفي الثالث، دلفتُ إحدى الحجرات لأجد لفائف التبغ والممنوعات تفترش الطاولة وحوّلها العديد من الشباب، لكن فوْر مجيئي ورؤيتهم لنظراتي الثاقبة، انفض جمعهم وقاموا بتحيّتي قبل رحيلهم من تلك الحجرة تاركين ورائهم هدفي الثالث الذي كان يجلس بانتشاءٍ على الأريكة يضرب على يده موّضع العروق استعدادًا لأخذ جرعة أخرى من تلك السموم.

جلستُ على المقعد بجواره أتابعه في صمتٍ وجمودٍ لأمد يدي بعدها وأنتشل منه هذه الإبرة متفوّهًا ببسمة مزيفة خبيثة:

-عنك يا معلمة .... كدة ممكن تموت أوفر دوز .... خليني أنا أديهالك

ابتسم لي بسمة ممتنة وهو لا يزال في عالمٍ آخر لا يسعه تمييز حديثي، أمسكتُ بمرفقه بدوّري وبدأتُ أملس على عروقه بحرفية أنهيتها بإخراجي لإحدى الإبر

وغرسها بين عروقه، ما إن انتهيتُ حتى وجدته يسترخي بظهره للوراء ويُغلق عينيه بهدوءٍ ثم يفتحهما بأريحية لا أعتقد أنه شعر بها مُسبقًا.

-ياااه .... الواحد حاسس براحة محسش بيها قبل كدة

ابتسمتُ بسخرية وأنا أعقب بإبهام:

-ولسة هتستريح أكتر بعد شوية

رمقني بحيرة وتيهٍ لفترة وجيزة قطعها وهو يسترخي بظهره للوراء ويُملس على رقبته بعد أن شعر بأنفاسه تتقلص:

-إلا صحيح اسم الكريم إيه ؟ .... ومخبي وشك كدة ليه ؟

بدأ يلتقط أنفاسه بصعوبة وأنا أتابعه بجمود حتى تحوّل وجهه إلى كتلة حمراء دامية أخذ يحني جذعه معها وهو يقول بإجهاد:

-هـ.... هو في إيه ؟

عاود السُعال مجددًا حتى خرجت الدماء من فمه وكادت تخرج من عينيه، بدأ يختنق أمامي تدريجيًا حتى تقدمتُ نحوه وأنا أعطيه الماء وأربت على ظهره ببرود:

-إشرب إشرب .... يمكن تبقى آخر مرة تشرب فيها

رفع رأسه نحوِّي بآلية ليجدني أزيح القناع عن وجهي وأكشف عن هوٌيتي التي جعلته متبلمًا يشعر بحماقته:

-مـ.... مُسلم !! ... إنـ .... إنت عملت فيا إيه ؟

قالها وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ويُصدر تأوهاتٍ مكتومة من جوفه، طالعته أنا بانتشاء جعلني أجيبه ببرود:

-إنت أكتر واحد اتساهلت معاه .... يمكن عشان كنت أول صاحب ليا في الجامعة .... أصل العشرة متهونش إلا على ولاد الحرام

أنهيتُ الحديث ببسمة شيطانية أمام سعاله واختناقه ودموعه التي بدأت تفر من عينيه وهو يقول بتوّسل:

-والله العظيم وليد هو إللي أقنعني أعمل كدة ... كـ....كان عايزني انتقم منِك .... إنت إللي دمٌرت ... دمرت مُستقبلي الأول

تغيرتُ عوالمي الباردة مئة وثمانون درجة وتحوّلت إلى عوالم خاصة بشيطانٍ حاقد، قطبتُ حاجباي بحدة وأنا أقول لمنير الذي يلفذ أنفاسه الأخيرة أمامي:

-ما إنت لو راجل كُنت أخدت حقك مني أنا .... مش من ناس بريئة .... بس الخسيس هيفضل خسيس ... عشان كدة لازم يموٌت...

تهاوى جسده على الأرض وبدأ يتلوّى في ألمٍ أمام كلماتي المتشفية:

-أنا حقنتك بسيانيد .... مادة سامة كانو بيستخدموها في عمليات الاغتيال ضد الحُكام الكبار .... عشان تعرف بس غلاوٌتك عندي...

توٌقف منير عن التلوّى وسكنتُ حركته تمامًا فبقي على الأرض جُثة هامدة تخرج الدماء من فمه، اتجهتُ بدوٌري صوٌب الطاولة لأخذ الإبرة التي حقنته بها وأضعها بين آصابعه ثم أترك الحانة بنظراتٍ مُنتصرة وابتسامة ماكرة لم تفارقني أبدًا....

لم يتبقى سوى واحدٌ فقط وسأنتهي من هذا الأمر، سأخبر ليان أنني لم أيأس ولم أترك دماءها تذهب هباءً، سأخبر جميع هذه الأرواح البريئة أنني جعلتهم يفتخرون بي حتى بعد وفاتهم.

يقولون أن آخر الطعام هو أكثره لذة، لذلك تركت هذا الهدف آخرًا، حتى أتلذذ بمعاقبته....

أجلس الآن في جوٌف الظلام أنتظر الاستماع إلى هذه الخطوات التي ناطحت أذناي وتبعها ولوج هذا الضوء الشارد الذي بدد عتمة هذه الحجرة الصغيرة، كُنت أضع القدم فوق الأخرى وأنا ألوٌح بمديتي أمام وليد الذي أطلق شهقة مصدومة من رؤيته لي داخل حجرته الصغيرة أرمقه بنظراتٍ جحيمية ووجهٍ مكشوفٍ آصابه بالرُعب:

-إنـ.... إنت دخلت هنا إزاي ؟

تقطع صوٌته وبات الرُعب والهلع في كلماته لأنتهز أنا هذه الفرصة وأنا أجيبه ببرودٍ ودهاء:

-مش مُهم دخلت إزاي .... المهم دخلت ليه ؟

وثبتُ عن المقعد وأنا أتقدم نحوه وأستمع إلى ضربات فؤاده المتسارعة والتي تجتمع مع نبرته الهلعة:

-اخرج من هنا وإلا هبلغ البوليس

ارتجف بدنه وهو يتحدث ويستمع إلى كلماتي:

-توء توء توء .... إيه يا ليدو ..... هتبلغ عن ابن خالتِك ؟

اتكأتُ على آخر كلماتي لأؤكد أن ما يربطنا هو دماءٌ حية قام هو بتلطيخها، وكان هو يستمع إلي بنظراتٍ مذعورة وأقدامٍ تتقهر إلى الوراء حتى حاصرته بزاوية الغرفة:

-إلا قولي صحيح يا ليدو .... هي أمك محاكتلكش قصة الأرنب والذئب وإنت صغُير ؟

رمقني بنظراتٍ جاحظة وبقي صامتًا حتى ابتسمتُ بسمة متشفية قُلت معها:

-وأنا بقول لمين ؟ ..... ما طبيعي إللي قتل أمه مش هيكون عارف الحكاية دي .... بس مش مشكلة ... أن هحكيهالك

رفعتُ رأسي لأعلى وأنا أقصُّ عليه بطريقة تحاكي طريقة الأم وهي تقص على أبناءها إحدى الحكايات لكن بطريقة أكثر سوداوية:

-كان يا مكان ... يا سعد يا إكرام .... إلا صحيح هي اسمها يا سعد يا إكرام ولا يا سادة يا كرام ؟...

بقي صامتًا أمام نبرتي الباردة والساخرة التي واصلتُ بها:

-مش مهم .... كان يا مكان .... كان في أرنبة مخلفة أرنب صغير وبتحبه جدًا .... وكان في جنبهم غابة كبيرة مليانة شجر وفاكهة .... بس كان فيها تعلب مكار ..... فالأم كانت خايفة على ابنها وقالتله ميروحش الغابة .... وابنها قالها إنه هيسمع كلامها

تقدمتُ أكثر نحو وليد وأنا أطالعه بنظراتٍ جحيمية أكملت بها الحكاية:

-وفي مرة الأرنب شاف نفسه .... وقال إنه مش خايف من الذئب .... وإنه يقدر يروح الغابة .... وفعلًا راح ... بس عارف إيه اللي حصله ؟

حدقتُ بمُنتصف عينيه وأنا أواصل متكئًا على حروف كلماتي:

-الذئب خطفه .... وأكله بسنانه

فهِم وليد قصتي التهديدية فازدرد ريقه في هلعٍ قال معه بتقطعٍ:

-إنت عايز إيه ؟ .... مش كفاية إللي عملته ؟.... أنا حياتي اتدمرت بسببك_

قطعتُ حديثه بعد أن فاض بي الكيل ووجدتني أنفجر بوجهه:

-تقوم تقتل ناس بريئة ؟ ..... للدرجادي مش قادر توّاجهني_

-أنا مقتلتش ناس بريئة .... هما كانو مُذنبين زيهم زيك .... إنت المفروض تشكرني عشان خلصتك من تحكماتهم

صرخ بوجهي بتلك الكلمات حتى تحوّل وجهه إلى كتلة حمراء جعلتني أواجهه بنفس طريقته:

-ومقتلتنيش معاهم ليه ؟ .... مش أنا إللي دمرتلك حياتك ؟

وجدته يُجيبني بنبرة تحمل من الغل ما حمله هتلر من ضغينة اتجاه اليهود:

-لأني كُنت عايز اشوفك بتتعذب زيي .... كُنت عايز اشوفك مكسور زي ما إنت خلتني كدة .... أنا مبقتش قادر أبص في وش الناس بسببك .... بقيت عايش هربان من السجن عشان انتقم منك

بدأ يضحك بهيستيرية وهو يواصل:

-بص تعرف .... أنا حسيت بجد إني انتقمت بعد ما شوفتك مكسور وحياتك متدمرة

أزيح الخوف من ملامحه بعد هذه الكلمات التي جعلت المراجل ترتفع بداخلي وتجعل الدماء تتدفق بعروقي، دفعني عن طريقه ليبتعد عن حصاري وهو يقول ببعض التهديد:

-اتفضل اخرج من هنا قبل ما أكلم الشُرطة

اتجه نحو الباب حتى يترك الحُجرة لكنني قبضتُ على رقبته من الوراء وبدأت بالهمس بالقُرب من أذنه كفحيح الأفعى:

-إنت مين قالِك إني مكسور وحياتي متدمرة ؟ ..... مين قالك إني مش هعرف آخد حقهم ؟

حاول نزع يدي عن رقبته وهو يقول باختناق:

-محدش هيصدقك .... محدش هيصدق إن ... إن الحريق كان بفعل فاعل

رسمتُ بسمة شيطانية وأنا أجيبه:

-ومين قالك إني عايز حد يصدقني ؟.... أنا هاخد حقي بإيدي .... وزي ما أخدت حقي منهم...

أخرجتُ مدٌيتي باليد الأخرى وقربٌتها من رقبة وليد وأنا أنهي كلماتي:

-هاخد حقي منك إنت كمان

تناثرت الدماء من رقبته إثر نحري لعُنقه وتجاهلي لتلك الدماء التي لطخت ثيابي، رمقتُ جُثته المذبوحة بازدراءٍ قبل أن أغلق مديٌتي وأتجه مجددًا صوٌب النافذة التي دلفتُ المنزل من خلالها، فلا يجب أن أرحل من الباب حتى لا يلتقطني الجيران وأجهزة المراقبة....

عُدتُ إلى المنزل مرتاحًا أشعر أنني أديتُ رسالتي وأتممتُ مُهمتي، ذهبتُ أولًا إلى مقبرة ليان أبكي أمامها وأطلب منها السماح والمغفرة، اتجهتُ إلى مقبرة والداي وعاتبتهما قليلًا لأنهما السبب في شعوري بالنقص الدائم، أردتُ أن أبدأ حياةَ جديدة وأتناسى هذه الأيام السوداوية، لكن الأمر لم ينجح أبدًا، فكلما أغلقتُ عيني، أجد الجُثث والدماء يتمثلان أمامي، أرى نفسي ملطخًا بالدماء يعتليني نظراتٌ شيطانية خالية من الحياة، آراني أذبح أحدهم وأقتنص من دماءه ما يكفي لبقائي على قيد الحياة كما لو كنتُ مصاصًا للدماء، فارق النوم جفوني ولم أعُد أرى سوى تلك الأرواح التي اقتنصتها وهذا الصوٌت الذي يُخبرني أن أقتنص المزيد.

لم أعد أجد شغفًا بالعمل والتجارة، فهي بالأساس لم تُكن حلمي رغم براعتي بها، بدأتُ بالبحث عن المزيد من الأهداف لأرضي انتشائي، وأواصل انتقامي الذي لن ينتهي أبدًا، وقع بين يدي العديد من الأهداف السائغة والشخصيات الشيطانية التي وُلدت لتُفسد العالم، تخلصتُ من السيد عبد العزيز أباظة مساعد وزير المالية الذي كان يسرق الأموال من خزينة الدولة ويُتاجر بالممنوعات، تخلصتُ من زكريا أبو زيد رجل الأعمال المشهور الذي يُدير شبكة تتاجر بالأطفال، قتلتُ المزيد والمزيد

من الرموز المُخزية للدولة، ومع كل روحٍ أقتنصها أشعر معها أن روحي تتجدد بالمقابل.

تناسيتُ وقتها ما ربتني عليه عائلتي، وما تعلمته من ديني، فما أفعله الآن لا يتوافق مع جميع الديانات، تحوّلتُ تدريجيًا من مُجرد مُنتقم، إلى قاتلٍ مُتسلسل يستهدف الضحايا ورجال الأعمال، بقيت أسطورتي تنتشر بالصُحف بهوية مجهولة، كُنت أعلم جيدًا أنني لن أبقى هكذا طوال حياتي، فالأسرار إن طال إخفاءها، ستنكشف في يومٍ من الأيام.... وهذا اليوم كان بالسادس من أغسطس عام 2012.

هذا العام أسميه عام الذروة، ففيه انكشفت هوّيتي، وعلِمت الشُرطة هذا القاتل المُتسلسل الذي يستهدف كبار الدولة، تتبعتني في كل مكانٍ وزمانٍ، كُنت مراقبًا طوال الوقت، وعندما تخطت الشرطة الحدود، وأثبتت التُهم علي، قررتُ السفر بعيدًا، وكانت أقرب طائرة أجدها، تتجه إلى فرنسا.

سافرتُ إلى فرنسا قبل أن تُصدر الشرطة قرارًا بمنعي من السفر، وعندما سافرت هناك، لم أكن أعرف ما علي فعله بعدها، لا أريد أن أبقى قاتلًا يتنقلُ من دولة إلى أخرى خوّفًا من الشُرطة، كما أن ضميري بدأ يُعذبني في تلك الأيام، ربما بسبب ابتعادي عن حياتي السوداوية ورؤيتي لحياةٍ أخرى وأوجه غريبة.

حصلتُ على وظيفة بإحدى المطاعم التي تُقدم أطيب المأكولات الفرنسية الحلال، كُنت نادلًا في باديء الأمر قبل أن أتعرف على مالك المطعم وأبهره بنظرياتي التسويقية التي لفتت نظره وسرعان ما عيُنني مسؤولًا عن الدعاية، بعدها عرّفني على صديقه السيد أنطوان جازيه، مالك متجرٍ لمُنتجات العناية بالبشرة، ولأنني كُنت أعمل سابقًا في هذا المجال، كان لنظرياتي التسويقية جزءًا في اجتذابه هو الآخر حتى قرر تعييني مسوّقًا في إحدى متاجره.

كانت حياتي خاوية لا تحمل أيًا من الأهداف، وصلتُ إلى أقصى مراحل فُقدان الشغف، فلا شيءٍ يلهيني عن أفكاري السوداوية، حتى أنني أعمل صباحًا ومساءً حتى لا أُترك وحيدًا مع أفكاري.

ابتاعتُ منزلًا صغيرًا بإحدى أحياء ليون وقررتُ أن أبدأ مجددًا من الصفر، لكن كيف أبدأ من الصفر وأنا بالأساس في القاع، كُنت أقرأ العديد من الكتب لعلها توّقف أفكاري، لازالت الكوابيس تطاردني وتجعل النوم يهرب من جفوني، حتى أنني اتخذتُ من الأسود شريكًا لي في ملابسي وملامحي وكل ما يُحيطني، لم أعُد قادرًا على التعبير عمَ يجيش به صدري، لم أعُد قادرًا حتى على البكاء أو الابتسام، فقط الجمود هو كل ما يعتريني، وفي كل مرة أنوّي فيها العودة إلى بلدتي، لا أعرف ما الذي يحدث ويجعلني أبقى، يبدو أنني أجبن حتى من المواجهة.

لا أشعر بالذنب مما ارتكبته من أخطاء، لكنني أشعر بالذنب لعدم مواجهتي للأمر، كان يجب أن أخبر العالم عن سبب ارتكابي لتلك الجرائم، كان يجب أن أخبرهم أنني عانيتُ من الشعور بالنقص والرغبة بإبهار الجميع حتى دمرتُ العديد من الأشخاص، يبدو أن ما قاله وليد كان صحيحًا، الانكسار يأتي أحيانًا من أقرب الناس إلينا، ولأنني ترعرعتُ مع عائلة لا تُعجبها العجب، اضطررتُ أن أدعس على الجميع حتى أنتهي من تهكماتهم الدائمة.

ظننتُ أنني سأصعد الدرجات وأعتلي أعلى المراتب، لكن ما حدث أنني هوّيتُ لأسفل من القاع، ولا يوجد أمامي الآن سوى انتظار الموت البطيء، الموت الذي أشعر به يوميًا....

تقربتُ أكثر من الله وعُدتُ إلى صلاتي وقرائتي للقرآن، فأنا أريد أن أتوّب إلى الخالق قبل أن تنتقل روحي إلى بارءها، حاولتُ نفض هذه الذكريات عن ذهني ومواصلة حياتي الجافة حتى تأتيني القُدرة للعودة والمواجهة، وأثناء حياتي الباهتة الخاوية، وجدتُ إيمان أمامي لأول مرة.

عندما ظهرت إيمان أمامي بالصدفة، لم أكن أراها سوى ليان، نفس طريقة ارتدائها للحجاب، ونفس طريقة حديثها الساذجة وتهوّرها الذي يأتي فجأة، نفس إصرارها وعدم استسلامها للحياة، حتى أن اسميهما يحمل نفس السجع، أذكر أنني في هذه الليلة رأيتُ ليان بالحُلم وهي تحثني على مساعدتها، فأنا لم أساعد ليان، فربما أستطيع مساعدة إيمان والتكفير عمَ فعلته سابقًا، أو ربما إيمان هي إشارة لي حتى أبدأ من جديد.

بقيتُ أساعدها لآخر لحظة رغم أنني أعرف كيف سينتهي عليه الأمر، وفي كل مرة أساعدها وأعرض حياتنا للخطر، كُنت أتمنى أن تُزهق روحي، خاصة ونحن بفلسطين، عرضتُ حياتي أكثر من مرة حتى ألقى حتفي ولا أواجه أخطائي بمِصر، وفي كل مرة أُعرض فيها حياتي للخطر، ينتهي الأمر بي وأنا سالمًا معافى، فيبدو أن الله لا يُريدني أن أهرب مجددًا..

وها أنا الآن، أجلس داخل مركز الشُرطة مُكبلًا بالأغلال، أرتدي الثياب البيضاء لأن الحُكم لم يُصدر علي بعد، اعترفتُ بجميع جرائمي أمام الشُرطي وكُنت أعرف أن نهايتي ليست جيدة، لكنني مع ذلك لم أنهر أو حتى أعترض، فالنهاية أعرفها مُنذ البداية.

بقيتُ في تلك الحجرة لبضع ثوانٍ قطعها صوّت الباب وهو يتم فتحه لتدلف منه إيمان وعلى وجهها نظراتُ الانكسار وخيبة الأمل، أعلم أنها الآن تُريد أن تصرخ بوجهي وتلومني على كذبي عليها، فأنا أيضًا أخفيتُ عنها حقيقتي السوداوية كما فعل معها شارون....

أبعدتُ نظراتي عنها حتى لا تتقابل عيناي المنطفئة بعينيها المُنكسرة، بقينا لفترة وجيزة في حالة سكونٍ تامة وكأننا غير قادرين على الحديث، بقيت إيمان تطالع هيئتي حتى وجدتها تقول بصوّتٍ هاديء:

-ليه ؟ .... جيت هنا ليه وإنت عارف إللي هيحصلك ؟

تعجبتُ من سؤالها بعد أن ظننتها ستسألني عن سبب إخفائي للحقيقة، حاولتُ أن أرفع عيناي نحوها لكنني لم أستطع فوجدتني أجيبها بنظراتٍ ضائعة:

-بسببِك .... إنتِ اللي شجعتيني أرجع

رفعتُ عيناي قليلًا وأنا أقول بدموعٍ مُتحجرة:

-أنا واحد جبان ..... مبعملش حاجة غير الهروب .... ولما شوفتِك مستعدة تدخلي النار برجليكِ عشان خاطر بنتِك .... حسيت إني جبان أكتر وإني لا يُمكن أفضل كدة طول حياتي

ترقرقت الدموع من عينيها وهي تقول:

-بس إنت كدة مش بتواجه ؟ .... إنت كدة بتنتحر_

قطعتُ حديثها وأنا أهتف بثباتٍ حمل معه الرضا:

-مش مهم .... أنا عارف إن دي النهاية من الأول .... ومش مُعترض ... أنا خلاص وجودي مبقاش ليه لازمة

انحدرت الدموع من عينيها أكثر وهي تقول بألم:

-بس أنا مش عايزاك تمشي....

تنفست الصُعداء وبدأت تكفكف دموعها وهي تواصل بنبرة أهدأ:

-أنا مش فارق معايا لو كانو بيقول عليك قاتل أو مجرم .... لأن أنا عارفة ومتأكدة، إن إللي ساعدني ووقف جنبي .... لا يُمكن يبقى مُجرم

باتت كلماتي حادة وأنا أقطع حديثها وأعنفها على بقاءها مع مجرمٍ مثلي، ربما لأنني أريدها أن تبتعد، لا أريدها أن تتعلق بشخصٍ حياته مرهونة بالموّت، لذلك يجب أن أدفعها بعيدًا عني، حتى لو اضطرررتُ إلى محادثتها بقسوة:

-لأ مُجرم يا إيمان ..... أنا عملت كل حاجة غلط ممكن تتخيليها .... قتلت وخدعت وسرقت وكل حاجة .... أنا كُنت بساعدِك بس لأني عارف أخرتي .... وعارف إن هييجي اليوم إللي هتعاقب فيه .... عشان كدة مش عايزِك تفتكري إني كُنت موجود في حياتِك في يوم من الأيام

تنهدتُ بعُمقٍ أمام نظراتها المُنكسرة ودموعها المترقرقة، أردتُ أن أصرخ بوجهها حتى ترحل ولا تُعذبني بدموعها أكثر، لكنني لم أستطع، ملامحها المنكسرة كانت أشبه بالسلاسل النارية التي تُقيدني وتجعلني أحترق.

-إنسيني .... أرجوكِ انسيني وابعدي عني ..... إنسي إنِك عرفتي حد اسمه مُسلم .... وخلِّي جورج وآنابيا كمان ينسو .... أنا مش عايز اعذبكم معايا أكتر من كدة

انهمرت الدموع أكثر على وجنتيها كشلالات هاجرة لكنها كفكفتهم بسرعة حتى تهتف بثباتٍ وإصرار:

-لأ مش هنسى .... أنا هفضل جنبك لآخر لحظة .... عشان أنا مش قليلة الأصل يا مُسلم

اتكأت على آخر حروفها التي خرجت من فمها بطريقة غاضبة وكأنها تعاتبني على ما قُلته مُنذ قليل، أعتقد أنها شعرت أنني أسبها وأنا آمرها أن تنساني.

أنهت كلماتها الغاضبة ثم رحلت عن الحُجرة وتركتني أتلوى في ضروب الحسرة على هذه الأيام الفائتة، والاستعداد لتلك النهاية المحتومة....

____

17أكتوبر 2015 دار القضاء العالي / القاهرة : مصر

أقف خلف القضبان الباردة استشعر ما يحدث خارجها بقلبٍ ميُت، فأنا أعرف النهاية، كان الرضا يلوح على ملامحي رغم برودة أطرافي وارتجاف قلبي، ظننتُ أنه من السهل أن أستقبل مصيري الأسود بقلبٍ راضٍ، لكن الحقيقة أن جسدي لا يتوّقف عن الارتجاف رغم ملامحي الصلبة التي أرسمها أمام الجميع.

وما زاد عذابي أضعافًا هو رؤيتي لهم من خلف القُضبان وهم يطالعونني بنظراتٍ قلقة منفطرة، خاصة إيمان التي لم تتوّقف عن البكاء، وجورج الذي كان يرميني

بنظراتٍ معاتبة غير مصدقة مُنذ مجيئه إلى هنا، حتى أنه رفض الحديث معي ونهر إيمان لأنها لا تزال تثق بي حتى بعد معرفتها بأنني مجرمًا.

ضرب القاضي على الطاولة حتى يهدأ من بالقاعة ويبدأ جلسته، لم أستمع إلى ما قاله هيئة الدفاع ولا حتى ما قاله المحامي الذي وُكل ليُدافع عني وكان يقف متبلمًا أمام القاضي يعرف أن النهاية محتومة ولا فائدة من العبث بها، فأنا قد اعترفتُ بالحقيقة، وهذه التُهم المنسوبة إلي لا مفر منها حتى إذا أخبرتهم بأهدافي.

أحنيتُ رأسي لأسفل وأنا لا أتوّقف عن طلب المغفرة كآخر شيءٍ أفعله بهذه الحياة، صممتُ أذناي من جميع الأصوات ولم أركز سوى على تلك الأصوات التي تخرج من فؤادي وقلبي الذي رضا بمصيره، بقيتُ مُنعزلًا عن العالم طوال الجلسة حتى عاد القاضي من حجرته ليطرق مجددًا على الطاولة ويهدأ جميع من بالقاعة حتى يستمعوا إلى حُكمه النهائي:

" -أعلنت المحكمة حضوريًا .... على المُتهم مُسلم عكاشة الجسار .... بإحالة أوراقه ... لفضيلة المُفتي" ... !!

الفصل الخامس (النهاية)

((إيمان))

6سبتمبر 2023   القاهرة : مصر

مرور الأيام، لا يعني بالضرورة زوال المحن، فالأوقات القاسية لا تُنسى أبدًا، أثرها باقٍ حتى الرمق الأخير، وأنا في تلك الأيام كنت أحاول التعافي من الكثير من الأمور، أولهم تلك الرحلة التي لاقت صديدًا وحوّلت حياتي مئة وثمانون درجة...

تعلمت العديد من الدروس بتلك الحياة، أولهم : أن الحياة لا تسلب فقط، بل هي تُعطي في المقابل، وكما كانت سببًا في خداعي ومحنتي، كانت سببًا أيضًا في معرفتي بالعديد من الأشخاص والعديد من الثقافات، تذكرتُ أرضوان ورازي اللذان كانا من دولتين وثقافتين وديانتين مختلفتين كليًا، ومع ذلك كانا يحافظان على أواصر الصداقة والوفاء بينهما.

حاولت النبش في المواقع الغربية عمَ حدث لهما حتى علِمت أن رازي حُكم عليه بخمسة أعوام بتُهمة التسُتر على مجموعة من المجرمين، وأرضوان قضى سبعة أعوام بسبب توّرطه معنا في بعض القضايا، وكُاد يترحل إلى بلدته لكنهم لم يفعلوا ذلك.

خرج رازي هو وأرضوان من السجن، فبحثتُ بوسائل التواصل الاجتماعي لعدة أيامٍ حتى استطعتُ أخيرًا التواصل مع رازي، أردتُ فقط أن أطمئن عليه، وأعتذر عن تسببي بسجنهما، وكان رازي يُقابلني بطبيعته البشوشة المتفائلة ويُخبرني أنه بخير وفي أحسن حال، أخبرني كذلك أن عائلته تبُرت منه وطردته من منزلهم لجلبه العار لهم، كذلك قام بقص خصلتيه الطوّيلتين ليُصبح يهوديًا عاديًا وليس متدينًا، حتى أنه بدأ يعمل نادلًا بإحدى الحانات، وقد تدهوٌرت صداقته مع أرضوان بسبب هذه الوظيفة .... حسنًا، لا أعرف لماذا أخبرني أنه بخير.

أما بالنسبة لأرضوان، فقد أخبرني رازي أنه أصبح مؤذنًا في إحدى الجوامع وأصبح يُعطي دروسًا للدين بعد أن نمت لحيته واتجه إلى طريقٍ آخر أكثر مسالمة، حتى أنه

توّقف عن أعماله المشبوهة التي كان يفعلها بالحواسيب، ولا يستخدم حتى وسائل التواصل الاجتماعية.

تذكرتُ راموئيل وبسالتها وكيف غدرت بها الحياة هي وعبود الذي نشأت بينهما قصة حبٍ أسطورية لم تنتهي بنهاية جيدة، تعهدتُ على إخبار صغيرتي بتلك الرحلة حتى تستلهم منها العِبر وتسير على نهجها في حياتها، سأخبرها حقيقة هذا العالم الذي يدّعي السلام والرفاهية، لكنه يغدُر بالمرء بين ليلة وضحاها، سأخبرها أن تتوّخى الحذر من الجميع، ولا تدع أحدهم يهمها بأمورٍ قد تجعل تفكيرها ينحرف إلى أفكارٍ متطرفة.....

أما بالنسبة لمُسلم، فكانت الصدمة تعتليني بعد معرفتي لحقيقته، كُنت أشُك في أمره منذ البداية، لكنني لم أتوّقع أبدًا أن يضحى قاتلًا، بدأت ألعن حماقتي وأنا أتذكر حديثنا سويًا بفرنسا، عندما قال لي أنه سافر حتى يهرب، وأنا البلهاء التي اعتقدته أراد الهرب من ذاته، ليتضح فيما بعد أنه هاربٌ من الشرطة، ومن جرائم فعلها بالفعل، ليست تلك التي ألصقت بنا بالخطأ ونحن في فرنسا.

كذلك استخدامه للسلاح بمهارة، ورؤيته للدماء دون أن يرف له جفن، وملامحه الجامدة الخالية من معاني الحياة، كل تلك الأمور كانت إشارات لي بحقيقته السوداء لكنني لم أكتشفها، وها أنا الآن أجلس داخل الزنزانة، أنتظر رؤيته والاطمئنان عليه، فبعد أن أصدر القاضي حكمه بالاعدام، كِدت أنهار وأفقد وعيي، حاولتُ جاهدة أن أدفع عنه هذا الحُكم، فهو قد عرّض حياته للخطر أكثر من مرة من أجلي، ولا يجب أن أتخلى عنه مهما كانت جريمته، لذلك قدمنا الطعن أكثر من مرة، حتى تحوّل حكمة من الإعدام، إلى المؤبد....

خرجتُ من شرودي عندما ظهر مُسلم أمامي بثيابه الزرقاء وملامحه الشاحبة، نمتُ لحيته أكثر وأصبحت أكثر كثافة، خسر العديد من الوزن وأصبح جسده أكثر هزالة وملامحه لم تكن جامدة كما كانت سابقًا، بل كانت ملامح أقرب للهدوء والرضا، وكان ينظر لي نظراتٍ خاوية دون أن ينبس ببنت شفة:

-عامل إيه ؟

سألته بابتسامة واسعة على ثغري فبادلني بإيماءة هادئة برأسه قال معها بصوّتٍ خافت:

-الحمد لله .... إنتِ عاملة إيه ؟

رمقني بنظراتٍ خاوية وهو يتحدث فأجبته بابتسامة هادئة مُطمئنة:

-كويسة .... وتيا كمان كويسة

أومأ رأسه في هدوء وبقي بعدها في فجوة من الصمت حتى بادرتُ الحديث بلهفة أخرجتُ معها هذا التُرمس الذي أتيتُ به.

-عملتلك رز وبطاطس .... هو صحيح ماما هي إللي عملاهم بس مش مشكلة

مددتُ له الطعام بلهفة بادلها بحركاتٍ جامدة قال معها بفتور:

-تعتبتي نفسِك

-لأ خالص .... أنا بس_

قطع حديثي بجدية تقدم معها بجذعه وبدا وكأنه يحاول اخراج هذا الكلمات التي انحسرت داخله مُنذ بداية جلستنا ومُنذ عدة سنوات:

-إيمان .... شُكرًا .... شكرًا عشان فضلتي واقفة معايا للآخر .... أنا مش عارف هردلِك الجميل ده ازاي وأنا هنا

أحنى رأسه بحرجٍ مع آخر كلماته التي جعلت فؤادي يطرق بهوادة من شدة سعادتي، حتى أنني تقدمتُ بجذعي وأنا أخبره:

-أنا معملتش حاجة .... دا أنا حتى جبت ورق يثبت إنك كُنت متخلف عقليًا عشان تاخد مؤبد بدل إعدام

ابتسم إثر نبرتي المازحة وحقيقة أنني بالفعل حاولتُ إثبات أنه كان يتعالج نفسيًا حتى لا يقسو القاضي في حُكمه، وبعد فترة وجيزة من الصمت تبدلت عوالم مُسلم إلى اللامبالاة والسوداوية أثناء قوله:

-مش مُهم .... كدة كدة هموت في السجن فمش فارقة.....

كانت نبرته خافتة تكاد لا تُسمع لكنني استمعتُ إليها وشعرتُ بالضيق لوهلة لكنني حاولتُ تبديد غمه بقولي المرح:

-منا باجي في كل الزيارات أهو .... وجورج وآنابيا كمان بييجو .... يعني إنت مش لوحدك

ذكرته بزيارات جورج وآنابيا بعد أن فهم جورج دوافعه وقرر مسامحته بسبب ما فعله مُسلم معنا طوال رحلتنا المجنونة، كذلك آنابيا كانت سببًا في مسامحة جورج لمُسلم بسبب قلبها الرقيق وعدم نكرانها للجميل.

ابتسم مُسلم ابتسامة هادئة منطفئة أومأ معها رأسه تأكيدًا وامتنانًا لحديثي ليردف بعدها بامتنان:

-خُدي بالِك من نفسِك .... وخلي بالِك من تيا

أومأتُ رأسي باطمئنانٍ قبل أن يداهمنا صوّت الشُرطي وهو يقول أن الزيارة قد انتهت وعلى المسجون أن يعود إلى سجنه الانفرادي، فبسبب خطورة ما فعله مُسلم، سيتعين عليه البقاء في سجنٍ مُنعزل إلى مدى الحياة، لكنه في جميع الأحاول أفضل عقابٍ يتلقاه، ربما لأنه قرر التوبة في اللحظة الأخيرة، فهو قد أخبرني أنه يحاول التوّبة وطلب السماح مُنذ سفره إلى فرنسا، وأنا أعرف ما يمُر به لأنني أيضًا لازلتُ أطلب السماح على أخطائي، وأفعل ما بوّسعي حتى أبتعد عن المعصية، كذلك آتي لزيارته مرة في الأسبوع حتى أخفف من عُزلته وشعوره بالضياع.....

7نوفمبر 2023   القاهرة : مصر

أنام على فراشي الوثير بجسدٍ مُنهكٍ طغت عليه قسوة الحياة، ففي الفترة الأخيرة، استطعتُ العثور على وظيفة في إحدى شركات الانتاج الصغيرة، صحيحٌ أنها شركة لا تزال في بدايتها وراتبي بها لا يتعدّى البضع آلاف، لكنني راضية، فأنا أعمل مُخرجة للأفلام الوثائقية كما أتمنى، أعمل باحترامٍ وتقدير، لستُ عبدة في دولة غربية....

استيقظتُ على صوّت دندنة بصوّتٍ ناعمٍ رقيقٍ يتغنى بتلك الكلمات بالقُرب من أذني :

-جينا نعيّدكم ... في العيد بنسألكم ... ليش ما في عندنا ... أعياد ولا زينة ... يا عاالم ... أرضي محروقة .... أرض الحرية مسروقة....

فتحتُ عيني بثقلٍ وكانت الرؤية مشوشة لكنني استمعتُ إلى غناء تيا التي أضحتُ طفلة جميلة بالثامنة من عُمرها، كانت تجلس بجواري على الفراش تتغني بتلك الأغنية وترتدي ثياب المدرسة، وعندما لاحظتني أستيقظ من النوم هرعت نحوي لتُخبرني بلهفة وبراءة:

-مامي .... أنا حفظت الأغنية إللي إنتِ كُنتِ بتسمعيها امبارح

فركتُ عيني لأزيح الرمق وأستطيع الرؤية جيدًا وأنا أخبرها بفخرٍ خالطه النُعاس:

-برافو يا حبيبتي ... عقبال ما تحفظي المذاكرة

اعتدلتُ في جلستي بكسلٍ لأكتشف أن الساعة قد شارفت على السابعة صباحًا، وكانت تيا تجلس بجواري وتُخبرني:

-تيتا قالتلي أصحيكي عشان الفطار

تمطأتُ وتثائبتً وأنا أحاول الحصول على قدرٍ من النشاط أثناء تربيتي على ظهر تيا حتى تتركني وحدي لأدلف المرحاض وأتجهز لبداية اليوم:

-ماشي يا حبيبتي .... اطلعي برة وأنا هحصلِك

بقيت تيا على الفراش تطالعني بنظراتٍ تحمل كمًا من الأحاديث التي لم أفهمها، حاولتُ تجاهل نظراتها ومواصلة اليوم لكنها فاجئتني بكلماتها:

-مامي ..... هو بابي فين ؟ .... الميس في المدرسة كانت بتسألني عن بابي وأنا معرفتش أقولها إيه

أغلقتُ عيني بنفاد صبرٍ من ذاك السؤال الذي لا أعثر له على إجابة، فطوال هذه السنوات أحاول إخبارها أن والدها واتته المُنية وأنه سافر إلى دولة بعيدة لكنها تصرُ على رؤية صوٌره ومعرفة المزيد من المعلومات عنه، وأنا لا أستطيع ذلك، فهي أصغر من أن تفهم حقيقة والدها المُجرم.

تنهدتُ بعُمقٍ وبدأتُ التربيتُ على كتفها أثناء قولي الحاني:

-منا قولتلِك يا تيا .... بابي مسافر في مكان بعيد ومش هيرجع تاني

لم ترضي كلماتي فضولها البريء فأخذت تحني رأسها بخيبة أمل ثم ترفعها كي تسأل بلهفة:

-طب هو سافر فين ؟ ..... وليه تيتا وجدو ميعرفوش عنه حاجة ؟

تنهدتُ مُجددًا بنفاد صبرٍ قبل أن أدفعها عن الفراش برفقٍ حاولتُ معه انهاء أسئلتها التي لا تنتهي:

-لما تكبري هبقى اقولِك

ربطت ذراعيها بتذمرٍ قطبتُ معه حاجبيها بطفولية قالت معها:

-بس أنا كبيرة

قررتُ هذه المرة تغيير الحديث بقولي:

-صليتي الصُبح ؟

نفت برأسها بصدقٍ جعلني انتهز الفُرصة حتى ادفعها بعيدًا عن الفراش متفوّهة:

-طب ينفع بنوتة كبيرة تكون مبتصليش ؟.... يلا روحي صلِّي قبل ما تروحي المدرسة

أومأت رأسها إيجابًا وهرعت من أمامي نحو المرحاض لتغتسل وتُصلِّي وتتركني أزفر براحة لمرور هذا الأمر على خير، فكلما يتقدم بها العُمر تزداد أسئلتها عن والدها ووظيفته وحياته وكيف رحل وتلك الأسئلة التي اضطررتُ معها أن أريها صورة لوالدها وأخبرها أنه كان يعمل بإحدى المكاتب كما كان يُخبرني بفرنسا، لكنني لن أتطرق أبدًا إلى حقيقته وما الذي فعله معي حتى لا ألطخ طفولتها البريئة.

اغتسلتُ وبدلتُ ملابسي لأتجه صوّب البهو حيث يجلس والداي على الطاولة وأمامهما العديد من الصحون المحتواة على شتى أنواع المأكولات التي يتم تناولها بمائدة الفطور، حيث يوجد البيض المقلي والجُبن والفلافل والبطاطا المقلية وغيرهم، أتت تيا من الداخل لتُقبل والدتي ووالدي بمرح طفولي وتجلس بعدها بجواري لأعد لها بعض الشطائر.

عندما انتهينا من تناول الفطور جهزتُ حقيبة الطعام لتيا ووضعتها داخل حقيبتها المدرسية لتأتي هي بعد أن ارتدت حذائها وصففت شعرها البني المُسترسل لأعلى ليُبرز ملامحها الأجنبية الوسيمة التي أخذتهم عن والدها.

حملتُ حقيبتها المليئة بالكُتب وقرّبتها نحوها لأساعدها على ارتدائها وأنا أراجع معها بطفولية:

-بنقول إيه الصُبح ؟

آجابتني تيا وهي ترتدي حقيبتها المدرسية:

-اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور

قبلتها على وجنتها وأنا أثني عليها بفخر:

-برافو حبيبتي .... يلا بقي عشان متتأخريش

رمقتني بنظراتٍ طفولية سألت معها:

-هو جورج هو إللي هيوٌديني ؟

داعبتُ وجنتها المُكتنزة وأنا أصحح حديثها:

-اسمها أونكل جورج ... وأه يا ستي هو إللي هيوٌديكي إنتِ وبيتر

هرعت نحو الباب بحماسٍ ولهفة لتتقابل مع جورج الذي كان ينزل الدرج مع آنابيا وابنهما بيتر ذو الستة أعوام وشانتل ذات الأربع سنوات والتي كانت مع آنابيا التي من المُفترض أن تذهب معها إلى الروٌضة.

صافحتُ جورج بتُرحابٍ لأجده يتجه إلى تيا ويعناقها بمرح، فجورج يتعامل معها وكأنها صديقته وليست ابنة شقيقته، وتيا كذلك تعامله على ذاك النحو:

-جورج .... خلٌى بالك منها .... ومتأخرهاش على المدرسة

قُلتها بتحذيرٍ لجورج الذي أومأ برأسه تأكيدًا وما هي إلا لحظاتٍ حتى اقترب من بيتر وتيا متفوٌهًا:

-ها يا ولاد .... تحبو تروحو الملاهي وتفكسو للمدرسة ؟

هلل الصغيران بسعادة وموافقة أمام نظراتي الغاضبة التي التقطها جورج فوًرا ليزدرد ريقه ويُعدِّل من كلماته:

-بهزر بهزر .... هنروح المدرسة الأول وبعدين الملاهي ... يلا قدُامي

دفعهما أمامه برفقٍ في مدخل البناية حتى يذهبا إلى السيارة بخطواتٍ متذمرة لرغبتهما الشديدة بالذهاب إلى الملاهي، كاد جورج يتبعهما لولا تلك الأصوات العالية التي باغتتنا وجعلتنا نتوّقف عن السير لنستمع إلى تلك المشاجرة الروتينية...

-ما طبعًا مش مركز .... ما أكيد السنيورة واكلة دماغك

تشدقت يوسي بتلك الكلمات بصوّتٍ مُرتفعٍ تصداه بيشو بنبرته الهجومية:

-سنيورة مين وانا قادر استحملِك عشان استحمل واحدة غيرِك

جلست يولا ابنتهما ذات الرابعة عشر على سور الدرج تشاهد هذا العراك من بعيد دون تدخل لدرجة أنني أشفقت عليها وعلى شقيقها يوسف من شجارات والديهما المتكررة؛ هرعتُ نحو يوسي فورًا لأربت على ظهرها وأنا أحاول تهدئتها:

-إهدي يا يوسي إحنا مش في البيت .... بعدين مينفعش تتخانقو كدة قُدام العيال

أبعدتني يوسي عنها بنظراتٍ غاضبة آشارت معها على بيشو لتُخبره بآصابع الاتهام:

-أنا لو استحملت البني آدم الغبي ده مش بعيد تلاقوني ماشية في الشارع بكلم نفسي

لوِّح بيشو بيده وهو يرُد عليها بهجومية:

-منا مستحملِك بقالي سنين ومجارليش حاجة

رفعت يولا قبضتها لأعلى وأخذت تهتف بتشجيع وفخر:

-أيوة كدة يا بابا إديله

قطبتُ حاجباي بحيرة من لهفتها التي تجعلك تعتقد أنها تشاهد إحدى المباريات الأولمبية، حيث كانت تراقب نظرات يوسي الحانقة التي ردت بها على كلمات بيشو:

-مجرالكش حاجة عشان أنا عقلي يوٌزن بلد

صفقت يولا بحماسٍ وهي تثني على والدتها:

-أيوة يا ماما يا نبع الحنان

صك جورج على أسنانه هو يتقدم من يولا حتى يُبعدها عن هذا الشجار كي يستطيع التدخل وانهاءه في أسرع وقت، فكان يقف بجوارها يُربت على ظهرها متفوٌهًا:

-روحي يا يولا اركبي العربية جنب تيا وبيتر

رمقته يولا بنظراتٍ مترجية قالت معها:

-طب سيبني بس لغاية ما تقول أنا عايزة أتطلق .... أصل أنا مستنياها من أول الخناقة

ترجته بلهفة جعلتني أرمقها بحيرة علٌقت معها:

-هو الغباء طلع وراثة في العيلة بجد ولا إيه ؟

ثم التفتُ مجددًا صوٌب يولا حتى آمرها بصوٌتٍ صارم:

-يلا يا يولا عشان متتأخريش على المدرسة

استجابت لأوامري بتذمرٍ وأخذت تُدبدب على الأرض وتُتمتم أثناء تحركها نحو السيارة، بينما كانت يوسي لا تزال تتشاجر مع بيشو وتتداخل أصواتهما الحادة التي

كادت تُفجر حلمة أذني وتُهدم البناية بأكملها، حتى أنني شعرتُ أن الجيران سيقوموا بالتبليغ عنا.

-إنت المفروض تبوس ايدك وش وضهر عشان أنا مستحملة قرفك وبأكلك وبشربك ولا كأني خلفتك ونسيتك

-دا على أساس إنِك بتصرفي عليا ! .... دا كل الأكل إللي بتحشيه ليل نهار من عرق جبيني

-قصدك يعني إني طفسة !! .... طب وحياة النعمة لانكد عليك واخليك تقول حقي براقبتي

تقدم يوسف ذو الخامسة عشر الذي ازدادت قامته وبات أطوّل من بيشو وأقرب إلى العيدان الخشبية في نحالتها، وبسبب شعره الكثيف وتلك التصفيفة التي يفعلها أغلب المراهقين المتمثلة في تخفيف الشعر عند الجانبين وترك الخصلات التي بالمنتصف كثيفة تنزل على عينيه من كثافتها، فكان شعره أقرب إلى عشة الدجاج، وكان طوله الفارع يسمح له بالاقتراب من والده وإحاطته بذراعه كما لو كان صديقه الذي يواسيه في محنته:

-متقلقش يا بابا .... أنا هقف في ضهرك

التفت بيشو صوّبه ليُطالعه بشكٍ قال معه:

-هتعمل إيه ؟

تردد يوسف قليلًا قبل أن يُجيب:

-إيــه .... هبقى اغطيك وانت نايم على الكنبة

رمقه بيشو بحنقٍ قبل أن يدفعه عنه متفوّهًا:

-اخفى من وشي يلا وروح لاختك

ابتعد يوسف ليذهب إلى سيارة جورج حيث تجلس شقيقته وآقاربه بينما واصلت يوسي شجارها مع بيشو الذي طفق يتراشق معها الكلمات وكأنهما يتشارجان بالروُّضة؛ حاولتُ التدخل مجددًا قبل أن يستيقظ الجيران فتقدمتُ نحو يوسي لأحاوطها بذراعي مجددًا وأنا أسألها:

-إهدي يا يوسي .... إغزي الشيطان وقوللنا إيه إللي حصل

زمت شفتيها بتذمرٍ أخذت تربط معه ذراعيها وهي تشرح بمعاتية:

-يعني يرضيكي يا إيمي ...... أقوله يجيب مربي بالتين ... يروح جايبلي مربي بالمشمش وهو عارف إن أنا مش بحب المشمش

أنهت حديثها بدرامية مبالغ بها جعلتني أشعر أنها ستزرف معها الدموع، وكنت أطالعها أنا ببوادر انفجارٍ قريبة بددتها بكلماتٍ ساخرة وجهتها صوُّب بيشو:

-إخس ... إخس على الرجالة .... إزاي يا راجل تجبلها مربى بالمشمش

آجابني بيشو بجدية طغى عليها الغضب والتبرير:

-ما هي كان عليها عرض

انفجرت يوسي مجددًا بوجهه وأخذت تتطرق إلى تلك السيناريوهات الدرامية التي ترسمها في ذهنها والتي تتمحوَّر دائمًا في الخيانة:

-عليها عرض ولا جايبها للسنيورة ؟

عاوُّد بيشو تراشق الكلمات معها حتى كاد رأسي ينفجر من صراخهما كما كان جورج بالضبط، بينما تقف آنابيا على بُعدٍ منا تراقب ما يحدث بعدم فهمٍ لأغلب الأحاديث، كم تمنيتُ أن أضحى بموُّضع آنابيا حتى لا أفهم شجاراتهما الساذجة.

-بـــاااس .... بس إنت وهي ..... يا تتنيلو تتصافو يا اروح أطلقكم دلوقتي .... ما هو مش كل يوم على الموال ده صدعتوني

صرخ جورج بتلك الكلمات وهو يقترب نحو بيشو ليُربت على ظهره ويدفعه صوٌب يوسي التي كانت تقف أمامه تعقد ذراعيها وعلى وجهها التهكم.

-يلا يا بيشو .... بوس راس مراتك واتصلحو

ثم وٌجه نظراته صوٌب يوسي وهو يقول:

-وإنتِ يا أخرة صبري .... كفاية خناقات هبلة ولادكم دماغهم اتلحس بسببكم

بقيا في حالة من الصمت لبُرهة وجيزة حتى تنهد بيشو قبل أن يتفوٌه بنبرة هادئة:

-حقِك عليا يا بنت الناس .... هبقى اجبلِك المربى إللي بتحبيها .... بعدين مفيش حد يملٌى عيني غيرِك

أنهى حديثه ببسمة هائمة جعلت يوسي تبتسم في خجلٍ وتقول:

-ما إنت عارف إن أنا بغير عليك

اقترب نحوها أكثر حتى عانقها بحبٍ وطفق يتطلع إلى عينيها العسليتين وهو يقول:

-عارف يا حبيبتي .... بس أنا قلبي مفيهوش إلا واحدة بس

جحظتُ عينا يوسي بتأهبٍ سألت معه:

-واحدة !! .... مين دي ؟

اتسعت بسمة بيشو وهو يحجم غضبها بكلماته الحانية:

-هيكون مين يعني .... إنتِ طبعًا .... يلا بقى .... كفاية نكد وارجعي البيت

شهقت يوسي حتى سقط فكها بغضبٍ لتعود إلى نبرتها المتجهمة وهي تقول:

-نكد !! .... قصدك إن أنا نكدية ؟

-أومل لو مش نكدية كنا هنبقى بنتخانق كل يوم !! ..... دا انا لقيت ابنِك فاتح صفحة على الفيس بوك ومسميها " حرب أهلية ودماغهم مهلبية " وعمال ينزل فيها خناقاتنا

-ما طبعًا ... ما هو تربيتك....

ما هي إلا لحظاتٌ قليلة حتى عاودا تراشق الكلمات والتُهم المبالغ بها والمحرفة والتي جعلتني أطالعهما بنفاد صبرٍ قُلت معه وأنا أحاول الهرب:

-لا بقولكم إيه .... أنا صحتي على قدي .... تعالي يا آنابيا نخلع من المورستان ده

آشرتُ نحو آنابيا حتى تتقدم هي وشانتل صغيرتها التي كانت تطالع ما حوٌلها بعدم فهم، فهي أيضًا لا تفهم الكثير من العربية بسبب بقاءها أغلب الوقت مع والدتها التي علمتها هي وشقيقها الفرنسية جيدًا، رحل جورج هو الآخر وتركهما يتشاجران على أمل أن يتوٌقفا يومًا ما، لا أعلم متى سيأتي هذا اليوم، لكنني آمل ألا يؤثر ذلك على أبنائهما.

تركتُ البناية و اقتربتُ من سيارة والدي التي تعلمتُ قيادتها في الفترة الأخيرة حتى لا أضطر إلى استخدام المواصلات العامة، استقلت آنابيا السيارة بجواري وجلست شانتل بالمقاعد الخلفية تتجرع العصير بهدوء، فهي هادئة بريئة على عكس بيتر المشاكس الذي يُشبه جورج في تصرفاته وملامحه بدرجة كبيرة.

استقلت آنابيا السيارة معي لأنني سأقلها إلى الروٌضة الفرنسية التي تعمل بها والتي تذهب إليها شانتل.

ربطت آنابيا حزام الآمان وهي تسألني بعربية متكسرة تعلمتها بتلك السنوات الماضية:

-تيا آملة " عاملة " إيه ؟

أومأتُ رأسي بطمأنينة قُلت معها:

-كويسة الحمد لله .... صحيح لسة بتسأل عن أبوها .... بس غير كدة تمام

همهمت آنابيا على حديثي لتخبرني بفرنسيتها الطليقة:

-لا تقلقي .... لن تعرف الحقيقة

أدرتُ مُحرك السيارة وأنا أقول بأمل:

-أتمنى ذلك....

تذكرتُ أمرًا هامًا فالتفتُ نحوها لأقول بجدية:

-هناك أمرٌ يجب علي إخباركِ به

انتبهت آنابيا لحديثي جيدًا فواصلتُ:

-الفيلم الذي أعمل عليه يحتاج إلى شخوصٍ اجتماعية ذات ملامح أجنبية .... والحقيقة أنا .... لا أعرف غيرك يحمل هذه الملامح الأجنبية ... فااا....

تلجلج صوّتي وتلطخ ببعض الحرج وأنا أحاول اقناعها:

-هل يُمكنكِ المشاركة معي بهذا الفيلم ؟.... لن تحتاجي إلى أن تكوني بارعة بالتمثيل فهذا فيلمُ وثائقي .... وأنا سأخبر جورج وسأعطيكِ أجركِ

رسمت بسمة هادئة على ثغرها وهي توميء بموافقة فاجئتني معها:

-حسنًا....

واصلت بعدها بالعربية:

-إشطا

سعدتُ لموافقتها وقهقهتُ بعدم تصديقٍ من كلمتها التي علقتُ عليها:

-إشطا !! .... بركاتك يا جورج....

____

أجلس على مكتبي الفسيح المكوّن من طاولة مستديرة واسعة أترأسها أنا وفريقي كي نعمل على هذا الفيلم الذي يتحدث عن إحدى الحروب التي حدثت ولقت صديدها في تلك الفترة من الزمن، أفترشت الأوراق الخاصة بالسيناريو المبدئي أمامي وكنت أحاول تقطيع المشاهد وتنظيمها وبجواري أريام زميلتي تقوم بتنظيم جدوّل العمل والاتفاق مع إحدى الفنيين ليساعدنا في ذلك.

كانت تعبث بهاتفها بملامح جدية تتحوّل تدريجيًا إلى الحسرة والضيق، ظننتُ أن هناك مشكلة بالعمل لكنها فاجئتني بكلماتها المتضايقة والمندفعة:

-شوفتي إللي ما يتسمو عملو إيه ؟ .... دول فجرّو مستشفى !! .... أنا بجد مش عارفة إزاي العالم ساكت لغاية دلوقتي....

تحوّلت كلماتها الحادة المدافعة إلى أخرى تحمل الرجاء والدعاء:

-يارب بقى الموضوع ده يخلص والرهاين ترجعلهم ويسيبو غزه في حالها بقى

تنهدتُ بتشفي واستهجانٍ من حديثها الذي أعلم أنه لن يتحقق بهذه البساطة، فهي لا تعرف حقيقة الأمر بعد:

-وإنتِ فِكرِك يعني إن الرهاين دول مُهمين أوي بالنسبالهم .... دا تلاقيهم استغلو الموضوع عشان يقتلو المدنيين

وضعتُ الأوراق على الطاولة والتفتُ نحوّها لأحادثها بجدية:

-بعدين إللي ما يتسمو دول لو عايزين يخلصو على حماس كانو عملو كدة من بدري ..... دول عندهم أجهزة مراقبة تخليهم يعرفو آماكن قوّاد حماس واحد واحد .... لكن هما مش عايزين يتخلصو منهم .... عايزين يوّهمو العالم إنهم في حرب .... وإن المدنيين إللي بيموّتو دول " ضحايا " .... دا حتى إللي ماتو في سبعة أكتوبر كلهم ماتو بسبب جيشهم وبسبب بروتوكول هانيبل إللي بيطبقوه

قطبت أريام حاجبيها بحيرة من حديثي الواثق والجاد مما جعلها تسألني بفضول:

-وإنتِ عرفتي الكلام ده منين ؟

ازدردت ريقي في ارتباكٍ حاولتُ معه مداراة حقيقة أنني ذهبتُ إلى تلك الدولة المزعومة وتعاملتُ مع فتاةٍ كانت عضوة سابقة في جيش الحفاضات هذا، بالطبع لن أخبرها أنني كنت على شفا جرفة من إشعال معركة أخرى وأنني اقتحمتُ بنك اللحم، ليس فقط لأنها لن تُصدق روايتي، بل لأنها من الممكن أن تعتبرني جاسوسة اسرائيلية أتت للإيقاع بالدولة.

-إييه ... عادي يعني .... إستنتاج....

أدرتُ ملامحي المُرتبكة عن نظراتها المستفهمة وبدلْت الحديث إلى نبرة عملية قُلت معها:

-يلا خلصي شُغل .... عايزين نخلص الفيلم قبل راس السنة

أومأت أريام إيجابًا لتلتفت بعدها صوّب الأوراق وتواصل إعداد الجداول متسائلة:

-صحيح إنتِ عملتي إيه في موضوع الشخوص الاجتماعية ؟ .... مش كان ناقصلِك شخصية باين

رتبتُ الأوراق وأنا أجيبها بعملية:

-لأ ما خلاص .... قُولت لمرات أخوية الفرنسية وهي وافقت تشتغل معايا .... بس فكريني أروح لمدير الإنتاج عشان أقوله...

لم أكد أنهي الحديث حتى وجدنا باب المكتب يتم فتحه بغوغائية كما لو أن الشُرطة تحاول اقتحام المكان والقبض على المجرمين، دلفت أسيل إلى الحجرة لتهرع نحو الطاولة كي تجلس عليها وتبدأ عرضها لنشرة الأخبار الاعتيادية:

-بقولكم إيه يا بنات .... شوفتو مدير الإنتاج الجديد ؟

قطبتُ جاباي بحيرة سألتُ معها:

-مدير إيه ؟ .... هو المدير اتغير ؟

أومأت أسيل رأسها وهي تُجيبني بهيام:

-أيوة .... جه بداله واحد أجنبي ... بيقولو إنه كان إعلامي .... بس إيه ...عليه عيون...

أسندت رأسها على باطن كفها وهي تواصل بغزلٍ جعلني أكاد أتقيأ:

-ولا شعره ... ياه .... تقوليش مهند ..... أوف .... يخربيت حلاوة أمه

أغاظتني نبرتها المتغزلة التي جعلتني أضرب بالأوراق على الطاولة وأثب عن المقعد متفوّهة بكلماتٍ قيادية:

-ركزي في شُغلِك إنتِ وهي مش جايين نشقط إحنا .... بعدين الحلويين دول أحيانًا بيبقو خوازيق في الآخر .... وخليكي فاكرة الكلام ده كويس

قُلتها بحدة استندتُ معها على تجربتي الأليمة وهذا الدرس الجديد الذي تعلمته بالحياة، هرعتُ من المكتب ومعي تلك الأوراق التي سأذهب بها إلى مكتب مُدير الإنتاج ليتفق معي على أجور الشخوص الاجتماعية وبقية الأدوات والمُعدات التي سنستخدمها في تصوير الفيلم.

طرقتُ باب المكتب بضع طرقات قبل أن أضع يدي على مقبض الباب وأحاول تنظيم أنفاسي وأنا أتحدث معه لأول مرة، يجب أن أبدأ بمُقدمة افتتاحية أسأله فيها عن أحواله أولًا... لا، يجب أن أدلف في صُلب الموضوع حتى لا يعتقد أنني أتلكأ، ويجب أن أحادثه بالانجليزية، فبالطبع لا يفهم العربية.

حمحمت ليتحشرج صوّتي وهندبتُ ملابسي لدرجة جعلتني أعتقد أنني أذهب إلى المنصة لأتسلم الشهادة بحفل تخرجي، فتحتُ الباب بهدوءٍ ودلفتُ إلى الحجرة وأنا أتطلع إلى الأوراق وأقول بنبرة متسرعة متلهفة لم أعد لها يومًا، يبدو أنني لن أستطيع أبدًا التخلّي عن طبيعتي المتهوّرة.

-أنتهيتُ من أمر الشخوص الإجتماعية .... و ... وسوف..

توّقفتُ عن الحديث بسبب انجليزيتي الركيكة ونسياني لمعاني الكلمات، لكنني واصلتُ بعدها بنبرة متقطعة:

-سوف يأتي جميعهم حينما يبدأ التصوير .... لذلك يجب أن_

رفعتُ رأسي لأعلى ليتيبس جسدي على الأرض وتتسع حدقتاي في صدمة جعلت الأوراق تُفلت من بين يدي وتتناثر على الأرض، ازدردتُ ريقي في رُعبٍ وبِت أشبه بمنٍ يقف داخل كابوسٍ حي، اضطربت ضربات قلبي الذي بتُ متيقنة أنني سأبصقه من هوّل الصدمة.

-ماذا بكِ يا فتاة !! .... كأنك رأيتي عفريتًا

قالها مُدير الإنتاج بنبرة ساخرة خبيثة جعلت لساني ينعقد وأنفاسي تتسارع، فهو بالفعل عفريتًا.

-شـ... شارون!!

نعم، عاد سارق القلوب من الموّت، عاد الغادر ليقذفني في مُستنقعه مرة أخرى، لكن لا ... لقد تعلمتُ الدرس جيدًا، إن كان يعتقد أنني سأنساق مجددًا في مُستنقعه الغادر المليء بالكراهية والدهاء، فأنا سأثبت له أن اللعبة قد انقلبت، والزمن قد تغيُر، أي أنه الآن في مُستنقعي أنا .... مستنقع القوة والشجاعة .... ليس مُستنقع الغدر!!

((تمت بحمد الله))